«روايةٌ بديعة تستحوذ عليك وتأخذك في رحلةٍ مثيرة في أنحاء أمريكا، تلتقي خلالها أغرب المسافرين».

چورچ ر. ر. مارتن






# آلهة أمريكيَّة









Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: American Gods
- العنوان العربي: آلهة أمريكيّة
- طُبع بواسطة: HarperCollins Publishers
- حُقوق النشر:
American Gods: The Tenth Anniversary Edition (Author's Preferred Text). Copyright © 2011 by Neil Gaiman American Gods. Copyright © 2001 by Neil Gaiman
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: هشام فهمي
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2023م
- رقم الإيداع: 20501 / 2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-64-3

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





«روايةٌ بديعة تستحوذ عليك وتأخذك في رحلةٍ مثيرة في أنحاء أمريكا، تلتقي خلالها أغرب المسافرين».

چورچ ر. ر. مارتن

# آلهة أمريكيَّة

نيل جايمان

ترجمة: هشام فهمي




MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB

# تنويه من المُترجم

لا يتميَّز نيل جايمان بالخيال الجامح وجزالة الحكي فحسب، بل أيضًا ببحثه الدَّؤوب في مختلِف الموضوعات التي يتطرَّق إليها في أعماله. يكفي أن تُلقي نظرةً على عدد مَن يُوجِّه إليهم الشُّكر في آخِر الكتاب، لتزويده بمعلوماتٍ في شتَّى المجالات من أجل هذه الرِّواية، وقائمة المراجع التي لجأ إليها وتضمُّ عشرات الكُتب (يُمكنك الاطِّلاع عليها على مدوَّنة جايمان)، لتُدرك الجهد البحثي المبذول في هذا العمل.

يحتوي الكتاب إذًا على العديد من الإحالات والإشارات الثَّقافيَّة، ليس إلى أمريكا فحسب بل بلاد كثيرة غيرها، وإلى فُلكلور شعوبٍ عديدة وأساطيرها ودياناتها وتاريخها، وأيضًا إلى بعض الأعمال الأدبيَّة والفنيَّة، وهي تفاصيل قد يستغلِق بعضها على غير الملمِّين، وبالتَّأكيد استغلقَ بعضها عليَّ في أثناء التَّرجمة، فكان لا بُدَّ من لجوئي بدوري إلى مراجع ومتخصِّصين في مجالاتٍ ولُغاتٍ مختلفة لكي أستوعبها.

ولأن أكثر تلك التَّفاصيل ثريٌّ مفيد، ويُلقي مزيدًا من الضَّوء على نقاطٍ معيَّنة في القصَّة ويُوضِّحها، فقد رأيتُ أن تتضمَّنها التَّرجمة، بشرط ألَّا تُفوِّت على القارئ عامل التَّشويق أو تكشف له حدثًا مستقبليًّا. لذا ستجد في متن النَّص هوامش المُترجم التَّقليديَّة التي تقتصِر على ما يكفي لمتابعة الأحداث، أمَّا التَّعليقات التي تشرح إحالةً إلى أسطورةٍ أو حدثٍ تاريخي ما، أو عملٍ فنِّي أو أدبي، أو تُضيف معلومةً ذكرَها المؤلِّف خارج الكتاب، أو تُفسِّر اتِّخاذ قراراتٍ معيَّنة في التَّرجمة، وغير ذلك، فمجموعة في **مُلحق التَّرجمة** بنهاية الكتاب، ومُشار إليها داخل النَّص بالأعداد الرومانيَّة.

شخصيًّا، أنصحُ بالاطِّلاع عليها بعد الفروغ من الرِّواية، ولكن لك أن ترجع إليها في أثناء القراءة إذا أردت. في الحالتيْن، أظنُّك ستجدها مفيدةً.

**هشام فهمي**


MOHAMED KHATAB

# طبعة الذّكرى العاشرة

## نصّ المؤلّف المفضّل


MOHAMED KHATAB

إلى الصَّديقيْن الغائبيْن...

كاثي آكر

وروچر زلازني

وكلّ ما بينهما من محطّات.




MOHAMED KHATAB

# مقدِّمة طبعة الذِّكرى العاشرة

لا أعرفُ ما تنطوي عليه قراءة هذا الكتاب. أعرفُ فقط ما انطوى عليه أن أعيش كتابته.

في عام 1992 انتقلتُ إلى أمريكا، وبدأ شيء يتبلوَر في مؤخِّرة عقلي. راودَتني أفكار لا علاقة لبعضها ببعض، أفكار أدركتُ أنها ذات بال، وإن لم تبدُ لي مترابطةً: رجلان يلتقيان على متن طائرة، السيَّارة على الجليد، أهميَّة خدع العُملة... وفوق أيِّ شيءٍ آخَر، أمريكا، هذا المكان الهائل الغريب الذي وجدتُ نفسي أقيمُ فيه عالمًا أني لا أفهمه. لكنني أردتُ أن أفهمه، وأكثر من هذا، أردتُ أن أصفه.

ثم إنني توقَّفتُ في آيسلندا خلال رحلة طيران، وهناك شاهدتُ مجسَّمًا سياحيًّا مصغَّرًا لأسفار ليف إريكسن، وتجمَّعت الخيوط كلُّها معًا. كتبتُ رسالةً لوكيلي الأدبي ومحرِّرتي شرحتُ فيها موضوع الكتاب، وأعلى الرِّسالة خطَطتُ «آلهة أمريكيَّة»، واثقًا بأن ذهني سيتفتَّق عن عنوانٍ أفضل.

وبعد أسبوعيْن أرسلَت إليَّ محرِّرتي نموذجًا لغِلاف الكتاب، يظهر عليه طريق ولسان برق، وبالأعلى يقول العنوان: «آلهة أمريكيَّة»، فبدا لي أنه العنوان اللَّائق للكتاب الذي أخطِّطُ لكتابته.

في آنٍ واحد وجدتُ فكرة تصميم الغِلاف قبل تأليف الكتاب منفِّرةً ومفرحةً للغاية. علَّقتُ الغِلاف على الجِدار ونظرتُ إليه شاعرًا بالرَّهبة، وقد اختفى إلى الأبد كلُّ ما يدور في عقلي من أفكارٍ عن العثور على عنوانٍ أفضل. هذا هو غِلاف الكتاب. هذا هو الكتاب.

والآن ما عليَّ إلَّا أن أكتبه.

كتبتُ الفصل الأوَّل خلال رحلةٍ بالقطار من شيكاجو إلى سان دييجو، وواصلتُ السَّفر، وواصلتُ الكتابة. من منياپوليس إلى فلوريدا قدتُ سيَّارةً، وسلكتُ بها طُرقًا خلفيَّةً واتَّبعتُ مساراتٍ خطرَ لي أن شادو سيتَّبعها في الكتاب. كتبتُ، وأحيانًا إذا وجدتُ نفسي عالقًا عند نقطةٍ ما، كنتُ أخرجُ على الطَّريق. أكلتُ فطائر الپاستي في شبه جزيرة مشيجن العُليا وكُرات الهَشپَپي المقليَّة في القاهرة، وبذلتُ قصارى جهدي لكيلا أكتب عن أيِّ مكانٍ لم أزُره.

كتبتُ روايتي في أماكن كثيرة؛ في منازل بفلوريدا، وكوخٍ على بُحيرةٍ بويسكونسن، وغرفة فندقٍ بلاس ڤيجس.

تبعتُ شادو في رحلته، وإذا لم أعرف ماذا حدثَ لشادو كنتُ أكتبُ واحدةً من قصص «المجيء إلى أمريكا»، ولدى بلوغي نهايتها أجدني أعرفُ ما يفعله شادو فأرجعُ إليه. أردتُ أن أكتب ألفَي كلمةٍ يوميًّا، وإذا كتبتُ ألفًا فقط في اليوم شعرتُ بالرِّضا.

أذكرُ لمَّا فرغتُ من كلِّ شيءٍ في المسوَّدة الأولى، أنني قلتُ لچين وولف -وهو أبلغ كاتبٍ أعرفه حكمةً، وله روايات أبدع مما كتبَ أيُّ رجلٍ قابلته- إنني تعلَّمتُ الآن كيف أكتبُ روايةً، فابتسمَ بلُطفٍ وأخبرَني: «المرء لا يتعلَّم كيف يَكتُب روايةً أبدًا، بل يتعلَّم فقط كيف يَكتُب الرِّواية التي يَكتُبها حاليًّا».

وكان محقًّا. لقد تعلَّمتُ كيف أكتبُ الرِّواية التي كتبتها لا أكثر، ومع ذلك فالرِّواية التي تعلَّمتُ أن أكتبها غريبة ولا بأس بها. طيلة الوقت كنتُ أعي كم هي قاصرة عن الكتاب الذَّهبي البرَّاق المثالي الجميل الذي تصوَّرته في عقلي، ورغم ذلك أسعدَتني.

في أثناء كتابتي هذا الكتاب أطلقتُ لحيتي ولم أقصَّ شعري، وحسبَني كثيرون غريب الأطوار بعض الشَّيء (باستثناء السويديِّين الذين استحسَنوا هذا وقالوا لي إن أحد ملوكهم فعلَ شيئًا مشابهًا للغاية، ولكن ليس بسبب

رواية). عند نهاية المسوَّدة الأولى حلقتُ اللّحية، وبعد فترةٍ قصيرة تخلّصتُ من الشَّعر المبالَغ جدًّا في طوله.

أمَّا المسوَّدة الثَّانية فكانت في الغالب عمليَّة تنقيبٍ وتوضيح، فنمَّيت اللّحظات المحتاجة إلى نُمو، وشذَّبت اللّحظات المحتاجة إلى تقصير.

أردتُ أن يكون الكتاب عن عدَّة أشياء. أردتُ كتابة روايةٍ كبيرة وغريبة وملأى بالانعطافات، وفعلتُ هذا، وهكذا خرجت. وأردتُ كتابة روايةٍ تتضمَّن كلَّ ما في أمريكا من بقاعٍ استحوذت عليَّ وأبهجَتني، وهي في الغالب البقاع التي لا تظهر أبدًا في الأفلام ومسلسلات التليفزيون.

أخيرًا فرغتُ من الكتاب وسلَّمته مستمدًّا قدرًا معيَّنًا من الارتياح من هذه المقولة القديمة: إن أفضل تعريفٍ للرِّواية أنها قطعة طويلة من النَّثر فيها عيب ما، ولقد كنتُ واثقًا تمامًا بأنني كتبتُ روايةً على هذا الغرار.

شعرَت محرِّرتي بالقلق من أن الكتاب الذي أعطيته لها أكبر قليلًا من اللّازم ومليء بالانعطافات (وإن لم تُمانِع غرابته الشَّديدة)، وأرادتني أن أشذِّبه، وقد فعلتُ. أظنُّها كانت على حقٍّ في بديهتها، لأن الكتابَ نجح بكلِّ تأكيد، فبيعَت منه نُسخ كثيرة، وحالفَه الحظُّ السَّعيد ليفوز بعددٍ من الجوائز، منها «نبيولا» و«هيوجو» (بالأساس في فئة الخيال العلمي)، و«برام ستوكر» (في فئة الرُّعب)، و«لوكس» (في فئة الفانتازيا)، وهو ما برهنَ على غرابة الرِّواية البالغة، فحتى مع رواجها لم يكن أحد متأكِّدًا من الفئة التي تنتمي إليها.

لكن ذلك حدثَ في المستقبل. أوَّلًا كان يجب نشر الكتاب، وقد فتنَتني عمليَّة النَّشر وأرَّختُ لها على الإنترنت في مدوَّنةٍ أطلقتها لهذا السَّبب (ولو أنها مستمرَّة حتى اليوم). عند نشر الكتاب ذهبتُ في جولة توقيعٍ عبر الولايات المتَّحدة، ثم المملكة المتَّحدة، ثم كندا، وأخيرًا الوطن. كان أوَّل توقيعٍ للكتاب في يونيو 2001 في فرع «بوردرز بوكس» بمركز التِّجارة العالمي، وفي 11 سبتمبر 2001، بعد أيامٍ قليلة من عودتي إلى الوطن، لم يَعُد لتلك المكتبة ولمركز التِّجارة العالمي وجود.

أدهشَني استقبال الكتاب.

لقد اعتدتُ حكي قصصٍ يحبُّها النَّاس أو قصصٍ لا يقرأونها، وآنذاك لم يكن قد سبقَ لي قطُّ أن كتبت شيئًا يُسبِّب انقسامًا، إلَّا أن هذا الكتاب جعلَ

النّاس إمَّا يحبُّونه وإمَّا يكرهونه. مَن كرهوه، حتى إذا أحبُّوا كُتبي الأخرى، كرهوه كراهيةً حقيقيَّةً. بعضهم اشتكى من أن الكتاب ليس أمريكيًّا بما فيه الكفاية، وبعضهم قال إنه أمريكي أكثر من اللّازم، أو إن شخصيَّة شادو لا تُثير تعاطُف القارئ، أو إنني فشلتُ أن أفهم أن الدِّيانة الأمريكيَّة الحقيقيَّة هي الرِّياضة، وهكذا. كلُّها -بلا ريب- انتقادات وجيهة، لكن في النِّهاية، وفي الغالب، وجدَ الكتاب جمهوره، وأظنُّ أن من العدل القول بأن الأكثريَّة أحبَّته ومستمرَّة في حُبِّه.

يومًا ما، كما آملُ، سأعودُ إلى تلك القصَّة، فشادو أكبر عشرة أعوام الآن، وكذلك أمريكا، والآلهة منتظرة.

**نيل جايمان**

**سبتمبر 2010**

# ملاحظة على النَّص

الكتاب الذي بين يديك مختلف بعض الشَّيء عن الكتاب الذي نُشِرَ من قبل.

بعد النَّشر بفترةٍ قصيرة، رتَّب بيت آتكنز وبيتر شنايدر، الشَّريكان في «هيل هاوس للنَّشر»، وهي دار نشر مستقلَّة صغيرة (توقَّف نشاطها للأسف)، مع ناشري الكتاب في الولايات المتَّحدة لإصدار طبعةٍ خاصَّة من «آلهة أمريكيَّة»، وإذ أخبراني عن المفاجآت الرَّائعة التي يعدَّان لها من أجل تلك الطَّبعة المحدودة -وهي شيء خطَّطا أن يكون معجزةً في فنِّ صناعة الكُتب- بدأتُ أشعرُ بالمزيد والمزيد من الانزعاج نحو النَّص الذي سيستخدمانه.

بشيءٍ من الاستحياء سألتهما: أهما مستعدَّان لنشر نصِّي الأصلي غير المشذَّب؟

واتَّضح أنهما مستعدَّان.

ثم ازدادَ الأمر تعقيدًا، فقد أدركتُ -بالطَّبع- أنني بعد تشذيب «آلهة أمريكيَّة» أجريتُ تصحيحاتٍ تحريريَّة وتغييراتٍ أخرى، كثير منها للأفضل، وبناءً عليه فالوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أحدهم تكوين نصِّ نهائي من «آلهة أمريكيَّة»، هي مقارنة نُسختي النِّهائيَّة غير المحرَّرة بنسختي النِّهائيَّة المحرَّرة، ثم بالنُّسخة النِّهائيَّة المطبوعة (لأنني، بكلِّ مرح، خططتُ بعض

التَّغييرات على بروفة الطِّباعة، وبمرحٍ مماثل لم أكلِّف نفسي عناء تسجيلها)، ثم اتِّخاذ عددٍ من القرارات بناءً على تقديره.

كان قدرًا هائلًا من العمل، ولذا فعلتُ الشَّيء العقلاني الوحيد بإمكاني في ظلِّ تلك الظُّروف: أرسلتُ عددًا كبيرًا من ملفَّات الكمبيوتر الضَّخمة ونسختين من الرِّواية (الطَّبعتين الإنجليزيَّة والأمريكيَّة) إلى پيت آتكنز، ومعها القائمة التي وضعتها بأخطاء العمل والغلطات المطبعيَّة التي لاحظتها منذ نشر الكتاب، وطلبتُ منه أن يفرز كلَّ هذا، وهو ما فعلَه بامتياز. ثم أخذتُ المخطوطة التي أعدَّها پيت وراجعتها بنفسي، فأصلحتُ بعض الأشياء ونظَّمتُ بعضها، وأحيانًا أعدتُ إدراج بعض الفقرات التي كنتُ قد حذفتها لأسبابٍ لا تقتصر على اختزال الكتاب، لأصل في النِّهاية إلى نُسخةٍ أخيرة من الكتابِ أشعرَتني بالرِّضا التَّام (باعتبار أن الرِّواية دومًا، كما ذكرتُ من قبل، ما هي إلَّا قطعة طويلة من النَّثر فيها عيب ما).

نشرَت «هيل هاوس» الرِّواية في طبعةٍ محدودة من 750 نُسخةً تقريبًا (وُصِفَت بأنها «معجزة في فنِّ صناعة الكُتب»، ولم يكن هذا تعليق النَّاشر هذه المرَّة)، وكانت النُّسخة باهظة الثَّمن. شعرتُ بالامتنان لأن ناشريَّ وافقوا على طرح النُّسخة المطوَّلة من الكتاب في الذِّكرى العاشرة لنشره، وفي طبعةٍ أكبر كثيرًا من 750 نُسخة، وبثمنٍ أقل كثيرًا.

طبعة «آلهة أمريكيَّة» التي تُمسِكها الآن أطول بنحو اثني عشر ألف كلمة من الطَّبعة التي حصدَت الجوائز، وهي أكثر طبعةٍ أفخرُ بها.

أودُّ أن أشكر چنيفر هرشي محرِّرة الكتاب الأصليَّة، وچنيفر برِل التي أشرفَت على ولادة هذه الطَّبعة، وفوق الجميع أودُّ أن أشكر پيت آتكنز على مساعدته في تحضير هذه المخطوطة.

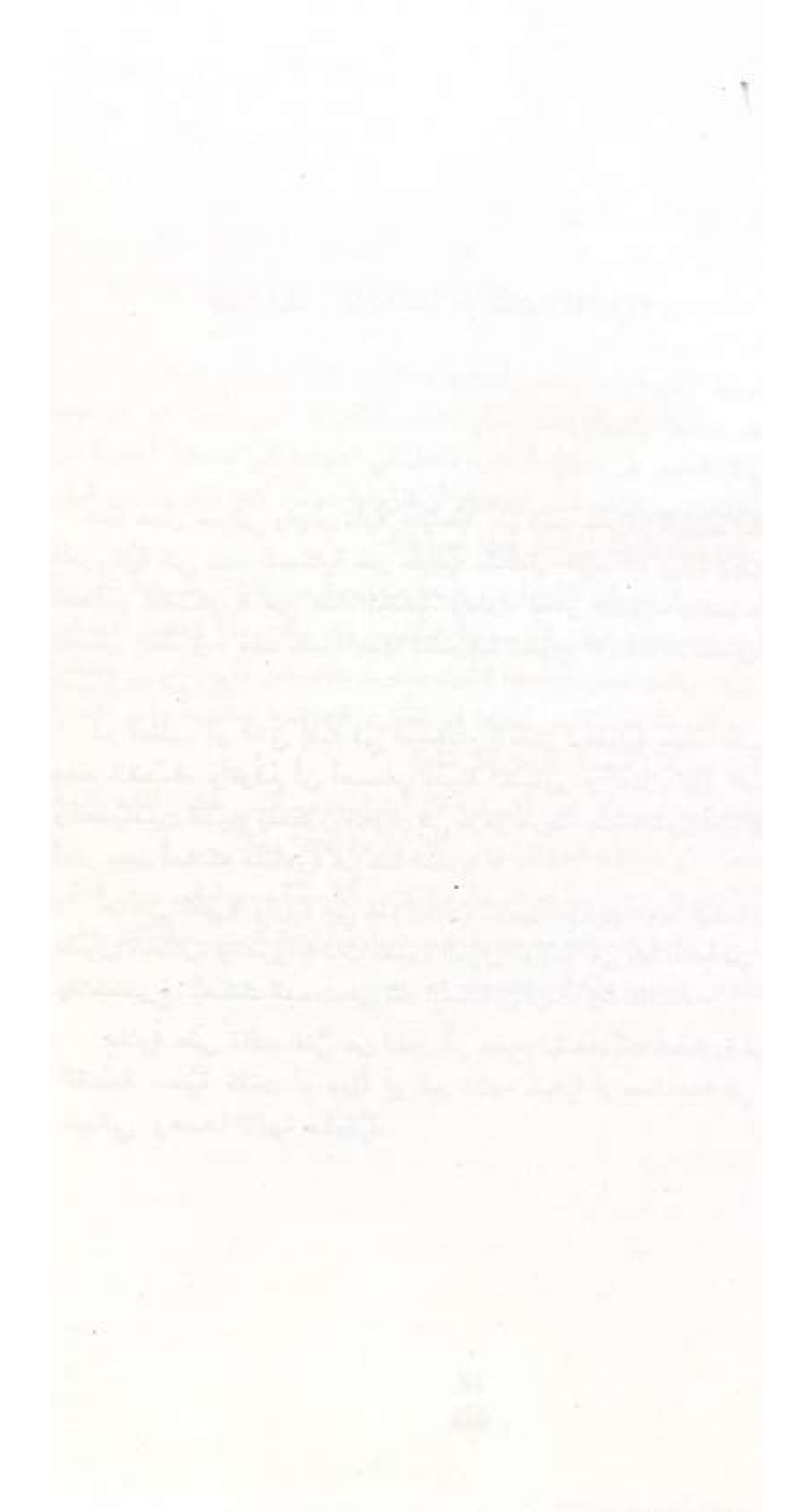
# تنبيه، وتحذير للمسافرين

هذا عمل خيالي وليس دليلًا سياحيًّا. لئن كانت جغرافيا الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في هذه الحكاية غير خياليَّة بالكامل -فبإمكانك زيارة الكثير من المعالم المذكورة في هذا الكتاب، وسلوك بعض الدُّروب، ورسم خرائط لبعض الطُّرق- فقد كتبتُ عنها بتصرُّف، تصرُّفٍ أقل مما قد تتخيَّل، لكنه تصرُّف رغم ذلك.

لم أطلب أو أتلقَّ إذنًا في استخدام الأماكن الحقيقيَّة حينما تظهر في هذه القصَّة، وأتوقَّعُ أن أصحاب مدينة الصُّخور أو المنزل فوق الصَّخرة، والصيَّادين الذين يملكون الموتل في مركز أمريكا، سيندهشون مثل أيِّ أحدٍ آخَر يجد أملاكه مذكورةً في هذا النَّص.

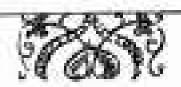
أماكن كثيرة واردة في هذا الكتاب أخفيتُ مواقعها؛ بلدة ليكسايد على سبيل المثال، والمزرعة ذات شجرة المُرَّان الواقعة على بُعد ساعةٍ من جنوب بلاكسبرج. يُمكنك البحث عن تلك الأمكنة إن أردت، وقد تجدها.

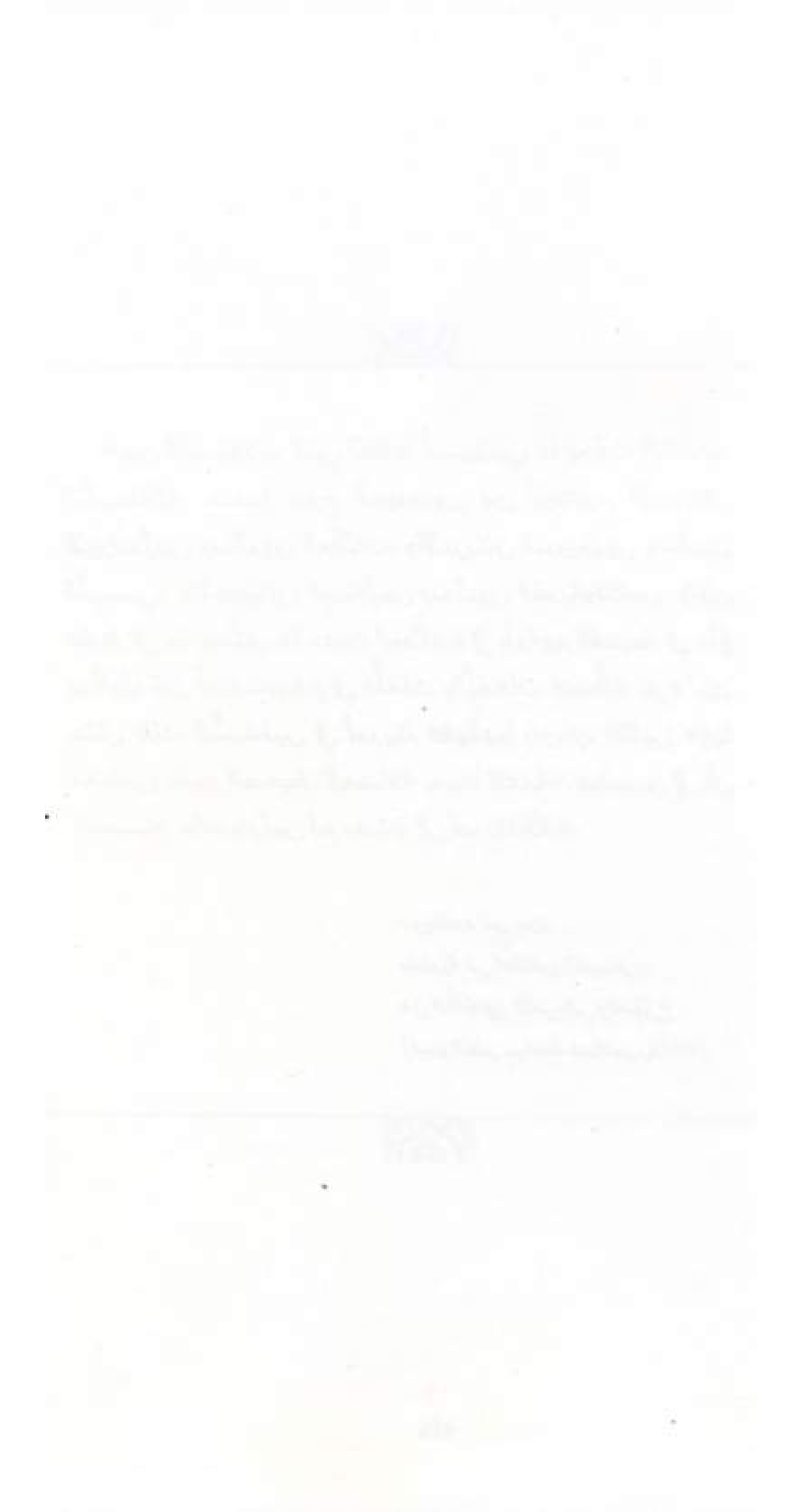
علاوةً على ذلك، غنيٌّ عن القول أن جميع الشخصيَّات المذكورة في هذه القصَّة -حيَّةً كانت أو ميتةً أو غير ذلك- خياليَّة أو مستخدمة في سياقٍ خيالي. وحدها الآلهة حقيقيَّة.



«من التّساؤلات التي لطالما استهوتني، ما يَحدُث للكائنات الشّيطانيّة عندما ينزح المهاجرون من أوطانهم. الأمريكان الأيرلنديّون يتذكّرون الجنّيات، والأمريكان النرويجيّون يتذكّرون التّيسي، والأمريكان اليونانيّون يتذكّرون القريكولاكاس، ولكن فقط في ما يتعلّق بالأحداث المذكورة في بلدانهم القديمة. في مرّةٍ سألتُ مَن أستشيرهم في اللُّغات والثّقافات المحلّيّة لِمَ لا يُرى مثل تلك الشّياطين في أمريكا، فقهقهوا بارتباكٍ قائلين: «إنها تخشى عبور المحيط. المسافة بعيدة للغاية»، مشيرين إلى أن المسيح والحواريّين لم يجيئوا إلى أمريكا قَطّ».

- ريتشرد دورسن،
«نظريّة في الفُلكلور الأمريكي»،
**من الفُلكلور الأمريكي والمؤرِّخ**
(قسم النّشر بجامعة شيكاجو، 1971).







# الجزء الأوّل

## ظــلال



# الفصل الأوَّل

*حدود بلدنا يا سيّدي؟ ها هي ذي يا سيّدي: من الشَّمال يحدُّنا الشَّفق القُطبي، ومن الشَّرق تحدُّنا الشَّمس الطَّالعة، ومن الجنوب يحدُّنا خطُّ الاستواء السَّماوي، ومن الغرب يحدُّنا يوم الحساب.*

- «الأمريكي»، من كتاب **چو ميلر للدُّعابات**

أمضى شادو ثلاث سنواتٍ في السِّجن. كبيرُ الحجم هو بما فيه الكفاية، وتقول ملامحه: «لا تعبث معي» بوضوحٍ كافٍ، حتى إن مشكلته الأكبر كانت قتل الوقت. وهكذا حافظَ على لياقته، وعلَّم نفسه خدع العُملة، وفكَّر كثيرًا في حُبِّه البالغ لزوجته.

في رأي شادو، أفضل شيء -وربما الشَّيء الجيِّد الوحيد- في دخول المرء السِّجن هو شعوره بالارتياح، الشُّعور بأنه انحطَّ إلى أدنى مستوى ممكن وبلغَ الحضيض. لم تَعُد فكرة نيل الحكومة منه تُقلِقه، لأن الحكومة نالَت منه بالفعل، ولا يستيقظ في السِّجن شاعرًا بالتَّوجُّس، فلم يَعُد يخشى ما قد يجلبه الغد، لأن الأمس جلبَه.

قرَّر شادو أن ارتكابك الجريمة التي أُدِنت بها من عدمه لا يهمُّ، فحسب تجربته، كلُّ مَن قابلَهم في السِّجن تعرَّضوا لظُلمٍ ما؛ دائمًا ما أساءَت السُّلطات

تأويل شيء ما، شيء قالوا إنك فعلته لكنك لم تفعله... أو لم تفعله كما قالوا بالضَّبط. المهمُّ أنهم نالوا منك.

لاحظَ هذا خلال الأيام القليلة الأولى، عندما كان كلُّ شيء -من اللُّغة الدَّارجة إلى الطَّعام الرَّديء- جديدًا، وعلى الرغم من بؤس الحبس ورُعبه المطلق الذي تقشعرُّ له الأبدان، تنفَّس شادو الصُّعداء.

حاولَ شادو ألَّا يُكثِر من الكلام. في فترةٍ ما خلال منتصَف العام الثَّاني ذكرَ نظريَّته لزميله في الزِّنزانة لُو كي لايسميث، وهو نصَّاب من منيسوتا، فابتسمَ لُو كي ابتسامته النَّدبية قائلًا: «نعم، صحيح. والأفضل من ذلك أن يُحكَم عليك بالإعدام. عندئذٍ تتذكَّر النِّكات إياها عن الذين خلعوا أحذيتهم ركلًا فيما يلتفُّ حبل المشنقة حول أعناقهم، لأن أصدقاءهم قالوا لهم دومًا إنهم سيموتون وهُم ينتعلون أحذيتهم».

سألَه شادو: «أهذه نُكتة؟».

- «بكلِّ تأكيد. نكات المشانق، أفضل أنواع النِّكات. بخبطةٍ واحدة حدثَ الأسوأ. يُمهِلونك بضعة أيامٍ حتى تستوعب الأمر، ثم تركب العربة في طريقك إلى الرَّقص فوق الفراغ».

- «متى كانت آخِر مرَّةٍ شنقوا فيها رجلًا في هذه الولاية؟».

- «وما أدراني؟». يُحافِظ لايسميث على شعره الأشقر البرتقالي شبه محلوق، وهو ما يجعلك ترى خطوط جمجمته. «لكن دعني أخبرك بشيء. هذا البلد راحَ في داهيةٍ منذ كفُّوا عن شنق النَّاس. لا تُراب مشانق، لا صفقات مشانق».[1]

هزَّ شادو كتفيه وقد عجزَ عن رؤية أيِّ شاعريَّةٍ في حُكمٍ بالإعدام.

إن لم يكن محكومًا عليك بالإعدام -هكذا قرَّر- فالسِّجن في أفضل الأحوال ما هو إلَّا إرجاء للحياة، وهذا لسببيْن. الأوَّل، أن الحياة تدبُّ فيك من جديدٍ في السِّجن. هناك دائمًا مساحة لمزيدٍ من الانحدار، حتى وأنت مسجون، والحياة تستمرُّ حتى إذا كانت حياةً تحت المجهر أو في قفص. والثَّاني، أنه إذا صمدت واحتملت فلا بُدَّ من أن يُطلِقوا سراحك يومًا ما.

في البداية كان الخروج أبعد من أن يُركِّز عليه، ثم أصبحَ بصيصًا بعيدًا من الأمل، وتعلَّم شادو أن يقول لنفسه: «هذا أيضًا سيمرُّ» حينما يقع خراء السُّجون كما يقع دومًا. يومًا ما سيُفتَح الباب المسحور ويَخرُج منه، وبناءً

عليه علَم شادو على الأيام في رُزنامة «طيور أمريكا الشَّماليَّة المغرِّدة»، وهي الرُّزنامة الوحيدة التي يبيعونها في مقصف السِّجن. وغربَت الشَّمس دون أن يراها وأشرقَت دون أن يراها. مرَّن نفسه على خدع العُملة اعتمادًا على كتابٍ[ii] وجدَه في القفر المسمَّى مكتبة السِّجن، ومرَّن عضلاته. ووضعَ في رأسه قوائم بالأشياء التي سيفعلها عندما يَخرُج.

وأخذَت قوائم شادو تَقصُر وتَقصُر، وبعد عامين كان قد اختصرَها في ثلاثة أشياء فقط.

أوَّلًا، سيأخذ حمَّامًا، غطسةً حقيقيَّةً طويلةً معتبَرةً في حوضٍ بفقاقيع، وقد يقرأ الجريدة وقد لا يقرأها. في بعض الأيام يُقرِّر ذلك، وفي بعضها يتراجَع عنه.

ثانيًا، سيُجفِّف نفسه ويضع معطفًا، وربما خُفَّيْن أيضًا، فقد راقَته فكرة الخُفَّيْن. لو أنه مدخِّن لكان يُدخِّن عند تلك المرحلة غليونًا، لكنه لا يُدخِّن. ثم سيرفع زوجته بين ذراعيه (فتَصرُخ بفزعٍ زائف وابتهاجٍ حقيقي: «ماذا تفعل يا جروي؟!»)، ويحملها إلى غُرفة النَّوم ويُغلِق الباب، وإذا جاعا فسيَطلُبان بيتزا.

وثالثًا، حينما يَخرُج هو ولورا من غُرفة النَّوم -بعد بضعة أيامٍ ربما- سيبقى ما تبقَّى من حياته في حاله بعيدًا عن المتاعب.

سألَه لُو كي لايسميث: «وهكذا ستعيش سعيدًا؟». يومها كانا يعملان في ورشة السِّجن، يُجمِّعان حاويات إطعام الطُّيور، وهو عمل أشدُّ إثارةً بالكاد من قصِّ لوحات أرقام السيَّارات من قوالبها.

ردَّ شادو: «لا تصِف رجلًا بالسَّعادة قبل أن يموت».[iii]

قال لو كي: «هيرودوت. أرأيت؟ إنك تتعلَّم».

- «مَن ذلك الهيرودوت؟». ألقى رجل الجليد[iv] السُّؤال وهو يُركِّب جوانب الحاوية معًا، ثم ناولَها لشادو الذي ربطَ صواميلها وبراغيها.

أجابَ شادو: «يوناني ميت».

قال رجل الجليد: «صاحبتي الأخيرة كانت من اليونان. لن تُصدِّق الخراء الذي تأكله أسرتها. أرز ملفوف في ورق شجر، خراء من هذا القبيل».

لرجل الجليد حجم ماكينة «كوكا-كولا» وشكلها، وله عينان زرقاوان وشعر بالغ الشُّقرة لدرجة أنه أقرب إلى البياض. كان قد انهالَ بوابلٍ من

الضَّرب على شابٍّ ارتكبَ خطأً تحسُّس جسد صاحبته في البار حيث تعمل راقصةً ويعمل رجل الجليد حافظًا للنِّظام. طلبَ أصدقاء الشَّاب الشُّرطة، التي تحرَّت عن رجل الجليد، فانكشفَ أنه تهرَّب من برنامج إطلاق سراحٍ مشروط بالعمل قبل ثمانية عشر شهرًا.

شاكيًا الظُّلم، قال رجل الجليد عندما حكى الحكاية الحزينة كاملةً لشادو: «ما الذي كان مفترضًا أن أفعله؟ قلتُ له إنها صاحبتي. أكان المفترض أن أتركه يُهينني هكذا؟ أكان ذلك المفترض؟ يداه كانتا على جسدها كلِّه!».

علَّق شادو بشيءٍ بلا مضمون على غرار: «أخبرهم»، واكتفى بهذا القدر. من الأشياء التي تعلَّمها مبكِّرًا أنك تقضي عقوبتك أنت في السِّجن، ولا تقضي عقوبة أيِّ أحدٍ آخَر بدلًا منه.

ابقَ في حالك واقضِ عقوبتك.

قبل شهورٍ عدَّة أعارَ لايسميث شادو نُسخةً باليةً بغلافٍ ورقي من «التَّواريخ» لهيرودوت، ولمَّا اعترضَ شادو قائلًا إنه لا يقرأ الكُتب، ردَّ لُو كي: «ليس كتابًا مملًّا. إنه رائع. اقرأه أوَّلًا، ثم قُل لي إنه رائع».

أبدى شادو الامتعاض، إلَّا أنه شرعَ في القراءة، ووجدَ نفسه منغمسًا رغم إرادته.

باشمئزازٍ قال رجل الجليد: «اليونانيُّون. وما يقولونه عنهم ليس صحيحًا كذلك. حاولتُ أن ألج صاحبتي من الخلف فكادَت تخزق عينيَّ».

في أحد الأيام نُقِلَ لايسميث دون سابق إنذار، تاركًا لشادو نُسخته من كتاب هيرودوت، التي خبَّأ بين صفحاتها عددًا من العُملات الحقيقيَّة: رُبعَي دولار وبنسًا ونيكلًا. العُملات المعدنيَّة محظورة داخل السِّجن، لأن بإمكانك أن تشحذ حوافها على حجرٍ وتشجَّ وجه أحدهم في شجار. على أن شادو لم يُرِد سلاحًا، بل شيئًا يفعله بيديه لا أكثر.

ليس التَّطيُّر من طباع شادو، فهو لا يُؤمن بأيِّ شيءٍ لا يراه، ومع ذلك استشعرَ كارثةً تحوم فوق السِّجن خلال تلك الأسابيع الأخيرة، تمامًا كما استشعرَ في الأيام السَّابقة لعمليَّة السَّطو. انتابَه إحساس بالخواء في فم معدته، وهو ما فسَّره لنفسه بأنه -ببساطة- خوف من العودة إلى العالم الخارجي، وإن لم يثق بذلك التَّفسير تمامًا، وأصبحَ شكَّاكًا أكثر من المعتاد -وفي السِّجن المعتاد شيء مطلق، ويُعَدُّ مهارةً للبقاء على قيد الحياة- وأشدَّ

هدوءًا وغموضًا، ووجدَ نفسه يُراقب لُغة أجساد الحُرَّاس والمساجين الآخَرين، يبحثُ عمَّا يدلُّه على الشَّيء السيِّئ الذي سيَحدُث، لأن حدوثه واقرٌ في نفسه.

قبل شهرٍ من الموعد المحدَّد للإفراج عنه، جلسَ شادو في مكتبٍ بارد في مواجهة رجلٍ قصير القامة، على جبهته وحمة بلون النَّبيذ. جلسا متقابليْن وبينهما منضدة، وقد فتحَ الرَّجل ملفَّ شادو أمامه وأمسكَ قلم حبرٍ جاف، طرفه مشوَّه من فرط المضغ.

- «بردان يا شادو؟».

- «نعم، قليلًا».

هزَّ الرَّجل كتفيه قائلًا: «هذا هو النِّظام. الأفران لا تُشغَّل حتى الأوَّل من ديسمبر، ثم تُطفَأ في الأوَّل من مارس. ليس أنا مَن يضع القواعد». والآن بعد الفروغ من المجاملات الاجتماعيَّة، جرى الرَّجل بسبَّابته على الورقة المدبَّسة بيسار الحافظة من الدَّاخل، وسألَ: «أنت في الثَّانية والثَّلاثين من عُمرك؟».

- «نعم يا سيِّدي».

- «تبدو أصغر».

- «إنها الحياة النَّظيفة».

- «مكتوب هنا أنك سجين نموذجي».

- «لقد تعلَّمتُ الدَّرس يا سيِّدي».

ردَّ الرَّجل: «هل تعلَّمته؟ هل تعلَّمته حقًّا؟»، وأمعنَ النَّظر إلى شادو خافضًا رأسه، لتنخفض الوحمة الخمريَّة على جبهته. فكَّر شادو في إخباره ببعض نظريَّاته عن السِّجن، لكنه لم يقل شيئًا، وبدلًا من ذلك أومأ برأسه مؤيِّدًا وركَّز على إبداء النَّدم كما ينبغي.

- «مكتوب هنا أن لك زوجةً يا شادو».

- «اسمها لورا».

- «وكيف الأحوال؟».

- «لا بأس بها. لقد غضبَت مني نوعًا حين قُبِضَ عليَّ، لكنها جاءَت لزيارتي قدر الإمكان... المسافة طويلة. نتبادَل الرَّسائل وأتَّصلُ بها عندما أستطيعُ».

- «ماذا تعمل زوجتك؟».

- «وكيلة سفريَّات. ترسل النَّاس إلى جميع أنحاء العالم».

- «كيف قابلتها؟».

لم يستطِع شادو الجزم بالسَّبب وراء سؤال الرَّجل، وخطرَ له أن يردَّ بأن ذلك ليس من شأنه، قبل أن يقول: «كانت أعزُّ صديقات زوجة أعزِّ أصحابي. رتَّبا لنا لقاءً في موعدٍ غرامي عمياني، وانسجَمنا معًا».

- «ولديك وظيفة في انتظارك؟».

- «نعم يا سيِّدي. صاحبي رُبي، الذي ذكرته لك حالًا، يملك «مزرعة العضلات»، المكان الذي اعتدتُ التَّدريب فيه. يقول إن وظيفتي القديمة تنتظرني».

حاجبٌ مرفوع، و«حقًّا؟».

- «يقول إنه يتصوَّر أنني سأكونُ عامل جذبٍ كبيرًا؛ أعيدُ بعض المتدرِّبين القُدامى وأجتذبُ شديدي المراس الرَّاغبين في أن يكونوا أشدَّ مراسًا».

لاحَ على الرَّجل الرِّضا، ومضغَ طرف قلمه، ثم قلبَ الورقة. «ما شعورك نحو جُرمك؟».

هزَّ شادو كتفيه مجيبًا: «كان فعلًا أحمق». قالها وهو يعنيها.

تنهَّد صاحب الوحمة، ووضعَ علامةً أمام عددٍ من البنود على قائمة تدقيق، ثم قلَّب صفحات ملفِّ شادو، وسأله: «كيف سترجع إلى الدِّيار من هنا؟ بحافلة الـ «جرايهاوند»؟».

- «بالطَّائرة. من المفيد أن تكون زوجة المرء وكيلة سفريَّات».

قطَّب الرَّجل وجهه لتتجعَّد وحمته، وقال: «أرسلَت إليك تذكرةً؟».

- «لم يكن لذلك داعٍ. أرسلَت إليَّ رقم تأكيد فقط. تذكرة إلكترونيَّة. ما عليَّ إلَّا أن أذهب إلى المطار بعد شهرٍ وأريهم بطاقة الهُويَّة، وسأخرجُ من هنا».

أومأ الرَّجل برأسه، وخطَّ ملاحظةً أخيرةً، ثم أغلقَ الملفَّ ووضعَ قلم الحبر. على المنضدة الرَّماديَّة استراحَت يدان شاحبتان كحيوانيْن ورديَّيْن، وضمَّ صاحب الوحمة يديه هاتين صانعًا بسبَّابتيه شكل قمَّة بُرجٍ مدبَّبة، وحدَّق إلى شادو بعينين بُندقيَّتيْن رطبتيْن قائلًا: «أنت محظوظ؛ عندك أحد تعود إليه،

ووظيفة في انتظارك. يُمكنك أن تضع كلّ هذا وراءك. لقد ظفرت بفرصةٍ ثانية، فاستغلّها لأقصى حد».

لم يمدّ الرّجل يده لمصافحة شادو إذ نهض ليُغادر، ولم يتوقّع شادو أن يُصافحه.

الأسبوع الأخير كان الأسوأ، أسوأ من بعض النّواحي من السّنوات الثّلاث مجتمعةً. تساءلَ شادو إن كان السّببَ الطّقسُ الخانق السّاكن البارد، كأن في الطّريق عاصفةً، لكن عاصفةً لم تأتِ. استبدّ به الهمُّ والغمُّ، شعور في قرار معدته بأن شيئًا ما على غير ما يُرام إطلاقًا. في ساحة التّريُّض هبّت الرّيح، وتخيّل أنه يشمُّ رائحة ثلجٍ في الهواء.

اتّصل شادو بزوجته بحيث تُحسَب تكلفة المكالمة عليها. كان يعرف أن شركات الهاتف تُحصّل -رغم أنفك- ضريبةً إضافيّةً قيمتها ثلاثة دولارات عن كلّ مكالمةٍ تُجريها من هاتف سجن، وقرّر أن لهذا السّبب يُحدّث موظّفو تحويل المكالمات مَن يتّصل من السّجن بمنتهى الأدب، فهُم يعلمون أنه يدفع أجورهم.

أخبرَ لورا: «لديّ شعور غريب». ليس هذا أوّل ما قاله لها. أوّل ما قاله لها هو: «أحبُّكِ»، لأنها كلمة يطيب قولها إن أمكنَك أن تعنيها، وشادو كان يعنيها إذ قالها.

قالت لورا: «أهلًا. أنا أيضًا أحبُّك. شعور غريب بماذا؟».

- «لا أدري. الطّقس ربما. أشعرُ كأن كلّ شيءٍ سيكون بخيرٍ إذا ما هبّت عاصفة فقط».

- «الجوُّ لطيف هنا. أوراق الشّجر الأخيرة لم تَسقُط بعدُ. إذا لم تهبَّ عاصفة فستراها عندما ترجع».

قال شادو: «خمسة أيام».

- «مئة وعشرون ساعةً، ثم ترجع إلى بيتك».

- «كلُّ شيءٍ بخيرٍ عندكِ؟ لا مشكلات؟».

- «كلُّ شيءٍ جيّد. سأرى رُبي اللّيلة. إننا نُحضّر لحفلة استقبالك المفاجئة».

- «حفلة مفاجئة؟».

- «بالطّبع. لست تعلم شيئًا عنها، أليس كذلك؟».

- «على الإطلاق».

قالت: «هو ذا زوجي»، وأدرك شادو أنه يبتسم. لقد قضى ثلاث سنوات داخل السُّجن، لكنها ما زالت قادرةً على جعله يبتسم.

قال شادو: «أحبُكِ يا جميلتي».

وردّت لورا: «أحبُّك يا جرويَ».

ثم أغلقَ شادو الخطَّ.

في بداية زواجهما أخبرَت لورا شادو أنها تُريد جروًا، لكن صاحب العقار أوضحَ أن اقتناء الحيوانات الأليفة ممنوع وفقًا لبنود عقد الإيجار، وهكذا قال شادو: «حسن، سأكونُ أنا جروكِ. ماذا تُريدينني أن أفعل؟ هل أمضغُ خُفَّيكِ؟ أبولُ على أرضيَّة المطبخ؟ ألعقُ أنفكِ؟ أتشمَّمُ ما بين ساقيكِ؟ أراهنُ أني أستطيعُ فعل أيِّ شيءٍ تفعله الجِراء!»، ورفعَها كأن لا وزن لها بالمرَّة، وبدأ يلعق أنفها وهي تُقهقِه وتَصرُخ، ثم حملَها إلى الفِراش.

في قاعة الطَّعام انسلَّ سام فتيشر إلى جوار شادو وابتسمَ كاشفًا أسنانه العجوز، ثم جلسَ بجانبه وبدأ يأكل وجبة المكرونة والجُبنة.

قال سام فتيشر: «يجب أن نتكلَّم».

سام فتيشر واحد من أحلك الرِّجال الذين رآهم شادو سوادًا. قد يكون في الستِّين من العُمر، وقد يكون في الثَّمانين، ولو أن شادو عرفَ من قبل مدمني كراك في الثَّامنة والثَّلاثين بدوا أكبر سنًّا من سام فتيشر.

همهمَ شادو متسائلًا، فقال سام: «في الطَّريق عاصفة».

- «على ما يبدو. قد يَسقُط الثَّلج قريبًا».

- «ليس ذلك النَّوع من العواصف. عواصف أكبر ستهبُّ. كما أقولُ لك يا ولد، ستكون أحسن حالًا هنا من الشَّارع عندما تأتي العاصفة الكُبرى».

قال شادو: «لقد قضيتُ مُدَّتي. يوم الجمعة أرحلُ».

حدَّق سام فتيشر إليه سائلًا: «من أين أنت؟».

- «إيجل پوينت، إنديانا».

ردَّ سام فتيشر: «أنت كذَّاب لعين. أعني أصلًا. من أين أهلك؟».

أجابَ شادو: «شيكاجو». في صِباها عاشَت أمُّه في شيكاجو، وهناك ماتَت قبل نصف عُمر.

- «كما قلتُ، عاصفة كبيرة قادمة. ابقَ في حالك يا ولد يا شادو. الأمر مثل... ماذا يُسمُّون تلك الأشياء التي تركب فوقها القارّات؟ نوعًا من الصّفائح؟».

قال شادو مخمّنًا: «الصّفائح التكتونيّة؟».

- «بالضّبط، الصّفائح التكتونيّة. الأمر يُشبِه حركتها. لستَ تُريد أن تكون في المنتصَف عندما تنزلق أمريكا الشّماليّة مرتطمةً بأمريكا الجنوبيّة، فاهم؟».

- «نهائيًا».

انغلقَت عين بنْيّة في غمزةٍ بطيئة، وقال سام فتيشر: «لا تقل إنني لم أحذِّرك»، ثم دسَّ ملعقةً عليها كُتلة راجفة من الچلي البرتقالي في فمه.

قضى شادو اللّيل نصف مستيقظ، يغيب في النّوم ويعود منه ويُصغي إلى نخير زميلِ زنزانته الجديد وغطيطه في السّرير أسفله. على بُعد زنازين عدّة أخذَ رجل يئنُّ ويعوي وينتحب كحيوان، وبين الحين والآخَر يَصرُخ أحدهم فيه أن يخرس. حاولَ شادو ألّا يسمع، وتركَ الدّقائق الخاوية تغمره بوحدتها وبُطئها.

يومان حتى الخروج، ثمانٍ وأربعون ساعةً بدأت بوجبة من الشّوفان وقهوة السّجن وحارسٍ اسمه ويلسن نقرَ على كتفه بقوّةٍ أشد من اللّازم قائلًا: «شادو؟ تعالَ معي».

راجعَ شادو ضميره فوجدَه هادئًا، ولو أنه كان قد لاحظَ أن ذلك في السّجن لا يعني عدم وقوعه في ورطة كبيرة بالضّرورة. مشى الرّجلان جنبًا إلى جنبٍ إلى حدٍّ ما، تتردّد أصداء خُطواتهما على المعدن والخرسانة.

تذوّق شادو الخوف في مؤخّرة حلقه، مُرًّا كالقهوة البائتة. الشّيء السيّئ يَحدُث...

في خلفيّة رأسه سمعَ صوتًا يهمس أنهم سيُضيفون سنةً أخرى إلى عقوبته، أو يرمونه في الحبس الانفرادي، أو يقطعون يديه، أو رأسه. قال لنفسه إنه يُفكّر بحماقة، إلّا أن قلبه راحَ يدقّ بعُنفٍ حتى أوشكَ على الانبثاق من صدره.

قال ويلسن وهما ماشيان: «لستُ أفهمك يا شادو».

- «ما الذي لا تفهمه يا سيّدي؟».

- «أنت. إنك هادئ للغاية، مهذّب للغاية، تنتظر مثل المساجين المسنّين. ولكن كم سنّك؟ خمسة وعشرون عامًا؟ ثمانية وعشرون؟».

- «اثنان وثلاثون يا سيّدي».

- «وما عِرقك؟ سبيك؟[1] غجري؟».

- «ليس على حدّ علمي يا سيّدي».

- «قد يكون فيك دمُ نيجر.[2] أفيك دمُ نيجر يا شادو؟».

قال شادو: «محتمَل يا سيّدي»، وشدَّ قامته ونظرَ أمامه مباشرةً مركّزًا على عدم السّماح لهذا الرّجل باستفزازه.

- «حقًّا؟ طيِّب، كلُّ ما أعرفه أنك تُثير توجُّسي». لويلسن شعر أشقر رملي ووجه أشقر رملي وابتسامة شقراء رمليّة. «ستَخرُج قريبًا؟».

- «آملُ هذا يا سيّدي».

- «ستعود. أرى هذا في عينيك. أنت فاشل يا شادو. لو أن الأمر بيدي لما خرجَ أحد منكم أيها السّفلة، لألقيناكم في الحُفرة ونسينا أمركم».

فكّرَ شادو: *الدّياميس*،[3] ولم يقل شيئًا. إنها وسيلة للنّجاة، أي إنه لا يردُّ أبدًا، ولا يَذكُر شيئًا عن الأمان الوظيفي لحُرّاس السّجن، ولا يُناقِش طبيعة النّدم أو إعادة التّأهيل أو معدّلات العودة إلى الإجرام، ولا يقول شيئًا على سبيل الظّرافة أو التّذاكي، ومن باب الاحتياط، حين يتكلّم مع أحد موظّفي السّجن، لا يقول شيئًا على الإطلاق متى أمكنَ ذلك. لا تُخاطِب أحدًا إلّا إذا خاطبَك، اقضِ مُدّتك، اخرُج، عُد إلى بيتك، خُذ حمّامًا ساخنًا طويلًا، قُل للورا إنك تحبُّها، أعِد بناء حياتك.

---

(1) سبيك: لفظة تُستخدَم في الولايات المتّحدة على سبيل الإشارة المهينة إلى القادمين من الدّول المتحدّثة بالإسبانيّة. (المُترجم).

(2) نيجر: لفظة يستخدمها الأمريكان سُود البشرة للإشارة إلى أنفُسهم، ويعدُّونها إهانةً عظيمةً أن يستخدمها أصحاب البشرة البيضاء. (المُترجم).

(3) الدّيماس: زنزانة تحت الأرض يبقى فيها السّجين واقفًا محصورًا في مساحةٍ ضيِّقة، ولا يُمكن دخولها إلّا من حُفرةٍ في السّقف، وهو ما أدّى مع الوقت إلى استخدام كلمة «الحُفرة» للإشارة إلى أيّ حبسٍ انفرادي. (المُترجم).

مرًا من عددٍ من نقاط التَّفتيش، وأراهم ويلسن بطاقة هُويَّته كلَّ مرَّة. صعدا درجًا، ثم وقفا خارج مكتب مأمور السِّجن، وهو المكان الذي لم يَدخله شادو قطُّ، لكنه عرفَه، فاسم المأمور، ج. پاترسن، مكتوب على الباب بحروفٍ سوداء، وبجوار الباب إشارة مرورٍ مصغَّرة.

والآن يتَّقد ضوؤها العُلوي بالأحمر.

ضغطَ ويلسن زرًّا أسفل إشارة المرور، ووقفا في مكانهما صامتيْن بضع دقائق. حاولَ شادو أن يقول لنفسه إن كلَّ شيءٍ بخير، إنه سيستقلُّ الطَّائرة إلى إيجل پوينت صباح الجمعة، غير أنه لم يُصدِّق ذلك.

انطفأ الضَّوء الأحمر واشتعلَ الأخضر، ففتحَ ويلسن الباب ودخلا.

رأى شادو المأمور مرَّاتٍ معدودةً في السَّنوات الثَّلاث المنصرمة، مرَّةً منها في أثناء جولةٍ في المكان مع أحد السِّياسيِّين، ولم يتعرَّف شادو الرَّجل، وفي مرَّةٍ خلال عزل المساجين في زنازينهم، عندما خاطبَهم المأمور في مجموعاتٍ من مئة، قائلًا لهم إن السِّجن مكتظٌّ عن آخِره، وما دامَ سيبقى مكتظًّا عن آخِره فالأفضل أن يتعوَّدوا. أمَّا هذه فأوَّل مرَّةٍ يرى فيها شادو الرَّجل من قُرب.

ومن قُربٍ بدا پاترسن أسوأ. للمأمور وجه مستطيل وشعر خشن مقصوص على الطَّريقة العسكريَّة، وتفوح منه رائحة معطِّر بعد الحلاقة «ألد سپايس»، وخلفه رفٌّ من الكُتب التي يحمل كلٌّ منها كلمة «السِّجن» في عنوانه، ومنضدته في منتهى النَّظافة، خالية تمامًا إلَّا من هاتفٍ ورُزنامة «فار سايد» من النَّوع الذي تُنزَع ورقاته، وفي أُذن الرَّجل اليُمنى جهاز لتقوية السَّمع.

- «تفضَّل بالجلوس».

فجلسَ شادو إلى المكتب ملاحظًا كياسة الأسلوب.

ووقفَ ويلسن وراءه.

فتحَ المأمور درجًا وأخذَ ملفًّا ووضعَه فوق المنضدة، وقال: «مكتوب هنا أنك محكوم عليك بستِّ سنواتٍ للاعتداء بالضَّرب المبرِّح، وقد قضيت ثلاثًا. كان المفترَض الإفراج عنك يوم الجمعة».

كان؟! أحسَّ شادو بمعدته تنقلب، وتساءلَ عن المدَّة التي سيُضطرُّ إلى قضائها فوق ما قضاه. سنة أخرى؟ سنتان؟ السَّنوات الثَّلاث كاملةً؟ لم يقل إلَّا: «نعم يا سيِّدي».

نعقَ المأمور شفتيه، وقال: «ماذا قلت؟».

- «قلتُ: نعم يا سيِّدي».

- «شادو، سنُطلِق سراحك اليوم بعد الظُّهر. ستَخرُج مبكِّرًا يومين». قال المأمور هذا دونما مسرَّة، كأنما يُصدِر حُكمًا رتيبًا بالإعدام، وأومأ شادو برأسه وانتظرَ المحتوم. ثم نظرَ المأمور إلى الورقة على منضدته، وتابعَ: «جاءَتنا هذه من مستشفى چونسن التِّذكاري في إيجل پوينت... زوجتك، لقد ماتَت في السَّاعات المبكِّرة من صباح اليوم. كانت حادثة سيَّارة. أنا آسف».

وعادَ شادو يُومِئ برأسه.

اصطحبَه ويلسن إلى زنزانته من غير أن يقول شيئًا، وفتحَ باب الزِّنزانة مُدخلًا شادو، ثم قال: «كأنها واحدة من نكات الخبر الطيِّب والخبر السيِّئ، أليس كذلك؟ الخبر الطيِّب أننا سنُفرِج عنك قبل موعدك، والسيِّئ أن زوجتك ماتَت»، وضحكَ كأن الموقف طريف حقًّا.

أمَّا شادو فلم يتفوَّه بكلمة.

---

بحواسَّ خَدِرة جمعَ شادو أغراضه وأهدى الكثير منها. لم يأخذ معه كتاب هيرودوت الذي أعطاه له لُو كي أو كتاب خدع العُملة، وبنوبة ألمٍ لحظيَّة تخلَّى عن الأقراص المعدنيَّة المصمتة التي هرَّبها من الورشة واستخدمَها كعُملاتٍ حتى وجدَ فكَّة لُو كي في الكتاب. سيجد عُملاتٍ في الخارج، عُملاتٍ حقيقيَّة. حلقَ ذقنه، وارتدى ثيابًا مدنيَّة، ثم مرَّ من بابٍ بعد بابٍ عالمًا أنه لن يمرَّ منها ثانيةً أبدًا وشاعرًا في قرارة نفسه بالخواء.

كان المطر قد بدأ ينهمِر من السَّماء الغائمة، مطر متجلِّد. وخزَت حبَّات الجليد وجه شادو فيما تشرَّب معطفه ماء المطر وهُم يقطعون المسافة بين مبنى السِّجن والحافلة الصَّفراء التي كانت تُستخدَم سابقًا لنقل تلامذة المدارس، وستأخذهم إلى أقرب مدينة.

لدى صعودهم على متن الحافلة كانوا قد غرقوا تمامًا. فكَّر شادو أن ثمانيةً فقط منهم راحلون، في حين يبقى ألف وخمسمئة بالدَّاخل. جلسَ يرتجف حتى بدأت المدافئ تعمل، يسأل نفسه ما العمل وأين يذهب الآن.

بلا دعوةٍ أفعمَت صُور شبحيّة رأسه، وفي مخيِّلته كان يُغادِر سجنًا آخَر في عهدٍ بعيد.

لزمنٍ طويل جدًّا ظلَّ حبيس عليّة، حتى طالَت لحيته وتشعَّبت، وتشابكَت خُصلات شعره وتلبَّدت. نزلَ به الحارس سلالم من الحجر الرَّمادي، وخرجَ به إلى ساحةٍ ملأى بالألوان الزَّاهية، وملأى بالنَّاس والأشياء. كان يوم سوق، وقد أذهلَته الضَّوضاء والألوان. ضيَّق عينيه في ضوء الشَّمس الذي يغمر الميدان، وشمَّ الهواء الرَّطب المالح وجميع الأشياء الحُلوة في السُّوق، وإلى يساره تلألأت الشَّمس على صفحة الماء...

وارتجَّت الحافلة متوقِّفةً عند إشارةٍ حمراء.

عوَت الرِّيح حول الحافلة، وبثقلٍ تحرَّكت المسَّاحات جيئةً وذهابًا على النَّافذة الأماميَّة، محيلةً المدينة إلى لُطخٍ بليلة من النيون الأحمر والأصفر. ما زالَ الأصيل في أوَّله، ولكن عبر الزُّجاج يبدو الوقت ليلًا.

- «تبًّا». قالها الرَّجل الجالس خلف شادو ماسحًا البُخار المتكثِّف على النَّافذة بيده ومحدِّقًا إلى جسمٍ مبتل يهرع على الرَّصيف. «هناك نسوان بالخارج».

ابتلعَ شادو ريقه إذ خطرَ له أنه لم يبكِ بعدُ... لم يَشعُر بأيِّ شيءٍ في الحقيقة. لا دموع، لا أسى، لا شيء.

وجدَ نفسه يُفكِّر في رجلٍ اسمه چوني لارش قاسمَه زنزانةً في بداية دخوله السِّجن، وحكى لشادو أنه في مرَّةٍ خرجَ بعد خمس سنواتٍ وراء القضبان ومعه مئة دولار وتذكرة إلى سياتل حيث تُقيم أخته. وصلَ چوني لارش إلى المطار وناولَ تذكرته للمرأة الجالسة وراء الشُّبَّاك، التي طلبَت رؤية رُخصة قيادته، فأراها الرُّخصة التي لم تَعُد ساريةً منذ بضعة أعوام، فقالت الموظَّفة إنها لا تَصلُح للتَّعريف بهُويَّته، فردَّ أنها قد لا تكون ساريةً باعتبارها رُخصة قيادة، لكنها بكلِّ تأكيدٍ كفيلة بتعيين هُويَّته، كما أن عليها صورته، وتَذكُر طوله ووزنه، وبحقِّ الجحيم مَن تحسبه إن لم يكن هو؟

فقالت إنها ستَشكُره إذا خفضَ صوته.

فقال أن تُعطيه تصريح الرُّكوب اللَّعين وإلَّا ندمَت، وإنه لن يسمح بمعاملته بغير احترام. المرء لا يدع النَّاس يُعامِلونه بغير احترامٍ في السِّجن.

ثم إذا بها تضغط زرًّا، وبعد لحظاتٍ قليلة ظهرَ أمن المطار ليُحاوِل إقناعه بمغادرة المكان بهدوء، ولم يُرِد چوني لارش أن يُغادِر، ووقعَ نوع من التّشاحُن.

الخُلاصة أن چوني لارش لم يستطِع الذَّهاب إلى سياتل في النِّهاية، وقضى الأيام القليلة التَّالية في البلدة في البارات، ولمَّا نفدَت دولاراته المئة سطا على محطَّة وقودٍ بمسدَّسٍ لُعبة ليَحصُل على نقودٍ يُواصِل بها الشُّرب، وأخيرًا قبضَت عليه الشُرطة لتبوُّله في الشَّارع، وسرعان ما عادَ إلى السِّجن ليقضي باقي عقوبته، وعلاوةً عليها عقوبة السُّطو على محطَّة الوقود.

والدَّرس المستفاد من هذه القصَّة طبقًا لچوني لارش: لا تُغضِب مَن يعملون في المطارات.

حين حكى له چوني لارش قصَّته قال شادو: «أأنت واثق بأن الدَّرس ليس شيئًا على غرار: أنواع السُّلوك الصَّالحة في بيئةٍ مخصَّصة -مثل السِّجن- قد تفشل، بل وتُصبِح مؤذيةً، عند استخدامها خارج تلك البيئة؟».

ردَّ چوني لارش: «لا، أصغِ إليَّ يا رجل. أؤكِّدُ لك، لا تُغضِب أولاد الوسخة العاملين في المطارات».

ابتسمَ شادو ابتسامةً نصفيَّةً للذِّكرى. رُخصة قيادته لن تنتهي قبل عدَّة شهور.

- «محطَّة الحافلات! ليَخرُج الجميع!».

كانت رائحة الصُّنان والبيرة الفاسدة فائحةً في المبنى. ركبَ شادو تاكسي وقال للسَّائق أن يأخذه إلى المطار، وأردفَ أنه سيُضيف خمسة دولارات إلى الأجرة إذا فعلَ هذا بصمت. بعد عشرين دقيقةً وصلا، ولم ينطق السَّائق بكلمةٍ واحدة.

ثم وجدَ شادو نفسه يمشي مرتبكًا في مبنى الرُّكَّاب ساطع الإضاءة، وقد أقلقَته مسألة التَّذكرة الإلكترونيَّة، فهو يعرف أن معه تذكرةً لطائرةٍ يوم الجمعة، لكنه يجهل إن كانت صالحةً للاستخدام اليوم. أيُّ شيءٍ إلكتروني يبدو لشادو سحريًّا في جوهره، وعُرضةً للتَّبخُّر في أيَّة لحظة، ولذا يحبُّ الأشياء التي يستطيع أن يُمسِكها ويلمسها. على أن معه محفظته التي عادَت إلى حوزته للمرَّة الأولى بعد ثلاث سنوات، وتحتوي على عدَّة بطاقات ائتمانٍ منتهية الصَّلاحية، وبطاقة «ڤيسا» واحدة اكتشفَ مسرورًا أن صلاحيتها لن

تنتهي حتى آخِرِ يناير. يحمل شادو رقم حجزٍ أيضا. كما أدرك أنه يحمل في أعماقه يقينًا بأنه ما إن يعود إلى الدّيار حتى يعود كلُّ شيء -بوسيلةٍ ما- بخيرٍ من جديد. لورا ستكون بخيرٍ من جديد. قد تكون هذه خدعةً ما للإفراج عنه مبكّرًا بضعة أيام، أو قد يكون خلطًا بسيطًا. والجثّة التي جُرَّت من الحُطام على الطَّريق السَّريع جثّةُ لورا مون أخرى.

تألّق البرق وراء الجُدران الزُّجاج خارج المطار، وأدرك شادو أنه يكتم أنفاسه في انتظار شيءٍ ما. ثم دوَّى الرَّعد من بعيد، وأطلق شادو زفيرًا.

نظرَت امرأة بيضاء متعَبة إليه من وراء الشُّبّاك، فخاطبها شادو قائلًا: «مرحبًا». *أنتِ أوّل امرأةٍ غريبة أحدّثها بشحمها ولحمها منذ ثلاث سنوات.* «معي رقم تذكرةٍ إلكترونيّة. كان المفترَض أن أسافر يوم الجمعة، ولكن يجب أن أذهب اليوم. عندي حالة وفاة في العائلة».

قالت: «ممم. آسفةٌ لسماع هذا»، ونقرَت على لوحة المفاتيح، ونظرَت إلى الشّاشة، ثم عادَت تَنقُر. «لا مشكلة. وضعتُك على رحلة الثّالثة والنّصف، لكنها قد تُؤجَّل بسبب العاصفة، فأبقِ عينيك على الشّاشات. هل ستشحن أمتعةً؟».

رفعَ حقيبة كتفٍ متسائلًا: «ليس ضروريًّا أن أشحن هذه، أليس كذلك؟».

– «بلى، لا بأس. هل معك بطاقة هُويّة مصوَّرة؟».

أراها شادو رُخصة القيادة، ثم أكَّد لها أن أحدًا لم يُعطِه قنبلةً يأخذها على متن الطّائرة، وبدورها أعطته تصريح ركوبٍ مطبوعًا، وبعد ذلك مرَّ من بوّابة كشف المعادن فيما مرَّت حقيبته من جهاز الأشعّة السينيّة.

ليس المطار كبيرًا، لكن عدد مَن يتجوَّلون فيه -يتجوَّلون فقط- أدهشه. شاهدَ أناسًا يضعون أمتعتهم كيفما اتَّفق، ولاحظَ المحافظ المدسوسة في الجيوب الخلفيّة، ورأى حقائب يدٍ تُوضَع تحت المقاعد بلا مراقبة. تلك هي اللّحظة التي أدركَ فيها أنه لم يَعُد في السِّجن.

ثلاثون دقيقةً قبل الرُّكوب. اشترى شريحةً من البيتزا ولسعَ شفته بالجُبنة السّاخنة، ثم أخذَ الفكّة واتَّجه نحو الهواتف ليتَّصل برُبي في «مزرعة العضلات»، لكنَ الآلة أجابَته.

– «أهلًا رُبي. يقولون لي إن لورا ماتَت. لقد أخرَجوني مبكّرًا. أنا عائد إلى الدّيار».

ثم، لأن النّاس يرتكبون أخطاءً، وقد شهِدَ هذا بنفسه، اتّصل شادو بمنزله وأصغى إلى صوت لورا.

- «مرحبًا. لستُ موجودةً الآن، أو لا يُمكنني الرّد على الهاتف. اترُك رسالةً وسأعودُ إليك. أتمنى لك يومًا طيّبًا جدًا».

ولم يستطِع شادو حمل نفسه على ترك رسالة.

جلسَ على مقعدٍ بلاستيكي عند البوّابة، وأطبقَ على حقيبته بشدّةٍ آلمَت يديه.

كان يُفكّر في أوّل مرّةٍ رأى فيها لورا. آنذاك لم يكن يعرف اسمها حتى. كانت صديقة أودري برتن. يومها جلسَ مع رُبي في مقصورةٍ بمطعم «تشي-تشي» يتكلّمان عن شيءٍ ما، غالبًا واحدة من المدرّبين الآخَرين أعلنَت أنها ستفتتِح ستوديو للرّقص، ثم دخلَت لورا وراء أودري بخُطوةٍ أو نحوها، فوجدَ شادو نفسه يُحَملِق. كان لها شعر كستنائي طويل، وعينان بالغتا الزُّرقة حتى إنه حسبَ خطأً أنها تضع عدساتٍ ملوّنةً. طلبَت لورا داكري الفراولة وأصرّت أن يتذوّقه شادو، ولمّا فعلَ ضحكت بابتهاج.

أحبَّت لورا أن يتذوّق النّاس ما تتذوّقه.

ليلتها قبّلها مودّعًا فوجدَ لها مذاق داكري الفراولة، ولم يرغب في تقبيل واحدةٍ أخرى ثانيةً.

أعلنَت امرأة بدء صعود الرُّكّاب إلى طائرته، ونُودِيَ الصَّفُّ الذي سيجلس فيه أوّلًا. مقعده في آخِر الطّائرة، وإلى جانبه مقعد خالٍ. لم تنفكَّ قطرات المطر تُطَقطِق على جانب الطّائرة، وهو ما جعلَه يتخيّل أطفالًا صغارًا يُلقون حفناتٍ من البازلاء المجفّفة من أعالي السّماء.

وبينما أقلعَت الطّائرة راحَ في النّوم.

كان شادو في مكانٍ مظلم، والشّيء الذي يَرمُقه له رأس جاموسٍ[7] مشعر زنخ الرّائحة، فيه عينانِ ضخمتان رطبتان، أمّا بدنه فبدن رجلٍ مزيّت صقيل.

قال الجاموس دون أن يُحرّك شفتيه: «في الطّريق تغييرات. ثمّة قرارات معيّنة لا بُدّ من اتّخاذها».

على جُدران كهفٍ رطبة تذبذبَ ضوء النّار.

سألَ شادو: «أين أنا؟».

أجابَ الرَّجل الجاموس: «في الأرض، وتحت الأرض. إنك حيث ينتظر المنسيُّون». عيناه مثل كُرتيْن من المرمر الأسود السَّائل، وصوته هدير من تحت العالم، ورائحته كبقرةٍ مبتلَّة. قال الصَّوت الهادر: «صدِّق. إن أردت النَّجاة فعليك أن تُصدِّق».

- «أصدِّقُ ماذا؟ ما الذي عليَّ أن أُصدِّقه؟».

حدَّق الرَّجل الجاموس إلى شادو، وشدَّ قامته فتضخَّمت، واشتعلَت عيناه نارًا، وفتحَ فمه الجاموسي المبقَّع باللُّعاب ليظهر داخله محمرًّا من اللَّهب المضطرم في باطنه، تحت الأرض، وجأرَ الرَّجل الجاموس: «كلُّ شيء!».

مالَ العالم ومادَ، وعادَ شادو على متن الطَّائرة، لكن الميل استمرَّ، وفي مقدِّمة الطَّائرة صرخَت امرأة صرخةً تعوزها الحماسة.

حول الطَّائرة تفجَّر البرق في ومضاتٍ مُعمية، وخاطبَهم الرُّبَّان على الإنتركم قائلًا إنه سيُحاوِل الارتفاع بعض الشَّيء ليبتعدوا عن العاصفة.

اهتزَّت الطَّائرة وارتعدَت، وتساءلَ شادو ببرودٍ وفتورٍ إن كان سيموت، ثم قرَّر أن الاحتمال وارد لكنه مستبعَد، ونظرَ من النَّافذة وشاهدَ البرق يُنير الأفق.

ثم غفا من جديد، وحلمَ بأنه رجعَ إلى السِّجن، حيث همسَ له لُو كي في طابور الطَّعام أن أحدهم استأجرَ شخصًا ليَقتُله، وإن لم يستطِع شادو معرفة مَن أو لماذا. وحين صحا وجدَ الطَّائرة تهبط.

ونزلَ من الطَّائرة متخبِّطًا، يطرف بعينيه ويفيق.

قبل زمنٍ طويل قرَّر شادو أن المطارات كافَّة متشابهة إلى حدٍّ كبير. لا يهمُّ حقًّا أينَ أنت، فأنت في مطار، حيث البلاط والممرَّات والحمَّامات والبوَّابات وأكشاك الصُّحف والأضواء الفلورسنت. بدا هذا المطار كمطار، لكن المشكلة أنه ليس وجهته، فهذا مطار كبير، وفيه أعداد غفيرة من النَّاس، وبوَّابات كثيرة للغاية.

على وجوه النَّاس تلك النَّظرة الزُّجاجيَّة المغلوبة التي لا تراها إلَّا في المطارات والسُّجون، وهو ما جعلَ شادو يُفكِّر: *إن كانت الجحيم هي الآخَرين فالمَطْهَر هو المطارات.*

- «بعد إذنكِ يا سيِّدتي».

نظرَت إليه المرأة من فوق اللَّوح المشبكي الذي تحمله، وقالت: «نعم؟».

- «أيُّ مطارٍ هذا؟»،

رمته بنظرةٍ مندهشة محاولةً أن تُحدِّد إن كان يمزح أم لا، ثم أجابت: «سانت لويس».

- «حسبتُ هذه الطَّائرة ذاهبةً إلى إيجل بوينت».

- «كانت كذلك، لكنهم أعادوا توجيهها إلى هنا بسبب العواصف. ألم يُذيعوا هذا؟».

- «غالبًا. لقد غبتُ في النَّوم».

- «عليك أن تُكلِّم هذا الرَّجل هناك، الذي يرتدي المعطف الأحمر».

يُناهز الرَّجل شادو طولًا، ويبدو كأبٍ من مسلسل كوميديا موقف من السَّبعينيَّات، وقد أدرجَ شيئًا في الكمبيوتر ثم قال لشادو أن يجري -يجري جريًا!- إلى بوَّابةٍ في طرف مبنى الرُّكَّاب القصي.

وجرى شادو عبر المطار، ولكن عندما وصلَ إلى البوَّابة وجدَ الأبواب أُغلِقَت، ومن خلال الجِدار الزُّجاجي شاهدَ الطَّائرة تتراجَع عن البوَّابة. شرحَ مشكلته لموظَّفة البوَّابة (بهدوءٍ ورزانةٍ وأدب)، فأرسلَته إلى مكتبٍ لمساعدة المسافرين، حيث شرحَ أنه في طريقه إلى الدِّيار بعد غيابٍ طويل، وأن زوجته قُتِلَت في حادثة سيَّارة، وأن من المهم لأقصى درجةٍ أن يرجع إلى الدِّيار حالًا، وإن أحجمَ عن ذِكر أيِّ شيءٍ عن السِّجن.

استشارَت موظَّفة مكتب مساعدة المسافرين (وهي امرأة قصيرة القامة بنِّيَّة البشرة، على جانب أنفها شامة) موظَّفةً أخرى، وأجرَت مكالمةً هاتفيَّةً («لا، لن تَصلُح تلك الرِّحلة. لقد ألغوها لتوِّهم»)، ثم طبعَت تصريح ركوبٍ آخَر، وأخبرَته: «ستتكفَّل هذه بوصولك. سنتَّصل بالبوَّابة ونُبلِغهم بمجيئك».

شعرَ شادو كأنه حبَّة بازلَّاء يتقاذفها أحدهم بين ثلاثة أكواب، أو ورقة تُفنَّد وسط مجموعةٍ من أوراق الكُتشينة. مرَّةً أخرى جرى عبر المطار، لينتهي به المطاف قُرب البُقعة التي نزلَ فيها في الأصل.

عند البوَّابة أخذَ رجل صغير الحجم تصريح الرُّكوب قائلًا: «كنا في انتظارك»، ومزَّق كعب التَّصريح الذي يحمل رقم المقعد المخصَّص لشادو، «17-D»، ثم أسرعَ شادو صاعدًا إلى متن الطَّائرة، وأغلَقوا الباب وراءه.

قطعَ الدَّرجة الأولى (التي تحتوي على أربعة مقاعد فقط، ثلاثة منها مشغولة)، وابتسمَ له الرَّجل الملتحي ذو البدلة الباهتة الجالس إلى جوار

المقعد الشّاغر في مقدّمة الطّائرة لدى صعوده، ثم رفع معصمه ونقر على ساعته إذ مرّ به شادو، الذي فكّر: نعم، نعم، *إنني أعطّلك. فليكن هذا أسوأ همومك.*

بدَت الطّائرة ممتلئةً جدًا وهو يشقُّ طريقه نحو المؤخّرة، وفي الواقع سرعان ما اكتشفَ أنها كاملة العدد، وأن المقعد «17-D» تحتلّه امرأة في منتصَف العُمر. أراها شادو كعب تصريح الرُّكوب، فأرَته كعب التّصريح الذي معها. الاثنان متطابقان.

قالت المضيفة: «هلّا أخذت مقعدك من فضلك؟».

- «لا، للأسف لا أستطيعُ. هذه السيِّدة جالسة عليه».

طقطقَت بلسانها وتحقّقت من تصريحَي ركوبهما، ثم قادَته إلى مقدّمة الطّائرة مجدَّدًا، وأشارَت إلى المقعد الشّاغر في الدَّرجة الأولى قائلةً: «يبدو أنه يومك السَّعيد»، ولمّا جلسَ شادو قالت: «هل أحضرُ لك شيئًا تشربه؟ عندنا وقت كافٍ قبل الإقلاع، وأنا واثقة بأنك في حاجةٍ إلى شراب بعد ما جرى لك».

- «أريدُ بيرةً من فضلك، أيًا كان النَّوع الذي لديكم».

وذهبَت المضيفة.

مدَّ ذو البدلة الباهتة الجالس بجوار شادو ذراعه، ونقرَ على ساعته «الرولكس» السَّوداء بظُفره قائلًا: «تأخَّرتَ»، وابتسمَ ابتسامةً عريضةً للغاية لا دفء فيها على الإطلاق.

- «معذرةً؟».

- «قلتُ إنك تأخَّرتَ».

ناولَت المضيفة شادو كأسًا من البيرة، ورشفَ منها. لبُرهةٍ تساءلَ إن كان الرَّجل مجنونًا، ثم قرَّر أنه يُشير بالتّأكيد إلى الطّائرة التي جثَمَت في انتظار راكبٍ أخير.

قال بكياسة: «آسفٌ إذا عطّلتك. أأنت مستعجِل؟».

تراجعَت الطّائرة عن البوّابة، وعادَت المضيفة وأخذَت بيرة شادو التي شربَ نصفها، في حين ابتسمَ لها ذو البدلة الباهتة ابتسامته العريضة، وقال: «لا تقلقي، سأمسكها بإحكام»، فتركَته يحتفظ بكأس الـ «چاك دانيلز»،

معلّقةً باعتراضٍ واهنٍ على مخالفة هذا تعليمات الطّيران. («دعيني أكونُ أنا الحكم يا عزيزتي»).

أجابَ الرّجل شادو: «الوقت شديد الأهميّة بالتّأكيد، ولكن لا، لستُ مستعجلًا. كنتُ قلقًا فقط من عدم لحاقك بالطّائرة».

- «هذا لُطف منك».

استقرّت الطّائرة على الأرض متبرّمةً، تطنُّ محرّكاتها متحرّقةً شوقًا للتّحليق.

ردّ ذو البدلة الباهتة: «لا لُطف ولا كلام فارغ. عندي وظيفة لك يا شادو».

هدرَت المحرّكات، وارتجَّت الطّائرة الصّغيرة مندفعةً إلى الأمام في إقلاعها، لتدفع شادو إلى الخلف في مقعده. ثم ارتفعوا عن الأرض، وتراجعَت أضواء المطار أسفلهم.

نظرَ شادو إلى الرّجل الجالس إلى جواره. شعره رمادي محمر، ولحيته -الأطول قليلًا من جُذامة- حمراء ضاربة إلى الرّمادي، ومع أنه أصغر من شادو حجمًا فقد بدا أنه يحتلُّ مساحةً كبيرةً جدًّا، أمّا وجهه فمربّع متغضّن خشن، وعيناه رماديّتان شاحبتان. تبدو بدلته ذات لون آيس كريم الڤانيليا الذّائب غاليةَ الثّمن، وربطة عُنقه من الحرير الرّمادي الغامق، يُثبّتها دبّوس بشكل شجرةٍ مشغولة من الفضّة، بجذعها وفروعها وجذورها العميقة.

في أثناء إقلاعهم أمسكَ الرّجل الـ «چاك دانيلز» ولم يَسكُب ولو قطرةً.

- «ألن تسألني عن نوع الوظيفة؟».

- «كيف تعرف مَن أنا؟».

قهقهَ الرّجل قائلًا: «أوه، أسهل شيءٍ في العالم معرفة الأسماء التي يُطلِقها النّاس على أنفُسهم. فكرة طفيفة، حظٌّ طفيف، ذكرى طفيفة. سَلني عن نوع الوظيفة».

ردّ شادو: «لا».

جلبَت له المضيفة كأس بيرةٍ أخرى، ورشفَ منها.

- «ولِمَ لا؟».

- «إنني عائد إلى الدّيار. عندي وظيفة تنتظرني هناك، ولا أريدُ أيَّ وظيفةٍ أخرى».

لم تتبدّل ابتسامة الرّجل المتخضّنة ظاهريًا، وإن بدا مستمتعًا حقًّا الآن. «ليس عندك وظيفة تنتظرك في الدّيار. لا شيء ينتظرك هناك. لكني من جهةٍ أخرى أعرضُ عليك عملًا قانونيًا تمامًا بأجرٍ مجزٍ وتأمينٍ محدود وفوائد هامشيّةٍ ممتازة، وإذا ظللت حيًّا حتى النّهاية فقد أضيف خطّة معاشٍ أيضًا. هل ترغب في واحدةٍ يا تُرى؟».

قال شادو: «واردٌ أنك رأيت اسمي على تصريح الرُّكوب، أو على جانب حقيبتي»، فلمّا لم يُعلّق الرَّجل تابعَ: «أيًّا كنتَ فلم يكن بإمكانك أن تعرف أني سأركبُ هذه الطّائرة. أنا نفسي لم أكن أعرفُ أني سأركبُ هذه الطّائرة، ولو لم تُحوَّل رحلتي إلى سانت لويس لما ركبتها. تخميني أنك تهوى المقالب، أو ربما تتحايَل للحصول على شيءٍ ما، ولكنّ أظنُّنا قد نقضي وقتًا أفضل إذا أنهينا هذه المحادثة الآن».

فهزَّ الرَّجل كتفيه.

تناولَ شادو مجلّة الرِّحلة فيما ارتجّت الطّائرة في السَّماء واهتزَّت جاعلةً التّركيز أصعب. طفَت الكلمات في عقله كفقاقيع الصّابون وهو يقرأها، لتختفي تمامًا بعد لحظة.

في المقعد المجاور جلسَ الرَّجل صامتًا، يرشف من الـ «جاك دانيلز» وقد أسبلَ جفنيه.

قرأ شادو قائمة قنوات الموسيقى المتاحة على الرِّحلات العابرة للأطلسي، ثم ألقى نظرةً على خريطة العالم ذات الخطوط الحمراء التي تُريك الأماكن التي تطير إليها شركة الخطوط الجوّيّة، ثم فرغَ من القراءة، وعلى مضضٍ أغلقَ الغلاف وأعادَ المجلّة إلى الجراب المثبّت بالحائط.

فتحَ ذو البدلة الباهتة عينيه، عينين خطرَ لشادو أن فيهما شيئًا غريبًا، فإحداهما رماديُّها أشدُّ دُكنةً من الأخرى. قال الرَّجل: «بالمناسبة، لقد أسفتُ لسماعي بوفاة زوجتك يا شادو. خسارة كبيرة».

لحظتها كادَ شادو يضربه، إلّا أنه أخذَ نفسًا عميقًا بدلًا من ذلك. (وفي مؤخّرة عقله قال جوني لارش: «كما قلتُ، لا تُغضِب أولاد الوسخة العاملين في المطارات وإلّا ألقوا بك هنا ثانيةً في غمضة عين»)، وعدَّ إلى خمسة.

قال: «وأنا أيضًا».

هزَّ الرَّجل رأسه قائلًا: «ليتها كانت طريقة أخرى»، ثم تنهّد.

- «لقد ماتت في حادثة سيّارة. طريقة سريعة للموت. كان يمكن أن تكون الطّرائق الأخرى أسوأ».

ببُطء هزّ ذو البدلة الباهتة رأسه، وللحظةٍ خُيِّل إلى شادو أن الرّجل بلا وجودٍ ماديّ، كأن الطّائرة صارت أكثر حقيقيّةً فجأةً فيما صار جاره أقل حقيقيّةً.

- «شادو، ليس هذا مقلبًا، ليس خدعةً. يُمكنني أن أدفع لك أجرًا أكبر من أيّ وظيفةٍ أخرى ستجدها. إنك مسجون سابق. لا يُوجَد طابور طويل ممّن يدفعون بعضهم بعضًا بعيدًا عن الطّريق ليُعيّنوك».

قال شادو بصوتٍ مرتفع بما يكفي لأن يُسمَع فوق طنين المحرّك قال شادو: «اسمع يا هذا أيًّا كنتَ، ليس في العالم مال يكفي».

اتّسعت الابتسامة الواسعة، ووجدَ شادو نفسه يتذكّر برنامجًا على PBS عن الشيمپانزي شاهدَه في مراهقته. زعمَ البرنامج أنه عندما تبتسم القِردة والشيمپانزي، فإنها فقط تكشف أسنانها في تكشيرة كراهيةٍ أو عُدوانيّةٍ أو خوف، بمعنى أن ابتسامة الشيمپانزي ما هي إلّا تهديد. هذه الابتسامة تنتمي إلى ذلك النّوع.

- «أنا واثق بأن هنالك مالًا يكفي، وعلاواتٍ أيضًا. اعمل لحسابي وسأخبرك بأشياء. قد ينطوي العمل على القليل من المخاطرة بالطّبع، لكن إذا نجوت فباستطاعتك أن تنال ما يتمنّاه قلبك أيًّا كان. يُمكنك أن تكون ملك أمريكا التّالي. والآن، مَن غيري سيدفع لك أجرًا مجزيًا كهذا؟ هممم؟».

سأله شادو: «مَن أنت؟».

- «آه، نعم. عصر المعلومات -أيتها الشّابّة، هلّا صببتِ لي كأسًا أخرى من الـ «چاك دانيلز»؟ ثلج قليل- لكن العالم لم يشهد صنفًا آخر من العصور بالطّبع. المعلومات والمعرفة عُملتان لم يعفُ عليهما الزّمن قَطُّ».

- «قلتُ: مَن أنت؟».

- «لنرَ. حسن، ما دامَ اليوم بلا شكٍّ يومي، فما رأيك أن تدعوني بالأربعاء؟[٧] المستر أربعاء. مع أن هذا الطّقس يجعله كفيلًا بأن يكون الخميس، إه؟».

- «ما اسمك الحقيقي؟».

قال الرَّجل ذو البدلة الباهتة: «اعمل لحسابي وقتًا كافيًا وبعدٌ كافٍ ولعلّي أخبرك. هاكَ إذًا، عرض عمل. فكّر في الأمر. لا أحد يتوقّع أن تقبل في الحال وأنت تجهل إن كنت تقفز في حوض أسماك پيرانا أو حُفرة دببة. خُذ وقتك»، وأغمض عينيه واسترخى في مقعده.

قال شادو: «لا أظنُّ. لستَ تُعجِبني، ولا أريدُ أن أعمل معك».

ردَّ الرَّجل دون أن يفتح عينيه: «كما أقولُ، لا تتعجَّل، خُذ وقتك».

حطَّت الطَّائرة مرتجَّةً ونزلَ راكبون قلائل. نظرَ شادو من النَّافذة فرأى مطارًا صغيرًا في مكانٍ ناءٍ، وما زالَ أمامه مطاران صغيران آخران قبل أن يصل إلى إيجل پوينت. ثُم نقلَ نظرته إلى ذي البدلة الباهتة... المستر أربعاء؟ بدا الرَّجل نائمًا.

نهضَ شادو وأخذَ حقيبته وغادرَ الطَّائرة نازلًا السُّلَّم إلى المهبط المبتل الزَّلِق، ومشى بخُطواتٍ منتظمة صوب أضواء مبنى الرُّكَّاب وقد تناثرَ مطر خفيف على وجهه.

قبل أن يَدخُل مبنى المطار توقَّف والتفتَ وراقبَ، لكن أحدًا لم ينزل. دحرجَ الطَّاقم الأرضي السُّلَّم بعيدًا عن الطَّائرة، وأُغلِقَ الباب، وانطلقت الطَّائرة على المَدْرَج، وظلَّ شادو يُحدِّق إليها حتى أقلعَت، ثم دخلَ متَّجهًا إلى مكتب «بدچت» لاستئجار السيَّارات -المكتب الوحيد المفتوح- واستأجرَ سيَّارةً اتَّضحَ عندما خرجَ إلى الموقف أنها «تويوتا» حمراء صغيرة.

فتحَ شادو الخريطة التي أعطوها له وبسطَها على مقعد الرَّاكب الأمامي. تَبعُد إيجل پوينت نحو مئتين وخمسين ميلًا، ومعظم الرِّحلة على الطَّريق السَّريع. منذ ثلاثة أعوامٍ لم يَقُد سيَّارةً.

إن كانت العواصف قد بلغَت هذا المدى فقد مرَّت، والطَّقس الآن باردٌ صافٍ. زجَت الرِّيح السُّحب أمام وجه القمر، وللحظةٍ وجدَ شادو نفسه غير واثقٍ إن كان ما يتحرَّك هو السَّحاب أم القمر.

لمُدَّة ساعةٍ ونصف قادَ السيَّارة شمالًا.

بدأ الوقت يتأخَّر، وكان جائعًا، ولمَّا أدركَ مبلغ جوعه توقَّف عند المخرج التَّالي ليَدخُل بلدة نوتامون (تعداد السُّكَّان: 1301)، وهناك ملأ خزَّان الوقود من محطَّة «آموكو»، وسألَ المرأة التي يبدو عليها الملل الواقفة وراء ماكينة الكاشير عن مكان أفضل بار في المنطقة، حيث يُمكنه أن يجد شيئًا يأكله.

أخبرَته: «بار «تماسيح چاك»، غربًا على طريق المقاطعة N».

- «بار تماسيح؟».

أجابَت: «أجل. چاك يقول إنها تُضفي شخصيَّةً على المكان»، ورسمَت له خريطةً على ظَهر نشرةٍ أرجوانيَّة زاهية تُعلِن عن بيع الدَّجاج المشوي من أجل جمع المال لفتاةٍ صغيرة محتاجة إلى كليةٍ جديدة. «عنده بضعة تماسيح وثُعبان، وإحدى تلك السَّحالي الكبيرة».

- «إجوانا؟».

- «بالضَّبط».

من خلال البلدة، ومن فوق جسر، وبضعة أميالٍ من القيادة، ثم توقَّف شادو عند مبنى مستطيل واطئ، عليه لافتة منيرة لبيرة «پابست» وعند بابه ماكينة «كوكا-كولا».

وجدَ الموقف نصف خالٍ، وركنَ الـ «تويوتا» الحمراء ودخلَ.

كانَ الهواء في الدَّاخل مفعمًا بالدُّخان، و«المشي بعد منتصف اللَّيل»[vii] تتردَّد من صندوق الموسيقى. نظرَ شادو حوله بحثًا عن التَّماسيح، لكنه لم يرَها، فتساءَل إن كانت عاملة محطَّة الوقود تضحك عليه.

سألَه السَّاقي: «ما طلبك؟».

- «أأنت چاك؟».

- «اللَّيلة راحة چاك. أنا پول».

- «أهلًا پول. بيرتكم العاديَّة، وهامبرجر بكلِّ الإضافات. لا بطاطس محمَّرة».

- «طبق من التشيلي أوَّلًا؟ أفضل تشيلي في الولاية».

- «لا بأس. أين دورة المياه؟».

أشارَ الرَّجل إلى بابٍ في رُكن البار، يعلوه رأس تمساح قاطور محنَّط.

دخلَ شادو من الباب ليجد دورة المياه نظيفةً جيِّدة الإضاءة. بحُكم العادة نظرَ في أنحاء المكان أوَّلًا، (وبصوتٍ خفيض كديدنه قال لُو كي في مؤخِّرة عقله: «تذكَّر يا شادو، لا يُمكنك أن تُقاوِم مهاجمك وأنت تتبوَّل»). أخذَ المبولة إلى اليسار، ثم أنزلَ سحَّاب بنطاله وتبوَّل طيلة عصرٍ كامل وقد استرخى

وشعرَ بالارتياح، وفي أثناء ذلك قرأ قُصاصة الصُّحيفة المبروَزة عند مستوى العين، التي يظهر فيها چاك مع تمساحٍ قاطور.

ثم أتَت نحنحة مهذَّبة من المبولة المجاورة عن يمينه مباشرةً، رغم أنه لم يسمعْ أحدًا يدخُل.

بدا ذو البدلة الباهتة أكبر حجمًا وهو واقف مما بدا جالسًا إلى جواره على متن الطَّائرة، يكاد يُناهِز شادو طولًا، وشادو رجل كبير. كان الرَّجل ناظرًا أمامه، وقد فرغَ من التَّبوُّل ونفضَ القطرات الأخيرة ورفعَ سحَّاب بنطاله.

ثم إنه ابتسمَ ابتسامة ثعلبٍ يأكل بُرازًا يُلطِّخ سياجًا من الأسلاك الشَّائكة، وقال المستر أربعاء: «ها قد نلت مُهلةً لتُفكِّر يا شادو. هل تُريد وظيفةً؟».



## في مكانٍ ما من أمريكا
## لوس آنچلس، 11:26 مساءً

في غُرفةٍ معتمة، حيث لون الجُدران أقرب إلى لون الكبد النِّيِّئة، امرأة طويلة القامة ترتدي -كما لو أنها في رسمٍ كاريكاتوري- سروالًا قصيرًا ضيِّقًا للغاية من الحرير، وقد رفعَت نهديْها ودفعَتهما إلى الأمام ببلوزتها الصَّفراء المربوطة تحتهما، وكوَّمت شعرها الأسود عاليًا وعقدَته فوق رأسها. إلى جوارها يقف رجل قصير يرتدي تيشرت زيتونيًّا وچينز أزرق غاليًا، وفي يده اليُمنى هاتف «نوكيا» غلافه الأمامي أحمر وأبيض وأزرق.

تضمُّ الغُرفة الحمراء سريرًا عليه ملاءات من الساتان الأبيض ومفرش بلون دم الثِّيران، وعند قدم السَّرير منضدة خشبيَّة صغيرة، فوقها تمثال حجري صغير لامرأةٍ ضخمة الوركيْن، وشمعدان.

تُناول المرأة الرَّجل شمعةً حمراء صغيرةً، وتقول: «هاكَ، أشعِلها».

- «أنا؟».

- «نعم، إنْ كنت تُريدني».

- «كان يَجدُر بي أن أجعلكِ تُمتعينني بفمكِ في السيَّارة».

فتقول: «ربما. ألا تُريدني؟»، وتتحرَّك يداها على بدنها من الفخذيْن إلى النَّهديْن في لفتة تقديم، كأنها تستعرِض منتجًا جديدًا.

في رُكن الغُرفة مصباح تُغطِّيه أوشحة من الحرير الأحمر مُكسبةً الضَّوء حُمرةً.

يَنظُر إليها الرَّجل بجوع، ثم يأخذ منها الشَّمعة ويدسُّها في الشَّمعدان سائلًا: «هل معكِ ما أشعلها به؟».

فتُناوله دفتر ثقاب، ويُمزِّق منه عودًا ويُشعِل الفتيل، ليتذبذَب لهبه ثم يتَّقد بانتظام، وهو ما يُضفي إيحاءً بالحركة على التِّمثال عديم الوجه المجاور للشَّمعدان، الذي تغلب عليه ضخامة الوركيْن والنَّهديْن.

- «ضَع النُّقود تحت التِّمثال».

- «خمسون دولارًا».

- «نعم».

- «حين رأيتك أوّل مرّة في صنست بولفار كدتُ أحسبك رجلًا».

فتردُّ وهي تحلُّ البلوزة الصّفراء محرّرةً نهديْها: «لكنّ لديّ هذين».

- «رجال كثيرون لديهم مثلهما هذه الأيام».

فتتمطّى وتبتسم قائلةً: «نعم. والآن تعالَ وأحبّني».

يفكُّ الرّجل أزرار الجينز الأزرق ويخلع تيشرته الزّيتوني. وتُدلّك المرأة كتفيه البيضاويْن بأصابعها البنّيّة، ثم تقلبه وتشرع في مطارحته الغرام بيديها، وبأصابعها، وبلسانها.

يُخيَّل إليه أن الأضواء في الغُرفة الحمراء قد عتمَت، والآن مصدر الإضاءة الوحيد هو الشّمعة المشتعلة بلهبٍ وضّاء.

يسألها: «ما اسمكِ؟».

فتُجيبه رافعةً رأسها: «بلقيس، بالقاف».

- «بالماذا؟».

- «لا عليك».

الآن يشهق، ويقول: «دعيني أنكحكِ. يجب أن أنكحكِ».

- «ليكن يا عسل، سنفعل هذا، لكن هلّا فعلت شيئًا من أجلي في تلك الأثناء؟».

فيردُّ وقد انتابَه الضّيق فجأةً: «مهلًا. أنا الذي أدفعُ لك».

بحركةٍ واحدة ناعمة تركبه هامسةً: «أعرفُ يا عسل، أعرفُ أنك تدفع لي، لكن انظُر إلى نفسك، المفترَض أن أدفع أنا لك. يا ليّ من محظوظة...».

يزمُّ شفتيه محاولًا أن يُريها أن حديث العاهرات لا يُؤثّر فيه، أن خداعه غير ممكن، أنها مجرّد عاهرة شوارع بحقّ المسيح، في حين أنه في حُكم منتِج بجلالة قدره، ويعرف كلّ شيءٍ عن عمليّات النّصب في اللّحظة الأخيرة. على أنها لا تَطلُب مالًا، وبدلًا من ذلك تقول: «اسمع يا عسل، بينما تلجني، بينما تدفع هذا الشّيء الكبير الصُّلب في داخلي، هلّا تعبُدت إليّ؟».

- «هلّا فعلتُ ماذا؟».

تتأرجَح إلى الأمام والخلف فوقه، فتَفرُك الرَّأس المحتقن بشفرَيْن بليليْن.

- «هلَّا دعوتني بالربَّة؟ هلَّا صلَّيت لي؟ هلَّا تعبَّدت إليَّ بجسدك؟».

فيبتسم. أهذا ما تُريده؟ يقول: «أكيد». إن لدينا جميعًا تفضيلاتنا الغريبة رغم كلِّ شيء.

تضع يديها بين ساقيها وتقوده إلى داخلها، فيشهق ويقول: «أيروقكِ هذا؟ أيروقكِ أيتها الربَّة؟».

وتقول بلقيس العاهرة: «تعبَّد إليَّ يا عسل».

- «نعم. أعبدُ نهديكِ وعينيكِ وفرجكِ، أعبدُ فخذيكِ وعينيكِ وشفتيكِ الحمراويْن كالكرز...».

- «نعم...». تُنغِّم الكلمة وهي تركبه مثلما يركب الموجَ قاربٌ تتقاذفه العواصف.

يقول: «أعبدُ حلمتيكِ اللتين يتدفَّق منهما لبن الحياة. قُبلتكِ شهد ولمستكِ تحرق مثل النَّار، وأنا أعبُدها». الآن تصير كلماته أكثر إيقاعيَّةً بحيث تُجاري دفعات جسديهما والتفافاتهما. «اجلبي لي شهوتكِ في الصَّباح، واجلبي لي الرَّاحة وبركتكِ في المساء. اجعليني أمشي في الأماكن المظلمة من غير أذى، ودعيني آتيكِ ثانيةً وأنامُ إلى جانبكِ وأمارسُ معكِ الحُبَّ من جديد. أعبدكِ بكلِّ ما في داخلي، وبكلِّ ما في عقلي، بكلِّ مكانٍ ذهبتُ إليه في أحلامي وبــ...»، ويَبتُر عبارته لاهثًا محاولًا التقاط أنفاسه. «... ماذا تفعلين بالضَّبط؟ مذهل هذا حقًّا، مذهل للغاية...»، ويَنظُر إلى وركيْه، إلى البُقعة التي يتَّحد هو وهي عندها، إلَّا أن سبَّابتها تُلامِس ذقنه وتدفع رأسه إلى الخلف، فيعود يَنظُر فقط إلى وجهها والسَّقف.

تقول: «واصِل الكلام يا عسل، لا تتوقَّف. ألا يُعجِبك هذا الإحساس؟».

فيُجيب عانيًا الجواب: «يُعجِبني أكثر من أيِّ إحساسٍ آخَر عرفته»، ويُواصِل: «عيناكِ نجمتان متَّقدتان في -تبًّا- في قُبَّة السَّماء، وشفتاكِ موجتان رقيقتان تلعقان الرِّمال، وأنا أ-أعبدهما». الآن يدفع نفسه أكثر فأكثر في داخلها، ويحسُّ أنه مكهرَب، كأن نصفه السُّفلي بأكمله باتَ مشحونًا بالجنس، ذكريًّا، محتقنًا، هانئًا.

يُتَمتِم وقد أصبحَ لا يدري ما يقوله: «هبي لي نعمتكِ، نعمتكِ الحقيقيَّة الوحيدة، واجعليني دائمًا هذا... دائمًا... أصلِّي... إنني...».

ثم تبلُغ اللذّة ذُروتها مستحيلةً إلى هزّةٍ تنسف عقله وتُحيله إلى عدم، ويصير رأسه ونفسه وكينونته برمّتها صفحةً بيضاء ناصعةً فيما يتوغّل في داخلها أكثر فأكثر...

بعينين مغمضتين وجسدٍ متشنّج يتنعّم باللّحظة، ثم يحسُّ بميلانٍ مفاجئ، ويبدو له أنه معلّق ورأسه إلى أسفل، مع أن اللذّة مستمرّة.

ثم يفتح عينيه.

محاولًا استرداد تفكيره وعقله مجدّدًا، يُفكّر في الميلاد، ومن غير خوف، في لحظةٍ مثاليّةٍ من صفاء ما بعد الجماع، يتساءَل إن كان ما يراه نوعًا من الوهم.

وهذا هو ما يراه:

إنه في داخلها حتى الصّدر، وبينما يُحدّق إلى المشهد بعجبٍ وعدم تصديق تُريح هي كلتا يديها على كتفيه وتضع ضغطًا خفيفًا على بدنه.

وينزلق إلى داخلها أكثر.

يسألها: «كيف تفعلين هذا بي؟»، أو يحسب أنه يسألها، ولكن لعلّ السُّؤال في عقله فقط.

تهمس: «أنت الذي تفعله يا عسل»، ويحسُّ بشفريْها يضيقان حول أعلى صدره وظَهره، يقبضان عليه ويُطوّقانه، ويتساءَل كيف سيبدو المنظر لأحدٍ يُشاهِدهما، يتساءَل لِمَ لا يَشعُر بالخوف. ثم تأتيه الإجابة.

وإذ تدفعه في داخلها يهمس: «أعبدكِ بجسدي»، ثم ينغلق شفراها بنعومةٍ على وجهه، ويحتوي عينيه الظّلامُ.

وتتمطّى هي على الفِراش كقِطّةٍ ضخمة، ثم تتثاءَب وتقول: «نعم، تَعبُدني».

تَصدُر من الهاتف الـ «نوكيا» رنّة كهربيّة متقطّعة عالية لـ «نشيد للفرح»،[viii] فتلتقطه وتضغط زرًّا بإبهامها وتضع الهاتف على أُذنها.

بطنها مستوٍ وشفراها صغيران ومغلقان، وعلى جبهتها وشفتها العُليا طبقة لامعة من العَرق.

تقول: «نعم؟»، ثم تقول: «لا يا عسل، ليس هنا. لقد رحلَ».

ثم تُغلِق الهاتف قبل أن ترتمي على الفِراش في الغُرفة الحمراء المعتمة، وتتمطّى مرّةً أخرى، وتُسبِل جفنيها، وتنام.

# الفصل الثّاني

*أخذوها إلى المقابر*
*في كادلاك كبيرة قديمة*
*أخذوها إلى المقابر*
*لكنهم لم يُعيدوها*

- أغنيّة قديمة

قال المستر أربعاء وهو يغسل يديه في دورة مياه الرّجال ببار «تماسيح جاك»: «سمحتُ لنفسي بسؤالهم أن يُقدّم طعامي على طاولتك. إن لدينا أشياءَ كثيرةً نتناقَش فيها رغم كلّ شيء».

ردَّ شادو: «لا أظنُّ»، وجفَّف يديه بمنديلٍ ورقي، ثم كوَّره وألقاه في سلَّة المهملات.

قال الأربعاء: «إنك في حاجةٍ إلى وظيفة. النَّاس لا يُشغّلون المساجين السَّابقين. أنت وأمثالك تُوتّرونهم».

- «عندي وظيفة في انتظاري، وظيفة جيّدة».

- «تقصد تلك الوظيفة في «مزرعة العضلات»؟».

قال شادو: «ربما».

- «لا، ليس عندك وظيفة هناك. رُبي برتن ماتَ، ومن غيره ماتَت «مزرعة العضلات» أيضًا».

- «أنت كاذب».

قال الأربعاء: «بالطّبع، وبارعٌ في الكذبِ أيضًا، أفضل كذّابٍ ستُقابِله في حياتك. لكنني للأسف لا أكذبُ في هذا الشّأن»، ومدَّ يده في جيبه وأخرج صحيفةً مطويّةً على نفسها عدّة طيّات، وناولَها لشادو متابعًا: «الصَّفحة السَّابعة. لنَعُد إلى البار. يُمكنك أن تقرأها وأنت جالس».

دفعَ شادو الباب عائدًا إلى البار، حيث يُفعِم الدُّخان الأزرق الهواء، ومن صندوق الموسيقى تتردَّد أغنيَّة «آيكو آيكو»[*] لِفرقة «ديكسي كَپس». ابتسمَ شادو ابتسامةً خفيفةً إذ تعرَّف أغنيَّة الأطفال القديمة.

أشارَ السَّاقي إلى مائدةٍ في الرُّكن، على أحد جوانبها وعاء من التشيلي وساندوتش برجر، وفي المواجهة شريحة من الستيك قليل النُّضج وطبق من البطاطس المقليَّة.

*انظُروا إلى ملكي في ردائه الأحمر*

*آيكو آيكو طول اليوم*

*أراهِنكم بخمسة دولارات أنه سيَقتُلكم*

*چوكامو-فينا-ناي*

جلسَ شادو إلى المائدة، وقال واضعًا الصَّحيفة: «لقد خرجتُ من السِّجن هذا الصَّباح. هذه أوَّل وجبة لي وأنا رجل حُر. لن تعترض إذا انتظرتُ لأقرأ صفحتك السَّابعة بعد أن آكل، أليس كذلك؟».

- «بتاتًا».

أكلَ شادو الهامبرجر، وكان أفضل من هامبرجر السِّجن. أمَّا التشيلي فجيِّد، وإن قرَّر بعد ملعقتيْن أنه ليس الأفضل في الولاية.

اعتادَت لورا أن تَطبُخ تشيلي ممتازًا، تستخدم فيه لحمًا خاليًا من الدُّهن، وفاصوليا حمراء داكنةً، وجزرًا مقطَّعًا قطعًا صغيرةً، وزُجاجةً أو نحوها من البيرة البنِّيَّة، وشرائح من الفلفل الحرِّيف الطَّازج. كانت تَترُك التشيلي ينضج بعض الوقت، ثم تُضيف النَّبيذ الأحمر وعصير اللَّيمون ورشَّةً من الشَّبث الطَّازج، وأخيرًا تُعايِر توابل التشيلي المسحوقة وتُضيفها. في أكثر

من مناسبةٍ حاولَ شادو أن يجعلها تُريه كيف تطبُخه، ولجأ إلى مراقبة كلُّ ما تفعله، من تقطيع البصل وإلقائه في زيت الزَّيتون في قعر القِدر وحتى آخِر خُطوة، بل ودوَّن تسلسُل الأحداث مكوِّنًا تلو مكوِّن. في مرَّةٍ طبخَ تشيلي لورا لنفسه وهي مسافرة ذات نهاية أسبوع. وجدَ مذاقه معقولًا، لا شكَّ في صلاحيته للأكل، وقد أكلَه، لكنه لم يكن مثل تشيلي لورا.

الخبر في الصَّفحة السَّابعة أوَّل وصفٍ يقرأه شادو لموت زوجته. كان شعورًا غريبًا، كأنما يقرأ عن شخصٍ ما في قصَّة: كانت لورا مون -التي يَذكُر المقال أن سنَّها سبعة وعشرون عامًا- مع رُبي برتن -الذي يَبلُغ التَّاسعة والثَّلاثين- في سيَّارة رُبي على طريق الولايات السَّريع، عندما انحرَفا معترضيْن طريق شاحنةٍ من ذوات الاثنتين وثلاثين عجلةً، فصدمَتهما الشَّاحنة من الجانب وهي تُحاوِل تغيير الحارة لتفاديهما. دفعَت الشَّاحنة سيَّارة رُبي لتدور حول نفسها على جانب الطَّريق، حيث ارتطمَت بلافتةٍ بعُنفٍ وكفَّت عن الدَّوران.

وصلَت طواقم الإنقاذ إلى موقع الحادثة خلال دقائق، وأُخرِجَ رُبي ولورا من الحُطام، ولدى وصولهما إلى المستشفى كانا قد قضيا نحبهما.

عادَ شادو يطوي الصَّحيفة ودفعَها عبر المائدة نحو الأربعاء، الذي يلتهم بشراهةٍ شريحة ستيك داميةً جدًّا زرقاء جدًّا، كأن لهب الموقد لم يمسَّها قَطُّ.

- «هاكَ، خُذها».

كان رُبي يقود السيَّارة. مؤكَّد أنه قادَها سكرانَ، ولو أن الخبَر في الصَّحيفة لا يَذكُر شيئًا عن ذلك. وجدَ شادو نفسه يتخيَّل وجه لورا حين أدركَت أن رُبي أشدُّ سُكرًا من أن يقود، وفي ذهنه تتابعَت أحداث السيناريو بلا قُدرةٍ منه على منعها: لورا تصيح في رُبي، تصيح فيه أن يتوقَّف على جانب الطَّريق، ثم اصطدام السيَّارة بالشَّاحنة، وعجلة القيادة تدور بجنون...

... والسيَّارة على جانب الطَّريق، زُجاجها المحطَّم يتلألأ في الأضواء الأماميَّة مثل قطع من الجليد والماس، والدِّماء تتجمَّع في بِرَكٍ من الياقوت بجانبهما على الأرض. جثَّتان هامدتان أو على شفا الهمود، تُحمَلان من الحُطام أو تُوضَعان بعنايةٍ على جانب الطَّريق.

سألَه المستر أربعاء: «إذًا؟». كان قد فرغَ من الستيك، قطَّعه وأتى عليه كرجلٍ يتضوَّر جوعًا، والآن يأكل البطاطس المقليَّة بالشَّوكة ويلوكها بصوتٍ مسموع.

قال شادو: «أنتَ مُحق، ليس عندي وظيفة». ثم أخذَ من جيبه رُبع دولار جاعلًا وجه الكتابة إلى أعلى، وقذفَ العُملة في الهواء ونقرَها بإصبعه إذ خرجَت من يده، وهو ما سبَّب قلقلةً جعلَتها تبدو كأنما تدور، قبل أن يلتقطها وينزل بها على ظَهر يده قائلًا: «ملك أم كتابة؟».

- «لماذا؟».

- «لا أريدُ العمل لحساب أحدٍ أسوأ مني حظًّا. ملك أم كتابة؟».

قال المستر أربعاء: «ملك».

كاشفًا عن العُملة دون أن يُكلِّف نفسه مجرَّد النَّظر إليها، ردَّ شادو: «آسف. إنها كتابة. لقد غششتُ».

فقال الأربعاء ملوِّحًا بإصبعٍ مربَّعة في وجهه: «الألعاب المغشوشة أسهل ألعابٍ يُمكن الفوز بها. ألقِ نظرةً أخرى على العُملة».

وألقى شادو نظرةً، ليجد وجه الملك إلى أعلى.

حائرًا قال: «لا بُدَّ أنني لم أتقن الرَّمية».

علَّق الأربعاء بابتسامةٍ واسعة: «إنك تحطُّ من قدر نفسك. أنا رجل محظوظ جدًّا لا أكثر»، ثم رفعَ عينيه قائلًا: «غير معقول! سويني المجنون،* هلَّا أخذت معنا شرابًا؟».

أجابَ صوت من خلف شادو: «سذرن كُمفرت» وكولا، غير ممزوجيْن».

قال الأربعاء: «سأذهبُ لأخبر السَّاقي»، ونهضَ وبدأ يشقُّ طريقه نحو المشرب.

ناداه شادو: «ألن تسأل عمَّا سأشربه؟».

ردَّ الأربعاء: «أعرفُ ما ستشربه»، ثم وقفَ عند المشرب، فيما عادَت پاتسي كلاين تُغنِّي «المشي بعد منتصَف اللَّيل» من صندوق الموسيقى.

جلسَ الذي طلبَ «سذرن كُمفرت» وكولا إلى جوار شادو. للرَّجل لحية صهباء قصيرة، ويرتدي سُترةً من الدنيم مغطَّاةً برُقعٍ زاهية مخيطة، تحتها تيشرت أبيض مطبوع عليه:

**إن كان لا يُمكنك أن تأكله أو تشربه أو تُدخِّنه**
**أو تتنشَّقه... فنِـ*ـه!**

وفوق رأسه قُبّعة بيسبول مطبوع عليها:

**المرأة الوحيدة التي أحببتها كانت زوجة رجلٍ آخر... أمّي!**

بظُفرٍ متّسخ فتحَ الرَّجل عُلبةً ورقيّةً من سجائر «لكي سترايك»، وأخذَ لنفسه سيجارةً وعرضَ أخرى على شادو، الذي همَّ بأخذها بحركةٍ آليَّة -مع أنه لا يُدخِّن، لكن السَّجائر مادَّة جيِّدة للمقايضة- عندما أدركَ أنه لم يَعُد داخل السِّجن، وبإمكانه أن يشتري سجائر هنا متى شاءَ. هكذا هزَّ رأسه نفيًا.

سألَه الملتحي: «تعمل لحساب رجلنا إذًا؟». لم يكن مُفيقًا، لكنه ليس سكرانَ كذلك.

- «على ما يبدو».

أشعلَ الملتحي سيجارته قائلًا: «أنا لِپريكون[1]».

لم يبتسم شادو إذ قال: «حقًّا؟ ألا ينبغي أن تشرب الـ«جينِس»[2] إذًا؟».

- «يا للتَّنميط. يجب أن تُفكِّر خارج الصُّندوق. أيرلندا فيها ما هو أكثر من الـ«جينِس» بكثير».

- «لستَ تتكلَّم بلُكنةٍ أيرلنديَّة».

- «إنني هنا منذ زمنٍ طويل جدًّا».

- «أي إن أصلك من أيرلندا فعلًا؟».

- «لقد أخبرتك، أنا لِپريكون. لسنا نأتي من موسكو اللَّعينة».

- «أظنُّ هذا».

عادَ الأربعاء إلى المائدة، بسهولةٍ يحمل ثلاثة مشروباتٍ بيدين ككفوف الحيوانات. «الـ«سذرن كُمفرت» والكولا لصاحبي سويني المجنون، و«چاك دانيلز» لي، أمّا هذا فلك يا شادو».

---

(1) اللِّپريكون: مخلوق أسطوري من الفُلكلور الأيرلندي، يُصوَّر غالبًا بشكل شخصٍ قصير القامة ذي لحيةٍ حمراء كثيفة، ويلبس ثيابًا وقُبّعةً خضراء. (المُترجم).

(2) جينِس: أشهر العلامات التِّجاريَّة للبيرة في أيرلندا، ترجع إلى القرن الثَّامن عشر، ومن فرط شهرتها تحوَّلت إلى قالبٍ نمطي عن الشَّعب الأيرلندي. (المُترجم).

- «ما هذا؟».

- «ذُقه».

للشَّراب لون ذهبي أسمر، وقد أخذَ شادو رشفةً ليذوق خليطًا غير معتاد من الحامض والحُلو على لسانه، وتحت هذا ذاقَ الكحول ومزيجًا غريبًا من النَّكهات. ذكَّره الشَّراب بخمر السِّجن الرَّديئة، التي تُصنَع في كيس قمامة مما تعفَّن من فاكهةٍ وخُبزٍ مع إضافة السُّكَّر والماء، إلَّا أنه أسهل بلعًا وأحلى طعمًا وأغرب مرارًا.

قال شادو: «حسن، ها قد ذُقته. ما هو إذًا؟».

أجابَه الأربعاء: «بِتع،[*] نبيذ العسل، شراب الأبطال، شراب الآلهة».

أخذَ شادو رشفةً متردِّدةً أخرى. نعم، بإمكانه تذوُّق العسل بالفعل، هذا أحد المذاقات. «طعمه كماء المخلَّل؛ نبيذ ماء مخلَّل محلًّى».

أيَّده الأربعاء بقوله: «طعمه كبول مريض سُكَّري سكران. كم أكرهُ هذا الشَّراب».

سألَه شادو، ومعه حق: «لماذا أحضرته لي إذًا؟».

حدَّق إليه الأربعاء بعينيه غير المتماثلتَيْن. قرَّر شادو أن إحداهما زُجاجيَّة، ولو أنه لم يستطِع تمييزها. «أحضرتُ لك البِتع لتشربه لأنه التَّقليد، وحاليًّا ما أحوجنا إلى التَّقاليد. بهذا نُبرِم اتِّفاقنا».

- «لم نعقد اتِّفاقًا».

- «بل عقدنا بالطَّبع. أنت تعمل لحسابي؛ تحميني، تُعاوِنني، تنقلني من مكانٍ إلى مكان، تتحرَّى عن شيءٍ ما بين الحين والآخَر... تذهب هنا وهناك وتُلقي أسئلةً أُريدُ أجوبةً عنها. ستؤدِّي خدمات، وفي حالات الطَّوارئ -في حالات الطَّوارئ فقط- ستؤذي مَن تجب أذيَّتهم، وفي حالة موتي المستبعَدة ستبقى ساهرًا على جُثماني. في المقابل سأحرصُ على تلبية احتياجاتك على نحوٍ ملائم».

فركَ سويني المجنون لحيته الصَّهباء الكثَّة قائلًا: «إنه يحتال عليك. إنه محتال».

قال الأربعاء: «طبعًا محتال. لهذا أحتاجُ إلى مَن يرعى مصالحي».

انتهَت الأغنيَّة المنبعثة من صندوق الموسيقى، وللحظةٍ عابرة خيَّم الصَّمت على البار إذ هدأت كلُّ محادثةٍ في المكان.

علّق شادو: «في مرّةٍ قال لي أحدهم إن تلك اللّحظات التي يصمُت فيها الجميع في آنٍ واحد لا تَحدُث إلّا والسّاعة وثُلث أو إلّا ثُلثًا».

أشارَ سويني إلى ساعة الحائط فوق المشرب، المثبّتة بين فكّيْن هائلَيْن لا مباليَيْن لرأس تمساح قاطور محنَّط. كان الوقت 11:20.

قال شادو: «كما قلتُ. فلتحلَّ بي اللّعنة إن كنتُ أعرفُ لِمَ يَحدُث هذا».

قال الأربعاء: «أنا أعرفُ».[xii]

- «وهل ستُطلِع المجموعة؟».

- «قد أخبرك يومًا، نعم، وقد لا أخبرك. اشرب بِتعك».

أفرغَ شادو بقيّة الشّراب في جوفه بجرعةٍ طويلة واحدة، ثم قال: «قد يكون أفضل مع الثّلج».

ردَّ الأربعاء: «أو العكس. إنه شراب شنيع».

وافقَه سويني المجنون: «هو كذلك»، ثم أتبعَ: «أستأذنكما أيها السيّدان، لكنني أجدُ نفسي في حاجةٍ ماسّة وبالغة إلى تبوُّلٍ طويل»، ونهضَ مبتعدًا، طويل القامة حدَّ الاستحالة. قرّر شادو أنه لا يقلُّ عن الأقدام السّبعة أو نحوها طولًا.[xiii]

مسحَت نادلة سطح المائدة بخرقةٍ ورفعَت الأطباق الفارغة، وأفرغَت منفضة سجائر سويني سائلةً إن كانوا يرغبون في المزيد من المشاريب. قال لها الأربعاء أن تُحضِر دورًا آخَر من الأصناف نفسها للجميع، مع إضافة الثّلج إلى بِتع شادو هذه المرّة.

ثم عادَ الأربعاء يُخاطِب شادو: «على كلّ حال، هذا هو ما أريده منك إن عملت لحسابي، وأنت تعمل لحسابي بالطّبع».

- «هذا ما تُريده أنت. هل تودُّ أن تعرف ما أريده أنا؟».

- «لا شيء سيُسعِدني أكثر».

جلبَت النّادلة المشاريب، وأخذَ شادو رشفةً من البِتع بالثّلج. لم يُحسِّن الثّلج الطّعم، بل على الأرجح أبرزَ حموضته وجعلَه يبقى في الفم بعد ابتلاع البِتع، وإن واسى شادو نفسه بأن مذاق الشّراب ليس كحوليًا بشكلٍ خاص، فهو ليس مستعدًّا لأن يسكر، ليس بعدُ.

أخذَ نفسًا عميقًا، وقال: «طيِّب، حياتي، التي كانت طوال السِّنين الثُّلاث الماضية أبعد ما يكون عن حياةٍ عظيمة، أخذَت لتوِّها منعطفًا بيِّنًا ومباغتًا إلى الأسوأ. الآن عندي بضعة أشياء يجب أن أفعلها. أريدُ أن أذهب إلى جنازة لورا. أريدُ أن أودِّعها. بعد ذلك، إن كنت لا تزال محتاجًا إليَّ، أريدُ أن أبدأ بخمسمئة دولار في الأسبوع». كان المبلغ تقديرًا غير محسوب، ربمّا تفتَّق عنه ذهنه لحظتها. لم تُفصِح نظرة الأربعاء عن شيءٍ إذ تابعَ شادو: «إن أرضانا العمل معًا فسترفعها بعد ستَّة شهور إلى ألفٍ في الأسبوع».

صمتَ لحظةً بعد هذا الخطاب الذي يُعَدُّ أطول ما ألقى منذ أعوام، ثم أردفَ: «تقول إنه قد يُوجَد من تجب أذيَّتهم. حسن، سأوذيهم إذا حاولوا إيذاءك، لكنني لا أوذي النَّاس على سبيل التَّسلية أو مقابل مكسب. لن أعود إلى السِّجن. مرَّة واحدة تكفي».

قال الأربعاء: «لن تعود».

قال شادو: «نعم، لن أعود»، وفرغَ مما تبقَّى من البِتع. ثم إذا به يتساءَل فجأةً، في مكانٍ ما في مؤخِّرة رأسه، إن كان البِتع المسؤول عن إطلاق لسانه، إلَّا أن الكلام كان يتدفَّق منه كالماء إذ يتناثر من صنبور حريق تالف في الصَّيف، وحتى لو حاولَ لما استطاعَ منعه. «أنت لا تُعجِبني أيها المستر أربعاء أو أيًّا كان اسمك الحقيقي، ولسنا صديقيْن. لا أدري كيف نزلت من تلك الطَّائرة دون أن أراك، أو كيف تعقَّبتني إلى هنا، لكنني معجب بأسلوبك. إنك تتمتَّع بالذَّوق، وأنا عاطل حاليًا. عليك أن تعلم أنني سأرحلُ حينما نَفرُغ من عملنا، وإذا أغضبتني فسأرحلُ أيضًا، لكن حتى ذلك الحين سأعملُ لحسابك».

ابتسمَ الأربعاء، وقرَّر شادو أن ابتساماته هذه غريبة حقًّا، فلا شذرة فيها من الفُكاهة، أو السَّعادة، أو المرح. الحقيقة أن الأربعاء يبدو كأنما تعلَّم الابتسام من كُتيِّب إرشادات. «ممتاز. إن بيننا ميثاقًا إذًا، واتَّفقنا».

قال شادو: «ولِمَ لا؟».

في النَّاحية الأخرى من المكان كان سويني المجنون يدسُّ أرباع دولارات في صندوق الموسيقى. بصقَ الأربعاء في يده ومدَّها، فهزَّ شادو كتفيه وبصقَ في كفِّه، وتصافحا. بدأ الأربعاء يعتصر يده، ففعلَ شادو المثل، وبعد ثوانٍ قليلة بدأت يده تُوجِعه، وظلَّ الأربعاء مطبقًا عليها نصف دقيقةٍ آخَر، ثم أفلتَها قائلًا: «عظيم، عظيم، عظيم جدًّا»، وابتسمَ، ومضة ما كادَت تظهر حتى اختفَت، وتساءَل شادو إن كان في تلك الابتسامة مرح حقيقي، سرور فعلي.

«حسن، كأس أخيرة من البتع الشرّير الكريه اللّعين لنُبرِم صفقتنا، وهكذا نكون قد فرغنا».

قال سويني الذي اندفع عائدًا من عند صندوق الموسيقى: ««سذرن كُمفرت» وكولا لي».

بدأ صندوق الموسيقى يبثُّ «مَن يحبُّ الشَّمس؟»[٢٧] لفرقة «قلقْت أندرجراوند»، فخطرَ لشادو أن من الغريب أن يحتوي صندوق موسيقى على أغنيَةٍ كهذه، بل من المستبعَد للغاية. على أن المستبعَد أيضًا، وباطِّراد، أحداث هذا المساء.

أخذَ شادو الرُّبع دولار الذي استخدمَه في القُرعة من فوق المائدة، مستمتعًا بإحساس العُملة المسكوكة حديثًا بين أصابعه، وأخرَجها في يُمناه بين السبَّابة والإبهام، وقد بدا كأنه أخذَها في يُسراه بحركةٍ رشيقة واحدة، فيما دفعَها بإصبعه إلى راحة يُمناه كيفما اتَّفق. أغلقَ يُسراه على العُملة التَّخيُليَّة، ثم أخذَ رُبع دولارٍ آخَر في يمناه بين السبَّابة والإبهام، وبينما تظاهرَ بإسقاطه في يُسراه، تركَه يَسقُط في يُمناه ليخبط به العُملة الأخرى التي أخفاها هناك أوّلًا، ليُؤكِّد الرَّنين وهم أن العُملتين كانتا في يُسراه، في حين أنهما آمنتان الآن في يُمناه.

قال سويني رافعًا ذقنه لتَبرُز لحيته الخشنة الكثَّة أكثر: «خدع عُملة؟ طيِّب، إن كنا سنُؤدِّي خدع العُملة فشاهِد هذه»، وأخذَ من فوق المائدة الكأس التي كانت تحوي البِتع، وسكبَ مكعَّبات الثَّلج في منفضة السَّجائر، قبل أن يمدَّ يده ويأخذ عُملةً ذهبيَّة لامعةً كبيرةً من الهواء ويُسقِطها في الكأس. ثم أخذَ عُملةً ذهبيَّة أخرى من الهواء وألقاها في الكأس لترنَّ لدى اصطدامها بالأولى، وأخذَ واحدةً من لهب شمعةٍ معلَّقة على الحائط، وأخرى من لحيته، وثالثةً من يد شادو اليُسرى الخالية. واحدةً تلو الأخرى ألقى العُملات في الكأس، وبعد ذلك ثنى أصابعه فوق الكأس ونفخَ بقوَّة، لتَسقُط عُملات ذهبيَّة كثيرة أخرى من يده في الكأس، وأخيرًا سكبَ كأس العُملات اللَّزجة في جيب سُترته، وربَّت على الجيب ليُري بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنه خالٍ. «هاك. إنما هذه خدعة عُملة».

حتى شادو -الذي شاهدَ العرض الارتجالي بأكمله بانتباه- رأسه إلى الجانب قائلًا: «يجب أن نتكلَّم عن هذا. أريدُ أن أعرف كيف فعلتها».

ردّ سويني بسمت من يبوح بسرٍّ عظيم: «فعلتها باستعراضٍ وانق وبراعة هكذا فعلتها»، وبصمتٍ ضحكَ متأرجحًا على كعبيه وكاشفًا أسنانه الملأى بالفجوات.

قال شادو: «نعم، هكذا فعلتها. يجب أن تُعلّمني. كلُّ أساليب خدعة «حُلم البخيل» التي قرأتها تقول إن عليك أن تُخبِّئ العُملات في اليد الممسكة بالكأس، وتُسقِطها فيما تُخرِج العُملة وتُخفيها في يدك اليُمنى».

قال سويني: «عمل شاق للغاية في رأيي. أسهل أن آخذها من الهواء». والتقطَ شرابه الذي فرغَ من نصفه ونظرَ إليه، ثم عادَ يضعه.

رمقهما الأربعاء كأنه اكتشفَ لتوِّه صورتَي حياةٍ جديدتيْن لم يتخيّل أحد وجودهما من قبل، ثم قال: «بِتع لك يا شادو. سأبقى أنا مع المستر «جاك دانيلز»، وللأيرلندي المستغل...؟».

أجابَ سويني: «بيرة في زُجاجة، الأفضليّة لنوعٍ داكن. تقول مستغل؟». وأخذَ ما تبقّى من شرابه ورفعَه نخبًا للأربعاء قائلًا: «عسى أن تمرَّ العاصفة من فوقنا وتَترُكنا في خير صحَّةٍ وعافية»، ثم جرعَ الشَّراب دفعةً واحدةً.

علَّق الأربعاء: «نخب طيِّب، لكن ذلك لن يَحدُث».

وُضِعَت كأس أخرى من البِتع أمام شادو، فسألَ بلا حماسة: «أيجب أن أشربه؟».

- «نعم، يجب أن تفعل للأسف. هكذا نُبرِم صفقتنا. الثَّالثة ثابتة، إه؟».

غمغمَ شادو: «تبًّا»، وابتلعَ البِتع على جرعتين كبيرتين، ليملأ مذاق العسل المخلَّل فمه.

وقال المستر أربعاء: «عظيم. أنت رجلي الآن».

قال سويني لشادو: «تُريد أن تعرف كيف نفَّذتُ الخدعة؟».

- «نعم. هل كنت تضع العُملات في كُمِّك؟».

ردَّ سويني: «لم تَدخُل كُمّي إطلاقًا»، وضحكَ لنفسه بجذلٍ وهو يتأرجَح ويتقافَز كأنه بُركان نحيفٍ ملتحٍ ثمِل يستعدُّ للانفجار ابتهاجًا بألمعيَّته. «إنها أبسط خدعةٍ في العالم. سأقاتلك لقاءها».

هزَّ شادو رأسه قائلًا: «أعفني».

وجَّه سويني كلامه لمَن في المكان: «شيء مدهش! الأربعاء العجوز يُعيّن لنفسه حارسًا شخصيًا، والأخ أشدُّ خوفًا من أن يرفع قبضتيه».

قال شادو مؤيّدًا: «لن أقاتلك».

ترنَّح سويني ورشحَ عَرقًا، وداعبَ قمّة قُبَّعة البيسبول فوق رأسه، ثم سحبَ واحدةً من عُملاته من الهواء ووضعَها على المائدة قائلًا: «ذهب حقيقي إن كنت تتساءل. سواء أفُزت أم خسرت -ولسوف تخسر- فهي لك إن قاتلتني. رجل كبير مثلك، مَن كان ليحسبك جبانًا لعينًا؟».

خاطبَه الأربعاء: «قال إنه لن يُقاتِلك. ارحل يا سويني المجنون، خُذ بيرتك ودعنا في سلام».

دنا سويني منه خُطوةً، وقال: «ادعُني بالمستغل، هيًّا أيها الكائن العجوز الهالك، يا محبَّ الشَّنق من الأشجار، يا بارد الدَّم يا عديم القلب!». كان وجهه يتضرَّج بحُمرة قانية غاضبة.

بسطَ الأربعاء يديه مهادنًا، وردَّ: «ما تفعله حماقة يا سويني. انتبِه لكلامك».

حملقَ إليه سويني، ثم قال بجدِّيَّة مَن سكرَ جدًّا: «استأجرتَ جبانًا. ما الذي تحسبه فاعلًا إذا آذيتك؟».

التفتَ الأربعاء إلى شادو قائلًا: «اكتفيتُ من هذا. تولَّ الأمر».

نهضَ شادو ورفعَ ناظريْه إلى وجه سويني المجنون. كم طول هذا الرَّجل؟ «إنك تُزعِجنا. أنت سكران. أظنُّ أن عليك الرَّحيل الآن».

انبسطَت ابتسامة بطيئة على وجه سويني، وقال: «هكذا إذًا، مثل كلبٍ صغير نبَّاح صارَ مستعدًّا للقتال أخيرًا»، ونادى الحاضرين متابعًا: «اسمعوا جميعًا، أحدهم سيتعلَّم درسًا. تفرَّجوا!»، وطوَّح بقبضةٍ ضخمة نحو وجه شادو، الذي تراجعَ بحركةٍ حادَّة، لكن يد سويني أصابَته تحت عينه اليُمنى، ليرى لُطخًا من الضَّوء وينتابه الألم.

وبهذا بدأ القتال.

قاتلَ سويني بلا فن، بلا علم، بلا شيءٍ إلَّا الحماسة للقتال ذاته، وهكذا لوَّح بذراعيه مسدِّدًا ضرباتٍ هائلةً غاشمةً أخطأت الهدف بقدر ما أصابَته.

أمَّا شادو فقاتلَ مدافعًا، بحذر، يصدُّ ضربات سويني أو يتفاداها. أصبحَ على وعيٍ شديد بالجمهور المحيط بهما إذ سُحِبَت الموائد بعيدًا عن الطَّريق

لإفساح مجالٍ لقتال الرَّجلين، لتئنَّ محتجَّةً مع احتكاكها بالأرض. وظلَّ شادو مدركًا طوال الوقت أن عينَي الأربعاء عليه، وأنه يبتسم ابتسامته العريضة الخالية من المرح. إنه اختبار، هذا واضح، ولكن أيُّ نوعٍ من الاختبارات؟ في السِّجن تعلَّم شادو أن للقتال نوعين: نوع «لا تعبث معي» الذي تجعله استعراضيًّا مؤثِّرًا قدر الإمكان، والنَّوع السرِّي، القتال الحقيقي بسرعته وشدَّته وبشاعته، الذي ينتهي دائمًا في لحظات.

لاهثًا قال شادو: «أنت، سويني، لماذا نتقاتل؟».

أجابَه سويني الذي أفاق، أو لم يَعُد يبدو عليه السُّكر على الأقل: «لما في الشِّجار من نشوة، لما فيه من لذَّةٍ آثمة خالصة. ألا تَشعُر بالنَّشوة تجري في عروقك كنُسغ الأشجار في الرَّبيع؟». كانت شفتاه تنزفان، وكذا مفصل إصبع شادو.

سألَه شادو: «كيف نفَّذت حيلة العُملة؟»، ومالَ إلى الخلف والتوى ليتلقَّى على كتفه ضربةً هدفها وجهه.

دمدمَ سويني: «الحقيقة أنني أخبرتك كيف نفَّذتها في بداية كلامنا، لكن لا أحد أشدُّ عمًى -آو! أحسنت!- ممَّن يأبى الإصغاء».

وجَّه شادو بضع لكماتٍ إلى سويني مجبرًا إياه على التَّقهقُر حتى ارتطمَ بمائدة، ليَسقُط ما عليها من كؤوسٍ فارغة ومنافض سجائر أرضًا. كان بإمكان شادو الإجهاز عليه لحظتها، فالرَّجل أعزل وليس في وضعٍ يُتيح له أن يفعل شيئًا وهو منطرح على الأرض هكذا.

نظرَ شادو نحو الأربعاء، الذي أومأ برأسه، فعادَ يَنظُر إلى سويني المجنون سائلًا: «هل فرغنا؟».

تردَّد الأيرلندي ثم أومأ برأسه، فأفلتَه شادو وتراجعَ عدَّة خُطوات، ولاهثًا دفعَ سويني نفسه للوقوف من جديد.

وصاحَ سويني: «انسَ! لن ينتهي القتال حتى أقول إنه انتهى!»، وابتسمَ ابتسامةً واسعةً وألقى نفسه إلى الأمام مطوِّحًا بقبضته في وجه شادو، إلَّا أنه خطا فوق مكعَّب ثلج على الأرض، لتتحوَّل ابتسامته إلى ارتياعٍ ويفغر فاه إذ زلَّت قدماه من تحته، ويَسقُط إلى الوراء فترتطم مؤخِّرة رأسه بأرض البار بصوتٍ حاسم.

ضغطَ شادو على صدر سويني المجنون برُكبته، وسألَه: «للمرَّة الثَّانية، هل فرغنا من القتال؟».

أجاب سويني رافعًا رأسه عن الأرض: «ليكن إذًا، فالنُّشوة تسرَّبت مني كما يتسرَّب البول من صبيٍّ صغير في حوض سباحةٍ في يومٍ حارٍ»، وبصق الدَّم من فمه وأغمض عينيه وبدأ يغطُّ غطيطًا عميقًا عظيمًا.

ربَّت أحدهم على ظهر شادو، ثم وضع الأربعاء زُجاجةً من البيرة في يده.

وكان مذاقها أفضل من البِتع.

استيقظَ شادو متمدِّدًا على الأريكة الخلفية في سيَّارة صالون، وكان ضوء شمس الصَّباح باهرًا ورأسه يُؤلِمه. بحركةٍ خرقاء اعتدلَ جالسًا وفركَ عينيه.

كان الأربعاء وراء عجلة القيادة، يُدَندِن لحنًا غير منغَّم، وقد وضعَ كوب قهوةٍ ورقيًّا في حامل الأكواب، والمقعد المجاور له شاغرًا. تقطع السيَّارة ما يبدو أنه طريق ولاياتٍ سريع، ونظام التَّحكُّم في السُّرعة مضبوط على 65 ثانية.

دون أن يلتفِت سألَه الأربعاء: «كيف حالك في هذا الصَّباح الجميل؟».

قال شادو: «ماذا حدثَ لسيَّارتي؟ إنها مستأجَرة».

- «سويني المجنون أعادَها بدلًا منك. كان هذا جزءًا من الاتِّفاق الذي أجريتماه ليلة أمس».

- «اتِّفاق؟».

- «بعد القتال».

ردَّد شادو: «قتال؟»، ورفعَ يده يَفرُك خدَّه، وجفلَ ألمًا. نعم، لقد وقعَ قتال. تذكَّر رجلًا فارعًا أصهب اللِّحية، والتَّشجيع والتَّهليل من جمهورٍ معجب. «مَن فازَ؟».

قهقهَ الأربعاء، وقال: «لست تَذكُر، إه؟».

ردَّ شادو وقد بدأت حوارات البارحة تتزاحَم في رأسه على نحوٍ غير مريح: «ليس الكثير. أمعك المزيد من القهوة؟».

مدَّ الرَّجل الكبير يده تحت المقعد المجاور، وناولَه زُجاجة ماءٍ غير مفتوحةٍ قائلًا: «هاكَ. مؤكَّد أنك مصاب بالجفاف. سيُفيدك هذا أكثر من القهوة في الوقت الحالي. سنتوقَّف عند محطَّة الوقود التَّالية ونشتري لك فطورًا. عليك أن تُنظِّف نفسك أيضًا. إنك تبدو كشيءٍ اقتنصَته المعزاة».

- «اقتنصَته القطَّة».

- «المعزاة، معزاة ضخمة عفنة نتنة كبيرة الأسنان».**

خلعَ شادو غطاء زُجاجة الماء وشرِبَ. أحدثَ شيء ما رنينًا ثقيلًا في جيب سُترته، فدسَّ يده في الجيب وأخرجَ قطعة عُملةٍ بحجم النِّصف دولار، وزنها ثقيل ولونها أصفر فاقع وملمسها على شيءٍ من اللُّزوجة. أخفاها شادو في يُمناه بالطَّريقة الكلاسيَّة، ثم أخرجَها من بين خنصره وبنصره، وبعد ذلك أخفاها في راحة يده ممسكًا إياها بين سبَّابته وخنصره بحيث تبدو خفيَّةً من الخلف، ثم دسَّ بنصره ووُسطاه تحتها ليُدوِّرها بنعومةٍ بحيث يُخفيها وراء ظَهر يده، وأخيرًا أسقطَ العُملة معيدًا إياها إلى يُمناه، ووضعَها في جيبه.

سألَ شادو: «ماذا شربتُ ليلة أمس بحقِّ الجحيم؟». الآن تحتشد أحداث اللَّيلة من حوله بلا شكلٍ ولا مدلول، وإن أدركَ وجودها.

لمحَ المستر أربعاء مخرجًا يَعِدُ بمحطَّة وقود، فزاد السُّرعة قائلًا: «ألا تذكُر؟».

- «نعم».

أجابَ الأربعاء: «كنت تشرب البِتع»، وارتسمَت على وجهه ابتسامة في غاية الاتِّساع.

*البِتع.*

نعم.

أسندَ شادو ظَهره إلى مقعده وجرعَ الماء من الزُّجاجة تاركًا أحداث اللَّيلة السَّابقة تتراءى له. معظمها استعادَته ذاكرته، وبعضها لم يتذكَّره.

في محطَّة الوقود ابتاعَ شادو عُدَّة نظافة تحتوي على موسى، وكيسٍ من كريم الحلاقة، ومشط، وفرشة أسنان للاستعمال مرَّة واحدة، وأنبوبٍ ضئيل من معجون الأسنان، ثم دخلَ دورة مياه الرِّجال ونظرَ إلى نفسه في المرآة.

تحت عينه كدمة -لمَّا نخزَها بإصبعه من باب التَّجربة آلمَته للغاية- وشفته السُّفلى متورِّمة، وشعره متلبِّد، وإجمالًا يبدو كأنما قضى النِّصف الأول من اللَّيلة الماضية في شجار، وبقيَّتها في نومٍ عميق بكامل ثيابه على أريكة سيَّارة خلفيَّة. من المؤخِّرة تناهَت إلى مسامعه موسيقى ذات طابعٍ معدني مثل الصَّفيح، واستغرقَ بضع لحظاتٍ حتى ميَّز أغنيَّة «أحمق فوق التَّل»[XVI] لـ «البيتلز».

غسلَ شادو وجهه بصابون الحمَّام السَّائل، ثم رغَّاه بالكريم وحلقَه، وبلَّل شعره ومشَّطه، وغسلَ أسنانه، وأخيرًا نظَّف وجهه بالماء الفاتر من بقايا الصَّابون ومعجون الأسنان، ورمقَ انعكاسه في المرآة. حليق، ولو أن عينيه ما زالتا حمراويْن منتفختيْن، ويبدو أكبر سنًّا مما يتذكَّر.

تساءلَ عمَّا ستقوله لورا عندما تراه، ثم تذكَّر أنها لن تقول أيَّ شيءٍ ثانيةً، وفي المرآة رأى وجهه يختلج، ولكن للحظةٍ فقط.

ثم خرجَ.

- «أبدو مزريًا».

قال الأربعاء مؤيِّدًا: «طبعًا».

أخذَ الأربعاء تشكيلةً من الأطعمة الخفيفة إلى الكاشير، ودفعَ ثمنها وثمن الوقود مغيِّرًا رأيه مرَّتين بشأن الدَّفع بالبلاستيك أم نقدًا، وهو ما ضايقَ الشَّابَّة ماضغة اللُّبان الواقفة وراء آلة تسجيل النَّقديَّة. شاهدَ شادو فيما تزايدَ ارتباك الأربعاء واعتذاراته، وقد بدا فجأةً عجوزًا طاعنًا في السِّن. ردَّت له الفتاة نقوده ووضعَت المشتروات على البطاقة، ثم ناولَته إيصال البطاقة وأخذَت النُّقود، ثم أعادَت النُّقود وأخذَت بطاقةً مختلفةً. كان واضحًا أن الأربعاء على وشك البُكاء، يبدو رجلًا مسنًّا أعجزَه زحف البلاستيك العنيد على العالم الحديث.

ألقى شادو نظرةً على الهاتف العمومي، فوجد عليه لافتةً معلَّقةً تُعلِن أنه خارج الخدمة.

ثم خرجا إلى محطَّة الوقود الدَّافئة، وخرجَت أنفاسهما بُخارًا في الهواء.

سألَ شادو: «أتُريدني أن أقود؟».

- «لا طبعًا».

انطوى الطَّريق السَّريع من تحتهما. على الجانبين مروج من العُشب المستشري فيه البنِّي، والأشجار ميتة بلا ورق، ومن فوق سلك تلجراف رمقَهما طائران أسودان.

- «أيها الأربعاء».

- «ماذا؟».

- «حسب ما رأيتُ في الدَّاخل، أنت لم تدفع ثمن الوقود».

- «أوه؟».

- «حسب ما رأيته، هي التي دفعت لك لقاء امتياز وجودك في محطتنا. أتظنها اكتشفت الأمر بعدُ؟».

- «لن تكتشفه أبدًا».

- «مَن أنت إذًا؟ نصّاب تافه؟».

أومأ الأربعاء برأسه مجيبًا: «نعم، أظنُّ هذا، ضمن أشياء أخرى»، وانتقل إلى الحارة اليُسرى ليتجاوز شاحنةً. كانت السّماء كئيبة المنظر ولونها الرّمادي متجانسًا.

قال شادو: «سيَسقُط الثّلج».

- «نعم».

- «سويني، هل أراني حقًا كيف نفّذ خدعة العُملات الذّهب؟».

- «أوه، نعم».

- «لستُ أذكرُ».

- «ستفعل. كانت ليلةً طويلةً».

مسّت نُدف ثلجٍ صغيرة عديدة زُجاج النّافذة الأماميّة لتذوب في ثوانٍ.

قال الأربعاء: «جُثمان زوجتك معروض للمعزّين في «دار وندل للجنازات» حاليًا، وبعد الغداء سيأخذونها إلى المقابر ليدفنوها».

- «كيف عرفت؟».

- «اتّصلتُ بهم وأنت في المرحاض. هل تعرف مكان «دار وندل للجنازات» تلك؟».

أومأ شادو برأسه إيجابًا، وأمامهما دارت رُقاقات الثّلج في منظرٍ مدوّخ.

قال شادو: «هذا مخرجنا»، فانحرفَت السيّارة عن طريق الولايات مارّةً بمجموعة الموتلات الواقعة شمال إيجل پوينت.

ثلاث سنواتٍ مرّت، أجل. زالَ موتل «سوپر 8»، هُدِمَ وحلَّ محلّه مطعم «وندي»، وهناك المزيد من إشارات المرور، وواجهات محال غير مألوفة. شقّا طريقهما إلى وسط البلدة، وطلبَ شادو من الأربعاء أن يُبطئ الحركة إذ مرّا بـ «مزرعة العضلات»، التي قالت اللّافتة المكتوبة بخطّ اليد المعلّقة على بابها: «**المكان مغلق لأجل غير مسمّى نظرًا إلى حالة وفاة**».

يمارًا في الشّارع الرّئيسي، ومرورًا بصالون وشومٍ جديد ومكتب تجنيد القوّات المسلّحة، ثم «برجر كينج»، و«صيدليّة أولسن» المألوفة التي لم تتبدّل، وفي النّهاية واجهة «دار وندل للجنازات» القرميد الصّفراء. في النّافذة الأماميّة لافتة نيون تقول: «دار الرّاحة»، وتحت اللّافتة عدد من شواهد القبور المصمتة، بلا أسماء وبلا نقوش.

أوقفَ الأربعاء السيّارة في الموقف، وسألَ شادو: «أتُريدني أن أدخل معك؟».

- «ليس بشكلٍ خاص».

ومضت الابتسامة العريضة عديمة المرح، وقال الأربعاء: «عظيم. عندي عمل يُمكنني أن أتولّاه فيما تُودّع زوجتك. سأحجزُ لنا حُجرتيْن في «موتل أمريكا». قابِلني هناك بعد أن تَفرُغ».

ترجّل شادو من السيّارة وشاهدَه يبتعد، ثم دخلَ. في الرُّواق معتم الإضاءة تفوح رائحة الزُّهور وملمِّع الأثاث، وتحت السَّطح مسحة خفيفة للغاية من الفُرمالدهايد والعفن، وفي أقصى الرُّواق يقع مُصلّى الرّاحة.

أدركَ شادو أنه يُداعِب العُملة الذّهب، ينقلها مرغمًا، مرّةً بعد مرّة، من الإخفاء في باطن كفّه إلى الإخفاء وراء ظَهرها إلى الإخفاء على طريقة داونز.(1) كان وزنها في يده مُطَمْئِنًا.

وجدَ اسم زوجته مكتوبًا على فرخٍ من الورق بجوار الباب في طرف الرُّواق، قبل أن يَدخُل إلى مُصلّى الرّاحة. معظم مَن في القاعة يعرفهم شادو: أهل لورا وزُملاؤها في وكالة السّفريّات وعدد كبير من أصدقائها.

وتعرّفوه جميعًا بدورهم، وقد رأى هذا في وجوههم، ولو أن أحدًا لم يبتسم أو يُلقِ التّحيّة.

في أقصى الحُجرة منصّة صغيرة، وفوقها تابوت بلون الكِريمة تُحيط به عدّة باقات من الأزهار المتنوِّعة ألوانها بين القرمزي والأصفر والأبيض والأرجواني الدّمويّ القاني. أخذَ خُطوةً إلى الأمام، ومن حيث وقفَ رأى جثّة لورا. لم يُرِد شادو أن يتقدّم، ولم يجرؤ على الابتعاد.

---

(1) توماس نلسن داونز: ساحر استعراضي أمريكي من القرن التّاسع عشر، اشتهرَ بأنه أول من ابتكرَ خدع العُملة، وأجادَها لدرجة تلقيبه بملك العُملات. (المُترجم).

أتى رجل يرتدي بدلةً غامقةً -خمَّن شادو أنه يعمل في دار الجنازات- وقال له: «سيِّدي، هل ترغب في توقيع دفتر التَّعازي وإحياء الذِّكرى؟»، وأشار إلى دفترٍ مغلَّف بالجلد مفتوح فوق مِقرأ.

بخطِّ يده النَّضيد كتبَ شادو وتاريخ اليوم، ثم، بتأنٍّ، كتبَ (جروكِ) إلى جوارهما، مسوِّفًا الذَّهاب إلى طرف القاعة حيث النَّاس، والتَّابوت الكريمي، والشَّيء الموضوع فيه الذي لم يَعُد لورا.

دخلَت امرأة صغيرة الحجم من الرُّواق، وتردَّدت. شعرها أحمر نُحاسي، وثيابها باهظة الثَّمن وحالكة السَّواد. *ثياب أرملة*. هكذا فكَّر شادو الذي يعرف المرأة جيِّدًا: أودري برتن، زوجة رُبي.

في يد أودري غُصين من زهور البنفسج، ملفوف عند القاعدة بشريطٍ من ورق القصدير الفضِّي، وقد فكَّر شادو أنه أقرب إلى شيءٍ يصنعه طفل في شهر يونيو، أمَّا الآن فليس موسم البنفسج.

نظرَت أودري إلى شادو مباشرةً، ولم يَلُح في عينيها أنها تعرَّفته، ثم قطعَت القاعة صوب تابوت لورا، وتبعَها شادو.

مُدِّدَت لورا مغمضة العينين بذراعين مطويَّتين على صدرها، وقد سُجِّيَت ببدلةٍ زرقاء محتشمة لم يتعرَّفها شادو، وأزيحَ شعرها البنِّي الطَّويل عن عينيها. هي حبيبته لورا وليست هي. أدركَ شادو أن وضع رُقادها هو ما يبدو غير طبيعي، فلطالما كانت لورا تتقلَّب في نومها.

وضعَت أودري غُصين البنفسج الصَّيفي على صدر لورا، ثم زمَّت شفتيها الملوَّنتين كالتُّوت الأسود وحرَّكت فمها لحظةً، وبقوَّةٍ بصقَت في وجه لورا الميت.

وحطَّت البصقة على وجنة لورا، وبدأت تسيل نحو أُذنها.

كانت أودري تتَّجه نحو الباب بالفعل، وهرعَ شادو ليلحق بها.

قال: «أودري؟»، وهذه المرَّة تعرَّفته. تساءلَ إن كانت تتعاطى مهدِّئات، إذ خرجَ صوتها شاردًا تائهًا.

- «شادو؟ هل هربت؟ أم إنهم أخرَجوك؟».

- «أخرَجوني أمس. أنا رجل حُر. لماذا فعلتِ هذا بحقِّ الجحيم؟».

توقَّفت في الرُّواق المظلم قائلةً: «البنفسج؟ لطالما كان زهرها المفضَّل. اعتدنا قطفه معًا في صِغرنا».

- «ليس البنفسج».

قالت: «أوه، تقصد الشَّيء الآخَر»، ومسحَت بُقعةً صغيرةً من شيءٍ خفيٍ عن رُكن فمها، وتابعَت: «حسبتُ السَّبب واضحًا».

- «ليس لي يا أودري».

بصوتٍ هادئ خالٍ من المشاعر ردَّت: «ألم يُخبِروك؟ زوجتك ماتَت وشيء زوجي في فمها يا شادو».

ودارَت وخرجَت إلى الموقف، وشاهدَها شادو تُغادِر.

وحين عادَ إلى داخل دار الجنازات كان أحدهم قد مسحَ البصقة.

---

لا أحد من الحاضرين استطاعَ النَّظر في عينيه، ومَن أتوا وكلَّموه فعلوا هذا على أضيق نطاقٍ ممكن، فهمهَموا بتعازٍ تعوزها اللَّباقة ولاذوا بالفرار.

بعد الغداء -الذي تناولَه شادو في «برجر كينج»- حانَ وقت الدَّفن. ذهبَ تابوت لورا الكريمي إلى المقابر غير الطَّائفيَّة الصَّغيرة على حافة البلدة، وهي عبارة عن مرج بلا أسوار، تنتشر فيه الأشجار والآكام، وتملؤه شواهد قبورٍ من الجرانيت الأسود والرُّخام الأبيض.

ركبَ شادو عربة نقل الموتى التَّابعة لـ «وندل» إلى المقابر مع أمِّ لورا، وقد بدا أن المسز مكيب تلوم شادو على موت لورا، إذ قالت له: «لو كنت موجودًا لما حدثَ هذا أبدًا. لا أدري لماذا تزوَّجتك. لقد أخبرتها، مرارًا وتكرارًا أخبرتها، لكنهم لا يُنصِتون لأمَّهاتهم، أليس كذلك؟»، وتوقَّفت وأمعنَت النَّظر إلى وجه شادو سائلةً: «أكنت تتشاجَر؟».

- «نعم».

قالت: «بربري»، ثم كبسَت فمها، ورفعَت رأسها ليرتجف ذقنها، وثبَّتت ناظريْها على ما أمامها مباشرةً.

لدهشة شادو، حضرَت أودري برتن أيضًا الجنازة واقفةً قُرب الخلفيَّة. انتهَت مراسم الدَّفن، وأُودِعَ النَّعش الأرض الباردة، ورحلَ النَّاس.

أمَّا شادو فلم يرحل، بل بقيَ واقفًا ويداه في جيبيْه، يرتجف ويُحدِّق إلى الحُفرة في الأرض.

من فوقه بدت السَّماء رماديَّةً كما الحديد، بلا معالم ومسطَّحةً كالمرآة. واستمرَّ الثَّلج يَسقُط بغير انتظام، تهوي من علٍ نُدفه الشَّبيهة بالأشباح.

أرادَ شادو أن يقول للورا شيئًا، وقد هيَّأ نفسه للانتظار حتى يعرف ماهية ذلك الشَّيء. بدأ العالم يفقد ضوءه وألوانه بتؤدة، وبدأ شادو يحسُّ بالخدر في قدميه، فيما آلمَته يداه ووجهه من البرد. دسَّ يديه في جيبيْه سعيًا للدِّفء، وانغلقَت أصابعه حول العُملة الذَّهب.

تقدَّم شادو إلى القبر.

وقال: «هذه من أجلكِ».

فوق التَّابوت أُهيلَت رُفوش عديدة من الثَّرى، لكن الحُفرة لا تزال بعيدةً عن الامتلاء، وهكذا ألقى شادو العُملة الذَّهب داخل القبر مع لورا، وأهالَ المزيد من الثَّرى داخل الحُفرة ليُخفي العُملة عن حفَّاري القبور الطمَّاعين، ثم نفضَ التُّراب عن يديه قائلًا: «تُصبحين على خير يا لورا»، ثم أضافَ: «أنا آسف»، ويمَّم وجهه نحو أضواء البلدة، وبدأ رحلة العودة مشيًا إلى إيجل پوينت.

يَبعُد الموتل ميليْن كامليْن، ولكن بعد قضاء شادو ثلاث سنواتٍ في السِّجن طابَت له فكرة أن يمشي ويمشي ببساطة، للأبد إذا دعَت الحاجة. يُمكنه أن يُواصِل المشي شمالًا حتى يصل إلى ألاسكا، أو يتَّجه جنوبًا إلى المكسيك وما بعدها. يُمكنه أن يمشي إلى پاتاجونيا، أو إلى تييرا دِل فويجو، أرض النَّار. حاولَ أن يتذكَّر كيف اكتسبَ ذلك الأرخبيل اسمه، فتذكَّر أنه قرأ في صِباه عن أناسٍ عُراة قابعين حول النَّار ليتدفَّأوا...

توقَّفت سيَّارة إلى جواره، ونزلَت النَّافذة مصحوبةً بطنين.

وسألَته أودري برتن: «أتُريد توصيلةً يا شادو؟».

- «لا، ليس منكِ».

استأنفَ شادو المشي، وتحرَّكت أودري إلى جانبه بسرعة ثلاثة أميالٍ في السَّاعة، وفي شُعاعَي الضَّوء المنبعثيْن من مقدِّمة السيَّارة تراقصَت رقائق الثَّلج.

قالت أودري: «حسبتها أعزَّ صديقاتي. كنا نتكلَّم كلَّ يوم، وكانت أول من يعلم إذا تشاجرتُ مع رُبي. اعتدنا الذَّهاب إلى «تشي-تشي» لنتكلَّم عن حقارة الرِّجال، وطوال الوقت كانت تُضاجِعه من وراء ظهري».

- «أرجوكِ ارحلي يا أودري».

- «فقط أريدك أن تعرف أني فعلتُ ما فعلته لسببٍ وجيه».

ولم يردَّ شادو.

زعقت: «أنت! أنت! إنني أكلِّمك!».

التفتَ شادو قائلًا: «أتُريدينني أن أقول لكِ إنكِ كنتِ محقَّةً حين بصقتِ في وجه لورا؟ أتُريدينني أن أقول إن هذا لم يُؤلِمني؟ أو إن ما أخبرتني به جعلني أكرهها أكثر مما أفتقدها؟ لن يَحدُث يا أودري».

تحرَّكت إلى جانبه دقيقةً أخرى من غير أن تنبس بكلمة، ثم سألَته: «كيف كان السِّجن يا شادو؟».

- «لا بأس به. كنتِ لتَشعُري كأنكِ في بيتكِ».

عندئذٍ وضعَت قدمها على دوَّاسة الوقود ليرتفع هدير المحرِّك، وانطلقَت مبتعدةً.

أظلمَ العالم في غياب أضواء السيَّارة، واستحالَ الشَّفق إلى ليل. ظلَّ شادو يتوقَّع أن يُؤدِّي فعل المشي إلى تدفئته، إلى بثِّ الدِّفء في يديه وقدميه الباردة كالجليد، غير أن دفئًا لم يجئ.

ذات مرَّةٍ في الحبس أشارَ لُو كي لايسميث إلى مقبرة السِّجن الصَّغيرة الواقعة وراء المستوصف باسم «بُستان العظام»، وتجذَّرت الصُّورة في عقل شادو. ليلتها حلمَ ببُستانٍ تحت نور القمر، بُستانٍ من الأشجار البيضاء الشَّبيهة بالهياكل العظميَّة، تنتهي فروعها بأيدٍ من عظم، وتنغرس جذورها في أعماق القبور. في الحُلم نمَت فاكهة على شجر بُستان العظام، وفي الحُلم أعطَت تلك الفاكهة انطباعًا مزعجًا للغاية، ولكن لدى استيقاظه لم يَعُد شادو يَذكُر نوع تلك الفاكهة الغريبة على الأشجار، أو لِمَ نفَّرته أيَّما نفور.

مرَّت السيَّارات بشادو الذي تمنَّى لو أن على جانب الطَّريق رصيفًا. تعثَّر بشيءٍ ما لم يستطِع رؤيته في الظَّلام، ليَسقُط في الخندق على جانب الطَّريق، وتغوص يده اليُمنى في بوصاتٍ عدَّة من الوحل البارد. نهضَ ومسحَ يديه على ساقَي بنطاله، ووقفَ في مكانه شاعرًا بالارتباك، ولم يجد وقتًا يكفي إلَّا ليلحظ وجود أحدٍ إلى جواره، قبل أن يُوضَع شيء مبتل عنوةً على أنفه وفمه، فيتذوَّق أبخرةً كيماويَّةً مزعجةً.

وهذه المرَّة بدا الخندق دافئًا مريحًا.



أحسّ شادو كأنما أعيد تثبيت صدغيه ببقيّة جمجمته بمسامير تسقيف. كان بصره مشوّشًا ويداه مقيّدتين وراء ظهره بشيءٍ ملمسه كالأحزمة، ويجلس في سيّارةٍ ما على مقعدٍ مكسو بالجلد. لوهلةٍ تساءلَ إن كان تلفٌ أصاب إدراك العُمق في بصره، قبل أن يُدرك أن لا، المقعد الآخر بعيد لتلك الدّرجة حقًّا.

عن جانبيه يجلس شخصان، وإن لم يستطِع الالتفات لينظُر إليهما.

أخذَ الشّاب البدين، الجالس في طرف الليموزين المطوّلة الآخَر، عُلبة «دايت كولا» من بار الكوكتيل وفتحَها. معطفه الأسود مفصّل من مادّةٍ حريريّةٍ ما، ويبدو أنه تجاوزَ سنوات المراهَقة بالكاد، فإحدى وجنتيه مبقّعة بحَبِّ الشّباب اللّامع.

على إثر رؤيته شادو يفيق، ابتسمَ قائلًا: «أهلًا شادو. لا تعبث معي».

- «حسن، لن أفعل. هلّا أنزلتني أمام «موتل أمريكا» عند الطّريق السّريع؟».

قال الشّاب للجالس عن يسار شادو: «اضربه»، لتهوي لكمة على ضفيرته البطنيّة مفرغةً صدره من الهواء وجاعلةً إياه ينثني على نفسه.

وببُطءٍ اعتدلَ شادو في جلسته.

- «قلتُ ألّا تعبث معي. كان هذا عبثًا معي. اجعل أجوبتك قصيرةً وفي صميم الموضوع وإلّا قتلتك قتلًا. أو قد لا أقتلك. قد أجعلُ الأطفال يكسرون كلّ عظمةٍ في جسدك اللّعين. إن عددهم مئتان وستّة. لا تعبث معي إذًا».

ردّ شادو: «فهمتُ».

تبدّلت ألوان سقف الليمو من البنفسجي إلى الأزرق، ثم إلى الأخضر، وبعده الأصفر.

قال الشّاب: «تعمل لحساب الأربعاء».

- «نعم».

- «إلامَ يسعى ذلك الملعون؟ ما الذي يفعله هنا؟ مؤكّد أن لديه خطّة. ما خطّة اللّعبة؟».

- «لقد بدأتُ العمل لحساب المستر أربعاء هذا الصّباح. إنني ساعٍ، وربما سائق إذا تركني أسوقُ. لم نتبادَل إلّا كلامًا محدودًا للغاية».

- «تقول إنك لا تعرف؟».

- «أقولُ إنني لا أعرفُ».

حدّق إليه الفتى، ثم بلع القليل من الكولا وتجشّأ، وواصل التّحديق. «أكنت لتُخبرني لو أنك تعرف؟».

أجابَ شادو بصراحة: «غالبًا لا. كما تقول، إنني أعملُ لحساب المستر أربعاء».

فتحَ الفتى سُترته متناولًا عُلبة سجائر فضّيّةً من جيبه الدّاخلي، وفتحَها مقدّمًا لشادو سيجارةً. «تُدخّن؟».

فكّر شادو أن يَطلُب حلّ وثاقه، لكنه قرّر ألّا يفعل ذلك، وقال: «لا، شكرًا».

بدَت السّيجارة ملفوفةً باليد، ولمّا أشعلَها الفتى بقدّاحةِ «زيپو»[***] سوداء باهتة أفعمَت الليمو رائحةٌ ليست تبغًا. قرّر شادو أنها ليست ماريجوانا كذلك، فالرّائحة شبيهة إلى حدٍّ ما بالقطع الكهربائيّة المحترقة.

أخذَ الفتى نفسًا عميقًا وكتمَ زفيره، ثم تركَ الدُّخان يَخرُج من فمه ببُطءٍ شديد قبل أن يسحبه ثانيةً بمتخريْه. خمّن شادو أنه تمرّن على هذه الحركة أمام المرآة فترةً قبل أن يُنفّذها علنًا.

قال الفتى كما لو أنه يتكلّم من مكانٍ بعيد جدًّا: «إن كذبت عليَّ فسأقتلك قتلًا. تعلم هذا».

- «هكذا قلتَ».

سحبَ الفتى نفسًا طويلًا آخَر من سيجارته، وتحوّل الضّوء داخل الليمو من البرتقالي إلى الأحمر، ثم عادَ إلى الأرجواني. قال الفتى: «تقول إنك نزيل في «موتل أمريكا»؟»، ونقرَ على نافذة السّائق خلفه، فانخفضَ الزُّجاج. «إلى «موتل أمريكا» عند الطّريق السّريع. يجب أن نُنزِل ضيفنا».

أومأ السّائق برأسه، وعادَ الزُّجاج يرتفع.

استمرّت الألياف الضّوئيّة الوامضة في التّبدُّل داخل الليمو، تدور في سلسلة الألوان المعتمة المضبوطة عليها، وقد بدا لشادو أن عينَي الفتى تُومِضان أيضًا بأخضر شاشة كمپيوتر عتيقة.

- «بلّغ الأربعاء يا رجل، بلّغه أنه صارَ ماضيًا، أنه منسيٌّ، عجوز، وخيرٌ له أن يتقبّل هذا. بلّغه أننا المستقبل ولا نُبالي مقدار ذرّةٍ به أو بأيِّ أحدٍ مثله. أوانه انتهى، مفهوم؟ بلّغه هذا يا رجل. إنه ملقى في مزبلة التّاريخ فيما يَركَب أمثالي الليموزين على طريق الغد فائق السُّرعة».

قال شادو: «سأبلّغه». كان قد بدأ يحسُّ بدوخة، وأملَ ألّا يتقيأ.

- «بلّغه أننا أعدنا برمجة الواقع، بلّغه أن اللُّغة ڤيروس والدِّين نظام تشغيل والصّلوات ما هي إلّا سُخام إلكتروني مفرط. أخبره بهذا وإلّا قتلتك قتلًا». قالها الشّاب بوداعةٍ بفعل الدُّخان.

قال شادو: «فهمتُ. يُمكنك أن تُنزِلني هنا. بإمكاني أن أمشي باقي الطّريق».

أومأ الشّاب برأسه قائلًا: «سرّني الحديث معك». كان الدُّخان قد لطّفه. «جديرٌ بك أن تعلم أننا إذا قتلناك فما علينا إلّا حذفك، مفهوم؟ ضغطة واحدة وتحلُّ محلّك آحاد وأصفار عشوائيّة. عكس عمليّة الحذف ليس خيارًا»، ونقرَ على النّافذة وراءه، وقال: «سينزل هنا»، ثم عادَ يلتفت إلى شادو، وقال مشيرًا إلى سيجارته: «جلود علاجيم اصطناعيّة. أتعرف أنهم يستطيعون تصنيع البوفوتينين[1] الآن؟».

توقّفت السيّارة، وخرجَ الشخص الجالس عن يمين شادو وأبقى الباب مفتوحًا حتى ينزل. ترجّل شادو بصعوبة نتيجةً لتقييد يديه خلف ظهره، وأدركَ أنه لم يُلقِ بعدُ نظرةً واضحةً على أيٍّ من الشّخصيْن اللذين شارَكاه المقعد الخلفي، فلا يدري إن كانا رجليْن أم امرأتيْن، عجوزيْن أم شابّيْن.

قُطِعَت قيود شادو، وسقطَ الحزام النيلون على الأسفلت. الآن في داخل السيّارة سحابة دُخانٍ تتلوّى، يلتمع فيها ضوءان بلون النُّحاس، مثل عينَي عُلجومٍ جميلتيْن. «كلُّ ما يهمُّ هو النّموذج السّائد اللّعين يا شادو. لا شيء آخَر يهمُّ. آه، يُؤسِفني سماعي بوفاة حرمك».

انغلقَ الباب، وتحرّكت الليموزين المطوّلة مبتعدةً بهدوء. كان شادو يَبعُد بضع مئاتٍ من الياردات عن الموتل، وقد سارَ إلى هناك يتنفّس الهواء البارد، مارًّا بأضواءٍ حمراء وصفراء وزرقاء تُعلِن عن كلِّ نوعٍ من الأطعمة السّريعة يتخيّله إنسان، ما دامَ هذا النّوع هو الهامبرجر، وبلغَ شادو «موتل أمريكا» دون حوادث.

---

(1) البوفوتينين: مادّة شبه قلويّة مخدِّرة تُوجَد في بعض فصائل العُلجوم، خاصّةً في جلده. (المُترجم).

# الفصل الثَّالث

*كلُّ ساعةٍ تجرح، والأخيرة تَقتُل.*

- مقولة قديمة

تجلس وراء مكتب الاستقبال في «موتل أمريكا» امرأة شابَّة نحيلة، أخبرَت شادو بأن صديقه سجَّل وصوله نيابةً عنه، وأعطَته مفتاح حُجرته البلاستيكي المستطيل. للشَّابَّة شعر أشقر باهت، ولوجهها طابع شبيه بالقوارض، يتجلَّى أكثر ما يتجلَّى حينما يبدو عليها الشَّكُّ، ويفتر حينما تبتسم؛ ومعظم نظراتها إلى شادو كان نظرات شكٍّ. رفضَت أن تُخبِره برقم حُجرة الأربعاء، وأصرَّت على مخابَرته بهاتف الموتل لتُبلِغه بوصول ضيفه.

خرجَ الأربعاء من حُجرةٍ في الطُّرقة، وأشارَ لشادو.

- «كيف كانت الجنازة؟».

أجابَ شادو: «انتهَت».

- «خرائيَّة لهذه الدَّرجة، هه؟ أتُريد أن تتكلَّم عنها؟».

- «لا».

قال الأربعاء مبتسمًا: «عظيم. الكلام كثير جدًّا هذه الأيام. كلام كلام كلام. ستتحسَّن أحوال هذا البلد كثيرًا إذا تعلَّم النَّاس أن يُعانوا في صمت. جائع؟».

- «نوعًا».

- «لا طعام هنا، لكن يُمكنك أن تطلُب پيتزا، وسيُضيفون ثمنها إلى حساب الحُجرة».

قادَ الأربعاء الطَّريق عائدًا إلى حُجرته الواقعة قُبالة حُجرة شادو. وتمتلئ بالخرائط المفتوحة المبسوطة على السَّرير والملصقة بالحوائط، وقد رسم الأربعاء عليها جميعًا بأقلام تحديدٍ زاهية؛ أخضر فلوري ووردي مؤلم للعين وبرتقالي فاقع.

قال شادو: «اختطفَني صبيٌّ بدين يركب ليمو. يقول أن أخبرك بأنك مرميٌّ في كومة روث التَّاريخ فيما يركب أمثاله سيَّاراتهم الليموزين على طُرق الحياة فائقة السُّرعة. شيء من هذا القبيل».

قال الأربعاء: «الحقير الصَّغير».

- «هل تعرفه؟».

هزَّ كتفيه مجيبًا: «أعرفُ مَن هو»، وجلسَ بثقلٍ على كُرسي الحُجرة الوحيد مردفًا: «ليست لديهم فكرة، ليست لديهم أدنى فكرة. كم عليك البقاء في البلدة؟».

- «لا أدري. أسبوعًا آخَر ربما. عليّ أن أسوِّي شؤون لورا، أتولَّى أمر الشقَّة والتَّخلُّص من ثيابها وما إلى ذلك. سيُثير هذا جنون أمِّها، لكنها تستحقُّه».

أومأ الأربعاء برأسه الضَّخم قائلًا: «حسن، الفروغ من هذا في أسرع وقتٍ سيُمكِّننا من مغادرة إيجل پوينت في أسرع وقت. ليلةً طيِّبةً».

عبرَ شادو الطُّرقة إلى حُجرته التي وجدَها مطابقةً لحُجرة الأربعاء، بما في ذلك صورة الغروب الدَّامي المطبوعة المعلَّقة فوق السَّرير. طلبَ پيتزا بالجُبنة وكُرات اللَّحم، ثم جهَّز حمَّامًا وصبَّ زُجاجات شامپو الموتل البلاستيكيَّة الصَّغيرة كلَّها في الماء لتملأه الرَّغاوي.

بسبب حجمه الكبير لم يستطِع الاستلقاء في حوض الاستحمام، لكنه جلسَ فيه واستمتعَ قدر المستطاع. لقد وعدَ نفسه بحمَّامٍ بعد خروجه من السِّجن، وشادو يفي بوعوده.

وصلَت الپيتزا بعد خروجه من الحمَّام بمُدَّةٍ قصيرة، فأكلَها وبلَّعها بعُلبة من البيرة الغازيَّة.

شغَّل شادو التليفزيون وشاهدَ حلقةً من برنامج «چري سپرينجر»[xviii] يتذكَّرها من قبل دخوله السِّجن. يتلخَّص موضوع الحلقة في «أريدُ أن أكون

عاهرة». فيؤتى بعددٍ كبير من الرّاغبين في الاشتغال بالدّعارة -أكثرهم إناث- ليزعق فيهم الجمهور منددًا بهم، ثم يَخرج قوّاد مسربَل بالذّهب ويعرض عليهم العمل في ماخوره، وتهرع بغيٌّ سابقة لتتوسّل إليهم جميعًا أن يَحصُلوا على وظائف حقيقيّة. أطفأ شادو التليفزيون قبل أن يصل جِري إلى فقرة حكمة اليوم.

استلقى في الفِراش مفكّرًا: *هذا أول سريرٍ أنامُ فيه رجلًا حرًا*، فبثَّت فيه الفكرة بهجةً أقل مما تخيَّل. ترك السَّتائر مفتوحةً ليُشاهِد أضواء السيَّارات ومطاعم الوجبات السَّريعة من زُجاج النَّافذة، مستريحًا لمعرفته أن في الخارج عالمًا آخَر يستطيع الخروج إليه متى شاءَ.

فكَّر شادو أنه كان يُمكن أن يكون مستلقيًا على فِراشه في بيته الآن، في الشقَّة التي تقاسمَها مع لورا، في السَّرير الذي تقاسمَه مع لورا، إلّا أن فكرة وجوده هناك دونها، محفوفًا بأغراضها، برائحتها، بحياتها، كانت مؤلمة لأقصى درجة...

قال لنفسه: *لا تُفكِّر في ذلك*، وقرَّر التَّفكير في شيءٍ آخَر، وهذا الشَّيء هو خدع العُملة. يعلم شادو أنه لا يتمتَّع بشخصيَّةٍ تُتيح له أن يكون ساحرًا استعراضيًا، فليس بإمكانه نسج القصص الضَّروريَّة جدًّا لتصديق الجمهور، ولا يرغب في تنفيذ خدع الكُتشينة أو إخراج الزُّهور الورق من أكمامه. أمَّا التَّلاعُب بالعُملات فيهواه، ويستمتع بما في ذلك من صَنعة. بدأ يُحصي خدع الإخفاء التي أتقنَها، وهو ما ذكَّره بالعُملة التي ألقاها في قبر لورا، وإذا بأودري برتن في عقله تُخبِره بأن لورا ماتَت وقضيب رُبي في فمها، ومرَّةً أخرى شعرَ بوجعٍ خفيف في صدره، في قلبه.

*كلُّ ساعةٍ تجرح، والأخيرة تَقتُل*. أين سمعَ هذا؟ لم يَعُد يَذكُر. في مكانٍ سحيق بداخله شعرَ بالغضب والألم يتنامَيان، وبانقباضٍ عند قاعدة جمجمته وشدٍّ في صدغيْه. التقطَ أنفاسه من أنفه وأخرجَها من فمه دافعًا نفسه إلى التَّغلُّب على الشَّدِّ.

فكَّر في تعليق الأربعاء، وابتسمَ رغمًا عنه. لقد سمعَ أناسًا في غاية الكثرة يقول بعضهم لبعضٍ ألّا يكبتوا مشاعرهم، أن يُطلِقوها من دواخلهم، يستغنوا عن الألم، لكن رأي شادو أن في صالح كتمانك مشاعرك حُججًا كثيرةً أيضًا، وقد خمَّن أنه إذا داومَ المرء على هذا وقتًا كافيًا وبعُمقٍ كافٍ فسرعان ما لن يَشعُر بشيءٍ على الإطلاق.

ثم استغرقه النَّوم من غير أن يلحظ.

كان يمشي...

كان يمشي في حُجرةٍ أوسع من مدينة، وأينما نظرَ رأى تماثيلَ ومنحوتاتٍ وصُورًا محفورةً في قوالب خام. وقفَ بجوار تمثالٍ لشيءٍ شبيه بامرأة، ثدياها المكشوفان يتدلَّيان مستويَيْن متهدِّلَيْن على صدرها، وحول خصرها سلسلة من الأيدي المبتورة، في حين تُمسِك يداها هي سكِّينَيْن حادَّيْن. وبدلًا من الرَّأس ترتفع من عُنقها حيَّتان توأمتان، جسماهما مقوَّسان متواجهان توطئةً للهجوم.[xix] في التِّمثال شيء ما بالغ الإزعاج، حالة من الخطأ العميق العنيف، وقد تراجعَ شادو مبتعدًا عنه.

بدأ يمشي عبر القاعة، وبدا كأن أعيُن التَّماثيل التي لها أعيُن تتبعه في كلِّ خُطوة.

في حُلمه تبيَّن أن لكلِّ تمثالٍ اسمًا متَّقدًا في الأرض أمامه. الرَّجل ذو الشَّعر الأبيض الذي تُحيط برقبته قلادة من الأسنان ويحمل طبلةً هو لوسيتيوس،[1] والمرأة عريضة الوركَيْن التي يتساقط الوحوش من الفلقة الفسيحة بين ساقيها هي هابور،[2] والرَّجل ذو رأس الكبش الذي يحمل كُرةً ذهبيَّةً هو حري شاف.[3]

صوتٌ دقيق، نيِّق ومضبوط، كان يُحدِّثه في حُلمه، ولو أنه لم يرَ أحدًا.

- «هذه هي الآلهة التي نُسِيَت، والآن لا فرق بينها وبين الموتى. فقط في التَّواريخ الجافَّة يُمكن العثور عليها. لقد اندثرَت، عن آخِرها اندثرَت، لكنْ أسماءها وصُورها باقية معنا».

---

(1) لوسيتيوس: إله أوربي معروف بأسماء عديدة، منها كوسيديوس عند البريطانيِّين، وألاتور أو لوسيتيوس أو توتاتس عند الكِلت، لكنه في كلِّ حالةٍ إله حربٍ يُناظِر مارس عند الرومان. (المُترجم).

(2) هابور أو خابور: ربَّة نهر العالم السُّفلي في الميثولوجيا السومريَّة، وتُقرَن بربَّة البحر تيامات، التي تملأ العالم بالوحوش ومخلوقاتٍ أخرى مثل العناكب والعقارب وغيرها من الآفات. (المُترجم).

(3) حري شاف بالمصريَّة القديمة (هارسافيس باليونانيَّة): إله للخصوبة والمياه، وكان يُعبَد بشكلٍ أساسي في المعبد المقام بمنطقة هيراكليوپولس ماجنا، التي تقع اليوم في مركز إهناسيا بمحافظة بني سويف المصريَّة. (المُترجم).

انعطفَ شادو من زاويةٍ وعلم أنه في حُجرةٍ أخرى أوسع من الأولى، تمتدُّ على مدى البصر. قريبًا منه رأى جمجمة ماموث بنِّيَّة مصقولة، ومعطفًا مشعرًا مصبوغًا بالمُغرة ترتديه امرأة صغيرة الحجم ذات يدٍ يُسرى مشوَّهة، إلى جوارها ثلاث نساءٍ** منحوتات من جُلمود الجرانيت ذاته وملتحمات عند الخصر، ومع أن نحت وجوههن يدلُّ على الاستعجال والنُّقصان، فأثداؤهن وأعضاؤهن التَّناسليَّة منحوتة بدقَّةٍ وعناية. رأى شادو أيضًا طائرًا لا يطير*** لم يتعرَّفه، يبلُغ ضِعفيه طولًا وله منقار غايته التَّمزيق على غرار النَّسر، ولو أن ذراعيه بشريَّتان.

وغيرهم وغيرهم.

عادَ الصَّوت يتكلَّم كأنما يُخاطِب فصلًا دراسيًّا: «هذه هي الآلهة التي عفَت عليها الذَّاكرة. حتى أساميها ضاعَت، ومَن عبدوها باتوا منسيِّين مثلهم مثل آلهتهم. منذ عهدٍ بعيد حُطِّمَت طواطمها وأُطيحَ بها، وماتَ آخِر كهنتها دون أن ينقلوا معارفهم. الآلهة تموت، وحينما تموت حقًّا لا يبكيها أحد أو يتذكَّرها. الأفكار أصعب قتلًا من النَّاس، لكن قتلها -في النِّهاية- ممكن».

لحظتها بدأت ضجَّة هامسة تسري في أنحاء القاعة، وشوشة خفيضة حدَت بشادو في حُلمه إلى اختبار خوفٍ لا تفسير له جمَّد الدَّم في عروقه، واستولى عليه ذُعر جارف هناك في قاعة الآلهة التي نُسِيَ وجودها ذاته... آلهة بوجوه أخاطيب، وآلهة ليست إلَّا أيديَ محنَّطةً أو صخورًا هاويةً أو حرائق غابات...

صحا شادو بيقظةٍ تامَّة وقلبه يدقُّ في صدره كالمطرقة وجبهته باردة دبِقة. أخبرَته الأرقام الحمراء في السَّاعة المجاورة للفِراش بأن الوقت 1:03 صباحًا، وقد التمعَ ضوء لافتة «موتل أمريكا» في الخارج عبر نافذة الحُجرة مبلِّلًا. قامَ شادو ودخلَ حمَّام الموتل الضيِّق، حيث أفرغَ مثانته من غير أن يُشعِل الضَّوء، ثم عادَ إلى الحُجرة والحُلم لم يزل طازجًا شديد الوضوح في عين خياله، وإن لم يستطِع أن يُفسِّر لنفسه لِمَ أخافَه هذا الخوف العارم.

الضَّوء النَّافذ إلى الحُجرة من الخارج ليس ساطعًا، غير أن عينَي شادو تعوَّدتا الظَّلام، وهكذا رأى المرأة الجالسة على جانب الفِراش.

خرجَ صوتها هامسًا ولكن مألوفًا إذ قالت لورا: «أظنُّ أنك ستسألني عمَّا أفعله هنا».

ولم يقل شادو شيئًا.

فقط جلسَ على كُرسي الحُجرة الوحيد، وأخيرًا سألَ: «حبيبتي؟ أهذه أنتِ؟».

أجابَت: «نعم. أنا بردانة يا جروي».

- «أنتِ ميتة يا حبيبتي».

قالت: «نعم. نعم، ميتة»، وربَّتت على الفِراش بجوارها قائلةً: «تعالَ واجلس بجانبي».

ردَّ شادو: «لا. أظنُّني سأبقى حيث أنا حاليًا. بيننا بضع مسائل معلَّقة علينا التَّطرُّق إليها».

- «كموتي؟».

- «محتمَل، لكنني كنتُ أفكِّر أكثر في كيفيَّة موتكِ، أنتِ ورُبي».

- «أوه، تقصد ذلك».

كان شادو يشمُّ -أو لعلَّه يتوهَّم ذلك كما خطرَ له- روائح عفنٍ وزهورٍ وموادَّ حافظة. زوجته... زوجته السَّابقة... لا، بل (هكذا صحَّح لنفسه) زوجته الرَّاحلة... جالسة على السَّرير تَرمُقه من غير أن يطرف لها جفن.

قالت: «جروي، هلَّا... هل تسمح بأن تُحضِر لي... سيجارةً؟».

- «حسبتكِ أقلعتِ».

- «أجل، لكنَّ المخاطر الصحيَّة لم تَعُد تُقلِقني، وأظنُّ أن سيجارةً ستُهدِّئ أعصابي. ستجد ماكينةً في اللوبي».

ارتدى شادو بنطاله الچينز وتيشرت، ثم خرجَ حافي القدمين إلى اللوبي. موظَّف الاستقبال اللَّيلي رجل في منتصَف العُمر، وكان يقرأ كتابًا لچون جريشام. اشترى شادو عُلبةً من سجائر «ڤرچينيا سليمز» من الماكينة، وطلبَ من الموظَّف دفتر ثقاب.

حدَّق إليه الرَّجل وسألَه عن رقم حُجرته، ولمَّا أخبرَه شادو أومأ قائلًا: «التَّدخين ممنوع في حُجرتك. احرص على فتح النَّافذة»، وأعطاه دفتر ثقابٍ ومنفضةً من البلاستيك عليها شعار «موتل أمريكا».

قال شادو: «مفهوم».

عادَ إلى حُجرته، ولم يُشعِل الضَّوء. ما زالَت زوجته على الفراش. والآن تستلقي فوق أغطيته الملتوية. فتحَ شادو النَّافذة، وناولَها السَّجائر والثِّقاب ليجد ملمس أصابعها باردًا. أشعلَت لورا عودًا، ورأى أنَّ أظفارها -النَّظيفة جدًا عادةً- مكسَّرة وممضوغة وتحتها طين.

أشعلَت لورا السِّيجارة وأخذَت نفسًا وأطفأت العود، ثم سحبَت نفسًا آخر، وقالت: «لا يُمكنني تذوُّقها. لا أظنُّ أن لها تأثيرًا».

- «آسف».

- «وأنا أيضًا».

حين استنشقَت الدُّخان توهَّج طرف السِّيجارة، واستطاعَ رؤية وجهها. قالت: «إذًا فقد أخرَجوك».

- «نعم».

- «كيف كان السِّجن؟».

- «كان يُمكن أن يكون أسوأ».

- «نعم». توهَّج طرف السِّيجارة بالبرتقالي. «لا أزالُ ممتنَّة. ما كان عليَّ أن أورِّطك في الأمر».

- «لقد وافقتُ. كان بمقدوري الرَّفض». تساءلَ لِمَ لا يَشعُر بالخوف منها، لِمَ أرعبَه حُلم عن متحفٍ في حين يتعامَل مع جثَّةٍ حيَّة بلا خوف.

قالت: «نعم، كان بمقدورك أيها السَّاذج الكبير». تلوَّى الدُّخان حول وجهها، وفي الضَّوء المعتم بدَت رائعة الجمال. «تُريد أن تعرف ما حدثَ بيني وبين رُبي؟».

- «نعم». فطنَ شادو إلى أن هذي لورا. حيَّةً كانت أو ميتةً لا يُمكن أن يخافها.

أطفأت سيجارتها في المنفضة قائلةً: «كنتَ في السِّجن واحتجتُ إلى أحدٍ أتكلَّمُ معه، احتجتُ إلى صدرٍ حنون. لم تكن موجودًا، وكنتُ حزينة».

- «أنا آسف». أدركَ شادو أن في صوتها شيئًا مختلفًا، وحاولَ أن يتبيَّن كنهه.

- «أعرفُ. هكذا اعتدنا اللّقاء لشُرب القهوة والكلام عمَّا سنفعله عندما تَخرُج، وكم سيكون جميلًا أن نراك من جديد. لقد أحبَّك حقًّا، وكان يتطلَّع إلى إعطائك وظيفتك القديمة ثانيةً».

- «نعم».

- «ثم ذهبَت أودري لزيارة أختها أسبوعًا. كان ذلك، أوه، بعد عامٍ أو ثلاثة عشر شهرًا من رحيلك». افتقرَت نبرتها إلى التَّعبير؛ كلُّ كلمةٍ جامدة فاترة، كأن أحدًا يُلقي حصاةً تلو الأخرى في بئرٍ عميقة. «أتى رُبي. سكرنا معًا. فعلناها على أرضيَّة غُرفة النَّوم. كان شيئًا حُلوًا، كان حُلوًا جدًّا».

- «كنتُ في غنى عن سماع هذا».

- «حقًّا؟ آسفة. انتقاء الكلام أصعب وأنت ميت. الأمر كصورةٍ فوتوجرافيَّة، لم يَعُد يهمُّ لهذه الدَّرجة».

- «يهمُّني أنا».

أشعلَت لورا سيجارةً ثانيةً، ولاحظَ شادو أن حركاتها انسيابيَّة لا حَرَق فيها، وللحظةٍ تساءلَ إن كانت ميتةً فعلًا. قد تكون المسألة حيلةً معقَّدةً. قالت: «نعم، أرى هذا. على كلِّ حال، استمرَرنا في علاقتنا الغراميَّة -ولو أننا لم نُطلِق عليها ذلك، لم نُطلِق عليها أيَّ مسمَّيات- طيلة العامَيْن الماضيَيْن تقريبًا».

- «أكنتِ ستَترُكينني من أجله؟».

- «ولِمَ أفعلُ ذلك؟ أنت دُبِّي الكبير، أنت جروي، وفعلتَ ما فعلته من أجلي. لقد انتظرتُ عودتك إليَّ ثلاث سنوات. إنني أحبُّك».

كبحَ نفسه عن قول: *أنا أيضًا أحبُّكِ*. فلن يقول ذلك، لن يقوله مجدَّدًا. «ما الذي حدثَ ليلتها إذًا؟».

- «ليلة مصرعي؟».

- «نعم».

- «خرجتُ مع رُبي لنتكلَّم عن حفلة استقبالك المفاجئة. لكانت حفلةً في غاية الرَّوعة. وقلتُ له إن ما بيننا انتهى، انقضى، إن هذا ما يجب أن يكون ما دُمتَ قد عُدتَ».

- «ممم. شكرًا يا حبيبتي».

ردّت: «على الرّحب والسّعة يا حبيب قلبي»، وتلاعبَ شبح ابتسامةٍ على وجهها، «جاشت عواطفنا. كان ذلك جميلًا. تصرّفنا بغباء. سكرتُ جدًّا. هو لا. لأن عليه القيادة. كنا في طريق العودة، وأعلنتُ أنني سأعطيه تذكار وداع، مرّةً أخيرةً بمشاعر، وأنزلتُ سحّاب بنطاله، وفعلتها».

- «خطأ كبير».

- «حدث ولا حرج! خبطتُ مبدّل السُّرعة بكتفي. وإذا برُبي يُحاوِل دفعي بعيدًا عن الطّريق ليُعيد تعشيق التُّروس، وإذا بنا ننحرف، وارتفعَ صوت ارتطامٍ صاخب، وأذكرُ أن العالم بدأ يلفُّ ويدور، وقلتُ لنفسي: سأموت. كان الخاطر مجرّدًا تمامًا من المشاعر. لم أكن خائفةً. بعد ذلك لا أذكرُ شيئًا».

شمّ شادو رائحةً كالبلاستيك المحروق، ثم أدركَ أنها السّيجارة التي احترقَت حتى الفلتر، أمّا لورا فلم يبدُ أن لاحظَت.

- «ماذا تفعلين هنا يا لورا؟».

- «ألا يُمكن لزوجةٍ أن تزور زوجها؟».

- «أنتِ ميتة. لقد حضرتُ جنازتكِ بعد الظُّهر».

- «نعم». قالتها وصمتَت محدِّقةً إلى الفراغ. نهضَ شادو وذهبَ إليها، وأخذَ عقبَ سيجارتها المحترق بلا لهبٍ من بين أصابعها وألقاه من النّافذة.

- «وبعد؟».

سعَت عيناها إلى عينيه، وقالت: «لا أعرفُ أكثر كثيرًا مما كنتُ أعرفه وأنا حيّة. معظم ما أعرفه الآن لا أستطيعُ التّعبير عنه بمفردات».

قال شادو: «عادةً يبقى مَن يموتون في قبورهم».

ردّت: «حقًّا؟ أيبقون في قبورهم حقًّا يا جروي؟ أنا أيضًا اعتدتُ اعتقاد ذلك، لكن الآن لم أعُد واثقةً. جائز»، ونزلَت من فوق السّرير واتّجهت نحو النّافذة. في ضوء لافتة الموتل بدا وجهها في أجمل طلّاته، وجه امرأةٍ من أجلها دخلَ السّجن.

آلمَه قلبه في صدره كأنما أطبقَ عليه أحدهم بقبضته واعتصرَه، وغمغم «لورا...؟».

لم تَنظُر إليه وهي تقول: «لقد ورَّطت نفسك في مسائل سيِّئة يا شادو. ستُفسِد الأمور إن لم يكن هناك مَن يرعاك. أنا أرعاك. وشكرًا على هديَّتي».

- «أيَّة هديَّة؟».

دسَّت يدها في جيب بلوزتها وأخرجَت العُملة الذَّهب التي ألقاها شادو في القبر قبل ساعات، ولا تزال متَّسخةً بالتُّربة السَّوداء. «قد أعلِّقها في سلسلة. كانت لفتةً في غاية العذوبة منك».

- «عفوًا».

عندئذٍ التفتَت ورمقَته بعينين يبدو كأنهما تريانه ولا تريانه في آنٍ واحد، وقالت: «أظنُّ أن في زواجنا نقاطًا عدَّةً علينا العمل عليها».

ردَّ: «حبيبتي، أنتِ ميتة».

قالت: «واضحٌ أن هذه إحدى النِّقاط»، وصمتَت لحظةً ثم أردفَت: «حسن. سأذهبُ الآن. الأفضل أن أذهب»، وبحركةٍ طبيعيَّة تلقائيَّة دارَت ووضعَت يديها على كتفَي شادو، ووقفَت على أطراف أصابع قدميها لتُقبِّله مودِّعةً كما قبَّلته مودِّعةً دومًا.

بارتباكٍ انحنى شادو ليطبع قُبلةً على خدِّها، إلَّا أنها حرَّكت فمها في اللَّحظة نفسها وألصقَت شفتيها بشفتيه.

وكانت أنفاسها تحمل رائحة نفتالين خفيفةً.

ارتعشَ لسان لورا داخل فم شادو، لسان بارد جاف طعمه سجائر ومِرَّة. إن كانت لدى شادو أيَّة شكوكٍ في موت زوجته من عدمه، فقد زالَت لحظتها.

ثم سحبَ نفسه إلى الوراء.

قالت ببساطة: «أحبُّك. سأرعاك»، وذهبَت إلى باب حُجرة الموتيل.

في فمه أحسَّ شادو بمذاقٍ غريب.

- «نَم قليلًا يا جروي، وابقَ بعيدًا عن المتاعب».

فتحَت باب الحُجرة، ولم يترفَّق بها الضَّوء الفلورسنت في الطُّرقة. تحته بدَت لورا ميتةً حقًّا... ولو أن هذا تأثيره على الجميع.

بصوتها الحجري البارد قالت: «كان بإمكانك أن تسألني أن أبقى اللَّيلة».

ردَّ شادو: «لا أظنُّني أقدرُ».

- «ستقدر يا عزيزي. قبل أن ينتهي كلُّ هذا، ستقدر». قالتها ودارت على عقبيها وقطعت الرُّواق مبتعدةً.

ألقى شادو نظرةً من الباب. ظلَّ موظَّف الاستقبال اللَّيلي يقرأ رواية چون جريشام، وبالكاد رفعَ ناظريْه حين مرَّت به. كان طين المقابر السَّميك ملتصقًا بحذائها.

ثم اختفت لورا عن بصره، وأطلقَ شادو تنهيدةً بطيئةً شاعرًا بقلبه يخفق في صدره باضطراب. عبرَ الطُّرقة ودقَّ باب حُجرة الأربعاء، وبينما يدقُّه راودته فكرة في منتهى الغرابة: أن جناحيْن أسوديْن يلطمانه، كأن غرابًا عملاقًا يطير مخترقًا إياه ليَخرُج إلى الطُّرقة والعالم من ورائها.

فتحَ الأربعاء الباب، حول خصره منشفة موتل بيضاء، وباستثنائها عارٍ. «ماذا تُريد بحقِّ الجحيم؟».

قال شادو: «ثمَّة ما يجب أن تعرفه. ربما كان حُلمًا -لكنه لم يكن كذلك- أو ربما استنشقتُ شيئًا من دُخان الصَّبي البدين المصنَّع من جلد العُلجوم، أو لعلِّي بدأتُ أصابُ بالجنون....».

- «نعم، نعم. قُل ما لديك. إنني مشغول نوعًا».

اختلسَ شادو نظرةً داخل الحُجرة ليرى أحدًا في الفِراش يُراقِبه، وملاءةً تُسحَب لتُغطِّي ثدييْن صغيريْن. شعر أشقر شاحب، ووجه جرذاني الطَّابع. الفتاة من مكتب الموتل. خفضَ صوته قائلًا: «لقد رأيتُ زوجتي لتوِّي. كانت في حُجرتي».

- «تعني شبحًا؟ رأيت شبحًا؟».

- «لا، ليس شبحًا. كانت جسمًا ماديًّا، كانت هي. إنها ميتة حقًّا، لكنني لم أرَ شبحًا من أيِّ نوع. لقد لمستها، وقبَّلتني».

قال الأربعاء: «مفهوم»، ورشقَ المرأة في الفِراش بنظرةٍ سريعة قائلًا: «سأعودُ حالًا يا عزيزتي».

عبرا الرُّواق إلى حُجرة شادو، حيث أشعلَ الأربعاء المصابيح ورمقَ عقب السِّيجارة في المنفضة، ثم حكَّ صدره. للأربعاء حلمتا رجلٍ عجوز داكنتان، وشعر صدره شائب، وعلى أحد جانبَي جذعه ندبة بيضاء. تشمَّم الهواء، ثم هزَّ كتفيه، وعلَّق: «طيِّب، زوجتك الميتة زارَتك. أأنت خائف؟».

- «قليلًا».
- «منتهى الحكمة. دائمًا يخلع الموتى قلبي من صدري خوفًا. هل من شيء آخَر؟».
- «أنا جاهز للرَّحيل من إيجل پوينت. باستطاعة أمّ لورا أن تُسوِّي مسألة الشقَّة وما إلى ذلك. إنها تكرهني على كلِّ حال. أنا مستعدٌّ للذَّهاب متى استعددتَ».

ابتسمَ الأربعاء قائلًا: «خبر طيِّب يا ولدي. سنُغادِر في الصَّباح. والآن عليك أن تنام. عندي في حُجرتي سكُتش إن أردت ما يُساعِدك على النَّوم. ما رأيك؟».

- «لا. سأكونُ بخير».
- «لا تُزعِجني مرَّةً أخرى إذًا. إن أمامي ليلةً طويلةً».

سألَه شادو مبتسمًا: «لا نوم؟».

- «أنا لا أنامُ. النَّوم شيء مبالَغ في تقديره، عادة سيِّئة أبذلُ قصارى جهدي لتلافيها... في وجود صُحبةٍ أينما أمكنَ، والشَّابَّة في حُجرتي قد تفتر رغبتها إن لم أرجع إليها».

قال شادو: «ليلةً طيِّبةً».

ردَّ الأربعاء: «بالضَّبط»، وأغلقَ الباب لدى خروجه.

جلسَ شادو على الفِراش، وقد ظلَّت رائحة السَّجائر والمواد الحافظة عالقةً في الهواء. تمنَّى لو أنه يندب لورا، فقد بدا ذلك مستحسَنًا عن شعوره بالانزعاج بسببها، أو -كما أقرَّ لنفسه الآن وقد رحلَت- عن خوفه بعض الشَّيء منها. حانَ وقت الرِّثاء، وهكذا أطفأ الأضواء وتمدَّد فوق الفِراش مستعيدًا في ذاكرته لورا كما كانت قبل دخوله السِّجن. تذكَّر زيجتهما وهما صغيران وسعيدان وأحمقان ولا يستطيع كلاهما مقاومة لمس الآخَر.

مرَّ زمن طويل منذ بكى شادو، زمن طالَ جدًّا حتى حسبَ أنه نسيَ كيف يبكي. حتى عندما ماتَت أمُّه لم يبكِ.

على أنه أجهشَ بالبُكاء الآن، وخرجَ نحيبه أليمًا متقطِّعًا. لشدَّ ما يفتقد لورا والأيام التي ولَّت للأبد.

وللمرَّة الأولى منذ طفولته بكى شادو حتى النَّوم.

# المجيء إلى أمريكا
# 813 بعد الميلاد

مخروا عباب البحر الأخضر مسترشِدين بالنُّجوم وبالسَّاحل، ولمَّا لم يَعُد السَّاحل أكثر من ذكرى، وغامَت سمَّاء اللَّيل وأظلمَت، استرشَدوا بالإيمان، ودعوا أبا الكلّ[1] أن يقودهم من جديدٍ إلى اليابسة آمنين.

لكم شقَّت عليهم الرِّحلة؛ أصابعهم نمِلة، وفي عظامهم رعشة لم يستطِع النَّبيذ نفسه قهرها. في الصَّباح يستيقظون ليروا الضَّريب يكسو اللِّحى، وحتى تُدفِّئهم الشَّمس يبدون كرجالٍ مسنِّين ابيضَّت لحاهم قبل الأوان.

كانت الأسنان مخلخلةً والأعيُن غائصةً في محاجرها حين رسوا أخيرًا على الأرض الخضراء في الغرب، وقال الرِّجال: «إننا بعيدون، بعيدون عن ديارنا وأهالينا، بعيدون عن البحار التي نعرفها والأراضي التي نحبُّها. هنا على حافة العالم ستنسانا آلهتنا».

فتسلَّق قائدهم إلى قمَّة صخرةٍ عظيمة، وسخرَ من افتقارهم إلى الإيمان، وهتفَ فيهم: «أبو الكلِّ صنعَ العالم، شيَّده من لحم جدِّه يمير وعظمه المهشَّم، ووضعَ كُتل مخِّ يمير في السَّماء جاعلًا إياها السَّحاب، وأصبحَ دم يمير المالح البحار التي عبرناها. ما دامَ قد صنعَ العالم، أفلا تُدرِكون أنه خلقَ هذه الأرض أيضًا؟ وإن متنا هنا ميتة الرِّجال، أفلن نُستقبَل في أبهائه؟».

وهلَّل الرِّجال واستبشَروا، وبعزمٍ وإصرارٍ شرعوا في بناء قاعةٍ من الشَّجر المفلوق والطِّمي، داخل حوشٍ صغير من عيدان الخشب المدبَّبة، مع أنهم -على حدِّ علمهم- البشر الوحيدون في هذه الأرض الجديدة.

يوم تمَّ بناء القاعة هبَّت عاصفة. في منتصَف النَّهار أظلمَت السَّماء ظُلمة اللَّيل، وشقَّتها شوكات اللَّهب الأبيض، ودوَّى هزيم الرَّعد صاخبًا حتى كادَ يصمُّ آذان الرِّجال، واختبأ قِطُّ السَّفينة الذي جلبوه معهم طلبًا للحظِّ تحت

---

(1) أبو الكلّ: من أسماء أودِن، كبير الآلهة في الميثولوچيا النورديَّة وسيِّد الإسير، أعلى فئات الآلهة. (المُترجم).

القارب الطَّويل الرَّاسي على الشَّاطئ. كانت العاصفة عنيفةً ضاريةً لدرجة أن الرِّجال ضحكوا وربَّت بعضهم على ظهور بعضٍ قائلين: «الرَّاعد[1] ها هنا معنا في هذه الأرض النَّائية»، وأعرَبوا عن شكرهم، وابتهَجوا، وشربوا حتى ترنَّحوا.

ليلتها، في ظلام قاعتهم الدَّاخن، غنَّى لهم الشَّاعر الأغاني القديمة، عن أودِن أبي الكلِّ الذي ضحَّى بنفسه لنفسه بشَجاعةٍ ونُبلِ مَن يُضحَّى بهم من أجله، وغنَّى عن الأيام التِّسعة التي ظلَّ أبو الكلِّ خلالها مشنوقًا من شجرة العالم، يَقطُر الدَّم من جانبه حيث طعنَه رأس الحربة (عند هذا الجزء تحوَّلت الأغنيَّة لحظةً إلى صرخة)، وغنَّى لهم عن جميع الأشياء التي تعلَّمها أبو الكلِّ في عذابه: تسعة أسماء، وتسعة حروفٍ رونيَّة،[2] وتسعتيْن من التَّعاويذ. عندما حكى لهم عن اختراق الحربة جانبَ أودِن، صرخَ الشَّاعر ألمًا مثلما صرخَ أبو الكلِّ وهو يتعذَّب، وارتعدَ الرِّجال متخيِّلين ألمه.

في اليوم التَّالي، الذي كان يوم أبي الكلِّ، عثروا على السكريلنج.[3] كان رجلًا صغير الحجم، شعره الطَّويل أسود كجناح الغُراب، وبشرته بلون الصَّلصال الأحمر الغني، وقد لفظَ كلامًا لم يفهمه أحد منهم، حتى شاعرهم الذي ركبَ سفينةً أبحرَت من بين أعمدة هرقل، ويرطن بلُغة التُّجَّار التي يتحدَّثها النَّاس في جميع أنحاء البحر المتوسِّط. ارتدى الغريب الرِّيش والفراء، ورأوا عظامًا صغيرةً مضفَّرةً في شعره الطَّويل.

قادوه إلى معسكرهم، وأعطوه لحمًا مشويًا ليأكله، وشرابًا قويًا ليروي عطشه، وانفجَروا ضاحكين من الرَّجل وهو يتعثَّر ويُغنِّي، من الطَّريقة التي تمايلَ بها رأسه وتدلَّى، رغم أنه شربَ أقل من قرنٍ واحد من البِتع. سقوه مزيدًا من الشَّراب، وسرعان ما تمدَّد الرَّجل أسفل المائدة مريحًا رأسه تحت ذراعه.

---

(1) الرَّاعد: من أسماء ثور، إله البرق والرَّعد في الميثولوجيا النورديَّة. (المُترجم).

(2) الرونيَّة: كلمة نورديَّة قديمة تُشير إلى مجموعةٍ من النُّقوش كانت تُستخدَم في كتابة مختلف اللُّغات الجرمانيَّة قبل اعتماد الأبجديَّة اللاتينيَّة. (المُترجم).

(3) السكريلنج: الاسم الذي أطلقَه مستوطنو جرينلاند من شمال أوروپا على الشُّعوب التي قابلوها في أمريكا الشَّماليَّة. تعني الكلمة بالنورديَّة القديمة «القوم الصِّغار». (المُترجم).

ثم رفعوه، رجل عند كلّ كتف ورجل عند كلّ ساق، وحملَه أربعة الرِّجال على ارتفاع الكتف جاعلين إياه حصانًا ثُماني القوائم، وتقدّموا به على رأس الموكب نحو شجرة مُرّان[1] فوق التّل المطل على الخليج، حيث طوّقوا عُنقه بحبلٍ وشنقوه عاليًا في الرّيح إجلالًا لأبي الكلّ، سيّد المشانق. تأرجحَت جثّة السكريلنج في الرّيح، يسودُّ وجهه وينتأ لسانه وتجحظ عيناه وينتصب ذكره إلى حدٍّ يَصلُح لتعليق خوذةٍ جلديّة عليه، فيما يُهلّل الرِّجال ويهتفون ويضحكون فخورين بإرسال قُربانهم إلى السّماوات.

وفي اليوم التّالي، حين حطَّ غُدافان ضخمان على جثّة السكريلنج، واحد فوق كلّ كتف، وبدآ يَنقُران وجنتيه وعينيه، علمَ الرِّجال بقبول القُربان.

كان شتاءً طويلًا، وهُم جياعًا، وإن سرَّتهم فكرة أنهم سيُرسلون القارب إلى أراضي الشّمال عندما يحلُّ الرّبيع، ليعود حاملًا مستوطِنين، وحاملًا نساءً.

مع اشتداد البرد وتقاصُر النّهار، بدأ بعض الرِّجال البحث عن قرية السكريلنج، على أمل أن يجدوا طعامًا، ونساءً أيضًا، لكنهم لم يجدوا إلّا البقاع التي أُشعِلَت فيها النِّيران وانطفأت، حيث هُجِرَت المخيّمات الصّغيرة.

وفي يوم في منتصَف الشّتاء، والشّمس بعيدة باردة كعُملةٍ من الفضّة الباهتة، رأوا أن بقايا جثّة السكريلنج قد رُفِعَت عن شجرة المُرّان، وبعد الظُّهر بدأت الثُّلوج تَسقُط نُدفًا ضخمةً بطيئةً.

أغلقَ رجال أراضي الشّمال بوّابة معسكرهم، وانسحَبوا وراء سورهم الخشبي.

وداهمَتهم فِرقة السكريلنج الحربيّة ليلتها، خمسمئة رجلٍ في مواجهة ثلاثين. تسلّقوا السُّور، وعلى مرّ الأيام السّبعة التّالية قتلوا كلًّا من الرِّجال الثّلاثين بثلاثين طريقةٍ مختلفة، ونسيَ التّاريخ البحّارة، ونسيَهم قومهم.

السُّور هدمَه السكريلنج، والقرية أحرَقوها، والقارب الطّويل -المقلوب والمرفوع عاليًا فوق لوح خشب- أحرَقوه أيضًا، آملين أن الغُرباء الشّاحبين لم يكونوا يملكون إلّا قاربًا واحدًا، وأنهم بإحراقه يضمنون ألّا يجيء شماليُّون آخَرون إلى سواحلهم.

---

(1) المُرّان: يُعرَف أيضًا بشجر الرّماد، وينتمي إلى الفصيلة الزّيتونيّة. لأوراقه استخدامات علاجيّة مختلفة، ويُستخدَم خشبه في البناء والسّلاح وغيرهما لتمتُّعه بالصّلابة والمرونة. (المُترجم).

أكثر من مئة عام مرّ قبل أن يُعيد ليف المحظوظ بن إريك الأحمر اكتشاف تلك الأرض التي سمَّاها ڤينلاند."[66] كانت آلهته في انتظاره عندما وصل: تير ذو اليد الواحدة، وأودِن الأشيب ربُّ المشانق، وثور صاحب الرُّعود.

كانوا هناك.

كانوا منتظرين.

# الفصل الرَّابع

*فليُلقِ قطار منتصَف اللَّيل المميَّز*

*ضوءه عليّ*

*فليُلقِ قطار منتصَف اللَّيل المميَّز*

*ضوءه دائم المحبَّة عليّ*

- **قطار منتصَف اللَّيل المميَّز،** أغنيّة شعبيَّة

تناولَ شادو والأربعاء فطورهما في فرع لـ «كنتري كيتشن» قُبالة الموتل. كانت السَّاعة الثَّامنة صباحًا، والعالم ضبابيًّا باردًا.

عند بوفيه الفطور سألَه الأربعاء: «أما زلت مستعدًّا لمغادرة إيجل پوينت؟ إن كنت مستعدًّا فعليَّ إجراء بعض المكالمات. اليوم الجمعة. الجمعة يوم حُر، يوم للنِّساء.[xxiv] غدًا السَّبت. أشياء كثيرة يجب أن نفعلها يوم السَّبت».

أجابَ شادو: «أنا مستعدٌّ. لا شيء يُبقيني هنا الآن».

كوَّم الأربعاء على طبقه أنواعًا عديدةً من لحوم الفطور، أمَّا شادو فأخذَ بعض شرائح الشمَّام وقُرصًا من البِايجل وعبوَّةً من الجُبنة الكِريميَّة، ثم ذهبا وجلسا في مقصورة.

قال الأربعاء: «حُلم عجيب ذلك الذي رأيته ليلة أمس».

- «نعم، كان كذلك». حين استيقظ شادو هذا الصَّباح رأى آثار قدمي لورا الموحلة واضحةً على بساط الموتل، تقود من حُجرته إلى اللوبي وخروجًا من الباب.

- «أخبِرني، لماذا سمُّوك شادو؟».

هزَّ شادو كتفيه قائلًا: «إنه اسم». في الخارج، وراء زُجاج النَّافذة، تحوَّل العالم الغائب في الضَّباب إلى لوحةٍ بقلم رصاصٍ مرسومة بدستةٍ من درجات الرَّمادي المختلفة، وهنا وهناك لطخة من الأحمر الكهربي أو الأبيض النَّاصع. «كيف فقدت عينك؟».

حشا الأربعاء فمه بقطع اللَّحم المقدَّد، ومضغَها ومسحَ الدُّهن عن شفتيه بظَهر يده، ثم قال: «لم أفقدها. ما زلتُ أعرفُ أين هي بالضَّبط».

- «طيِّب، ما الخطَّة؟».

لاحَ التَّفكير على الأربعاء. أكلَ عدَّة شرائح ورديَّة زاهية من فخذ الخنزير، والتقطَ نسيلةً من اللَّحم من لحيته ورماها في الطَّبق، قبل أن يقول: «الخطَّة كالتَّالي. ليلة السَّبت، أي غدًا كما أشرتُ، سنُقابِل عددًا من الأشخاص البارزين في مجالاتهم المختلفة... لا تدع سلوكهم يُرهِبك. سنلتقي في أحد أهمِّ الأماكن في البلاد بأسرها، وبعدها سندعوهم إلى الطَّعام والشَّراب. حسب تخميني، سيكونون ثلاثين أو أربعين، ربما أكثر. إنني في حاجةٍ إلى تطويعهم للمشاركة في مشروعي الحالي».

- «وأين أهمُّ مكانٍ في البلاد؟».

- «أحد أهمِّ الأماكن يا ولدي. قلتُ إنه أحدها. الآراء متضاربة لأسبابٍ وجيهة. لقد بعثتُ بخبرٍ إلى زُملائي. سنتوقَّف في شيكاجو في طريقنا، لأن عليَّ الحصول على بعض المال. الضِّيافة بالأسلوب المفروض علينا ستُكلِّف مبلغًا جاهزًا أكبر من المتوفِّر معي حاليًّا. وبعدها نتَّجه إلى ماديسن».

- «فهمتُ».

- «لا، لم تفهم، لكن كلَّ شيءٍ سيتَّضح مع الوقت».

دفعَ الأربعاء حساب الفطور، وانصرَفا قاطعيْن الطَّريق نحو موقف الموتل، حيث ألقى الأربعاء مفاتيح السيَّارة لشادو، الذي انطلقَ على الطَّريق السَّريع مغادرًا البلدة.

سأله الأربعاء وهو يفتّش في حافظةٍ ملأى بالخرائط: «هل ستفتقدها؟».

- «البلدة؟ لا. ذكريات كثيرة جدًا عن لورا. لم تكن لي حياة حقيقيّة هنا قطُّ. في طفولتي لم أمكث في مكانٍ واحدٍ طويلًا، ولم أجئ إلى هنا إلا وأنا في العشرينيّات، أي إن هذه البلدة بلدة لورا».

- «لنأمل أن تبقى هنا».

قال شادو: «كان حُلمًا. تذكّر هذا».

- «عظيم. موقف صحّي. هل ضاجعتها ليلة أمس؟».

أخذَ شادو شهيقًا، ثم: «ليس هذا من شأنك إطلاقًا. ولا».

- «هل أردت؟».

لم يردَّ شادو، وقادَ السيّارة شمالًا نحو شيكاجو. قهقهَ الأربعاء، وشرعَ يتأمّل خرائطه باسطًا إياها ومعيدًا طيَّها، وبين الحين والآخَر دوَّن ملاحظةً في كرّاسٍ قانوني أصفر بقلم حبرٍ جاف فضّي كبير.

في النّهاية فرغَ، فوضعَ قلمه في جيبه والحافظة على الأريكة الخلفيّة، ثم قال: «أفضل ما في الولايات التي نتّجه إليها، منيسوتا وويسكونسن وتلك النّواحي، أنها تحتوي على صنف النّساء الذي أحببته حين كنتُ أكثر شبابًا. بشرة شاحبة وأعيُن زرقاء، وشعر بالغ الشُّقرة حتى يكاد يكون أبيض، ونهود مستديرة عامرة تنتشر فيها العروق كأطيب أصناف الجُبنة».

- «حين كنتَ أكثر شبابًا فقط؟ البارحة بدا أنك تُبلي بلاءً رائعًا».

قال الأربعاء مبتسمًا: «نعم. أتودُّ أن تعرف سرَّ نجاحي؟».

- «هل تَنقُدهن مالًا؟».

- «لا شيء بتلك الفجاجة. لا، السِّرُّ هو السِّحر، لا أكثر ولا أقل».

- «السِّحر، هه؟ حسن، كما يقولون، إمّا أنك تتمتّع به وإمّا لا».

قال الأربعاء: «السِّحر قابل للتّعلُّم».

سألَه شادو: «أخبِرني، أين سنذهب؟».

- «لي صديق قديم علينا أن نُكلّمه، أحد القادمين إلى التّجمُّع. إنه رجل مسنٌّ الآن. ينتظرنا على العَشاء».

شمالًا وغربًا انطلَقا نحو شيكاجو.

تنشّقت المرأة. كانت تحمل حقيبة تسوّقٍ خاليةً مصنوعةً من الخيوط المجدولة، وترتدي معطفًا أحمر قديمًا مزرّرًا حتى ذقنها، وفوق شعرها الشائب تجثم قبّعة خضراء من القطيفة، تُشبِه في مظهرها أصيص الزُّهور نوعًا ورغيف الخُبز نوعًا. رمقت العجوز شادو بريبةٍ سائلةً الأربعاء: «مَن الرَّجل الكبير؟ واحد آخَر من قتَلتك؟».

- «تظلمينني ظُلمًا عظيمًا يا سيِّدتي الكريمة. هذا الجنتلمان يُسمَّى شادو، ويعمل لحسابي، نعم، ولكن نيابةً عنكم. شادو، اسمح لي بأن أقدّمك للفاتنة زوريا ڤيتشرنيايا».

قال شادو: «يسرُّني لقاؤكِ».

مثل الطُّيور، أمعنَت المرأة النَّظر إليه قائلةً: «شادو. اسم جيِّد. عندما تطول الظِّلال يحين وقتي، وأنت الظِّلُّ الطَّويل»، وتطلَّعت إليه من أعلى إلى أسفل، ثم ابتسمَت وأردفَت: «لك أن تُقبِّل يدي»، ومدَّت له يدًا باردةً.

انحنى شادو وقبَّل يدها الرَّقيعة، التي يُحيط بإصبعها الوُسطى خاتم من الكهرمان.

قالت: «ولد مطيع. إنني ذاهبة لشراء البقالة. أنا الوحيدة بيننا التي تكسب مالًا. الأخريان لا تجنيان أيَّ مالٍ من قراءة الطَّالع، وهذا لأنهما لا تقولان إلَّا الحقيقة، والحقيقة ليست ما يُريد النَّاس سماعه. إنها شيء سيِّئ، وتُزعِج النَّاس، ولذا لا يعودون. أمَّا أنا فيُمكنني أن أكذب عليهم، أقول لهم ما يُريدون سماعه، أخبرهم بالبخت السَّعيد، وهكذا أشتري العيش للبيت. أتظنُّ أنكما ستكونان هنا على العَشاء؟».

أجابَ الأربعاء: «آملُ هذا».

- «أولى بك إذًا أن تُعطيني نقودًا لشراء المزيد من الطَّعام. إنني أبيَّة، لكنني لستُ غبيَّةً. الأخريان أشدُّ مني إباءً، وهو الأشدُّ إباءً على الإطلاق. أعطِني نقودًا إذًا ولا تقل لهم إنك تُعطيني نقودًا».

فتحَ الأربعاء محفظته وأخذَ منها ورقةً بعشرين دولارًا، فالتقطَتها زوريا ڤيتشرنيايا من بين أصابعه وانتظرَت، ليُخرِج عشرين دولارًا أخرى ويُعطيها لها.

قالت: «هو جيِّد. سنُطعِمكما وجبةً تليق بالأمراء، كما لو أننا نُطعِم أبانا ذاته. والآن اصعدا السَّلالم إلى القمَّة. زوريا أوترنيايا مستيقظة، لكن أختنا الأخرى لا تزال نائمةً، فلا تُحدِثا ضوضاء مزعجةً عندما تَبلُغان القمَّة».

صعدَ شادو والأربعاء السَّلالم المظلمة. كانت البسطة على ارتفاع طابقيْن نصف ممتلئةٍ بأكياس القمامة البلاستيكيَّة السَّوداء، التي تفوح منها رائحة الخضراوات المتعفِّنة.

سألَ شادو: «أهُم غجر؟».

- «زوريا وأسرتها؟ بتاتًا. ليسوا من شعب الروما. إنهم روس، سلافيُّون[xxvii] على ما أعتقدُ».

- «لكنها تُمارِس العِرافة».

- «أناس كثيرون يُمارِسون العِرافة. أنا نفسي جرَّبتها على سبيل الهواية».

كان الأربعاء يلهث وهما يصعدان مجموعة الدَّرجات الأخيرة. «يا لاعتلال صحَّتي».

انتهَت البسطة عند قمَّة السَّلالم ببابٍ مطلي بالأحمر، فيه عين سحريَّة.

طرقَ الأربعاء الباب، ولم يأتِ ردٌّ، فعادَ يَطرُقه بصوتٍ أعلى.

- «طيِّب! طيِّب! سمعتك! سمعتك!». أصوات أقفالٍ تُفتَح، ومزاليج تُسحَب، وصلصلة سلسلة، ثم فُتِحَ الباب الأحمر فتحةً ضيِّقةً.

- «مَن؟». صوتُ رجلٍ، عجوزٌ خشَّنته السَّجائر.

- «صديق قديم يا تشرنوبوج،[xxviii] ومعي مُعاون».

فُتِحَ الباب بقدر ما تسمح سلسلة الأمان، وفي الظِّلال رأى شادو وجهًا رماديًّا يَنظُر إليهما. «ماذا تُريد يا جريمنير؟».[xxix]

- «مبدئيًّا، مُتعة صُحبتك. كما أن لديَّ معلوماتٍ أودُّ أن أشاركك إياها. كيف تُقال... أوه، نعم. قد تُحصِّل شيئًا ينفعك».

فُتِحَ الباب عن آخِره. الرَّجل في معطف الحمَّام المغبَّر قصير القامة، شعره رماديٌّ كالحديد وملامحه متغضِّنة خشنة، ويرتدي بنطالًا مقلَّمًا يلمع بفعل الزَّمن، وينتعِل خُفَّيْن. بأصابع مربَّعة الأنامل يُمسِك سيجارةً بلا فلتر، ويمتصُّ منها الدُّخان مغلِقًا عليها قبضته... مثل المساجين كما خطرَ لشادو، أو الجنود.

مدُ الرَّجل يُسراه للأربعاء قائلًا: «مرحبًا بك إذًا يا جريمنير».

ردَّ مصافحًا العجوز: «يدعونني بالأربعاء هذه الأيام».

ابتسامة ضيِّقة، ولمحة من أسنانٍ صفراء. «نعم، طريف جدًّا. ومَن هذا؟».

- «هذا مُعاوني. شادو، أقدِّمُ لك المستر تشرنوبوج».

قال تشرنوبوج: «أهلًا بك»، وصافحَ يد شادو اليُسرى. يداه خشنتان يابستا الجلد، وأنامله مصفرَّة كأنما غُمِسَت في اليود.

- «كيف حالك أيها المستر تشرنوبوج؟».

- «حالي أني عجوز. أحشائي تُؤلِمني، وظَهري موجوع، وكلَّ صباحٍ يُمزِّق السُّعال صدري».

أتى صوت امرأةٍ يسأل: «لِمَ تقفان عند الباب؟»، فنظرَ شادو من فوق كتف تشرنوبوج إلى العجوز الواقفة خلفه، التي تبدو أصغر حجمًا وأشدَّ هشاشةً من أختيها، ولو أن شعرها طويل ولا يزال ذهبيًّا. قالت: «أنا زوريا أوترنيايا. يجب ألَّا تقفوا في الرَّدهة. يجب أن تَدخُلوا إلى غُرفة الجلوس، من هناك. سأجلبُ لكم قهوةً. هيًا، ادخُلوا، من هناك».

من الباب إلى داخل شقَّةٍ رائحتها خليط من الكرنب المبالَغ في سلقه وأوعية فضلات القِطط والسَّجائر الأجنبيَّة غير المفلتَرة، ومن خلال ردهةٍ ضيِّقة قيدا مرورًا بعدَّة أبوابٍ مغلقة إلى غُرفة الجلوس في أقصى الرُّواق، حيث أُجلِسا على أريكةٍ ضخمة قديمة مكسوَّة بشعر الخيول، ليُقلِقا راحة القِطِّ الرَّماديِّ المُسن، الذي تمطَّى وقامَ وذهبَ متيبِّسًا إلى جانبٍ بعيد من الأريكة، حيث تمدَّد ورمقَ كلًّا منهما بحذر، ثم أغمضَ عينًا واحدةً وعادَ إلى النَّوم. أمَّا تشرنوبوج فأخذَ المقعد ذي المسنديْن قُبالتهما.

وجدَت زوريا أوترنيايا منفضة سجائر خاليةً ووضعَتها بجانب تشرنوبوج، وسألَت ضيفيْها: «كيف تُريدان قهوتكما؟ هنا نشربها سوداء كاللَّيل حُلوةً كالخطيئة».

أجابَ شادو: «لا بأس بهذا يا سيِّدتي»، ونظرَ من النَّافذة إلى المباني عبر الشَّارع.

خرجَت زوريا أوترنيايا، وإذ ذهبَت حدَّق إليها تشرنوبوج، وقال: «امرأة صالحة، على عكس أختيْها. إحداهما حيزبون، والأخرى لا تفعل إلَّا النَّوم»، ثم رفعَ قدميه في خُفَّيهما على طاولة القهوة الطَّويلة الواطئة، التي تضمُّ

في منتصفها رُقعة شطرنج، ويمتلئ سطحها بحروق السَّجائر والحلقات المتخلّفة عن الأكواب.

سأله شادو: «أهي زوجتك؟».

قال العجوز: «ليست زوجة أحد»، وللحظةٍ جلس صامتًا يرمُق يديه الخشنتين، قبل أن يُتابع: «لا. كلُّنا أقرباء. جئنا إلى هنا معًا قبل زمنٍ طويل».

من جيب معطف الحمَّام أخذ تشرنوبوج عُلبةً من السَّجائر غير المفلترة لم يتعرَّف شادو نوعها. أخرجَ الأربعاء قدَّاحةً ذهبيَّةً رفيعةً من جيب بدلته الباهتة، وأشعلَ سيجارة العجوز، الذي أردفَ: «أوَّلًا نذهب إلى نيويورك. بنو وطننا جميعًا يذهبون إلى نيويورك. ثم نأتي إلى هنا، شيكاجو. ساءت الأحوال كلُّها بشدَّة. في البلد القديم يكادون ينسونني، وهنا أنا مجرَّد ذكرى سيِّئة لا يُريد أحد استعادتها. أتدري ماذا عملتُ عندما أتيتُ إلى شيكاجو؟».

أجابَ شادو: «لا».

قال تشرنوبوج: «أحصلُ على وظيفةٍ في تجارة اللُّحوم، في المذبح. عندما يصعد الثَّور على السَّير، كنتُ قارعًا. أتعرف لِمَ يدعوننا بالقُرَّاع؟ لأننا نحمل مرزبةً و«نقرع» بها البقر على رؤوسه. بام! الأمر يتطلَّب قوَّةً في الذِّراعين، صح؟ ثم يربط الشَّاكِل البقرة بالسَّلاسل ويرفعها، ثم ينحرونها، ويُفرِّغونها من الدَّم أوَّلًا قبل قطع الرَّأس. نحن القُرَّاع كنا الأقوى»، ورفعَ كُمَّ معطفه وثنى عضده مستعرضًا العضلات التي لا تزال بارزةً تحت الجلد العجوز. «ليست القوَّة فحسب. كانت مسألة فن، الضَّربة، وإلَّا لداخَت البقرة فقط أو غضبَت. ثم في الخمسينيَّات يُعطوننا المسدَّس الصَّاعق. تضعه على الجبهة، وبام! بام! الآن تُفكِّر أن أيَّ أحدٍ قادر على القتل. غير صحيح»، وحاكى العجوز غرس صاعقةٍ معدنيَّة في رأس بقرةٍ مواصلًا: «ما زالَت المسألة تتطلَّب مهارةً»، وابتسمَ للذِّكرى كاشفًا عن سنٍّ بلون الحديد.

- «لا تحكِ لهما قصصًا عن قتل البقر». عادَت زوريا أوترنيايا حاملةً القهوة على صينيَّةٍ خشبيَّة حمراء. الأكواب صغيرة مطليَّة بالمينا اللَّامع، يملؤها سائل بنِّي يكاد يكون من فرط قتامته أسود. ناولَت كلًّا منهم كوبًا، ثم جلسَت بجوار تشرنوبوج، وقالت: «زوريا ڤيتشرنيايا تتسوَّق. سترجع قريبًا».

قال شادو: «قابلناها بالأسفل. تقول إنها تقرأ الطَّالع».

قالت أختها: «نعم. الشفق أوان الأكاذيب. أنا لا أجيدُ الكذب، ولذا أعدُّ عرّافةً رديئةً. وأختنا زوريا پولونوتشنايا[*] لا تستطيع الكذب على الإطلاق».

كانت القهوة أحلى وأقوى مما توقّع شادو.

استأذنَ شادو في دخول الحمّام، وهو غُرفة ضيّقة للغاية أشبه بالخزانة قُرب الباب الأمامي، معلّق فيها العديد من الصُّور المبروزة المبقّعة بالبنّي. ما زالَ الأصيل في أوّله، إلّا أن ضوء النّهار بدأ يخبو بالفعل. بينما يغسل يده بالماء البارد كالجليد وقطعةٍ ضئيلة من الصّابون الوردي مُفثي الرّائحة، سمعَ شادو أصواتًا مرتفعةً آتيةً من الرُّواق.

عندما خرجَ كان تشرنوبوج واقفًا في الرُّواق يزعق: «أنت تجلب المتاعب! لا شيء إلّا المتاعب! لن أسمعك! ستَخرُج من منزلي!».

ظلّ الأربعاء جالسًا على الأريكة، يرشف من قهوته ويُملّس على القِطّ الرَّمادي، في حين وقفَت زوريا أوترنيايا على البساط الخفيف، بعصبيّةٍ تفتل خُصلات شعرها الأصفر الطّويل.

سألَ شادو: «أهناك مشكلة؟».

صاحَ تشرنوبوج: «هو المشكلة! هو! قُل له إن شيئًا لن يجعلني أساعده! أريده أن يرحل! أريده أن يَخرُج من هنا! فليذهب كلاكما!».

قالت زوريا أوترنيايا: «رجاءً، رجاءً اخفض صوتك وإلّا أيقظت زوريا پولونوتشنايا».

زعقَ تشرنوبوج: «أنتِ مثله، تُريدينني أن أنضمّ إليه في جنونه!». بدا العجوز على وشك البُكاء، وسقطَ عمود من الرَّماد من سيجارته على بساط الرُّواق البالي.

نهضَ الأربعاء وذهبَ إلى تشرنوبوج، وأراحَ يديه على كتفيه قائلًا بوداعة: «اسمع. أوّلًا، ليس هذا جنونًا، بل السَّبيل الوحيد. ثانيًا، الجميع سيحضرون. لست تُريد أن تُهمَل، أليس كذلك؟».

ردّ تشرنوبوج: «أنت تعرف مَن أنا. تعرف ما اقترفَته هاتان اليدان. مَن تُريده هو أخي وليس أنا، وأخي رحلَ».

فُتِحَ باب في الرُّواق، وقال صوت أنثوي ناعس: «أيُوجَد خطب؟».

أجابَت زوريا أوترنيايا: «لا يا أختاه. عودي إلى النَّوم»، والتفتَت إلى تشرنوبوج قائلةً: «أترى؟ أترى ما تفعله بزعيقك؟ عودوا إلى الدَّاخل واجلسوا. اجلسوا!».

لاحَ على تشرنوبوج الهمُّ بالاعتراض، ثم خارَت قُدرته على المناهدة، وبدا هشًّا فجأةً، هشًّا ووحيدًا.

عادَ الرِّجال الثَّلاثة إلى غُرفة الجلوس الفقيرة، التي تُحيط بها حلقة نيكوتين بنِّيَّة تنتهي قبل قدمٍ تقريبًا من السَّقف، مثل خطِّ الماء في حوض استحمامٍ قديم.

قال الأربعاء بلا أيِّ انزعاج: «ليس هذا من أجلك بالضَّرورة. إن كان من أجل أخيك فهو من أجلك أيضًا. هذه إحدى النِّقاط التي تتفوَّقون فيها علينا أيها الثُّنائيُّون، إه؟».

فلم يردَّ تشرنوبوج.

- «على ذِكر بيليبوج، هل سمعت منه شيئًا؟».

هزَّ تشرنوبوج رأسه نفيًا، ثم تكلَّم محدِّقًا إلى البساط الرَّث: «لا أحد منا سمعَ منه. أكادُ أُنسى، لكنهم ما زالوا يَذكُرونني قليلًا، هنا وفي البلد القديم»، ثم رفعَ عينيه إلى شادو ليسأله: «ألك أخ؟».

- «لا، ليس على حدِّ علمي».

- «أنا لي أخ. يقولون إنك إذا وضعتنا معًا فسنكون كشخصٍ واحد. في صِغرنا، شعره أشقر جدًّا، فاتح جدًّا، ويقول النَّاس إنه هو الصَّالح. وشعري فاحم جدًّا، أكثر من شعرك هذا، ويقول النَّاس إنني الطَّالح، السيِّئ. والآن يمرُّ الزَّمن وشعري أشيب، وشعره أيضًا شابَ على ما أظنُّ، وتَنظُر إلينا فلا تعرف مَن كان النُّور ومَن كان الظَّلام».

سأله شادو: «أكنتما قريبيْن؟».

- «قريبيْن؟ لا، لم نكن قريبيْن. كيف؟ لقد اهتمَمنا بأشياء متباينة للغاية».

أتَت جلبة من طرف الرِّواق، ودخلَت زوريا فيتشرنيايا قائلةً: «العَشاء بعد ساعة»، ثم خرجَت.

تنهَّد تشرنوبوج، وقال: «تخال نفسها طاهيةً بارعةً. خلال نشأتها كان عندها خدم يطهون. الآن لا خدم، لا شيء».

قال الأربعاء: «ليس لا شيء، ليس لا شيء أبدًا».

ردَّ تشرنوبوج: «أنت، لن أصغي إليك»، والتفتَ إلى شادو سائلًا: «هل تلعب الدَّامة؟». [1]

- «نعم».

- «عظيم. ستلعب معي مباراة دامة». قالها العجوز وتناولَ عُلبةً خشبيَّةً من فوق رفِّ المدفأة، وأفرغَ القطع على الطَّاولة. «سألعبُ بالأسود».

مسَّ الأربعاء ذراع شادو قائلًا: «لستَ مضطرًّا إلى هذا».

ردَّ شادو: «لا مشكلة. أريدُ أن ألعب»، فهزَّ الأربعاء كتفيه والتقطَ نُسخةً قديمةً من «ريدرز دايچست» من كومةٍ صغيرة من المجلَّات المصفرَّة على عتبة النَّافذة، وفرغَت أصابع تشرنوبوج البنِّيَّة من رصِّ القطع على الخانات، وبدأت المباراة.

خلال الأيام التَّالية وجدَ شادو نفسه يتذكَّر تلك المباراة مرارًا، وفي بعض اللَّيالي حلمَ بها. كانت قطعه المستديرة المسطَّحة بلون الخشب القديم المتَّسخ، بيضاء اسمًا فقط، وقطع تشرنوبوج سوداء باهتةً. حرَّك شادو القطعة الأولى، وفي أحلامه لم يَدُر بينهما حوار وهما يلعبان، لا صوت إلَّا طقطقة القطع العالية إذ تُوضَع على الرُّقعة، أو هسهسة الخشب على الخشب إذ تُدفَع من خانةٍ إلى خانةٍ مجاورة.

خلال نصف الدَّستة الأول من الحركات دفعَ كلا الرَّجلين قطعه إلى منتصَف الرُّقعة تاركًا الصُّفوف الخلفيَّة كما هي، وبين الحركات كانت فترات توقُّف، فترات توقُّفٍ طويلة كما في الشِّطرنج فيما يُراقِب كلٌّ منهما ويُفكِّر.

سبقَ أن لعبَ شادو الدَّامة في السِّجن لتزجية الوقت، ولعبَ الشِّطرنج أيضًا، ولو أنه ليس لُعبةً مناسبةً لمزاجه، لأنه لا يحبُّ التخطيط المسبق، ويُفضِّل اختيار الحركة المثاليَّة في لحظتها. يُمكنك أن تربح في الدَّامة بهذه الطَّريقة أحيانًا.

---

(1) الدَّامة: لُعبة لوحيَّة تُلعَب بين شخصين على رُقعةٍ مقسَّمة إلى مربَّعات، وباستعمال قطع بشكل أقراص. (المُترجم).

ارتفعَت طقطقة إذ التقطَ تشرنوبوج قطعةً سوداء وقفزَ بها من فوق إحدى قطع شادو البيضاء إلى الخانة على الجانب الآخَر، ثم التقطَ العجوز قطعة شادو البيضاء ووضعَها على الطَّاولة إلى جوار الرُّقعة.

قال تشرنوبوج: «نُقطة التَّفوُّق الأولى لي. خسرتَ. انتهَت المباراة».

ردَّ شادو: «لا. أمام المباراة وقت طويل قبل أن تنتهي».

- «هل تودُّ أن نتراهَن إذًا؟ رهانًا جانبيًّا صغيرًا لجعل اللُّعبة أكثر تشويقًا؟».

قال الأربعاء دون أن يرفع عينيه عن عمود «فُكاهة بالزِّي العسكري» في المجلَّة: «لا، لا يودُّ».

- «لستُ ألاعبك أنت أيها العجوز. إنني ألاعبه هو. هل تُريد المراهنة على المباراة يا مستر شادو؟».

سألَه شادو: «عمَّ كنتما تتشاجَران؟».

رفعَ تشرنوبوج حاجبًا خشنًا قائلًا: «سيِّدك يُريدني أن أذهب معه، أن أساعده في هُرائه، وأنا أوثِرُ الموت».

- «تُريد رهانًا. حسن، إذا كسبتُ فستأتي معنا».

زمَّ العجوز فمه، وقال: «ربما، ولكن فقط إذا قبلت الغرامة حين تخسر».

- «ألا وهي؟».

لم يتبدَّل التَّعبير على وجه تشرنوبوج إذ أجابَ: «إذا كسبتُ فلي أن أقرعك على دماغك بالمرزبة. أوَّلًا تركع على رُكبتيك، ثم أضربك ضربةً لا تقوم بعدها ثانيةً».

تطلَّع شادو إلى وجه العجوز محاولًا قراءته، فأيقنَ بأنه لا يمزح. في الرَّجل جوع لشيءٍ ما؛ للألم، أو الموت، أو القصاص.

أغلقَ الأربعاء المجلَّة قائلًا: «هذا سُخف. لقد أخطأتُ بالمجيء إلى هنا. شادو، سننصرف».

قامَ القِطُّ الرَّمادي منزعجًا ووثبَ فوق الطَّاولة بجوار رُقعة الدَّامة رامقًا القطع، ثم وثبَ على الأرض وانسلَّ من الغُرفة رافعًا ذيله عاليًا.

- «لا». لا يخشَى شادو الموت، فلم يتبقَّ له ما يعيش من أجله على كلِّ حال. «لا بأس. أقبلُ الرِّهان. إذا كسبتَ المباراة فلك أن تقرعني على

دماغي بضربةٍ واحدة من مرزبتك»، وحرَّك شادو قطعته البيضاء التّالية إلى الخانة الملاصقة على حافة الرُّقعة.

ولم يَقل شيء آخَر، لكن الأربعاء لم يفتح الـ «ريدرز دايچست» مجدَّدًا، وشاهدَ المباراة بعينه الزُّجاج وعينه الحقيقيَّة، لا يشي التَّعبير على وجهه بشيء.

أزالَ تشرنوبوج واحدةً أخرى من قطع شادو، وأزالَ شادو اثنتين من قطع العجوز. من الرُّواق أتت روائح أطعمةٍ غير مألوفةٍ تُطهى، ولئن لم تكن الرُّوائح كلُّها فاتحةً للشَّهيَّة فقد أدركَ شادو فجأةً كم هو جوعان.

حرَّك الرَّجلان قطعهما، أسود وأبيض، حركةً من هذا وحركةً من ذاك. موجة من القطع المزالة، وقطعتان رُقِّيَتا إلى ملكَيْن، فلم تعودا مجبرتَيْن على التَّحرُّك إلى الأمام فقط على الرُّقعة، وإلى الجانب خانةً واحدةً في المرَّة، فالملوك يستطيعون الحركة إلى الأمام والخلف، وهو ما يُضاعِف خطورتهم. لقد بلغوا أبعد الصُّفوف، وبإمكانهم الحركة حيثما شاؤوا، والآن مع تشرنوبوج ثلاثة ملوك، ومع شادو اثنان.

حرَّك تشرنوبوج أحد ملوكه على الرُّقعة مزيحًا قطع شادو الباقية، فيما استخدمَ الملكَيْن الآخَرَيْن لإجبار قطع شادو على البقاء في خاناتها.

ثم رقَّى تشرنوبوج قطعةً رابعةً إلى ملك، وعادَ إلى ملكَي شادو على الرُّقعة وأطاحَ بهما من غير أن يبتسم، وانتهى الأمر.

قال تشرنوبوج: «إذًا لي أن أقرعك على دماغك، وستركع على رُكبتيك بإرادتك. هو جيِّد»، ومدَّ يدًا عجوزًا ربَّت بها على ذراع شادو.

قال شادو: «ما زالَ لدينا وقت قبل العَشاء. أتُريد مباراةً أخرى؟ الشُّروط نفسها؟».

أشعلَ تشرنوبوج سيجارةً أخرى بعودٍ من دفتر ثقاب مطبخ، وسأله: «الشُّروط نفسها كيف؟ أتُريدني أن أقتلك مرَّتين؟».

- «الآن عندك ضربة واحدة لا أكثر. قلت لي بنفسك إنها ليست مسألة قوَّة فقط، بل مهارة. هكذا، إذا كسبت هذه المباراة، تنال ضربتَيْن على رأسي».

زمجرَ تشرنوبوج: «ضربة واحدة هي كلُّ ما يتطلّبه الأمر، ضربة واحدة هذا هو الفنُّ»، وربَّت بيُسراه على عضده اليُمنى حيث العضلات، ليتبعثر رماد سيجارته.

- «لقد مرَّ زمن طويل. إن كنت قد فقدت مهارتك فقد لا تفعل أكثر من إصابتي بكدمة. كم مضى منذ ضربت بمطرقتك القاتلة في حظائر الماشية؟ ثلاثون عامًا؟ أربعون؟».

لم يعلّق تشرنوبوج، وبدا فمه المغلق كشقٍّ رمادي في وجهه. نقر بأصابعه على الطّاولة الخشبيَّة صانعًا إيقاع طبلة، ثم دفعَ قطع الدّامة الأربع وعشرين إلى خاناتها الأصليَّة على الرُّقعة، وقال: «العب. مرَّةً أخرى أنت النّور وأنا الظّلام».

حرَّك شادو قطعته الأولى، وحرَّك تشرنوبوج إحدى قطعه... وخطرَ لشادو أن العجوز سيُحاوِل أن يلعب المباراة نفسها ثانيةً، المباراة التي كسبَها لتوِّه، أن حدوده ستقتصر على ذلك.

هذه المرَّة لعبَ شادو بتهوُّر، فاغتنمَ الفُرص الضَّئيلة، وتحرَّك بلا تفكير، بلا توقُّفٍ ليتدبَّر، وهذه المرَّة ابتسمَ شادو وهو يلعب، ومتى حرَّك تشرنوبوج قطعةً اتَّسعت ابتسامته.

وسرعان ما بدأ تشرنوبوج يصفق قطعه على الرُّقعة، يضرب بها الطّاولة الخشبيَّة بعُنفٍ هزَّ القطع المتبقِّية في خاناتها السَّوداء.

مزيلًا أحد بيادق شادو بصوتٍ مدوٍّ وهاويًا بقطعته السَّوداء على الرُّقعة، قال تشرنوبوج: «انظُر، انظُر. ما ردُّك على هذا؟».

ولم يردَّ شادو. ببساطةٍ ابتسمَ، وقفزَ فوق القطعة التي وضعَها تشرنوبوج، وقطعةٍ أخرى، وأخرى، وقطعةٍ رابعة، يُخلي مركز الرُّقعة من القطع السَّوداء، ثم أخذَ قطعةً بيضاء من الكومة المجاورة للرُّقعة ورقَّى هذا البيدق إلى ملك.

بعدها اقتصرَت المسألة على التَّنظيف. قلَّة قليلة من الحركات وانتهَت المباراة.

قال شادو: «الأفضل من ثلاث؟».

اكتفى تشرنوبوج بالتَّحديق إليه، عيناه الرَّماديَّتان رأسا سكّينَيْن من الفولاذ، قبل أن يضحكَ ويُربِّت على كتفَي شادو بقوَّةٍ صائحًا: «إنك تُعجِبني! لا تعوزك الشَّجاعة».

طلَّت زوريا أوترنيايا برأسها من الباب لتُخبرهم بأن العَشاء جاهز، وعليهم أن يرفعوا اللُّعبة ويضعوا المفرش على الطَّاولة. «لا نملك غُرفة طعام، آسفة. نأكل هنا».

على المائدة وُضِعَت أطباق التَّقديم، وأُعطِيَ كلٌّ من الآكلين طبقًا صغيرًا ملوَّنًا عليه بعض أدوات المائدة التي زالَ بريقها ليضعه على حجره.

أخذَت زوريا ڤيتشرنيايا خمسة أوعيةٍ ووضعَت في كلٍّ منها حبَّة بطاطس مسلوقة بقشرها، ثم غرفَت فوقها حصَّةً كبيرةً من حَساء البُرش القرمزي القاني، وأضافَت ملء ملعقةٍ من الكِريمة الحامضة البيضاء، وناولَتهم الأوعية.

قال شادو: «حسبتنا ستَّة».

أجابَته زوريا ڤيتشرنيايا: «زوريا پولونوتشنايا ما زالَت نائمةً. نحتفظ بطعامها في الثلَّاجة. ستأكل عندما تصحو».

كان البُرش كثير الخلّ، ومذاقه كالبنجر المخلَّل، أمَّا البطاطس المسلوقة فمليئة بالنَّشا.

الصَّنف التَّالي لحم محمَّر قاسٍ كالجلد، تصحبه خضراوات من نوعٍ ما... ولو أنها سُلِقَت طويلًا جدًّا وكلِّيًّا، حتى إنها لم تَعُد خضراء على الإطلاق ولو في أشدِّ المخيِّلات شططًا، وفي الحقيقة في طريقها إلى أن تُصبِح بنِّيَّات.

ثم قُدِّمَ ورق الكرنب المحشوُّ باللَّحم المفروم والأرز، ورق كرنب شديد القساوة لدرجة أنه من شبه المستحيل أن تقطعه من غير أن تَسكُب اللَّحم المفروم والأرز على البساط، وهكذا اكتفى شادو بدفع نصيبه في أنحاء الطَّبق.

قال تشرنوبوج مقطِّعًا لنفسه كُتلةً أخرى من اللَّحم المحمَّر: «أنا والشَّاب لعبنا الدَّامة. فازَ هو بمباراةٍ وفزتُ بمباراة. لأنه فازَ فقد وافقتُ على الذَّهاب معه هو والأربعاء لأساعدهما في جنونهما. ولأني فزتُ فعندما ينتهي كلُّ هذا سأقتلُ الشَّاب بضربة مطرقة».

أومأت كلتا الزورياتيْن برأسيهما برزانة، وقالت زوريا ڤيتشرنيايا: «يا للأسف. في قراءتي بختك كان حريًّا بي أن أقول إنك ستعيش حياةً طويلةً سعيدةً، وتُنجِب أطفالًا عدَّة».

قالت زوريا أوترنيايا: «لهذا أنتِ عرَّافة بارعة». بدَت العجوز ناعسةً، كأن بقاءها حتى هذه السَّاعة المتأخِّرة يُكلِّفها جهدًا. «إنكِ تقولين أفضل الأكاذيب».

كانت وجبةً طويلةً، وفي نهايتها ظلّ شادو جائعًا. طعام السِّجن في منتهى الرَّداءة، إلّا أن طعام السِّجن أفضل من هذا.

- «طعام طيِّب». قالها الأربعاء الذي نظَّف طبقه تنظيفًا مبرهنًا بما لا يدع مجالًا للشَّكّ على استمتاعه بالوجبة. «أشكركما أيتها السيِّدتان. والآن يُؤسِفني أنه يتعيَّن علينا أن نَطلُب منكم أن تُشيروا علينا بفندقٍ لائق في المنطقة».

بدَت زوريا ڤيتشرنيايا كأنما أُهينَت، وسألَت: «لِمَ تنزلان في فندق؟ ألسنا أصدقاءكما؟».

- «لا يُمكنني أن أحمِّلكم أيَّ متاعب...».

ردَّت زوريا أوترنيايا مداعبةً شعرها الذَّهبي المتنافر: «لا متاعب»، وتثاءبَت.

أشارَت زوريا ڤيتشرنيايا إلى الأربعاء قائلةً: «يُمكنك النَّوم في غُرفة بيليبوج. هي خالية. أمَّا أنت أيها الشَّاب فأعدُّ لك فِراشًا على الأريكة. ستكون أكثر راحةً مما لو نمت على فِراشٍ محشو بالرِّيش، أقسمُ».

قال الأربعاء: «لُطف بالغ منكم. قبلنا».

قالت زوريا ڤيتشرنيايا رافعةً رأسها بظَفَر: «ولن تدفع لي أكثر مما تدفع في فندق. مئة دولار».

- «ثلاثون».

- «خمسون».

- «خمسة وثلاثون».

- «خمسة وأربعون».

- «أربعون».

قالت زوريا ڤيتشرنيايا: «هو جيِّد. خمسة وأربعون دولار»، ومدَّت يدها من فوق المائدة وصافحَت الأربعاء، ثم بدأت ترفع الأطباق. تثاءبَت زوريا أوترنيايا فاغرةً فاها عن آخِره حتى إن شادو خشيَ أن تخلع فكَّها، وأعلنَت أنها ستأوي إلى الفِراش قبل أن تغيب في النَّوم ويَسقُط رأسها في الفطيرة، وتمنَّت للجميع ليلةً طيِّبةً.

ساعدَ شادو زوريا ڤيتشرنيايا على حمل الأطباق والأوعية إلى المطبخ الصَّغير، ولدهشته وجدَ غسَّالة أطباقٍ عتيقةً تحت الحوض، فملأها، لكن زوريا ڤيتشرنيايا نظرَت من فوق كتفه، وطقطقَت بلسانها، وأزالَت أوعية البِرش الخشبيَّة قائلةً له: «هذه في الحوض».

- «معذرةً».

قالت: «لا قلق. والآن عُد. نأكل فطيرةً»، وأخرجَت الفطيرة من الفُرن.

الفطيرة -وهي فطيرة تُفَّاح- مشتراة من المتجر ومدفَّأة في الفُرن، وفي غاية اللَّذاذة حقًّا. أكلَها أربعتهم مع الآيس كريم، ثم أخرجَت زوريا ڤيتشرنيايا الجميع من غُرفة الجلوس، وأعدَّت لشادو فِراشًا ممتازًا على الأريكة.

بينما وقفا في الرُّواق كلَّم الأربعاء شادو: «ما فعلته بالدَّاخل في مباراة الدَّامة».

- «نعم؟».

- «كانَ هذا جيِّدًا. تصرُّف في غاية الغباء منك، لكنه جيِّد. نومًا آمنًا».

نظَّف شادو أسنانه وغسلَ وجهه بالماء البارد في الحمَّام الصَّغير، ثم عادَ يقطع الرُّواق إلى غُرفة الجلوس، حيث أطفأ الضَّوء وغابَ في النَّوم قبل أن يلمس رأسه الوسادة.

---

دوَّت الانفجارات في حُلم شادو. كان يقود شاحنةً في حقل ألغام، والقنابل تنفجر على كلِّ جانبٍ من حوله. تحطَّم الزُّجاج الأمامي، وأحسَّ بالدَّم الدَّافئ يسيل على وجهه.

أحدهم يُطلِق عليه النَّار.

ثقبَت رصاصة رئته، وهشَّمت رصاصة عموده الفقري، واخترقَت أخرى كتفه. كلُّ طلقةٍ أحسَّ بها تُصيبه، وانهارَ شادو على عجلة القيادة.

وانتهى الانفجار الأخير بظلام.

ووحيدًا فكَّر شادو في الظَّلام: مؤكَّد *أنني أحلم. أظنُّني مِتُّ*. تذكَّر أنه سمعَ وصدَّق في طفولته أن المرء يموت في عالم الواقع إذا ماتَ في أحلامه، على أنه لم يَشعُر أنه ميت، وعلى سبيل التَّجربة فتحَ عينيه.

في غُرفة الجلوس الصَّغيرة امرأة تقف عند النَّافذة وتُوليه ظَهرها. توقَّف قلبه عن النَّبض نصف لحظة، وقال: «لورا؟».

التفتَت قائلةً وضوء القمر يُحدِّد جسدها: «آسفة، لم أقصد أن أوقظك، لُكنتها شرق أوربيَّة ناعمة. «سأذهبُ».

قال شادو: «لا، لا عليكِ. لم تُوقِظيني. كنتُ أحلمُ».

- «نعم. كنت تصيح وتئنُّ. أرادَ جزء مني أن يُوقِظك، لكنني فكَّرتُ أن لا، يَجدُر بي أن أتركه».

بدا شعرها شاحبًا بلا لونٍ في ضوء القمر الخفيف، وقد ارتدَت غلالة نوم بيضاء قُطنيَّةً رقيقةً، رقبتها العالية من الدانتلَّة وحاشيتها تكنس الأرض.

اعتدلَ شادو الذي أفاقَ بالكامل جالسًا، وقال: «أنتِ زوريا پولـ...»، وتردَّد قبل أن يقول: «الأخت التي كانت نائمةً».

- «أنا زوريا پولونوتشنايا، نعم. وأنت اسمك شادو، صح؟ هكذا أخبرَتني زوريا ڤيتشرنيايا عندما صحوتُ».

- «نعم. علامَ كنتِ تتفرَّجين؟».

نظرَت إليه، ثم أشارَت له بالانضمام إليها عند النَّافذة، وأولَته ظَهرها فيما ارتدى بنطاله. تحرَّك شادو نحوها، وبدَت له المسافة طويلةً بالنِّسبة إلى غُرفةٍ صغيرة كهذه.

لم يستطِع تحديد سنِّها. بشرتها خالية من التَّجاعيد، وعيناها داكنتان، وأهدابها طويلة، وشعرها يصل إلى خصرها، أبيض في ضوء القمر الذي استنزفَ الألوان محيلًا إياها إلى أشباح، كما أنها أطول قامةً من أختيْها.

رفعَت إصبعها إلى سماء اللَّيل قائلةً: «كنتُ أتفرَّجُ على هذه»، وأشارَت إلى كوكبة المغرفة الكبيرة متبعةً: «أتراها؟».

- «إرسا ميجُر، الدُّب الأكبر».

قالت: «هذه وجهة واحدة للنَّظر إليها، لكنها ليست الوجهة المتَّبعة في موطني الأصلي. سأذهبُ للجلوس على السَّطح. أتودُّ أن تأتي معي؟».

- «أظنُّ هذا».

- «هو جيِّد».

فتحت النافذة وخرجت حافية القدمين إلى سُلَّم الحريق، وقد هبَّت ريح قارسة من النافذة. كان شيء ما يُشعِر شادو بالانزعاج، غير أنه لم يُدرِك ماهيته. تردَّد، ثم وضعَ سويتره وجوربه وحذاءه، وتبعَها إلى الخارج على سُلَّم الحريق الصَّدئ، فوجدَها في انتظاره. خرجَت أنفاسه بُخارًا في الهواء البارد، وشاهدَ قدميها الحافيتَيْن تصعدان الدَّرجات المعدنيَّة جليديَّة البرودة، وتبعَها إلى السَّطح.

هبَّت الرِّيح باردةً مسوِّيةً غلالة النَّوم على جسدها، وأدركَ شادو على نحوٍ لا يُريح أن زوريا پولونوتشنايا لا ترتدي شيئًا تحتها على الإطلاق.

سألَها إذ بلغا قمَّة السُّلَّم: «ألا تُبالين بالبرد؟»، فذرَت الرِّيح كلماته وبدَّدتها.

- «عُذرًا؟». قالتها حانيةً رأسها ليدنو وجهها من وجهه، وشمَّ شادو أنفاسها العطرة.

- «سألتكِ إن كان البرد لا يُزعِجكِ».

ردًّا، رفعَت إصبعها بمعنى مهلًا، وبخفَّةٍ خطَت من فوق جانب المبنى إلى السَّطح المستوي، وعبرَ شادو بشيءٍ من الخرق وتبعَها على السَّطح إلى ظلِّ صهريج الماء، حيث تنتظرهما دكَّة خشبيَّة جلسَت عليها زوريا پولونوتشنايا وإلى جوارها شادو.

عملَ الصَّهريج كحاجز ريح، وهو ما أشعرَ شادو بالامتنان، وقد لطَّخت أضواء المدينة السَّماء بالصُّفرة مبتلعةً نصف النُّجوم التي استطاعَ رؤيتها سابقًا من الرِّيف المفتوح. ومع ذلك ظلَّ بإمكانه رؤية المغرفة الكبيرة ونجم الشَّمال، كما وجدَ نجمات حزام الجبَّار الثَّلاث، ليُتيح له هذا رؤية كوكبة الجبَّار نفسها، التي يراها دومًا رجلًا يجري ليَركُل كُرة قدم...

قالت: «لا، البرد لا يُزعِجني. هذا الأوان أواني. لا يُمكن أن يُصيبني الانزعاج ليلًا أكثر مما يُصيب سمكةً في المياه العميقة».

علَّق شادو: «لا بُدَّ أنكِ تُحبِّين اللَّيل»، وتمنَّى لو أنه قال شيئًا أكثر حكمةً، شيئًا أشدَّ بلاغةً.

- «لكلٍّ من أختيَّ أوانها. زوريا أوترنيايا أوانها الفجر. في البلد القديم اعتادَت الاستيقاظ لفتح البوَّابة ليَخرُج أبونا بـ... آم، نسيتُ الكلمة. مثل السيَّارة ولكن بخيول؟».

- «عربة؟».

- «عربته. كان أبونا يَخرُج بها، وتفتح له زوريا ڤيتشرنيايا البوّابة عند الغسق حين يرجع إلينا».

- «وأنتِ؟».

صمتَت. شفتاها ممتلئتان لكنهما بالغتا الشُّحوب. «لم أرَ أبانا قَطُّ. كنتُ نائمةً».

- «أهي حالة صحِّيَّة؟».

لم تُجِبه، وكانت هزّة كتفيها -إن هزَّتهما- غير منظورة. «أردتَ أن تعرف ما كنتُ أتفرَّجُ عليه».

- «المغرفة الكبيرة».

رفعَت ذراعها مشيرةً إلى الكوكبة، وسوَّت الرِّيح غلالة نومها على جسدها، لتتبدَّى للحظةٍ حلمتاها وكلُّ نتوءٍ من القشعريرة على هالتيْهما الدّاكنتين تحت القُطن الأبيض. وارتجفَ شادو.

- «يُسمُّونها عربة أودِن، والدُّب الأكبر. في موطننا نُؤمِن بوجود... شيء، ليس إلهًا ولكن مثل إله، شيء سيِّئ مقيَّد بالسَّلاسل إلى تلك النُّجوم. إذا هربَ فسيلتهم كلَّ شيءٍ عن آخِره، وثمَّة أخوات ثلاث يجب أن يُراقبن السَّماء طيلة اللَّيل وطيلة النَّهار. إذا هربَ ذلك الشَّيء حبيس النُّجوم انتهى العالم. پوف! بهذه البساطة».

- «والنَّاس يُؤمِنون بذلك؟».

- «كانوا يُؤمِنون به قبل زمنٍ طويل».

- «وكنتِ تَنظُرين لتعرفي إن كان يُمكنكِ رؤية الوحش حبيس النُّجوم؟».

- «شيء من هذا القبيل، نعم».

ابتسمَ شادو مقرِّرًا أنه لولا البرد لحسبَ نفسه يَحلُم، فكلُّ شيءٍ يُشعِره بشدَّةٍ كأنه في حُلم.

- «أتسمحين بأن أسألكِ عن سنِّكِ؟ أختاكِ تبدوان أكبر كثيرًا».

أومأت برأسها مجيبةً: «أنا الصُّغرى. زوريا أوترنيايا وُلِدَت في الصَّباح، وزوريا ڤيتشرنيايا في المساء، وأنا في منتصَف اللَّيل. أنا أخت منتصَف اللَّيل: زوريا پولونوتشنايا. أأنت متزوِّج؟».

- «زوجتي ميتة. ماتت الأسبوع الماضي في حادثة سيّارة. كانت جنازتها أمس».

- «أنا في غاية الأسف».

- «لقد أتت لزيارتي البارحة».لم يكن قولها صعبًا في الظّلام وضوء القمر، لم يكن شيئًا لا يُصدّق مثلما كان في نور النّهار.

- «هل سألتها عمّا تُريده؟».

- «لا، ليس بالضّبط».

- «قد يكون عليك أن تسألها. سؤال الموتى أبلغ الأشياء حكمةً. أحيانًا يُجيبونك. زوريا ڤيتشرنيايا تقول لي إنك لعبت الدّامة مع تشرنوبوج».

- «نعم، وظفرَ بحقّ تهشيم جمجمتي بمطرقة».

- «في الأيام الخوالي كانوا يأخذون النّاس إلى قمم الجبال، إلى البقاع العالية، ويُحطّمون مؤخّرات جماجمهم بصخرة، في سبيل تشرنوبوج».

اختلسَ شادو النّظر حوله. لا، إنهما وحدهما فوق السّطح.

ضحكَت زوريا پولونوتشنايا قائلةً: «إنه ليس هنا أيها السّخيف. وأنت أيضًا فُزت بمباراة. ليس له أن يضرب ضربته قبل أن ينتهي كلُّ هذا. قال إنه لن يفعل، ولمّا يحين الوقت ستعرف. مثل البقر الذي قتلته، دائمًا تعرف أوّلًا، وإلّا فما الجدوى؟».

أخبرَها شادو: «أشعرُ كأنني في عالمٍ له مفهومه المنطقي الخاص، قواعده الخاصّة. مثلما تكونين في حُلمٍ وتعلمين أن هنالك قواعد يجب ألّا تخرقيها، لكنكِ تجهلين ما هي أو ما تعنيه. لا فكرة لديّ عمّ نتكلّم، أو ما حدث اليوم، أو أيّ شيءٍ في المجمل منذ خرجتُ من السّجن. إنني أسايرُ الأمور لا أكثر، أتعرفين؟».

قالت: «أعرفُ»، وأمسكَت يده بيدٍ باردة كالجليد مواصلةً: «لقد مُنِحتَ حمايةً، لكنك سرعان ما فقدتها، تخلّيت عنها. كانت الشّمس في يدك، وإنها الحياة ذاتها. لا يُمكنني إلّا أن أمنحك حمايةً أضعف كثيرًا. الابنة لا الأب. لكن لكلّ شيءٍ فائدته، صح؟».

هفهفَت الرّيح الباردة شعرها الأبيض حول وجهها، وعلمَ شادو أن وقت العودة إلى الدّاخل قد حانَ.

سألَها: «أعليَّ أن أقاتلكِ؟ أم ألاعبكِ الدّامة؟».

أخبرَته: «ليس عليك أن تُقبِّلني حتى. فقط خُذ القمر».

- «كيف؟».

- «خُذ القمر».

- «لا أفهمُ».

قالت زوريا پولونوتشنايا: «تفرَّج»، ورفعَت يُسراها ووضعَتها أمام القمر بحيث تبدو إصبعاها السبَّابة والإبهام كأنما تُمسِكانه، ثم بحركةٍ رشيقة واحدة سحبَته، وللحظةٍ بدا كأنها قطفَت القمر من السَّماء. على أن شادو رآه ساطعًا ما زالَ، وفتحَت زوريا پولونوتشنايا يدها عارضةً دولارًا فضّيًّا عليه رأس تمثال الحرِّيَّة،*** مستريحًا بين السبَّابة والإبهام.

قال شادو: «فعلتِ هذا بمنتهى البراعة. لم أرَكِ تُخفين العُملة، ولا أدري كيف نفَّذتِ الجزء الأخير».

ردَّت: «لم أخفِها، بل أخذتها، والآن أعطيها لك لتُحافِظ عليها. هاكَ. لا تتخلَّ عن هذه»، ووضعَت العُملة في يُمناه وأغلقَت أصابعه حولها ليحسَّ ببرودتها في يده. ثم مالَت زوريا پولونوتشنايا إلى الأمام وأسبلَت جفنيه بأصابعها، وبخفَّةٍ طبعَت قُبلةً على كلٍّ منهما.

***

استيقظَ شادو على الأريكة مرتديًا كامل ثيابه، وقد ترقرقَ شُعاع ضيِّق من ضوء الشَّمس من النَّافذة جاعلًا ذرَّات الغُبار ترقُص.

نهضَ من الفِراش وذهبَ إلى النَّافذة، وفي ضوء النَّهار بدَت له الغُرفة أصغر كثيرًا.

وتراءى له الشَّيء الذي يُزعِجه منذ اللَّيلة الماضية إذ نظرَ إلى الخارج وإلى أسفل عبر الشَّارع. لا يُوجَد سُلَّم حريقٍ خارج هذه النَّافذة؛ لا شُرفة ولا درجات معدنيَّة صدئة.

ومع ذلك، محكمًا في راحة يده، ولا يزال مصقولًا لامعًا كما كان يوم سكِّه، وجدَ دولارًا فضّيًّا من عام 1922 عليه رأس تمثال الحرِّيَّة.

- «أوه، استيقظتَ». قالها الأربعاء إذ دسَّ رأسه من الباب. «عظيم. أتُريد قهوةً؟ سوف نسرق بنكًا».

# المجيء إلى أمريكا
# 1721

*في دفتر مذكَّراته المغلَّف بالجلد دوَّن المستر آيبس:* الشَّيء الذي تقتضي الأهميَّة فهمه في ما يخصُّ التَّاريخ الأمريكي، أنه تاريخ تخيُّلي، تبسيط، رسم تخطيطي بالفحم يستهدِف الأطفال أو سريعي الملل. في غالبيَّته، لم يخضع التَّاريخ الأمريكي للتَّمحيص أو الخيال أو التَّفكير. إنه تمثيل للشَّيء وليس الشَّيء نفسه. *توقَّف لحظةً ليغمس قلمه في المحبرة ويستجمِع أفكاره، قبل أن يُواصِل:* إنها لقصَّة خياليَّة لطيفة أن أمريكا نشأت على أيدي المهاجرين السَّاعين لحرِّيَّة اعتقاد ما يشاؤون، أنهم جاؤوا إلى الأمريكتيْن وانتشَروا وتكاثَروا وعمَّروا الأرض الخلاء.

الحقيقة أن المستعمرات الأمريكيَّة كانت كمقلب نُفاياتٍ بقدر ما كانت مهربًا، كانت مكانًا للنِّسيان. في زمانٍ كان يُمكن أن يُحكَم عليك فيه بالشَّنق في لندن من شجرة تايبرن ثُلاثيَّة التَّاج[1] لسرقتك اثني عشر بنسًا، أضحَت الأمريكتان رمزًا للتَّسامُح، للفُرص الثَّانية، إلَّا أن أوضاع التَّرحيل جعلَت البعض يُؤْثِر القفز من فوق الشَّجرة عديمة الأوراق والرَّقص فوق الفراغ إلى أن تنتهي الرَّقصة. هكذا كان يُسمَّى: التَّرحيل،[xxxi] لخمسة أعوام، أو عشرة، أو مدى الحياة. ذلك كان القضاء.

كنتَ تُباع لأحد الرَّبابنة، وتركب سفينته المتخَمة عن آخِرها كسُفن النخَّاسين في طريقك إلى المستعمرات أو الهند الغربيَّة، وبعد نزولك من فوق متن السَّفينة يبيعك الرُّبَّان باعتبارك خادمًا بلا أجرٍ لأحدٍ سيستردُّ ما كلَّفه جِلدك من عملك الشَّاق حتى تنتهي سنين عقدك. غير أنك -على الأقل- لا تنتظر الشَّنق في سجنٍ إنجليزي (ففي تلك الأيام كانت السُّجون أماكن تبقى فيها إلى أن يُطلَق سراحك أو تُرحَّل أو تُشنَق، لا أماكن تقضي فيها عقوبةً)،

---

(1) شجرة تايبرن: لم تكن شجرةً حقيقيَّةً، بل مشنقة في ضيعة تايبرن بمقاطعة ميدلسكس الإنجليزيَّة التَّابعة لمنطقة لندن الكُبرى، وارتبط اسمها بشنق مجرمي لندن والخونة المدانين. (المُترجم).

ولك حرّيّة استغلال عالمك الجديد بأفضل طريقة. وكانت لك أيضًا حرّيّة أن ترشو رُبّان سفينةٍ ليُعيدك إلى إنجلترا قبل انتهاء مُدّة ترحيلك، وهو ما فعله بعض النّاس، وإذا قبضت عليك السُّلطات عائدًا من التّرحيل -إذا رآك عدوٌّ قديم، أو صديق قديم يُريد تسوية حسابه معك وبلّغ عنك- شُنِقتَ بلا تردُّد.

بعد توقُّفٍ قصير، *أعادَ خلاله مَلء الدّواة فوق مكتبه من قنينة الحبر الموضوعة في الخزانة، وغمسَ فيها قلمه من جديد، تابعَ:* يُذكّرني هذا بحياة إسي تريجووان، التي جاءت من قريةٍ صغيرة باردة تقع فوق قمّة جُرفٍ في كورنوول بجنوب غربي إنجلترا، حيث عاشت عائلتها منذ زمنٍ سحيق. كان أبوها صيّادًا، وقد أشيعَ أنه من المخرّبين، أولئك الذين يُعلّقون قناديلهم عاليًا على السّاحل الخطر حينما تثور الرّياح العاصفة، ليستدرجوا السُّفن إلى الاصطدام بالصُّخور في سبيل سرقة البضائع التي تحملها. أمّا أمُّ إسي فعملَت طاهيةً في منزل مالك الضّيعة، وفي سنّ الثّانية عشرة بدأت إسي العمل هناك في حُجرة غسل الأطباق. كانت فتاةً صغيرةً نحيلةً، لها عينان بنّيّتان واسعتان وشعر بنّي داكن، ولم تكن تعمل بجدٍّ، بل تعوّدت الانسلال بعيدًا لتسمع القصص والحكايات، إن كان أحدهم يحكيها؛ حكاياتٍ عن البيسكيّات[1] والسپريدچانات،[2] وعن كلاب البراري السّوداء[3] ونسوة القناة الفقمات.[4] وعلى الرغم من أن مالك الضّيعة سخرَ من تلك الحكايات، فقد ظلَّ عُمّال المطبخ يضعون صحنًا من الخزف الصّيني مملوءًا أدسم الألبان كلَّ ليلةٍ خارج باب المطبخ، من أجل البيسكيّات.

مرّت سنوات عدّة، ولم تَعُد إسي فتاةً صغيرةً ناحلةً، بل برزَت منحنيات جسدها وجاشَت كتموّجات البحر الأخضر، وضحكَت عيناها البنّيّتان،

---

(1) البيسكيّات -أو البيكسيّات أو البيسجيّات- مخلوقات خُرافيّة أشبه بالجنّيّات، ويُقال إنها منها، وترجع أساطيرها إلى مقاطعة كورنوول في جنوب غربي إنجلترا. (المُترجم).

(2) السپريدچانات: جنّيّات قبيحة خبيثة، قيلَ إنها أشباح عماليق. (المُترجم).

(3) كلاب البراري السّوداء: مخلوقات من الفُلكلور الإنجليزي، يُقال إنها مرتبطة بالشّيطان وتُنذِر بالموت. (المُترجم).

(4) نسوة القناة الفقمات -أو السلكيّات- مخلوقات أسطوريّة قادرة على اتّخاذ هيئة فقمةٍ في البحر وهيئة إنسانٍ على اليابسة، ارتبطَت في البداية بجُزر شِتلاند، ثم القناة الإنجليزيّة، ويرد ذِكرها في الأساطير الاسكندناڤيّة أيضًا. (المُترجم).

واسترسلَ شعرها الكستنائي وتجعّدت خُصلاته. وقعت عينا إسي على باثولميو، ابن مالك الضّيعة ذي الثّمانية عشر ربيعًا الذي عادَ إلى الدِّيار من مدرسة رجبي، وذهبَت إسي ليلًا إلى الشّاهد القائم عند حافة الغابة، وفوق الحجر وضعَت بعض الخُبز الذي كان باثولميو يأكله ولم يَفرُغ منه، ملفوفًا بخُصلةٍ مقصوصة من شعرها. وفي اليوم التّالي مباشرةً أتى باثولميو يُكلّمها وهي تُنظِّف الشّبكة الحديديّة في غُرفة نومه، ورنا إليها مستحسنًا بعينين زُرقتهما خطرة كالسّماء قُبيل هبوب عاصفة.

وقالت إسي تريجووان إن عينيه حقًّا خطيرتان.

سرعان ما التحقَ باثولميو بالجامعة في أكسفورد، ولمّا تجلّت حالة إسي للعيان صُرفَت من الخدمة، إلّا أن الصّغير وُلِدَ ميتًا. ومن باب المعروف لأمّ إسي، الطبّاخة بالغة البراعة، حملَت زوجة المالك زوجها على قبول إعادة الخادمة السّابقة إلى وظيفتها السّابقة في حُجرة غسل الأطباق.

ومع ذلك استحالَ حبُّ إسي لباثولميو إلى كراهيةٍ لعائلته، وفي ظرف عامٍ اتّخذت رجلًا من قريةٍ مجاورةٍ عشيقًا جديدًا، رجلًا سيّئ السُّمعة يُعرَف باسم چوزايا هورنر، وذات ليلةٍ بينما نامَت العائلة، قامَت إسي في جوف اللّيل ورفعَت مزلاج الباب الجانبي لكي يَدخُل حبيبها، الذي نهبَ المنزل والعائلة نائمة.

وقعَت الشُّكوك في الحال على أحدٍ من سُكّان المنزل، فمن الواضح أن أحدهم فتحَ الباب (الذي تذكّرت زوجة المالك بوضوحٍ أنها أزلجَته بنفسها)، ومؤكّد أن أحدهم يعلم أين يضع المالك طبقه الفضّي، ومكان الدُّرج الذي يحتفظ فيه بعُملاته وسنداته. رغم ذلك لم تُدَن إسي التي أصرَّت على الإنكار، حتى قُبِضَ على السيِّد چوزايا هورنر في محلِّ شمّاعٍ في إكستر وهو يُحاوِل الدَّفع بأحد سندات المالك، وقد أثبتَ الرَّجل أن السَّند ملكه، ليَمثُل هورنر وإسي للمحاكمة.

أُدينَ هورنر في محكمة الجنايات المحلّيّة، وحسب التّعبير الدّارج بكلّ قسوةٍ واستهانةٍ في ذلك الحين، «حُوِّلَ».[1] أمّا إسي فأشفقَ عليها القاضي

(1) كان «التّحويل» في ذلك الحين يُشير أيضًا إلى الإعدام شنقًا. يرجع أول مصدرٍ لاستخدام الكلمة بذلك المعنى إلى مذكّرات إدوارد هول عن الملك هنري الثّامن، كما وردَت في مسرحيّة «الصّاع بالصّاع» لشيكسبير. (المُترجم).

بسبب سنِّها الصَّغيرة أو بسبب شعرها الكستنائي، وحكمَ عليها بالتَّرحيل سبعة أعوام. قُضِيَ أن تَرحَل على متن سفينةٍ تُسمَّى «نپتون» تحت قيادة الرُّبَّان كلارك، وهكذا ذهبَت إسي إلى الكاروليناتيْن،[1] وفي الطَّريق عقدَت تحالُفًا مع الرُّبَّان نفسه، وأقنعَته بأن يُعيدها معه إلى إنجلترا باعتبارها زوجته، ويأخذها إلى منزل أمِّه في لندن حيث لا يعرفها أحد. كانت رحلة العودة، بعد مبادلة الحمولة البشريَّة بالقُطن والتَّبغ، وقت سلامٍ وسعادةٍ للرُّبَّان وعروسه الجديدة، اللذين كانا مثل طائرَي حُبٍّ أو فراشتيْن تتغازلان، لا يستطيعان الكفَّ عن التَّلامُس أو تبادُل الهدايا الصَّغيرة والتَّدليل.

لدى وصولهما إلى لندن، أسكنَ الرُّبَّان كلارك إسي مع أمِّه، التي أحسنَت معاملتها لأقصى درجةٍ بصفتها زوجة ابنها الجديدة. بعد ثمانية أسابيع أبحرَت «نپتون» مجدَّدًا، وعلى رصيف الميناء وقفَت العروس الشَّابَّة الحسناء ذات الشَّعر الكستنائي تُلوِّح لزوجها مودِّعةً، ثم عادَت إلى منزل حماتها، وفي غياب العجوز أعطَت لنفسها حرِّيَّة أخذ مقدارٍ من الحرير، وعدَّة عُملاتٍ ذهبيَّة، وقِدرٍ فضِّيَّة تحتفظ فيها العجوز بأزرارها، وبعد أن سرقَت إسي هذه الأشياء اختفَت في حواري لندن.

خلال العامين التَّاليَيْن أمسَت إسي لصَّةً متمكِّنةً تُخفي في تنُّورتها الواسعة عديد الخطايا، المتمثِّلة خاصَّةً في لفائف الحرير والدانتلَّة المسروقة، واستمتعَت بالحياة لأبعد مدى. شكرَت إسي على فرارها من النَّوائب التي حلَّت بها جميع المخلوقات التي حُكِيَ لها عنها في طفولتها، أي الپيسكيَّات (التي وثقَت بأن نفوذها يمتدُّ إلى لندن)، وكلَّ ليلةٍ وضعَت وعاءً خشبيًّا من الحليب على إفريز النَّافذة رغم سخرية صديقاتها منها، لكن الضَّحكة الأخيرة كانت لها، فقد أُصيبَت صديقاتها جميعًا بالجُدري أو السَّيلان، في حين ظلَّت إسي في أوج العافية.

كان عام واحد يفصلها عن عيد ميلادها العشرين عندما أنزلَ بها القدر بليَّةً. يومها كانت جالسةً في خان «كرُسد فوركس» المجاور لشارع فليت في بِل يارد، ورأت شابًّا يَدخُل ويتَّخذ مقعدًا قُرب المدفأة، شابًّا أتى لتوِّه من الجامعة. في قرارة نفسها تقول إسي: «أوهو! حمامة جاهزة لنتف ريشها!»، وتجلس إلى جواره لتُخبِره كم هو شابٌّ وسيم، وبإحدى يديها تشرع في

(1) الكاروليناتان هما المستعمرتان الأمريكيَّتان اللتان قُسِمتا في عام 1729 إلى كارولاينا الشَّماليَّة وكارولاينا الجنوبيَّة، وأصبحَتا لاحقًا ولايتيْن. (المُترجم).

تحسُّس رُكبته، فيما تسعى اليد الثَّانية -بمزيدٍ من الحذر- بحثًا عن ساعة جيبه. ثم نظرَ إليها الشَّاب في وجهها مباشرةً، ووثبَ قلبها في صدرها وسقطَ بين قدميها إذ نظرَت عينان زُرقتهما كسماء الصَّيف قبل عاصفةٍ في عينيها، ونطقَ السيِّد باثولميو باسمها.

أخِذَتْ إسي إلى سجن نيوجيت حيث اتُّهِمَت بالعودة من التَّرحيل، وعلى إثر إدانتها لم تصدم إسي أحدًا لمَّا تذرَّعت بكونها حاملًا، مع أن ممرِّضات البلدة اللائي يُقيِّمن تلك الادِّعاءات (الباطلة عادةً) فوجِئن حين وجدن أنفسهن مرغماتٍ على الإقرار بأن في بطن إسي طفلًا حقًّا، ولو أن إسي امتنعت عن البوح بهُويَّة الأب.

مرَّةً أخرى خُفِّفَ الحُكم عليها من الإعدام إلى التَّرحيل، مدى الحياة هذه المرَّة.

وهذه المرَّة ركبَت السَّفينة «سي ميدن»، التي حملَت على متنها مئتين من المرحَّلين المحشورين في المخزن كخنازير سمينةٍ في طريقها إلى السُّوق. استشرى الإسهال والحُمَّى بلا هوادة، وبالكاد توفَّر مكان للجلوس، ناهيك بالاستلقاء. في مؤخَّرة المخزن ماتَت امرأة وهي تضع وليدها، ونتيجةً للزِّحام الشَّديد الذي أعجزَ المرحَّلين عن تمرير جثَّتها، دُفِعَت هي والوليد الميت بصعوبةٍ من كُوَّةٍ صغيرة في الخلفيَّة إلى البحر الرَّمادي الهائج مباشرةً. كانت إسي حاملًا في الشَّهر الثَّامن وقتها، وإنها لأعجوبة أنها لم تفقد الجنين، لكنها احتفظَت به.

وطيلة حياتها لاحقًا ظلَّت الكوابيس تنتابها عن الوقت الذي قضَته في ذلك المخزن، لتستيقظ صارخةً وفي حلقها مذاق المكان ورائحته الكريهة.

رسَت الـ «سي ميدن» في نورفك بڤرچينيا، حيث اشترى عقد إسي «أكَّار صغير»، مُزارع تبغٍ يُدعى چون ريتشردسن، ذلك أن زوجته تُوفِّيَت بحُمَّى الولادة بعد أسبوعٍ من وضع ابنته، وكان في حاجةٍ إلى مرضِعةٍ وخادمةٍ تُمارِس الأعمال كافَّةً في حيازته الصَّغيرة.

وهكذا رضعَ وليد إسي، الذي سمَّته أنتوني تيمُّنًا بزوجها الرَّاحل وأبيه كما قالت (عالمةً أن أحدًا لن يُعارِضها، ولربما عرفَت رجلًا اسمه أنتوني حقًّا)، من ثديها بجانب فيليدا ريتشاردسن، وإن كانت الرَّضاعة -دومًا- من نصيب ابنة ربِّ عملها أوَّلًا، فكبرَت لتُصبِح طفلةً صحيحة البدن، طويلةً وقويَّةً، فيما كبرَ ابن إسي ضعيفًا واهنًا على ما تبقَّى من اللَّبن.

ومع اللَّبن شربَ الطِّفلان خلال نشأتهما حكايات إسي؛ عن ساكني المناجم من القوارِع وذوي القبّعات الزّرقاء،[1] وعن البوكا،[2] أشدِ الأرواح خُبثًا في البلاد، الأخطر كثيرًا من الپيسكيّات ذوات الشَّعر الأحمر والأنوف الفطساء، الذي تُترَك له دائمًا أوّل سمكةٍ من الصَّيد على حصى الشّاطئ، ويُترَك له رغيف طازج من الخُبز في الحقل في وقت الحصاد، لضمان جودة المحصول. حكَت لهما إسي عن رجال شجر التّفّاح، وهُم أشجار تُفّاحٍ عجوز تتكلَّم حينما يعنُّ لها، ولا بُدَّ من استرضائها بعصرة التُّفّاح الأولى من المحصول، التي تُصَبُّ على جذورها مع نهاية كلّ عام، إن أردت أن تمنحك محصولًا جيّدًا في العام التّالي. متشدِّقةً بلهجتها الكورنيّة المعسولة، أخبرَتهما عن الأشجار التي ينبغي أن يحذراها مستعينةً بالتّهويدة القديمة:

*الدّردار تمته العبوس*

*والسّنديان تمته المقت*

*لكن رجل الصّفصافة يذهب يسعى*

*إذا بقيت بالخارج حتى يتأخّر الوقت.*

عن كلّ هذه الأشياء حكَت لهما، وصدَّقاها، لأنها صدَّقتها.

ازدهرَت المزرعة، ووضعَت إسي تريجووان صحنًا من الخزف الصّيني مملوءًا بالحليب خارج الباب الخلفي كلّ ليلةٍ من أجل الپيسكيّات. وبعد ثمانية أشهُر أتى چون ريتشردسن يَطرُق باب غُرفة نوم إسي بهدوء، ليَطلُب منها خدماتٍ من النّوع الذي تُقدِّمه النّساء للرِّجال، فأعربَت له إسي عن صدمتها وألمها، هي الأرملة المسكينة، الخادمة الملزَمة بعقدٍ ولا تُعَدُّ أفضل من أمة، التي يُطلَب منها أن تُعهِّر نفسها لرجلٍ تكنُّ له قدرًا وافرًا من الاحترام... ثم

---

(1) القوارِع: أرواح تعيش في المناجم، تقرع على الجُدران عند العثور على الغنائم أو تحذيرًا من الخطر. وذوو القبّعات الزّرقاء: أرواح تعيش وتعمل في المناجم أيضًا، ولكن مقابل أجر. (المُترجم).

(2) البوكا: أرواح عواصف تتطلَّب الاسترضاء والاستعطاف لكي لا تَقتُلك أو تدرُّ عليك الشّرور. (المُترجم).

إن الخدم الملزمين بعقودٍ ليس بإمكانهم الزَّواج، وإنها لعاجزة عن استيعاب تفكيره مجرَّد تفكيرٍ في تعذيب فتاةٍ مرحَلة ملزمة بعقد. واغرورقَت عيناها البنيَّتان كالجوز بالدُّموع، لدرجة أن ريتشردسن وجدَ نفسه يعتذر إليها. والمحصِّلة أن الأمر انتهى بچون ريتشردسن في ذلك الرُّواق في تلك اللَّيلة الصَّيفيَّة الحارَّة جاثيًا على رُكبته أمام إسي تريجووان، يعرض عليها أن يضع نهايةً لعقدها ويَطلُب يدها. وعلى الرغم من قبولها فقد رفضَت أن تنام معه ولو ليلةً واحدةً إلى أن يتزوَّجا زواجًا شرعيًّا، وعندئذٍ انتقلت من غُرفتها الصَّغيرة في العليَّة إلى غُرفة النَّوم الرَّئيسيَّة في واجهة المنزل، وإذا عارضَ المُزارع ريتشردسن بعضُ من أصدقائه وزوجاتهم إذا رأوه في البلدة بعد ذلك، أبدى عدد أكبر كثيرًا رأيهم بأن السيِّدة ريتشردسن الجديدة آية في الجمال، وأن چوني ريتشردسن أبلى بلاءً حسنًا بحق.

خلال عامٍ وضعَت إسي طفلًا آخَر، صبيًّا ثانيًا، لكنه أشقر مثل أبيه وأخته غير الشَّقيقة، وسمَّياه چون على اسم أبيه.

ذهبَ الأطفال الثَّلاثة إلى الكنيسة المحلِّيَّة كلَّ أحدٍ لسماع الواعظ المتجوِّل، وإلى المدرسة الصَّغيرة لتعلُّم الحروف والأرقام مع أطفال سائر المُزارعين الصِّغار، فيما حرصَت إسي على أن يعلموا أيضًا أهمَّ الخفايا قاطبةً، خفايا البيسكيَّات، الرِّجال حُمر الشَّعر ذوي الأعيُن والثِّياب الخضراء خُضرة الأنهار والأنوف المقلوبة، الرِّجال الطِّراف ضيِّقي الأعيُن القادرين -إن أرادوا- على تحويلك وتشويهك وتضليلك عن طريقك، ما لم يكن معك في جيبك ملح أو القليل من الخُبز. عند ذهاب الأطفال إلى المدرسة أخذَ كلٌّ منهم معه حفنةً من الملح في جيبه وقليلًا من الخُبز في الآخَر، رمزَي الحياة والأرض القديمين، ليضمنوا العودة إلى بيتهم آمنين، وهو ما حدثَ دائمًا.

ترعرعَ الأطفال في تلال ڤرچينيا الوارفة، وطالَت قاماتهم وقويَت أجسادهم (مع أن ابنها الأوَّل آنتوني كان أضعف من الآخَرين دومًا، وأكثر عُرضةً للأمراض والتَّوعُّكات)، وعاشَ آل ريتشردسن سُعداء، وأحبَّت إسي زوجها قدر طاقتها. كان عقد قد مضى على زواجهما عندما أصابَ چون ريتشردسن وجعٌ في إحدى أسنانه، وجعٌ شنيع لدرجة أنه سقطَ من فوق حصانه، فأخذوه إلى أقرب بلدةٍ حيث خُلِعَت السِّنُّ، لكن الأوان كان قد فاتَ، واسودَّ وجهه وراحَ يتأوَّه إذ قضى عليه تسمُّم الدَّم، ودفنوه تحت صفصافته المفضَّلة.

تُركَت إدارة المزرعة للأرملة ريتشردسن حتى بلوغ ولدَي ريتشردسن سنّ الرُّشد، فأشرفَت على العبيد والخدم الملزَمين بعقود، وجلبَت عائد محصول التَّبغ عامًا بعد عام، وصبَّت عصير التُّفّاح على جذور أشجار التُّفّاح عشيَّة كلّ عامٍ جديد، ووضعَت رغيفًا من الخُبز الطّازج في الحقول في أوان الحصاد، وظلَّت تَترُك صحنًا من الحليب عند الباب الخلفي. نمَت المزرعة، وجنَت الأرملة ريتشردسن سُمعةً باعتبارها مساوِمةً صعبة المراس، ولو أن محصولها جيِّد على الدَّوام، وأبدًا لا تبيع منتجًا رديئًا مقابل بضاعةٍ أفضل.

وهكذا مضى كلُّ شيءٍ على ما يُرام لعشرة أعوامٍ أخرى، ولكن بعدها حلّ عام سيِّئ، ذلك أن ابنها أنتوني قتلَ أخاه غير الشَّقيق چوني في شجارٍ عنيف حول مستقبل المزرعة وتزويج فيليدا، وقال البعض إنه لم يقصد قتل أخيه، إنها كانت ضربةً هوجاء أفضَت إلى إصابةٍ بليغة، وقال البعض عكس ذلك. هربَ أنتوني تاركًا إسي تدفن ابنها الأصغر إلى جوار أبيه، وقال البعض إنه هربَ إلى بوسطن، والبعض إنه ذهبَ جنوبًا إلى فلوريدا، في حين ارتأت أمُّه أنه استقلَّ سفينةً إلى إنجلترا ليلتحق بجيش چورچ[xxxiii] ويُقاتِل السكوتلنديِّين المتمرِّدين. على أن المزرعة في غياب كلا الابنيْن باتَت مكانًا خاويًا، وحزينًا، وتحسَّرت فيليدا وتذمَّرت كأنما كُسِرَ قلبها، ولم ينجح شيء قالته أرملة أبيها أو فعلَته في رسم البسمة على شفتيها من جديد.

ولكن سواء أكانت فيليدا كسيرة القلب أم لم تكن، فقد احتاجَتا إلى وجود رجلٍ في المزرعة، وعليه تزوَّجت فيليدا بهاري سومز الذي يمتهِن نجارة السُّفن، وكان قد سئمَ البحر ويَحلُم بحياةٍ على اليابسة في مزرعةٍ كالتي نشأ فيها في لينكنشاير، ورغم أن مزرعة ريتشردسن لم تُشبِه تلك المزرعة إلّا قليلًا، فقد وجدَ هاري سومز فيها ما يكفي من انسجامٍ ليحيا سعيدًا. خمسة أطفالٍ أنجبَتهم فيليدا وهاري، عاش منهم ثلاثة.

افتقدَت الأرملة ريتشردسن ابنيْها، وافتقدَت زوجها، رغم أنه لم يَعُد أكثر من ذكرى عن رجلٍ عادل أحسنَ معاملتها. اعتادَ أطفال فيليدا الذَّهاب إلى إسي لسماع الحكايات، فتحكي لهم عن كلاب البراري السَّوداء، وعن ذي الرَّأس المسلوخ والعظام الدّامية،(1) أو عن رجل شجرة التُّفّاح، غير أنهم لم يكترثوا لتلك الحكايات، وأرادوا أن يسمعوا حكاياتٍ عن چاك فقط؛ چاك

(1) ذو الرَّأس المسلوخ والعظام الدّامية: مخلوق من الفُلكلور الإنجليزي يُستخدَم اسمه لتخويف الأطفال وإجبارهم على الطّاعة، وإن فُقِدَ وصفه مع الزَّمن. (المُترجم).

وساق الفاصوليا، أو چاك قاتل العملاق، أو چاك وقطه والملك. أحبَّت إسي هؤلاء الأطفال كأنهم لحمها ودمها، ولو أنها نادَتهم أحيانًا بأسماء مَن ماتوا قبل زمنٍ طويل.

كان شهر مايو، وخرجَت إسي بمقعدها إلى حديقة المطبخ لتقطف البازلاء وتُقشِّرها في ضوء الشَّمس، فحتى في حرارة ڤرچينيا وخصوبتها غزا البرد عظامها مثلما غزا الصَّقيع شعرها، ولا بأس بالقليل من الدِّفء.

وبينما قشَّرت الأرملة ريتشردسن البازلاء بيديها العجوزَين، بدأت تُفكِّر كم سيكون جميلًا لو تمشي من جديدٍ في البراري أو فوق الجروف الملحيَّة في موطنها كورنوول، وبدأت تتذكَّر جلوسها على حصى الشاطئ في صِغرها منتظرةً عودة قارب أبيها من البحار الرَّماديَّة. فتحَت يداها الخرقاوان مزرقَّتا المفاصل قرونَ البازلاء مُسقطةً الحبَّات الكاملة في وعاءٍ من الفخَّار، والقرونَ الخالية في حجرها المغطَّى بمئزر. ثم إذا بها تتذكَّر -كما لم تتذكَّر منذ زمنٍ بعيد- حياةً ولَّت، لمَّا كانت تنشل أكياس النُّقود وتختلِس لفائف الحرير بأصابعها الماهرة، والآن تتذكَّر مأمور السِّجن في نيوجيت يُخبِرها بأن قضيَّتها لن تُسمَع قبل اثني عشر أسبوعًا كاملةً، وأن باستطاعتها الإفلات من الشَّنق إن تذرَّعت بالحمل، وكم هي حسناء... وكيف استدارَت إلى الحائط وبشجاعةٍ رفعَت تنُّورتها كارهةً نفسها وكارهةً الرَّجل، ولكن عالمةً أنه مصيب، والإحساس بالحياة تنمو في داخلها لتُمكِّنها من غشِّ الموت زمنًا أطول قليلًا...

قال الغريب: «إسي تريجووان؟».

رفعَت الأرملة ريتشردسن عينيها حاجبةً عنهما ضوء شمس مايو، وسألَت: «هل أعرفك؟». لم تكن قد سمعَته يقترب.

كان الرَّجل يرتدي أخضر في أخضر؛ سرواله أخضر مغبَّر، وسُترته خضراء، ومعطفه أخضر غامق، أمَّا شعره فأحمر كالجزر، وقد ابتسمَ لها ابتسامةً عريضةً مائلةً. في الرَّجل شيء ما جعلَ نظرها إليه يُسعِدها، وشيء آخَر حذَّرها همسًا من الخطر. أجابَها: «لكِ أن تقولي إنكِ تعرفينني».

زرَّ عينيه رامقًا إياها من أعلى، وبدورها زرَّت عينيها رامقةً إياه من أسفل، تبحث في وجهه المستدير عمَّا يدلُّ على هُويَّته. بدا الرَّجل شابًا في سنِّ أحد أحفادها، إلَّا أنه دعاها باسمها الحقيقي، وكان في صوته طنين تعرفه من طفولتها، من صخور وطنها وبراريه.

سألته: «أأنت كورني؟».

قال ذو الشَّعر الأحمر: «أنا كذلك، من أبناء العمومة چاك،[1] أو أني كنتُ كذلك بالأحرى، لكنني الآن هنا في هذا العالم الجديد، حيث لا يضع أحد مِزرًا أو حليبًا لشخصٍ شريف، أو رغيفًا من الخُبز في وقت الحصاد».

ثبَّتت العجوز وعاء البازلّاء على حجرها، وقالت: «إن كنتَ مَن أحسبه، فلا خصومة لي معك». من الدَّاخل تناهى إلى مسامعها صوت فيليدا تُكلِّم مدبِّرة المنزل متأفِّفةً.

قال الرَّجل ذو الشَّعر الأحمر بشيءٍ من الحزن: «ولا أنا معكِ، مع أنكِ أنتِ التي جئتِ بي إلى هنا، أنتِ وقلائل مثلكِ، إلى هذه الأرض حيث لا وقت للسِّحر ولا مكان للپيسكيَّات وأشباهها».

قالت: «لقد أحسنت إليَّ كثيرًا».

ردَّ الغريب ضيِّق العينين: «أحسنتُ وأسأتُ. إننا كما الرِّياح، نهبُّ في كلا الاتِّجاهين».

وأومأت إسي برأسها مؤيِّدةً.

قال لها: «هلَّا أخذتِ يدي يا إسي تريجووان؟»، ومدَّ إليها يده المنمَّشة، ومع أن إسي بدأت تفقد بصرها فقد رأت كلَّ شعرةٍ برتقاليَّة على ظهر يده، تتوهَّج ذهبًا في شمس الأصيل. عضَّت شفتها، ثم -بتردُّدٍ- وضعَت يدها مزرقَّة المفاصل في يده.

وكانت لا تزال دافئةً عندما وجدوها، رغم أن الحياة تسلَّلت من جسدها، ولم تُقشِّر أكثر من نصف البازلّاء.

(1) أبناء العمومة چاك: اسم مستعار مجهول الأصل، يُقال إن المهاجرين الكورنيِّين استخدموه بكثرةٍ لطلب عملٍ في المناجم من أجل «چاك ابن عمِّي» في الوطن. (المُترجم).

# الفصل الخامس

*المدام حياة لعوبٌ ناضرة*
*والموت يذهب للمطاردة في كلّ مكان*
*هي ساكنة الحُجرة*
*وهو البلطجي على السّلالم*

- **المدام حياة لعوبٌ ناضرة**، ويليَم إرنست هنلي

وحدها زوريا أوترنيايا كانت مستيقظةً لتودِّعهما صباح السَّبت. أخذَت من الأربعاء الخمسة وأربعين دولارًا، وأصرَّت على كتابة إيصالٍ بها بخطٍّ عريض متعرِّج، على ظَهر قسيمة مشروبٍ غازي منتهية الصَّلاحية. في ضوء الصَّباح بدَت شبيهةً للغاية بالدُّمية، وقد زيَّنت وجهها الشَّائخ بعنايةٍ وعقدَت شعرها الذَّهبي عاليًا فوق رأسها.

لثَمَ الأربعاء يدها قائلًا: «شكرًا على كرم ضيافتكِ يا سيِّدتي العزيزة. ما زلتِ وأختاكِ الجميلتان وضَّاءاتٍ كالسَّماء ذاتها».

قالت ملوِّحةً بإصبعها في وجهه: «أنت عجوز سيِّئ»، ثم عانقَته مضيفةً: «حافِظ على سلامتك. لن أحبَّ أن أسمع أنك رحلت بلا رجعة».

- «لن أقلَّ عنكِ غمًّا إذا حدثَ ذلك يا عزيزتي».

صافحت زوريا أوترنيايا شادو، وأخبرته: «زوريا پولونوتشنايا تحمل لك تقديرًا عظيمًا، وأنا أيضًا».

قال شادو: «أشكرك، وشكرًا على العشاء».

رفعت حاجبًا على إثر عبارته، وقالت: «أعجبك؟ يجب أن تأتي ثانيةً».

نزل الأربعاء وشادو السَّلالم، وقد وضع شادو يديه في جيبَي سُترته، محسًّا في إحداهما بملمس الدولار الفضِّي البارد. هذه العُملة أثقل وأكبر من جميع العُملات التي استخدمها حتى الآن. أخفاها بالطَّريقة التَّقليديَّة، تاركًا يده تتدلَّى إلى جانبه بصورةٍ طبيعيَّة، ثم بسطها إذ انزلقت العُملة مختفيةً في كفِّه، حيث وجد الشُّعور بها طبيعيًّا إذ أمسكها بين سبَّابته وخنصره بقليلٍ جدًّا من الضَّغط.

علَّق الأربعاء: «فعلتَ هذا بسهولة».

قال شادو: «أتعلَّمُ فقط. يُمكنني تنفيذ الكثير من الجوانب التكنيكيَّة، لكن الجزء الأصعب هو جعل النَّاس ينظرون إلى اليد الخطأ».

- «حقًّا؟».

أجاب شادو: «نعم. اسمه التَّضليل»، ودسَّ إصبعيه الوُسطيَيْن تحت العُملة دافعًا إياها إلى ظهر يده، وإن اختلَّ تحكُّمه فيها اختلالًا بسيطًا للغاية، لتَسقُط من يده في بئر السُّلَّم محدثةً رنينًا، قبل أن ترتدَّ وتحطُّ في منتصَف الدَّرج.

مدَّ الأربعاء يده والتقطها قائلًا: «لا يُمكنك تحمُّل مغبَّة الاستهتار بهدايا النَّاس. شيء كهذا عليك الحفاظ عليه. لا تقذفه هنا وهناك»، وفحصَ العُملة ناظرًا أوَّلًا إلى وجه العُقاب ثم إلى وجه تمثال الحرِّيَّة، وقال: «آه، السيِّدة حرِّيَّة. جميلة، أليس كذلك؟»، وألقى العُملة إلى شادو، الذي التقطَها في الهواء مجريًا خدعة الإخفاء المنزلِق -بحيث يبدو أنه يُسقِطها في يُسراه، في حين أنه يحتفظ بها في يُمناه- ثم بدا أنه وضعَها في جيبه بيُسراه. استقرَّت العُملة في راحة يده اليُمنى على مرأى من أيِّ أحد، وأشعرَه وجودها هناك بالرَّاحة.

قال الأربعاء: «السيِّدة حرِّيَّة. مثل العديد من الآلهة التي يعتزُّ بها الأمريكان، أجنبيَّة. في هذه الحالة امرأة فرنسيَّة، ولو أن مراعاة الأحاسيس الأمريكيَّة جعلَت الفرنسيِّين يكسون صدرها الرَّائع المنحوت في التِّمثال الذي أهدوه إلى نيويورك»، ثم تقلَّص أنفه لمرأى الواقي الذَّكري المستعمل الملقى على إحدى درجات السَّلالم الأخيرة، ودفعَه إلى الجانب باشمئزازٍ متابعًا: «الحرِّيَّة...»، لكنه قاطعَ نفسه متمتمًا: «من الممكن أن ينزلق أحدهم عليه، يكسر عُنقه، مثل قشر

الموز ولكن مضافة إليه قلّة الذّوق والمفارقة السّاخرة». دفع الباب ليفتحه، وضربَهما ضوء الشّمس. العالم في الخارج أبرد مما بدا من الدّاخل، وتساءَلَ شادو إن كان مزيد من الثّلج سيَسقُط. بصوتٍ جهوري واصلَ الأربعاء في طريقهما إلى السيّارة: «الحرّيّة بغيٌّ لا بُدّ أن تُضاجع فوق فِراشٍ من الجُثث».

قال شادو: «حقًّا؟».

ردّ الأربعاء: «أقتبسُ لا أكثر. المقولة لشخصٍ فرنسي.[xxxv] هي ذي مَن نصبوا لها تمثالًا في نيويورك، بغيٌّ استهواها أن تُنكَح فوق الخَبث السّاقط من عربات الرّوث.[xxxvi] ارفعي مشعلكِ عاليًا كما تشائين يا عزيزتي، فما زالَت في فُستانكِ جرذان وعلى ساقكِ يَقطُر المنيُّ البارد»، وفتحَ السيّارة مشيرًا لشادو بأخذ المقعد الأمامي.

نظرَ شادو إلى العُملة من كثبٍ قائلًا: «أراها جميلةً». يُذكّره وجه الحرّيّة الفضّي نوعًا بزوريا پولونوتشنايا.

قال الأربعاء منطلقًا بالسيّارة: «وهذه هي حماقة الإنسان الأزليّة؛ يُطارِد اللّحم الجميل ولا يُدرِك أنه مجرّد كسوةٍ حُلوة المنظر للعظم. طعام ديدان، في اللّيل تحكّون أنفسكم بطعام ديدان. لا أقصدُ إهانةً».

لم يرَ شادو الأربعاء طليق اللّسان هكذا من قبل، وقرّر أن ربَّ عمله الجديد يمرُّ بمراحل من الانبساط تتبعها فترات من الهدوء الشّديد. سألَه: «لستَ أمريكيًّا إذًا؟».

قال الأربعاء: «لا أحد أمريكي في الأصل. هذا بيت القصيد»، وألقى نظرةً على ساعته، ثم أردفَ: «ما زالَت أمامنا عدّة ساعاتٍ نَقتُلها قبل إغلاق البنوك. أحسنت صنيعًا مع تشرنوبوج البارحة بالمناسبة. كنتُ لأقنعه بالمجيء في النّهاية، لكنك جنّدته بإخلاصٍ أشد مما أقدرُ عليه».

- «فقط لأن له أن يَقتُلني بعد ذلك».

- «ليس بالضّرورة. كما أشرت بنفسك بكلّ حكمة، إنه عجوز، ومحتمَل أن تَترُكك الضّربة القاتلة... مشلولًا مدى الحياة لا أكثر -على سبيل المثال- عاجزًا معدوم الأمل. عندك إذًا أشياء كثيرة تتطلّع إليها إذا ما نجا المستر تشرنوبوج من المصاعب المقبلة».

مقلّدًا أسلوب الأربعاء، سألَ شادو: «وفي ذلك شكٌّ؟»، وكرهَ لنفسه لهذا.

أجابَ الأربعاء: «بكلّ تأكيد»، وركنَ السيّارة في موقف أحد البنوك قائلًا: «هذا هو البنك الذي سأسرقه. لن يُغلِقوا قبل بضع ساعات. لنَدخُل ونُلقِ التّحيّة».

أشارَ لشادو بأن يتبعه، وعلى مضضٍ نزلَ شادو من السيَّارة وتبعَه إلى الدَّاخل. إن كان العجوز سيرتكب فعلةً خرقاء، فشادو لا يرى ما يدعو لأن يظهر وجهه هو على الكاميرا. غير أن الفضول اجتذبَه، ودخلَ البنك مطأطئًا رأسه وفاركًا أنفه بيده، يبذل ما بوسعه لإخفاء وجهه.

سألَ الأربعاء الصرَّافة الوحيدة: «استمارات الإيداع يا سيِّدتي؟».

- «هناك».

- «ممتاز. وإن أردتُ أن أجري إيداعًا ليليًا...؟».

ابتسمَت له مجيبةً: «الاستمارات نفسها. هل تعرف مكان فتحة الإيداع اللَّيلي يا عسل؟ إلى اليسار خارج الباب الرَّئيسي، على الحائط».

- «لكِ شكري».

أخذَ الأربعاء عددًا كبيرًا من استمارات الإيداع، ومنحَ الصرَّافة ابتسامةً عريضةً مودِّعًا، ثم خرجَ مع شادو.

وقفَ الأربعاء على الرَّصيف لحظةً يحكُّ لحيته متأمِّلًا، ثم ذهبَ عند ماكينة الصرَّاف الآلي والخزينة اللَّيليَّة المثبَّتة إلى الجِدار، وفحصَهما. بعد ذلك قادَ شادو عبر الطَّريق إلى السوبر ماركت، حيث اشترى لنفسه مصَّاصةً مثلَّجةً بفَدْجِ الشُّكولاتة، وكوبًا من الشُّكولاتة السَّاخنة لشادو. لدى دخولك ستمرُّ بهاتفٍ عمومي مثبَّت إلى جِدار المدخل، تحت لوحة نشراتٍ تعرض غُرفًا للإيجار وجِراءً وهُريراتٍ في حاجةٍ إلى بيوتٍ ترعاها. دوَّن الأربعاء رقم الهاتف العمومي ثم عادا يَعبُران الطَّريق، وفجأةً قال الأربعاء: «ما نحتاج إليه هو الثَّلج، ثلج غزير مزعج. هلَّا فكَّرت في الثَّلج من أجلي؟».

- «ها؟».

- «ركِّز على جعل تلك السُّحب، تلك السُّحب هناك في الغرب... على جعلها أكبر وأشدَّ اكفهرارًا. فكِّر في سماواتٍ مظلمة وريحٍ سريعة تهبُّ من المنطقة القُطبيَّة الشَّماليَّة. فكِّر في الثَّلج».

- «لا أظنُّ أن ذلك سيُجدي نفعًا».

قال الأربعاء فاتحًا السيَّارة: «هُراء. على أقلِّ تقدير سيشغل بالك. «كينكوز» محطَّتنا التَّالية. أسرِع».

جالسًا على المقعد الأمامي يرشف الشُكولاتة. فكَّر شادو: *ثلج، كُتل وأكوام ثلجٍ ضخمة مدوِّخة تتساقط في الهواء، رُقع بيضاء تحت سماءٍ رماديّة كالحديد، ثلج يمسُّ لسانك بالبرد والشتاء، يُقبِّل وجهك بلمسته المتردِّدة قبل أن يُجمِّدك حتى الموت، ثلج كغزل البنات عُمقه اثنتا عشرة بوصةً، يصنع عالمًا من عوالم الحكايات الخُرافيَّة، يُخفي معالم الأشياء كلِّها ويُضفي عليها جمالًا...*

كان الأربعاء يُخاطِبه.

قال شادو: «معذرةً؟».

- «قلتُ وصلنا. كنتَ في مكانٍ آخَر».

- «كنتُ أفكِّرُ في الثَّلج».

في «كينكوز» شرعَ الأربعاء في نسخ استمارات الإيداع التي أخذَها من البنك، وجعلَ الموظَّف يطبع له مجموعتين من عشر بطاقات أعمال طباعةً فوريَّةً. كان رأس شادو قد بدأ يُؤلِمه، وبين لوحَي كتفيه إحساس غير مريح. تساءلَ إن كان قد نامَ في وضعٍ خطأ، إن كان هذا موروثًا متعِبًا من أريكة ليلة أمس.

جَلسَ الأربعاء إلى الكمپيوتر مؤلِّفًا خطابًا، وبمساعدة الموظَّف صنعَ عدَّة لافتاتٍ كبيرة.

فكَّر شادو: *ثلج في أعالي الغلاف الجوِّي، لآلئ ضئيلة مثاليَّة تتكوَّن حول ذرَّةٍ دقيقة من الغُبار، كلٌّ منها قطعة فنِّيَّة فريدة من الكُسيريَّات سُداسيَّة الجوانب، مثل الدانتلَّة المخرَّمة، وفي سقوطها تتكتَّل لآلئ الثَّلج معًا صانعةً نُدفًا تُغطِّي شيكاجو بوفرتها البيضاء، بوصةً فوق بوصة...*

قال الأربعاء: «هاكَ»، وناولَه كوبًا من قهوة «كينكوز»، التي تطفو على وجهها كُتلة نصف ذائبةٍ من المبيِّض الخالي من الألبان. «كفى على ما أظنُّ، أليس كذلك؟».

- «كفى ماذا؟».

- «كفى ثلجًا. لسنا نُريد أن نشلَّ المدينة، أليس كذلك؟».

كانت السَّماء غائمةً، ورماديُّها متجانسًا كلون البوارج الحربيَّة. الثَّلج في الطَّريق، نعم.

قال شادو: «لم أفعل ذلك حقًّا؟ أعني أني لم أفعله. أم إنني فعلته؟».

قال الأربعاء: «اشرب القهوة. إنها فظيعة، لكنها ستُخفِّف الصُّداع»، ثم قال: «أحسنت».

حاسبَ الأربعاء الموظَّف، ثم حملَ لافتاته وخطاباته وبطاقاته إلى الخارج، حيث فتحَ حقيبة السيَّارة ووضعَ أوراقه في صندوقٍ معدني أسود كبير من النَّوع الذي يحمله حرس توصيل الرَّواتب، ثم أغلقَ الحقيبة، وناولَ شادو إحدى بطاقات الأعمال.

تساءلَ شادو: «مَن أ. هادوك، رئيس الأمن في «إيه وَن للخدمات الأمنيَّة»؟».

- «أنت».

- «أ. هادوك؟».

- «نعم».

- «إلامَ ترمز الألف؟».

- «ألفريدو؟ ألفونس؟ أوجستين؟ آمبروز؟ القرار لك بالكامل».

- «أوه، مفهوم».

قال الأربعاء: «أنا چيمس أوجورمان، چيمي عند أصدقائي. أترى؟ أنا أيضًا معي بطاقة»، ولمَّا عادا إلى السيَّارة أضافَ: «إن استطعت أن تُفكِّر أ. هادوك بالبراعة نفسها التي فكَّرت بها ثلج، فسنجني فيضًا من النُّقود الجميلة لدعوة ضيوفي إلى الطَّعام والشَّراب اللَّيلة».

- «وإذا كنا في الحبس مع حلول المساء؟».

- «على أصدقائي أن يتدبَّروا أمورهم دوننا إذًا».

- «لن أرجع إلى السِّجن».

- «لن ترجع».

- «حسبتنا اتَّفقنا على عدم ارتكابي أيَّ شيءٍ غير قانوني».

- «لن تفعل. التَّواطؤ والمساعدة ربما، مؤامرة صغيرة، يتبعها بالطَّبع استلام أموالٍ مسروقة، ولكن ثِق بي، ستَخرُج منها كالشَّعرة من العجين».

- «وذلك قبل أم بعد أن يسحق تشارلز آتلس[1] السلافي المسنُّ جمجمتي بضربةٍ واحدة؟».

---

(1) تشارلز آتلس: أمريكي من أصل إيطالي، اشتهرَ بتطويره أسلوب كمال الأجسام وبرنامج التَّمارين المرتبط به في النِّصف الأوَّل من القرن العشرين، وهو ما أنتجَ حملةً إعلانيَّةً ناجحةً كان لها أثر طويل على ألعاب كمال الأجسام. (المُترجم).

طمأنَه الأربعاء قائلًا: «لقد بدأ يفقد بصره. سيُخطئ إصابتك بالكامل على الأرجح. والآن، ما زالَ أمامنا وقت نَقتُله... البنك يُغلِق أبوابه في منتصَف النَّهار في أيام السَّبت. هل تودُّ أن تتغدّى؟».

- «نعم. إنني أتضوَّرُ جوعًا».

- «أعرفُ المكان المثاليَّ للأكل».

دندنَ الأربعاء وهو يقود السيّارة، أغنيّةً مرحةً لم يستطِع شادو تحديدها. بدأت رُقاقات الثَّلج تَسقُط كما تخيَّلها شادو بالضَّبط، وهو ما أشعرَه بالفخر على نحوٍ غريب. عقلانيًّا، كان يعلم أن لا دخل له في سقوط الثَّلج، تمامًا كما يعلم أنَ الدولار الفضّي ليس القمر ولم يكنه قَطُّ، ومع ذلك...

توقَّفا خارج مبنى كبير شبيه بالكوخ، حيث تُعلِن لافتة أن بوفيه الغداء -«كل ما تستطيع أكله»- يُكلِّف 4.99$. قال الأربعاء: «أحبُّ هذا المكان».

- «الطَّعام جيِّد؟».

- «ليس بشكلٍ خاص، ولكن لا يفوتنَّك الجوُّ».

اتَّضح أن الجوَّ الذي يحبُّه الأربعاء -بعد تناوُل الغداء، وقد طلبَ شادو الدَّجاج المقلي، واستمتعَ به- هو النَّشاط التِّجاري الذي يحتلُّ مؤخِّرة الكوخ، المتمثِّل -كما تُعلِن الأعلام المعلَّقة في منتصف المكان- في **مخزن تخليص بضائع الشَّركات المفلسة والمصفّاة.**

نزلَ الأربعاء من السيّارة، وظهرَ من جديدٍ حاملًا حقيبة ثيابٍ صغيرةً أخذَها إلى دورة مياه الرِّجال. افترضَ شادو أنه -أرادَ أم لم يُرِد- سرعان ما سيكتشف ما ينتويه الأربعاء، وهكذا جاسَ خلال ممرّات التَّصفيات متفرِّجًا على الأشياء المعروضة للبيع: عُلب قهوة (للاستخدام بفلاتر الخطوط الجوّيَّة فقط)، ولُعب لـ «سلاحف النينجا»، ودُمى على الطِّراز الحريمي العثماني لـ «زينا: الأميرة المحاربة»، ودباديب تعزف ألحانًا وطنيَّةً على الإكسليفون عند توصيلها بالكهرباء، ودباديب أخرى تعزف أغانيَ الأعياد على الإكسليفون عند توصيلها بالكهرباء، وعُلب لحومٍ مصنَّعة، وجراميق وتشكيلة من واقيات الأحذية الأخرى، ومارشملو، وساعات بيل كلينتن الرِّئاسيَّة الدِّعائيَّة، وأشجار كريسماس صناعيَّة مصغَّرة، ورشّاشات ملح وفلفل بأشكال حيوانات، وأطراف صناعيَّة، وفواكه ومكسَّرات. أمّا المفضَّل عند شادو فعُدَّة رجلٍ ثلجي

(فقط أضِف جزرةً حقيقيّة)، مزوّدة بعينين سوداوين فاحمتيْن من البلاستيك، وغليون مصنوع من كوز ذُرة مجفّف، وقبّعة بلاستيكيّة.

تفكّر شادو في الوسيلة التي يجعل بها أحدهم القمر يبدو كأنما اقتُطِفَ من السّماء وتحوّل إلى دولارٍ فضي، وما يجعل امرأةً تَخرُج من قبرها وتمشي عبر البلدة لكي تُكلّمه.

سأله الأربعاء عندما خرجَ من دورة المياه: «أليس مكانًا رائعًا؟». ما زالَت يداه مبتلّتيْن، ويُجفّفهما بمنديل جيب. «المناديلُ الورقيّة نفدَت». كان قد بدّل ثيابه، والآن يرتدي طقمًا من سُترةٍ زرقاء غامقة وبنطالٍ باللّون نفسه، وربطة عُنقٍ زرقاء، وسويتر أزرق سميك، وقميصٍ أبيض، وينتعل حذاءً أسود. بدا العَجوز كحارس أمن، وهو ما ذكرَه شادو.

التقطَ الأربعاء عُلبةً من أسماك الزّينة البلاستيكيّة الطّافية («*لن يبهت لونها أبدًا—ولن تضطرَّ إلى إطعامها!!*»)، وقال: «ماذا عساي أقولُ لك أيها الشّاب سوى أن أهنّئك على فراستك؟ ما رأيك في آرثر هادوك؟ آرثر اسم جيّد».

- «مبتذل للغاية».

- «حسن. ستُفكّر في شيء. لنَعُد إلى المدينة. المفترَض أن نصل في توقيتٍ مثالي لسرقتنا البنك، وبعدها سأحظى بالقليل من المال للمصروفات».

قال شادو: «معظم النّاس كان ليأخذها من الماكينة ببساطة».

- «وما يدعو إلى الاستغراب أن هذا، بشكلٍ أو بآخر، هو ما أخطّطُ لفعله تحديدًا».

ركنَ الأربعاء السيّارة في موقف السوبر ماركت قُبالة البنك، ومن حقيبة السيّارة أخذَ الصُّندوق المعدني ولوحًا مشبكيًّا، وزوجيْن من الأصفاد وضعَ أحدهما حول معصمه الأيسر، والثّاني حول مقبض الصُّندوق. استمرَّ الثّلج في السُّقوط. ثم اعتمرَ الأربعاء قبّعةً زرقاء شبيهةً بقبّعات الشّرطة، ولصقَ رُقعةً من الفلكرو على جيب صدر سُترته، وقد كُتِبَ على كلتا القبّعة والرُّقعة «إيه وَن للأمن». بعد ذلك وضعَ استمارات الإيداع على اللّوح المشبكي، وأخيرًا حنى ظَهره وكتفيه ليبدو كأنه شُرطي دوريّةٍ متقاعد، وأن كرشًا نمت له بوسيلةٍ ما. «الآن عليك أن تتسوّق قليلًا في متجر الأطعمة، ثم تنتظر عند الهاتف. إن سألك أحد، فأنت تنتظر مكالمةً من صاحبتك التي تعطّلت سيّارتها».

- «ولماذا تتَّصل بي صاحبتي هناك؟».

- «وما أدراني؟!».

وضعَ الأربعاء واقي أُذنين ورديًا باهتًا، وأغلقَ حقيبة السيَّارة، وقد استقرَّت نُدف الثَّلج على قبَّعته الزَّرقاء وواقي الأُذنين.

- «كيف أبدو؟».

أجابَ شادو: «هزليًا».

- «هزليًا؟».

- «أو سخيفًا ربما».

- «ممم. سخيف وهزلي. عظيم». قالها الأربعاء وابتسمَ. جعلَه واقي الأُذنين يبدو -في آنٍ واحد- مُطمْئِنًا وطريفًا، وبناءً على ذلك يَسهُل أن يحبَّه النَّاس. قطعَ الشَّارع بخُطواتٍ واسعة، ومشى بمحاذاة مربَّع المباني إلى البنك، فيما دخلَ شادو بهو السوبر ماركت وشاهدَ.

لصقَ الأربعاء لافتة «**خارج الخدمة**» حمراء كبيرةً على ماكينة الصرَّاف الآلي، ووضعَ شريطًا أحمر على فتحة الإيداع اللَّيلي، ولصقَ فوقها لافتةً منسوخةً.

شاعرًا بالاستمتاع، قرأ شادو اللَّافتة، التي تقول: «**حرصًا على راحتكم نعمل على تخسينات مستمرَّة. نعتذر عن الإزعاج المؤقَّت**»[xxxvii].

ثم دارَ الأربعاء مواجهًا الشَّارع، يبدو بردانَ مضطهَدًا.

أتَت شابَّة لاستخدام الماكينة، فهزَّ الأربعاء رأسه شارحًا أنها خارج الخدمة، فسبَّت الشَّابَّة ثم اعتذرَت لسبابها وولَّت الأدبار.

توقَّفت سيَّارة، وخرجَ منها رجل يحمل جوالًا رماديًّا صغيرًا ومفتاحًا، وشاهدَ شادو إذ اعتذرَ الأربعاء إلى الرَّجل، ثم جعلَه يُوقِّع على اللَّوح المشبكي، وراجعَ استمارة إيداعه، وبدأبٍ كتبَ له إيصالًا وقد احتارَ في النُّسخة التي عليه الاحتفاظ بها، وأخيرًا فتحَ صندوقه المعدني الأسود الكبير ووضعَ فيه جوال الرَّجل.

ارتجفَ الرَّجل في الثَّلج، وراحَ يدقُّ الأرض بقدميه منتظرًا فروغ حارس الأمن العجوز من هذا الهُراء الإداري، لكي يَترُك إيراداته ويحتمي من البرد وينصرف، ثم أخذَ الإيصال وركبَ السيَّارة الدَّافئة وغادرَ.

عبرَ الأربعاء الشَّارع حاملًا الصُّندوق المعدني، واشترى لنفسه قهوةً من السوپر ماركت، وبينما مرَّ بشادو قال بقهقهةٍ ودود: «نهارك سعيد أيها الشَّاب. هل يكفيك هذا البرد؟».

مرَّةً أخرى عبرَ الأربعاء الشَّارع إلى البنك، حيث أخذَ الأجولة الرَّماديَّة والمظاريف ممَّن أتوا لإيداعِ أرباحهم أو إيراداتهم عصر هذا السَّبت، باديًا كمجرَّد رجل أمنٍ عجوز مهذَّب يضع واقي أُذنين ورديًّا طريفًا.

اشترى شادو بضعة أشياء يقرأها -مجلَّتَي «تِركي هنتنج» و«پيپُل»، ولأن صورة بيجفوت على الغلاف بدَت محبَّبةً لغاية، اشترى أيضًا صحيفة «ويكلي وورلد نيوز»- وعادَ يَنتظرُ من النَّافذة.

أتى رجل أسود في منتصَف العُمر، شاربه أبيض ويبدو أنه المدير، وسألَه: «هل أساعدك في شيء؟».

- «شكرًا يا رجل، ولكن لا. إنني أنتظرُ مكالمةً. سيَّارة صاحبتي تعطَّلت».
- «البطَّاريَّة غالبًا. النَّاس ينسون أن هذه الأشياء تدوم ثلاثة أعوامٍ أو أربعةً على الأكثر، مع أنها لا تُكلِّف ثروةً».
- «حدُث ولا حرج».

قال المدير: «الصَّبر أيها الرَّجل الكبير»، ودخلَ السوپر ماركت من جديد.

أحالَت الثُّلوج الشَّارع إلى منظرٍ داخل كُرة ثلج، تفاصيله أجمعها مثاليَّة.

شاهدَ شادو معجبًا، ولعجزه عن سماع الحوارات عبر الشَّارع، شعرَ كأنه يتفرَّج على أداءٍ قدير في فيلمٍ صامت، كامله تمثيل إيحائي وتعبير. حارس الأمن العجوز جادٌّ مقتضب، متلعثم بعض الشَّيء ربما، غير أنه سليم الطَّويَّة، وجميع من أعطوه نقودهم انصرَفوا أسعد قليلًا لأنهم قابَلوه.

ثم توقَّفت الشُّرطة أمام البنك، ووقعَ قلب شادو بين قدميه. حتى الأربعاء قبَّعته للشُّرطيَّيْن، ومشى متمهِّلًا إلى سيَّارتهما ليُلقي التَّحيَّة ويُصافِحهما من النَّافذة المفتوحة، ثم أومأ برأسه ونقَّب في جيوبه حتى وجدَ بطاقة أعمالٍ وخطابًا ناولَهما من نافذة السيَّارة، ورشفَ من قهوته.

رنَّ الهاتف، فرفعَ شادو السمَّاعة، وبذلَ قصارى جهده ليبدو صوته ضجِرًا إذ قال: «إيه وَن للخدمات الأمنيَّة».

سألَ الشُّرطي عبر الشَّارع: «أيُمكنني أن أحدِّث أ. هادوك؟».

قال شادو: «آندي هادوك يتحدَّث».

قال الشُّرطي في سيَّارته: «نعم، مستر هادوك، هنا الشُّرطة. معي أحد رجالك عند بنك «فرست إلينوي» في تقاطع ماركت والشَّارع الثَّاني».

- «آه، نعم، صحيح. چيمي أوجورمان. أهناك مشكلة أيها الضَّابط؟ هل يُحسِن چيم التَّصرُّف؟ لا يشرب؟».

- «لا مشكلة يا سيِّدي. رجلك لا غُبار عليه يا سيِّدي. أردتُ فقط أن أتأكَّد أن كلَّ شيءٍ يجري حسب الأصول».

- «بلِّغ چيم أنه إذا ضُبِطَ يشرب ثانيةً أيها الضَّابط فهو مطرود. مفهوم؟ سيفقد وظيفته، سيُلقى في الشَّارع. في «إيه وَن للأمن» لدينا سياسة عدم تسامُح».

- «لا أظنُّ حقًّا أن من شأني أن أخبره بذلك يا سيِّدي. إنه يُبلي بلاءً حسنًا. قلقنا فقط لأن شيئًا كهذا يجب أن يُنفِّذه موظَّفان. إنها مخاطرة أن يُترَك حارس واحد أعزل ليتعامَل مع مبالغ كبيرة من المال».

- «تقول لي أنا؟ الأحرى أن تقول هذا لأولئك البُخلاء في «فرست إلينوي». إنني أعرِّض رجالي للخطر أيها الضَّابط، رجالًا صالحين، رجالًا مثلك».

وجدَ شادو هذه الهُويَّة تستهويه، وشعرَ بنفسه يتحوَّل إلى آندي هادوك، بالسِّيجار الرَّخيص الممضوغ في منفضته، وكومة الأعمال المكتبيَّة التي عليه إنجازها اليوم بعد الظُّهر، وبيته في شومبرج، وعشيقته المقيمة بشقَّةٍ صغيرة تطلُّ على طريق ليك شور درايف. «أتدري؟ يبدو أنك شابٌّ ذكي أيها الضَّابط... آه...».

- «مايرسن».

- «الضَّابط مايرسن. إن احتجت إلى عملٍ في عُطلة نهاية الأسبوع، أو تركت سلك الشُّرطة لأيِّ سبب، فاتَّصل بي. إننا في حاجةٍ دائمة إلى رجالٍ صالحين. أمعك بطاقتي؟».

- «نعم يا سيِّدي».

قال آندي هادوك: «احتفِظ بها، واتَّصل بي».

رحلَت سيَّارة الشُّرطة، وعادَ الأربعاء جارًّا قدميه في الثَّلج ليتعامَل مع الطَّابور الصَّغير ممَّن ينتظرون إعطاءه نقودهم.

دسّ مدير السوبر ماركت رأسه من الباب سائلًا: «أهي بخير؟ أعني صاحبتك».

قال شادو: «إنها البطّاريّة. الآن ما عليّ إلّا أن أنتظر».

- «يا للنّساء. أرجو أن امرأتك تستحقّ الانتظار».

هبطَ ظلام الشّتاء. ببُطءٍ اصطبغَ الأصيل بالرّماديّ مستحيلًا إلى ليل، وأُشعِلَت الأضواء. أعطى مزيد من النّاس نقودهم للأربعاء، وفجأةً، كأنما تلقّى إشارةً لم يُبصِرها شادو، ذهبَ الأربعاء عند الجِدار وأزالَ لافتتَي «**خارج الخدمة**»، ثم قطعَ الطّريق الموحل نحو موقف السيّارات بخُطى مجهَدة. انتظرَ شادو لحظةً، ثم تبعَه.

كان الأربعاء جالسًا في مؤخّرة السيّارة، وقد فتحَ الصُّندوق المعدني وشرعَ بأسلوبٍ منهجي يرصُّ كلَّ ما أخذَه في أكوامٍ مرتّبة على الأريكة الخلفيّة.

- «قُد. سنذهب إلى فرع «فرست إلينوي» في ستيت ستريت».

سألَه شادو: «ستُكرِّر التّمثيليّة؟ ألا تضغط بهذا على حظِّك أكثر من اللّازم؟».

- «مطلقًا. إننا ذاهبان لإجراء بعض المعاملات البنكيّة».

بينما قادَ شادو السيّارة، جلسَ الأربعاء على المقعد الخلفي يتناوَل ملء قبضته من أوراق البنكنوت من أجولة الإيداع، تاركًا الشيكات وإيصالات البطاقات الائتمانيّة، وآخذًا النّقد من بعض المظاريف، وإن لم يكن جميعها، ثم وضعَ النّقد في الصُّندوق المعدني. توقّف شادو خارج البنك على بُعد خمسين ياردةً أو نحوها، خارج نطاق الكاميرا بمسافةٍ مناسبة، ونزلَ الأربعاء من السيّارة ودسَّ المظاريف في فتحة الإيداع اللّيلي، ثم فتحَ الخزانة اللّيليّة وألقى فيها الأجولة الرّماديّة، وعادَ يُغلِقها.

وبعد ذلك ركبَ السيّارة إلى جوار شادو قائلًا: «ستتّجه إلى طريق الولايات 90. اتبع اللّافتات غربًا إلى ماديسن».

وانطلقَ شادو بالسيّارة.

نظرَ الأربعاء وراءه إلى البنك الذي يُغادِرانه، وقال بمرح: «ممتازٌ يا ولدي. هذا كفيل بإرباك كلِّ شيء. أمّا الحصول على الأموال الوفيرة حقًّا فيلزمك أن تفعلها في حدود الرّابعة والنّصف من صباح الأحد، عندما تُودِع النّوادي والبارات إيرادات ليلة السّبت. قَع على البنك المناسب والرّجل المناسب الذي

يُجري الإيداع -عادةً يختارونه شريفًا كبير الحجم، وأحيانًا يجعلون اثنين من حافظي النِّظام يصحبانه، لكن هؤلاء ليسوا أذكياء بالضَّرورة- وبإمكانك أن ترجع برُبع مليون دولار لقاء مساءٍ واحد من العمل».

قال شادو: «إن كان الأمر بتلك السُّهولة فلِمَ لا يفعل الجميع ذلك؟».

- «العمليَّة ليست خاليةً من المخاطر بالكامل، خاصَّةً في الرَّابعة والنِّصف صباحًا».

- «تعني أن الشُّرطة أكثر ميلًا إلى الشَّكِّ في الرَّابعة والنِّصف صباحًا؟».

- «على الإطلاق. لكن حافظي النِّظام يشكُّون، ومن الممكن أن تتعقَّد الأمور».

سريعًا عدَّ الأربعاء حزمةً من أوراق الخمسين دولارًا، وأضافَ حزمةً أصغر من أوراق العشرين دولارًا، ووزنَها في يده، ثم ناولَها لشادو قائلًا: «خُذ، أجر أسبوعك الأوَّل».

وضعَ شادو المبلغ في جيبه من غير أن يعدَّه، وقال: «هذا ما تفعله إذًا لكسب المال؟».

- «نادرًا. فقط عندما أحتاجُ إلى مبلغٍ نقدي كبير. إجمالًا أكسبُ المال من أناسٍ لا يُدرِكون أبدًا أنهم خُدِعوا، ممَّن لا يشتكون أبدًا وعلى استعدادٍ متكرِّر للتَّعرُّض للخديعة عندما أمرُّ عليهم من جديد».

- «ذلك الرَّجل سويني قال إنك نصَّاب».

- «كان محقًّا، لكن ذلك أقلُّ ما يصفُني، وأقلُّ ما أحتاج إليك فيه يا شادو».

دارَت نُدف الثَّلج في أضواء السيَّارة وحطَّت على الزُّجاج الأمامي وهما منطلقان في الظَّلام، وكان للمنظر تأثير أشبه بالتَّنويم المغنطيسي.

في الهدوء المخيِّم قال الأربعاء: «هذا هو البلد الوحيد في العالم الذي يقلق بشأن ماهيته».

- «ماذا؟».

- «بقيَّة البلدان تعرف ماهيتها. لا أحد يحتاج إلى الذَّهاب بحثًا عن قلب النرويج أو تفتيشًا عن روح موزمبيق. إنهم يعرفون ماهيتهم».

- «و...؟».

- «أفكّرُ بصوتٍ عالٍ فقط».

- «هل زُرت الكثير من البلدان الأخرى إذًا؟».

لم يُجِب الأربعاء، فلمّا نظرَ إليه شادو قال متنهِّدًا: «لا. لا، لم أزُر بلدانًا أخرى قطّ».

توقّفا لملء الوقود، ودخلَ الأربعاء دورة المياه بسُترة حارس الأمن وحقيبة الملابس، ثم خرجَ مرتديًا بدلةً باهتةً مكويّةً ومعطفًا بنّيًّا يصل إلى الرُّكبتَيْن ويبدو من طرازه أنه إيطالي، ومنتعلًا حذاءً بنّيًّا.

- «وماذا بعد بلوغنا ماديسن؟».

- «اسلك الطّريق السّريع 14 غربًا إلى سپرينج جرين. سنلتقي الجميع في مكانٍ اسمه المنزل فوق الصّخرة. هل زُرته؟».

أجابَ شادو: «لا، لكنني رأيتُ اللّافتات».

لافتات المنزل فوق الصّخرة الدّعائيّة في كلّ مكانٍ في هذه النّاحية من العالم، لافتات مبهمة موحية منتشرة في إلينوي ومنيسوتا وويسكونسن، وفي ظنّ شادو تمتدُّ حتى آيوا غالبًا، لافتات تُنبّهك إلى وجود المنزل فوق الصّخرة. رأى شادو تلك اللّافتات، وتساءلَ بشأنها. هل يتوازَن المنزل بخطورةٍ فوق الصّخرة؟ وما المثير للاهتمام في الصّخرة؟ أو في المنزل؟ كان قد فكّر تفكيرًا عابرًا في الأمر، ثم نسيَه، فليس من عادة شادو الذّهاب إلى مزارات جانب الطّريق السّياحيّة.

مرّا بقُبّة مبنى الكاپيتُل في ماديسن، وكان مشهدها مشهد كُرة ثلجٍ آخَر في الثّلوج المتساقطة، ثم انحرَفا عن طريق الولايات ليَسلُكا الطُّرق الرّيفيّة. بعد ساعةٍ من القيادة عبر بلداتٍ لها أسماء على غرار بلاك إرث، انعطفا إلى دربٍ ضيّقٍ مرورًا بعددٍ كبير من أصص الزّهور الهائلة المنثورة بالثّلج، تشبكها معًا تنانين منحوتة شبيهة بالسّحالي. كان الموقف المصفوفة حوله الأشجار شبه خالٍ.

قال الأربعاء: «سيُغلِقون قريبًا».

بينما قطعا الموقف نحو مبنى خشبي واطئ لا يُثير انبهارًا، سألَ شادو: «ما هذا المكان؟».

- «هذا موقع جذبٍ سياحي، واحد من أفضل مزارات جانب الطَّريق، وهو ما يعني أنه مكان قوَّة».

- «هلَّا كرَّرت هذا؟».

قال الأربعاء: «الموضوع في غاية البساطة. في البلدان الأخرى، على مرِّ السِّنين، تبيَّن النَّاس الأماكن المتمتِّعة بالقوَّة. أحيانًا المكان تكوين طبيعي، وأحيانًا مكان مميَّز بشكلٍ ما. علمَ النَّاس أن شيئًا مهمًّا يَحدُث هناك، أن فيه نُقطةً بؤريَّةً ما، قناةً ما، نافذةً ما إلى الحضور الربَّاني، وهكذا شيَّدوا معابد أو كاتدرائيَّات، أو نصبوا دوائر حجريَّةً، أو... أنت تفهم المقصود».

- «لكن الكنائس منتشرة في جميع أنحاء الولايات».

- «في كلِّ بلدة، وأحيانًا في كلِّ مربَّع مبانٍ، وفي هذا السِّياق لا تتعدَّى أهميَّتها عيادات الأسنان. لا، في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ما زالَ النَّاس يتلقَّون النِّداء، أو بعضهم، يَشعُرون بأنفسهم مندوهين من العدم السَّامي، ويستجيبون للنِّداء ببناء نموذجٍ من زُجاجات البيرة لمكانٍ لم يزوروه قَطُّ، أو بإقامة بيت خفافيش عملاق في جزءٍ من البلاد تأبى الخفافيش زيارته عادةً. إنها مزارات جانب الطَّريق السِّياحيَّة. النَّاس يَشعُرون بأنفسهم ينجذبون إلى أمكنةٍ لو كانت في بقاعٍ أخرى من العالم لأدركوا الجزء السَّامي فعلًا في أنفُسهم، ويشترون الهُت دُج ويتجوَّلون شاعرين بالرِّضا على مستوى لا يستطيعون وصفه حقًّا، وبنقمةٍ بليغة على مستوى أدنى».

قال شادو: «نظريَّاتك عجيبة جدًّا».

ردَّ الأربعاء: «لا شيء نظريًّا في الأمر أيها الشَّاب. ينبغي أن تكون قد أدركت هذا بالفعل».

وجدا شُبَّاك تذاكر واحدًا مفتوحًا، وقالت الفتاة العاملة فيه: «سنتوقَّف عن بيع التَّذاكر بعد نصف ساعة. الجولة تستغرق ساعتين على الأقل».

دفعَ الأربعاء ثمن تذكرتيهما نقدًا.

سألَ شادو: «أين الصَّخرة؟».

- «تحت المنزل».

- «أين المنزل؟».

وضعَ الأربعاء إصبعه على شفتيه، وتقدَّما. بعد مسافةٍ بالدَّاخل، كانت بيانولا تعزف شيئًا ما الغرض منه أن يكون معزوفة «بوليرو»[xxxviii] لرافل. بدا المكان مثل وكر عزوبيَّة من السِّتينيَّات بعد تعديله هندسيًا، يضمُّ أشغالًا حجريَّةً مكشوفةً، وبُسطًا سميكةً، وأغطيةِ مصابيحَ من الزُّجاج الملوَّن بشكل عيش غُراب بالغ القُبح، وأعلى سلالم ملتفَّة تقع غُرفة أخرى ملأى التُّحف الرَّخيصة.

قال الأربعاء: «يقولون إنَّ مَن بنى هذا المكان هو توأم فرانك لويد رايت[1] الشرِّير، فرانك لويد رونج»،[xxxix] وضحكَ لدُعابته.

قال شادو: «رأيتُ هذه المقولة مكتوبةً على تيشرت».

صعدا ونزلا مزيدًا من السَّلالم، والآن هما في غُرفةٍ طويلة جدًّا من الزُّجاج، ناتئة كالإبرة فوق الرِّيف الأبيض والأسود العاري من الأوراق، أسفلهما بمئات الأقدام.

وقفَ شادو وشاهدَ الثَّلج يَسقُط ويدور في الهواء، وسألَ حائرًا: «أهذا هو المنزل فوق الصَّخرة؟».

- «إلى حدٍّ ما. هذه «غُرفة الأبديَّة»، جزء من المنزل الفعلي، ولو أنها إضافة لاحقة. لكن لا يا صديقي الشَّاب، نحن لم نرَ إلَّا أيسر نزرٍ من معالم هذا المنزل».

- «وفقًا لنظريَّتك، لكان عالم والت ديزني أقدس الأماكن قداسةً في أمريكا».

قطَّب الأربعاء وجهه وملَّس على لحيته قائلًا: «والت ديزني ابتاعَ بعض بساتين البرتقال في قلب فلوريدا وبنى فوقها مدينةً سياحيَّةً. لا سحر هناك من أيِّ نوع، وإن كنتُ أظنُّ أن ديزني لاند الأصليَّة قد تحوي شيئًا حقيقيًا. محتمَل أن قوَّةً ما كامنةً هناك، غير أنها مشوَّهة، والوصول إليها عسير. لا شيء يفوق العادة في عالم ديزني قطعًا، لكن بعض البقاع في فلوريدا مليء بسحرٍ حقيقي. عليك فقط أن تفتح عينيك. آهٍ من عرائس بحر ويكي واتشي...[2] اتبعني، من هنا».

---

(1) فرانك لويد رايت: معماري أمريكي من الروَّاد في النِّصف الأوَّل من القرن العشرين، ويعدُّ من أشهر المعماريِّين حتى اليوم. (المُترجم).

(2) ويكي واتشي: مدينة في فلوريدا، تشتهر بحديقتها المائيَّة حيث تُقدَّم عروض ترفيهيَّة لعرائس بحرٍ راقصات. (المُترجم).

في كلِّ مكانٍ تردَّد صوت الموسيقى، موسيقى مخشخشة تعوزها الرَّشاقة. وعلى نحوٍ طفيف للغاية مختلَّة الإيقاع مضطربة النَّغمة. أخذ الأربعاء ورقة بخمسة دولارات ووضعها في ماكينة تبديل، ليحصل مقابلها على حفنة من العُملات المعدنيَّة نُحاسيَّة الصُّفرة. ألقى واحدةً لشادو فالتقطها. وإذ أدرك أن صبيًا صغيرًا يُشاهده، أمسكها بين سبَّابته وإبهامه وأخفاها. فهرع الصَّبي إلى أمِّه التي تفحص إحدى دُمى سانتا كلوز المنتشرة في المكان -**نعرض أكثر من 6000!**- وشدَّ حاشية معطفها بإلحاح.

تبعَ شادو الأربعاء إلى الخارج فترةً وجيزةً، ثم تبع اللَّافتات إلى «شوارع الأمس».

- «قبل أربعين عامًا بدأ المعماري آلكس چوردان -وجهه على العُملة التي أخفيتها في يُمناك يا شادو- بناء منزلٍ فوق بروزٍ عالٍ من الصَّخر في حقلٍ لا يملكه، ولما استطاعَ هو نفسه أن يُفسِّر لك ما حدا به إلى ذلك. وجاءَ النَّاس ليُشاهِدوه يبنيه؛ الفضوليُّون والحائرون، ومَن لم يكونوا هذا أو ذاك ولكن ليس بإمكانهم حقًّا إخبارك بسبب مجيئهم. وهكذا فعلَ چوردان ما كان أيُّ أمريكي أبيض من جيله ليفعله: بدأ يأخذ منهم مالًا لقاء المشاهدة. ليس مبلغًا كبيرًا، نيكل ربما، أو رُبع دولار. واستمرَّ في البناء، واستمرَّ النَّاس في المجيء. أخذَ چوردان تلك النيكلات وأرباع الدولارات وصنعَ شيئًا أكبر وأغرب، فبنى هذه المستودعات على الأرض تحت المنزل، وملأها بأشياء يتفرَّج عليها النَّاس، ثم جاءَ النَّاس ليتفرَّجوا عليها. الملايين يأتون إلى هنا كلَّ سنة».
- «لماذا؟».

على أن الأربعاء اكتفى بالابتسام. دخلا «شوارع الأمس» معتمة الإضاءة، المصفوفة على جوانبها الأشجار، حيث حدَّقت أعداد غفيرة من دُمى ڤيكتوريَّة مزمومة الشِّفاه مصنوعة من الخزف الصِّيني من واجهات محالٍّ مغبَّرة، مثل إكسسواراتٍ عديدة من أفلام الرُّعب المحترمة. تحت أقدامهما الأرض مرصوفة بالحصى، وفوق رأسيهما ظلام سقف، وفي الخلفيَّة موسيقى ميكانيكيَّة مضطربة الرَّنين. مرَّا بصندوقٍ زُجاجي مملوء بالأراجوزات المكسورة، وصندوق موسيقى ذهبيٍّ ضخم في عُليةٍ زُجاجيَّة، ومرَّا بعيادة الأسنان والصَّيدليَّة (**استعِد فحولتك! استخدِم حزام أوليري المغنطيسي!**).

في آخِر الشَّارع صندوق زُجاجي كبير يحوي مانيكان أنثى ترتدي ثياب عرَّافةٍ غجريَّة.

قال الأربعاء بصوتٍ جهير رفعَه فوق الموسيقى الميكانيكيَّة: «والآن، جديرٌ بنا في مستهلِّ أيِّ مسعى أو مشروع أن نستشير النورنات.[1] دعنا إذًا نُعيِّن هذه السيبل[2] في دور أورد، إه؟»، وأسقطَ إحدى عُملات المنزل فوق الصَّخرة نُحاسيَّة الصُّفرة في الفتحة، وبحركاتٍ آليَّة متصلِّبة رفعَت الغجريَّة ذراعها وعادَت تخفضها، ثم انزلقَت قُصاصة ورقيَّة من الفتحة.

أخذَ الأربعاء الورقة وقرأها مطلقًا نخيرًا، ثم طواها ووضعَها في جيبه.

قال شادو: «ألن تُريها لي؟ سأريك ورقتي».

ردَّ بجمود: «طالع المرء شأنه وحده. ما كنتُ لأطلب رؤية ورقتك».

دسَّ شادو عُملته في الفتحة، ثم تناولَ قُصاصة الورق وقرأها.

**كلُّ نهايةٍ بداية جديدة.**

**رقم حظِّك لا يُوجد.**

**لون حظِّك الموت.**

الشِّعار: **الابن سرُّ أبيه.**

لوى شادو قسمات وجهه، وطوى قُصاصة البخت ووضعَها في جيبه الدَّاخلي.

توغَّلا أكثر في المكان قاطعيْن دهليزًا أحمر مرًّا فيه بغُرفٍ ملأى بمقاعد شاغرة، تستقرُّ فوقها آلات كمان وكمنجة وتشلو تعزف أنفُسها، أو هكذا تبدو عندما تُلقِّمها قطعةً من العُملة، لتنضغِط المفاتيح وتتضارَب الصُّنوج وتَنفُخ الأنابيب هواءً مضغوطًا في آلات الكلارينت والأوبو. لاحظَ شادو باستمتاعٍ ساخرٍ جاف أن أقواس الوتريَّات، التي تعزفها أذرُع ميكانيكيَّة، لا تلمس الأوتار أبدًا في الواقع، وأن كثيرًا من هذه الأوتار مرتخٍ أو مفقود. تساءلَ إن كان كلُّ ما يسمعه من أصواتٍ تصنعه الرِّياح والقرعات، أم إن هناك أشرطةٌ أيضًا.

(1) النورنات: ربَّات القدر في الأساطير الاسكندنافيَّة، أشهرهن ڤرداندي وسكولد وأورد. (المُترجم).

(2) السيبلات: العرَّافات أو الوسيطات الرُّوحيَّات في اليونان القديمة. (المُترجم).

كانا قد قطعا ما شعرَ شادو كأنه أميال عدَّة، عندما بلغا غُرفةً تُسمَّى الـ «ميكادو»،[*] أحد جُدرانها كابوس من القرن التَّاسع عشر يُحاكي الطِّراز الشَّرقي، فيه يدقُّ طبَّالون ميكانيكيُّون كثُّو الحواجب طبولًا وصُنوجًا وهُم يَنظُرون من وكرهم المغطَّى بالتَّنانين، وحاليًّا يُحرِّفون بمهابةٍ قصيدة سان صونس السيمفونيَّة «رقصة الموت».

على دكَّةٍ في الجِدار المواجه لماكينة الـ «ميكادو» جلسَ تشرنوبوج يَنقُر بأصابعه عازفًا الإيقاع، فيما تَنفُخ المزامير وترنُّ الأجراس.

جلسَ الأربعاء بجواره، وقرَّر شادو أن يظلَّ واقفًا. مدَّ تشرنوبوج يُسراه يُصافِح الأربعاء ثم شادو، وقال: «أهلًا بكما»، ثم أسندَ ظَهره إلى الجِدار وقد بدا عليه الاستمتاع بالموسيقى.

وصلَت «رقصة الموت»[*] إلى نهايةٍ عاصفة متنافرة الأنغام، وقد أضافَ نشازُ الآلات الزَّائفة الطَّفيف للغاية إلى طابع المكان الذي يبدو كأنما يقع في عالمٍ آخَر. ثم بدأت مقطوعة جديدة.

سألَ تشرنوبوج: «كيف كانت سرقة البنك؟ مضَت بسلاسة؟»، ونهضَ راغبًا عن ترك الـ «ميكادو» وموسيقاه الرنَّانة الرَّاعدة.

أجابَ الأربعاء: «كثُعبانٍ يسعى في برميلٍ من الزُّبدة».

- «أنا أحصلُ على معاشٍ من المذبح، ولا أطلبُ المزيد».

- «لن يدوم ذلك للأبد، مثل كلِّ شيء».

المزيد من الدَّهاليز، والمزيد من الماكينات الموسيقيَّة. تبيَّن شادو أنهم لا يتبعون الطَّريق المخصَّص للسُّيَّاح عبر الغُرف، بل مسلك مختلف من تدبير الأربعاء. نزلوا منحدرًا، وتساءلَ شادو حائرًا إن كانوا قد سلكوا هذا الطَّريق من قبل.

أمسكَ تشرنوبوج ذراع شادو، وقال ساحبًا إياه إلى صندوقٍ زُجاجي كبير عند حائط: «أسرِع، تعالَ هنا». يحتوي الصُّندوق على مجسَّم لصُعلوكٍ نائم في باحة كنيسةٍ أمام الباب، وتقول البطاقة الملصقة: «**حُلم السكِّير**»، شارحةً أن أصل الماكينة يرجع إلى محطَّة سكَّة حديد إنجليزيَّة من القرن التَّاسع عشر، وأنها كانت تعمل بوضع بنس في فتحة العُملات، وقد عُدِّلت الفتحة لقبول عُملات المنزل فوق الصَّخرة ذات اللَّون الأصفر النُّحاسي.

قال تشرنوبوج: «ضَع فيها النُّقود».

- «لماذا؟».

- «يجب أن ترى. أنا أريك».

دسَّ شادو العُملة في الماكينة، فرفعَ السكّير في ساحة المقابر زُجاجته إلى فمه. وانقلبَ أحد شواهد القبور كاشفًا عن جثّةٍ تمدُّ يدها، ودارَ شاهد آخَر لتحلَّ جمجمة مبتسمة محلَّ الزُّهور. ظهرَ طيف إلى يمين الكنيسة، أمَّا إلى يسارها فظهرَ شيء ما له وجه مدبَّب شبه خفي، تُثير محاكاته وجوه الطُّيور التَّوجُّس، كابوس شاحب من لوحةٍ لهيرونيموس بُس انزلقَ بنعومةٍ من فوق أحد الشُّواهد إلى الظِّلال واختفى. ثم انفتحَ باب الكنيسة وخرجَ قسٌّ، لتختفي الأشباح والأطياف والجُثث، ويبقى القسُّ والسكِّير وحدهما في ساحة المقابر. رمقَ القسُّ السكِّير بازدراء، وتراجعَ داخلًا من الباب المفتوح، الذي انغلقَ وراءه تاركًا السكِّير بمفرده.

كانت القصَّة الميكانيكيَّة مزعجةً للغاية، وفكَّر شادو أنها أشدُّ إزعاجًا كثيرًا مما يحقُّ لأيِّ ماكينة.

سألَه تشرنوبوج: «تعرف لماذا أريك هذا؟».

- «لا».

- «هذا هو العالم على حقيقته، هذا هو عالم الواقع. إنه هنا في هذا الصُّندوق».

تجوَّلا في غُرفةٍ بلون الدِّماء مكتظَّة بأراغن مسرحيَّة قديمة، وأنابيب أراغن، وما يبدو أنه أوعية تخمير نُحاسيَّة ضخمة مخلوعة من مخمرة.

سألَ شادو: «ما وجهتنا؟».

أجابَه تشرنوبوج: «الكاروسل».

- «لكننا مررنا بلافتاتٍ تُشير إلى الكاروسل مرارًا».

- «هو يذهب في طريقه ونحن نمضي بحركةٍ لولبيَّة. أحيانًا أسرع الطُّرق أطولها».

كانت قدما شادو قد بدأتا تؤلمانه، ووجدَ هذا الرَّأي مستبعَدًا لأقصى الحدود.

عزفَت ماكينة «حديقة الأخطبوط»[xlix] في غُرفةٍ ترتفع عدَّة طوابق، تملأ مركزها بالكامل نُسخة مطابقة لوحشٍ أسود هائل يُشبِه الحوت، في فمه المصنوع من الألياف الزُّجاجيَّة نُسخة مطابقة لقاربٍ بالحجم الطَّبيعي. من هناك انتقلوا إلى «قاعة الرِّحلات»، حيث رأوا سيَّارةً مغطَّاةً بالبلاط، وواحدةً

من آلات دجاج ريوب جولدبرج[1] -لا تزال تعمل- وإعلانات صدئة لـ «بورما للحلاقة» على الحائط، يقول أحدها:

**الحياة صعبة**
**مليئة بالكدّ والكدر**
**حافظ على خطّ فكّك**
**نظيفًا من الشّعر**
**بورما للحلاقة**

ويقول آخر:

**أقدمَ على التّميُّز**
**والطّريق صعب عنيد**
**والآن الحانوتي**
**صديقه الوحيد**
**بورما للحلاقة**

ثم بلغوا قاع الممرّ المنحدِر، حيث وجدوا أمامهم محلّ آيس كريم مفتوحًا ظاهريًّا، إلّا أن النّظرة على وجه الفتاة التي تغسل الأسطُح أعلنَت أن المكان مغلق، فواصَلوا المشي ليَدخُلوا منطقة الكافيتيريا ومطعم البيتزا، الخالية تمامًا إلّا من رجلٍ أسود مُسن يلبس بدلةً كاروهات وقُفّازين لونهما أصفر كناري. رجل صغير هو، من العجائز المنكمشين الذين يبدون كأنما قلّص مرور السّنين أحجامهم، ويأكل صنداي آيس كريم ضخمًا يتكوّن من ملاعق

(1) ريوب جولدبرج: رسّام كرتون أمريكي اخترعَ عددًا من الآلات المعقّدة المكوّنة من أجزاء متعدِّدة مختلفة الوظائف، لتنفيذ مهام بسيطة، كفتح الباب مثلًا. (المُترجم)

عديدة، ويشرب كوب قهوةٍ من الحجم السوبر، وأمامه في المنفضة يحترق سيجارِلُّو[1] أسود.

قال الأربعاء لشادو: «ثلاثة قهوة»، وذهبَ إلى دورة المياه.

اشترى شادو القهوة وأخذَها إلى تشرنوبوج الجالس مع الأسود العجوز، يسحب أنفاسًا من سيجارةٍ خلسةً كأنه يخشى أن يُضبَط متلبِّسًا بالتَّدخين. تجاهلَ الرَّجل الآخر، الذي يُداعِب الصنداي بسعادة، السيجارلُّو غالبًا، ولكن مع اقتراب شادو التقطه وأخذَ منه نفسًا عميقًا، ثم مجَّ حلقتَي دُخان -واحدةً كبيرةً أوَّلًا، ثم أخرى أصغر مرَّت من الأولى ببراعة- ثم ابتسمَ ابتسامةً واسعةً كما لو أنه أدهشَ نفسه لدرجة السُّرور.

قال تشرنوبوج: «شادو، هذا هو المستر نانسي».xliii

نهضَ العجوز ومدَّ يدًا مقفَّزةً بالأصفر قائلًا بابتسامةٍ برَّاقة: «يسرُّني لقاؤك. أعرفُ مَن لا بُدَّ أن تكون. إنك تعمل لحساب الوغد الأعور، أليس كذلك؟». حملَ صوته خُنَّةً خافتةً، لمحةً من الرَّطانة قد تكون غرب هنديَّة.

قال شادو: «أعملُ لحساب المستر أربعاء، نعم. تفضَّل بالجلوس».

أخذَ تشرنوبوج نفسًا من سيجارته، وأعلنَ بكآبة: «أظنُّ أن نوعنا يحبُّ السَّجائر لهذه الدَّرجة لأنها تُذكِّرنا بالقرابين التي كانوا يُحرِقونها لنا قديمًا، بالدُّخان يتصاعَد إذ يرومون رضانا أو حظوتنا».

ردَّ نانسي: «لم يُقدِّموا لي شيئًا كهذا قَطُّ. أفضل ما أملته كان كومةً من الفواكه لآكلها، أو لحم ماعزٍ متبَّلًا بالكاري، وشرابًا طويلًا باردًا أحتسيه ببُطء، وامرأةً كبيرةً شامخةَ النَّهدين تُؤنِّسني»، وابتسمَ كاشفًا عن أسنانٍ بيضاء، وغمزَ لشادو.

قال تشرنوبوج من غير أن يتبدَّل تعبيره: «هذه الأيام لا ننال شيئًا».

بعينين تلمعان قال المستر نانسي: «صحيحٌ أني لم أعُد أتلقَّى فواكه مثلما اعتدتُ في سابق عهدي بالمرَّة، لكن لا شيء في العالم في رأيي يمتاز عن امرأةٍ كبيرة شامخة النَّهدين. بعض مَن تُكلِّمهم يقول إن عليك أن تُعاين الأرداف أولًا، ولكنني هنا لأخبرك بأن الأثداء هي ما يُسخِّن الدَّم في عروقي

(1) السيجارلُّو: نوع أصغر من السيجار يشيع استخدامه في عددٍ من دُول أمريكا اللاتينيَّة. (المُترجم).

في الصَّباحات الباردة». بدأ نانسي يضحك، ضحكته الدَّمِثة مليئة بالخشخشة والصَّفير، ووجدَ شادو نفسه يحبُّ العجوز رغمًا عنه.

عادَ الأربعاء من دورة المياه، وصافحَ نانسي قائلًا: «شادو، أتُريد شيئًا تأكله؟ شريحةً من البيتزا أو ساندوتش؟».

- «لستُ جائعًا».

قال المستر نانسي: «دعني أخبرك بشيء. قد تطول الفترة بين الوجبات، فإذا عرضَ عليك أحدهم طعامًا فقل نعم. لم أعُد شابًا، ولكن بإمكاني أن أخبرك بهذا: إياك أن تُفوِّت فُرصةً للتَّبوُّل أو الأكل أو الغفو نصف ساعة. هل تُتابِعني؟».

- «نعم، لكنني لا أشعرُ بالجوع حقيقةً».

حدَّق نانسي في عينَي شادو الرَّماديَّتين الفاتحتين بعينين عجوزين بلون الماهوجني، وقال: «إنك رجل كبير، وجذَّاب ككوبٍ كبير من الماء في يومٍ حار، ولكن عليَّ أن أقول لك إنك لا تبدو ذكيًّا. إن لي ابنًا غبيًّا كرجلٍ اشترى غباءه يوم باعوا منه الاثنين بسعر واحد، وأنت تُذكِّرني به».

قال شادو: «إن لم يكن لديك مانع فسأعدُّها مجاملةً».

- «أن تُنعَت بغباء رجلٍ راحَت عليه نومة صبيحة اليوم الذي وزَّعوا فيه العقول؟».

- «أن أقارَن بأحد أفراد أسرتك».

أطفأ المستر نانسي السيجارِلُّو، ثم نفضَ ذرَّةً تخيُّليَّةً من الرَّماد عن قُفَّازه الأصفر، قبل أن يقول: «محتمَل أنك لست أسوأ اختيارٍ للأعور العجوز، إن حكمنا بالواقع»، ورفعَ ناظريْه إلى الأربعاء قائلًا: «ألديك فكرة كم منا سيحضر اللَّيلة؟».

قال الأربعاء: «لقد بعثتُ برسائل إلى كلِّ مَن استطعتُ العثور عليهم. واضحٌ أنهم لن يتمكَّنوا جميعًا من المجيء»، وأضافَ رامقًا تشرنوبوج بنظرةٍ حادَّة: «وبعضهم قد لا يُريد المجيء، ولكن أظنُّني قادرًا على القول بثقة إنني أتوقَّع العشرات منا، وسينتقل الخبر إلى الآخَرين».

مضوا في طريقهم مارِّين بعددٍ من البِزَّات المدرَّعة المعروضة، (ولدى مرورهم بالصُّندوق الزُّجاجي أعلنَ الأربعاء: «ڤيكتوري تقليد، معاصر تقليد، خوذة من القرن الثَّاني عشر على درعٍ مستنسَخة في القرن السَّابع عشر،

قُفَّاز واقٍ لليد اليُسرى من القرن الخامس عشر...»)، ثم خرجَ الأربعاء من بابِ طوارئ ودارَ بهم حول المبنى من الخارج، (وعندئذٍ قال نانسي: «لا يُمكنني احتمال كلِّ هذا الدُّخول والخروج. إنني لم أعُد شابًّا كسابق عهدي، وجئتُ من مناخٍ أدفأ»)، قاطعًا ممشى مغطى، ثم دخلَ من مخرج طوارئ آخَر، ووصلوا إلى قاعة الكاروسِل.

كانت موسيقى الكالايابي تتردَّد في المكان، مقطوعة ڤالس مؤثِّرة -وأحيانًا نشاز- لشتراوس. لدى دخولهم وجدوا مئاتٍ من خيول الكاروسِل العتيقة معلَّقةً على الحائط، بعضها في حاجةٍ إلى القليل من الطِّلاء، وبعضها إلى نفض الغُبار عنه بعناية، وفوقها معلَّقة عشرات من الملائكة المجنَّحة، المكوَّنة بوضوحٍ بالغ من مانيكانات المتاجر النِّسائيَّة، وقد انكشفَ بعض الأثداء معدومة الجاذبيَّة الجنسيَّة، وضاعَ بعض البواريك، لتُحدِّق المانيكانات صلعاء عمياء من الظَّلام بالأعلى.

وها هو ذا الكاروسِل.

تُعلِن لافتة أنه **الأكبر في العالم**، وتَذكُر وزنه وكم ألفًا من المصابيح تحتوي عليها الثُّريَّات المعلَّقة منه بوفرةٍ تُذكِّرك بالطِّراز القوطي، وتمنع أيَّ أحدٍ من الصُّعود عليه أو ركوب الحيوانات.

ويا لها من حيوانات! رغمًا عنه تطلَّع شادو مبهورًا إلى مئاتٍ من المخلوقات بالحجم الطَّبيعي تدور حول منصَّة الكاروسِل، مخلوقاتٍ حقيقيَّة ومخلوقاتٍ خياليَّة، وتحويراتٍ من هذه وتلك، يختلف كلٌّ منها عن الآخَر... رأى عروس وعريس بحر، وسِنتورًا[1] وأحاديَّ قرن، وفيلَيْن (أحدهما ضخم والثَّاني ضئيل)، وكلب بولدُج، وضفدعةً وعنقاء، وحمارًا وحشيًّا، وبَبْرًا، ومانتيكورًا[2] وبازيليسقًا،[3] وطيور تمٍّ تجرُّ عربةً، وثورًا أبيض، وثعلبًا، وقطَّيْن توأمَيْن، وحيَّة بحرٍ أيضًا، جميعها زاهي الألوان وأكثر من حقيقي، وجميعها يدور

(1) السِّنتور: مخلوق من الأساطير الإغريقيَّة، نصفه العُلوي بشري والنِّصف السُّفلي لحصان. (المُترجم).

(2) المانتيكور: مخلوق من الأساطير الفارسيَّة، له وجه إنسان وجسم أسد وذيل عقرب. (المُترجم).

(3) البازيليسق: مخلوق أسطوري أوربي، وهو حيوان زاحف يبخُّ زُعافًا شديد السُّميَّة، ويُقال إنه ملك الأفاعي. (المُترجم).

حول المنصّة إذ انتهت مقطوعة الفالس وبدأت أخرى دون أن تتباطأ حركة الكاروسل.

قال شادو: «ما فائدته؟ أعني نعم، الأكبر في العالم، مئات الحيوانات، آلاف المصابيح، ويدور طوال الوقت من غير أن يركبه أحد».

قال الأربعاء: «ليس هنا لكي يُركَب، أو لكي يركبه النّاس بالأحرى. إنه هنا ليتطلّعوا إليه بإعجاب، هنا ليكون».

أضافَ المستر نانسي: «مثل عجلة صلاةٍ[1] تدور وتدور مستجمعة القوّة».

سألَ شادو: «أين سنُقابِل الجميع؟ حسبتك قلت إننا سنُقابِلهم هنا. لكن المكان خالٍ».

ابتسمَ الأربعاء ابتسامته العريضة المخيفة قائلًا: «شادو، إنك تُلقي الكثير من الأسئلة. لستَ تقبض أجرك عن إلقاء الأسئلة».

- «معذرة».

قال الأربعاء: «والآن قِف هنا وساعِدنا على الصُّعود»، وذهبَ إلى جانب المنصّة، حيث وصفِ الكاروسِل والتّحذير من ركوبه.

فكّر شادو في قول شيء، غير أنه ساعدَهم بدلًا من ذلك على الصُّعود فوق الإفريز واحدًا تلو الآخَر. بدا الأربعاء ثقيلًا للغاية، وصعدَ تشرنوبوج وحده مستندًا إلى كتف شادو لتثبيت نفسه لا أكثر، أمّا نانسي فبدا كأن لا وزن له إطلاقًا. صعدَ كلٌّ من المُسنّين الثّلاثة، ثم بخُطوةٍ وثيةٍ انتقلوا إلى منصّة الكاروسِل الدوّارة.

زعقَ الأربعاء: «ألن تأتي؟».

بقدرٍ معيّن من التّردُّد، وتلفُّتٍ سريع بحثًا عن أيّ موظّفٍ من المنزل فوق الصّخرة لعلّه يُراقِبهم، قفزَ شادو فوق الإفريز المجاور لأكبر كاروسِل في العالم، وقد حيّره إدراكه أن قلقه من كسر القواعد بركوبه الكاروسِل أشدّ كثيرًا من قلقه من التّواطؤ والمساعدة في سرقة بنكٍ عصر اليوم.

---

(1) عجلة الصّلاة: عجلة أسطوانيّة تُستخدَم في التبت، تُكتَب عليها المانترا (الكلمات والأصوات التي تُردَّد للمساعدة على التّركيز في التّأمّل)، وحسب البوذيّة التبتيّة فتدوير هذه العجلة له الأثر نفسه كترديد الصّلوات شفهيًا. (المُترجم).

اختارَ كلٌّ منَ العجائزِ الثّلاثة ركوبةً، فامتطى الأربعاء ذئبًا ذهبيًّا،[26] وتشرنوبوج سِنتورًا مدرّعًا تُخفي وجهه خوذة معدنيّة، في حين دفعَ نانسي نفسه فوق ظَهر أسدٍ عملاق في وضع الوثوب، صوّره المثّال في منتصَف الزّئير، وربّت على جانبِ الأسد.

وحملتهم موسيقى شتراوس الجليلة حول المنصّة.

كان الأربعاء مبتسمًا، ونانسي يضحك بابتهاجٍ ضحكة رجلٍ عجوزٍ صاخبةً خشنةً، وحتى تشرنوبوج الكئيب بدا مستمتعًا. شعرَ شادو كأنما رُفعَ عبء عن ظَهره فجأةً. ثلاثة رجالٍ مُسنّين يستمتعون بوقتهم راكبين أكبر كاروسِل في العالم، فماذا لو طُرِدوا جميعًا من المكان؟ ألا يستأهِل قولك إنك ركبت أكبر كاروسِل في العالم ذلك؟ ألا يستأهِل أيّ شيء؟ ألا يستأهِل ركوبك واحدًا من هذه الوحش المهيبة؟

عاينَ شادو كلب بولدُج ومخلوقًا بحريًّا وفيلًا يحمل هودجًا ذهبيًّا، ثم ركبَ فوق ظَهر مخلوقٍ له رأس عُقابٍ وجسم بَبْر،[27] وتمسّك بقوّة.

تموّج إيقاع «الدانوب الأزرق» في رأسه ورنّ وتغنّى، وتألّقت أضواء ألف ثُريًّا وتكسّرت، ولمدّة نبضة قلبٍ عادَ شادو طفلًا، وكلُّ ما تطلّبه إسعاده كان ركوبه الكاروسِل. ظلَّ ثابتًا تمامًا إذ ركبَ البَبْر العُقاب في مركزِ كلِّ شيء، ومن حوله لفَّ العالم ودارَ.

سمعَ شادو نفسه يضحك فوق صوت الموسيقى. كان سعيدًا، كأن السّاعات السّت وثلاثين الماضية لم تَحدُث، كأن السّنوات الثّلاث الماضية لم تَحدُث، كأن حياته تبخّرت مستحيلةً إلى حُلم يقظةٍ يراه طفلٌ صغير يركبُ الكاروسِل في حديقة جولدن جيت بسان فرانسيسكو في رحلة عودته الأولى إلى الولايات المتّحدة، رحلة ماراثونيّة بالسّفينة وبالسيّارة، وأمُّه واقفة تُشاهده بفخر، وهو يلعق مصّاصته المثلّجة الذّائبة وقد تمسّك بقوّةٍ آملًا ألا تتوقّف الموسيقى أبدًا، ألّا يُبطئ الكاروسِل حركته أبدًا، ألّا يكفَّ عن الدّوران أبدًا. كان يدور ويدور ويدور...

ثم انطفأت الأضواء، ورأى شادو الآلهة.

# الفصل السَّادس

مفتوحةٌ على مصاريعها وبلا حراسةٍ بوَّاباتنا
ومنها تمرُّ حشود متنافرة جامحة
أناسٌ من الفولجا وسُهوب التَّتار
أشكالٌ بلا معالم من حوض الهوانغ-خي
سكوتيُّون وتوتونيُّون وسلافيُّون وكِلت وملايو
هاربون من فاقة العالم القديم واحتقاره
جالبين معهم آلهةً وطقوسًا مجهولةً
وهنا تُشهِر تلك الضَّواري مخالبها
في الشَّوارع والأزقَّة، ما أغرب الألسنة
لُكنات وعيدٍ في آذاننا
أصواتٌ عرفَها بُرج بابل قديمًا

- **بوَّابات بلا حراسة،** توماس بايلي آلدرتش، 1882

في لحظةٍ كان شادو يركب أكبر كاروسِل في العالم متمسِّكًا بِبَبْرِه ذي رأس العُقاب، ثم تمدَّدت أضواء الكاروسِل الحمراء والبيضاء وارتعشَت وانطفأت، وإذا به يهوي في محيطٍ من النُّجوم، ويحلُّ محلَّ الفالس الميكانيكي صوتُ

جيشانٍ وانكسار يدقُّ بإيقاعٍ منتظم، مثل الصُّنوج أو حواجز الموج على سواحل محيطٍ بعيد.

الضَّوء الوحيد ضوء النُّجوم، لكنه ساطعٌ على كلِّ شيءٍ بوضوحٍ بارد. من تحته شدَّت مطيَّته جسمها وتحرَّكت على أربع، فروها الدَّافئ تحت يُسراه وريشها تحت يُمناه.

- «ركوبة ظريفة، أليس كذلك؟». أتى الصَّوت من ورائه، وسمعَته مطيَّته في أُذنيها وسمعَه هو في عقله.

التفتَ شادو بتؤدة، وإذا بصُورٍ من نفسه تنساب منه وهو يتحرَّك، لحظات مجمَّدة، كلُّ واحدٍ منه مقتنَص في جزءٍ من الثَّانية، وكلُّ حركةٍ ضئيلة دائمة إلى ما لا نهاية. الصُّور التي تلقَّاها عقله لا تُعقَل، كأنه يرى العالم من خلال أعيُن يعسوبٍ متعدِّدة الوجوه كما الجواهر، وإن رأى كلُّ وجهٍ شيئًا مختلفًا تمامًا، ولم يستطِع شادو الجمع بين ما يراه من أشياء -أو ما يظنُّ أنه يراه- في كلِّ واحدٍ يُمكنه أن يعقله.

كان يَنظُر إلى المستر نانسي، إلى رجلٍ أسود عجوز رفيع الشَّارب، يرتدي سُترةً رياضيَّةً كاروهات ويضع قُفَّازيْن لونهما أصفر ليموني، ويركب أسد كاروسِل يرتفع وينخفض عاليًا في الهواء، وفي الوقت نفسه، في المكان نفسه، يرى شادو عنكبًا مرصَّعًا بالجواهر تُماثِل قامته الحصان طولًا وأعيُنه مثل سديمٍ من الزُّمرُّد، يمشي متبخترًا ويُحدِّق إليه من أعلى، وفي الآن ذاته يَنظُر إلى رجلٍ فارع الطُّول لدرجةٍ خارقة للعادة، له بشرة سوادها كخشب السَّاج وستُّة أزواجٍ من الأذرُع، فوق رأسه غطاء مسترسل من ريش النَّعام، وعلى وجهه خطوط حمراء مرسومة، يمتطي أسدًا ذهبيًّا متبرِّمًا، وقد تشبَّثت اثنتان من أيديه السُّت بلبدة الوحش، ويرى أيضًا فتى أسود شابًّا يرتدي أسمالًا، قدمه اليُسرى متورِّمة يتزاحَم عليها الذُّباب الأسود، وأخيرًا، وراء هذه الأشياء كلِّها، يَنظُر شادو إلى عنكبٍ بنِّي ضئيل يختبئ تحت ورقة مُغرة ذابلة.

رأى شادو هذه الأشياء جميعًا، وعلمَ أنها واحد.

قالت الأشياء العديدة التي هي المستر نانسي: «إن لم تُغلِق فمك فسيَدخُل فيه شيء».

فأغلقَ شادو فمه، وابتلعَ ريقه بقوَّة.

بعد ميلٍ أو نحوه تقع قاعة خشبيَّة فوق تلٍّ، وكانوا يخبُّون صوب تلك القاعة من غير أن تُصدِر حوافر مطاياهم وأقدامها ضجَّةً على الرِّمال الجافَّة عند حافة البحر.

تقدَّم تشرنوبوج على متن سِنتوره، وربَّت على ذراع مطيَّته البشريَّة قائلًا لشادو بنبرةٍ بائسة: «لا شيء من هذا يَحدُث حقًّا. كلُّه في رأسك. الأفضل ألَّا تُفكِّر في الأمر».

رأى شادو مهاجرًا عجوزًا أشيب من شرقي أوربا، يرتدي معطف مطرٍ رثًّا وله سنٌّ بلون الحديد، صحيح، لكنه رأى أيضًا شيئًا أسود قصيرًا مكتنزًا، شيئًا أشدَّ حلكةً من الظُّلمات المحيطة بهم، عيناه جمرتان ملتهبتان، ورأى أميرًا شعره الأسود طويل مسترسل وشواربه السَّوداء طويلة، تُلطِّخ يديه ووجهه الدِّماء، ويركب -عاريًا إلَّا من فروة دُبٍّ على كتفه- فوق متن مخلوقٍ هو نصف رجل ونصف حيوان، وجهه وجذعه موشومان بدوَّاماتٍ ولوالب زرقاء.

سألَ شادو: «مَن تكونون؟ ماذا تكونون؟».

مضَت مطاياهم بمحاذاة السَّاحل، وظلَّت الأمواج تتكسَّر وتتناثر بعنادٍ على شاطئ اللَّيل.

قادَ الأربعاء ذئبه -الذي أصبحَ وحشًا فحميًّا أشهب ذا عينين خضراويْن- نحو شادو، فدارَت مطيَّة شادو دورةً نصفيَّةً بعيدًا عن الذِّئب، لكن شادو ملَّس على رقبتها وقال لها ألَّا تخاف، ليتحرَّك ذيل البَبْر هنا وهناك بعدوانيَّة. خطرَ لشادو أن هنالك ذئبًا آخر توأمًا للذي يمتطيه الأربعاء، يمشي مجاريًا إياهم عبر كُثبان الرَّمل، تفصلك لحظة واحدة لا أكثر عن مرآه.

قال الأربعاء: «هل تعرفني يا شادو؟». ركبَ ذئبه مرفوع الرَّأس، تلتمع عينه اليُمنى وتُومِض، وعينه اليُسرى باهتة، وقد ارتدى معطفًا بقلنسوةٍ غويطة على غرار مسوح الرُّهبان، وحدَّق وجهه إليهما من الظِّلال. «قلتُ لك إنني سأخبرك بأسمائي. هكذا يدعونني. أُدعى بالسَّعيد بالحرب، والجهيم، والمُغير، والثَّالث. أنا الأعور. أُدعى بالأعلى، والحازر المصيب. أنا جريمنير، وأنا ذو القلنسوة. أنا أبو الكلِّ، وأنا جوندلير حامل العصا. إن لي أسماءً بعدد الرِّياح، وألقابًا بعدد سُبل الموت. غُدافاي هوجِن وموِنِن: الفِكر والذَّاكرة، وذئباي فِركي وجِري، وجوادي المشنقة». حطَّ غُدافان رماديَّان شبحيَّان كجلود طيورٍ شفافة على كتفَي الأربعاء، وغرسا منقاريهما في جانبَي رأسه كما لو أنهما يتذوَّقان عقله، ثم عادا يضربان الهواء بأجنحتهما عائدَيْن إلى العالم.

تساءلَ شادو في قرارة نفسه: *ماذا أصدِّقُ؟* وارتدَّ إليه الصَّوت من مكانٍ ما في أغوار الأرض بقعقعةٍ جهيرة: صدِّق كلَّ شيء.

- «أودِن؟». ألقى شادو السُّؤال، واختطفت الرِّيح الكلمة من شفتيه كما الكُرباج.

- «أودِن». نطقَها الأربعاء همسًا، ولم يستطِع صخب اصطدام الأمواج بكواسرها على شاطئ الجماجم أن يطغى على تلك الهمسة. «أودِن». نطقَها الأربعاء متذوِّقًا وقع الكلمة في فمه. «أودِن». نطقَها الأربعاء بصوتِ هاتفٍ ظافرٍ تردَّد صداه من الأفقِ إلى الأفق، وتضخَّم اسمه وتعاظمَ وملأ العالم كدقِّ الدَّم المتدفِّق في أُذنَي شادو.

ثم، كأنه في حُلم، لم يعودوا راكبين في طريقهم إلى قاعةٍ بعيدة، بل وصلوا إليها بالفعل، ومطاياهم مربوطة في السَّقيفة المجاورة للقاعة.

أمَّا القاعة فضخمة ولكن بدائيَّة. السَّقف مغطًّى بالقشِّ، والجُدران من الخشب، وفي المركز نار مشتعلة، يلسع دُخانها عينَي شادو.

غمغمَ المستر نانسي لشادو: «كان ينبغي أن نفعل هذا في عقلي لا عقله. لكان الطَّقس أدفأ هناك».

- «نحن في عقله؟».

- «بشكلٍ أو بآخر. هذه ڤالاسكياولف، قاعته القديمة».

أراحَ شادو مرأى نانسي وقد عادَ رجلًا مُسنًّا يضع قُفَّازيْن أصفريْن، ولو أن ظلَّه يهتزُّ ويرتعش ويتبدَّل في لهب النَّار، وما يتبدَّل إليه ليس إنسانًا بالكامل دائمًا.

عند الجُدران دكك خشبيَّة، وعليها يجلس أو بجوارها يقف نحو عشرة أشخاص يُحافِظ كلٌّ منهم على مسافةٍ من الآخَر، شرذمة مختلطة تضمُّ امرأةً وقورًا ترتدي ساريًا هنديًّا أحمر، وعدَّة رجال أعمالٍ رثِّي الهيئة، وآخَرين أدنى إلى النَّار من أن يُميِّزهم شادو.

همسَ الأربعاء بشراسةٍ لنانسي: «أين هُم؟ أخبِرني. أين هُم؟ المفترَض أن تأتي جحافل منا. عشرات!».

ردَّ نانسي: «أنت الذي أرسلت الدَّعوات كلَّها. إنها لأعجوبة في رأيي أن هذا العدد جاء. أتظنُّ أن عليَّ أن أحكي قصَّةً لأستهلَّ الأمور؟».

هزَّ الأربعاء رأسه نفيًا مجيبًا: «غير وارد بالمرَّة».

- «لا يبدو عليهم وُد. القصَّة وسيلة جيِّدة لضمّ أحدٍ إلى صفِّك. وليس معك شاعر يُغنِّي لهم».

- «لا قصص. ليس الآن. لاحقًا سيكون هناك وقت للقصص. ليس الآن».

قال المستر نانسي: «لا قصص. ليكن. سأسخِّنهم فقط إذًا». وتقدَّم داخلًا دائرة ضوء النَّار بابتسامةٍ تلقائيَّة على وجهه.

وبدأ يتكلَّم: «أعرفُ فيمَ تُفكِّرون جميعًا. تُفكِّرون: ما الذي يفعله زميلكم أنانسي بخروجه ليُكلِّمكم، في حين أن أبا الكلِّ هو مَن دعاكم إلى هنا مثلما دعاني؟ كما تعلمون، أحيانًا يحتاج النَّاس إلى تذكِرة. عندما دخلتُ إذا بي أنظرُ حولي وأفكِّرُ: *أين بقيَّتنا؟* ثم قلتُ لنفسي إن مجرَّد كوننا قلَّة وكونهم كُثرًا، كوننا ضُعفاء وكونهم أقوياء، لا يعني أننا في عداد الضَّائعين. أتعلمون؟ في مرَّةٍ رأيتُ النَّبْر عند حُفرة الماء. من بين الحيوانات كلِّها كان صاحب أكبر خصيتين، وأمضى مخالب، وسنَّيْن أماميَّتيْن طويلتيْن كالسَّكاكين حادَّتيْن كنصالها. وقلتُ له: *أخي النَّبْر، اذهب للسِّباحة وسأعتني لك ببيوضك.* كان فخورًا للغاية ببيوضه. وهكذا نزلَ يسبح في حُفرة الماء، ووضعتُ أنا خصيتيه وتركتُ له خصيتيَّ الصَّغيرتين، خصيتيَ العنكب. وهل تعلمون ماذا فعلتُ بعدها؟ ركضتُ بأقصى سرعةٍ تقوى عليها أرجُلي، ولم أتوقَّف حتى بلغتُ البلدة التَّالية، وهناك رأيتُ القرد العجوز. قال القرد العجوز: *تبدو في أطيب حالٍ يا أنانسي*، فقلتُ: *أتدري ماذا يُغنِّي الجميع في البلدة المجاورة؟* ويسألني: *ماذا يُغنُّون؟* فأخبرته: *يُغنُّون أطرف أغنيَّةٍ على الإطلاق.* ثم أشرعُ في الرَّقص، وأغنِّي:

*بيوض النَّبْر، نعم*
*أكلتُ بيوض النَّبْر*
*والآن لا يقوى على منعي أحد*
*لا أحد يُحاصرني عند جدارٍ أسود*
*لأني أكلتُ مفخرة النَّبْر*
*أكلتُ بيوض النَّبْر*

ويضحك القرد العجوز حتى يُوشك على الانفجار، يُمسِك جانبه ويهتزُّ ويدقُّ الأرض، ثم يشرع في الغناء: *بيوض النَّبْر، أكلتُ بيوض النَّبْر*، ويُطرقِع بأصابعه ويلفُّ ويدور على قدميه، ويقول: *أغنيَة حُلوة، سأغنّيها لجميع أصدقائي*، فأقول له: افعل هذا، وأعودُ أدراجي إلى حُفرة الماء. وها هو ذا النَّبْر عند الحُفرة، يذرع الضفّة جيئةً وذهابًا، ويدور ذيله ويشقُّ الهواء، وأُذناه منتصبتان، والفرو على عُنقه منفوش عن آخِره، وكلُّ حشرةٍ تقترب منه يُحاوِل اقتناصها غاضبًا بنابين ضخمين مثل السُّيوف، وعيناه مضطرمتان بنارٍ برتقاليَّة. يبدو شرسًا مخيفًا كبيرًا، ولكن بين قدميه تتدلّى أضأل خصيتيْن في أضأل صفن، صفن هو أشدُّ ما رأى أحد سوادًا وتغضُّنًا على الإطلاق. وعندما يراني يقول: *أنت يا أنانسي، كان المفترَض أن تَحرُس خصيتيَّ فيما أسبح*، ولكن عندما خرجتُ من حُفرة السِّباحة *لم أجد على الضفَّة إلّا هاتين الخصيتيْن اللتين أضعهما، خصيتَي العنكب السُّوداويْن الذّابلتيْن اللتين لا تَصلُحان لشيء*. فأقولُ له: *لم أدَّخر جهدًا، لكنها تلك القرود، لقد أتَت والتهمَت خصيتيك*، ولمّا زجرتها اقتلعَت خصيتيَّ الصُّغيرتيْن، *وتملَّكني الخزي وفررتُ*. فيقول النَّبْر: *أنت كاذب يا أنانسي. سأَلتهمُ كبدك*. لكنه في تلك اللَّحظة يسمع القرود آتيةً من بلدتها إلى حُفرة السِّباحة، دستةٌ من القرود السَّعيدة تتقافز على الطَّريق وتُطرقِع بأصابعها وتُغنّي بأعلى صوت:

*بيوض النَّبْر*، نعم

*أكلتُ بيوض النَّبْر*

والآن لا *يقوى على منعي أحد*

لا *أحد يُحاصِرني عند جدارٍ أسود*

لأنّي *أكلتُ مفخرة النَّبْر*

*أكلتُ بيوض النَّبْر*

ويُزمجِر النَّبْر ويزأر وينطلق إلى الغابة مطاردًا القرود، وتَصرُخ القرود وتهرع إلى أعلى الأشجار، وأحكُّ أنا خصيتيَّ الجديدتين الكبيرتين الجميلتين، ولكم أحببتُ الإحساس بهما متدلِّيتيْن بين أرجُلي النَّحيفة، ثم مشيتُ عائدًا

إلى داري. وحتى اليوم ما زالَ البَبْر يُطارد القرود. تذكَّروا جميعًا إذًا: كونكم صغارًا لا يعني افتقاركم إلى القوَّة».

ابتسمَ المستر نانسي وحنى رأسه وبسط يديه متقبِّلًا التَّصفيق والضَّحك كالمحترفين، ثم دارَ وعادَ إلى حيث يقف شادو وتشرنوبوج.

قال الأربعاء: «حسبتني قلتُ لا قصص».

- «أتُسمِّي هذه قصَّةً؟ لقد تنحنحتُ بالكاد. سخَّنتهم لك لا أكثر. اذهب وأبهرهم».

خرجَ الأربعاء ليقف في ضوء النَّار، رجل عجوز كبير بعينٍ زجاجيَّة، يرتدي بدلةً بنِّيَّةً ومعطفًا «أرماني» قديمًا. وقفَ هناك ناظرًا إلى الجالسين على الدِّكك الخشب، لا يقول شيئًا لفترةٍ طالت حتى تجاوزت ما يعتقده شادو عن استطاعة أحدهم البقاء صامتًا كلَّ هذا الوقت بارتياح. وأخيرًا تكلَّم الأربعاء.

- «إنكم تعرفونني. كلُّكم يعرفني. بعضكم لا يملك سببًا ليحبَّني، ولستُ واثقًا بمقدرتي على لومكم، ولكن سواء أأحببتموني أم لم تحبُّوني، فأنتم تعرفونني».

صدرَ حفيف إذ بدَّل الجالسون على الدِّكك أوضاعهم.

- «لقد قضيتُ هنا زمنًا أطول مما قضى معظمكم، ومثل سائركم تصوَّرتُ أن بإمكاننا أن نُسيِّر أمورنا بما نناله. لا يكفي لإسعادنا، لكنه كافٍ لبقائنا. على أن تلك الحال قد لا تبقى على ما هي عليه. إن في الطَّريق عاصفةً، وليست عاصفةً من صُنعنا».

صمتَ لحظةً، ثم تقدَّم وعقدَ ذراعيه على صدره.

- «عندما جاءَ النَّاس إلى أمريكا جلبونا معهم، جلبوني أنا ولوكي وثور، وجلبوا أنانسي والإله الأسد،[1] واللِّپريكون والكلوريكون[2] والبانشي،[3]

(1) الإله الأسد: الإله المصري ماحس، ابن رع وباستت. (المُترجم).

(2) الكلوريكون: نوع من الجنِّيَّات وكائن قريب من اللِّپريكون في الفُلكلور الأيرلندي، معروف بشغفه بالشُّرب وسُكناه الحانات وأقبية الخمور. (المُترجم).

(3) البانشي: «المرأة الجنِّيَّة» بالأيرلنديَّة القديمة، روح تُنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة بوقوفها خارج المنزل ليلًا والنُّواح. (المُترجم).

وكوبيرا[1] والفراو هُل[2] وعشتروت،[3] وجلبوكم. ركبنا إلى هنا في عقولهم وغرسنا جذورنا، سافرنا مع المستوطِنين إلى الأراضي الجديدة عبر المحيط. الأرض رحبة، وسرعان ما هجرَنا ناسنا وأصبحوا يتذكَّروننا باعتبارنا كائناتٍ من الأراضي القديمة فحسب، أشياء لم تجئ معهم إلى الأراضي الجديدة. مات مَن يُؤمنون بنا حقًا أو لم يعودوا مؤمنين، وتُركنا ضائعين خائفين مطرودين، لنتعيَّش بما نَعثُر عليه من فُتات العبادة أو الإيمان، ونُسيِّر أمورنا قدر المستطاع. وهذا هو ما فعلناه، سيَّرنا أمورنا على حواف الأشياء، حيث لا يُراقبنا أحد مراقبةً لصيقةً.

إن لنا -ولنُواجِه الحقيقة ونقرَّ بها- نفوذًا طفيفًا. إننا نستغلُّهم ونأخذ منهم ونُسيِّر أمورنا، نتعرَّى ونبغي ونُسرِف في الشُّرب، نختلس الوقود ونسرق ونخدع ونُوجَد في الشُّقوق على حافة المجتمع. آلهة قديمة في هذه الأرض الجديدة حيث لا آلهة».

صمتَ الأربعاء ونقلَ بصره من مستمعٍ إلى آخَر برصانة سياسيٍّ محنَّك، وبادَلوه النَّظر دون تعبير، وجوههم كالأقنعة لا تُقرأ. تنحنحَ الأربعاء وبصقَ بقوَّة في النَّار، فتأجَّجت والتهبَت منيرةً القاعة.

- «كما اكتشفتم جميعًا بأنفُسكم لأسبابٍ عدَّة، في أمريكا آلهة جُدد يترعرعون، يتمسَّكون بعُقد الإيمان النَّامية: آلهة البطاقات الائتمانيَّة والطُّرق السَّريعة، والإنترنت والتليفون، والراديو والمستشفى والتليفزيون، آلهة البلاستيك والنِّداء الآلي والنيون. آلهة مغرورون، كائنات سمينة حمقاء مزهوَّة بحداثتها وأهميَّتها».

قال أودن: «إنهم يعون وجودنا، ويخافوننا، ويكرهوننا. تخدعون أنفُسكم إن كنتم تعتقدون غير ذلك. سوف يُدمِّروننا إن استطاعوا. حانَ الوقت لأن نتآزر، حانَ الوقت لأن نتصرَّف».

---

(1) كوبيرا: إله الثَّروة والكنوز الهندوسي، وقد يكون أحد وجوه شيفا. (المُترجم).

(2) الفراو هُل: معروفة أيضًا باسم هولدا، وهي إلهة للطَّقس والعطاء في الأساطير الجرمانيَّة. (المُترجم).

(3) عشتروت: معروفة أيضًا باسم عشتار أو عشترة، وهي إلهة للمعارك والخصوبة والجنس والأمومة من الشَّرق الأدنى. (المُترجم).

تقدَّمت العجوز ذات السَّاري الأحمر والجوهرة الزَّرقاء الدَّاكنة الصَّغيرة على جبهتها، ووقفَت في ضوء النَّار قائلةً: «دعوتنا إلى هنا لأجل هذا العبث؟»، ثم أطلقَت نخيرًا اختلطَت فيه السُّخرية بالضِّيق.

انخفضَ حاجبا الأربعاء، وقال: «دعوتكم إلى هنا، نعم، لكن ما أقوله عين العقل يا ماما-چي، وليس عبثًا. بإمكان أيِّ طفلٍ أن يرى هذا».

قالت: «أنا طفلة إذًا؟»، ولوَّحت بإصبعها في وجهه متابعةً: «لقد كنتُ عجوزًا في كاليجات[1] من قبل أن يَحلُم بك أحد أيها الأحمق. أنا طفلة؟ فلأكن طفلةً إذًا، فليس في كلامك الأحمق ما يُرى».

مرَّةً أخرى لحظة من ازدواج البصر: رأى شادو العجوز بوجهها الممصوص شيخوخةً واستنكارًا، لكنه رأى وراءها شيئًا هائلًا، امرأةً عاريةً سوداء البشرة كسُترةٍ جديدة من الجلد، حمراء الشَّفتين واللِّسان كالدَّم في الشَّرايين، تُحيط بعُنقها جماجم وتحمل أياديها العديدة خناجر وسيوفًا ورؤوسًا مبتورةً.

قال الأربعاء مهادنًا: «لم أدعُكِ بالطِّفلة يا ماما-چي، ولكن يبدو بديهيًا أن...».

قاطعَته العجوز مشيرةً بإصبعها (ومن ورائها، ومن خلالها، ومن فوقها، أشارَت إصبع سوداء حادَّة البرثن محاكيةً): «الشَّيء الوحيد الذي يبدو بديهيًا هو اشتهاؤك المجد. لقد عشنا بسلامٍ في هذه البلاد زمنًا طويلًا. بعضنا حاله أفضل من غيره، أتَّفقُ معك، فأنا أبلي بلاءً حسنًا. في الهند لي تجسُّد يُبلي بلاءً أحسن كثيرًا، ولكن فيها ونعمَت. لستُ حسودًا. لقد شاهدتُ صعود الجُدد وشاهدتُ سقوطهم». سقطَت يدها إلى جانبها، ورأى شادو الآخَرين يَرمُقونها بمزيجٍ من التَّعبيرات في أعيُنهم، باحترامٍ وسخريةٍ وحرج. «لقد عبدوا السِّكك الحديد هنا قبل طرفة عينٍ واحدة، والآن آلهة الحديد منسيُّون مثلهم مثل صيَّادي الزُّمرُّد...».

قال الأربعاء: «قولي الخُلاصة يا ماما-چي».

- «الخُلاصة؟». اتَّسعت طاقتا أنفها، وانقلبَ رُكنا فمها، وقالت: «رأيي -وأنا مجرَّد طفلةٍ كما هو واضح- أن ننتظر، ألَّا نفعل شيئًا. لسنا ندري إن كانوا يُضمِرون لنا أذى».

---

(1) كاليجات: منطقة في كُلكتا بمقاطعة البنغال الغربيَّة، تحوي معبد الإلهة الهنديَّة كالي مدمِّرة الشُّرور. (المُترجم).

- «وهل ستظلّين تنصحين بالانتظار حينما يأتون في جوف اللّيل ليقتُلوكِ أو يختطفوكِ؟».

جمعَ تعبيرها بين الازدراء والاستهانة، يتّضح كلُّه في الشّفتين والحاجبين ووضع الأنف. «إن حاولوا شيئًا كهذا فسيجدون القبض عليَّ صعبًا، وقتلي أصعب».

تنحنحَ شابٌّ قصير مكتنز على الدكَّة خلفها طالبًا الانتباه، ثم قال بصوتٍ مدوٍّ: «يا أبا الكلّ، إنّ قومي مرتاحون. نحن نستغلُّ ما لدينا أفضل استغلال. إذا انقلبت حربك هذه علينا فمن الممكن أن نخسر كلَّ شيء».

قال الأربعاء: «لقد خسرتم كلَّ شيءٍ فعلًا. إنني أعرضُ عليكم فُرصة استرداد القليل».

إذ تكلّم استعرَت النّار عاليًا لتُنير وجوه الحاضرين.

فكّر شادو: *لستُ أصدِّقُ حقًّا. لستُ أصدِّقُ شيئًا من هذا. ربما ما زلتُ في الخامسة عشرة، وما زالت ماما حيّةً ولم ألتقِ لورا بعدُ. كلُّ ما حدثَ حتى الآن ما هو إلّا حُلم جليّ خارق للعادة.* غير أنه لم يستطِع تصديق ذلك أيضًا. كلُّ ما نملكه لكي نُصدِّق هو حواسُّنا، الأدوات التي نستعملها لإدراك العالم؛ بصرنا، لمستنا، ذاكرتنا. فإن كذبَت علينا حواسُّنا فلا يُمكننا أن نثق بشيء، وحتى إذا لم نُصدِّق فليس بإمكاننا السَّفر إلّا على الطَّريق الذي تُريه لنا حواسُّنا، ويجب أن نقطعه إلى نهايته.

ثم خمدَت النّار، وسادَ الظّلام في ﭬالاسكياولف، قاعة أودِن.

همسَ شادو: «والآن ماذا؟».

غمغمَ المستر نانسي: «الآن نرجع إلى قاعة الكاروسل ويدعونا الأعور العجوز جميعًا إلى العَشاء ويُقدِّم بعض الرَّشاوى ويُقبِّل بعض الرُّضَّع، ولا ينطق أحد الكلمة البادئة بـ «آ» ثانيةً».

- «الكلمة البادئة بـ «آ»؟».

- «آلهة. أين كنت حقًّا يوم وزَّعوا الأمخاخ يا فتى؟».

- «أحدهم كان يحكي قصّةً عن سرقة خصيتَي ببْر، وتوقّفتُ رغمًا عني لأعرف نهايتها».

وقهقهَ المستر نانسي.

- «لكن شيئًا لم يُحَلّ. لا أحد اتّفق على شيء».

- «إنه يشتغل عليهم ببُطء. سيظفر بهم واحدًا واحدًا. سترى. في النِّهاية سيقتنعون».

أحسَّ شادو برياحٍ تهبُّ من مكانٍ ما، تُحرِّك شعره وتلمس وجهه وتجذبه.

وإذا بهم في قاعة أكبر كاروسل في العالم، يستمعون لـ «ڤالس الإمبراطور».

على جانب القاعة الآخَر وقفَت مجموعة من النَّاس، سُيَّاح كما يشي مظهرهم، تتكلَّم مع الأربعاء عند الجِدار المغطَّى بخيول الكاروسِل. أناس بعدد الأجسام الغامضة في قاعة الأربعاء. بصوتٍ مدوٍّ قال لهم: «من هنا»، وقادَهم من المخرج الوحيد المُقام ليبدو كفم وحشٍ ضخمٍ مفغور، أسنانه الحادَّة مستعدَّة لتمزيقهم جميعًا أشلاءً. تحرَّك الأربعاء بينهم باديًا كالسِّياسي، يُداهِن ويُشجِع ويبتسم ويختلف برفقٍ ويُهدِّئ.

سألَ شادو: «هل حدثَ ذلك حقًّا؟».

سألَه المستر نانسي: «هل حدثَ ماذا حقًّا يا مخَّ الخراء؟».

- «القاعة، النَّار، خصيتا البَبْر، ركوب الكاروسِل».

- «ليس مسموحًا لأحدٍ بركوب الكاروسِل. ألم ترَ اللَّافتات؟ والآن صمتًا».

أخذَهم فم الوحش إلى «قاعة الأراغن»، وهو ما حيَّر شادو... ألم يأتوا من هذا الطَّريق؟ لم يبدُ المكان أقل غرابةً ثانيَ مرَّة. قادَهم الأربعاء صاعدًا بعض السَّلالم، ثم مرورًا بنماذج بالحجم الطَّبيعي معلَّقة من السَّقف لفُرسان سِفر رؤيا يوحنا الأربعة، وتبعوا اللَّافتات نحو مخرجٍ سبقَ لشادو المرور به.

تحرَّك شادو ونانسي في المؤخِّرة، ثم خرجوا من المنزل فوق الصَّخرة، يمشون مارِّين بمتجر الهدايا وعائدين إلى الموقف.

قال المستر نانسي: «مؤسفٌ أننا غادرنا قبل النِّهاية. كنتُ آملُ نوعًا أن أرى أكبر أوركسترا صناعيَّة في العالم أجمع».

ردَّ تشرنوبوج: «رأيتها. ليست شيئًا ذا بال».

---

المطعم بناء كبير شبيه بالحظيرة يَبعُد عشر دقائق على الطَّريق. أخبرَ الأربعاء كلًّا من ضيوفه أن العَشاء اللَّيلة على حسابه، وأنه جهَّز وسائل نقلٍ لمَن لا يملك ركوبةً.

تساءلَ شادو كيف وصلوا إلى المنزل فوق الصَّخرة دون وسائل نقلٍ في المقام الأوَّل، وكيف كانوا سيرحلون، إلَّا أنه لم يقل شيئًا، فقد بدا له الصَّمت أذكى ما يُمكن أن يُقال.

حملَت السيَّارة مِلأها من ضيوف الأربعاء الذين أقلَّهم شادو إلى المطعم. جلست ذات السَّاري الأحمر على المقعد الأمامي بجانبه، وعلى الأريكة الخلفيَّة جلسَ رجلان: شابٌّ غريب المنظر لم يسمع شادو اسمه جيِّدًا، وإن حسبَ أنه قد يكون إلفس،[xlvi] ورجل آخَر يرتدي بدلةً قاتمةً لم يستطِع شادو تذكُّره.

لقد وقفَ إلى جوار الرَّجل وهو يركب السيَّارة، وفتحَ له الباب وأغلقَه، ومع ذلك لم يتمكَّن من تذكُّر أيِّ شيءٍ عنه. التفَّ على مقعد القيادة ونظرَ إليه، بحرصٍ يُسجِّل وجهه وشعره وملابسه، يستوثق من قُدرته على تعرُّفه إذا قابلَه ثانيةً. ثم اعتدلَ ليُشغِّل المحرِّك، ليجد الرَّجل زاغَ من عقله مخلِّفًا انطباعًا مبهمًا عن الثَّراء ولا شيء آخَر.

فكَّر شادو: أنا متعَب. اختلَس نظرةً عن يمينه إلى المرأة الهنديَّة، ولاحظَ قلادة الجماجم الفضِّيَّة الضَّئيلة المحيطة بعُنقها، وسوار التَّمائم المليء بالرُّؤوس والأيدي التي ترنُّ كما الأجراس الدَّقيقة متى تحرَّكت. على جبهتها جوهرة زرقاء داكنة، وتفوح منها رائحة التَّوابل، الحبَّهان وجوز الطِّيب، ورائحة الزُّهور، وشعرها أبيض وأسود كالملح والفلفل، ولمَّا رأته يَنظُر إليها ابتسمَت.

- «ادعُني بماما-چي».

- «أنا شادو يا ماما-چي».

- «وما رأيك في خطَّة ربِّ عملك يا مستر شادو؟».

أبطأ السيَّارة إذ مرَّت شاحنة سوداء مسرعة ناثرةً عليهم الثَّلج الذَّائب، ثم قال: «لا أنا أسألُ، ولا هو يقول».

- «إن طلبت رأيي، فهو يُريد مواجهةً أخيرةً، يُريد أن يفنى في سعيرٍ من المجد. هذه هي غايته. ونحن مسنُّون بما فيه الكفاية أو حمقى بما فيه الكفاية لأن يقول له بعضنا نعم».

قال شادو: «إلقاء الأسئلة ليس عملي يا ماما-چي»، وأفعمَت السيَّارة ضحكتها المجلجِلة.

قال الرَّجل الجالس على الأريكة في الخلف -ليس الشَّاب غريب المنظر، بل الآخَر- شيئًا ما، وردَّ عليه شادو، لكنه بعد هنيهةٍ لم يَعُد يَذكُر حرفًا مما قيل.

لم يقل الشَّاب غريب المنظر شيئًا، وإن بدأ الآن يُدَندِن لنفسه، دندنته عميقة منغَّمة جهيرة جعلَت داخل السيَّارة يتذبذَب ويصلُّ ويطنُّ.

الشَّاب غريب المنظر متوسِّط الطُّول، لكن في شكله شيئًا عجيبًا. لقد سمعَ شادو بأصحاب الصَّدر البرميلي من قبل، غير أنه لم يملك صورةً تُصاحِب المجاز. هذا الرَّجل برميلي الصَّدر، وله ساقان مثل -نعم- مثل جذوع الأشجار، ويدان مثل -بالضَّبط- عراقيب الخنازير. يرتدي الشَّاب معطفًا باركا بقلنسوة، وعدَّة سويترات، وبنطالًا دنيم سميكًا، وتنافُرًا مع هذا، في الشِّتاء وبهذه الثِّياب، ينتعل حذاءً رياضيًّا أبيض له شكل عُلب الأحذية وحجمها. أمَّا أصابعه فتُشبِه السُّجق، وأناملها مسطَّحة مربَّعة.

علَّق شادو من مقعد السَّائق: «يا لها من دندنة قويَّة».

محرجًا قال الشَّاب غريب المنظر بصوتٍ بالغ العُمق: «آسف»، وكفَّ عن الدَّندنة.

- «لا. لقد استمتعتُ بها. لا تتوقَّف».

تردَّد الشَّاب غريب المنظر، ثم باشرَ الدَّندنة من جديد، صوته عميق رنَّان كالمرَّة السَّابقة، وهذه المرَّة تخلَّلت دندنته كلمات. بصوتٍ متناهي العُمق غنَّى: «إلى أسفل إلى أسفل إلى أسفل، إلى أسفل إلى أسفل إلى أسفل، إلى أسفل إلى أسفل، إلى أسفل إلى أسفل».

كلُّ منزلٍ ومبنى مرُّوا به تنسدل على أفاريزه أنوار الكريسماس، متراوحةً بين الذَّهبي المتحفِّظ الذي يتقاطَر منه الوميض وبين عروضٍ ضخمة من رجال الثُّلوج والدَّباديب والنُّجوم المبرقشة.

توقَّف شادو عند المطعم وأنزلَ راكبيه عند الباب الأمامي، ثم عادَ إلى السيَّارة. سيركنها في مؤخِّرة الموقف، إذ يُريد أن يقطع المسافة القصيرة من هناك إلى المطعم بمفرده في البرد ليُصفِّي عقله.

ركنَ السيَّارة بجوار شاحنةٍ سوداء، وتساءلَ إن كانت هذه هي الشَّاحنة التي مرَّت به مسرعةً قبل قليل.

أغلقَ باب السيَّارة، ووقفَ هناك في الموقف، تَخرُج أنفاسه بُخارًا.

تخيَّل شادو الأربعاء داخل المطعم يُجلِس ضيوفه جميعًا حول مائدةٍ كبيرة ويُمارِس مختلِف الحيل لكسبهم.

تساءلَ إن كانت كالي قد جلسَت إلى جانبه في سيَّارته حقًّا، وتساءلَ عن كنه الآخرَيْن اللذين أقلَّهما في المؤخِّرة...

- «يا صاحبي، معك ثقاب؟». قالها صوت نصف مألوف، والتفتَ شادو ليعتذر ويقول لا، ليس معه ثقاب، لكن ماسورة المسدَّس ضربَته فوق عينه اليُسرى، وبدأ يَسقُط، فمدَّ ذراعه ليُثبِّت نفسه. دسَّ أحدهم شيئًا طريًّا في فمه ليمنعه من الاستغاثة، وكمَّم فمه بشريطٍ لاصق. حركات خبيرة سهلة، مثل جزَّارٍ يَبقُر بطن دجاجة.

حاولَ شادو أن يزعق ليُنبِّه الأربعاء، ليُنبِّههم جميعًا، لكن شيئًا لم يَخرُج من فمه إلَّا لغط مكتوم.

قال الصَّوت نصف المألوف: «الفرائس كلُّها بالدَّاخل. الجميع في مواقعهم؟». ثم صوت مطقطِق، نصف مسموع عبر اللا سلكي، ثم: «لنتقدَّم ونحصدهم جميعًا».

سألَ صوت آخَر: «والرَّجل الكبير؟».

أجابَ الصَّوتَ الأول: «حاصِروه واقتلوه».

وضعوا غطاءً كالكيس على رأس شادو، وربطوا معصميه وكاحليه بشريطٍ لاصق، ووضعوه في مؤخِّرة شاحنة، وانطلقوا به.

---

لا نوافذ في الحُجرة الضَّئيلة التي حبسوا فيها شادو. يضمُّ المكان مقعدًا من البلاستيك، وطاولةً خفيفةً قابلةً للطَّيِّ، ودلوًا مغطى ليستخدمه كمرحاضٍ مرتجَل، وعلى الأرض قطعة من الفوم الأصفر طولها ستَّة أقدام، وبطَّانيَّة خفيفة في منتصَفها بُقعة بنِّيَّة متخثِّرة منذ زمنٍ طويل، لم يدرِ شادو إن كانت دمًا أم بُرازًا أم طعامًا، ولم يرغب في الاستقصاء. في السَّقف العالي مصباح عارٍ وراء شبكةٍ معدنيَّة، لكن شادو لم يَعثُر على مفتاح ضوء، والضَّوء مشتعل دومًا.

ولا مقبض على جانبه من الباب.

كانَ جائعًا.

أوَّل ما فعلَه بعدما دفعَه الحُملاء إلى داخل الحُجرة ونزعوا الشَّريط اللَّاصق عن كاحليه ومعصميه وفمه وتركوه وحده، أنه دارَ في أنحاء الحُجرة وفحصَها بعناية، فدقَّ على الجُدران لتُصدِر صوتًا معدنيًّا جامدًا. في قمَّة الحُجرة شبكة تهوية صغيرة، والباب موصَد بإحكام.

من الجرح فوق حاجبه الأيسر ينزُّ الدَّم ببُطء، ورأسه يُوجِعه.

لا بساط على الأرض. نقرَ عليها، فأصدرت صوت الجُدران المعدني نفسه.

رفعَ غطاء الدَّلو وأفرغ مثانته وعادَ يُغطّيه. حسب ساعته، لم يمرّ أكثر من ساعاتٍ أربع منذ الغارة على المطعم.

محفظته أخذوها، لكنهم تركوا له العُملات.

أخذَ المقعد جالسًا إلى الطّاولة القابلة للطَّيّ، المغطّاة بالجوخ الأخضر المليء بحروق السَّجائر. تمرَّن شادو على الإيحاء بدفع العُملات عبر جسم الطّاولة، ثم أخذَ رُبعَي دولار وابتكرَ خدعة عُملةٍ عبثيَّة.

أخفى رُبع دولارٍ في كفِّه اليُمنى، وعرضَ الرُّبع الآخر بوضوحٍ في يُسراه بين السبَّابة والإبهام، ثم بدا كأنه يأخذ الرُّبع الثَّاني من يُسراه فيما تركه يَسقُط فيها في الواقع، ثم فتحَ يُمناه ليعرض الرُّبع الأوَّل الذي ظلَّ هناك من البداية.

ما يُميِّز التَّلاعُب بالعُملات أنه يتطلَّب تركيز شادو بالكامل. أو بالأحرى، لا يُمكنه التَّلاعُب بالعُملات إذا كان غاضبًا أو مستاءً، وعليه فمجرَّد فعل المران على حيلةٍ وهميَّة، حتى إن كانت حيلةً بلا أيِّ جدوى في حدِّ ذاتها، (خُذ هذا بعين الاعتبار: لقد بذلَ قدرًا هائلًا من الجهد والمهارة ليبدو كأنه نقلَ رُبع دولارٍ من يدٍ إلى الأخرى، وهو شيء لا يحتاج إلى مهارةٍ من أيِّ نوع لفعله حقًّا) يُهدِّئ نفسه ويُصفِّي عقله من الاضطراب والخوف.

شرعَ في خدعةٍ أخرى أشد عبثيَّة: تحويل نصف دولار إلى بنس بيدٍ واحدة، ولكن برُبعَي الدولار اللذين معه. كلتا العُملتين أُخفِيَت وأُظهِرَت بالتَّبادُل مع تقدُّم الخدعة، فبدأ بُربعٍ ظاهر ممسوك بين أُنملتَي سبَّابتيه، وقد أخفى الثَّاني أفقيًّا في فرجة إبهامه، أي على طريقة داونز، ثم رفعَ يده إلى فمه ونفخَ في العُملة وهو يُسقِط الرُّبع الظَّاهر على طرف وُسطاه ليُخفيه بالطَّريقة التَّقليديَّة، فيما أخذَت خنصره وبنصره الرُّبع المخبَّأ من وضع داونز وعرضَتاه. تأثير هذا أنه عرضَ رُبع دولارٍ في يده ورفعَها إلى فمه ونفخَ فيها، ثم خفضَها ثانيةً عارضًا الرُّبع نفسه طوال الوقت.

فعلَ هذا مرَّةً بعد مرَّةٍ بعد مرَّة.

تساءلَ إن كانوا سيَقتلُونه، وارتجفَت يده رجفةً طفيفةً، ليَسقُط أحد الرُّبعين عن أُنملته على جوخ الطَّاولة الأخضر المتَّسخ.

ثم، لأنه لم يَعُد قادرًا على أداء الخدعة، دسّ العُملتين في جيبه وأخذ دولار رأس الحرّيّة الذي أعطته له زوريا پولونوتشنايا، وأطبق عليه قبضته، وانتظر.

في الثّالثة صباحًا، حسب ساعته، عادَ العُملاء لاستجوابه. رجلان فاحما الشّعر يرتدي كلٌّ منهما بدلةً قاتمةً وينتعل حذاءً أسود لامعًا، عميلان كعُملاء المخابرات، أحدهما مربَّع الفكّ عريض الكتفيْن رائع الشّعر، يبدو أنه لعبَ كُرة القدم في المدرسة الثّانويّة، وأظفاره مقضومة على نحوٍ سيّئ، والثّاني بدأ خطُّ شعره ينحسِر، ويضع نظّارةً مستديرةً فضّيّة الإطار، وأظفاره مقلّمة. رغم أن لا شبه بينهما بالمرّة، فقد وجدَ شادو نفسه يشكُّ -على مستوى ما، محتمَل أنه خلوي- أن الرّجلين متماثلان، وقد وقفا على جانبَي الطّاولة القابلة للطّيّ يَنظُران إليه.

سألَه أحدهما: «منذ متى تعمل لحساب كارجو يا سيّدي؟».

ردَّ شادو: «لا أعرفُ ما يعنيه هذا».

- «يدعو نفسه بالأربعاء. جريمنير، أبو الكلّ. رجل عجوز. لقد شوهِدتَ معه يا سيّدي».

- «أعملُ لحسابه منذ ثلاثة أيام».

قال العميل ذو النظّارة: «لا تكذب علينا يا سيّدي».

قال شادو: «حسن، لن أكذب، لكنها ثلاثة أيام».

مدَّ العميل ذو الفكّ الحليق يده ولوى أُذن شادو بين سبّابته وإبهامه، اعتصرَها ولواها، وكان الألم شديدًا. ثم قال الرّجل بكياسة: «قلنا لك ألّا تكذب علينا يا سيّدي»، وأفلتَ أُذن شادو.

تحت سُترة كلٍّ من الرّجلين انتفاخ يشي بمسدّسه. لم يردّ شادو بالضّرب، وتظاهرَ بأنه عادَ إلى السّجن. *اقضِ مُدّتك. لا تُخبِرهم بشيءٍ لا يعرفونه بالفعل. لا تسأل أسئلة.*

قال ذو النظّارة: «هؤلاء الذين تقضي وقتك معهم أناس خطرون يا سيّدي. ستصنع في وطنك معروفًا بشهادتك ضدهم»، وابتسمَ بتعاطُفٍ لتقول ابتسامته: *أنا الشّرطي الطّيّب.*

قال شادو: «مفهوم».

أضافَ ذو الفكّ الحليق: «وإن لم تكن تُريد مساعدتنا يا سيّدي، فأنت ترى ما نفعله ونحن غير راضين»، وهوى بقبضته على بطن شادو.

فكَّر شادو أن هذا ليس تعذيبًا، بل توضيح للموقف، بمعنى: *أنا الشُّرطي السيِّئ*. تقيَّأ من الألم، وما إن استطاعَ الكلام حتى قال: «أودُّ أن أرضيكم».

- «لا نَطلُب إلَّا تعاوُنك يا سيِّدي».

شهقَ شادو قائلًا: «هل لي أن أسأل...»، (وفكَّر: *لا تسأل أسئلة*. لكنّ الأوان فاتَ، والكلمات خرجَت منه بالفعل)، «هل لي أن أسألَ مع مَن سأتعاونُ؟».

سألَه العميل حليق الفكّ: «تُريد أن تعرف اسمينا؟ مؤكَّد أنك مجنون».

ردَّ ذو النظّارة: «لا، إنه مُحق. قد يُسهِّل هذا عليه التّفاهُم معنا»، ثم نظرَ إلى شادو وابتسمَ كرجلٍ في إعلان معجون أسنان، وقال: «مرحبًا. أنا المستر ستون يا سيِّدي، وزميلي المستر وود».

عقَّب شادو: «في الحقيقة، قصدتُ الوكالة التي تعملان لحسابها. الـ CIA؟ الـFBI؟».

هزَّ ستون رأسه، وقال: «الأمور لم تَعُد بتلك السُّهولة يا سيِّدي. الظُّروف ليست بتلك البساطة».

وقال وود: «القطاع الخاص والقطاع العام، كما تعلم، تفاعُل كثير هذه الأيام».

تابعَ ستون بابتسامةٍ أخرى مبالغ فيها: «لكنني أؤكّدُ لك أننا نحن الأخيار. ألَنت جائع يا سيِّدي؟»، ووضعَ يده في أحد جيوب سُترته وأخرجَ قالبًا من شُكولاتة «سنيكرز»، أعطاه لشادو قائلًا: «هاكَ، هديَّة».

قال شادو: «شكرًا»، وحلَّ غلاف الشُّكولاتة وأكلَها.

- «أظنُّك تُريد شيئًا تشربه أيضًا. قهوة؟ بيرة؟».

- «ماء رجاءً».

ذهبَ ستون عند الباب وطرقَه، وقال شيئًا للحارس على الجانب الآخَر، الذي أومأ برأسه وعادَ بعد دقيقةٍ بكوبٍ من البوليسترين مملوء بالماء البارد.

قال وود: «الـCIA!»، وهزَّ رأسه بأسى مصطنَع مردفًا: «هؤلاء المغفَّلون. ستون، سمعتُ نُكتةً جديدةً عن الـCIA. حسن، كيف نضمن أن الـCIA لم تكن متورِّطةً في اغتيال كنيدي؟».

- «لا أدري. كيف نضمن ذلك؟».

قال وود: «لقد مات، أليس كذلك؟».

وضحكَ كلاهما.

سألَ ستون: «أتشعُر بتحسُّن يا سيِّدي؟».

- «أظنُّ».

- «هلَّا أخبرتنا إذًا عمَّا حدثَ اللَّيلة يا سيِّدي؟».

- «مارسنا بعض الأنشطة السِّياحيَّة. زُرنا المنزل فوق الصَّخرة، وخرجنا لنتناوَل وجبةً، والبقيَّة تعلمانها».

أطلقَ ستون زفيرًا ثقيلًا، وهزَّ وود رأسه كأنما خابَ أمله، وركلَ شادو في رضفته، وكان الألم ممضًا. ثم دفعَ وود قبضته ببُطءٍ في ظَهر شادو فوق كُليته، ولوى قبضته، وكانَ هذا الألم أسوأ على شادو مما في رُكبته.

فكَّر: *إنني أكبر من هذا أو ذاك حجمًا. بوسعي التَّغلُّب عليهما*. إلَّا أنهما مسلَّحان، وحتى لو استطاعَ -بوسيلةٍ ما- قتلهما أو قهرهما، فسيظلُّ حبيس زنزانةٍ معهما. (لكنه سيملك مسدَّسًا، بل سيملك مسدَّسيْن). *(لا)*.

أبقى وود يديه بعيدًا عن وجه شادو. لا علامات، لا عاهات مستديمة، فقط ضربات بالقبضتين والقدمين على جذعه ورُكبتيه. وآلمَته الضَّربات، وقبضَ شادو بشدَّةٍ على دولار الحرِّيَّة في راحة يده، وانتظرَ انتهاء الضَّرب.

وبعد وقتٍ طالَ جدًّا انتهى الضَّرب.

قال ستون: «نراك بعد ساعاتٍ قليلة يا سيِّدي. أتدري؟ وودي كرِهَ أن يضطرَّ إلى فعل هذا حقًّا. إننا رجال عقلانيُّون. كما قلتُ، نحن الأخيار. أنت في الصَّفِّ الخطأ. في تلك الأثناء، لِمَ لا تُحاوِل النَّوم قليلًا؟».

وقال وود: «خيرٌ لك أن تأخذنا على محمل الجدِّ».

- «وودي مُحق يا سيِّدي. فكِّر في الأمر».

صُفِقَ الباب وراءهما، وتساءلَ شادو إن كانوا سيُطفِئون الضَّوء، لكنهم تركوه مشتعلًا، وظلَّ متوهِّجًا في الحُجرة كعينٍ باردة. زحفَ شادو على الأرض نحو الحشيَّة الصَّفراء المصنوعة من القوم المطَّاط، واستلقى فوقها جاذبًا البطَّانيَّة الخفيفة على جسده، وأسبلَ جفنيه، وتعلَّق باللا شيء، وتعلَّق بالأحلام.

ومرَّ الوقت.

إنه في الخامسة عشرة من جديد، وأمُّه تُحتضَر، وتُحاول أن تُخبِره بشيءٍ عظيم الأهميَّة، وهو عاجز عن فهمها. تحرَّك في نومه، ونقلَه سهم من الألم من نصف نومٍ إلى نصف يقظة، والتوَت قسماته.

ارتجفَ شادو تحت البطَّانيَّة الخفيفة، وقد غطَّى عينيه بذراعه اليُسرى حاجبًا ضوء المصباح. تساءلَ إن كان الأربعاء والآخرون ما زالوا طُلقاء. إن كانوا ما زالوا أحياء، وأملَ أن يكونوا أحياء طليقين.

ظلَّ الدولار الفضِّي باردًا في يُسراه، وأحسَّ ببرودته هناك كما كانت وهو يتلقَّى الضَّربات، وتساءلَ بفتورٍ لِمَ لم يكتسب دفئًا من حرارة جسده. والآن وهو نصف نائم نصف هاذٍ، انجدلَت العُملة وفكرة السيِّدة حرِّيَّة والقمر وزوريا پولونوتشنايا معًا في شُعاعٍ منسوج من الضَّوء الفضِّي سطعَ من أعماق السَّماوات، وركبَ شادو الشُّعاع الفضِّي إلى أعلى بعيدًا عن أوجاع القلب والخوف، بعيدًا عن الألم، وأنعمَ عليه الشُّعاع بأخذه من جديدٍ إلى عالم الأحلام...

من مكانٍ بعيد ترامَت إلى مسامعه ضوضاء، لكن الوقت تأخَّر على التَّفكير فيها. إنه إلى النَّوم ينتمي الآن.

نصف فكرة: أملَ شادو أن أناسًا ليسوا قادمين لإيقاظه، لضربه أو الزَّعيق فيه. ثم إنه لاحظَ مسرورًا أنه نائم حقًّا، ولم يَعُد يَشعُر ببرد.

---

شخصٌ ما في مكانٍ ما كان يصيح طالبًا النَّجدة، في داخل حُلم شادو أو خارجه. انقلبَ على الحشيَّة الفوم المطَّاطة واجدًا بقاعًا جديدةً في جسده آلمَته إذ انقلبَ، يأمل أنه لم يصحُ تمامًا، ثم يسترخي ليجد النَّوم يستغرِقه مجدَّدًا.

كان أحدهم يهزُّ كتفه.

أرادَ أن يسألهم ألَّا يُوقِظوه، أن يَترُكوه ينام ويدعوه وشأنه، لكن ما خرجَ منه لم يَزِد على دمدمةٍ متذمِّرة.

قالت لورا: «جروي؟ يجب أن تستيقظ. استيقظ أرجوك يا حبيبي».

ومرَّت لحظة من الارتياح اللَّطيف. لقد رأى حُلمًا في منتهى الغرابة، حُلمًا بالسُّجون والأفَّاقين والآلهة الفقيرة، والآن تُوقِظه لورا لتقول له إن وقت العمل

حانَ، وقد يجد وقتًا يكفي قبل العمل لاختلاس قهوة وقُبلة، أو أكثر من قُبلة... ومدَّ يده ليلمسها.

وألفى بشرتها باردةً كالثَّلج، ولزجةً.

فتحَ شادو عينيه، وسألها: «من أين أتى كلُّ هذا الدَّم؟».

قالت: «من أناسٍ آخَرين. ليس دمي. إنني مملوءة بالفُرمالدهايد المخلوط بالجلسرين واللانولين».

- «أيُّ أناسٍ آخَرين؟».

- «الحرس. لا بأس. لقد قتلتهم. الأفضل أن تتحرَّك. لا أظنُّني تركتُ لأيِّهم فُرصة دقِّ جرس الإنذار. خُذ معطفًا من الخارج وإلَّا تجمَّدت».

- «قتلتِهم؟».

ابتسمَت ابتسامةً نصفيَّةً ملخومةً، وقد بدَت يداها كأنها كانت ترسم بأصابعها، تُشكِّل صورةً منفَّذةً بدرجات القرمزيِّ لا غير. ثمَّة لُطخ وبُقع على وجهها وثيابها (البدلة الزَّرقاء نفسها التي دُفِنَت بها) جعلَت شادو يُفكِّر في جاكسن پولوك ولوحاته التَّجريديَّة، لأن التَّفكير في جاكسن پولوك أقل إشكالًا من قبول البديل.

أخبرَته لورا: «قتلُ النَّاس أسهل وأنت نفسك ميت. أعني أنه ليس شيئًا ذا أهميَّة، لأنك لم تَعُد متحيِّزًا».

قال شادو: «ما زالَ شيئًا ذا أهميَّة عندي».

- «هل تُريد البقاء هنا حتى يصل الطَّاقم الصَّباحي؟ يُمكنك أن تبقى إن شئت. ظننتك ستُريد الخروج من هنا».

قال بغباء: «سيحسبونني فعلتُ هذا».

- «ربما. ارتدِ معطفًا يا حبيبي، ستتجمَّد».

خرجَ إلى الرُّواق الذي تقع في طرفه حُجرة حراسة، وفي حُجرة الحراسة أربعة رجالٍ موتى: ثلاثة حُرَّاسٍ والرَّجل الذي دعا نفسه بستون. لا أثر لصديقه في أيِّ مكان، وكما تدلُّ آثار الانزلاق ذات اللَّون الدَّموي على الأرض، فقد جُرَّ اثنان من الحُرَّاس إلى داخل الحُجرة وأُلقِيا على الأرض.

وجدَ شادو معطفه معلّقًا على المشجب، ومحفظته في جيبه ولم يمسَّها أحد على ما يبدو، فيما فتحَت لورا بعض العُلب الكرتون الملآنة بقوالب الحلوى.

الآن إذ يراهم بدقّة، يرتدي الحُرَّاس زيَّ تمويه قاتمًا موحَّدًا، ولكنْ بلا علاماتٍ رسميَّة مميِّزة، لا شيء ينمُّ عن جهة عملهم. يبدون كمَن يذهبون لصيد البطِّ كلَّ نهاية أسبوع، وقد ارتدوا الثِّياب المناسبة.

مدَّت لورا يدها الباردة واعتصرَت يد شادو. كانت تُعلِّق العُملة الذَّهب التي أعطاها له في سلسلةٍ ذهبيَّة حول عُنقها.

قال: «شكلها لطيف».

ابتسمَت ابتسامتها الجميلة قائلةً: «شكرًا».

سألَها: «وماذا عن الآخَرين؟ الأربعاء والبقيَّة؟ أين هُم؟».

ناولَته لورا حفنةً من الحلوى ملأ بها جيوبه، وأجابَت: «لم يكن أحد آخَر هنا. زنازين فارغة كثيرة، وأنت في واحدة. أوه، وأحد الرِّجال ذهبَ إلى تلك الزِّنزانة هناك بمجلَّة ليستمني. يا للصَّدمة التي أصابَته!».

- «قتلتِه وهو يستمني؟».

هزَّت كتفيها، وقالت بضيق: «كنتُ قلقةً أنهم يُؤذونك. يجب أن يرعاك أحدهم، وأنا قلتُ لك إنني سأفعلُ، أليس كذلك؟ هاكَ، خُذ هذه». أعطَته مدفِّئاتٍ كيماويَّةً لليدين والقدمين، حشايا رفيعة تكسر ختمها فتَسخُن حتى تتجاوَز درجة حرارة الجسد بقليل، وتبقى هكذا لساعات.

دسَّها شادو في جيبه، وقال: «ترعينني. نعم، قلتِ هذا».

مدَّت إصبعها تتحسَّس فوق حاجبه الأيسر قائلةً: «أنت جريح».

- «أنا بخير».

دفعَ شادو بابًا معدنيًّا في الحائط، فانفتحَ ببُطءٍ كاشفًا عن مسقطٍ إلى الأرض يرتفع أربعة أقدام. قفزَ شادو وحطَّ على ما شعرَ أنه حصى، ثم حملَ لورا من خصرها وأنزلَها كما تعوَّد، بتلقائيَّةٍ ودون تفكير...

ظهرَ القمر من وراء سحابةٍ كثيفة. كان منخفضًا في الأفق، يُشارِف على الغياب، لكن الضَّوء الذي يُلقيه على الثُّلوج يكفي للرُّؤية.

خرجا مما اتُضح أنه عربة معدنيّة مطليّة بالأسود من قطار بضائع طويل مركون أو مهجور في تحويلةٍ بمنطقةٍ غابيّة، تمتدُّ سلسلة عرباته على مدى البصر لتختفي بين الأشجار. بالطّبع كان على متن قطار. كان حريًّا به أن يعلم.

سألَ زوجته الميتة: «كيف عثرتِ عليَّ هنا بحقِّ الجحيم؟».

هزّت رأسها ببُطءٍ وقد لاحَ عليها الاستمتاع، وأخبرَته: «إنك ساطع كمنارةٍ في عالمٍ مظلم»، ثم قالت: «لم يكن الأمر بتلك الصُّعوبة. والآن عليك أن تذهب. اذهب فحسب، اذهب إلى أبعد مكانٍ ممكن بأقصى سرعة. لا تستخدم بطاقاتك الائتمانيّة وستكون بخير».

- «أين أذهبُ؟».

دسَّت يدها بين خُصلات شعرها المتلبِّد مزيحةً إياه عن عينيها، وأخبرَته: «الطَّريق من هنا. افعل ما تقدر عليه. اسرق سيّارةً إن لزمَ الأمر. اذهب جنوبًا».

قال: «لورا»، ثم تردَّد قبل أن يُواصِل: «هل تعرفين ماذا يجري؟ هل تعرفين مَن هؤلاء النّاس؟ مَن قتلتِ؟».

أجابَت: «أجل، أظنُّني أعرفُ».

قال شادو: «أنا مدين لكِ. لولاكِ لكنت حبيسًا حتى الآن. لا أظنُّهم كانوا ينتوون لي خيرًا».

- «نعم، لا أظنُّ ذلك».

سارا مبتعدَيْن عن عربات القطار الخالية. تساءلَ شادو بشأن القطارات الأخرى التي رآها، عرباتٍ سوداء معدنيّة مصمتة تمتدُّ ميلًا بعد ميلٍ وتُبوِّق في طريقها الموحش مخترقةً اللّيل. انغلقَت أصابعه حول دولار الحرِّيَّة في جيبه، وتذكَّر زوريا پولونوتشنايا والطّريقة التي رمقَته بها في ضوء القمر. *هل سألتها عمّا تُريده؟ سؤال الموتى أبلغ الأشياء حكمةً. أحيانًا يُجيبونك.*

وسألَها: «لورا... ماذا تُريدين؟».

- «أتُريد أن تعرف حقًّا؟».

- «نعم، أرجوكِ».

رفعَت إليه لورا عينيْن زرقاويْن ميتتيْن، وأجابَت: «أريدُ أن أعود حيَّةً. لا أريدُ هذه الحياة المنقوصة. أريدُ أن أكون حيَّةً بحق، أريدُ أن أحسَّ بقلبي

يدقُّ في صدري من جديد، أريدُ أن أحسّ بالدّم يجري في داخلي حارًا ومالحًا وحقيقيًا. غريبٌ هذا. لست تحسب أنك تستطيع الإحساس به، بالدّم، ولكن صدّقني، عندما يكفُ عن السّريان ستعرف»، وفركت عينيها ملوّثة وجهها بالأحمر الذي يُلطّخ يديها، وأكملَت: «اسمع، لا أدري لِمَ حدث لي هذا. لكنه وضع صعب. أتعرف لِمَ يَخرُج الموتى ليلًا فقط يا جروي؟ لأن تقليد الأحياء أسهل في الظّلام، وأنا لا أريدُ أن أقلّد، بل أريدُ أن أكون حيّة».

- «لا أفهمُ ما تُريدينني أن أفعله».

- «لبِّ رغبتي يا حبيبي. ستجد وسيلةً، أعلمُ هذا».

قال: «حسن، سأحاولُ. وإذا وجدتُ وسيلةً فكيف أعثرُ عليكِ؟».

على أنها رحلَت، ولم يتبقَّ في الغابة إلّا لون رمادي خفيف في السّماء يدلُّه على جهة الشّرق، وعويل موحش تحمله ريح ديسمبر القارسة، قد يكون صياح طائرٍ من البارحة أو نداء أوّل طيور الفجر.

ويمّم شادو وجهه شطر الجنوب، وبدأ يمشي.



# الفصل السَّابع

*لمّا كان «الخلود» عند آلهة الهندوس مدلولًا دقيقًا للغاية -لأنهم يُولَدون ويموتون- فإنهم يختبرون أكثر المعضلات الإنسانيَّة الكُبرى، وغالبًا لا يبدون مختلفين عن الفانين إلَّا في تفاصيل تافهة... وعن الشَّياطين في تفاصيل أتفه. وعلى الرغم من ذلك يعتبرهم الهندوس فئةً من الكائنات يقول تعريفها ذاته إنها تختلف عن أيّ فئةٍ أخرى، فهُم رموز على نحوٍ ليس لإنسانٍ أن يكونه أبدًا، مهما اتَّخذت قصَّة حياته «نمطًا أوَّليًا». إنهم ممثِّلون يلعبون أدوارًا نعدُّها نحن فقط حقيقيَّةً، الأقنعة التي نرى وراءها وجوهنا.*

- وِندي دونيجر أوفلرتي، المقدّمة، **الأساطير الهندوسيَّة** (پنجوين بوكس، 1975)

قضى شادو ساعاتٍ كثيرةً مشيًا نحو الجنوب، أو ما يأمل أنه الجنوب على وجه التَّقريب، يَسلُك طريقًا ضيِّقًا بلا معالم يشقُّ غابةً قدَّر أنها في منطقةٍ ما بجنوبي ويسكونسن. في مرحلةٍ ما أتَت عدَّة سيَّارات جيپ في اتِّجاهه بأضواء وهَّاجة، فابتعدَ عن الطَّريق وغطسَ بين الأشجار وانتظرَ حتى مرَّت. كان ضباب الصَّباح الباكر مرتفعًا حتى الخصر، والسيَّارات سوداء.

وبعد ثلاثين دقيقةً، حين سمعَ ضوضاء مروحيَّاتٍ بعيدة آتية من الغرب، اندفعَ حائدًا عن درب الأخشاب متوغِّلًا في الغابة. حلَّقت بالأعلى مروحيَّتان، واختبأ شادو جالسًا القرفصاء في فراغٍ تحت شجرةٍ ساقطة، وأصغى إليهما تمرَّان، وإذ تجاوزتاه نظرَ إلى الخارجِ وإلى أعلى مختلسًا لمحةً سريعةً من سماء الشِّتاء الرَّماديَّة، وأرضاه أن يلحظ أن المروحيَّتَيْن مطليَّتان بالأسود الباهت. انتظرَ تحت الشَّجرة حتى اختفى صوت المروحيَّتَيْن تمامًا.

لم يتعدَّ الثَّلج تحت الشَّجر طبقةً خفيفةً من الغُبار الأبيض انسحقَت تحت قدميه، وقد شعرَ شادو بامتنانٍ بالغ لوجود مدفِّئات اليدين والقدمين، التي حفظَت أطرافه من التَّجمُّد. أمَّا عدا ذلك فهو مخدَّر، مخدَّر القلب ومخدَّر العقل ومخدَّر الرُّوح، وقد أدركَ أن الخدر متغلغِل في أعماقه، وفي ماضيه.

سألَ نفسه: *ماذا أريدُ إذًا؟* ولم يستطِع الإجابة، فواصلَ المشي، خُطوةً بعد خُطوة، يتقدَّم ويتقدَّم عبر الغابة. بدَا بعض الأشجار مألوفًا، وبعض المناظر الطَّبيعيَّة لحظاتِ ديجا-ڤو مثاليَّةً. أممكنٌ أنه يمشي في دوائر؟ قد يمشي ويمشي ويمشي إلى أن تَبرُد المدفِّئات وتنفد الحلوى، وحينئذٍ سيجلس ولا يقوم بعدها أبدًا.

وصلَ عند جدولٍ كبير من النَّوع الذي يُسمِّيه السُّكَّان المحليُّون «كريك» وينطقونه «كِرِك»،[xlvii] وقرَّر أن يتبع مجراه. الجداول تقود إلى أنهار، والأنهار جميعها تقود إلى المسيسبي، وإذا واصلَ المشي أو سرقَ قاربًا أو بنى طوفًا، ففي النِّهاية سيَبلُغ نيو أورلينز حيث الأجواء الدَّافئة، وهي الفكرة التي بدَت له مريحةً ومستبعَدةً في آنٍ واحد.

لم يمرَّ المزيد من المروحيَّات، وخامرَه شعورٌ بأن الاثنتين اللتين مرَّتا من قبل كانتا لتنظيف الفوضى في تحويلة قطار البضائع، وليس لمطاردته، وإلَّا لعادَتا، ولكانت الكلاب تقتفي أثره، وصفافير الإنذار تُدوِّي، وما إلى ذلك من لوازم المطاردة، ولكن بدلًا من كلِّ ذلك لا شيء.

ما الذي يُريده هو؟ ألَّا يُقبَض عليه، ألَّا يُلام على موت الرِّجال على متن القطار. سمعَ نفسه يقول: «لم أفعلها. زوجتي الميتة فعلَتها»، وبسهولةٍ تخيَّل التَّعبيرات على وجوه رجال القانون. بعد ذلك سيتجادَل النَّاس حول جنونه من عدمه فيما يُعدَم هو على الكُرسي الكهربائي...

تساءلَ إن كانت ويسكونسن تُطبِّق عقوبة الإعدام، وتساءلَ إن كان ذلك يهمُّ. يُريد شادو أن يفهم ما يجري... ويعرف علامَ سينتهي. وأخيرًا، بابتسامةٍ

نصف محزونة، أدرك أن ما يُريده فوق أيّ شيءٍ آخر أن ترجع الأحوال طبيعيَّةً، فلا يَدخُل السِّجن، وتبقى لورا حيَّةً، ولا يحدُث شيءٌ من كلِّ هذا.

قال لنفسه مفكِّرًا بصوت الأربعاء الغليظ: «*يؤسفني أن ذلك ليس خيارًا يا ولدي*»، وأومأ برأسه مؤيِّدًا. *ليس خيارًا. لقد أحرقت جسورك. واصل المشي إذًا، اقضِ مُدّتك*...

سمعَ نقَّار خشبٍ بعيدًا يَنقُر جذع شجرةٍ متعفِّن.

انتبهَ شادو لوجود أعيُن تُراقِبه، ورأى مجموعةً صغيرةً من طيور الكاردينال الأحمر تُحدِّق إليه من شُجيرة خَمان رفيعة، ثم عادت بمناقيرها إلى عناقيد التُّوت الأسود، وقد بدى منظرها كالرُّسوم في رُزنامة «طيور أمريكا الشَّماليَّة المغرِّدة». سمعَ صياح الطُّيور الرَّاعش ولغوها ونعيقها في أعقابه إذ تحرَّك على ضفَّة الجدول، وفي النِّهاية خبَت الأصوات.

كانَ الظَّبي الصَّغير النَّافق ممدَّدًا في فسحةٍ عُشبيَّة في ظلِّ ربوة، وطائر أسود بحجم كلبٍ صغير يغرس منقارًا شرِّيرًا كبيرًا في جانبه، يُمزِّق وينتزع كُتلًا من اللَّحم الأحمر من الجثَّة. زالَت العينان، لكن رأسه لم يُمَسّ، وعلى كفله رُقط الشَّوادن البيضاء واضحة. تساءلَ شادو كيف نفقَ.

حنى الطَّائر الأسود رأسه جانبًا، ثم قال بصوتٍ كحجريْن يُقدَحان معًا: «أنت رجل الظِّل».

قال شادو: «أنا شادو»، فنطَّ الطَّائر فوق كفل الشَّادن ورفعَ رأسه ونفشَ ريش تاجه وعُنقه. ضخم الحجم هو، وعيناه خرزتان سوداوان. في وجود طائرٍ بهذا الحجم من هذا القُرب ما يبثُّ الرَّهبة في النَّفس.

قال الغُداف: «يقول إنه سيراك في القا-هرة»، وتساءلَ شادو أيُّ غُدافَي أودِن هذا: هوجِن أم مونِن؟ الذَّاكرة أم الفِكر؟

- «القا-هرة؟».

- «في مصر».

- «وكيف أذهبُ إلى مصر؟».

- «اتبع المسيسبي. امشِ جنوبًا. اعثُر على ابن آوى».

قال شادو: «اسمع، لا أريدُ أن أبدو كأني... بحقِّ المسيح! اسمع...»، ولاذَ بالصَّمت، واستجمعَ أعصابه. إنه بردان، وواقف في غابةٍ يُتكلِّم مع طائرٍ أسود

كبير يتغذّى حاليًا على جثة بامبي. «حسن، ما أحاولُ أن أقوله إنني لا أريدُ ألغازًا».

ردّد الطّائر مؤيّدًا من باب المساعدة: «ألغازًا».

- «ما أريده هو الإيضاح. ابن آوى في القا-هرة. ذلك لا يُساعدني بأيّ شكل. إنها مقولة من رواية جاسوسيّة سيّئة».

- «ابن آوى. صديق. تُك. القا-هرة».

- «هكذا قلتَ. أودُّ معرفة معلوماتٍ أكثر».

دارَ الطّائر نصف دورةٍ وانتزعَ قطعةً داميةً أخرى من لحم الأيائل النيّئ من ضلوع الشّادن. ثم طارَ بين الأشجار وقطعة اللّحم الحمراء تتدلّى من منقاره كدودةٍ طويلة دامية.

نادى شادو: «مهلًا! ألا يُمكنك أن تدلّني على طريقٍ حقيقي على الأقل؟».

حلّقَ الغُداف مبتعدًا، ورمقَ شادو جثّة الظّبي الصّغير. قرّر أنه لو كان رجل غاباتٍ حقيقيًا لقطعَ لنفسه شريحة ستيك وشواها فوق نار الحطب، وبدلًا من ذلك جلسَ على شجرةٍ ساقطة وأكلَ قالب «سنيكرز» عالمًا أنه قطعًا ليس رجل غاباتٍ حقيقيًا.

نعبَ الغُداف من عند حافة الفسحة.

سألَه شادو: «أتريدني أن أتبعك؟ أم إن تيمي سقطَ في البئر ثانيةً؟».[1] مرّةً أخرى نعبَ الغُداف بصبرٍ نافد، وبدأ شادو يمشي نحوه، وانتظرَ الطّائر حتى اقتربَ ثم نطّ بثقلٍ فوق شجرةٍ أخرى، متّجهًا إلى اليسار قليلًا من الاتّجاه الذي كان شادو يَسلُكه.

- «أنت، هوجِن أو مونِن أو أيًّا كنت».

التفتَ الطّائر مميلًا رأسه بريبةٍ إلى الجانب، وحدّقَ إليه بعينين لامعتين.

قال شادو: «قُل: ليس بعد اليوم أبدًا».[2]

---

(1) مقولة شهيرة من مسلسل «لاسي» (1954)، حيث كان نباح الكلبة يعني دومًا وقوع أحدهم في مشكلة. تيمي هو صاحب الكلبة لاسي الصّغير. (المُترجم).

(2) يقتبس شادو هنا من قصيدة «الغُداف» لإدجار آلان پو. (المُترجم).

ردَّ الغُداف: «اذهب إلى الجحيم»، ولم يقل شيئًا آخر إذ مضيا معًا عبر الغابة، الغُداف في المقدِّمة يطير من شجرةٍ إلى شجرة، والرَّجل يدوس بخُطواتٍ ثقيلة بين الشُّجيرات التَّحتيَّة محاولًا اللَّحاق به.

كانت السَّماء مصبوغةً بلونٍ رمادي منتظم، والنَّهار على وشك الانتصاف.

بعد نصف ساعةٍ بلغا طريقًا أسفلت على حافة بلدة، وطارَ الغُداف عائدًا إلى الغابة. لاحظَ شادو لافتةً لمطعم «كُلفر» تُعلِن عن وجبة برجر بالزُّبدة وكسترد مجمَّد، وإلى جوارها محطَّة وقود. دخلَ «كُلفر» الخالي من الزَّبائن، حيث يقف شابٌّ صارم حليق الرَّأس وراء ماكينة الكاشير، وطلبَ اثنين برجر بالزُّبدة وبطاطس محمَّرة، ثم دخلَ دورة المياه ليُنظِّف نفسه. كم يبدو مزريًا. أجرى جردًا لمحتويات جيوبه: بضع عُملاتٍ تتضمَّن دولار الحرِّيَّة الفضِّي، وفُرشة ومعجون أسنان، وثلاثة قوالب «سنيكرز»، وخمسة مدفِّئات كيماويَّة، ومحفظة (تحتوي فقط على رُخصة القيادة، وبطاقةٍ ائتمانيَّة يتساءَل كم تبقَّى من عُمرها)، وفي جيب معطفه الدَّاخلي ألف دولار من الخمسينات والعشرينات، نصيبه من عمليَّة سرقة البنك أمس. غسلَ وجهه ويديه بالماء السَّاخن، وسوَّى شعره الفاحم، ثم رجعَ إلى المطعم وأكلَ البرجر والبطاطس، وشربَ قهوةً.

ذهبَ إلى الكاشير ثانيةً، وسأله الشَّاب الصَّارم: «هل تُريد كسترد مجمَّدًا؟».

- «لا، لا، شكرًا. أهناك مكانٌ في الجوار يُمكنني أن أستأجر منه سيَّارةً؟ سيَّارتي تعطَّلت قبل مسافةٍ طويلة على الطَّريق».

حكَّ الشَّاب جُذامة رأسه قائلًا: «ليس في هذه الأنحاء أيها السيِّد. إذا تعطَّلت سيَّارتك فيُمكنك الاتِّصال باتِّحاد السيَّارات، أو تُكلِّمهم في محطَّة الوقود بجوارنا ليَقطُروها».

قال شادو: «فكرة سديدة. شكرًا».

سارَ على الثَّلج الذَّائب من موقف «كُلفر» إلى محطَّة الوقود، حيث اشترى حلوى وأصابع لحم بقري مجفَّف والمزيد من المدفِّئات الكيماويَّة.

خلف الكاشير تقف امرأة ممتلئة للغاية تضع عُوينات، وقد أبهجَها أن تجد أحدًا تُجاذِبه أطراف الحديث. سألَها شادو: «هل يُمكنني استئجار سيَّارة من أيِّ مكانٍ قريب؟».

- «دعني أفكِّر. إننا في منطقةٍ نائية نوعًا. يفعلون مثل هذه الأشياء هناك في ماديسن. ما وجهتك؟».

أجابها: «القا-هرة، أينما تقع».

قالت: «أعرفُ مكانها. ناولني هذه الخريطة من فوق الرَّفِّ هناك»، فناولَها شادو خريطةً مغلَّفةً بالبلاستيك لإلينوي، وبسطَتها المرأة وأشارَت بظفرٍ إلى قاع الولاية قائلةً: «ها هي ذي».

- «القاهرة؟».

- «هكذا ينطقون اسم التي في مصر، أمَّا التي في مصر الصُّغيرة فينطقونها القا-هرة. لديهم طيبة هناك أيضًا، وشتَّى المعالم. أخت زوجي من طيبة. لمَّا سألتها عن التي في مصر نظرَت إليَّ كأنما أصابَتني لوثة». قالتها المرأة وأطلقَت ضحكةً مجلجلةً خشنةً.

- «ألديهم أهرامات؟». تبعُد المدينة خمسمئة ميل، في اتِّجاه الجنوب مباشرةً تقريبًا.

- «إن كان لديهم فلا أحد أخبرَني. يُسمُّونها مصر الصُّغيرة[xlviii] لأن قديمًا قبل، أوه، حوالي مئة وخمسين عامًا، حلَّت بتلك الأنحاء كلِّها مجاعة. ضعفَت المحاصيل، لكنها لم تَضعُف عندهم، وذهبَ الجميع إلى هناك لشراء الطَّعام. كما في الإنجيل. «يوسف ومعطف الأحلام التكنيكَلَر».[1] إلى مصر نذهب. بادابوم!».

سألَها شادو: «لو أنكِ في مكاني إذًا وأردتِ الذَّهاب إلى هناك، فكيف تذهبين؟».

- «بالسيَّارة».

- «سيَّارتي تعطَّلت قبل بضعة أميال على الطَّريق. كانت قطعةً من الخراء، وعُذرًا لبذاءة اللَّفظ».

قالت: «قاف-خاءات، نعم. هكذا يدعوها أخو زوجي. إنه يشتري السيَّارات ويبيعها على نطاقٍ محدود. تجده يتَّصل بي ويقول: *ماتي، لقد بعتُ قاف-خاء أخرى لتوِّي. بُص، قد يهتمُّ بسيَّارتك القديمة*، على سبيل الخُردة أو ما شابه».

(1) مسرحيَّة غنائيَّة مبنيَّة على قصَّة النَّبي يوسف في سِفر التَّكوين. (المُترجم).

- «إنها ملك ربِّ عملي». قالها شادو مفاجئًا نفسه بطلاقة أكاذيبه وسلاستها. «عليَّ أن أتَّصل به ليأتي ويأخذها». ثم خطرت له فكرة، فقال: «أخو زوجكِ، أهو في الجوار؟».

- «في مسكودا، عشر دقائق جنوبًا من هنا، بعد النّهر مباشرةً. لماذا؟».

- «هل لديه قاف-خاء يبيعني إياها مقابل، ممم، خمسمئة أو ستمئة دولار؟».

ابتسمَت بعذوبةٍ قائلةً: «أيها السيِّد، لا تُوجَد سيَّارة في تلك السَّاحة الخلفيَّة لا يُمكنك شراؤها بخزَّان وقودٍ مملوء مقابل خمسمئة دولار. ولكن لا تُخبِره بأني قلتُ هذا».

- «هلَّا اتَّصلتِ به؟».

قالت: «سبقتك»، ورفعَت سمَّاعة الهاتف. «عزيزي؟ أنا ماتي. تعالَ حالًا. عندي رجل يُريد شراء سيَّارة».



قطعة الخراء التي اختارَها كانت «شڤي نوڤا» طراز 1983، وقد اشتراها بخزَّان وقودٍ مملوء مقابل أربعمئة وخمسين دولارًا. سجَّل عدَّاد السيَّارة قُرابة الرُّبع مليون ميل، وتفوح في داخلها رائحة بربن وتبغ خفيفة، ورائحة أقوى لشيءٍ ذكَّر شادو بالموز. تحت ما يكسوها من أوساخٍ وثلجٍ لم يستطِع تمييز لونها، ومع ذلك، من بين العربات في ساحة أخي زوج ماتي الخلفيَّة كلِّها، بدَت الوحيدة القادرة على احتمال رحلة الخمسمئة ميل.

تمَّ الاتِّفاق نقدًا، ولم يسأل أخو زوج ماتي عن اسم شادو أو رقم ضمانه الاجتماعي أو أيِّ شيءٍ باستثناء النّقود.

تحرَّك شادو غربًا، ثم جنوبًا بعيدًا عن طريق الولايات، وفي جيبه خمسمئة وخمسون دولارًا. تضمُّ قطعة الخراء راديو، لكن شيئًا لم يَحدُث عندما شغَّله. قالت لافتة إنه غادرَ ويسكونسن والآن في إلينوي، ومرَّ بأشغال تعدين سطحي، حيث تشتعل مصابيح قوسيَّة زرقاء ضخمة في عتمة نهار منتصف الشِّتاء.

توقَّف ليتناوَل الغداء في مكانٍ اسمه «ماما». لحقَ بهم قُبيل الإغلاق خلال فترة بعد الظُّهر، ووجدَ الطَّعام معقولًا.

لكلِّ بلدةٍ مرَّ منها لافتة إضافيَّة تُجاوِر اللَّافتة التي تقول له إنه يَدخُل الآن **بلدتنا** (تعداد السُّكَّان: 720). هذه اللَّافتة الإضافيَّة تُعلِن أن فريق البلدة تحت

14 سنة حصلَ على المركز الرَّابع في بطولة العدو مئة ياردة المشتركة بين الولايات، وتلك تقول إن البلدة موطن فريق الفتيات تحت 16 سنة المتأهِّل لنصف النِّهائي ببطولة إلينوي للمصارعة.

واصلَ القيادة برأسٍ يتمايَل نُعاسًا، شاعرًا بالمزيد من الإنهاك والإرهاق مع كلِّ دقيقةٍ تمرُّ. كسرَ إشارةً حمراء، وكادَت امرأةٌ تقود سيَّارةَ «دودج» تصدمه من الجانب. وبمجرَّد أن خرجَ إلى الرِّيف المفتوح انعطفَ بالسيَّارة إلى مسارِ جرَّاراتٍ زراعيَّة خالٍ على جانب الطَّريق، وركنَها في حقلٍ مجزوز مرقَّط بالثَّلج، يمشي فيه موكبٍ بطيء من الدُّيوك الرُّومي البرِّيَّة السَّوداء السَّمينة كطابور من مشيِّعي الجنازات. أطفأ شادو المحرِّك، وتمدَّد على الأريكة الخلفيَّة، وراحَ في النَّوم.

ظلام، وإحساس بالسُّقوط... كأنه، مثل آلس، يهوي في جُحرٍ عظيم. سقطَ مئة عامٍ في الظُّلمة، ومرَّت به وجوه تَخرُج طافيةً من السَّواد، ثم مُزِّقَ كلُّ وجهٍ واختُطِفَ قبل أن يلمسه...

وعلى حين غرَّة، بلا مرحلة انتقال، لم يَعُد يَسقُط، والآن يقف في كهفٍ ولم يَعُد وحيدًا. حدَّق شادو إلى عينين مألوفتين، عينين سوداوين سائلتين ضخمتين ترفُّ جفونهما.

تحت الأرض، أجل. يَذكُر هذا المكان، ورائحة البقر المبتلِّ المنفِّرة. تذبذبَ ضوء النَّار على جُدرانِ الكهف الرَّطبة منيرًا رأس الجاموس وبدن الإنسان وبشرةً بلون طُفال الطُّوب.

قال شادو: «ألا يُمكنكم تركي وشأني؟ أريدُ أن أنام فحسب».

أومأ الرَّجل الجاموس برأسه بتؤدة، ولم تتحرَّك شفتاه، لكن صوتًا في عقل شادو قال: «إلى أين تذهب يا شادو؟».

- «القاهرة».

- «لماذا؟».

- «وأين أذهبُ؟ الأربعاء يُريدني أن أذهب إلى هناك. لقد شربتُ بِتعه».

في حُلم شادو، مدعومًا بسُلطة منطق الأحلام، بدا الالتزام غير قابلٍ للنِّقاش. لقد شربَ بِتع الأربعاء ثلاث مرَّاتٍ وأبرمَ الميثاق، فأيُّ خيارٍ لديه في التَّصرُّف؟

مدَّ الرَّجل ذو رأس الجاموس يده في النَّار محرِّكًا الجمر والفروع المكسورة ليُذكيها، وقال: «العاصفة قادمة». الآن تتسخ يده بالرَّماد، فمسحَها على صدره الأجرد مخلِّفًا خطوط سناجٍ سوداء.

- «هكذا تُخبرونني جميعًا. أيُمكنني أن أسألك سؤالًا؟».

رانَ الصَّمت. حطَّت ذُبابة على الجبهة المشعرة، فذبَّها الرَّجل الجاموس قائلًا: «سَل».

- «أكلُّ هذا حقيقي؟ أولئك النَّاس، أهُم آلهة حقًّا؟ الأمر كلُّه يبدو...». صمت لحظةً، ثم أكملَ: «مستبعَدًا»، وهي الكلمة التي لم يقصدها بالضَّبط، وإن بدَت أفضل خيارٍ لديه.

سألَ الرَّجل الجاموس: «وما الآلهة؟».

قال شادو: «لا أعرفُ».

صدرَت طقطقة خافتة متواصلة، وانتظرَ شادو أن يستأنف الرَّجل الجاموس الكلام، أن يُفسِّر كنه الآلهة، يُفسِّر الكابوس المتشابك الذي صارَته حياته. كان يحسُّ بالبرد، والنَّار لم تَعُد مشتعلةً.

طَق. طَق. طَق.

فتحَ شادو عينيه، واعتدلَ جالسًا شاعرًا بدوخة. كان يتجمَّد بردًا، والسَّماء خارج السيَّارة ملوَّنةٌ بالأرجواني العميق المنير الذي يُبيِّن الغسق من اللَّيل.

طَق. طَق. قال أحدهم: «يا سيِّد»، والتفتَ شادو برأسه ليرى هذا الأحدهم واقفًا بجوار السيَّارة، لا يبدو أكثر من جسمٍ مظلم تحت السَّماء الزَّاحف عليها الظَّلام. مدَّ شادو يده وأنزلَ النَّافذة بضعِ بوصات، وأصدرَ عدَّة أصوات استيقاظ، ثم قال: «أهلًا».

- «أأنت بخير؟ أأنت مريض؟ هل كنت تشرب؟». الصَّوت رفيع، صوت امرأةٍ أو صبي.

أجابَ شادو: «أنا بخير. مهلًا»، وفتحَ الباب وخرجَ باسطًا أطرافه المتوجِّعة وعُنقه، ثم فركَ يديه معًا ليدوِّر فيهما الدَّم ويُدفِّئهما.

- «ووه! حجمك كبير حقًّا».

- «هكذا يقولون لي. مَن أنت؟».

قال الصَّوت: «أنا سام».

- «سام صبي أم سام صبيّة؟».
- «سام صبيّة. من قبل كنتُ سامي بحرف i، واعتدتُ أن أرسم وجهًا مبتسمًا فوقها، لكنني سئمتُ الاسم تمامًا لأن الجميع بلا استثناء كانوا يفعلون ذلك، فتوقّفتُ».
- «طيّب يا سام الصّبيّة. اذهبي هناك وانظري نحو الطّريق».
- «لماذا؟ أأنت سفّاح أو شيء من هذا القبيل؟».
- «لا. أريدُ أن أتبوّل، وأودُّ أن أحظى بأقل القليل من الخصوصيّة».
- «أوه، نعم، تمام، مفهوم، لا مشكلة. إنني معك. أنا لا يُمكنني أن أتبوّل أصلًا إذا كان أحد في الحمّام المجاور. عندي متلازمة مثانة خجول قويّة».
- «الآن من فضلكِ».
ذهبَت عند جانب السيّارة البعيد، ودنا شادو بضع خُطواتٍ من الحقل، وأنزلَ سحّاب بنطاله الجينز وتبوّل على عمود سورٍ وقتًا طالَ جدًّا، ثم عادَ عند السيّارة. كان آخِر الغسق قد أمسى ليلًا.
سألَ: «أما زلتِ هنا؟».
- «نعم. لا بُدّ أن مثانتك بحجم بُحيرة إري. أظنُّ أن في الوقت الذي استغرقتَه في التّبوُّل قامَت إمبراطوريّات كاملة وانهارَت. كان بإمكاني سماعك طول الوقت».
- «شكرًا. هل تُريدين شيئًا؟».
- «أردتُ أن أرى إن كنت بخير. أعني، لو كنت ميتًا أو ما شابهَ لاتّصلت بالشُّرطة. لكنني وجدتُ النّوافذ مكسوّةً بالبُخار، ففكّرتُ: إنه حي على الأرجح».
- «هل تَسكُنين في هذه الأنحاء؟».
- «لا، مسافرة بالاستركاب من ماديسن».
- «ليس هذا آمنًا».
- «أفعلها خمس مرّاتٍ في السّنة منذ ثلاث سنوات، وما زلتُ حيّة. إلى أين تتّجه؟».
- «حتى القاهرة».

قالت: «أشكرك. أنا ذاهبة إلى إل پاسو. سأسكنُ عند خالتي خلال فترة الأعياد».

- «لا يُمكنني أن آخذكِ إلى نهاية الطَّريق».

- «ليس إل پاسو التي في تكساس، الأخرى التي في إلينوي. إنها تبعُد ساعاتٍ قليلةً جنوبًا. أتعرف أين أنت الآن؟».

قال شادو: «لا، ليست لديَّ فكرة. في مكانٍ ما على الطَّريق السَّريع 52؟».

قالت سام: «البلدة التَّالية اسمها پيرو، ولكن ليست التي في پيرو، بل في إلينوي. دعني أتشمَّمك. انحنِ»، فانحنى شادو وتشمَّمت الفتاة وجهه، ثم قالت: «تمام، لا أشمُّ رائحة مسكِرات. يُمكنك أن تقود. هيَّا بنا».

- «وما الذي يجعلكِ تظنِّين أنني سأوصِّلكِ؟».

- «لأنني آنسة في ورطة، وأنت فارس في شيءٍ ما. سيَّارتك متَّسخة جدًّا. أتدري أن أحدهم كتبَ *«اغسلني!»* على النَّافذة الخلفيَّة؟».

ركبَ شادو السيَّارة وفتحَ الباب الأمامي، وفي هذه السيَّارة لم يشتعل الضَّوء الذي يشتعل عادةً عندما يُفتَح الباب الأمامي.

أجابَ: «لا، لم أكن أدري».

ركبَت إلى جواره قائلةً: «أنا فعلتُ هذا، كتبتها ولم يزَل هناك ضوء لأرى».

شغَّل شادو السيَّارة وأشعلَ الأضواء الأماميَّة وطلعَ على الطَّريق. قالت سام على سبيل المساعدة: «يسارًا»، وانعطفَ شادو يسارًا وانطلقَ، وبعد عدَّة دقائق بدأت المدفأة تعمل، وأفعمَت نعمة الدِّفء السيَّارة.

علَّقت سام: «لم تقل شيئًا بعدُ. قُل شيئًا».

سألَها شادو: «آأنتِ بشريَّة؟ إنسانة فعليَّة حيَّة تتنفَّس مولودة من رجلٍ وامرأة؟».

قالت: «بالتَّأكيد».

- «حسن. أتأكَّدُ فقط. ماذا تُريدينني أن أقول؟».

- «الآن تحديدًا، شيئًا يُطمئنني. فجأةً ينتابني إحساس *أوه تبًّا أنا في السيَّارة الخطأ* مع رجلٍ مجنون إياه».

قال: «نعم، انتابَني هذا الإحساس من قبل. وما الذي عساكِ تجدينه مُطَمْئِنًا؟».

- «قُل لي فقط إنك لست سجينًا هاربًا أو قاتلًا جماعيًّا أو ما شابه».

فكَّر لحظةً، ثم قال: «أتدرين؟ لستُ أيًا من هذه الأشياء حقًّا».

- «أكان يجب أن تُفكِّر قبل أن تُجيب؟».

- «لقد قضيتُ عقوبتي، ولم أقتل أحدًا».

- «أوه».

دخلا بلدةً صغيرةً تُنيرها أضواء الشَّوارع ووميض زينة الكريسماس، واختلسَ شادو نظرةً إلى يمينه. للفتاة شعر فاحم قصير متشابك، ووجه جذَّاب قرَّر شادو أن له طابعًا رجوليًّا خافتًا أيضًا، فملامحها تبدو كأنما نُحِتَت في الصَّخر.

كانت تَنظُر إليه، وسألَته: «لِمَ دخلت السِّجن؟».

- «آذيتُ بضعة أشخاصٍ بشدَّة، أصابَني الغضب».

- «هل استحقُّوا ذلك؟».

فكَّر شادو لحظةً قبل أن يُجيب: «هكذا حسبتُ حينها».

- «هل كنت لتفعلها ثانيةً؟».

- «لا طبعًا. لقد فقدتُ ثلاث سنواتٍ من حياتي في الدَّاخل».

- «ممم. أفيك دماء هنديَّة؟».

- «ليس على حدِّ علمي».

- «هكذا بدوتَ لا أكثر».

- «آسفٌ لأني خيَّبتُ أملكِ».

- «بسيطة. جائع؟».

أومأ شادو برأسه قائلًا: «يُمكنني أن آكل».

- «أعرفُ مكانًا جيِّدًا بعد مجموعة الأضواء التَّالية. طعام طيِّب، ورخيص أيضًا».

ركنَ شادو في الموقف ونزلا من السيَّارة. لم يُكلِّف نفسه عناء إيصادها، ولو أنه دسَّ المفاتيح في جيبه، ثم أخذَ بضع قطعٍ من العُملة ليشتري جريدةً، وسألَ الفتاة: «أيُمكنكِ دفع تكلفة الأكل هنا؟».

أجابَت رافعةً ذقنها: «نعم، يُمكنني أن أحاسب لنفسي».

أومأ برأسه، وقال: «سأخبركِ بشيء. سألاعبك على الحساب. ملك، تُحاسِبين على عَشائي، كتابة، أحاسبُ على عَشائكِ».

مرتابةً قالت: «دعني أرى العُملة أوّلًا. كان لي عمٌّ يملك رُبع دولار بوجهَي ملك».

فحصَت الرُّبع دولار حتى رضَت أن لا شيء غريبًا فيه، ثم وضعَ شادو العُملة بوجه الملك إلى أعلى على إبهامه، وغشَّ في الرَّمية بحيث تتقلقَل العُملة وتبدو كأنما تدور، ثم التقطَها وقلبَها على ظَهر يده اليُسرى، وكشفَها بيُمناه أمام الفتاة.

قالت بسعادة: «كتابة. العَشاء على حسابك».

قال: «نعم. لا أحد يكسب كلَّ مرَّة».

طلبَ شادو رغيف اللَّحم، وطلبَت سام لازانيا. تصفَّح شادو الجريدة ليرى إن كان فيها خبر عن رجالٍ موتى في قطار بضائع، غير أنه لم يجد شيئًا. الموضوع الوحيد المثير للاهتمام كان على الغلاف: أعداد قياسيَّة من الغِربان تغزو البلدة، والمزارعون المحلِّيُّون يُريدون تعليق الغِربان الميتة على المباني العامَّة في أرجاء البلدة لتُخيف الأخرى، لكن عُلماء الطُّيور يقولون إن ذلك لن يَصلُح، إن الغِربان الحيَّة ستأكل الميتة ببساطة. لم يتزحزَح أهل البلدة عن موقفهم قيدَ أُنملة، وقال متحدِّث باسمهم: «عندما ترى جُثث أصدقائها ستعرف أننا لا نُريدها هنا».

كان الطَّعام طيِّبًا، وقُدِّمَ مكوَّمًا على الأطباق يتصاعَد منه البُخار، بكمِّيَّة أكبر من أن يستطيع فرد واحد أكلها.

بفمٍ ممتلئ سألته سام: «ما الذي في القاهرة؟».

- «لا أدري. وصلَت إليَّ رسالة من ربِّ عملي تقول إنه محتاج إلى وجودي هناك».

- «وما عملك؟».

- «أنا ساعٍ».

قالت مبتسمةً: «طيِّب، مؤكَّد أنك لستَ مافيا بهذا المظهر وقطعة الخراء التي تقودها. لماذا تفوح في سيَّارتك رائحة الموز أصلًا؟».

هزَّ شادو كتفيه وواصلَ الأكل.

ضيَّقت سام عينيها قائلةً: «قد تكون مهرِّب موز. لم تسألني عن عملي حتى الآن».

- «خطرَ لي أنكِ طالبة».

- «جامعة ويسكونسن في ماديسن».

- «حيث لا شكَّ أنكِ تدرسين تاريخ الفنِّ والدِّراسات النِّسائيَّة، وعلى الأرجح تصبِّين مجسَّماتٍ من البرونز، وعلى الأرجح أيضًا تعملين في مقهى لتُغطِّي الإيجار».

وضعَت شوكتها وقد اتَّسعت طاقتا أنفها وعيناها، وقالت: «كيف عرفت ذلك بحقِّ الجحيم؟!».

- «ماذا؟ والآن ستقولين لا، في الحقيقة أدرسُ اللُّغات الرومنسيَّة وعلم الطُّيور».

- «تقول إذًا إن تخمينك أصابَ بالحظِّ أو ما شابه؟».

- «ماذا تعنين؟».

حملقَت إليه بعينين داكنتين قائلةً: «أنت رجل عجيب حقًّا يا مستر... لا أعرفُ اسمك».

- «يدعونني بشادو».

لوَت فمها بامتعاضٍ كأنها تتذوَّق شيئًا لا يُعجِبها، وكفَّت عن الكلام خافضةً رأسها، وواصلَت أكل اللازانيا.

بعد فروغ سام من الأكل سألَها شادو: «أتعرفين لِمَ يُسمُّونها مصر؟».

- «حيث القاهرة؟ نعم. إنها في دلتا الأوهايو والمسيسپي، مثل قاهرة مصر في دلتا النِّيل».

- «معقول».

أسندَت ظَهرها إلى المقعد، وطلبَت قهوةً وفطيرة شُكولاتة بالكِريمة، ثم مرَّرت يدها عبر شعرها الأسود، وقالت: «أأنت متزوِّج يا مستر شادو؟»، فلمَّا تردَّد أتبعَت: «چي! سألتُ سؤالًا شائكًا آخَر، أليس كذلك؟».

أجابَ منتقيًا كلماته بعناية: «دفنوها يوم الخميس. لقد قضَت نحبها في حادثة سيَّارة».

- «أوه، ربَّاه، بحقِّ المسيح، أنا آسفة».

- «وأنا أيضًا».

صمتٌ غير مريح، ثم: «أختي غير الشقيقة فقدت ابنها، ابن أختي، في نهاية العام الماضي. موقف قاسٍ».

- «نعم، هو كذلك. كيف مات؟».

رشفَت من قهوتها، وقالت: «لا ندري. لا ندري إن كان ميتًا حقًا حتى. لقد اختفى فحسب. لكنه كان في الثالثة عشرة لا أكثر. حدثَ هذا في منتصف الشتاء الماضي. كانت أختي منهارةً».

- «أكانت هناك أيَّة... أيَّة أدلَّة؟». وجدَ نفسه يتكلَّم كشُرطي في مسلسل تليفزيوني، فجرَّب ثانيةً: «هل ارتابوا في وقوع جريمة؟»، وكان لهذا وقع أسوأ في أُذنيه.

قالت: «ارتابوا في زوج أختي الوغد الذي لا تحقُّ له الوصاية، الوالد، الذي كان وغدًا بما فيه الكفاية لاختطاف الصَّبي. هو من فعلَها على الأرجح. لكن هذا حدثَ في بلدةٍ صغيرة في منطقة الغابات الشَّماليَّة، بلدة صغيرة جميلة حُلوة هادئة حيث لا يُوصِد أحد بابه أبدًا»، وتنهَّدت وهزَّت رأسها وأمسكت كوب القهوة بكلتا يديها، ثم رفعَت ناظريْها إلى شادو وغيَّرت الموضوع بقولها: «كيف عرفت أنني أصبُّ البرونز؟».

- «تخمين محظوظ، مجرَّد شيءٍ يُقال».

- «أأنت واثق بأن جزءًا منك ليس هنديًّا؟».

- «ليس على حدِّ علمي. جائز. لم أقابل أبي قَطُّ. أظنُّ أن أمِّي كانت لتُخبِرني لو أنه من الأمريكان الأصليِّين، ربما».

مرَّةً أخرى التواءة الفم. استسلمَت سام بعدما أكلت نصف فطيرة الشُّكولاتة والكِريمة فقط -فالشَّريحة بنصف حجم رأسها- ودفعَت الطَّبق نحو شادو سائلةً: «تُريد؟»، فابتسمَ مجيبًا: «بالتَّأكيد»، وأتى على باقي الفطيرة.

جلبَت النَّادلة الفاتورة، ودفعَ شادو الحساب.

قالت سام: «شكرًا».

بدأ الطَّقس يزداد برودةً. سعلَت السيَّارة بضع مرَّاتٍ قبل أن يعمل المحرِّك، وعادَ شادو على الطَّريق مواصلًا القيادة نحو الجنوب.

سألَها: «هل سمعتِ من قبل عن رجلٍ اسمه هيرودوت؟».

- «بحقّ المسيح! ماذا؟».

- «هيرودوت. هل قرأتِ «التّواريخ»؟».

قالت بنبرةٍ حالمة: «أتدري؟ لستُ أفهمُ. لستُ أفهمُ كيف تتكلّم أو المفردات التي تستخدمها أو أيّ شيء. في لحظةٍ أنت رجل كبير أبله، وفي التّالية تقرأ أفكاري اللّعينة، وفي التّالية تتكلّم عن هيرودوت. لا، لم أقرأ لهيرودوت، لكنني سمعتُ عنه، في الإذاعة الوطنيّة العامّة ربما. أليس هو مَن يُلقّبونه بأبي الأكاذيب؟».[47]

- «حسبتُ ذلك لقب الشّيطان».

- «نعم، وهو أيضًا. لكنهم كانوا يتكلّمون عن ادّعاء هيرودوت وجود نملٍ عملاق، وجَرافِن[1] تَحرُس المناجم القديمة، وعن اختلاقه تلك الأشياء».

- «لا أظنُّ. لقد دوّن ما قيلَ له. كان يُدوّن تلك التّواريخ، وهي في الغالب تواريخ مثيرة للغاية، زاخرة بالتّفاصيل الصّغيرة العجيبة... مثلًا، أكنتِ تعلمين أن في مصر القديمة، إذا ماتَت فتاة ذات جمالٍ مميّز أو زوجة أحد السّادة أو ما شابه، لم يكونوا يُرسِلونها إلى المحنّط قبل ثلاثة أيام؟ كانوا يَترُكون جثّتها تتعفّن في الحرّ أوّلًا».

- «لماذا؟ أوه، انتظِر. تمام، أظنّني أعرفُ السّبب.[xlviii] أوه، هذا مقزّز!».

- «وستجدين معارك أيضًا، أمورًا عاديّةً من كلّ نوع. ثم نأتي إلى الآلهة. رجل ما يعدو لينقل نتيجة معركة، ويعدو ويعدو، ويرى پان إله المراعي الإغريقي في فسحةٍ بالغابة، ويقول پان: *قُل لهم أن يُشيّدوا لي معبدًا هنا*، فيقول الرّجل حاضر، ويقطع بقيّة الطّريق عدوًا وينقل نتيجة المعركة، ثم يقول: أوه، *وبالمناسبة، پان يُريدكم أن تُشيّدوا له معبدًا*. أسلوب عملي جدًّا».

- «بعض القصص إذًا فيه آلهة. ماذا تُحاوِل أن تقول؟ إن أولئك النّاس كانوا يرون هلاوس؟».

قال شادو: «لا، ليس ذلك المقصود».

---

(1) الجريفن: مخلوق مقرون بشرق آسيا في الأساطير، ويُصوَّر عادةً برأس عُقاب وجسم أسد. (المُترجم).

قضمَت قطعةً من السّأف من ظُفرها، وقالت: «قرأتُ كتابًا عن الأمخاخ. كان ملك شريكتي في السّكن، وظلّت تتبختر به أينما ذهبَت. يشرح الكتاب أن قبل خمسة آلاف سنة التحمَت فصوص المُخ، وقبل ذلك كان النّاس يعتقدون أنه متى قال فصُّ المُخ الأيمن شيئًا فهو صوت إلهٍ يُملي عليهم ما يفعلونه. إنه المُخ لا أكثر».

قال شادو: «أفضّلُ نظريّتي».

- «ما نظريّتك؟».

- «أن في تلك الآونة كان النّاس يُصادِفون الآلهة بين الحين والآخر».

- «أوه». صمتٌ، فقط رجّة السيّارة، وهدير المحرّك، وزمجرة كاتم الصّوت... الذي لا يبدو في حالةٍ جيّدة. ثم: «أتظنُّها لا تزال هناك؟».

- «هناك أين؟».

- «اليونان، مصر، الجُزر البريطانيّة، تلك البلاد. أتظنُّ أنك إذا مشيت حيث مشى أولئك النّاس فسترى الآلهة؟».

- «ربما، ولكن لا أظنُّ أن النّاس سيُدرِكون أنهم يرونها».

- «أراهنُ أنها كالكائنات الفضائيّة. هذه الأيام يرى النّاس كائناتٍ من الفضاء، وقديمًا كانوا يرون آلهةً. ربما تأتي الكائنات الفضائيّة من جانب المُخ الأيمن».

علّق شادو: «لا أظنُّ أن الآلهة دسّت مسبارًا في شرج أحد، كما أنها لم تُشوّه الماشية بأنفُسها، بل جعلَت النّاس يفعلون ذلك من أجلها».

قهقهَت، ومضيا صامتيْن بضع دقائق، ثم قالت: «يُذكّرني هذا بقصّتي المفضّلة عن الآلهة من مادّة الأديان المقارنة للمبتدئين. أتودُّ سماعها؟».

- «أكيد».

- «تمام. هذه القصّة عن أودِن، الإله النوردي. هل تعرفه؟ كان ملك ما من الڤيكينج على سفينة ڤيكينج -كان ذلك في زمن الڤيكينج كما هو واضح- وسفينتهم متعطّلة لغياب الرّيح، فيقول الملك إنه سيُضحّي بأحد رجاله لأودِن إذا أرسلَ إليهم ريحًا وأوصلَهم إلى اليابسة. تمام. تهبُّ الرّيح ويصلون إلى اليابسة، وعلى اليابسة يسحبون قُرعةً ليُحدّدوا مَن سيُضحّى به... ويتّضح أنه الملك نفسه. طيّب، لا يُسعِده هذا

بطبيعة الحال، لكنهم يُشيرون بشنقه شنقًا صوريًّا من غير أن يُؤذوه، فيأخذون أمعاء عجلٍ ويلفّونها مرتخيةً حول رقبته، ويربطون الطّرف الآخَر بغُصن شجرةٍ رفيع، ويأخذون قصبةً بدلًا من الحربة ويخزونه بها قائلين: تمام، *لقد انشنقت* -شُنِقت؟ أيًّا كان- *لقد ضُحِّيَ بك لأوِدن*».

انحنى الطّريق. بلدة أخرى، تعداد السُّكّان 300، موطن فريق البلدة تحت 12 سنة الحاصل على المركز الثّاني في بطولة الولاية للتّزلُّج السّريع، دارا جنازاتٍ ضخمتان هائلتان بالحجم الاقتصادي على جانبَي الطّريق. وكم دار جنازاتٍ تلزم -تساءلَ شادو- في وجود ثلاثمئة مواطن فقط...؟

- «تمام. ما إن يلفظوا اسم أودن حتى تتحوَّل القصبة إلى حربةٍ وتطعن الرّجل في جانبه، وتُصبِح أمعاء العجل حبلًا غليظًا، والغُصن فرعًا سميكًا، وترتفع الشّجرة، وتبتعد الأرض، ويُترَك الملك مخنوقًا حتى يموت بجرحٍ في جانبه ووجهٍ يسودُّ. انتهَت القصّة. للبِيض آلهة مختلّة حقًّا يا مستر شادو».

- «نعم. ألستِ بيضاء؟».

- «أنا من الشروكي».

- «خالصة الدِّماء؟».

- «لا، نحو لتريْن فقط. أمّي كانت بيضاء، وأبي هنديّ محميّاتٍ حقيقيًّا. جاءَ إلى تلك الأنحاء، وفي النِّهاية تزوّج أمّي وأنجباني، ولمّا انفصَلا عادَ إلى أوكلاهوما».

- «عادَ إلى المحميّة؟».

- «لا، اقترضَ مالًا وفتحَ تقليدًا رخيصًا لـ «تاكو بِل» سمّاه «تاكوز بيل». أحواله معقولة. لا يحبُّني. يقول إنني هجينة».

- «آسف».

- «إنه حقير. أنا فخورة بدمي الهندي. إنه يُعينني على دفع رسوم الكلّيّة، بل وسيُعينني يومًا ما غالبًا على الحصول على وظيفة إن لم أستطِع بيع البرونز».

قال شادو: «تلك الخطّة متاحة دومًا».

توقَّف في إل پاسو بإلينوي (تعداد السُّكَّان: 2500)، وأنزلَ سام عند منزلِ مزري الهيئة على حافة المدينة، يقف في فنائه الأمامي نموذج كبير مؤطَّر بالأسلاك لأيل رَنَة مغطًى بالأضواء المتلألئة. سألته سام: «هل تُريد الدُّخول؟ ستسقيك خالتي قهوةً».

- «لا، عليَّ مواصلة الحركة».

منحَته ابتسامةً وقد بدَت فجأةً، وللمرَّة الأولى، هشَّةً، وربَّتت على ذراعه قائلةً: «أنت مختل أيها السيِّد، لكنك شخص ممتاز».

قال شادو: «أعتقدُ أن هذا ما يُسمُّونه الحالة البشريَّة. شكرًا على الصُّحبة».

قالت: «لا مشكلة. إذا رأيت آلهةً في طريقك إلى القاهرة فاحرص على تبليغها تحيَّتي»، ثم نزلَت من السيَّارة واتَّجهت إلى باب المنزل، حيث ضغطَت الجرس ووقفَت دون أن تَنظُر وراءها. انتظرَ شادو حتى فُتِحَ الباب ودخلَت بأمانٍ قبل أن يضغط دوَّاسة الوقود ويعود أدراجه إلى الطَّريق السَّريع، ليمرَّ من بلدات نورمل وبلومينجتن ولونديل.

في الحادية عشرة ليلتها بدأ شادو يرتجف. كان عند مدخل ميدلتاون، فقرَّر أنه في حاجةٍ إلى النَّوم، أو مجرَّد ألَّا يقود، وتوقَّف أمام فرع لـ «نايتس إين»، حيث دفعَ خمسةً وثلاثين دولارًا نقدًا مقدَّمًا مقابل حُجرةٍ في الطَّابق الأرضي، ثم دخلَ الحمَّام، ووجدَ صرصورًا بائسًا مقلوبًا على ظَهره فوق البلاط. تناولَ شادو منشفةً ونظَّف بها المغطس من الدَّاخل، ثم فتحَ الماء، وفي الحُجرة خلعَ ثيابه ووضعَها على الفِراش. الكدمات في جذعه داكنة واضحة. جلسَ في الماء يُشاهِد لونه يتبدَّل، ثم غسلَ جوربه وثيابه الدَّاخليَّة وتيشرته في الحوض، ونفضَها ونشرَها على حبل الغسيل المشدود على الحائط فوق المغطس. أمَّا الصُّرصور فتركَه حيث وجدَه احترامًا للموتى.

صعدَ شادو فوق الفِراش. فكَّر في مشاهدة فيلم للبالغين، لكن جهاز الدَّفع مقابل المشاهدة عند الهاتف يستلزم بطاقةً ائتمانيَّةً. ومن ناحيةٍ أخرى، لم يكن مقتنعًا بأن مشاهدة أناسٍ آخَرين يُمارِسون الجنس فيما لا يُمارِسه هو ستُحسِّن مزاجه. شغَّل التليفزيون على سبيل الصُّحبة، وضغطَ زرَّ وضع النَّوم في جهاز التَّحكُّم ثلاث مرَّات، وهو ما يجعل التليفزيون يُغلِق نفسه تلقائيًا بعد خمسٍ وأربعين دقيقةً، وعندئذٍ -في تقديره- سيكون قد غابَ في النَّوم. رُبع ساعةٍ قبل منتصَف اللَّيل.

الصُّورة مغبَّشة كدأب تليفزيونات الموتلات، والألوان سابحة على الشَّاشة. عاجزًا عن التَّفكير، تنقَّل شادو من برنامج سهرةٍ إلى برنامج سهرةٍ في الأرض التليفزيونيَّة اليباب. كان أحدهم يعرض شيئًا ما يفعل شيئًا ما في المطبخ عوضًا عن دستةٍ من الأدوات المطبخيَّة الأخرى، التي لا يملك شادو ولو واحدًا منها. اقلب. رجل يرتدي بدلةً يشرح أننا في آخِر الزَّمان، وأن يسوع -وهي كلمة من أربعة أو خمسة مقاطع حسبما نطقها الرَّجل- سيجعل تجارة شادو تروج وتزدهر إذا أرسلَ إليه شادو نقودًا. اقلب. انتهَت حلقة من «ماش»[i] وبدأت حلقة من «ديك ڤان دايك».[ii] لم يرَ شادو حلقةً من «ديك ڤان دايك» منذ سنوات، لكن في عالم 1965 الأبيض والأسود الذي يرسمه البرنامج شيئًا مريحًا، فوضعَ محوِّل القنوات بجوار السَّرير وأطفأ المصباح على المنضدة المجاورة. شاهدَ البرنامج وعيناه تنغلقان ببُطء، وقد أدركَ أن في الحلقة شيئًا غريبًا. لم يكن قد شاهدَ حلقاتٍ كثيرةً من «ديك ڤان دايك»، فلم يُدهِشه أنها واحدة لم يرَها من قبل، لكن ما وجدَه غريبًا هو جوُّ الحلقة العام.

الشُّخصيَّات الثَّابتة كلُّها مشغولة بإفراط روب في الشُّرب، وهو ما يجعل أيامًا كاملةً تفوته في العمل. ذهبَ اثنان من أصدقائه إلى منزله، ليجداه حبسَ نفسه في غُرفة النَّوم، وعليهما إقناعه بالخروج. كان روب سكرانَ حدَّ التَّرنُّح، وإن ظلَّ طريفًا للغاية، ثم غادرَ صديقاه، اللذان يلعب دوريهما موري أمستردام وروز ماري، بعدما أضافا بعض النُّكات المضحكة. ثم، عندما ذهبَت إليه زوجته لتحتجَّ على تصرُّفاته، لطمَها روب بقوَّةٍ على وجهها، فجلسَت على الأرض وأجهشَت بالبكاء، ليس عويل ماري تايلر مور الشَّهير، بل راحَت تُطلِق انتحاباتٍ قصيرةً عاجزةً، محتضنةً نفسها وتهمس: «أرجوك لا تضربني. سأفعلُ أيَّ شيء، لكن لا تضربني ثانيةً».

بصوتٍ مرتفع قال شادو: «ما هذا بحقِّ الجحيم؟!».

ذابَت الصُّورة مستحيلةً إلى غبشٍ من نقاط الفسفور، وحين عادَت كان «ديك ڤان دايك» قد تحوَّل بلا تفسيرٍ إلى «أحبُّ لوسي».[iii] كانت لوسي تُحاوِل إقناع ريكي باستبدال صندوق الثَّلج القديم بثلَّاجةٍ جديدة. ثم إنها -لمَّا غادرَ- ذهبَت إلى الأريكة وجلسَت مسندةً كاحلًا إلى كاحلٍ وأراحَت يديها في حجرها، ونظرَت بصبرٍ بالأبيض والأسود عبر السِّنين.

قالت: «شادو؟ يجب أن نتكلَّم».

لم يقل شادو شيئًا. وفتحَت لوسي حقيبتها وأخذت سيجارةً أشعلَتها بقدّاحةٍ فضّيّة ثمينة، ثم وضعَت القدّاحة جانبًا، وقالت: «إنني أكلّمك. قُل شيئًا».

- «هذا جنون».

- «كأن بقيّة حياتك عاقلة؟ يا للسّخافة!».

قال شادو: «ما علينا. لوسيل بول تُكلّمني من التليفزيون أغرب مئات المرّات من أيّ شيءٍ حدثَ لي حتى الآن».

ردَّت: «ليست لوسيل بول، بل لوسي ريكاردو. وهل تدري؟ ليست هذه هي حتى. إنها هيئة يَسهُل انتحالها لا أكثر»، واعتدلَت بغير راحةٍ على الأريكة.

سألَ شادو: «مَن أنت؟».

- «حسن. سؤال جيِّد. أنا صندوق الحمقى، أنا التليفزيون، أنا العين التي تُبصِر كلّ شيءٍ وعالم أشعَّة الكاثود، أنا صمام الأثداء، أنا المقام الصّغير الذي تجتمع العائلات لتعشقه».

- «أنتِ التليفزيون؟ أم شخص في التليفزيون؟».

- «التليفزيون هو المذبح، وأنا ما يُقدِّم له النّاس القرابين».

- «وما القرابين التي يُقدِّمونها؟».

أجابَت لوسي: «وقتهم غالبًا، وأحيانًا بعضهم بعضًا»، ورفعَت إصبعيْن ونفخَت دُخان مسدَّسٍ خياليًّا عن أنملتيْها، ثم غمزَت غمزة «أحبُّ لوسي» الشّهيرة المعتادة.

- «أنتِ من الآلهة؟».

رسمَت لوسي على وجهها ابتسامةً متكلّفةً، وأخذَت من سيجارتها نفسًا يليق بسيّدةٍ مهذّبة، وقالت: «لك أن تقول هذا».

قال شادو: «سام تُلقي التّحيّة».

- «ماذا؟ مَن سام؟ عمَّ تتكلّم؟».

ألقى شادو نظرةً على ساعته. الثّانية عشرة وخمس وعشرون دقيقةً. قال: «لا يهمُّ. طيِّب يا لوسي التي تُكلّمني من التليفزيون، عمَّ يجب أن نتكلَّم؟ أناس كثيرون للغاية أرادوا الكلام في الفترة الأخيرة. عادةً ينتهي الأمر بأحدٍ يضربني».

تحرّكت الكاميرا مركزّةً على وجه لوسي، التي لاحَ عليها القلق وزمّت شفتيها قائلةً: «أكرهُ ذلك، أكرهُ أنهم آذوك يا شادو. ما كنتُ لأفعل ذلك أبدًا يا عزيزي. لا، أريدُ أن أعرض عليك وظيفةً».

- «لأفعل ماذا؟».

- «تعمل لحسابي. أنا في غاية الأسف. سمعتُ عن المتاعب التي تعرّضت ليا مع برنامج العُملاء، وأثارت إعجابي الطّريقة التي تعاملت بها مع المأزق. كفاءة، لا مزاح، فعّاليّة. مَن كان ليحسبك قادرًا على ذلك؟ إنهم غاضبون حقًا».

- «حقًّا؟».

قالت: «إنهم يستخفّون بك يا حبيب قلبي، وذلك ليس خطأً سأرتكبه. إنني أريدك في معسكري». ونهضت وتقدّمت إلى الكاميرا مواصلةً: «انظُر إلى الأمر من هذه الزّاوية يا شادو: نحن الصّيحة المقبلة. نحن مراكز التّسوُّق، وأصدقاؤك مواقع جذبٍ سياحي رديئة. بل إننا مراكز تسوُّق أونلاين، فيما يجلس أصدقاؤك على جانب الطّريق السّريع يبيعون محصولهم المحلّي المكوَّم على عربة حدائق. لا، إنهم ليسوا باعة فواكه حتى، بل يبيعون كرابيج عربات الأحصنة، يُصلِحون مشدّات البطن. نحن الحاضر والغد، وأصدقاؤك لم يعودوا الأمس حتى».

خُطبة مألوفة على نحوٍ غريب. سألها شادو: «هل سبقَ أن قابلتِ فتى بدينًا يركب ليموزين؟».

بسطَت يديها ودوّرت عينيها بحركةٍ هزليّة، لوسي ريكاردو الظّريفة تنفض يديها من كارثة، وقالت: «الفتى التّقني؟ قابلتَ الفتى التّقني؟ اسمع، إنه ولد طيِّب، واحد منا، لكنه لا يُجيد التّعامُل مع مَن لا يعرفهم. حينما تعمل لحسابنا سترى كم هو مذهل».

- «وإذا لم أُرِد العمل لحسابكم يا أحبُّ لوسي؟».

دقَّ باب شقّة لوسي، وسُمِعَ صوت ريكي من وراء الكواليس يسأل لوو-سي عمّا يُؤخّرها كلّ هذا التّأخير، فالمفترَض أن يكونا في النّادي في المشهد التّالي. مسّت لمحة من الضّيق وجه لوسي الكرتوني، وقالت: «تبًّا. اسمع، أيًّا كان المبلغ الذي يدفعه لك أولئك المسنّون فيُمكنني أن أدفع ضِعفيه، ثلاثة أضعاف، مئة ضِعف. أيًّا كان ما يمنحونك إياه فيُمكنني أن أمنحك أكثر،

وابتسمت محاكيةً ابتسامة لوسي ريكاردو اللئيمة بدقّةٍ مردفةً: «قل ما يخطُر على بالك يا عزيزي. فيمَ ترغب؟»، وبدأت تحلُّ أزرار بلوزتها قائلةً: «هل أردت رؤية صدر لوسي من قبل؟».

ثم اسودَّت الشّاشة. اشتغلَ وضع النّوم وأطفأ الجهاز نفسه. نظر شادو إلى ساعته. ثلاثون دقيقةً بعد منتصَف اللّيل.

قال: «لا»، وانقلبَ على الفِراش وأغمض عينيه. خطرَ له أن ما حبّبه في الأربعاء والمستر نانسي وبقيّتهم أكثر من خصومهم مباشر للغاية: قد يكونون فاسدين، وبُخلاء، ومذاق طعامهم كالخراء، لكنهم على الأقل لا يتكلّمون بالكليشيهات.

وشادو يُؤثِر معلم جذبٍ سياحيٍ مهما كان رديئًا، أو معوجًا، أو بائسًا، على أيِّ مركز تسوُّق، مهما كانت الظّروف.

طلعَ الصُّبح على شادو وقد عادَ يَسلُك الطّريق، يقود سيّارته عبر منظرٍ طبيعي يتموَّج برقّة، يتصدَّره كلأ الشّتاء البنّي والأشجار الجرداء. ملأ خزّان وقود قطعة الخراء في بلدةٍ هي موطن فريق الولاية للنّساء تحت 16 سنة، الحاصل على المركز الثّاني في سباق العدو ثلاثمئة متر، وآملًا ألّا يكون التّراب وحده السّبب في بقاء السيّارة متماسكةً، أدخلَها شادو مغسلة محطّة الوقود، وأدهشَه اكتشاف أن السيّارة وهي نظيفة -وعلى عكس الاحتمالات المعقولة كلّها- بيضاء، وإلى حدٍّ كبير خالية من الصّدأ. وهكذا واصلَ السّفر.

كانت السّماء مستحيلة الزُّرقة، والدُّخان الأبيض المتصاعد من مداخن المصانع متجمّدًا في السّماء كصورةٍ فوتوجرافيّة. قفزَ بازٌ في الهواء من فوق شجرةٍ ميّتة وطارَ نحوه، تتواتَر حركة جناحيه في ضوء الشّمس كسلسلةٍ من الصُّور بتقنية إيقاف الحركة.

في مرحلةٍ ما وجدَ نفسه يَدخُل سانت لويس الشّرقيّة. حاولَ أن يتحاشاها، وبدلًا من ذلك وجدَ نفسه يقطع ما يبدو أنه حيٌّ بغاءٍ في منطقةٍ صناعيّة. شاحنات ذات ثماني عشرة عجلةً ومعدّات حفرٍ ضخمة مركونة خارج مبانٍ تبدو كمستودعاتٍ مؤقّتة تَزعُم أنها **نوادٍ مفتوحة 24 ساعة**، وفي إحدى الحالات **أفضل عرض رقصٍ عارٍ في المدينة**. هزَّ شادو رأسه، وواصلَ

القيادة. لورا أحبَّت الرَّقص كاسيةً أو عاريةً (وفي أمسياتٍ عديدة لا تُنسى انتقلَت من هذا الوضع إلى ذاك)، ولكم أحبَّ أن يُشاهِدها.

تكوَّن الغداء من ساندوتش وعُلبةٍ من الكولا في بلدةٍ اسمها رِد بُد.

مرَّ بوادٍ مليء بحُطام آلافٍ من البلدوزرات الصُّفراء والجرَّارات ومعدَّات «كاتربيلر» الثَّقيلة، وتساءلَ إن كانت هذه مقبرة البلدوزرات، حيث تذهب البلدوزرات لتموت.

ومرَّ ببار «پوپ-آ-پوپ لاونج»، ومرَّ من مدينة تشستر («موطن پوپآي»)، حيث لاحظَ أن المنازل بدأت تكتسب أعمدةً في واجهاتها، وحتى أسوأها حالًا وأكثرها ضيقًا له أعمدته البيضاء التي تُعلِنه -في عين أحدهم- قصرًا. عبرَ جسرًا فوق نهرٍ موحل كبير، وضحكَ بشدَّةٍ لمَّا رأى أن اسم النَّهر طبقًا للافتةٍ هو «**النَّهر الموحل الكبير**». رأى كسوةً من وُريقات الكِشت الياباني فوق ثلاث شجراتٍ أماتها الشِّتاء، تُشوِّه أشكالها جاعلةً إياها غريبةً أقرب إلى أشكالٍ بشريَّة، حتى بدَت كأنها ساحرات، ثلاث شمطاواتٍ محنيَّات الظُّهور مستعدَّات للكشف عن طالعه.

تحرَّك بالسيَّارة بمحاذاة المسيسپي. لم يرَ شادو النِّيل قَطُّ، إلَّا أن شمس الأصيل المُعمية تتوهَّج على صفحة النَّهر البنِّي الواسع، التي جعلَته يُفكِّر في النِّيل الرَّحب المليء بالطِّمي، ليس نيل الحاضر، بل في غابر الزَّمان وهو يتدفَّق كالشِّريان شاقًّا مستنقعات البردي، النِّيل موطن الكوبرا وبنات آوى والبقر البرِّي...

أشارَت لافتة على الطَّريق إلى طيبة.

كان الطَّريق مشقوقًا على ارتفاع اثني عشر قدمًا تقريبًا، أي إنه يقود سيَّارته الآن فوق المستنقعات، وفي الجوِّ أسراب ومجموعات من الطُّيور المحلِّقة ذهابًا وإيابًا، بادية مثل نُقطٍ سوداء في السَّماء الزَّرقاء إذ تتحرَّك حركةً عشوائيَّةً تُوحي نوعًا باليأس.

في أواخر الأصيل بدأت الشَّمس تنخفض مموِّهةً العالم بضوء الإلفيِّين[1] الذَّهبي، ضوء دافئ ثخين كالكسترد أضفى على العالم طابعًا خارقًا للطَّبيعة وجعلَه في الوقت نفسه أكثر من حقيقي، وفي هذا الضَّوء مرَّ شادو باللَّافتة

(1) الإلفيُّون: مخلوقات من الفُلكلور الأوربي تتميَّز برقَّة الملامح والآذان المدبَّبة والقُدرات السِّحريَّة. (المُترجم).

التي أخبرَته: «**الآن تَدخُل القاهرة التَّاريخيَّة**». مرَّ من تحت جسر، ووجدَ نفسه في بلدةٍ صغيرة ذات مرفأ، حيث يبدو مبنى محكمة القاهرة الفخم ومكتبِ الجمارك الأشد فخامةً مثل قطعتين هائلتين من البسكويت الطَّازج في الضَّوء الذَّهبي الشَّرباتي في آخِر النَّهار.

ركنَ سيَّارته في شارعٍ جانبي وسارَ إلى السَّد التُّرابي على حافة النَّهر، لا يدري إن كان ما يتطلَّع إليه هو الأوهايو أم المسيسبي. راحت قِطَّة بنِّيَّة صغيرة تتشمَّم صفائح القمامة في مؤخِّرة مبنى وقفزَت بينها، وحتى القمامة جعلَها الضَّوء تبدو سحريَّةً.

كان نورس وحيد يطير منزلقًا بطول حافة النَّهر، لا يخفق بجناحٍ إلَّا ليُصحِّح مساره.

أدركَ شادو أنه ليس بمفرده، ففوق الرَّصيف على بُعد عشرة أقدامٍ تقف بنت صغيرة الحجم تنتعل حذاءً رياضيًّا قديمًا، وترتدي سويتر رماديًّا من الصُّوف -مفصَّلًا لرجلٍ بالغ- كأنه فُستان، وتُحدِّق إليه بوقارٍ متجهِّم يليق بطفلةٍ في السَّادسة. شعرها أسود طويل مستقيم، وبشرتها بنِّيَّة كالنَّهر.

ابتسمَ لها، فبادلَته النَّظر بتحدٍّ.

من عند الضفَّة صدرَ مُواء وعُواء، وانطلقَت القِطَّة البنِّيَّة الصَّغيرة كالطَّلقة من صفيحة قمامةٍ مقلوبة، يُطارِدها كلب أسود طويل الخطم، ثم اندفعَت القِطَّة تختبئ تحت سيَّارة.

خاطبَ شادو البنت قائلًا: «هل رأيتِ مسحوقًا خفيًّا من قبل؟».

تردَّدت، ثم هزَّت رأسها نفيًا.

قال شادو: «حسن، تفرَّجي»، وأخرجَ رُبع دولار بيده اليُسرى ورفعَه قالبًا إياه من وجهٍ إلى وجه، ثم بدا كأنه ألقاه في يُمناه مغلقًا إياها بقوَّةٍ على الفراغ قبل أن يمدَّها. «والآن سآخذُ القليل من المسحوق الخفي من جيبي...» -ومدَّ يُسراه في جيب سُترته مسقطًا فيه العُملة- «... وأرشُّه على اليد الممسكة بالعُملة...» -وقلَّد حركة الرَّش- «... وانظُري، الآن أصبحَت العُملة خفيَّةً أيضًا»، وفتحَ يُمناه الخالية، وللدَّهشة يُسراه الخالية أيضًا.

ولم تفعل الصَّغيرة أكثر من التَّحديق.

هزَّ شادو رأسه وعادَ يضع يديه في جيبيه، مجهِّزًا في واحدةٍ رُبع دولار وفي الثَّانية ورقةً مطويَّةً بخمسة دولارات. كان سيُخرِجهما من الهواء ويُعطي

الفتاة الخمسة دولارات، إذ يبدو أنها محتاجة إليها. قال: «انظُري، عندنا جمهور».

كانَ الكلبُ الأسود والقِطةُ البنِّيَّة يُشاهِدانه أيضًا، واقفيْن على جانبَي البنت ويَرمُقانه باهتمامٍ بالغ، وقد أرهفَ الكلبُ أذنيه الضَّخمتين، وهو ما أضفى عليه تعبير انتباهٍ مضحكًا. في تلك الأثناء تقدَّم إليهم على الرَّصيف رجل يُشبِه طائرَ الكُركي يضع عُويناتٍ ذهبيَّة الإطار، يتلفَّت من جانبٍ إلى جانبٍ كأنه يبحث عن شيء. تساءلَ شادو إن كان هذا صاحب الكلب.

سألَ شادو الكلبَ محاولًا طمأنة البنت: «ما رأيك؟ أكان هذا باهرًا؟».

فلعقَ الكلب الأسود خطمه الطَّويل، ثم قال بصوتٍ جاف عميق: «لقد شاهدتُ هـاري هوديـني ذات مرَّة، وصدِّقنـي يا رجل، أنت لست هاري هوديني».[liii]

نظرَت الصَّغيرة إلى الحيوانيْن، ورفعَت عينيها إلى شادو، ثم هرعَت مبتعدةً لتدقَّ قدماها الرَّصيف كأنما تُطارِدها قُوى الجحيم جميعًا، وشاهدَها الحيوانان تغيب.

وصلَ الرَّجل الكُركي إلى الكلب، ومالَ ليحكَّ أُذنيه الطَّويلتين المدبَّبتين، ثم قال الرَّجل ذو العُوينات ذهبيَّة الإطار مخاطبًا الكلب: «على رسلك. إنها مجرَّد خدعة عُملة. لم يكن يهرب من تحت الماء».

قال الكلب: «ليس بعدُ، لكنه سيفعل».

كانَ الضَّوء الذَّهبي قد غابَ، وبدأ رماديُّ الشَّفق.

تركَ شادو العُملة وورقة الدولارات الخمسة تَسقُطان في جيبيه، وقال: «حسن. أيُّكما ابن آوى؟».

ردَّ الكلب الأسود ذو الخطم الطَّويل: «استعمِل عينيك. من هنا»، وبدأ يمشي متمهِّلًا فوق الرَّصيف بجوار صاحب العُوينات ذهبيَّة الإطار، وبعد لحظة تردُّدٍ تبعَهما شادو. أمَّا القِطَّة فاختفَت.

بلغوا بنايةً كبيرةً قديمةً تقع في صفٍّ من المنازل المسدودة نوافذها بألواح الخشب، وقالت اللَّافتة المجاورة للباب: «**آيبس وچاكِل. شركة عائليَّة. دار جنازات. منذ 1863**».

قال الرَّجل ذو العُوينات ذهبيَّة الإطار: «أنا المستر آيبس.[liv] أظنُّ أن عليَّ دعوتك إلى العَشاء. يُؤسِفني أن عند صديقي عملًا عليه إنجازه».

# في مكانٍ ما من أمريكا

تُخيف نيويورك سليم، وهكذا يُطبِق بكلتا يديه على حقيبة العيِّنات ويضمُّها إلى صدره. يخشى سليم السُّود والطَّريقة التي يُحدِّقون إليه بها. ويخشى اليهود، مَن بوسعه أن يُميِّزهم من ارتدائهم أسود في أسود واعتمارهم قبَّعاتٍ، ومن لحاهم وشعورهم المضفَّرة على جانبَي الرَّأس، ويخشى الأعداد الأخرى ممَّن لا يستطيع تعرُّفهم. ويخشى حشود النَّاس الغفيرة، ناس من كلِّ شكلٍ وحجم ينهمرون من مبانيهم الشَّاهقة القذرة على الرُّصفان، ويخشى جعجعة المرور وأبواقه. حتى الهواء يخشاه، هواء ملوَّث الرَّائحة وخلوها في وقتٍ واحد، ولا يمتُّ بصلةٍ لهواء عُمان.

سليم في نيويورك، في أمريكا، منذ أسبوع، ويوميًا يزور مكتبيْن مختلفيْن أو ثلاثة، حيث يفتح حقيبة العيِّنات ويُريهم الحُلي الرَّخيصة؛ الخواتم والقوارير والكشَّافات الصَّغيرة، ونماذج بناية الإمپاير ستيت وتمثال الحرِّيَّة وبرج إيفل الملتمع نحاسها من الدَّاخل. كلَّ ليلةٍ يَكتُب رسالةً بالفاكس لفؤاد زوج أخته في مسقط ليُخبِره بأنه لم يتلقَّ ولا طلبيَّةً، أو -في يومٍ سعيد واحد- بأنه تلقَّى عدَّة طلبيَّات (ولو أن ذلك، كما يعي سليم على نحوٍ مؤلم، لا يكفي لمجرَّد تغطية تذاكر الطَّيران وفاتورة الفندق).

لأسبابٍ لا يفهمها، حجزَ له شُركاء صهره غُرفةً بفندق «پاراماونت» في الشَّارع السَّادس والأربعين، ويجدُ سليم المكان مربكًا وخانقًا ومكلِّفًا وأجنبيًّا.

فؤاد زوج أخته. ليس رجلًا غنيًّا، لكنه شريك في مصنعٍ صغير للحُلي الرَّخيصة، قطع زينةٍ من النُّحاس تتنوَّع بين الخواتم ومشابك الصُّدر والأساور والتَّماثيل، جميعها مصنوع للتَّصدير إلى الدُّول العربيَّة الأخرى، وإلى أوربا وأمريكا.

يعمل سليم عند فؤاد منذ ستَّة شهور، وفؤاد يُخيفه بعض الشَّيء، فلهجته في الفاكسات تزداد خشونةً. في المساء يجلس سليم في غُرفته بالفندق، يقرأ القرآن ويقول لنفسه إن كلَّ هذا سيمرُّ، إن إقامته في هذا العالم الغريب محدودة ولها نهاية.

أعطاه زوج أخته ألف دولار من أجل مصاريف السّفر النّثريّة، والنّقود -التي بدَت مبلغًا باهظًا حين رآه أوّل مرّة- تتبخّر بسرعةٍ تفوق قدرته على التّصديق. في بداية وصوله خشيَ أن يراه النّاس عربيًّا بخيلًا، وهكذا منحَ الجميع بقشيشًا وناولَ كلٌّ من قابلَهم ورقات دولار إضافيّةً، ثم قرّر أن النّاس يستغلّونه، وربما يضحكون منه أيضًا، وامتنعَ عن البقشيشة بالكامل.

في رحلته الأولى والوحيدة بالمترو احتارَ وضلَّ الطّريق وفاتَه الميعاد، والآن لا يركب التاكسي إلّا إذا اضطرَّ، وباقي الوقت يمشي. متهالكًا يَدخُل مكاتبَ مفرطة التّدفئة، وجنتاه خدرتان من البرد في الخارج، ويتصبّب عرقًا تحت معطفه، وحذاؤه غارق بالوحل، وحينما تهبُّ الرّياح في الجادّات (التي تشقُّ المدينة من الشّمال إلى الجنوب، مثلما تشقُّها الشّوارع من الغرب إلى الشّرق؛ تنظيم في غاية البساطة، ويعلم سليم دائمًا اتّجاه القِبلة في مكّة) يحسُّ في ما انكشفَ من جلده ببردٍ قارس أليم كأنما ضُرِبَ ضربًا.

لا يأكل سليم في الفندق أبدًا (فمع أن شُركاء فؤاد يغطّون فاتورة الفندق، فعليه أن يدفع ثمن طعامه بنفسه)، وبدلًا من ذلك يبتاع ما يأكله من مطاعم الفلافل ومتاجر الأطعمة الصّغيرة، ولأيامٍ يُهرّبه إلى داخل الفندق تحت معطفه قبل أن يُدرِك أن أحدًا لا يُبالي، ورغم ذلك لا يزال يَشعُر بالاستغراب عندما يركب المصاعد خفيضة الإضاءة حاملًا أكياس الطّعام (وعليه دائمًا أن ينحني ويُضيّق عينيه ليجد الزّرّ الذي يأخذه إلى طابقه)، ويَدخُل الغُرفة الضّئيلة التي يُقيم بها.

سليم مستاء. الفاكس الذي وجدَه في انتظاره حين استيقظَ هذا الصّباح مقتضب، ويتناوب في نصّه التّأنيب والصّرامة وخيبة الأمل. إنه يخذلهم، يخذل أخته وفؤاد وشُركاء فؤاد وسلطنة عُمان والأمّة العربيّة بأسرها. ما لم يَحصُل على الطّلبيّات، فسيكفُّ فؤاد عن اعتبار توظيفه التزامًا. إنهم معتمدون عليه. فندقه مكلّف جدًّا. ما الذي يفعله بمالهم ليعيش في أمريكا سلطانًا؟ قرأ سليم الفاكس في غُرفته (الحارّة الخانقة دومًا، ولذا فتحَ النّافذة البارحة، والآن يحسُّ ببردٍ شديد)، وجلسَ هناك فترةً وقد تجمّد على وجهه تعبير بؤسٍ خالص.

ثم مشى سليم إلى وسط المدينة حاملًا حقيبة العيّنات كأنها تحوي ماسًا وياقوتًا، يتحرّك مجهدًا في البرد من مربّع مبانٍ إلى مربّع مبانٍ، إلى أن يَبلُغ

تقاطُع برودواي والشَّارع التَّاسع عشر، حيث يجد مبنى قصيرًا فوق مغسلةٍ بالعُملة، ويصعد السَّلالم إلى مكتب «بانجلوبل للاستيراد» في الطَّابق الرَّابع.

المكتب كئيب متَّسخ، لكنه يعلم أن «بانجلوبل» تتولَّى نحو نصف تذكارات الزِّينة التي تَدخل الولايات المتَّحدة من الشَّرق الأقصى. من شأن طلبيَّة حقيقيَّة، طلبيَّة ضخمة، أن تُعوِّض سليم عن رحلته وتصنع الفرق بين الفشل والنَّجاح، ولذا يجلس على مقعدٍ خشبي غير مريح في مكتبٍ خارجي، وقد وازنَ حقيبة العيِّنات على حجره وراحَ يُحدِّق إلى المرأة متوسِّطة العُمر بشعرها المصبوغ بأحمر فاقع جدًّا. الجالسة وراء المنضدة تتمخَّط في «كلينكس» بعد «كلينكس»، وبعد أن تَفرُغ تمسح أنفها وترمي المنديل في سلَّة المهملات.

وصلَ سليم في العاشرة والنِّصف صباحًا، أي قبل نصف ساعةٍ من الميعاد، والآن يجلس محتقن الوجه مرتعشًا، يتساءل إن كان محمومًا، ويمضي الوقت بمنتهى البُطء.

يَنظُر سليم إلى ساعته، ثم يتنحنَح.

وترميه المرأة الجالسة وراء المنضدة بنظرةٍ ناريَّة قائلةً: «نعم؟»، فتَخرُج منها نعن.

- «السَّاعة الحادية عشرة والنِّصف وخمس دقائق».

فتُلقي المرأة نظرةً على ساعة الحائط، ثم تقول: «نعن. إنها كذنك».

بابتسامة استرضاءٍ يقول سليم: «موعدي كان في الحادية عشرة».

فتردُّ بلهجةٍ ناهرة: «المستر بلاندنج يعرف أنك هنا». *انمستن بناندنج يعنف أنك هنا*.

يلتقط سليم نُسخةً قديمةً من الـ«نيويورك بوست» موضوعةً على الطَّاولة أمامه. إنه يتحدَّث الإنجليزيَّة أفضل مما يقرأها، وهكذا يقطع طريقه الملغَّز بين الموضوعات كرجلٍ يحلُّ الكلمات المتقاطعة. ينتظر، شابٌّ ممتلئ له عينا جروٍ جريح، يُنقِّل بصره من ساعة يده إلى الصَّحيفة إلى ساعة الحائط.

في الثَّانية عشرة والنِّصف يَخرُج من المكتب الدَّاخلي رجال عدَّة يتكلَّمون بأصواتٍ مرتفعة ويُثرثِر بعضهم مع بعضٍ بالأمريكيَّة. أحدهم رجل كبير الحجم ضخم الكرش، يضع في فمه سيجارًا غير مشتعل، وبينما يَخرُج يُلقي نظرةً عابرةً على سليم، ثم يقول للجالسة وراء المنضدة أن تُجرِّب عصير

اللّيمون والزّنك -فأخته تحلف بالزّنك- وڤيتامين ج، فتعده بأنها ستفعل، وتُناوله عدّة مظاريف، ليضعها في جيبه ويَخرُج مع بقيّة الرّجال إلى البهو، وإذ ينزلون السّلالم يتلاشى صوت ضحكهم.

السّاعة الواحدة. تفتح المرأة الجالسة وراء المنضدة دُرجًا وتأخذ منه كيسًا ورقيًا بنّيًا، ومنه تُخرِج عدّة ساندوتشات وتُفّاحةً وقالب شُكولاتة «ميلكي واي»، كما تُخرِج زُجاجةً بلاستيكيّةً صغيرةً من عصير البرتقال الطّازج.

يقول سليم: «معذرةً، ولكن هلّا اتّصلتِ إذا سمحتِ بالمستر بلاندنج وأخبرتِه بأني ما زلتُ منتظرًا؟».

فترفع عينيها إليه كأنها مدهوشة من وجوده هنا حتى الآن، كأنهما لا يجلسان وبينهما خمسة أقدام فقط منذ ساعتين ونصف، وتقول: «لقد خرجَ ليتناوَل الغداء». *نقد خنجَ نيتناوَن انغداء*.

ويعلم سليم، يعلم في قرارة نفسه، أن بلاندنج كان الرّجل صاحب السّيجار. «متى سيعود؟».

فتهزُّ كتفيها، وتأخذ قضمةً من ساندوتشها، وتقول: «إنه مشغول بمواعيد باقي النّهار بطوله». *إنه مشغون بمواعيد باقي انّهان بطونه*.

يسألها سليم: «هل سيراني عندما يرجع إذًا؟».

فتهزُّ كتفيها، وتتمخّط.

سليم جوعان، يتنامى جوعه، ومحبَط، وما بيده حيلة.

في الثّالثة تَنظُر إليه المرأة قائلةً: «نن ينجع انيون».

- «عُذرًا؟».

- «انمستن بناندنج، نن ينجع انيون».

- «أيُمكنني أن أحدِّد موعدًا آخر غدًا؟».

تمسح أنفها، وتُجيب: «عنيك أن تتّصن. انمواعيد بانتنيفون فقط».

فيقول سليم: «مفهوم»، ثم يبتسم، من غير ابتسامة -كما أخبرَه فؤاد مرارًا قبل أن يُغادِر مسقط- البيّاع عارٍ في أمريكا. يقول: «سأتّصلُ غدًا»، ويأخذ حقيبة العيّنات وينزل الدّرجات العديدة إلى الشّارع، حيث يتحوّل المطر المجمّد إلى مطرٍ متجمّد. يتأمّل سليم فكرة قطع المسافة الطّويلة الباردة مشيًا إلى فندقه في الشّارع السّادس والأربعين، وثقل الحقيبة، ثم يخطو إلى

حافة الرَّصيف ويُشير لكلّ سيّارةٍ أجرة صفراء تقترب، سواء أكان الضَّوء فوق سقفها مُشعلًا أم مُطفأ، وتمرُّ به سيّارات الأجرة جميعًا دون أن تتوقّف.

تُسرِع إحداها فيما تمرُّ، وتدوس عجلة في حُفرةٍ ملأى بالماء لتنثُر الماء الموحل البارد كالثّلج على معطف سليم وبنطاله. للحظةٍ يتأمّل فكرة إلقاء نفسه أمام واحدةٍ من السيّارات الثّقيلة، ثم يُدرك أن صهره سيعبأ أكثر بمصير حقيبة العيّنات من مصير سليم نفسه، ولن يجلب ذلك إلّا الأسى على أخته الحبيبة، زوجة فؤاد (فلطالما كان سليم مصدر إحراجٍ طفيف لأبيه وأمّه، ولطالما كانت مغامراته العاطفيّة -بدافع الضّرورة- وجيزةً ومستترةً نسبيًّا). كما أنه يشكُّ أن أيًّا من السيّارات يتحرّك بسرعةٍ كافية للفتك به.

يتوقّف تاكسي قديم يمتلئ هيكله بالانبعاجات بجواره، ويركب سليم ممتنًّا لتمكُّنه من طرح حبل الأفكار هذا بعيدًا عن عقله.

الأريكة الخلفيّة مرقّعة بشرائط اللّحام الرّماديّة، وحاجز زُجاج البلكسي نصف المفتوح مغطًّى بإخطاراتٍ تُحذّره من التّدخين وتُعرّفه بالمبلغ الذي يدفعه في الرّحلة إلى مختلِف المطارات، فيما يُخبِره صوت مسجّل لشخصٍ مشهور لم يسمع عنه من قبل بربط حزام الأمان.

يقول سليم: «فندق «باراماونت» من فضلك».

يُدَمدِم سائق التاكسي، ويتحرّك من عند الرّصيف عائدًا إلى نهر الطّريق. وجهه ليس حليقًا، ويرتدي سويتر سميكًا بلون التّراب، ويضع نظّارة شمس بلاستيكيّةً سوداء. الطّقس غائم، واللّيل يهبط، ويتساءَل سليم إن كان الرّجل يُعاني مشكلةً في عينيه. تُلطّخ المسّاحات مشهد الشّارع بدرجات الرّمادي وبُقع الضّوء.

من اللا مكان تتحرّك شاحنة أمامهما قاطعةً عليهما الطّريق، ويسمع سليم سائق التاكسي يتوعّد بالعربيّة مقسمًا بلحية النّبي،[17] فيُحدّق إلى الاسم المكتوب على لوحة القيادة، لكنه لا يستطيع تمييزه من مكانه، فيسأل الرّجل بالعربيّة: «منذ متى تسوق سيّارة أجرة يا صديقي؟».

ويُجيب السّائق باللّغة نفسها: «عشرة أعوام. من أين؟».

- «مسقط، في عُمان».

- «من عُمان. زرتُ عُمان قبل زمنٍ طويل. هل سمعت عن مدينة أوبار؟».

يقول سليم: «طبعًا. مدينة الأبراج المفقودة.[3] لقد عثروا عليها في الصَّحراء قبل خمسة أو عشرة أعوام. كنتَ مع البعثة التي نقَّبت عنها؟».

- «شيء من هذا القبيل. كانت مدينةً حُلوةً. في معظم اللَّيالي كنت تجد ثلاثة أو أربعة آلافٍ من النَّاس مخيِّمين هناك. كان كلُّ مسافرٍ يستريح في أوبار، وتصدح الموسيقى ويتدفَّق النَّبيذ كالماء، ويتدفَّق الماء أيضًا، فهو السَّبب في وجود المدينة».

يقول سليم: «هكذا سمعتُ. والمدينة هلكت منذ متى؟ ألف عام؟ ألفين؟».

فلا يردُّ سائق التاكسي. تُوقفهما إشارة مرور حمراء، ثم تخضرُّ الإشارة، إلَّا أن السَّائق لا يتحرَّك على الرغم من نشاز الأبواق الذي بدأ يُدوِّي من خلفه على الفور. بتردُّدٍ يمدُّ سليم يده عبر الفتحة في زُجاج البلكسي ويمسُّ كتف السَّائق، لينتفض الرَّجل مفزوعًا ويضع قدمه على دوَّاسة الوقود وينطلق بالسيَّارة المرتجَّة عبر التَّقاطُع قائلًا بالإنجليزيَّة: «فَك-شِت-فَك-فَك!».

يقول سليم: «مؤكَّد أنك متعَب جدًّا يا صديقي».

فيردُّ السَّائق: «لي ثلاثون ساعةً أقودُ هذا التاكسي الذي أنزلَ عليه الله غضبه. كثير جدًّا. قبل ذلك نمتُ خمس ساعات، وقبلها ظللتُ أقودُ أربع عشرة ساعةً. عندنا نقص في العمالة قبل الكريسماس».

- «آملُ أنك كسبت مالًا كثيرًا».

فيتنهَّد السَّائق قائلًا: «ليس الكثير. هذا الصَّباح أوصلتُ رجلًا من الشَّارع الأوَّل والخمسين إلى مطار نيوآرك، ولمَّا وصلنا هرعَ يَدخُل المطار ولم أستطِع العثور عليه. أجرة بخمسين دولارًا ضاعَت، ودفعتُ الرُّسوم في طريق العودة غصبًا عني».

ويُومئ سليم برأسه، ويقول: «قضيتُ اليوم منتظرًا مقابلة رجلٍ يَرفُض مقابلتي. زوج أختي يكرهني. إنني في أمريكا منذ أسبوع، لكنها لم تفعل إلَّا التهام نقودي. لم أبِع شيئًا».

- «ماذا تبيع؟».

فيُجيب سليم: «خراءً، حُليًّا وزينةً وتذكارات سُيَّاح عديمة القيمة، خراءً قبيحًا سخيفًا رخيصًا شنيعًا».

يُدوِّر السَّائق عجلة القيادة يمينًا بقوَّةٍ دائرًا بهما من حول شيءٍ ما، ويُواصِل القيادة، ويتساءل سليم كيف يرى ليقود بين المطر واللَّيل ونظَّارة الشَّمس.

- «تُحاوِل بيع الخراء؟».

- «نعم». يقولها سليم مغتبطًا ومذعورًا من تلفُّظه بالحقيقة عن عيِّنات زوج أخته.

- «ولا يُريدون شراءه؟».

- «نعم».

- «غريب. إذا نظرت إلى المحال هنا فلن تجدهم يبيعون إلَّاه».

ويبتسم سليم بتوتُّر.

تسدُّ الشَّارع شاحنة، ويقف شُرطي محمرُّ الوجه أمامها ويُلوِّح ويزعق ويُشير لهما إلى أقرب شارع.

يقول سائق التاكسي: «سنذهب إلى الجادَّة الثَّامنة ونَدخُل أعلى المدينة من هناك»، وينعطف في الشَّارع حيث توقَّفت حركة المرور تمامًا، والأبواق تُدوِّي بنفيرها المنفِّر، لكن السيَّارات لا تتحرَّك.

يتمايَل السَّائق على مقعده، ويبدأ ذقنه في النُّزول على صدره، مرَّةً، مرَّتين، ثلاثًا، ثم ينبعث منه غطيط خفيض. يمدُّ سليم يده ليُوقِظ الرَّجل آمنًا أنه يفعل الصَّواب، وإذ يهزُّ كتفه يتحرَّك السَّائق، وتمسُّ يد سليم وجه الرَّجل مُسقطةً نظَّارة الشَّمس عن وجهه في حجره.

يفتح السَّائق عينيه ويمدُّ يده معيدًا وضع النظَّارة البلاستيكيَّة السَّوداء، ولكن بعد فوات الأوان. لقد رأى سليم عينيه.

تتقدَّم السيَّارة زحفًا في المطر، وتزيد الأرقام على العدَّاد.

يسأل سليم: «هل ستَقتُلني؟».

شفتا سائق التاكسي مزمومتان، ويُراقِب سليم وجهه في المرآة.

- «لا».

ثانيةً تتوقَّف السيَّارة، وتُطقطِق قطرات المطر على السَّقف.

ويبدأ سليم يتكلَّم: «جدَّتي تحلف أنها رأت عفريتًا، أو ربما ماردًا، في ساعة مساءٍ متأخِّرة على حافة الصَّحراء. قلنا لها إنها مجرَّد عاصفةٍ رمليَّة،

ريح خفيفة، لكنها قالت لا، لقد رأت وجهه، وعيناه -مثل عينيك- كانتا تقدحان نارًا».

يبتسم السَّائق، لكن عينيه مختفيتان تحت النظَّارة البلاستيك السَّوداء، ولا يتبيَّن سليم إن كان في هذه الابتسامة أيُّ مرحٍ أم لا. ثم يقول السَّائق: «الجدَّات أيضًا جئن إلى هنا».

يسأله سليم: «أهناك جانٌ كثيرون في نيويورك؟».

- «لا، عدد قليل منا».

- «عندنا الملائكة، وعندنا البشر الذين خلقهم الله من طين، ثم إن عندنا المخلوقين من نار، الجنّ».

يقول السَّائق: «النَّاس هنا لا يعرفون شيئًا عن قومي. يحسبوننا نُلبِّي الأماني. أتحسبني كنتُ لأقود سيَّارة أجرة لو أنّي ألبِّي الأماني؟».

- «لا أفهمُ».

تلوح الكآبة على سائق التاكسي، ويُراقِب سليم وجهه في المرآة وهو يتكلَّم، مركِّزًا على شفتَي العفريت القاتمتيْن.

يشرح العفريت: «يعتقدوننا نُلبِّي الأماني. لماذا يعتقدون ذلك؟ إنني أنامُ في غُرفةٍ نتنة في بروكلين، وأوصِّلُ بهذا التاكسي أيَّ معتوهٍ نتن يحتكِم على مالٍ ليركبه، وبعض مَن لا يحتكِمون. أوصِّلهم إلى حيث يُريدون، وأحيانًا يمنحونني بقشيشًا، وأحيانًا يدفعون الأجرة»، وتبدأ شفته السُّفلى ترتجف، ويبدو على شفا الانهيار. «في مرَّةٍ تغوَّط أحدهم على المقعد الخلفي، واضطررتُ إلى تنظيفه قبل أن أعيد السيَّارة. كيف يفعل شيئًا كهذا؟ اضطررتُ إلى تنظيف المقعد من خراءٍ مبتل. أهذا عدل؟».

يمدُّ سليم يده مربِّتًا على كتف العفريت، ويحسُّ بلحمٍ صُلب تحت صوف السويتر، ويرفع العفريت يده عن عجلة القيادة ويُريحها على يد سليم لحظةً.

عندئذٍ يُفكِّر سليم في الصَّحراء، تُثير الرِّمال الحمراء عاصفةً تُرابيَّةً في أفكاره، وتتموَّج الخيام الحرير القرمزيَّة المحيطة بمدينة أوبار المفقودة وتنتفخ في ذهنه.

ويمضيان في الجادَّة الثَّامنة.

- «المسنُّون ما زالوا يُصدِّقون. إنهم لا يتبوَّلون في الجحور لأن الرَّسول نهاهم عن التَّبوُّل في الجحور لأنها مساكن الجنّ، ويعلمون أن الملائكة ترمينا بالشُّهب المحرقة حين نُحاول التَّنصُّت على أحاديثها، ولكن حتى عند المسنِّين، عندما يجيئون إلى هذا البلد نصير نحن بعيدين قصيِّين. في الوطن لم أضطرَّ إلى قيادة تاكسي».

- «آسف».

يقول السَّائق: «وقت سيِّئ. في الطَّريق عاصفة. إنها تُخيفني. ويُمكنني أن أفعل أيَّ شيءٍ لأهرب منها».

ثم لا يقول كلاهما شيئًا آخر طوال بقيَّة الطَّريق إلى الفندق.

عندما يَخرُج سليم من السيَّارة يَنقُد العفريت ورقةً بعشرين دولارًا ويقول له أن يحتفظ بالباقي، ثم، بدفقةٍ مباغتة من الشَّجاعة، يُخبِره برقم غُرفته. فلا يردُّ السَّائق، وتركب امرأة شابَّة على الأريكة الخلفيَّة. وينطلق التاكسي في البرد والمطر.

السَّادسة مساءً. لم يكتب سليم الفاكس لزوج أخته بعدُ. يَخرُج في المطر، ويشتري لنفسه هذه اللَّيلة كبابًا وبطاطس محمَّرةً. أسبوع واحد فقط مرَّ، لكنه يحسُّ بأنه أثقل وزنًا وأكثر امتلاءً، بدأ يُصبِح طريًّا في بلد نيويورك هذا.

لدى عودته إلى الفندق يُدهِشه مرأى سائق التاكسي واقفًا في اللوبي وقد دسَّ يديه في عُمق جيبيه وهو يتفرَّج على لوحةٍ من البطاقات البريديَّة بالأبيض والأسود. حين يرى سليم يبتسم السَّائق باستحياء، ويقول: «اتَّصلتُ بغُرفتك لكنك لم تردَّ، فخطرَ لي أن أنتظر».

وبدوره يبتسم سليم ويمسُّ ذراع الرَّجل قائلًا: «أنا هنا».

معًا يَدخُلان المصعد المضاء بالأخضر المعتم، ويصعدان يدًا بيدٍ إلى الطَّابق الخامس.

وعندما يستيقظ سليم وضوء الشَّمس البارد يزحف على الغُرفة البيضاء، يجد نفسه بمفرده[1].

---

(1) بطلب من النَّاشر العربي، وبعد الرُّجوع إلى المؤلِّف وموافقته، حُذف جزء من هذا المشهد. (المُترجم).

ويكتشف أيضًا أن حقيبة العيِّنات اختفت، القوارير والخواتم والكشافات النُّحاس التِّذكاريَّة كلُّها اختفى، ومعها حقيبة ثيابه ومحفظته وجواز سفره وتذكرة العودة إلى عُمان.

على الأرض يجد بنطال چينز وتيشرت وسويتر من الصُّوف تُرابي اللَّون، وتحت الثِّياب يجد رُخصة قيادةٍ باسم إبراهيم بن إرم، وتصريح قيادة تاكسي بالاسم نفسه، وحلقة مفاتيح وعنوانًا مدوَّنًا بالإنجليزيَّة على ورقةٍ بيضاء ملحقة بالمفاتيح. لا تُشبِه الصُّورتان في رُخصة القيادة ورُخصة التاكسي سليم، على أنهما لا تُشبِهان العفريت أيضًا.

يرنُّ الهاتف. مكتب الاستقبال يتَّصل ليُنوِّه بأن سليم أنهى إقامته بالفندق، وعلى ضيفه أن يُغادِر قريبًا لكي يُنظِّفوا الغُرفة ويُجهِّزوها لنزيلٍ آخَر.

- «لا ألبِّي الأماني»، يقولها سليم مستطعمًا الطَّريقة التي تُكوِّن بها الكلمات أنفسها في فمه.

وبينما يرتدي ملابسه يَشعُر بدوخةٍ غريبة.

نيويورك في غاية البساطة: الجادَّات ممتدَّة من الشَّمال إلى الجنوب، والشَّوارع من الغرب إلى الشَّرق. يسأل نفسه: لأيِّ حدٍّ قد يكون هذا صعبًا؟

يُلقي مفاتيح السيَّارة في الهواء ويلتقطها، ثم يضع نظَّارة الشَّمس البلاستيك السَّوداء التي وجدها في أحد الجيوب، ويُغادِر غُرفة الفندق ليذهب ويبحث عن سيَّارته الأجرة.

# الفصل الثَّامن

*قال إن للموتى أرواحًا، ولكن لمّا سألته:*
*كيف يُمكن ذلك؟ خلتُ الموتى أنفُسهم أرواحًا،*
*انتزَعني من غشيتي*
*ألا يُثير ذلك شكوكك في شيءٍ يُضمِره الموتى؟*
*بلى، ثمّة شيء ما يُضمِره الموتى*

- روبرت فروست، **ساحرتان**

يغلب الهدوء على الأسبوع السَّابق للكريسماس في دور الجنازات. هكذا علمَ شادو على العَشاء إذ شرحَ المستر آيبس الأمر قائلًا: «الباقون على قيد الحياة يتعلَّقون بشهود كريسماس أخير، أو العام الجديد حتى، أمَّا الآخَرون، مَن تُشعِرهم بهجة غيرهم واحتفالاتهم بالألم، فلم يُفقِدهم بعدُ ذلك العرض الأخير لـ «إنها لحياة رائعة»[lvii] ما تبقَّى من رغبةٍ في الحياة، لم يَلقوا بعدُ القشَّة الأخيرة، أو بمعنى أصح، غُصين الهولي[1] الأخير، الذي لا يكسر ظَهر البعير، بل ظَهر غزال الرَّنَة»، وعلى إثر الجزء الأخير أصدرَ صوتًا مكتومًا، نصفه ضحكة اعتدادٍ ونصفه نخير، وهو ما أوحى بأنه تفوَّه بعبارةٍ أمعنَ في تنقيحها وصقلها، ويَشعُر نحوها بشغفٍ خاص.

(1) الهولي أو البَهشيَّة: نبات شائك الأطراف يُستخدَم في زينة الكريسماس، ويُشار إليه كثيرًا باسم «شوك المسيح». (المُترجم).

«آيبس وچاكل، دار جنازاتٍ صغيرة عائليّة الملكيّة، واحدة من أواخر دور الجنازات المستقلّة فعليًا في المنطقة، أو هكذا صمّم المستر آيبس إذ قال: «جلُّ مجالات الإتجار البشري يُقدِّر الهُويّات التُجاريّة العاملة على المستوى القومي». حديث المستر آيبس كلّه شروح، حلقات دراسيّة جادّة سهلة خيّلت إلى شادو أستاذًا جامعيًا اعتاد المران في «مزرعة العضلات» ولا يستطيع الكلام، لا يستطيع إلّا أن يُحاضِر، يسوق الحُجج، يُفسِّر. خلال الدّقائق المعدودة الأولى من لقاء المستر آيبس تبيّن شادو أن دوره المتوقّع في أيِّ حوارٍ مع متعهِّد الجنازات أن ينبس بأقل القليل. كانا جالسيْن في مطعمٍ صغير يَبعُد مربّعي بناياتٍ عن «دار آيبس وچاكل للجنازات». تكوَّن عَشاء شادو من وجبة فطورٍ كاملة تُقدَّم طوال اليوم -تضمَّنت كُرات الهَشْپِي المقليّة- فيما أكلَ المستر آيبس قطعًا صغيرةً من شريحة كعكة قهوة. «السّبب في اعتقادي أن النّاس يحبُّون معرفة ما سيَحصُلون عليه مسبقًا، ومن ثمّ «مكدونالدز» و«وول-مارت» و«إف دابليو وولورث» (صاحبة الذّكرى العطِرة)، محال ذات علاماتٍ تجاريّة محفوظة وظاهرة في البلاد كلّها. أينما ذهبت ستَحصُل على الشّيء عينه، مع تنويعاتٍ إقليميّة صغيرة. أمّا في مجال دور الجنازات فالأوضاع مختلفة بحُكم الضّرورة. يجب أن تَشعُر بأنك تتلقّى خدمةً شخصيّةً تليق بأصول بلدةٍ صغيرة من شخصٍ لديه حافزٌ لاحتراف المهنة. تُريد اهتمامًا شخصيًّا بك وبفقيدك الحبيب في وقت خسارةٍ عظيمة. تبتغي أن تعرف أن حُزنك هذا حُزن على مستوى محلّي لا قومي. ولكن في كلُّ فروع الصّناعة -والموت صناعة يا صديقي الشّاب، ثِق بهذا- يجني المرء ماله من العمل بالجُملة، من الشّراء بكمّيّات، من مركزة عمليّاته. ليس شيئًا طيّبًا، لكنه حقيقي. المشكلة أن أحدًا لا يُريد أن يعرف أن أحبّاءه يُنقلون في ثلّاجات شاحناتٍ إلى مستودَعٍ كبير قديم معدّل، قد يحتوي على عشرين أو خمسين أو مئة جثّة يجب العمل عليها بسرعة. لا يا سيّدي. النّاس يُريدون أن يحسبوا أنفُسهم ذاهبين إلى شأنٍ عائلي، إلى مكانٍ سيُعامِلهم فيه باحترامِ شخصٌ سيرفع لهم القبّعة إذا صادفَهم في الشّارع».

يعتمر المستر آيبس قبّعةً، وهي قبّعة بنّيّة قاتمة تتماشى مع بليزره البنّي القاتم ووجهه البنّي القاتم، فيما تجثم عُوينات صغيرة ذهبيّة الإطار على أنفه. في ذاكرة شادو، المستر آيبس رجل قصير القامة، ولكن متى وقفَ

بجانبه اكتشف مجدَّدًا أن المستر آيبس يتجاوز الأقدام الستَّة طولًا. وفي عُنقه انحناءةٌ كطائر الكُركي.

- «وهكذا، عندما تدخُل الشَّركات الكُبرى سوقك الصَّغيرة فإنها تشتري اسم الشَّركة، وتدفع لمتعهِّدي الجنازات ليبقوا في وظائفهم، وتخلق مظهرًا من التَّنوُّع، لكن ما دُفِنَ أعظم. في الواقع، تلك الشَّركات محليَّة إذا كنت تعدُّ «برجر كينج» محليًّا. ومع ذلك، لأسبابنا الخاصَّة. نحن شركة مستقلَّة حقًّا. نُنفِّذ التَّحنيط بأنفسنا، وهو أفضل تحنيطٍ في البلاد، ولو أن أحدًا لا يعرف ذلك إلَّانا. لكننا لا نُمارِس حرق الموتى. كنا لنجني المزيد من المال لو أن لدينا فُرننا الخاص، إلَّا أن ذلك يتعارض مع ما نُجيده. كما يقول شريكي في العمل، إذا حباك الرَّبُّ بموهبةٍ أو مهارة، فإنها لفريضة عليك أن تستغلَّها أفضل استغلال. ألا تُوافقه؟».

قال شادو: «يبدو لي كلامًا معقولًا».

تابعَ المستر آيبس: «الرَّبُّ حبا شريكي في العمل بالسُّلطة على الموتى، تمامًا كما حباني بموهبة الكلِم. شيء جميل الكلِم. إنني أكتبُ كُتب حكاياتٍ بالمناسبة. ليست كتابةً أدبيَّةً، بل لمتعتي الشَّخصيَّة فحسب، سِيَر أشخاص». وصمتَ بُرهةً، وحين أدركَ شادو أنه كان عليه أن يَطلُب الإذن في قراءة واحدةٍ من القصص، كانت اللَّحظة قد فاتت. «على كلٍّ حال، ما نمنحه لهم هنا هو الاستمراريَّة، فثمَّة آيبس وجاكل يُزاوِلان المهنة هنا منذ مئتي عام. على أننا لم نكن متعهِّدي جنازاتٍ دومًا. كنا متعهِّدي دفن قبل هذا، وقبل ذلك كنا حانوتيَّة».

- «وقبل ذلك؟».

ابتسمَ المستر آيبس ابتسامةً فيها شيء من العجرفة، وقال: «إن لنا تاريخًا ضاربًا في القِدم. طبعًا لم نجد بيئتنا المناسبة هنا إلَّا بعد نهاية الحرب بين الولايات. حينئذٍ أصبحَت مُنشأتنا وجهة القوم الملوَّنين في هذه الأنحاء. قبل ذلك لم يعدَّنا أحدٌ ملوَّنين... أجانب ربما، غُرباء سُمر البشرة، ولكن ليس ملوَّنين. بمجرَّد أن وضعَت الحرب أوزارها، بسرعةٍ بالغة، لم يَعُد أحد يَذكُر زمنًا لم نكن نُعَدُّ فيه سُودًا. شريكي في العمل، لطالما كانت بشرته أشدَّ سُمرةً من بشرتي. كانت مرحلةً انتقاليَّةً سهلةً. غالبًا أنت ما يحسبه النَّاس، لكنني أستغربُ حينما يتكلَّمون عن الأمريكان الأفارقة، إذ يجعلني ذلك أفكِّرُ في

شعوب بلاد بنط، أو أوفير، أو النوبة. أمَّا نحن فلم نعدَّ أنفُسنا أفارقةً قطُّ... لقد كنا شعب النِّيل».

قال شادو: «كنتم مصريِّين إذًا».

مطَّ المستر آيبس شفته السُّفلي إلى أعلى، وطوَّح رأسه من جانبٍ إلى جانبٍ كأنه على زُنبرك، يزن الإيجابيَّات والسُّلبيَّات ويَنظُر إلى الأشياء من كلتا وجهتَي النَّظر، قبل أن يقول: «نعم ولا. «مصريُّون» تجعلني أفكِّرُ في مَن يعيشون هناك الآن، مَن بنوا مُدنهم فوق مقابرنا وقصورنا. هل يُشبِهونني؟».

هزَّ شادو كتفيه. لقد رأى رجالًا سُودًا يُشبِهون المستر آيبس، ورأى رجالًا بيضًا مسمرِّين يُشبِهون المستر آيبس.

سألَته النَّادلة وهي تُعيد ملء كوبَي القهوة: «ما رأيك في كعكة القهوة؟».

أجابَها المستر آيبس: «أفضل ما أكلتُ في حياتي. بلِّغي أمَّكِ تحيَّاتي الحارَّة».

قالت: «سأفعلُ»، وابتعدَت بخُطواتٍ نشيطة.

بصوتٍ خفيضٍ قال المستر آيبس: «إن عملت متعهِّد جنازاتٍ فلن تُريد أن تسأل عن صحَّة أحد، لأنهم يحسبونك تتشمَّم الأخبار لأجل تجارتك. هلَّا رأينا إن كانت غُرفتك جاهزة؟».

بخرَت أنفاسهما في هواء اللَّيل، وتلألأت أضواء الكريسماس في نوافذ المحال التي مرَّا بها.

قال شادو: «تفضُّلٌ منكم أن تُؤووني. أقدِّرُ هذا».

- «إننا مدينون لربِّ عملك بعددٍ من الصَّنائع، والرَّبُّ يعلم أن لدينا مساحةً تكفي. إنه بيت كبير قديم. كان عددنا أكثر بالمناسبة، والآن لم يتبقَّ إلَّا ثلاثتنا فقط. لن تعترض طريقنا».

- «ألديك فكرة عن الفترة التي يجب أن أبقاها معكم؟».

هزَّ المستر آيبس رأسه قائلًا: «لم يقل. لكننا سُعداء باستضافتك هنا، ويُمكننا أن نجد لك عملًا، إن لم تكن خرعًا، وإذا عاملت الموتى باحترام».

سألَ شادو: «أخبِرني، لماذا تُقيمون هنا في القاهرة؟ أهو الاسم الذي اجتذبَكم أو ما شابهَ؟».

- «لا، بتاتًا. الحقيقة أن هذه المنطقة أخذَت اسمها منا، ولو أن النَّاس لا يعون ذلك تقريبًا. في الأيام الخوالي كان هذا موقعًا تجاريًّا».

- «عصر التُّخوم الأمريكيَّة؟».

- «لك أن تُطلِق عليه هذا الاسم. *طابَ مساؤكِ يا مِسْ سيمنز!* و*كريسماس سعيدًا لكِ أيضًا!* القوم الذين جلبوني إلى هنا جاؤوا عبر المسيسبي منذ زمنٍ طويل».

توقَّف شادو في الطَّريق محملقًا، وقال: «أتحاوِل أن تُخبرني بأن قُدماء المصريِّين جاؤوا إلى هنا للتِّجارة قبل خمسة آلاف عام؟».

لم يردَّ المستر آيبس، لكنه أطلقَ ضحكةً مزهوَّةً عالية، وبعد ذلك قال: «قبل ثلاثة آلاف وخمسمئة وثلاثين عامًا على وجه التَّقريب».

- «حسن. سأصدِّقُ هذا على ما أظنُّ. فيمَ كانوا يُتاجِرون؟».

أجابَ المستر آيبس: «ليس الكثير. جلود حيوانات، بعضُ الطَّعام، نُحاس من المناجم في شبه الجزيرة العُليا. لم تكن أشياءَ تستحقُّ الجهد. أقاموا هنا وقتًا يكفي لأن يُؤمِنوا بنا ويُقدِّموا لنا القرابين، وليموت بعض التُّجَّار بالحُمَّى ويُدفَنوا هنا تاركين إيانا وراءهم»، وتوقَّف على حين غرَّةٍ في منتصَف الرَّصيف، ودارَ ببُطءٍ باسطًا ذراعيه، وأردفَ: «هذا البلد يُشبه محطَّة جراند سنترال منذ عشرة آلاف عامٍ أو أكثر. تسألني: وماذا عن كولمبس؟».

قال شادو بدماثة: «صحيح. وماذا عنه؟».

- «كولمبس فعلَ ما كان النَّاس يفعلونه قبله بآلاف السِّنين. لا شيء استثنائيًّا في المجيء إلى أمريكا. أكتبُ قصصًا عن هذا الموضوع بين الحين والآخَر».

واصلا المشي، وسألَ شادو: «قصصًا حقيقيَّة؟».

- «إلى حدٍّ ما، نعم. سأدعك تقرأ واحدةً أو اثنتين إن شئت. كلُّ شيءٍ مدوَّن ليقرأه كلُّ مَن له عينان ليرى. شخصيًّا -وأتكلَّمُ باعتباري مشتركًا في «ساينتفيك أمريكان»- أشعرُ بشفقةٍ بالغة على المحترفين متى عثروا على جمجمةٍ محيِّرة أخرى، على شيءٍ ينتمي إلى الشَّعب الخطأ، أو متى عثروا على تماثيل أو آثارٍ تُحيِّرهم... لأنهم يتكلَّمون عن الغريب ولكن ليس عن المستحيل، وهنا أشفقُ عليهم، لأنه حالما يُصبِح الشَّيء مستحيلًا فإنه يَخرُج بسهولةٍ من نطاق التَّصديق بالكامل، سواء أكان صحيحًا أم لم يكن. مثلًا، عندك جمجمة تُريك أن الآينو، سُكَّان اليابان الأصليِّين، كانوا في أمريكا قبل تسعة آلاف عام.[lviii] وعندك واحدة أخرى

تُريك أن البولينيزيِّين كانوا في كاليفورنيا قبل ألفي عامٍ تقريبًا.[lix] ويُهمهم العُلماء جميعًا ويتفكَّرون حائرين في إرجاع نَسب مَن لمَن وقد فاتَهم المغزى تمامًا. السَّماء وحدها تعلم ما سيَحدُث إذا اكتشفوا أنفاق خروج الهوبي.[lx] سيُحدِث ذلك تغييرًا جذريًّا في بعض النَّواحي، انتظِر وسترى. تسألني إن كان الأيرلنديُّون قد جاؤوا إلى أمريكا في عصور الظَّلام؟ بالطَّبع، والولش كذلك، والڤيكينج، في حين كان أفارقة السَّاحل الغربي -الذي دعوه لاحقًا بساحل العبيد أو ساحل العاج- يُتاجِرون مع أمريكا الجنوبيَّة، والصينيُّون زاروا أوريجن بضع مرَّاتٍ وأطلَقوا عليها اسم فو سانج،[lxi] والباسكيُّون أقاموا حقول صيد الأسماك السرِّيَّة المقدَّسة على ساحل نيوفندلاند قبل ألفي ومئتي سنة.[lxii] والآن أظنُّك ستقول: ولكن يا مستر آيبس، هؤلاء النَّاس كانوا بدائيِّين، لم يملكوا أجهزة تحكُّم في إشارات الراديو وحبوب ڤيتامين وطائراتٍ نفَّاثة».

لم يكن شادو قد قال شيئًا، أو انتوى قول شيء، لكنه شعرَ بأن كلامه مطلوب، فقال: «طيِّب، ألم يكونوا كذلك؟».

تحت أقدامهما تكسَّرت أوراق الخريف الميتة الأخيرة وقد يبَّسها الشِّتاء وأصابَها بالهشاشة.

- «التَّصوُّر الخاطئ الشَّائع أن النَّاس لم يُسافِروا مسافاتٍ طويلة بالقوارب قبل أيام كولمبس، ومع ذلك استوطنَ نيوزيلندا وتاهيتي وعددًا لا يُحصى من جُزر المحيط الهادي أناسٌ كانت براعتهم في الملاحة لتحثو الرَّماد في عينَي كولمبس. وثروة إفريقيا أتَت من التِّجارة، ولو أنها توجَّهت نحو الشَّرق غالبًا، نحو الهند والصين. وقومي، شعب النِّيل، اكتشفنا نحن مبكِّرًا أن من شأن قاربٍ من البوص أن يدور بك حول العالم إن تحلَّيت بالصَّبر وعبَّأت ما يكفي من جرار المياه العذبة.[lxiii] عليك أن تعلم أن أكبر مشكلات المجيء إلى أمريكا في سالف الزَّمان، أن البلاد هنا لم تكن تحتوي على أشياء كثيرة يُريد أحد مبادلة بضائعه بها، وأضِف إلى هذا بُعدها الشَّديد».

كانا قد بلغا منزلًا كبيرًا مبنيًّا على الطِّراز المسمَّى «الملكة آن». تساءلَ شادو مَن الملكة آن، ولِمَ كانت مولعةً بالمنازل ذات طراز «عائلة آدمز».[lxiv] المنزل هو الوحيد في هذا المربَّع الذي لا تسدُّ ألواح الخشب نوافذه. دخلا من البوَّابة، ودارا حول مؤخِّرة المبنى.

عبْر بابٍ كبير بمصراعيْن، فتحه المستر آيبس بمفتاح من حلقته، ودخلا حُجرةً واسعةً غير مدفَّأة يحتلُّها شخصان: رجل فارع الطُّول قاتم البشرة يُمسِك مبضعًا معدنيًّا كبيرًا، وفتاة ميتة في أواخر سنوات المراهقة ممدَّدة فوق جسمٍ طويل من البورسلين يُشبِه في آنٍ واحد الطَّاولة والحوض.

يحمل لوح من الفلّين على الحائط فوق الجثَّة عدَّة صُورٍ مثبَّته للفتاة الميتة، تبتسم في واحدةٍ منها تبدو أنها صورة وجهٍ للمدرسة الثَّانويَّة، وفي أخرى تقف في صفٍّ مع ثلاث فتياتٍ أخريات، وترتدي أربعتهن ما يبدو أنه فساتين الپروم، وقد ربطَت الفتاة شعرها الأسود فوق رأسها في عُقدةٍ صعبة الحلّ.

أمَّا وهي باردة على البورسلين، فشعرها مفكوك مسترسل حول كتفيها، وملبَّد بالدَّم الجاف.

قال آيبس: «هذا هو شريكي، المستر چاكل».

قال چاكل: «التقينا بالفعل. سامِحني على عدم مصافحتك».

نظرَ شادو إلى الفتاة على الطَّاولة سائلًا: «ماذا حدثَ لها؟».

أجابَ چاكل: «ذوق رديء في المصاحَبة».

تنهَّد المستر آيبس قائلًا: «ليس عيبًا قاتلًا دومًا، لكنه كان كذلك هذه المرَّة. كان ثملًا، ويحمل سكّينًا، وأخبرَته بظنِّها أنها حامل. لم يُصدِّق أن الولد له».

قال المستر چاكل: «طُعِنَت...»، وبدأ يعدُّ، وصدرَت تكَّة إذ داسَ مفتاحًا يعمل بالقدم ليُشغِّل الدكتافون الصَّغير الموضوع على طاولةٍ قريبة. «... خمس مرَّات. ثلاثة جروح بسكّين في جِدار الصَّدر الأمامي الأيسر. الأوَّل بين الحيِّز الوربي الرَّابع والحيِّز الوربي الخامس في الحد الوسطي للثَّدي الأيسر، طوله سنتيمتران وملّيمتران. الثَّاني والثَّالث في أدنى منتصَف الثَّدي الأيسر، نافذان عند الحيِّز الوربي السَّادس، متقاطعان، طولهما ثلاثة سنتيمترات. جرح واحد طوله سنتيمتران في جِدار الصَّدر الأمامي الأيسر العُلوي في الحيِّز الوربي الثَّاني، وجرح طوله خمسة سنتيمترات وعُمقه على الأكثر سنتيمتر واحد وستَّة ملّيمترات في العضلة المثلَّثة الأماميَّة الإنسيَّة، إصابة قطعيَّة. جروح الصَّدر كلُّها عميقة نافذة. لا تُوجَد إصابات خارجيَّة أخرى ظاهرة»، ثم رفعَ المستر چاكل ضغط قدمه عن المفتاح، ولاحظَ شادو ميكروفونًا صغيرًا يتدلَّى من سلكه فوق طاولة التَّحنيط.

سألَه شادو: «تعمل محقِّق وفياتٍ أيضًا إذًا؟».

أجابَه آيبس: «محقِّق الوفيات منصب سياسي في هذه الأنحاء. عمله أن يَركُل الجثث، وإذا لم تَركُله بدورها وقَّع شهادة الوفاة. چاكل يشغل وظيفةً تُسمَّى مُحضِّر تشريح، ويعمل تحت فاحص المقاطعة الطبِّي، يتولَّى التَّشريح ويحفظ عيِّنات النَّسيج للتَّحليل. لقد صوَّر جروحها بالفعل».

تجاهلَهما چاكل، وتناولَ مبضعًا كبيرًا وصنعَ شقًّا عميقًا بشكل حرف V كبير، بدأ عند كلتا عظمتَي التَّرقوة والتحمَ عند قصِّ الفتاة، ثم حوَّل چاكل الـ V إلى Y بشقٍّ عميق آخَر من عظمة القصِّ إلى عظم العانة. ثم التقطَ ما يبدو كمثقابٍ صغير ثقيل من الكروم، في طرفه سلاح منشارٍ مستدير بحجم رضيعة، وشغَّل الجهاز وشرعَ يشقُّ الضُّلوع على جانبَي عظمة القصِّ.

وانفتحَت الفتاة كصُرَّة نقود.

وفجأةً أدركَ شادو أنه يشمُّ رائحة لحمٍ كريهةً لاذعةً نفَّاذةً، فقال: «حسبتُ الرَّائحة ستكون أسوأ».

ردَّ چاكل: «إنها طازجة إلى حدٍّ كبير، والأمعاء لم تُثقَب، ولذا لا تشمُّ رائحة خراء».

وجدَ شادو نفسه يُشيح بوجهه، ليس من الاشمئزاز كما كان ليتوقَّع، بل بدافع رغبةٍ غريبةٍ في إعطاء الفتاة شيئًا من الخصوصيَّة. صعبٌ أن يكون المرء أشدَّ عُريًا من هذا الشَّيء المفتوح.

حلَّ چاكل الأمعاء الثُّعبانيَّة اللَّامعة في بطنها تحت معدتها وفي عُمق حوضها، ثم سحبَها بين أصابعه قدمًا بعد قدمٍ، ووصفَها للميكروفون بأنها «عاديَّة»، قبل أن يضعها في دلو على الأرض. بعد ذلك مصَّ الدَّم كلَّه من صدر الفتاة بمضخَّةٍ ماصَّة وقاسَ كمِّيَّته، ثم فحصَ الصَّدر من الدَّاخل، وقال للميكروفون: «ثلاثة تهتُّكاتٍ في غشاء التَّأمور القلبي، المملوء بالدَّم المتجلِّط والسَّائل».

أمسكَ چاكل قلب الفتاة، وقطعَه عند قمَّته، ودوَّره في يده يفحصه، ثم ضغطَ بقدمه على المفتاح قائلًا: «تهتُّكان في عضلة القلب، واحد طوله سنتيمتر ونصف في البُطين الأيمن، وواحد طوله سنتيمتر وثمانية مِلِّيمترات يخترق البُطين الأيسر».

أزالَ چاكل كلتا الرِّئتين، ووجدَ اليُسرى مطعونةً ونصف منهارة. وزنَهما، ووزنَ القلب، وصوَّر الجروح، ومن كلِّ رئةٍ قطعَ قطعةً صغيرةً من النَّسيج وضعَها في برطمان.

همسَ المستر آيبس لشادو على سبيل التَّوضيح: «فُرمالدهايد».

واصلَ جاكل الكلام في الميكروفون واصفًا ما يفعله وما يراه وهو يُزيل كبِد الفتاة والمعدة والطِّحال والبنكرياس وكلتا الكُليتين والرَّحم والمبيضَين.

وزنَ كلَّ عُضوٍ وسجَّل أنه عادي وغير مصاب، ومن كلِّ واحدٍ أخذ قطعة صغيرةً وضعَها في برطمان من الفُرمالدهايد.

ومن القلب والكبد وإحدى الكُليتين أخذَ قطعةً إضافيَّةً. هذه القطع لاكها ببُطءٍ لتدوم وقتًا، وأكلَها فيما يعمل.

وبشكلٍ ما بدا لشادو أن فعلته هذه خير، فعلة احترامٍ لا بشاعة.

ماضغًا قطعة قلب الفتاة، سأله جاكل: «هل تُريد البقاء معنا هنا مُدَّةً إذًا؟».

أجابَ شادو: «إذا قبلتموني».

قال المستر آيبس: «نقبلك بالتَّأكيد. لا سبب للرَّفض وأسباب عديدة للقبول. ما دُمت هنا فستكون تحت حمايتنا».

قال جاكل: «آملُ أنك لا تُمانِع النَّوم تحت سقفٍ واحدٍ مع الموتى».

فكَّر شادو في لمسة شفتَي لورا المُرَّتين الباردتين وقال: «نعم، ما داموا يظلُّون موتى على الأقل».

التفتَ جاكل إليه بعينين بنِّيَّتين داكنتين في نظرتهما تساؤل ساخر وبرود ككلاب الصَّحراء، واكتفى بقول: «يظلُّون موتى هنا».

قال شادو: «هكذا يبدو لي. ويبدو لي أن الموتى يعودون بمنتهى السُّهولة».

علَّق آيبس: «إطلاقًا. حتى الزومبي يُحوِّلونهم من الأحياء. القليل من المساحيق، والقليل من التَّرنُّم، ودَفعة صغيرة، ويُصبِح عندك زومبي. إنهم أحياء، غير أنهم يعتقدون أنفُسهم موتى. لكن إعادة الموتى إلى الحياة في أجسادهم حقًّا تتطلَّب قوَّةً»، وتردَّد لحظةً ثم أضافَ: «في الأرض القديمة، في الأيام القديمة، كان الأمر أسهل».

قال جاكل: «كان بإمكانك آنذاك أن تربط كا[1] الرَّجل بجسده لخمسة آلاف عام، تربطها أو تحلُّها، لكن ذلك كان منذ زمنٍ طويل»، ثم أخذَ جميع الأعضاء التي أزالَها وأعادَ وضعها باحترامٍ في فجوة الجسد، ووضعَ الأمعاء وعظمة القصِّ وشدَّ حواف الجلد قُرب بعضها بعضًا، ثم أخذَ إبرةً سميكةً وخيطًا،

(1) الكا: الجانب الماديّ من الرُّوح في الدِّيانة المصريَّة القديمة. (المُترجم).

وبحركاتٍ رشيقة حثيثة خاطَ الفتحة كرجلٍ يرتق كُرة بيسبول، ومن جديدٍ تحوَّلت الجثَّة من لحم إلى فتاة. ثم قال چاكل: «أريدُ بيرةً»، وخلعَ قُفّازَيْه المطّاطيَّين وألقاهما في عُلبة المهملات، وألقى أوفروله البنِّي الغامق في سلَّة، قبل أن يأخذ الصينيَّة المصنوعة من الورق المقوَّى التي وضعَ عليها البرطمانات الملأى قطع الأعضاء الحمراء والبنِّيَّة والأرجوانيَّة، ويقول: «هل ستأتيان؟».

صعدوا السُّلام الخلفيَّة إلى المطبخ، وهو غرفة بنِّيَّة وبيضاء، غرفة أنيقة محترمة بدَت لشادو كأنما وُضِعَ ديكورها في العشرينيَّات. عند أحد الجدران ثلّاجة «كلفينيتر» تطنُّ لنفسها، وقد فتحَ چاكل بابها ووضعَ بداخلها البرطمانات البلاستيك المحتوية على شُطف الطِّحال، وشُطف الكُليتين، والكبد، والقلب، ثم أخذَ ثلاث زُجاجاتٍ بنِّيَّة، وفتحَ آيبس دولابًا زُجاجي الواجهة وتناولَ ثلاث كؤوسٍ طويلة، وأشارَ لشادو بالجلوس إلى طاولة المطبخ.

صبَّ آيبس البيرة وناولَ شادو كأسًا وچاكل أخرى. كانت البيرة طيِّبة، مُرَّة وداكنة.

قال شادو: «بيرة جيِّدة».

قال آيبس: «نُخمِّرها بأنفسنا. قديمًا تولَّت النِّساء التَّخمير، وكنَّ أبرع فيه منا. أمَّا الآن فلم يَعُد إلَّا ثلاثتنا هنا، أنا وهو وهي»، وأشارَ إلى القِطَّة البنِّيَّة الصَّغيرة الغارقة في النَّوم داخل سلَّة قِطط في رُكن الغُرفة. «كنا أكثر في البداية، لكن بِست تركَتنا ليستكشف منذ... متى؟ مئتي عام؟ مؤكَّد أن كلَّ ذلك الزَّمن مرَّ. تلقَّينا منه بطاقةً بريديَّةً من سان فرانسيسكو في عام 1905 أو 1906، ثم لا شيء. أمَّا حورس المسكين...»، واستحالَت كلماته إلى تنهيدةٍ وهزَّ رأسه.

علَّق چاكل: «ما زلتُ أراه أحيانًا في طريقي لاستلام جثَّة»، ورشفَ من بيرته.

قال شادو: «سأعملُ لقاء قوتي ما دمتُ هنا. أخبِراني بما تحتاجان إليه وسأفعله».

أيَّده چاكل قائلًا: «سنجد لك عملًا».

فتحَت القِطَّة البنِّيَّة الصَّغيرة عينيها وشدَّت جسمها ناهضةً، ثم قطعَت أرضيَّة المطبخ وراحَت تدفع حذاء شادو برأسها، فأنزلَ يده اليُسرى وحكَّ جبهتها ووراء أذنيها وقذالها، لتقوِّس ظَهرها منتشيةً، ثم تنطُّ في حجره وتلصق نفسها بصدره وتُلامِس بأنفها البارد أنفه، قبل أن تتكوَّر على نفسها

في حجره وتعود إلى النَّوم. خفض شادو يده ليُملّس عليها ماسحًا بفروها الناعم ودفئها السَّار في حجره. تصرَّفت القطَّة كأنها في آمن مكانٍ في العالم، وشعرَ شادو بالارتياح.

وخلَّفت البيرة طنينًا سارًّا في رأسه.

قال چاكل: «غُرفتك عند قمَّة السَّلالم، بجوار الحمَّام. ستجد ثياب العمل معلَّقةً في الخزانة... سترى. ستحتاج إلى الاغتسال والحلاقة أوَّلًا على ما أظنُّ».

وهو ما فعلَه شادو. استحمَّ واقفًا في المغطس المصنوع من الحديد المصبوب، وحلقَ ذقنه -بتوتُّرٍ شديد- بموسى مستقيمةٍ أعارَه إياها چاكل، حدُّتها بتَّارة ومقبضها من عِرق اللُّؤلؤ. شكَّ شادو أنها تُستخدَم عادةً في الحلاقة الأخيرة للرِّجال الموتى. لم يستخدم موسى مستقيمةً من قبل قطُّ، لكنه لم يجرح نفسه. غسلَ معجون الحلاقة، ونظرَ إلى نفسه عاريًا في مرآة الحمَّام الملآنة ببُقع بُراز الذُّباب. مكدومٌ بدنه، كدمات جديدة في صدره وذراعيه تُغطِّي الباهتة التي خلَّفها فيه سويني المجنون. نظرَ إلى شعره الأسود المبتل والعينين الرَّماديَّتين الدَّاكنتين اللتين بادلتاه النَّظر بريبةٍ من المرآة، وإلى العلامات على بشرته ذات لون القهوة.

ثم، كأن شخصًا آخر يُوجِّه يده، رفعَ شادو الموسى المستقيمة ووضعَ نصلها المفتوح على حلقه.

وفكَّر: *سيكون مهربًا، مهربًا سهلًا. وإن وُجِدَ مَن يتعامَل ببساطةٍ وكفاءةٍ مع الموقف فيُنظِّف الفوضى ويستأنف الاهتمام بشؤونه، فهما هذان الرَّجلان الجالسان يشربان البيرة في المطبخ بالأسفل. لا مزيد من القلق، لا مزيد من لورا، لا مزيد من الألغاز والمؤامرات، لا مزيد من الأحلام السَّيِّئة. فقط السَّلام والهدوء والرَّاحة إلى الأبد. شقٌّ واحد نظيف من الأُذن إلى الأُذن. لن يتطلَّب الأمر أكثر من ذلك.*

وقفَ في مكانه والموسى على حلقه، ونضحَت لطخة ضئيلة من الدَّم من الموضع الذي مسَّ فيه النَّصل الجلد. لم يكن قد لاحظَ جرحًا حتى. قال لنفسه: *انظُر*، وكادَ يسمع الكلمات تُهمَس في أُذنه: *لا ألم. النَّصل أمضى من أن يُؤلِم. سأرحلُ قبل أن أشعر بشيء.*

ثم فُتِح باب الحمَّام، مجرَّد فرجةٍ صغيرة من بضع بوصات، تكفي لإدخال القِطَّة البنِّيَّة الصَّغيرة رأسها من الباب، لتـ«مرررر؟» له رامقةً إياه بفضول.

قال للقِطة: أهلًا. حسبتني أوصدتُ هذا الباب».

طوى الموسى البتَّارة ووضعَها على جانب الحوض، ومسحَ الدَّم عن جرحه الصَّغير بورقة حمَّام، ثم لفَّ خصره بمنشفةٍ ودخلَ غرفة النَّوم المجاورة.

مثل المطبخ، يبدو ديكور غُرفة نومه من العشرينيَّات، فبجانب صندوق الأدراج والمرآة طست وإبريق. أمَّا الغُرفة نفسها فزنخة الرَّائحة، كأنها لا تُهوَّى إلَّا على فتراتٍ متباعدة، وملاءات السَّرير بدَت رطبةً بعض الشَّيء حين لمسَها.

كان أحدهم قد جهَّز له ثيابًا على السَّرير بالفعل: بدلةً سوداء، وقميصًا أبيض، وربطة عُنق سوداء، وثيابًا داخليَّةً بيضاء، وجوربًا أسود، وعلى السَّجَّادة الإيرانيَّة البالية إلى جوار السَّرير حذاء أسود.

ألبسَ شادو نفسه. الثِّياب في حالةٍ جيِّدة، ولو أن أيًّا منها ليس جديدًا. تساءلَ إلى مَن كانت تنتمي. هل يضع جورب رجلٍ ميت؟ أهو على وشك انتعال حذاء رجلٍ ميت؟ ثم إنه ارتدى الثِّياب ونظرَ إلى نفسه في المرآة. وجدَها مثاليَّةً لمقاسه، ليس فيها ولو طول إضافي حول الصَّدر أو قِصر في الذِّراعين كما توقَّع. عدَّل ربطة العُنق في المرآة، والآن بدا له أن انعكاسه يبتسم له بتهكُّم، فحكَّ جانب أنفه، وأراحَه راحةً حقَّةً أن يرى الانعكاس يحذو حذوه.

والآن لا يتصوَّر عقله أنه فكَّر لحظةً في نحر نفسه.

وواصلَ انعكاسه الابتسام فيما عدَّل ربطة عُنقه.

قال له: «ماذا؟ أتعرف شيئًا لا أعرفه؟»، وفي الحال شعرَ بالحماقة.

فُتِحَ الباب مُصدرًا صريرًا، وانسلَّت القِطَّة إلى الدَّاخل من بين الباب وإطاره وقطعَت الغُرفة وقفزَت فوق عتبة النَّافذة. قال لها شادو: «أنتِ، لقد أغلقتُ هذا الباب. أعرفُ أني أغلقته». فحدجَته بنظرة اهتمامٍ بعينيها الصَّفراوين الدَّاكنتين كالكهرمان، ثم قفزَت من فوق عتبة النَّافذة إلى الفِراش، حيث لفَّت نفسها في كُرةٍ من الفرو وعادَت تنام، كُرة قِططيَّة فوق غطاء السَّرير القديم.

تركَ شادو الباب مفتوحًا لكي تستطيع القِطَّة الخروج ويتجدَّد هواء الغُرفة، ونزلَ السَّلالم التي صرَّت وتذمَّرت اعتراضًا على وزنه إذ خطا عليها، كأنها تُريد أن تُترَك وشأنها فحسب.

قال چاكل: «يا سلام! تبدو في غاية الأناقة». كان منتظرًا عند قاع السَّلالم، وقد ارتدى هو أيضًا بدلةً سوداء شبيهةً ببدلة شادو. «هل قُدت عربة موتى من قبل؟».

- «لا».

- «لكلِّ شيءٍ مرَّة أولى. إنها مركونة في الخارج».

تُوفِّيَت امرأة مسنَّة اسمها ليلا جودتشايلد. بتوجيهٍ من المستر چاكل، حملَ شادو المحفَّة الألومنيوم المطويَّة صاعدًا السُّلَّم الضيِّق إلى غُرفتها، وفتحها بجانب سريرها، ثم أخرجَ كيس جثثٍ أزرق نصف شفَّاف من البلاستيك، وفردَه بجوار الميتة فوق السَّرير، وأنزلَ سحَّابه. كانت ترتدي قميص نومٍ ورديًّا ومعطفًا منزليًّا مبطَّنًا. رفعَها شادو ولفَّ جُثمانها الهشَّ عديم الوزن تقريبًا بدثار، ثم وضعَه في الكيس وأغلقَه، ووضعَ الكيس فوق المحفَّة. وفيما فعلَ شادو هذا، تكلَّم چاكل مع رجلٍ طاعن في السِّن كان متزوِّجًا بليلا جودتشايلد وهي حيَّة، أو بالأحرى أصغى چاكل فيما تكلَّم الشَّيخ. عندما أغلقَ شادو كيس الجثث على المسز جودتشايلد، كان الشَّيخ يشرح مبلغ عقوق أولاده، وأحفاده أيضًا، ولو أن تلك ليست غلطتهم، بل غلطة آبائهم وأمَّهاتهم، فمَن شابهَ أباه فما ظلمَ، وقد حسبَ أنه ربَّاهم تربيةً أفضل.

دفعَ شادو وچاكل المحفَّة بحمولتها إلى قمَّة السُّلَّم الضيِّق، وتبعَهما الشَّيخ منتعلًا خُفَّي غُرفة نومٍ ومواصلًا الكلام، غالبًا عن المال، والطَّمع، والجحود. حملَ شادو طرف المحفَّة السُّفلي الأثقل نزولًا على السُّلَّم وخروجًا إلى الشَّارع، ثم دفعَها على الرَّصيف المتجلِّد إلى عربة الموتى. فتحَ چاكل باب العربة الخلفي، ولمَّا تردَّد شادو قال له: «ادفعها إلى الدَّاخل فقط، وستنطوي الدَّعامات إلى أعلى مفسحةً الطَّريق». دفعَ شادو المحفَّة فانطوَت الدَّعامات ودارَت العجلات وتدحرجَت المحفَّة على أرضيَّة العربة، ثم أراه چاكل كيف يُؤمِّنها بالأحزمة، وأغلقَ شادو باب العربة فيما أصغى چاكل إلى الشَّيخ الذي كان متزوِّجًا بليلا جودتشايلد يتكلَّم بلا انتباهٍ للبرد، رجل هرِم يضع خُفَّين ومعطف حمَّامٍ يقف على الرَّصيف الشَّتوي يحكي لچاكل عن أولاده الجشعين، أولادٍ لا يتميَّزون عن النُّسور الحائمة، ينتظرون أخذ ما ادَّخره هو وليلا من مالٍ قليل بشقِّ الأنفس، وكيف فرَّ مع زوجته الرَّاحلة إلى سانت لويس، وممفيس، وميامي، وانتهى بهم المطاف في القاهرة، وكم هو مرتاح البال لأن ليلا لم تَمُت في دار مسنِّين، وكم يخشى هو أن يموت في واحدة.

صحبا الشيخ إلى داخل المنزل ثانيةً وصعدا به السُّلَّم إلى غُرفته. كان جهاز تليفزيون صغير يُطنطِن من أحد أركان غُرفة نوم الزَّوجين، وحين مرَّ به شادو لاحظَ أن مقدِّمة الأخبار تبتسم له وتغمز بعينها، وبعدما استوثقَ من أن أحدًا لا يَنظُر في اتِّجاهه، رفعَ إصبعه الوُسطى للتليفزيون.

عندما رجعا إلى عربة الموتى قال چاكل: «لا يملكان مالًا. سيأتي ليرى آيبس غدًا ويختار أرخص جنازة. أتوقَّعُ أن صديقاتها سيُقنِعنه بأن يُنصِفها ويُعطيها وداعًا لائقًا في القاعة الأماميَّة، لكنه سيتذمَّر. لا يحتكِم على مال. لا أحد في هذه الأنحاء يحتكِم على مالٍ هذه الأيام. على كلِّ حال، سيموت في غضون ستَّة أشهُر، عام على الأكثر».

تساقطَت رُقاقات الثَّلج ودارَت أمام أضواء العربة الأماميَّة. الثَّلج في طريقه جنوبًا.

سألَ شادو: «أهو مريض؟».

- «ليس ذلك. النِّساء يَصمُدن بعد وفاة رجالهن، أمَّا الرِّجال -الرِّجال من أمثاله- لا يعيشون طويلًا بعد وفاة نسائهم. سترى... سيبدأ يتوه، لأن كلَّ شيءٍ مألوف سيرحل معها، ثم يتعب ويخبو، وبعدها يستسلم ويرحل. قد يأخذه الالتهاب الرِّئوي وقد يأخذه السَّرطان، أو قد يتوقَّف قلبه فحسب. الشَّيخوخة، وتتسرَّب منك طاقتك كلُّها على المقاومة، ثم تموت».

فكَّر شادو، ثم قال: «چاكل؟».

- «نعم».

- «هل تؤمن بالرُّوح؟». ليس السُّؤال الذي كان سيُلقيه بالضَّبط، وقد فاجأه أن يسمعه يَخرُج من فمه. لقد انتوى أن يقول شيئًا أقل مباشرةً، غير أنه لم يجد شيئًا أقل مباشرةً يقوله.

- «حسب الأحوال. في أيامي كان عندنا نظام كامل. عندما تموت تقف في صفٍّ، وتُحاسَب على أعمالك خيرها وشرِّها، وإذا رجحَت كفَّة أعمالك الشرِّيرة على وزن ريشةٍ أطعمنا عمميت[1] روحك وقلبك».

- «مؤكَّد أنه أكلَ أناسًا كثيرين».

---

(1) عمميت: آكلة الأرواح في الميثولوچيا المصريَّة، هجينة من فرس النَّهر والتِّمساح والأسد، وهي أنثى حسب الأساطير، لكن عدم إلمام شادو بالميثولوچيا المصريَّة يحول دون تمييزه الفرق. (المُترجم).

- «ليس بالأعداد التي تتصوَّرها. كنا نستخدم ريشةً ثقيلةً للغاية صنعناها خصِّيصًا. كان يجب أن تكون شخصًا زنيمًا حقًّا لترجح كفّتك على تلك الصَّغيرة الحُلوة. توقَّف هنا عند محطَّة الوقود. سنُعبِّئ بضعة جالونات».

كانت الشَّوارع هادئةً على النَّحو الذي تهدأ به الشَّوارع وقت باكورة الثَّلج فقط.

قال شادو وهو يضخُّ الوقود: «سيكون كريسماس أبيض».

- «نعم. تبًّا. ذلك الصَّبي كان ابن عذراءٍ محظوظًا حقًّا».

- «المسيح؟».

- «رجل محظوظ محظوظ. لو وقعَ في بالوعة مجاري لنهض ورائحته كالورد. بحقِّ الجحيم، ليس هذا عيد ميلاده أصلًا.[lxv] أتعلم هذا؟ لقد أخذَه من ميثرا.(1) هل صادفت ميثرا بعدُ؟ قُبَّعة حمراء، ولد لطيف».

- «لا، لا أظنُّ».

- «طيِّب... لم أرَ ميثرا في هذه الأنحاء قَطُّ. كان جُنديًا بالوراثة. ربما عادَ إلى الشَّرق الأوسط، يعيش مسترخيًا، ولو أني أحسبه رحلَ على الأرجح. هذه الأشياء تَحدُث. في يومٍ يستحمُّ كلُّ جُنديٍّ في الإمبراطوريَّة بدماء قرابينك من الثِّيران، وفي اليوم التَّالي لا يَذكُرون مجرَّد عيد ميلادك».

تحرَّكت مسَّاحات النَّافذة الأماميَّة دافعةً الثَّلج إلى الجانب ومجمِّعةً النُّدف في عُقدٍ ودوَّاماتٍ من الجليد الصَّافي.

اصفرَّت إشارة مرورٍ للحظةٍ ثم احمرَّت، فداسَ شادو الفرامل، لتلفَّ العربة وتدور حول نفسها في الطَّريق الخالي قبل أن تتوقَّف.

اخضرَّت الإشارة، فتحرَّك شادو رافعًا السُّرعة إلى عشرة أميالٍ في السَّاعة، وهو ما بدا له كافيًا على هذه الطُّرق الزَّلقة، وقد سعدَت السيَّارة تمامًا بالحركة على السُّرعة الثَّانية، فخمَّن شادو أنها بالتَّأكيد قضَت أوقاتٍ طويلةً على هذه السُّرعة معطَّلةَ المرور.

(1) ميثرا: إله الشَّمس والنُّور والخصوبة البابلي، وفي الميثولوجيا الهنديَّة حاكم النَّهار. (المُترجم).

قال چاكل: «لا بأس بهذا. طيّب، نعم، المسيح يُبلي بلاءً ممتازًا هنا. لكنني قابلتُ رجلًا قال إنه رآه يُحاول السّفر بالاستركاب على جانب الطّريق في أفغانستان، ولا أحد توقّف ليُوصّله. أتدري؟ كلُّ شيءٍ يعتمد على موقعك».

قال شادو: «أظنُّ أن في الطّريق عاصفةً حقيقيّةً»، وكان يتكلّم عن الطّقس.

وفي النّهاية، بعد فترة، عندما بدأ چاكل يُجيب، لم يتكلّم عن الطّقس على الإطلاق. «انظر إليّ أنا وآيبس. خلال أعوامٍ قليلة ستكسد تجارتنا. صحيحٌ أن عندنا مدّخراتٍ نضعها جانبًا من أجل السّنين العجاف، لكن السّنين العجاف هنا منذ زمنٍ طويل بالفعل، وكلُّ سنةٍ أعجف من سابقتها. حورس مجنون، مخبول حقًّا، يقضي وقته بأكمله في هيئة بازٍ ويأكل الحيوانات المدعوسة على قارعة الطّريق، فأيُّ حياةٍ هذه؟ وأنت رأيت باستت. كلُّ هذا ونحن في حالٍ أفضل من أكثرهم. على الأقل ننال قليلًا من الإيمان نستمرُّ به، أمّا معظم السُّذّج الآخرين فينالونه بالكاد. الأمر مثل العمل في الجنازات... يومًا ما سيشتري الكبار تجارتك بإرادتك أو رغمًا عنك، لأنهم أكبر وأكثر كفاءةً، ويعملون بجد. المقاومة لن تُغيّر شيئًا واحدًا لعينًا، لأننا خسرنا هذه المعركة تحديدًا حين جئنا إلى هذه الأرض الخضراء قبل مئة عامٍ أو ألف أو عشرة آلاف. وصلنا ولم تُبالِ أمريكا بوصولنا. وهكذا يشترينا الكبار، أو نمضي قُدمًا، أو نخرج على الطّريق. لذا نعم، أنت على حق، العاصفة مقبلة».

انعطفَ شادو إلى الشّارع حيث تقع المنازل، جميعها باستثناء واحدٍ ميتة، نوافذها عمياء مغطّاة بألواح الخشب. قال چاكل: «خُذ الزُّقاق الخلفي».

تراجعَ بالسيّارة حتى كادَت تلمس الباب ذا المصراعيْن في مؤخّرة المنزل. فتحَ آيبس العربة وباب المشرحة، وحلَّ شادو أربطة المحفّة وسحبَها إلى الخارج، لتدور الدّعامات ذات العجلات وتنزل بمجرّد مرورها من فوق المِصَدّ، ودفعَ المحفّة إلى طاولة التّحنيط، ثم رفعَ ليلا جودتشايلد حاملًا إياها برفقٍ في كيسها نصف الشفّاف كطفلةٍ نائمة، ووضعَها بحرصٍ على الطّاولة في المشرحة الباردة كأنه يخشى إيقاظها.

قال چاكل: «عندي لوح نقل. ليس عليك أن تحملها».

ردَّ شادو بأسلوبٍ بدأ يُحاكي به چاكل: «لا يهمُّ. أنا رجل كبير. حملها لا يُزعِجني».

في طفولته كان شادو صغير الحجم بالنّسبة إلى سنّه، بارز المرفقين والرُّكبتين. الصُّورة الوحيدة من طفولة شادو التي راقت لورا بما يكفي لبروزتها، يظهر فيها طفلًا جادًّ الملامح منفوش الشعر داكن العينين، يقف إلى جوار مائدةٍ محمَّلة بالكعك والبسكويت. يحسب شادو أن الصُّورة التُقطَت في حفلة كريسماس بسفارةٍ ما، بما أنه يضع ربطة عُنقٍ فراشة ويلبس أفضل ثيابه، مثلما يُلبِس المرء دُميةً. كان يرنو بمهابةٍ إلى عالم البالغين المحيط به.

كثيرًا تنقَّل شادو وأُمُّه، في أنحاء أوربا أوَّلًا من سفارةٍ إلى سفارة، حيث عملَت أُمُّه موظَّفة اتِّصالاتٍ في الشُّؤون الخارجيَّة، تنسخ الرَّسائل وتُرسِل التلجرامات السرِّيَّة عبر العالم، ثم، وهو في الثَّامنة من عُمره، عادا إلى الولايات المتَّحدة حيث بدأت أُمُّه تمرض بصورةٍ متقطِّعة حالَت دون احتفاظها بوظيفةٍ ثابتة، وبلا كللٍ تنقَّلا من مدينةٍ إلى مدينة، يقضيان عامًا هنا وعامًا هناك، لتعمل أُمُّه في وظائف مؤقَّتةٍ متى سمحَت حالتها الصحِّيَّة. لم يستقرَّا في أيِّ مكانٍ وقتًا يكفي أن يُكوِّن شادو أيَّة صداقات أو يَشعُر بأنه في وطنه أو يسترخي. كما أن شادو كان طفلًا صغير الحجم...

على أنه كبرَ بسرعةٍ شديدة. في ربيع عامه الثَّالث عشر كان الأطفال المحلِّيُّون يتنمَّرون عليه ويستفزُّونه لخوض شجاراتٍ يضمنون أنهم لن يخسروا فيها، وبعدها يجري شادو غاضبًا، وفي أغلب الأحيان باكيًا، إلى دورة مياه الصِّبيان ليغسل وجهه من الوحل أو الدَّم قبل أن يراه أحد. ثم حلَّ الصَّيف، صيف ثالث عشر سحريٌّ طويل قضاه متحاشيًا الأطفال الأكبر حجمًا، يسبح في حمَّام السِّباحة المحلِّي ويقرأ الكُتب التي يستعيرها من المكتبة على جانب حمَّام السِّباحة. في بداية الصَّيف كان يستطيع السِّباحة بالكاد، ومع نهاية أغسطس كان يسبح طولًا بعد طولٍ بمنتهى اليُسر، يقفز من فوق اللَّوح العالي ويَنضَج فتكتسب بشرته دُكنةً بنِّيَّةً من الشَّمس والماء. وفي سبتمبر عادَ إلى المدرسة ليكتشف أن الصِّبية الذين جعلوا حياته بؤسًا ما هُم إلَّا كائنات صغيرة طريَّة لم تَعُد تقوى على مضايقته، والاثنان اللذان حاوَلا هذا لُقِّنا درسًا في السُّلوك بقوَّةٍ وسرعةٍ وألم، ووجدَ شادو أنه أعادَ تعريف نفسه، فلم يَعُد يستطيع أن يكون طفلًا هادئًا يبذل قصارى جهده ليبقى متواريًا عن الأنظار في خلفيَّة كلِّ شيء، لأنه صارَ أكبر حجمًا وأوضح من أن يفعل ذلك. وهكذا مع نهاية العام الدِّراسي كان شادو عُضوًا في فريق السِّباحة وفريق رفع الأثقال، والمدرِّب يُغريه بالالتحاق بفريق السِّباق الثُّلاثي. أحبَّ أن يكون كبيرًا قويًّا،

فقد منحه هذا هُويَّةً. لقد اعتاد أن يكون طفلًا هادئًا خجولًا يحبُّ القراءة، وكان ذلك مؤلمًا. أمَّا الآن فهو فتى أحمق كبير، ولا أحد يتوقَّع منه أن يتمكَّن من فعل ما هو أكثر من حمل أريكةٍ إلى الغرفة المجاورة بمفرده.

لا أحد حتى لورا على الأقل.

حضَّر المستر آيبس عشاءً من الأرز والخضراوات المسلوقة لنفسه وللمستر چاكل، وهو ما شرحه بقوله: «لا آكلُ اللُّحوم، وچاكل يَحصُل على حاجته منها في أثناء عمله». أمَّا عند مكان شادو على المائدة فوُضِعَت عُلبة من قطع الدَّجاج من KFC، وزُجاجة من البيرة.

كان الدَّجاج أكثر من أن يأكله شادو كلَّه، فقاسمَ القِطَّة البواقي مزيلًا الجلد والقشرة الهشَّة ومنسِّلًا لها اللَّحم بأصابعه.

قال شادو وهو يأكل: «عرفتُ رجلًا في السِّجن اسمه چاكسن، كان يعمل في المكتبة. في مرَّةٍ أخبرَني بأنهم غيَّروا الاسم من «دجاج كنتكي المقلي» إلى KFC لأنهم لم يعودوا يُقدِّمون دجاجًا حقيقيًّا،[lxxvi] بل أصبحَ كائنًا متحوِّرًا معدَّلًا چينيًّا، مثل أمِّ أربعٍ وأربعين عملاقة بلا رأس، فقط فلقة بعد فلقة من الأوراك والصُّدور والأجنحة. يُطعِمونه بأنابيب التَّغذية. قال هذا الرَّجل إنهم لا يستطيعون استخدام كلمة «دجاج» بأمر الحكومة».

رفعَ المستر آيبس حاجبيه سائلًا: «أتظنُّ ذلك صحيحًا؟».

- «لا. أمَّا لُو كي، زميلي السَّابق في الزِّنزانة، فقال إنهم غيَّروا الاسم لأن كلمة «مقلي» أصبحَت كلمةً سيِّئةً. ربما أرادوا أن يحسب النَّاس أن الدَّجاج يطهو نفسه».

بعد العشاء استأذنَ چاكل ونزلَ إلى المشرحة، ودخلَ آيبس مكتبه ليَكتُب، في حين مكثَ شادو في المطبخ وقتًا أطول قليلًا، يُطعِم القِطَّة البنِّيَّة نسيل لحم صدر الدَّجاج ويشرب بيرته. بعد انتهاء البيرة والدَّجاج غسلَ الأطباق وأدوات المائدة ووضعَها على الرَّف لتجفَّ، ثم صعدَ إلى الطَّابق العُلوي.

استحمَّ في المغطس المزوَّد بأقدامٍ ذات أشكالٍ حيوانيَّة، وغسلَ أسنانه بالفُرشة والمعجون اللذين كانا للاستعمال مرَّة واحدة، مقرِّرًا أن يشتري فُرشة أسنانٍ جديدةً غدًا.

عندما عادَ إلى غُرفة النَّوم وجد القطّة البنّيّة الصُّغيرة نائمةً من جديدٍ فوق السَّرير عند القدم، تتكوَّر على نفسها آخذةً شكل هلال من الفرو. في الدُّرج الأوسط من صندوق الأدراج وجد عدّة منامات مقلّمة من القُطن، تبدو مصنوعةً منذ سبعين عامًا لكن رائحتها نظيفة. فارتدى واحدةً وجدها -مثل البدلة السَّوداء- تُناسِب مقاسه تمامًا كأنها مفصَّلة من أجله.

فوق المنضدة الصَّغيرة المجاورة للسَّرير كومة صغيرة من أعداد «ريدرز دايجست»، ولا واحد منها يتجاوَز تاريخه مارس 1960. كان چاكسن رجل المكتبة -الرَّجل نفسه الذي أقسمَ على صحّة قصّة كائن دجاج كنتكي المقلي المتحوِّر، وحكى له قصّة قطارات البضائع السَّوداء التي تستخدمها الحكومة لشحن المعتقلين السِّياسيِّين إلى معسكرات الاعتقال السرِّيّة في شمالي كاليفورنيا، وتتحرَّك عبر البلاد تحت جنح اللَّيل- قد أخبرَه أيضًا بأن الــ CIA تستخدم «ريدرز دايچست» واجهةً لمكاتبها الفرعيّة في أنحاء العالم، وقال إن كلَّ مكتبٍ لــ «ريدرز دايچست» في كلِّ دولةٍ هو في الحقيقة مكتب CIA.

في ذاكرة شادو قال الرَّاحل المستر وود: «نُكتة. كيف نضمن أن الــ CIA لم تكن متورِّطةً في اغتيال كنيدي؟».

واربَ شادو النَّافذة بضع بوصات، ما يكفي لدخول الهواء النَّقي وخروج القِطَّة إلى الشُّرفة.

أشعلَ المصباح المجاور للفِراش وصعدَ فوق الفِراش وشرعَ يقرأ قليلًا، يُحاوِل أن يُطفئ عقله، أن يُخرِج الأيام القليلة الماضية من رأسه، مختارًا المقالات البادية أكثر بعثًا على الملل من الأعداد البادية أكثر بعثًا على الملل. لاحظَ أنه بدأ يغيب في النَّوم في منتصَف فقرة «أنا بنكرياس چون»، وبالكاد وجدَ وقتًا لإطفاء المصباح ووضعِ رأسه على الوسادة قبل أن تنغلق عيناه ما تبقّى من اللَّيل.

لاحقًا لم يتمكَّن قَطُّ من استعادة تسلسُل ذلك الحُلم وتفاصيله، ولم تُسفِر محاولات تذكُّره إلَّا عن شبكةٍ معقَّدة من الصُّور القاتمة ناقصة التَّعريض في غُرفة عقله المظلمة. كانت في الحُلم فتاة، وقد التقاها في مكانٍ ما، والآن يمشيان على جسرٍ فوق بُحيرةٍ صغيرة في منتصَف بلدة، والرِّيح تُحرِّك

صفحة الماء صانعةً تموُّجاتٍ متوَّجةً بالقمم البيضاء، بدَت لشادو كأيدٍ ضئيلة ممتدَّة إليه.

– تحت. قالتها المرأة المرتدية تنُّورةً من نوع طبعة النَّمر تَرَفرِف وتتقلَّب في الرِّيح، والبشرة بين أعلى جوربها الطَّويل وتنُّورتها قشدة طريَّة، وفي حُلمه، فوق الجسر، أمام الله والعالم، جثا شادو على رُكبتيه أمامها دافنًا وجهه بين ساقيها، ينهل من رائحتها رائحة أنثى الغابة المسكِرة. في حُلمه أصبح يعي انتصابه في عالم الواقع، شيئًا متيبِّسًا نابضًا وحشيًّا مؤلمًا في صلابته كما في صِباه وقت اقتحامه البلوغ بلا فكرة لديه عمَّا يُسبِّب تلك التَّيبُّسات التِّلقائيَّة، عالمًا فقط أنها تُخيفه.

سحبَ وجهه ونظرَ إلى أعلى، ومع ذلك لم يستطِع رؤية وجهها، لكن فمه كان يسعى إلى فمها، وأحسَّ بشفتيها ناعمتين على شفتيه، واعتصرَت يداه نهديها، ثم إذا بهما تجريان على جلدها النَّاعم نعومة السَّاتان، تندسَّان في الفرو الذي يُخبِّئ خصرها ويُريحانه، وتنزلقان إلى شقِّها الرَّائع الذي دفئ وابتلَّ وانفرجَ له، كالزَّهرة يتفتَّح.

قرقرَت المرأة بانتشاءٍ ملتصقةً به، تمدُّ يدها إلى تيبُّسه وتعتصره. دفعَ أغطية السَّرير بعيدًا واعتلاها مباعدًا بين فخذيها، وقادَته يدها بين ساقيها، حيث كانت ولْجة واحدة، دَفعة واحدة سحريَّة...

والآن هو في زنزانته القديمة معها، يُقبِّلها بحرارة، وطوَّقته هي بذراعيها بقوَّةٍ وأطبقَت بساقيها على ساقيه كالكُلَّابة لكيلا يستطيع التَّحرُّر منها حتى لو أرادَ.

لم يَحدُث قَطُّ أن قبَّل شفتين بهذه النُّعومة. لم يعلم قَطُّ أن في العالم كلِّه شفتين بهذه النُّعومة. على أن لسانها كان خشنًا كالصَّنفرة إذ انزلقَ على لسانه.

– مَن أنتِ؟ سألَها.

لم تُجِبه، بل دفعَته على ظَهره، وبحركةٍ مرنة اعتلَته وبدأت تركبه... لا، لا تركبه، بل تنزلق بنفسها عليه في سلسلةٍ من الموجات النَّاعمة كالحرير تفوق كلٌّ منها سابقتها قوَّة، ضربات ونبضات وإيقاعات تكسَّرت عليه عقلًا وجسدًا في الوقت عينه كموجات البُحيرة التي تدفعها الرِّيح لتتكسَّر على الشَّاطئ. أظفارها حادَّة كالإبر، وقد انغرسَت في جانبيه وأدمَتهما، غير أنه لم يحسَّ

ألمًا، بل لذّة فقط، وقد حوّلت خيمياء ما كلّ شيءٍ إلى لحظاتٍ من المُتعة الخالصة.

- مَن أنتِ؟ سألها ثانيةً، يشهق ليلفظ الكلام.

حدّقت إليه بعينين بلون العنبر الدّاكن، ثم خفضَت فمها إلى غمه وقبّلته بحميّة، قبّلته بشدّةٍ وعُمقٍ لدرجة أنه -هناك على الجسر فوق البحيرة، في زنزانته بالسّجن، على الفِراش في دار الجنازات بالقاهرة- كادَ يَبلُغ الذُّروة، وامتطى هو هذا الإحساس مثلما تمتطي طائرة ورقيّة إعصارًا، يأمره بعدم بلوغ النّهاية، بعدم الانفجار، راغبًا في أن يستمرّ بلا آخِر. سيطرَ على إحساسه. يجب أن يُحذّرها.

- زوجتي *لورا ستَقتُلكِ*.

- *ليس أنا*.

انبثقَت شظيّةٌ من الهُراء من مكانٍ ما في عقله: في العصور الوُسطى قيلَ إنه إذا كانت المرأة فوق الرّجل في أثناء الجماع فستحبل بأسقف. هكذا كانوا يُسمُّون الوضع: محاولة الحمل بأسقف...

أرادَ معرفة اسمها، لكنه لم يجرؤ على سؤالها مرّةً ثالثةً، وألصقَت هي صدرها بصدره ليَشعُر بحلمتيها المنتصبتين، وكانت تعتصره، بوسيلةٍ ما تعتصره هناك بالأسفل في داخلها، وهذه المرّة لم يستطِع ركوب الموجة أو التّزلُّج عليها، هذه المرّة رفعَته الموجة ودوّرته وشقلبَته، وكان يُقوّس ظهره دافعًا نفسه في داخلها حتى أقصى عُمقٍ يتخيّله، كأنهما -على نحوٍ ما- جزء من المخلوق ذاته، يتذوّقان، يتشرّبان، يتعانَقان، يرغبان...

- *اترُك نفسك*. قالت، صوتها تحدُّم سِنّوري عميق. *أعطِني ما لديك. اترُك نفسك*. وبلغَ الذُّروة متشنّجًا ذائبًا، تسيل مؤخّرة عقله نفسها ثم تتسامى ببُطءٍ من حالةٍ إلى حالة.

في لحظةٍ ما عند النّهاية أخذَ نفسًا، جرعةً صافيةً من الهواء أحسّ بها في عُمق رئتيه، وعلمَ أنه يكتم أنفاسه منذ زمنٍ طويل؛ ثلاث سنواتٍ على الأقل، وربما أكثر.

- *والآن استرِح*، قالت، وقبّلت جفنيه بشفتيها النّاعمتين. *اصرف ما جرى من ذهنك، اصرف كلّ شيءٍ من ذهنك*.

النَّوم الذي نامَه بعدها كان عميقًا مريحًا بلا أحلام، وغاصَ فيه شادو وتقبَّله بمسرَّة.

الضَّوء غريب، والوقت -كما أخبرَته ساعة يده- السَّادسة وخمس وأربعون دقيقةً صباحًا، وما زالَت السَّماء مظلمةً بالخارج، إلَّا أن عتمةً زرقاء شاحبةً تُفعِم الغُرفة. نزلَ من السَّرير. كان واثقًا بأنه خلدَ إلى النَّوم مرتديًا منامةً، لكنه ألفى نفسه عاريًا، وأحسَّ بالهواء باردًا على جلده، فذهبَ إلى النَّافذة وأغلقَها.

خلال اللَّيل هبَّت عاصفة ثلجيَّة، وسقطَت الثُّلوج بارتفاع ستِّ بوصاتٍ أو أكثر. تحوَّل رُكن البلدة الذي يستطيع شادو رؤيته من نافذته، الرُّكن المتهدِّم القذر، إلى مكانٍ نظيف مختلف... هذه المنازل ليست مهجورةً منسيَّةً، بل مجمَّدة في صورةٍ من الأناقة، والشَّوارع اختفَت تمامًا وضاعَت تحت حقلٍ أبيض من الثَّلج.

حامَت فكرة عند حافة إدراكه، فكرة ما عن حتميَّة زوال الأشياء، تذبذبَت لحظةً ثم خبَت.

باستطاعته الرُّؤية كأنما يسطع ضوء النَّهار.

لاحظَ شادو شيئًا غريبًا في المرآة، فدنا منها وحدَّق حائرًا. رضوضه كلُّها اختفَت. لمسَ جانبه ضاغطًا بقوَّة بأنامله، يبحث عن واحدٍ من الآلام العميقة التي تُخبِره بأنه التقى المستر ستون والمستر وود، يُفتِّش عن براعم الكدمات المخضرَّة التي أهداها له سويني المجنون ولا يجد شيئًا. وجهه صافٍ لا آثار عليه، ولو أن على جانبيه وظَهره (الذي لوى نفسه ليَنظُر إليه) خدوشًا خلَّفها ما يبدو أنه مخالب.

لم يكن يَحلُم إذًا، لم يكن حُلمًا بالكامل.

فتحَ شادو الأدراج وارتدى ما وجدَه: بنطالًا «ليڤايس» عتيقًا من الدنيم الأزرق، وقميصًا، وسويتر أزرق ثقيلًا، ومعطف حانوتي أسود وجدَه معلَّقًا في الخزانة في مؤخِّرة الغُرفة.

مرَّةً أخرى تساءلَ لمَن كانت الملابس تنتمي، وانتعلَ حذاءه القديم.

لم يزل المنزل نائمًا، فقطعَه بهدوءٍ كالزّحف موصيًا ألواح الأرضيّة بعدم إصدار صرير، ثم خرجَ (من الباب الأمامي وليس المشرحة، ليس هذا الصّباح من غير داعٍ) ومشى في الثّلج البِكر لتترُك قدماه آثارًا غائرةً وتُصدر خُطواته أصوات سحقٍ إذ يضغط على الثّلج النّاعم بعُمقٍ فوق الرّصيف. الإضاءة أفضل في الخارج مما بدَت من داخل المنزل، وقد عكسَت الثُّلوج ضوء السّماء.

بعد خمس عشرة دقيقةً من المشي وصلَ شادو إلى جسرٍ بجانبه لافتة كبيرة تُنبّهه إلى أنه الآن يُغادِر القاهرة التّاريخيّة. تحت الجسر يقف رجل فارع القامة هزيل البنية، يمتصُّ الدُّخان من سيجارةٍ ويرتجف بلا انقطاع. خطرَ لشادو أنه تعرَّف الرَّجل؛ لكن الضّوء المنعكس على الثّلج يخدع عينيه، فاقتربَ أكثر وأكثر لكي يتأكّد. يرتدي الرَّجل سُترةً من الدنيم ويضع قبّعة بيسبول.

ثم، تحت الجسر في ظُلمة الشّتاء، صارَ شادو قريبًا كفايةً ليرى لطخة الكدمة الأرجوانيّة حول عين الرَّجل، وقال: «صباح الخير يا سويني المجنون».

خيَّم سكون كامل على العالم، ولا حتى السيّارات كسرَت الصّمت المحفوف بالثُّلوج.

قال سويني المجنون: «أهلًا يا رجل». لم يرفع عينيه. سيجارته ملفوفة باليد، وتساءلَ شادو إن كان الرَّجل يُدخّن سيجارةً ملغومةً. لكن لا، الرّائحة رائحة تبغ.

قال شادو: «إذا ظللت تَمكُث تحت الجسور يا سويني المجنون فسيحسبك النّاس ترول».[1]

هذه المرّة رفعَ سويني المجنون عينيه، ورأى شادو بياضهما حول قزحيّتيه. بدا الرَّجل خائفًا وهو يقول: «كنتُ أبحثُ عنك. يجب أن تُساعِدني يا رجل. لقد أغرقتُ نفسي في الوحل»، ثم امتصَّ الدُّخان من سيجارته الملفوفة باليد وشدَّها من فمه، لتلتصق البفرة بشفته السُّفلى وتتفسَّخ السّيجارة ساكبةً محتوياتها على لحيته الصّهباء وتيشرته المتّسخ. بيدين مسودَّتين نفضَ سويني المجنون التّبغ بحركاتٍ متشنّجة، كأنه حشرة خطرة.

---

(1) الترول: قزم بشع الخلقة من الميثولوچيا النورديّة، يَسكُن الكهوف وغيرها من الأماكن الخفيّة، ويُذكَر في عدد من القصص أنه يعيش تحت الجسور. (المُترجم).

قال شادو: «مواردي في حُكم النَّاضبة يا سويني المجنون، ولكن لِمَ لا تُخبِرني بما تحتاج إليه؟ أتُريدني أن أشتري لك قهوةً؟».

هزَّ سويني المجنون رأسه، وأخرجَ كيس تبغ وورقة بفرة من جيب سُترته الدنيم وبدأ يلفُّ لنفسه سيجارةً أخرى، وفيما فعلَ هذا انتفشَت لحيته وتحرَّك فمه، ولو أن كلامًا لم يُقل بصوتٍ مسموع. لعقَ الجانب اللَّاصق من الورقة ولفَّها بين أصابعه. والنَّتيجة شيء لا يُشبِه السَّيجارة إلَّا من بعيد. ثم قال سويني: «لستُ ترول. تبًّا. هؤلاء الملاعين سفلة حقًّا».

- «أعلمُ أنك لست ترول يا سويني». قالها شادو برفقٍ آملًا ألَّا يبدو كأنه يتفضَّل على الرَّجل. «كيف أساعدك؟».

أشعلَ سويني المجنون قدَّاحته الـ «زيبو»، وشبَّ اللَّهب في البوصة الأولى من سيجارته ثم خمدَ في رمادها. «هل تَذكُر كيف أريتك طريقة الحصول على عُملة؟ هل تَذكُر؟».

أجابَ شادو: «نعم». بعينِ الخيال رأى العُملة الذَّهب، وشاهدَها تَسقُط فوق تابوت لورا، وأبصرَها تتألَّق على جيدها. «أذكرُ».

- «أخذتَ العُملة الخطأ يا رجل».

اقتربَت سيَّارة من العتمة تحت الجسر مُعميةً أعيُنهما بأضوائها، وإذ مرَّت بهما أبطأت سُرعتها ثم توقَّفت، وانخفضَت نافذة. «أكلُّ شيءٍ بخير هنا أيها السيِّدان؟».

قال شادو: «كلُّ شيءٍ في أفضل حال، شكرًا أيها الضَّابط. خرجنا من أجل تمشيةٍ صباحيَّة فقط».

قال الشُّرطي: «ليكن». وإن لم يبدُ أنه صدَّق أن كلَّ شيءٍ بخير، وهكذا انتظرَ، فوضعَ شادو يده على كتف سويني المجنون، وتقدَّم به مغادرًا البلدة، بعيدًا عن سيَّارة الشُّرطة. سمعَ طنينَ النَّافذة وهي تنغلِق، لكن السيَّارة لم تتحرَّك.

سارَ شادو، وسارَ سويني المجنون، وأحيانًا ترنَّح. مرَّا بلافتةٍ تقول: «**مدينة المستقبل**»، فرأى شادو بعين الخيال مدينةً ملأى بالأبراج المدبَّبة وناطحات سحابٍ من رسوم فرانك ر. پول، جميعها يلتمع بألوان أوَّليَّة رقيقة، وعرباتٍ هوائيَّةً بسقوفٍ مقبَّبة منطلقةً من بُرجٍ إلى بُرجٍ كذُبابات حائمة برَّاقة. تلك هي مدينة المستقبل، وبشكلٍ ما لم يحسب شادو أنها ستُبنى في القاهرة أبدًا.

مرَّت سيَّارة الشُّرطة بهما ببُطءٍ ثم دارت وعادت إلى البلدة رافعةً سرعتها على الطَّريق الثَّلجي.

قال شادو: «والآن هلَّا أخبرتني بما يُزعِجك؟».

- «لقد فعلتها كما قال، فعلتُ كلَّ شيءٍ كما قال، لكنني أعطيتك العُملة الخطأ. لم يكن يجب أن تكون تلك العُملة. تلك العُملة لأصحاب الدَّم الملكي. أترى؟ لم يكن مفترضًا أن أستطيع أخذها من الأصل. تلك عُملة تُعطيها لملك أمريكا نفسه، لا لوغدٍ حقير مثلك ومثلي. والآن أنا في مشكلةٍ كبيرة. أعِد لي العُملة يا رجل. إذا أعدتها فلن تراني ثانيةً أبدًا، أُقْسِمُبِبرانلْمَلْعُونِ،[1] اتَّفقنا؟ أقسمُ بكلِّ السَّنوات التي قضيتها بين الأشجار الملعونة».

- «فعلتها كما قال مَن يا سويني؟».

- «جريمنير، الأخ الذي تدعوه بالأربعاء. أتعلم مَن يكون؟ أتعلم مَن هو حقيقةً؟».

- «نعم، على ما أظنُّ».

لاحَت في عينَي الأيرلندي الزُّرقاويْن المجنونتيْن نظرة مذعورة، وقال: «لم أفعل شيئًا سيِّئًا. لم يكن شيئًا يُمكنك... لا شيء سيِّئًا. قال لي فقط أن أكون في ذلك البار وأستفزَّك لتُقاتِلني. قال إنه يُريد أن يرى معدنك».

- «هل قال لك أن تفعل شيئًا آخَر؟».

ارتجفَ سويني واختلجَ، وللحظةٍ فكَّر شادو أن البرد السَّبب، ثم أدركَ أين رأى هذه الرَّجفة من قبل: في السِّجن. إنها رجفة المدمنين. سويني يُعاني أعراض انسحابٍ من شيءٍ ما، وشادو على استعدادٍ لأن يُراهِن أنه الهروين. لِپريكون مدمن؟ أطفأ سويني طرف السِّيجارة المشتعل بأنامله ورماه أرضًا، ووضعَ بقيَّة السِّيجارة المصفرَّة في جيبه، ثم فركَ أصابعه الملوَّثة ونفخَ فيها محاولًا أن يبثَّ فيها الدِّفء، وقال بصوتٍ باتَ أنينًا: «اسمع، فقط أعطِني العُملة الملعونة يا رجل. لِمَ تُريدها؟ هَه؟ يُوجَد المزيد منها حيث أتَت. سأعطيك واحدةً أخرى لا تقلُّ قيمةً، بل سأعطيك قدرًا فاحشًا يا رجل».

---

(1) بران المبارَك: إله كلتي عملاق، وملك إنجلترا المتوَّج في الأساطير الوِلشيَّة. (المُترجم).

خلعَ سويني قبَّعة البيسبول القذرة، وداعبَ الهواء بيُمناه مخرجًا منه عُملةً ذهبيَّةً كبيرةً أسقطَها في القبَّعة، ثم أخذَ واحدةً ثانيةً من خيطٍ من بخر الأنفاس، ثم أخرى، يلتقط العُملات ويأخذها من هواء الصُّبح السَّاكن حتى أترعَت القبَّعة مرغِمةً سويني على حملها بكلتا يديه.

ومدَّ سويني قبَّعة البيسبول الملأى الذَّهب لشادو قائلًا: «هاكَ، خُذها يا رجل. فقط أعِد لي العُملة التي أعطيتها لك».

نظرَ شادو إلى القبَّعة متسائلًا عن قيمة محتوياتها، ثم سألَ: «وأين سأنفقُ هذه العُملات يا سويني المجنون؟ أهناك أماكنُ كثيرة يُمكنك أن تُحوِّل فيها ذهبك إلى نقد؟».

لوهلةٍ حسبَ أن الأيرلندي سيضربه، لكنَّ الوهلة مرَّت، ووقفَ سويني المجنون في مكانه يمدُّ قبَّعته الملأى بالذَّهب باديًا مثل أوليڤر تويست. ثم ترقرقَت الدُّموع في عينيه الزَّرقاوين وبدأت تسيل على وجنتيه، وأخذَ القبَّعة -الخالية تمامًا الآنَ إلَّا من بندانة ملوَّثة بالدُّهون- وعادَ يضعها فوق فروة رأسه الزَّاحف عليها الصَّلع. «يجب أن تُعيدها يا رجل. ألم أرِك الطَّريقة؟ أريتك كيف تأخذ عُملاتٍ من الذَّخيرة، أريتك مكان الذَّخيرة، كنز الشَّمس. فقط أعِد لي العُملة الأولى. لم تكن ملكي».

- «لم تعُد معي».

انقطعَت دموع سويني المجنون، وظهرَت بُقع من اللَّون على وجنتيه، وقال: «أنت، أيها الملعون الـ...»، إلَّا أن الكلام خذلَه، وانفتحَ فمه وانغلقَ بلا صوت.

قال شادو: «أخبرك بالحقيقة. أنا آسف. لو أنها معي لأعدتها إليك، لكنني أهديتها».

حطَّت يدا سويني المتَّسختان على كتفَي شادو ككُلَّابتيْن، وحملقَت العينان الزَّرقاوان الشَّاحبتان في عينيه، وقد صنعَت الدُّموع خطوطًا على وجهه. قال سويني المجنون: «تبًّا»، وشمَّ شادو روائح التَّبغ والبيرة القديمة وعَرق الويسكي. «أهديتها وطواعيةً وبإرادتك الحرَّة. سُحقًا لعينيك الدَّاكنتين، أهديت العُملة الملعونة».

قال شادو: «أنا آسف»، وتذكَّر الدَّقَّة المكتومة الهامسة التي أحدثَتها العُملة إذ حطَّت على تابوت لورا.

- «آسف أو غير آسف، إنني لمَدان وإنني لهالك». عادَ الدَّمع يتدفَّق، وبدأ المخاط المائع يسيل من أنف الرَّجل، ولحظتها ذاب كلامه مستحيلًا إلى مقاطع لم تتخثَّر معًا صانعةً كلماتٍ. «باه-باه-باه-باه. مَه-مَه-مَه-مَه-مَه». مسحَ أنفه وعينيه بكُمِّه معكِّرًا وجهه بنقوشٍ غريبة وملوِّثًا لحيته وشاربه بالمخاط.

اعتصرَ شادو عضد سويني المجنون بحركةٍ ذكريَّة ملخومة. لسان حالها: *أنا هنا*.

أخيرًا قال سويني المجنون: «يا ليتني لم أوجَد قطُّ». ثم رفعَ ناظريْه سائلًا: «الرَّجل الذي أعطيتها له، أيُمكن أن يُعيدها؟».

- «إنها امرأة، ولا أدري أين هي. ولكن لا، لا أعتقدُ أنها ستُعيدها».

تنهَّد سويني بأسى، وقال: «لمَّا كنتُ غُلامًا التقيتُ امرأةً تحت النُّجوم. تركَتني أعبثُ برُمَّانتيْها، وأخبرَتني بطالعي. قالت لي إنني سأهلكُ وأُهجَرُ غرب مشرق الشَّمس، وإن حلية امرأةٍ ميتة ستُقرِّر مصيري بلا رجعة، فضحكتُ وصببتُ المزيد من نبيذ الشَّعير وعبثتُ برُمَّانتيْها مرَّةً أخرى، وقبَّلتها على شفتيها الجميلتين. كانت تلك الأيام الحُلوة. لم يكنْ أوائل الرُّهبان الرَّماديِّين قد أتوا إلى أرضنا بعدُ،[lxvii] ولا ركبوا البحر الأخضر غربًا. والآن». توقَّف في منتصَف العبارة، والتفتَ برأسه وركَّزَ نظرته على شادو قائلًا بتأنيب: «لا يَجدُر بك أن تثق به».

- «مَن؟».

- «الأربعاء. يجب ألَّا تثق به».

- «ليس عليَّ أن أثق به. إنني أعملُ لحسابه».

- «أتَتذكَّر كيف تفعلها؟».

- «ماذا؟». شعرَ شادو كأنه يخوض حوارًا مع نصف دستةٍ من الأشخاص المختلفين. الرَّجل الذي يَزعُم أنه لِبريكون يُتَهتِه ويقفز من شخصيَّةٍ إلى شخصيَّةٍ ومن موضوعٍ إلى موضوعٍ كما لو أن ما تبقَّى له من خلايا المُخِّ يشتعل، يلتهب، قبل أن ينطفئ نهائيًّا.

قال سويني: «العُملات يا رجل، العُملات. لقد أريتك، أتَذكُر؟»، ورفعَ إصبعين إلى وجهه ورمقَهما، ثم أخرجَ عُملةً ذهبيَّةً من فمه، وألقاها لشادو الذي مدَّ يده ليلتقطها، لكن لا عُملة بلغَته.

ردَّ شادو: «كنتُ ثملًا. لا أذكرُ».

عبرَ سويني الطَّريق متعثِّرًا. السَّماء منيرة الآن، والعالم أبيض ورمادي. تبعَه شادو إذ مشى بخُطواتٍ متواثبة واسعة، يبدو كأنما يَسقط طوال الوقت لكن ساقيه موجودتان دومًا لإيقافه ودفعه إلى التَّعثُّر من جديد. عندما وصلا إلى الجسر قبضَ على القرميد بيدٍ واحدة، والتفتَ يقول: «أمعك القليل من النُّقد؟ لا أحتاجُ إلى كثير، فقط ما يكفي لشراء تذكرةٍ للخروج من هذا المكان. عشرون دولارًا تكفيني تمامًا. أمعك عشرون دولارًا؟ مجرَّد عشرين دولارًا زهيدة؟».

سألَه شادو: «أينَ ستذهب بتذكرة حافلةٍ بعشرينَ دولارًا؟».

أجابَ سويني: «يُمكنني الخروج منَ هنا، يُمكنني الابتعاد قبل أن تضرب العاصفة، الابتعاد عن عالمٍ أمسَت فيه منتجات الأفيون ديانة الدَّهماء، بعيدًا عن». ثانيةً توقَّف في منتصَف العبارة، ومسحَ أنفه بجانب يده، ثم مسحَ يده على كُمِّه.

دسَّ شادو يده في بنطاله الچينز وأخرجَ ورقةً بعشرين دولارًا، وناولَها لسويني قائلًا: «خُذ».

كوَّر سويني الورقة ودسَّها في قعر جيب سُترته الدنيم المتَّسخة بالزَّيت، تحت الشَّارة المخيطة التي تعرض نسريْن فوق فرع شجرةٍ ميت، وتحتهما بخطٍّ مقروء بالكاد عبارة «**لا صبر ولا كلام فارغ! سأذهبُ لأقتل شيئًا!**». أومأ سويني برأسه، وقال: «ستُوصِلني هذه إلى حيث أريدُ الذَّهاب»، ثم استندَ إلى القرميد ونقَّب في جيوبه حتى عثرَ على بقيَّة السِّيجارة التي أطفأها قبل قليل، وأشعلَها بحذرٍ محاولًا ألَّا يلسع أصابعه أو لحيته، قبل أن يقول كأنه لم يقل شيئًا في ذلك اليوم: «سأخبرك بشيء. إنك تمشي على أرض مشنقة، حول رقبتك حبل من خيوط القنَّب وفوق كلٍّ من كتفيك طائر غُداف ينتظر عينيك، ولشجرة المشنقة جذور عميقة، فالشَّجرة تمتدُّ منَ الجنَّة إلى الجحيم، وما عالمنا إلَّا الفرع الذي يتدلَّى منه الحبل»، وصمتَ لحظةً، ثم قال: «سأستريح هنا قليلًا»، وأقعى مسندًا ظَهره إلى القرميد الأسود.

قال شادو: «حظًّا سعيدًا».

ردَّ سويني المجنون: «بحقِّ الجحيم، إنني هالك. أيًّا كان. شكرًا».

سارَ شادو راجعًا إلى البلدة. كانت السَّاعة الثَّامنة صباحًا، والقاهرة تستيقظ كدابَّةٍ متعَبة. ألقى نظرةً سريعةً نحو الجسر، ورأى وجه سويني الممتقع المخطَّط بالدَّمع والتُّراب، يُشاهِده يبتعد.

وكانت هذه آخِر مرَّةٍ رأى شادو سويني المجنون حيًا.

مرَّت الأيام الشَّتويَّة العابرة السَّابقة للكريسماس مثل لحظاتٍ من النُّور في ظُلمات الشتاء، وسرعان ما انقضَت في دار الموتى.

في الثَّالث والعشرين من ديسمبر استضافت «چاكل وأيبس» حفلة تأبين لليلا جودتشايلد. ملأت نساء نشيطات المطبخ بالعُلب والقدور والمقالي والآنية البلاستيكيَّة، ومُدِّدَ جُثمان الرَّاحلة في تابوتها بقاعة دار الجنازات الأماميَّة محاطًا بزهور الصُّوبات، فيما احتلَّت جانب القاعة الآخر مائدة محمَّلة بأكوام عالية من الكولسلو والفاصوليا وكُرات الهَشْبِّي المقليَّة بدقيق الذُّرة والدَّجاج والضُّلوع واللُّوبيا. مع انتصاف الأصيل عجَّ المنزل بمَن يبكون ومَن يضحكون ومَن يُصافِحون القسِّيس، وقد نظَّم كلَّ شيءٍ وأشرفَ عليه المستران چاكل وآيبس صاحبا البدلتين الغامقتين. موعد الدَّفنة في الصَّباح التَّالي.

عندما رنَّ هاتف القاعة (وهو هاتف أسود من الباكيليت، على وجهه قُرص دوَّار أصيل)، ردَّ المستر آيبس، ثم انتحى بشادو جانبًا، وقال له: «إنها الشُّرطة. أيُمكنك أن تنقل شحنةً؟».

- «بالتَّأكيد».

قال آيبس: «عليك بالتَّحفُّظ. هاكَ»، ودوَّن العنوان على قُصاصة ورق، وناولَها لشادو الذي قرأ العنوان المكتوب بخطٍّ منقوشٍ نضيد، ثم طوى الورقة ووضعَها في جيبه. «ستكون سيَّارة شُرطةٍ موجودةً».

خرجَ شادو من الخلفيَّة وركبَ عربة الموتى. كان كلٌّ من المستر چاكل والمستر آيبس قد حرصَ على أن يشرح له -على حدة- أن العربة في الحقيقة ينبغي أن تُستخدَم للجنازات فقط، وأن عندهما سيَّارة نقلٍ صغيرةً يستخدمانها لاستلام الجثث، لكن السيَّارة في ورشةٍ حاليًّا، ومنذ ثلاثة أسابيع يُصلِحونها، وهلَّا توخَّى الحذر التَّام مع عربة الموتى؟ تحرَّك شادو في الشَّارع بحذر، ومع أن كاسحات الثَّلج نظَّفت الطُّرق فقد شعرَ بالارتياح للقيادة البطيئة. بدا له لائقًا أن تتحرَّك عربات الموتى ببُطء، ولو أنه بالكاد يتذكَّر آخِر مرَّةٍ رأى عربة موتى في الشَّوارع. جالَ ببال شادو أن الموت اختفى من شوارع أمريكا، والآن يُدرِك النَّاس في المستشفيات وسيَّارات الإسعاف. يجب *ألَّا نُروِّع الأحياء*. أخبرَه المستر آيبس بأن بعض المستشفيات ينقل الموتى

في المستوى السُّفلي من المحقّات المغطّاة البادية خاليةً، فيقطع المتوفّون دروبهم على طريقتهم المستترة.

رأى شادو سيّارة دوريّة زرقاء داكنةً مركونةً في شارعٍ جانبي، فأوقفَ العربة وراءها. في السيّارة شُرطيّان يشرب كلٌّ منهما قهوته من غطاء تُرمس، وقد تركا المحرّك يعمل ليبقيا دافئيْن.

نقرَ شادو على النّافذة الجانبيّة.

- «نعم؟».

- «أنا من دار الجنازات».

قال الشُّرطي: «ننتظر الفاحص الطبّي»، وتساءلَ شادو إن كان هذا الرَّجل نفسه الذي كلّمه تحت الجسر.

نزلَ الشُّرطي الأسود من السيّارة تاركًا زميله على مقعد القيادة، وقادَ شادو إلى مكبٍّ قمامة. كان سويني المجنون جالسًا في الثّلج إلى جوار المكب، في حجره زُجاجة خضراء فارغة، وعلى وجهه وقبّعته وكتفيه طبقة خفيفة من الثّلج والجليد، ولا يطرف له جفن. قال الشُّرطي: «سكّير ميت».

- «على ما يبدو».

- «لا تلمس شيئًا. الفاحص الطبّي سيصل في أيّ لحظة. إن طلبت رأيي، الرَّجل شربَ حتى فقدَ الوعي وتجمّد بردًا».

وافقَه شادو قائلًا: «نعم، هكذا يبدو الأمر بالفعل».

قرفصَ وألقى نظرةً على الزُّجاجة في يد سويني. ويسكي «چيمسن» الأيرلندي، تذكرة بعشرين دولارًا للخروج من هذا المكان.

توقّفت سيّارة «نيسان» صغيرة خضراء، وخرجَ منها رجل مشدود الأعصاب في منتصَف العُمر، شعره رملي وشاربه رملي، وتقدّم. بينما لمسَ الرَّجل عُنق الجثّة فكّر شادو: *يَركُل الجثّة، وإذا لم تَركُله بدورها...*

قال الفاحص الطبّي: «إنه ميت. هل من بطاقة هُويّة؟».

أجابَ الشُّرطي: «مجهول الهُويّة».

رمقَ الفاحص الطبّي شادو، وسألَه: «تعمل عند چاكل وآيبس؟».

- «نعم».

- «قُل لچاكل أن يرفع بصمات الأسنان والأصابع ويلتقط صُورًا لأجل تحديد الهُويَّة. لا داعي للتَّشريح. عليه فقط أن يسحب عيِّنة دمٍ لاختبار السُّموم. فهمت كلَّ هذا؟ هل تُريدني أن أكتبه لك؟».

- «لا، لا حاجة، سأتذكَّرُ».

عبسَ الرَّجل هنيهةً، ثم أخذَ من محفظته بطاقة أعمالٍ وشخبطَ عليها، وناولَها لشادو قائلًا: «أعطِ هذه لچاكل»، ثم قال الفاحص الطبِّي للجميع: «كريسماس سعيدًا»، وانصرفَ. أمَّا الشُّرطيَّان فاحتفظا بالزُّجاجة الفارغة.

وقَّع شادو بتسلُّم مجهول الهُويَّة، ووضعَه فوق المحفَّة. كانت الجثَّة متصلِّبةً للغاية، ولم يستطِع شادو تغيير وضعها الجالس. فعبثَ بالمحفَّة حتى وجدَ أن بإمكانه رفع أحد طرفيها، وهكذا ربطَ مجهول الهُويَّة جالسًا إلى المحفَّة ووضعَه في مؤخِّرة عربة الموتى مواجهًا المقدِّمة. لا بأس بأن يمنحه ركوبةً جيِّدةً. أغلقَ ستائر المؤخِّرة، ثم تحرَّك عائدًا إلى دار الجنازات.

كانت العربة متوقِّفةً عند إشارةٍ حمراء -الإشارة نفسها التي فشلَ في التَّوقُّف عندها قبل بضع ليالٍ- عندما سمعَ صوتًا مبحوحًا يقول: «وأريدُ حفل تأبينٍ فاخرًا يُقدَّم فيه الأفضل مِن كلِّ شيء، وتُسقِط الحسناوات دموعهن وثيابهن مفجوعات، ويرثيني الشُّجعان ويجلسون حول النَّار متحاكين عن أيام عظمَتي».

قال شادو: «أنت ميت يا سويني المجنون. وأنت ميت تأخذ ما يُعطى لك».

تنهَّد الرَّجل الجالس في مؤخِّرة عربة الموتى قائلًا: «أجل، هكذا سأفعلُ». اختفَت نبرة المدمنين المتذمِّرة من صوته، وحلَّت محلَّها بلادة مستسلمة، كأن الكلام مبثوث من مكانٍ ناءٍ جدًّا، كلامًا ميتًا يُبَثُّ على تردُّدٍ ميت.

اخضرَّت الإشارة، فضغطَ شادو على دوَّاسة الوقود برفق.

قال سويني المجنون: «ولكن أقِم لي حفل تأبينِ اللَّيلة بغضِّ النَّظر. حضِّر لي مكانًا على مائدةٍ وأقِم لي حفل تأبينٍ تسكرون فيه طينةً. أنت مدين لي بهذا يا شادو. لقد قتلتني».

ردَّ شادو: «لم أقتلك يا سويني المجنون». *عشرون دولارًا لشراء تذكرةٍ للخروج من هنا*. «الشُّرب والبرد قتلاك وليس أنا».

لم يأتِ ردٌّ، وسادَ الصَّمت في عربة الموتى بقيَّة الرِّحلة. بعدما ركنَ شادو العربة في المؤخِّرة، أنزلَ منها المحفَّة ودفعَها إلى المشرحة، حيث كرَّس

قوّته البدنيّة لوضع سويني المجنون على طاولة التّحنيط كأنه يرفع حمولةً من اللّحم البقري.

غطّى مجهول الهُويّة بملاءةٍ وتركه هناك وبجانبه الأوراق الرّسميّة، وبينما صعدَ السّلالم الخلفيّة خُيّلَ إليه أنه يسمع صوتًا هادئًا مكتومًا مثل راديو في غُرفةٍ بعيدة يقول: «ولِمَ يَقتُلني الشّرب أو البرد وأنا لِيريكون أصلًا ودمًا؟ لا، فقدانك الشّمس الذّهبيّة هو ما قتلني يا شادو، قتلني قتلًا محقّقًا أكيدًا كبلل الماء وطول النّهار وخذلان الأصدقاء في النّهاية دومًا».

أرادَ شادو أن يُوضّح لسويني أن فلسفته هذه مريرة نوعًا، وإن شكَّ أن الموت هو ما يُفعِم المرء بالمرارة.

صعد إلى المنزل الرّئيسي بالأعلى، حيث تُغلّف مجموعة من النّساء متوسّطات العُمر أطباق الطّواجن بالساران، وتضع الأغطية البلاستيكيّة على الأوعية الباردة المحتوية على البطاطس المقليّة والمكرونة والجُبنة.

كان المستر جودتشايلد، زوج الرّاحلة، يُحاصِر المستر آيبس عند حائط، يقول له إنه كان يعلم أن أحدًا من أولاده لن يأتي لأخذ العزاء في أمّه، ولكلّ مَن أصغى إليه قال إن مَن شابهَ أباه فما ظلمَ، مَن شابهَ أباه فما ظلمَ.

---

في ذلك المساء جهّز شادو مكانًا إضافيًّا على المائدة، ووضعَ كأسًا لكلٍّ من الجالسين، وفي المنتصَف زُجاجة «جيمسن جولد»، أغلى ويسكي أيرلندي يُباع في متجر الخمور. بعد أن أكلوا (طبقًا كبيرًا من بواقي الطّعام تركته لهم النّسوة متوسّطات العُمر)، صبَّ شادو جرعةً سخيّةً من الويسكي في كلّ كأس؛ لنفسه، ولآيبس وجاكل، ولسويني المجنون.

قال شادو وهو يصبُّ: «وماذا يهمُّ إن كان جالسًا على محفّةٍ بالقبو، في طريقه إلى مقابر الفُقراء؟ اللّيلة نشرب نخبه ونمنحه حفل التّأبين الذي ابتغاه»، ثم رفعَ كأسه للمكان الخالي على المائدة قائلًا: «قابلتُ سويني المجنون حيًّا مرّتين فقط. في المرّة الأولى عددته سافلًا من الطّراز العالمي يتلبّسه الشّيطان، وفي الثّانية عددته فاشلًا كبيرًا وأعطيته مالًا ليَقتُل نفسه. أراني سويني خدعة عُملةٍ لا أذكرُ كيف أنفّذها، وأصابَني ببعض الرُّضوض، وزعمَ أنه لِيريكون. ارقُد في سلامٍ يا سويني المجنون»، ورشفَ من الويسكي

تاركًا المذاق الدُّخاني يتبخَّر في فمه، ومعه شربَ الاثنان الآخَران نخب الكُرسي الخالي.

دسَّ المستر آيبس يده في جيبه الدَّاخلي وأخرجَ مفكِّرة تصفَّحها حتى وجدَ الصَّفحة المنشودة، وقرأ عليهما مختصَر سيرة سويني المجنون.

وفقًا للمستر آيبس، بدأ سويني المجنون حياته حارسًا لصخرةٍ مقدَّسة في فسحةٍ معشوشبة صغيرة بغابةٍ قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. حكى لهما المستر آيبس عن غراميَّات سويني المجنون وعداواته والجنون الذي وهبَ له قُواه («ما زالَت صيغة لاحقة من الحكاية تُحكى، ولو أن كثيرًا من طبيعة النُّظم المقدَّسة وأسلوبه القديم قد نُسِيَ منذ زمنٍ بعيد»)، وعن التَّبجيل والعشق في أرضه اللذين تحوَّلا شيئًا فشيئًا إلى احترامٍ متحفِّظ، وفي النِّهاية إلى سخرية. حكى لهما قصَّة الفتاة التي جاءَت من بانتري إلى العالم الجديد وجلبَت معها إيمانها باللِّپريكون سويني المجنون. أفلم ترَه ذات ليلةٍ عند البِركة؟ أفلم يبتسم لها ويُناديها باسمها الحقيقي؟ أضحَت الفتاة لاجئةً في مخزن سفينةٍ ملأى بقومٍ شاهَدوا بطاطسهم تستحيل إلى وحلٍ لزج في الحقول، وشاهَدوا أصدقاءهم وذويهم يموتون من الجوع، قومٍ يَحلُمون بأرضٍ من البطون الشَّبعى. الفتاة التي جاءَت من خليج بانتري حلمَت تحديدًا بمدينةٍ تستطيع أن تكسب فيها الفتيات مالًا يكفي لجلب عائلاتهن إلى العالم الجديد. كثيرون من الأيرلنديِّين القادمين إلى أمريكا كانوا يعدُّون أنفُسهم كاثوليك، حتى وإن لم يعلموا شيئًا عن تعاليم الكنيسة، حتى وإن كان كلُّ ما يعلمونه عن الدِّين هو البين شِاي: البانشي التي تأتي لتُوَلوِل عند جُدران المنزل الذي سيزوره الموت عمَّا قريب، والقدِّيسة برايد التي كانت من قبلُ بريدچت[1] ذات الأختَيْن (وكلٌّ من الثَّلاثة كان اسمها بريچد، وكلٌّ منهن المرأة نفسها)، وحكايات فِن[2]

---

(1) بريدچت: ربَّة أيرلنديَّة مبكِّرة، تضمَّنت سيادتها الشِّعر والحدادة والطِّب والفنون والآبار المقدَّسة. قيل إن لها أختين اسمهما بريچد، إحداهما ربَّة شفاء والأخرى ربَّة حدادة، ويُظَنُّ أنها كانت ربَّةً ثُلاثيَّةً. أمَّا القدِّيسة برايد، التي كان اسمها بريدچت قبل تطويبها، فكانت رئيسة دير راهباتٍ في العصور الوُسطى، وأصبحَت قدِّيسةً شفيعةً لأيرلندا. (المُترجم).

(2) فِن أو فيون: عملاق وشاعر وبطل، كان قائد حركة الفِنيان الأيرلنديَّة وموضوع حكاياتٍ كثيرة، يتشابَه الكثير منها مع أساطير الملك آرثر، وقيلَ إنه عاشَ مئتَي عام. (المُترجم).

وآشين[1] وكونان الأصلع...[2] وحتى اللِّپريكونات، القوم الصِّغار (أوليست هذه أكبر نُكتةٍ عند الأيرلنديِّين؟ فاللِّپريكونات في عصرهم كانوا أطول أهل الرَّوابي)...

كلُّ هذا وزيادة حكاه لهما المستر آيبس في المطبخ ليلتها، وقد بدا ظلُّه على الحائط متمدِّدًا شبيهًا بالطُّيور، وإذ تدفَّق الويسكي تخيَّله شادو رأس طائرٍ مائيٍّ ضخم منقاره طويل معقوف، وفي منتصَف الكأس الثَّانية بدأ سويني المجنون نفسه إضافة تفاصيل وتفاهاتٍ إلى رواية آيبس («... ويا لها من فتاة، ثدياها بلون القشدة ومبرقَشان بالنَّمش، وحلمتاها بلونِ الشُّروق الورديِ المحمر الغنيِ ذات نهارٍ سينهمر فيه المطر مدرارًا قبل الظُّهر قبل أن يستردَّ مجده وقت الغشاء...»)، ثم شرعَ سويني -بكلتا يديه- يُحاوِل شرح تاريخ الآلهة في أيرلندا، موجةٌ بعد موجةٍ منها إذ جاءَت من بلاد الغال ومن إسپانيا ومن كلِّ مكانٍ لعين، تُحوِّل كلُّ موجةٍ منها آخِر آلهةٍ إلى ترولات وجنِّيَّات وغير ذلك من سائر المخلوقات اللَّعينة، حتى وصلَت الكنيسة الأُم المقدَّسة نفسها وحَوَّلَ كلُّ إلهٍ في أيرلندا إلى جنِّيَّةٍ أو قدِّيسٍ أو ملكٍ ميت بلا مجرَّد استئذان...

لمَّع المستر آيبس عُويناته ذهبيَّة الإطار، وشرحَ -ملوِّحًا بإصبعه ولافظًا كلامه بوضوحٍ ودقَّةٍ أكثر من المعتاد، فعلمَ شادو أنه ثمِل (الدَّليل الوحيد على هذا كلماته والعَرق الذي تفصَّد على جبهته في المنزل البارد)- أنه فنَّان، وينبغي ألَّا تُعتبَر حكاياته بناءً حرفيًّا، بل إعادة خلقٍ إبداعيَّة، أصدق من الحقيقة، فقال سويني المجنون: «سأريك إعادة خلقٍ إبداعيَّةً، قبضتي تُبدِع في إعادة خلق وجهك البغيض بدايةً!».

كشَّر المستر چاكل عن أنيابه وزمجرَ في وجه سويني زمجرة كلبٍ ضخم لا يسعى لبدء شجارٍ ولكن بوسعه دومًا أن يُنهيه بتمزيق حلقك، وبلغَت الرِّسالة سويني وجلسَ وصبَّ لنفسه كأس ويسكي أخرى.

سألَ سويني شادو بابتسامةٍ عريضة: «هل تذكَّرت كيف تُنفَّذ حيلتي الصَّغيرة؟».

- «لم أتذكَّر».

(1) آشين أو أوشين: عُدَّ في الأساطير أعظم شُعراء أيرلندا، ومن أهم الأبطال في الميثولوچيا الأيرلنديَّة. (المُترجم).

(2) كونان ماك مورنا: شخصيَّة بارزة أخرى من الميثولوچيا الأيرلنديَّة، عادةً يُصوَّر كصانع مشكلاتٍ جشع سمين. (المُترجم).

بشفتين أرجوانيَّتين وعينين معكَّرتين قال سويني المجنون: «إن خمَّنت كيف فعلتها فسأخبرك عندما تقترب من الحلّ».

سأله: «ليس إخفاءً في الكفّ، أليس كذلك؟».

- «ليس كذلك».

- «أهي عُدَّة من نوعٍ ما؟ شيء مخفي في كُمّك أو غيره يُطلِق العُملات لتلتقطها؟ أو عُملة مربوطة بسلكٍ يتأرجح أمام يدك وخلفها؟».

- «ليس ذلك أيضًا. هل يُريد أحدكم المزيد من الويسكي؟».

- «قرأتُ في كتابٍ عن طريقة لتنفيذ «حُلم البخيل» بتغطية راحة يدك باللاتكس، صانعًا جرابًا بلون البشرة تُخفي وراءه العُملة».

- «حفل تأبينٍ حزين هذا لسويني المجنون، الذي حلَّق كالطَّير في جميع أنحاء أيرلندا وأكلَ الجرجير في غمرة جنونه، أن يموت ولا يبكيه أحد إلَّا طائر وكلب وأبله. لا، ليس جرابًا».

ردَّ شادو: «طيِّب، نفدَت أفكاري إذًا. أظنُّ أنك تأخذها من الفراغ». قالها بقصد السُّخرية، ثم إنه رأى التَّعبير على وجه سويني. «هذا ما تفعله حقًّا، تأخذها من الفراغ».

قال سويني المجنون: «ليس من الفراغ بالضَّبط، لكنك بدأت تفهم الفكرة. تأخذها من الذَّخيرة».

ردَّد شادو وقد بدأ يتذكَّر: «الذَّخيرة. نعم».

- «عليك فقط أن تُركِّز عليها في ذهنك، وهي لك لتأخذ منها. كنز الشَّمس الذي يُوجَد في اللَّحظات التي يرسم فيها العالم قوس قزح، في لحظة الكسوف ولحظة العاصفة».

وأرى سويني شادو كيف يفعلها.

وهذه المرَّة فهمَ شادو.

* * *

دقَّ رأس شادو وآلمَه، وأحسَّ أن للسانه طَعم ورق صيد الذُّباب وملمسه، وضيَّق عينيه في وهج النَّهار. كان قد غابَ في النَّوم واضعًا رأسه على المائدة، ويرتدي كامل ثيابه، ولو أنه خلعَ ربطة عُنقه السَّوداء في مرحلةٍ ما.

نزلَ إلى المشرحة، وأراحَه -وإن لم يُدهِشه- مرأى مجهول الهُويَّة في موضعه على طاولة التُّحنيط. انتزعَ شادو زُجاجة الـ «چيمسن جولد» انتزاعًا من أصابع الجثَّة المتيبِّسة رِمْيًا، وتخلَّص منها في القمامة، وقد ترامى إلى مسامعه صوت شخصٍ يتحرَّك في المنزل بالأعلى.

كان المستر أربعاء جالسًا إلى مائدة المطبخ عندما صعدَ شادو، يأكل بواقي سلطة البطاطس من وعاء حفظٍ بملعقةٍ بلاستيكيَّة، مرتديًا بدلةً رماديَّةً غامقةً وقميصًا أبيض وربطة عُنقٍ رماديَّةً قاتمة، وشمس الصَّباح تلتمع على الشَّجرة الفضِّيَّة في دبُّوس ربطة العُنق.

ابتسمَ الأربعاء لشادو حين رآه، وقال: «آه، شادو يا ولدي، يسرُّني أن أراك استيقظت. حسبتك ستنام إلى الأبد».

- «سويني المجنون ماتَ».

قال الأربعاء: «هكذا سمعتُ. خسارة كبيرة. طبعًا الموت سيُدرِكنا جميعًا في النِّهاية»، وشدَّ حبلًا تخيُّليًّا في بُقعةٍ على مستوى أُذنه، ثم جذبَ عُنقه بشدَّةٍ إلى الجانب وقد برزَ لسانه وجحظَت عيناه. بالنِّسبة إلى عرض پانتومايم سريع، كان المنظر مزعجًا. ثم أفلتَ الأربعاء الحبل وابتسمَ ابتسامته الواسعة المألوفة قائلًا: «هل تُريد سلطة بطاطس؟».

أجابَ شادو: «لا أريدُ»، ورشقَ المطبخ والبهو بنظرةٍ خاطفة، ثم سألَ: «أتعرف أين آيبس وچاكل؟».

- «أعرفُ بالتَّأكيد. إنهما يدفنان المسز ليلا جودتشايلد، وهو شيء كانا ليودَّا مساعدتك فيه على الأرجح، لكنني طلبتُ منهما ألَّا يُوقِظاك. إن أمامك رحلةً طويلةً».

- «سنُغادِر؟».

- «خلال ساعة».

- «يَجدُر بي أن أودِّعهما».

- «الوداع شيء مبالغ في تقديره. ستراهما ثانيةً، لا شكَّ عندي، قبل نهاية هذه المسألة».

لاحظَ شادو لأوَّل مرَّةٍ منذ اللَّيلة الأولى أن القِطَّة البنِّيَّة الصَّغيرة نائمة في سلَّتها، وفتحَت القِطَّة عينيها الكهرمانيَّتيْن اللا مباليتيْن وشاهدَته يرحل.

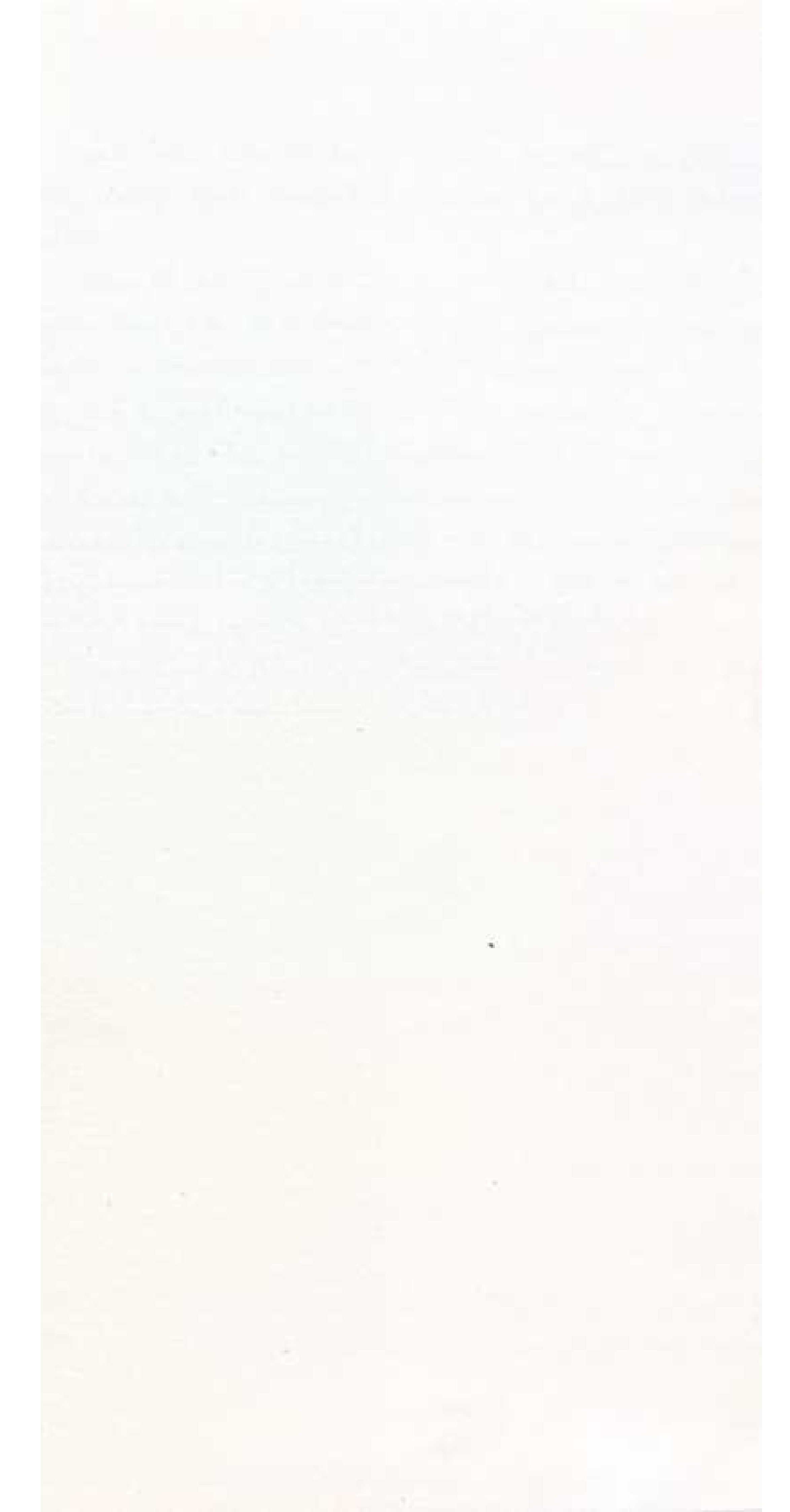
وهكذا غادرَ شادو دار الموتى. كان الجليد يكسو الشُّجيرات والأشجار التي صبغَها الشتاء بالسَّواد كأنما يعزلها محيلًا إياها إلى أحلام، والطَّريق زلقًا.

تقدَّمه الأربعاء إلى سيَّارته الـ «شڤي نوڤا» البيضاء المركونة على الطَّريق. نُظِّفَت السيَّارة في الآونة الأخيرة، وخُلِعَت لوحات ويسكونسن ورُكِّبت مكانها لوحات من منيسوتا، ورُصَّت أمتعة الأربعاء على الأريكة الخلفيَّة.

فتحَ الأربعاء السيَّارة بمفاتيح مطابقة للتي يضعها شادو في جيبه، وقال: «سأقودُ أنا. لن تكونَ صالحًا لأيِّ شيءٍ قبل ساعةٍ على الأقل».

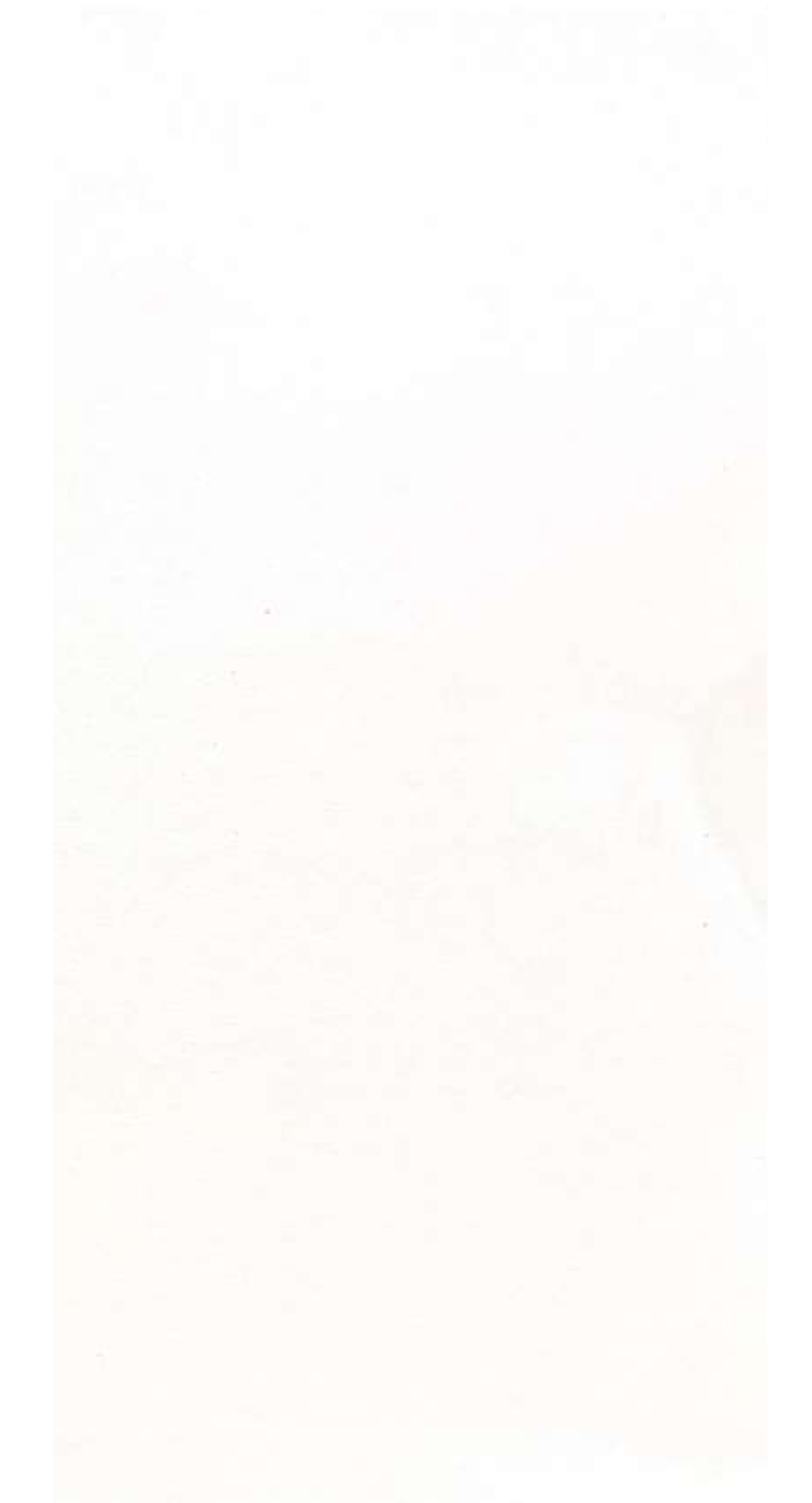
انطلَقا شمالًا والمسيسيبي عن يسارهما، مجراه فضِّي عريض تحت سماءٍ غائمة. رأى شادو فوق شجرةٍ رماديَّة جرداء على جانب الطَّريق بازًا أبيض وبنِّيًا ضخمًا، جاثمًا يَرمُقهما بعينين مجنونتين إذ اقتربا منه، قبل أن يبسط جناحيه ويُحلِّق في دوائر بطيئة قويَّة، وفي لحظاتٍ يختفي عن الأنظار.

أدركَ شادو أن إقامته في دار الموتى كانت استراحةً مؤقَّتة، والآن يَشعُر كما لو أنها شيء حدثَ لشخصٍ آخَر قبل زمنٍ طويل.



# الجزء الثّاني

## نَفسي أنا



# الفصل التَّاسع

*وهذا بصرف النَّظر عن الكائنات الخُرافيَّة بين الأنقاض....*

- وِندي كوب، **نصيب شُرطي**

بينما خرَجا من إلينوي في وقتٍ متأخِّر من ذلك المساء، ألقى شادو على الأربعاء سؤاله الأوَّل. لمَّا رأى لافتة «**مرحبًا بكم في ويسكونسن**»، قال: «مَن الثُّلَّة التي اختطفَتني في الموقف؟ المستر وود والمستر ستون، مَن كانا؟».

أنارَت أضواء السيَّارة المشهد الشُّتوي. كان الأربعاء قد أعلنَ أنهما لن يَسلُكا طُرقًا سريعةً، لأنه يجهل أيَّ فريقٍ تُناصِره الطُّرق السَّريعة، ولذا لزمَ شادو السَّفر على الطُّرق الخلفيَّة. لا يُمانِع، فليس متأكِّدًا حتى من كون الأربعاء مجنونًا.

دمدمَ الأربعاء: «مجرَّد عُملاء، أعضاء في المعارضة، قبَّعات سوداء».[1]

ردَّ شادو: «أظنُّهم يعدُّون أنفُسهم القبَّعات البيضاء».

- «طبعًا. لم يَحدُث قَطُّ أن اندلعَت حرب حقيقيَّة لم يَخُضها فريقان كلاهما موقنٌ بأن الحقَّ معه. أشدُّ النَّاس خطرًا يُؤمِنون بأنهم إنما

(1) القبَّعات السَّوداء: مصطلح أمريكي دارج يُطلَق على الأشرار، ويرجع إلى أفلام الوسترن بين العشرينيَّات والأربعينيَّات، التي اعتادَت تصوير الأخيار بقبَّعاتٍ بيضاء والأشرار بقبَّعاتٍ سوداء. (المُترجم).

يفعلون ما يفعلونه -فقط وليس إلّا- لأنه صواب لا ريب فيه، وهذا ما يجعلهم خطرين».

سأله شادو: «وأنت؟ لماذا تفعل أنت ما تفعله؟».

أجابَ الأربعاء: «لأني أريدُ أن أفعله»، ثم ابتسمَ ابتسامته الواسعة مضيفًا: «فلا بأس بذلك إذًا!».

- «كيف نجوتم؟ أو هل نجوتم جميعًا؟».

- «نعم. ولو أن الخطر كان داهمًا. لو لم يتوقّفوا ليختطفوك فلربما نالوا منا جميعًا. الواقعة أقنعَت عددًا كبيرًا من الواقفين على الحياد بأني قد لا أكونُ مختلًا تمامًا».

- «كيف خرجتم إذًا؟».

هزَّ الأربعاء رأسه قائلًا: «لستَ تقبض أجرك عن إلقاء الأسئلة. أخبرتك من قبل».

فهزَّ شادو كتفيه.

قضيا اللّيلة في فرعٍ لموتل «سوبر 8» جنوب لا كروس.

أمّا يوم الكريسماس فقضياه على الطّريق متوجِّهيْن شمالًا وشرقًا. أصبحَت أراضي المزارع غابات صنوبر، وبدا أن مسافاتٍ أطول تفصل بين البلدة والتّالية.

أكلا غداء الكريسماس في ساعةٍ متأخّرة من الأصيل بمطعمٍ عائلي يُشبِه القاعة في شمالي وسط ويسكونسن. أكلَ شادو بلا انبساطٍ أو شهيَّةٍ من لحم الدِّيك الرُّومي الجاف، وكُتل صلصة التُّوت الأحمر الحُلوة كالمربَّى، والبطاطس المشويَّة اليابسة كالخشب، والبازلّاء المعلّبة المخضرَّة عنوةً. أمّا الأربعاء، من الطّريقة التي هاجمَ بها طعامه وأخذَ يتلمَّظ، فقد بدا مستمتعًا، ومع تقدُّم الوجبة انحلَّ لسانه بلا تحفُّظ؛ يتكلَّم ويمزح ويُغازِل -متى اقتربَت- النّادلة الشّقراء النّحيلة التي تبدو بالكاد في سنِّ الانقطاع عن المدرسة الثّانويّة.

- «عُذرًا يا عزيزتي. هل لي أن أزعجكِ بطلب كوبٍ آخر من شُكولاتتكم السّاخنة الشّهيّة؟ وأثق بأنكِ لن تحسبيني أتجرّأ إذا عبّرتُ عمّا يتّسم به فُستانكِ هذا من جاذبيّة ولياقة. احتفالي، ولكن راقٍ».

قهقهت النّادلة -التي ترتدي تنّورةً حمراء وخضراء زاهيةً، حوافها مزيَّنة بزخارف برّاقة- وتخضّبٍ وجهها بالحُمرة وابتسمت بسعادة، وذهبت لتجلب للأربعاء كوبًا آخَر من الشكولاتة السّاخنة.

متفكّرًا، كرّر الأربعاء وهو يُراقبها تذهب: «جاذبيّة. لياقة». ولم يحسب شادو أنه يتكلّم عن الفُستان. حشا الأربعاء فمه بشريحة الدّيك الرُّومي الأخيرة، ومسحَ لحيته بمنديله، ثم دفعَ الطّبق قائلًا: «آآه. عظيم». وتطلّع حوله في أنحاء المطعم العائلي. في الخلفيّة تنبعث أغاني الكريسماس من شريط كاسِت. والطبّال الصّغير لا يملك هدايا يجلبها...[lxviii] *پاراپاپم پم، راپاپم پم، راپاپم پم.*

فجأةً قال الأربعاء: «بعض الأشياء قد يتغيّر، أمّا النّاس... النّاس يبقون كما هُم. بعض حيل النّصب يبقى إلى الأبد، وغيرها سرعان ما يبتلعه الزّمن والعالم. حيلتي المفضّلة على الإطلاق لم تَعُد عمليّةً، ومع ذلك يظلُّ عدد مدهش من الحيل خالدًا... «السّجين الإسپاني»، و«سقطة الحمامة»، و«الخاتم الزّائف» (هذه مثل «سقطة الحمامة» ولكن بخاتمٍ ذهبي بدلًا من محفظة)، و«لُعبة الكمنجة»...».

قال شادو: «لم أسمع قَطُّ بـ «لُعبة الكمنجة». أظنُّني سمعتُ عن الأخريات. زميلي القديم في الزّنزانة قال إنه نفّذ «السّجين الإسپاني» بالفعل. كان محتالًا».

برقَت عين الأربعاء اليُسرى، وقال: «آه. «لُعبة الكمنجة» كانت خدعةً بديعةً مفتخرةً. إنها، في أنقى صُورها، حيلة يُؤدّيها شخصان، تستغلُّ طمع النّاس وجشعهم ككلِّ حيل النّصب العظيمة. لا شكَّ أن الاحتيال على شخصٍ شريف ممكن دومًا، لكنه يتطلّب عملًا أكثر. حسن، نحن في فندق، أو خان، أو مطعم فخم، وهناك نجد رجلًا يتناوَل عَشاءه، رجلًا رثَّ الهيئة ولكن لا تعوزه الأناقة، ليس زريًّا ولكن لا ريب في معاناته حظًّا عاثرًا. سنُسمِّيه إبراهام. وعندما يحين وقت تسوية حسابه -لاحِظ أنه ليس حسابًا باهظًا، بل خمسون أو خمسة وسبعون دولارًا- يا للإحراج! أين محفظته؟ ربّاه! لا بُدَّ أنه نسيَها عند صديقٍ لا يَسكُن بعيدًا. سيذهب ويستعيد محفظته توًّا! ويقول إبراهام: *لكن تفضّل يا حضرة صاحب المنشأة، خُذ كمنجتي القديمة هذه رهنًا. إنها قديمة كما ترى، إلّا أنها ما أكسبُ به رزقي*».

عندما رأى الأربعاء النّادلة تقترب كانت ابتسامته ضخمةً مفترسةً. «آه، الشُّكولاتة السّاخنة! جلبتِها لي ملاك الكريسماس شخصيًّا! أخبِريني يا عزيزتي، حين تجدين وقتًا، هلّا أحضرتِ لي القليل من خُبزكم اللّذيذ؟».

خفضَت النَّادلة (التي تساءلَ شادو كم سنُها: ستَّة عشرٍ عامًا؟ سبعة عشر؟) عينيها أرضًا وتورَّدت وجنتاها بالقرمزي. وضعَت الشُّوكولاتة بيدين راجفتين، وتراجعَت إلى حافة الصَّالة عند الفطائر المعروضة على محورٍ يدور ببُطء، حيث توقَّفت ونظرَت إلى الأربعاء، قبل أن تنسلَّ إلى المطبخ لتجلب له خُبزه.

- «حسن. تُوضَع الكمنجة -التي لا شكَّ في قِدمها، وقد تكون باليةً بعض الشَّيء أيضًا- في عُلبتها. وينطلق إبراهام المفلس مؤقَّتًا يبحث عن محفظته. على أن چنتلمان حسن الهندام فرغَ لتوِّه من عَشائه كان يُتابِع هذا الحوار، والآن يذهب إلى حضرة صاحب المنشأة ويسأله: أيُمكنه، إن لم يكن في الأمر مؤاخذة، أن يُعايِن الكمنجة التي تركها رجلنا الشَّريف إبراهام؟ طبعًا يُمكنه. يُناوِله حضرة صاحب المنشأة الكمنجة، ويَفغَر الرَّجل المهندَم -لنُسمِّه بارينجتن- فاه على اتِّساعه، ثم يتذكَّر نفسه ويُطبِقه، ويفحص الكمنجة بإجلالٍ كأنما أبيحَ له دخول حرمٍ مقدَّس لفحص رُفات نبي. يقول الرَّجل: *عجبًا—هذه—مؤكَّد أنها—لا، لا يُمكن—ولكن نعم، ها هي ذي—يا إلهي! غير معقول!* ويُشير إلى علامة الصَّانع على شريطٍ من الورق مصطبغ بالبنِّي داخل العُلبة، ويقول إنه حتى دون العلامة كان ليتعرَّفها من لون الورنيش، من الرَّأس الملوي، من الشَّكل. ثم يمدُّ بارينجتن يده في جيبه ويُخرِج بطاقة أعمالٍ منقوشةً تُعلِن كونه تاجرًا بارزًا في الأدوات الموسيقيَّة النَّادرة والأثريَّة. يسأل حضرة صاحب المنشأة: *هذه الكمنجة نادرة إذًا؟* فيُجيب بارينجتن مواصلًا التَّطلُّع إليها بإكبارٍ وتوقير: *بكلِّ تأكيد، وقيمتها تربو على المئة ألف دولار، ما لم يكن تخميني خاطئًا. حتى بصفتي تاجرًا في مثل هذه الأشياء يُمكنني أن أدفع خمسين... لا، خمسةً وسبعين ألف دولار، أدفعها نقدًا لقاء قطعةٍ رفيعة كهذه. إن عندي رجلًا على السَّاحل الغربي أعلمُ أنه، بتلجرام واحد، سيشتريها دون معاينةٍ مسبقة ويدفع أيَّ مبلغٍ أطلبه.* ثم يراجع ساعته، ويبدو عليه الإحباط، ويقول: *قطاري... بالكاد لديَّ وقت للَّحاق بقطاري! سيِّدي الفاضل، حينما يعود مالك هذه الأداة النَّفيسة، أرجو أن تُعطيه بطاقتي، فللأسف لا بُدَّ أن أنصرف.* وهكذا يُغادِر بارينجتن، رجل يعرف أن الوقت والقطار لا ينتظران أحدًا. ويفحص حضرة صاحب المنشأة الكمنجة فيما يمتزج

الفضول بالجشع في عروقه، وتبدأ خطّة تتكوّن في عقله. لكن الدّقائق تتوالى ولا يرجع إبراهام، والآن تأخّر الوقت. ثم من الباب، رثًّا ولكن معتدًّا بنفسه، يَدخل عزيزنا إبراهام عازف الكمنجة وفي يده محفظته، محفظة شهدَت أيامًا أفضل، محفظة لم تحتوِ على أكثر من مئة دولار في أفضل أحوالها، ومنها يُخرِج النُّقود ليدفع حساب وجبته وينصرف.. ويَطلُب استعادة كمنجته، فيضع حضرة صاحب المنشأة الكمنجة بعُلبتها على المنضدة، ويأخذها إبراهام كأمٍّ تحتضن طفلها. ثم يقول صاحب المكان (وفي جيب صدره يَشعُر بلهيب بطاقةٍ منقوشة لرجلٍ على استعدادٍ لدفع خمسين ألف دولار نقدًا): أخبِرني، ما قيمة كمنجةٍ كهذه؟ لأن ابنة أخي تتوق إلى لعب الكمنجة، وعيد مولدها خلال أسبوعٍ أو نحوه. فيردُّ إبراهام: أبيعُ الكمنجة؟ مُحال أن أبيعها. إنها معي منذ عشرين عامًا، حقًّا، وعزفتُ عليها في جميع أنحاء البلاد. ولأصدقك القول، فقد كلَّفتني خمسمئة دولار دُفعةً واحدةً حين اشتريتها. فيمنع حضرة صاحب المنشأة الابتسامة من الارتسام على وجهه، ويقول: خمسمئة دولار؟ وماذا لو عرضتُ عليك ألفَ دولار لقاءها في التَّوّ واللَّحظة؟ فيبدو عازف الكمنجة مبتهجًا، ثم مغتمًّا، ويقول: ولكن بالله عليك. إنني عازف كمنجةٍ يا سيِّدي، ولا أعرفُ عملًا آخَر. هذه الكمنجة تعرفني وتحبُّني، وأصابعي تعرفها حقَّ المعرفة لدرجة أني أستطيعُ العزف عليها في الظَّلام. أين أجدُ واحدةً أخرى صوتها بهذه الطَّلاوة؟ ألف دولار مبلغ جيِّد، لكن هذه الكمنجة مصدر رزقي. لا ألف دولار ولا حتى خمسة آلاف. يرى حضرة صاحب المنشأة أرباحه تتقلّص، ولكن هكذا التِّجارة، وعليك أن تُنفِق مالًا لتجني المال، وهكذا يقول: ثمانية آلاف دولار. إنها لا تستحقُّ هذا المبلغ، لكنها تروقني، كما أنني أحبُّ ابنة أخي حقًّا وأدلِّلها. يكاد إبراهام يبكي لفكرة فقدان كمنجته الحبيبة، ولكن كيف يَرفُض ثمانية آلاف دولار؟ ولا سيَّما عندما يذهب حضرة صاحب المنشأة إلى الخزينة في الحائط، ولا يأخذ ثمانية آلاف دولار بل تسعة، مرصوصة ومربوطة بعنايةٍ وجاهزة للاستقرار في جيب عازف الكمنجة البالي، الذي يقول لصاحب المكان: أنت رجل صالح، أنت قدِّيس! ولكن عليك أن تُقسِم على الاعتناء ببنتي! وعلى مضضٍ يُناوله الكمنجة».

سألَ شادو: «ولكن ماذا لو اكتفى حضرة صاحب المنشأة بإعطاء إبراهام بطاقة بارينجتن وإخباره أن حظًا حسنًا حالفه؟».

أجابَ الأربعاء: «نكون قد خسرنا ثمن وجبتي عَشاء»، ومسحَ ما تبقّى في طبقه من المرق وقطع الطّعام بشريحةٍ من الخُبز، وأكلَها متلمّظًا بتلذّذ.

قال شادو: «دعني أرى إن كنتُ فهمتُ. إذًا يرحل إبراهام أغنى بتسعة آلاف دولار، وفي موقف محطّة القطار يُقابِل بارينجتن ويقتسمان المبلغ، ثم يركبان سيّارة بارينجتن الـ «فورد» الفئة الأولى، ويتّجهان إلى البلدة التّالية. أظنُّ أن في حقيبة السيّارة صندوقًا مملوءًا بكمنجاتٍ الواحدة منها بمئة دولار».

قال الأربعاء: «شخصيًا، جعلتها مسألة شرفٍ ألّا أدفع في أيٍّ منها أكثر من خمسة دولارات»، ثم التفتَ ناحية النّادلة الحائمة على مقربةٍ قائلًا: «والآن يا عزيزتي أبهجينا بوصفكِ الحُلويات الفاخرة المتاحة لنا في يوم ميلاد الرَّب»، وحدَّق إليها، نظرته أقرب إلى الشّبق، كأن أيَّ شيءٍ تعرضه عليه لن يكون لُقمةً سائغةً مثلها هي. شعرَ شادو بانزعاجٍ عميق، فالمشهد أشبه بذئبٍ عجوز يتربَّص بظبيةٍ أصغر من أن تعلم أنها إذا لم تفرَّ، تفرَّ الآن، فمآلها فسحة في غايةٍ بعيدة حيث تلتهم الغِدفان كلَّ ما على عظمها من لحمٍ حتى آخِر نسيلة.

تضرَّج وجه الفتاة ثانيةً، وأخبرَتهما أن أطباق الحُلو هي فطير التُّفّاح، وفطير تُفّاح آ لا مود -«أي تُضاف إليه ملعقة آيس كريم»- وكعك كريسماس، وكعك كريسماس آ لا مود، أو پودنج أحمر وأخضر مخفوق. نظرَ الأربعاء في عينيها، وقال لها إنه سيُجرِّب كعكة كريسماس آ لا مود، أمّا شادو فلم يرغب في حُلويات.

تابعَ الأربعاء: «بالنِّسبة إلى حيل النّصب، ترجع «لُعبة الكمنجة» ثلاثمئة عامٍ أو أكثر، وإذا اخترت الضَّحيَّة الصَّحيحة فيُمكنك أن تُنفِّذها غدًا في أيِّ مكانٍ في أمريكا».

- «حسبتك قلت إن حيلتك المفضَّلة لم تَعُد عمليَّة».

- «هكذا قلتُ فعلًا، غير أن «لُعبة الكمنجة» ليست حيلتي المفضَّلة. كانت جيِّدةً وممتعةً، لكنها ليست حيلتي المفضَّلة. لا، حيلتي المفضَّلة كانوا يُسمُّونها «لُعبة المطران». كانت تشتمل على كلِّ شيء: الإثارة، والخديعة، والحمولة الخفيفة، والمفاجأة. بين الفينة والفينة أفكِّرُ أن من الجائز، ربما بالقليل من التَّعديلات، أن...». فكَّر الأربعاء لحظةً، ثم هزَّ رأسه، وقال: «لا، زمنها ولّى. لنقل إننا في العام 1920، في مدينةٍ متوسِّطة إلى واسعة

المساحة... شيكاجو ربما، أو نيويورك، أو فيلادلفيا. نحن في متجر صائغ، ويدخل رجل يرتدي ثياب رجل دين -وليس أي رجل دين، بل مطران برداءٍ أرجواني- وينتقي قلادةً، تُحفةً بهيّةً خلّابةً من الماس واللُّؤلؤ، ويدفع ثمنها باثنتي عشرة ورقة جديدة نظيفة من فئة المئة دولار. على الورقة العُليا لطخة من الحبر الأخضر، وباعتذارٍ لكن بحزمٍ يُرسِل مالك المتجر دستة أوراق البنكنوت إلى المصرف على النّاصية ليجري فحصها. سرعان ما يرجع أمين المتجر بأوراق البنكنوت. المصرف يقول إن ولا واحدة منها زائفة، وهكذا يعتذر المالك مجدّدًا، والمطران في منتهى الكياسة. ويتفهّم المشكلة تمامًا، ففي عالم اليوم أصناف مجرمة آثمة، ونسوة لا يعرفن الحياء، والآن وقد خرجَ ساكنو العالم السُّفلي زاحفين من المجاري وأتوا ليعيشوا على شاشات قصور السينما، فماذا يتوقّع المرء أكثر من هذا؟ ثم تُوضَع القلادة في عُلبتها، ويبذل مالك المتجر قصارى جهده لكيلا يتساءَل عن سبب شراء مطرانٍ من الكنيسة قلادةً من الماس بألفَي ومئتَي دولار، ولِمَ يدفع ثمنها نقدًا. يُودِّعه المطران وداعًا حارًّا ويَخرُج إلى الشّارع، فقط لتحطَّ يد ثقيلة على كتفه، ويسمع مَن يقول: سوبي *أيها الأفّاق، تُمارس حيلك القديمة أم ماذا؟* ويعود شُرطي دوريّة عريض الصّدر له وجه أيرلندي قُحّ بالمطران إلى متجر الصّائغ، ويسأل مالكه: *أستميحك العُذر، ولكن هل اشترى هذا الرّجل منك شيئًا؟* فيقول المطران: *بالطّبع لا. قُل له إنني لم أشترِ شيئًا.* أمّا المالك فيقول: *بالتّأكيد، اشترى مني قلادةً من اللُّؤلؤ والماس، ودفعَ ثمنها نقدًا أيضًا.* فيسأله الشُّرطي: *هل النّقديّة متاحة يا سيّدي؟* فيُخرِج الصّائغ أوراق المئة دولار الاثنتي عشرة من ماكينة الكاشير ويُناوِلها للشرطي، الذي يرفعها في الضّوء ويهزُّ رأسه متعجّبًا، ويقول: *أوه، سوبي، سوبي، هذه أفضل ما زيّفت حتى الآن! أنت فنّان ماهر بحق!* فتنتشر ابتسامة خُيلاء على وجه المطران، ويقول: *لا يُمكنك إثبات شيء، والمصرف أكّد أنها سليمة. هذا أخضر حقيقي.* فيردُّ الشُّرطي المتجوِّل: *أنا واثق بأنه أكّد سلامتها، لكنني أشكُّ أن أحدهم نبّه المصرف إلى وجود سوبي سيلفستر في المدينة، أو إلى جودة أوراق المئة دولار التي أنفقَها في دنفر وسانت لويس،* ثم يمدُّ يده في جيب المطران ويُخرِج القلادة، ويقول الضّابط الذي من الواضح أن له قلب فيلسوف: *ماس ولؤلؤ بقيمة ألفَي ومئتَي دولار مقابل ورق وحبر بقيمة خمسين سنتًا. وتنتحل شخصيّة رجل كنيسة. المفروض أن تخجل من نفسك.*

وبينما يقول هذا يضع الأصفاد حول يدَي المطران الذي ليس بمطران كما هو واضح، ويسوقه إلى الخارج، ولكن ليس قبل أن يُعطي الصَّائغ إيصالًا بالقلادة والألفي ومئتَي دولار المزيَّفة. فهذه أدلَّة رغم كلّ شيء».

سألَ شادو: «أكانت مزيَّفةً حقًّا؟».

- «لا طبعًا! أوراق بنكنوت جديدة من البنك مباشرةً، ولكن ببصمة إبهامٍ ولطخةٍ من الحبر الأخضر لجعلها تبدو أكثر إثارةً للاهتمام».

رشفَ شادو من قهوته الأسوأ من قهوة السُّجن، وقال: «واضحٌ إذًا أن الشُّرطي لم يكن شُرطيًّا. والقلادة؟».

قال الأربعاء: «دليل»، وحلَّ غطاء المملحة وصبَّ كومةً صغيرةً من الملح على المائدة مردفًا: «لكن الصَّائغ يستلم إيصالًا، ومعه تأكيدًا على استرداده القلادة ما إن يَمثُل سوپي للمحاكمة. يُهنِّأ الرَّجل على كونه مواطنًا صالحًا، ويُشاهِد بفخرٍ وقد شرعَ يُفكِّر في الحكاية التي سيحكيها في اللِّقاء التَّالي لأخويَّة الزُّملاء الأغراب[1] ليلة غد، فيما يَخرُج الضَّابط من المتجر بالرَّجل الذي يتظاهَر بأنه مطران، في جيبه ألفان ومئتا دولار، وفي الثَّاني قلادة بألفي ومئتَي دولار، في طريقهما إلى مخفرٍ لن يرى لهما أثرًا».

عادت النَّادلة لترفع الأطباق، فقال لها الأربعاء: «أخبريني يا عزيزتي، أأنتِ متزوِّجة؟»، وحين هزَّت رأسها نفيًا قال: «مدهشٌ أن شابَّةً بجمالكِ هذا لم يخطفها أحد بعدُ». كان يعبث بظُفره في الملح المسكوب راسمًا أشكالًا قصيرةً سميكةً كالحروف الرونيَّة، ووقفَت النَّادلة بجواره مستسلمةً، تُذكِّر شادو أقل بظبيةٍ وأكثر بأرنبةٍ صغيرة تندفع نحوها أضواء شاحنةٍ ذات ثماني عشرة عجلةً وقد تجمَّدت خوفًا وارتباكًا.

خفضَ الأربعاء صوته لدرجة أن شادو الجالس إلى المائدة قُبالته سمعَه بصعوبةٍ إذ قال: «متى تَفرُغين من عملكِ؟».

أجابَت: «السَّاعة التَّاسعة»، وابتلعَت ريقها، وأضافَت: «التَّاسعة والنِّصف على الأكثر».

- «وما أفضل موتل في هذه المنطقة؟».

---

(1) الزُّملاء الأغراب: أخويَّة اجتماعيَّة دوليَّة على غرار أخويَّة المتفائلين أو الماسونيِّين الأحرار. مقرُّها الولايات المتَّحدة وترجع إلى القرن التَّاسع عشر، وتضمُّ أكثر من ستمئة ألف عُضو في أنحاء العالم. (المُترجم).

- «ستجد «موتل 6». ليس مكانًا ممتازًا».

لامسَ الأربعاء ظهر يدها لمسةً عابرةً بأنامله مخلِّفًا على جلدها ذرّاتٍ من الملح، فلم تُحاوِل أن تمسحها، وقال بصوتٍ أقرب إلى تمتمةٍ غير مسموعة: «بالنّسبة إلينا سيكون قصر ملذّات».

رمقَته النّادلة، وعضّت شفتيها الرّفيعتين، وتردّدت، ثم أومأت برأسها ولاذت بالفرار إلى المطبخ.

قال شادو: «بحقّك! إنها تبدو في سنٍّ قانونيّة بالكاد».

أخبرَه الأربعاء: «لم أشغل نفسي كثيرًا قطُّ بقانونيّة الأشياء ما دمتُ أنالُ ما أبتغيه. أحيانًا اللّيل طويل بارد، وأنا محتاج إليها، ليس لأنها غاية في حدّ ذاتها، بل لتُوقظني بعض الشّيء. حتى الملك داود علمَ وصفةً سهلةَ لجعل الدّم الدّافئ يسري في هيكلٍ عجوز: خُذ عذراء واحدةً واتّصل بي في الصّباح».

ضبطَ شادو نفسه يتساءَل إن كانت فتاة ورديّة اللّيل في الموتل بإيجل بوينت عذراء، وسألَ: «ألا تقلق من الأمراض أبدًا؟ ماذا لو حبلَت منك؟ ماذا لو أن لها أخًا؟».

أجابَه الأربعاء: «لا، لا أقلقُ من الأمراض. إنني لا أصابُ بها. أمثالي يتحاشونها. للأسف يُطلِق أمثالي في الغالب خراطيشَ فارغةً، ولذا لا يَحدُث الكثير من تمازُج السُّلالات. كان ذلك معتادًا قديمًا، أمّا هذه الأيام فهو ممكن، لكنه مستبعَد لدرجة أن تصوُّره شبه مستحيل. لا قلق من ذلك إذًا. وفتيات كثيرات لهن إخوة، وآباء، ولبعضهن أزواج أيضًا. ليست مشكلتي. كلُّ تسعةٍ وتسعين مرّةً من مئةٍ أكونُ قد غادرتُ البلدة بالفعل».

- «هل سنبيت اللّيلة هنا؟».

فركَ الأربعاء ذقنه قائلًا: «سأبيتُ أنا في الموتل»، ودسّ يده في جيب معطفه وأخرجَ مفتاح شقّةٍ ملوّنًا بالبرونزي، ملحقة به بطاقة مدوّن عليها عنوان: «**502 نورثريدج رود، ش 3#**». «أمّا أنت فتنتظرك شقّة في مدينةٍ بعيدة عن هنا». أغمضَ الأربعاء عينيه لحظةً، ثم فتحَهما، عينين رماديّتين لامعتين غير متماثلتين جزئيًا، وواصلَ: «حافلة الـ «جرايهاوند» ستصل إلى البلدة خلال عشرين دقيقةً. ستتوقّف عند محطّة الوقود. ها هي ذي تذكرتك»، وأخرجَ تذكرة حافلةٍ مطويّةً ناولَه إياها عبر المائدة.

التقطها شادو ونظرَ إليها، ثم سأل: «مَن مايك آينسل؟»[1]. هذا هو الاسم المكتوب على التذكرة.

- «أنت. كريسماس سعيدًا».

- «وأين ليكسايد؟».

قال الأربعاء: «إنها بيتك السَّعيد خلال الأشهُر التَّالية. ولأن الأشياء الحُلوة تأتي ثلاثًا...»، وأخرجَ من جيبه لفَّةً مغلَّفةً بورق الهدايا ودفعَها عبر المائدة، لتستقرَّ بجوار زُجاجة الكاتشب ذات البُقع الجافَّة المسودَّة عند رأسها. لم يتحرَّك شادو ليأخذها.

- «إذًا؟».

مكرهًا، مزَّق شادو ورق التَّغليف الأحمر ليجد محفظةً سمراء من جلد العجول، لامعةً من الاستخدام. من الجليِّ أنها محفظة شخصٍ آخَر، وفي داخلها رُخصة قيادةٍ تحمل صورة شادو مع اسم مايكل آينسل وعنوانٍ في ميلواكي، وبطاقة «ماستر كارد» باسم م. آينسل، وعشرون ورقةً جديدةً من فئة الخمسين دولارًا.

أغلقَ شادو المحفظة ووضعَها في جيبه الدَّاخلي قائلًا: «شكرًا».

- «اعتبرها علاوة كريسماس. والآن دعني أصحبك إلى الحافلة. سألوِّحُ لك فيما تركب الكلب الرَّمادي شمالًا».

خرجا من المطعم، واستعصى على شادو تصديق البرودة التي تضاعفَت مرارًا خلال السَّاعات القليلة السَّابقة. شعرَ أن الطَّقس الآن أبرد من أن يَسقُط ثلج، زمهرير حقيقي. شتاء سيِّئ هذا.

قال شادو: «اسمع أيها الأربعاء، كلتا الحيلتين اللتين حكيت لي عنهما، حيلة الكمنجة وحيلة المطران، المطران والشُّرطي...»، وتردَّد محاولًا تشكيل أفكاره وإيضاحها.

- «ماذا عنهما؟».

ثم وجدَها شادو، فقال: «كلتاهما حيلة يُنفِّذها رجلان، رجل في كلِّ جانب. هل كان لك شريك من قبل؟». خرجَت أنفاسه سُحبًا، ووعدَ نفسه بأنه، بمجرَّد

---

(1) تحكي قصَّة خُرافيَّة من فُلكلور مملكة نورثمبريا الأنجلوسكسونيَّة عن طفلةٍ تتغلَّب على جنِّيَّةٍ بالحيلة والتَّلاعُب بالألفاظ. اسم مايك آينسل مأخوذ من عبارةٍ بالإنجليزيَّة القديمة استخدمَتها الطِّفلة في الحكاية: «ماي آينسل»، أي «نفسي أنا». (المُترجم).

وصوله إلى ليكسايد، سيُنفِق بعضًا من علاوة الكريسماس على أثقل وأسمك معطفٍ شتويٍ يُمكن شراؤه بمال.

أجابَ الأربعاء: «نعم. نعم، كان لي شريك،[1] شريك ثانوي، لكن تلك الأيام ولَّت للأسف. ها هي ذي محطة الوقود، وما لم تكن عيني تخدعني فها هي ذي الحافلة». كانت الحافلة تُشغِل إشارة انعطافها إلى الموقف بالفعل. «عنوانك على المفتاح. إذا سألك أحد فأنا خالك، وسأتشرّف بحمل الاسم غير المعتاد إمرسن بورسن.[2] استقرَّ في ليكسايد يا آينسل يا ابن أختي. سآتيك في غضون أسبوع ونُسافِر معًا، نزور مَن عليَّ زيارتهم. حتى ذلك الحين ابق في حالك وابتعد عن المتاعب».

قال شادو: «وسيَّارتي...؟».

قال الأربعاء: «سأعتني بها خير عناية. وقتًا طيِّبًا في ليكسايد»، ومدَّ يده وصافحَها شادو، وأحسَّ بيد الأربعاء أبرد من يد جثَّة.

- «بحقِّ المسيح، كم أنت باردا».

قال الأربعاء: «الأفضل إذًا أن أعجِّل بعمل حيوانٍ بظَهرَيْن[1] مع الحبُّوبة الصَّغيرة من المطعم في حُجرةٍ خلفيَّة بـ «موتل 6»»، ومدَّ يده الأخرى واعتصرَ كتف شادو.

اختبرَ شادو لحظة رؤيةٍ مزدوجة مدوِّخة. رأى الرَّجل الأشهب يُواجِهه معتصرًا كتفه، إلَّا أنه رأى شيئًا آخَر أيضًا: أشتيةٌ كثيرةٌ جدًّا، مئاتٍ ومئاتٍ من الأشتية، ورجلًا أشيب يعتمر قبَّعةً عريضةً يمشي من مستوطنةٍ إلى مستوطنةٍ متَّكئًا على عُكَّازه، يَنظُر من النَّوافذ إلى أضواء النِّيران، إلى مسرَّةٍ وحياةٍ متَّقدة لن يستطيع أن يمسسها أبدًا، لن يستطيع مجرَّد الإحساس بها أبدًا...

بنبرةٍ هي زمجرة مُطمْئِنة قال الأربعاء: «اذهب. كلُّ شيءٍ بخير، وكلُّ شيءٍ بخير، وكلُّ شيءٍ سيكون بخير».

أبرزَ شادو تذكرته لسائقة الحافلة شبه الخالية، التي قالت: «يوم شاق للسَّفر»، ثم أضافَت بنوعٍ معيَّن من الرِّضا السَّوداوي: «كريسماس سعيدًا».

سألَها شادو: «متى نصل إلى ليكسايد؟».

(1) عمل حيوانٍ بظَهرَيْن: تعبير مجازي يعني ممارسة شخصيْن الجنس، يرجع استخدامه الأوَّل في الإنجليزيَّة إلى مسرحيَّة «عطيل» لشيكسپير.

أجابَته: «خلال ساعتين، ربما أكثر قليلًا. يقولون إن في الطَّريق موجةً قارسةً»، وضغطَت مفتاحًا بإبهامها لتنغلق أبواب الحافلة بهسيسٍ وخبطةٍ مكتومة.

سارَ شادو حتى منتصَف الحافلة، وأرجعَ المقعد أبعد مسافةٍ ممكنة، وشرعَ يُفكِّر.

اجتمعَت حركة الحافلة والدِّفء على تهدئته، وقبل أن يُدرِك أنه ناعسٌ غابَ في النَّوم.

* * *

في الأرض، وتحت الأرض. العلامات على الجِدار حمراء حُمرة الصَّلصال المبتل: بصمات أيدٍ وآثار أصابع، وهنا وهناك تصويرات بدائيَّة لحيواناتٍ وبشرٍ وطيور.

لا تزال النَّار موقدةً، ولا يزال الرَّجل الجاموس جالسًا على الجانب الآخَر من النَّار، يَرمُق شادو بعينين ضخمتين، عينين كبركتين من الوحل الأسود. لم تنفرِج شفتا الجاموس المهدَّبتان بالشَّعر البنِّي الملبَّد إذ قال الصَّوت الجاموسي: «إذًا يا شادو، هل تُصدِّق الآن؟».

أجابَ شادو: «لا أدري». لاحظَ أن فمه أيضًا لم يتحرَّك. أيًّا كان الكلام المتبادَل بينهما فهو ليس منطوقًا على أيِّ نحوٍ يستوعبه شادو عن الكلام. «أأنت حقيقي؟».

قال الرَّجل الجاموس: «صدِّق».

بدأ شادو يقول: «أأنت...»، وتردَّد، ثم سأل: «أأنت أيضًا إله؟».

مدَّ الرَّجل الجاموس يده في النَّار وتناولَ جذوةً ملتهبةً وحملَها في منتصَف كفِّه، ولعقَت ألسنةُ اللَّهب الزَّرقاء والصَّفراء يده الحمراء دون أن تحرقها. ثم قال الرَّجل الجاموس: «هاته ليست أرضًا للآلهة»، لكن شادو علمَ في حُلمه أن الرَّجل الجاموس لم يَعُد المتكلِّم، بل هي النَّار تُخاطِبه، طقطقة اللَّهب نفسه واحتدامه يُحدِّثانه في المكان المظلم تحت الأرض.

قالت النَّار: «هاته الأرض انتشلَها من قاع المحيط غطَّاس، غزلَها من لُبِّ نفسها عنكب، تبرَّزها غُداف. إنها جسد أبٍ سقطَ، عظامه جبال وأعيُنه بُحيرات».

وقال اللَّهب: «هاته أرض من أحلامٍ ونار».

ثم أعادَ الرَّجل الجاموس الجمرة إلى النَّار.

قال شادو: «لِمَ تُخبِرني بهذه الأشياء؟ أنا لستُ مهمًا، لستُ أيّ شيء. كنتُ مدرِّبًا بدنيًّا معقولًا، ولصًّا تافهًا فاشلًا حقًّا، وربما لم أكن الزَّوج الصَّالح الذي حسبته...»، وبترَ عبارته بشرود.

ثم سألَ شادو الرَّجل الجاموس: «كيف أساعدُ لورا؟ إنها تُريد العودة إلى الحياة. قلتُ إنني سأساعدها. إنني مدين لها بهذا».

لم يقل الرَّجل الجاموس شيئًا، بل رفعَ كفَّه المواجهة لشادو التي سوَّدها السُّخام، يُشير بسبَّابته إلى سقف الكهف، وتبعَت عينا شادو الإشارة ليرى ضوءًا شتويًّا رفيعًا يأتي من فتحةٍ صغيرة بعيدًا بالأعلى.

سألَ شادو متمنِّيًا أن يُجاب ولو عن واحدٍ من أسئلته: «فوق؟ المفترَض أن أصعد إلى هناك؟».

وعندئذٍ أخذَه الحُلم، فصارَت الفكرة الشَّيء نفسه، وانسحقَ شادو بين الصَّخر والتُّربة. كان مثل الخُلد يُحاوِل اختراق التُّربة، مثل الغُرير يصعد من خلال التُّربة، مثل خنزير الأرض يدفع التُّربة بعيدًا عن طريقه، مثل الدُّب، لكن التُّربة صُلبة للغاية، كثيفة للغاية، وبدأت أنفاسه تَخرُج شهيقًا، وسرعان ما لم يَعُد يستطيع المضيَّ أبعد أو يَحفُر ويصعد أكثر، وعلمَ أنه سيموت في بُقعةٍ ما من المكان السَّحيق تحت العالم.

قوَّته البدنيَّة لا تكفي، وجهوده صارَت أضعف. كان يعلم أنه رغم وجود جسده على متن حافلةٍ ساخنة تمضي بين غاباتٍ باردة، فإنه إذا كفَّ عن التَّنفُّس هنا تحت العالم فسيكفُّ عنه هناك أيضًا، ويعلم أن أنفاسه الآنَ تحديدًا تَدخُل صدره في شهقاتٍ ناهجة ضحلة.

بمزيدٍ من الوهن كافحَ ودفعَ، تستهلك كلُّ حركةٍ يتحرَّكها هواءً ثمينًا. إنه عالق، عاجز عن التَّقدُّم، ولا يستطيع العودة من حيث أتى.

قال صوت في عقله: «والآن أجرِ مقايضةً». ربما كان صوته، لكنه لا يدري.

- «ماذا أملكُ لأقايض به؟ أنا لا أملكُ شيئًا».

الآنَ يذوق الصَّلصال وحلًا رمليًّا ثخينًا في فمه، ويذوق النَّكهة المعدنيَّة اللَّاذعة للصُّخور المحيطة به.

ثم قال شادو: «باستثناء نفسي. إنني أملكُ نفسي، أليس كذلك؟».

بدا كأن كلُّ شيءٍ كان محبوس الأنفاس... ليس شادو وحده، بل عالم تحت الأرض بأسره؛ كلُّ دودة، كلُّ ثغرة، كلُّ مغارةٍ تحبس أنفاسها.

وقال شادو: «أعرض نفسي».

أتى الجواب فوريًا. بدأت الصُخور والتُّربة المحيطة به تنضغِط عليه، تعتصره بعُنفٍ ساحق جعلَه يلفظ آخِر دفقةٍ من الهواء في صدره. أصبحَ الضَّغط ألمًا يُضيِّق عليه من كلِّ جانب، وأحسَّ بأنه يُهرَس هرسًا كنبتة سرخس تتحوَّل إلى فحم. بلغَ أوج الألم، بلغَ الذُروة، وعلمَ أنه لن يستطيع احتمال المزيد، أن أحدًا لا يستطيع احتمال المزيد، وفي تلك اللَّحظة خفَّ الانقباض وعادَ شادو يلتقط أنفاسه، وقد كبرَت بُقعة الضَّوء من فوقه.

كان يُدفَع نحو السَّطح.

وإذ ضربَته انقباضة الأرض التَّالية حاولَ شادو أن يركبها، وهذه المرَّة أحسَّ بنفسه يُدفَع إلى أعلى، يدفعه ضغط الأرض إلى الخارج، يَبثُقه، يُقرِّبه من الضَّوء.

ثم لحظة لالتقاط أنفاسه.

احتوَته الانقباضات وزلزلَته، كلُّ واحدةٍ أعنف، كلُّ واحدةٍ ألمها أشد من السَّابقة.

تدحرجَ وتلوَّى خلال التُّربة، والآن يُدفَع وجهه من الفتحة، فجوة في الصَّخر أكبر بالكاد من يده إذا بسطَها، منها يأتي ضوء رماديٌّ مكتوم، والهواء، الهواء المبارَك.

في ذلك التَّشنُّج الشَّنيع الأخير كان الألم مستحيل التَّصديق إذ أحسَّ شادو بنفسه يُعتصَر ويُسحَق ويُدفَع عبر فجوة الصَّخر العنيدة، يتهشَّم عظمه ويُمسي لحمه شيئًا بلا شكلٍ شبيهًا بالثُّعابين، ولمَّا خرجَ فمه ورأسه الخرِب من الفتحة انفجرَ يَصرُخ خوفًا وألمًا.

وبينما يَصرُخ تساءلَ إن كان يَصرُخ في عالم اليقظة أيضًا... إن كان يَصرُخ في نومه على متن الحافلة المظلمة.

وعندما انتهى ذلك التَّشنُّج الأخير كان شادو فوق الأرض، تُطبِق أصابعه على التُّربة الحمراء ويَشعُر بالامتنان لمجرَّد انتهاء الألم واستطاعته التَّنفُّس من جديد، يعبُّ هواء المساء الدَّافئ عبًّا.

سحبَ نفسه إلى وضع جلوس ومسحَ وجهه من التُّراب ورفعَ نظره إلى السَّماء. الشَّفق. شفق أرجواني طويل، والنُّجوم بدأت تتجلَّى واحدةً تلو الأخرى، نجوم أسطع وألمع مما رأى يومًا أو تخيَّل.

من ورائه قال صوت اللّهب المطقطِق: «قريبًا ستسقُط. قريبًا ستسقُط النُّجوم ويلتقي أهلُها أهلَ الأرض. سيكون بينهم أبطال، ورجال يَقتُلون الوحوش ويجلبون المعارف، لكن أحدًا منهم لن يكون إلهًا. أرضٌ رديئة هاته للآلهة».

مسَّت دفقة من الهواء صادمةٌ برودتها وجهه، كأنما غُمِرَ بماءٍ مثلَّج، وبلغ أُذنيه صوت السَّائقة يقول إنهم الآن في پاينوود، وإن كان أحد يُريد أن يُدخِّن سيجارةً أو يفرد ساقيه فسنبقى هنا عشر دقائق ثم نعود على الطَّريق.

نزلَ شادو مترنِّحًا من الحافلة المركونة خارج محطَّة وقودٍ ريفيَّة أخرى تكاد تكون توأمة التي تحرَّكوا من عندها. كانت السَّائقة تُساعِد فتاتين مراهقتين على الصُّعود وتضع حقيبتيهما في قسم الأمتعة.

حين رأت السَّائقة شادو سألته: «ستنزِل في ليكسايد، أليس كذلك؟». وافقَها شادو ناعسًا، فقالت: «بلدة صالحة حقًّا. أحيانًا أفكِّرُ أنني إذا تقاعدتُ يومًا فسأنتقلُ للمعيشة في ليكسايد. أجمل بلدةٍ رأيتها في حياتي كلِّها. أتُقيم هناك منذ وقتٍ طويل؟».

- «أوَّل مرَّةٍ أزورها».

- «كُل پاستي من عند ميبل لأجلي، سامع؟».

قرَّر شادو ألَّا يَطلُب إيضاحًا، وقال: «أخبِريني، هل كنتُ أتكلَّمُ في نومي؟».

أجابَت: «إن كنت تتكلَّم فلم أسمعك»، ثم نظرَت إلى ساعتها قائلةً: «لنرجع إلى الحافلة. سأناديك عندما نصل إلى ليكسايد».

أخذَت الفتاتان اللتان ركبَتا الحافلة من پاينوود -ويشكُّ شادو أن سنَّهما تزيد كثيرًا على الأربعة عشر عامًا- المقعد أمامه، وإذ تنصَّت عليهما شادو من غير قصدٍ قرَّر أنهما صديقتان لا أختان. إحداهما لا تعرف شيئًا تقريبًا عن الجنس لكنها تعرف الكثير عن الحيوانات، وتُساعِد أو تقضي أوقاتًا طويلةً في ملجأ حيوانات، أمَّا الثَّانية فلا تهتمُّ بالحيوانات، لكنها تخال -وقد سلَّحت نفسها بمئات المعلومات المثيرة المستمدَّة من الإنترنت ومسلسلات التليفزيون النَّهاريَّة- أنها تعرف قدرًا عظيمًا عن العلاقات الجنسيَّة الإنسانيَّة. أصغى شادو بافتتانٍ يجمع بين الهلع والسُّخرية إلى مَن تحسب نفسها ضليعةً في طبائع الدُّنيا، تشرح بالتَّفصيل الدَّقيق تقنيات استخدام أقراص الـ «ألكا-سلتزر» لزيادة الاستمتاع بالجنس الفموي.

أصغى إلى الاثنتين (مُحبَّة الحيوانات، وتلك تعلم لماذا يُعطيك الـ «ألكا-سلتزر» لقاء نقودك لذَّة فمويَّة أفضل من -يعني- الـ «ألتويدز» نفسه) تتجاذبان أطراف النَّميمة عن ملكة جمال ليكسايد الحاليَّة، التي يعلم الجميع -يعني- أنها لم تضع يديها اللَّزجتين على الإكليل والوشاح إلَّا بالتَّودُّد إلى الحُكَّام.

بدأ شادو يتجاهلهما ويسدُّ عن سمعه كلَّ شيءٍ باستثناء ضوضاء الطُّريق، والآن لا يَبلُغه من حوارهما بين الحين والآخر إلَّا الفُتات.

- *جولدي كلب -يعني- مطيع جدًّا، ومن سُلالة رِتريفر نقيَّة، لو أن أبي يُوافِق فقط، وكلَّما رآني هزَّ ذيله.*

- *إنه الكريسماس. يجب أن يسمح لي باستخدام عربة الثَّلج.*

- *يُمكنكِ أن تَكتُبي اسمكِ بلسانكِ على جانب عُضوه.*

- *ساندي أوحشَتني.*

- *نعم، أنا أيضًا أوحشَني ساندي.*

- *قالوا ارتفاع ستِّ بوصاتٍ اللَّيلة، لكنهم يختلقون تلك الأرقام، يختلقون حالة الطَّقس ولا أحد يُراجِعهم أبدًا...*

ثم هسهسَت فرامل الحافلة ورفعَت السَّائقة عقيرتها معلنةً: «ليكسايد!»، وانفتحَت الأبواب بدَقَّةٍ مكتومة. تبعَ شادو الفتاتين إلى الموقف المضاء بالكشَّافات أمام محل ڤيديو وصالون تسمير، الذي خمَّن شادو أنه مثل محطَّة حافلات الـ «جرايهاوند» في ليكسايد، حيث الهواء بارد لدرجةٍ مخيفة، لكنه برد طازج أنعشَه. تطلَّع إلى أنوار البلدة جنوبًا وغربًا، وبسطة البُحيرة المتجمِّدة الشَّاحبة شرقًا.

رأى الفتاتين واقفتين في الموقف تَدُقَّان الأرض وتَنفُخان في أيديهما بطريقةٍ دراميَّة مبالغ فيها، واختلسَت إحداهما -الأصغر- نظرةً إلى شادو، وابتسمَت بحرجٍ لمَّا تبيَّنَت أنه رآها تَنظُر.

قال شادو: «كريسماس سعيدًا»، فقد بدا له قولًا آمنًا.

ردَّت الأخرى، التي تبدو أكبر من الأولى بعامٍ أو نحوه: «نعم، كريسماس سعيدًا لك أيضًا». للفتاة شعر بلون الجزر وأنف أفطس تُغطِّيه مئة ألف حبَّةٍ من النَّمش.

قال شادو: «بلدتكم لطيفة».

قالت الصَّغيرة التي تحبُّ الحيوانات: «إنها تُعجِبنا». ثم منحَته ابتسامةً خجولًا كشفَت عن أسنانٍ أماميَّة مركَّب لها تقويم من المطَّاط الأزرق، وأخبرَته بجدِّيَّة: «إنك تُشبِه أحدًا. ألَنت أخو أحد أو ابن أحد أو شيء ما؟».

قالت صديقتها: «يا لكِ من متخلِّفة يا آليسن. كلُّ أحدٍ ابن أو أخو أحدٍ أو شيء ما!».

ردَّت آليسن: «لم يكن ذلك قصدي».

للحظةٍ بيضاء ناصعة واحدة غمرَتهم أضواء، ووراء الأضواء سيَّارة ستيشن واجن تقودها أمٌّ. خلال لحظاتٍ أخذَت السيَّارة الفتاتين وأمتعتهما تاركةً شادو بمفرده في الموقف.

- «أيها الشَّاب، هل أساعدك بشيء؟». كان العجوز يُوصِد باب محل الڤيديو، ثم وضعَ مفاتيحه في جيبه، وقال لشادو ببشاشة: «لا نفتح خلال الكريسماس، لكنني آتي لأقابل الحافلة وأتأكَّد من أن كلَّ شيءٍ بخير. ما كنتُ لأسامح نفسي لو أن شخصًا مسكينًا وجدَ نفسه بلا وسيلة نقلٍ يوم الكريسماس». وقفَ الرَّجل على مقربةٍ من شادو تكفي لرؤية وجهه: عجوز ولكن قانع، وجه رجلٍ شربَ من خلِّ الحياة وألفاه إجمالًا ويسكي، وويسكي طيِّبًا أيضًا.

قال شادو: «يُمكنك أن تُعطيني رقم شركة التاكسي المحلِّيَّة إذا سمحت».

بشكٍّ قال العجوز: «يُمكنني ذلك، لكن توم سيكون في فِراشه في هذه السَّاعة من اللَّيل، وحتى إذا أمكنَك إيقاظه فلن ينفعك بشيء... لقد رأيته في «بَك ستُپس هير»[lxxi] في وقتٍ سابق هذا المساء. كان ثملًا جدًّا، ثملًا جدًّا لا شكَّ. إلى أين تسعى؟».

أراه شادو بطاقة العنوان الملحقة بالمفاتيح، فقال: «طيِّب، هذه عشر دقائق أو ربما عشرون دقيقةً من المشي، من فوق الجسر وحوله. لكن لا مُتعة في ذلك والبرد مشتدٌّ هكذا، وعندما لا تعلم وجهتك يبدو الطَّريق أطول دائمًا... هل لاحظت هذا؟ المرَّة الأولى تستغرق أبديَّة، وبعدها فصاعدًا تصل في لمح البصر؟».

أجابَ شادو: «نعم. لم أنظر إلى الأمر من هذه الزَّاوية من قبل، ولكن أظنُّك مُحقًّا».

أومأ العجوز برأسه، وتشقّق وجهه إذ ارتسمَت عليه ابتسامة واسعة وهو يقول: «ولِمَ لا؟ إنه الكريسماس. سأوصِّلك بتِسي».

ردَّد شادو: «بِتسي؟»، ثم قال: «أعني شكرًا».

- «عفوًا».

تبعَ شادو العجوز إلى الطَّريق، حيث ركَنَ مركبةً قديمةً ضخمةً، تبدو كشيءٍ كان رجال العصابات ليفتخروا بركوبه في العشرينيَّات الهادرة، وتضمُّ دوّاسات أبواب وما إلى ذلك. بدا لون السيَّارة قاتمًا تحت مصابيح بُخار الصوديوم، أي إنه قد يكون أحمر وقد يكون أخضر. قال العجوز: «هذه هي تِسي. أليست مليحةً؟»، وبحركةٍ تنمُّ عن التَّملُّك ربَّت عليها حيث ينحني الكبُوت إلى أعلى ويتقوَّس فوق العجلة الأماميَّة القريبة منه.

سألَه شادو: «ما طرازها؟».

- «إنها «قِنت فينكس».[lxxii] في سنة 31 أفلسَت شركة «قِنت» واشترَتها «كرايسلر»، لكنهم لم يُصنِّعوا المزيد من هذا الطِّراز. هارقي قِنت، الذي أسَّس الشَّركة، كان فتى محليًّا. ذهبَ إلى كاليفورنيا وانتحرَ في سنة، أوه، 1941 أو 42. مأساة كبيرة».

للسيَّارة رائحة الجلد ودُخان السَّجائر القديم، ليست رائحةً حديثةً، ولكن كأن عددًا من النَّاس دخَّن منهم هذا سيجارةً وذاك سيجارًا داخل السيَّارة، حتى إن رائحة التَّبغ المحروق غدَت جزءًا من نسيجها.

أدارَ العجوز المفتاح في نظام الإشعال، واشتغلَت تِسي من المرَّة الأولى. «غدًا ستُوضَع في الجراج. سأغطِّيها بكسوةٍ مضادَّة للأتربة، وهكذا ستبقى حتى الرَّبيع. الحقُّ يُقال، لا يَجدُر بي أن أقودها الآن والثَّلج على الأرض».

- «ألا تتحرَّك جيِّدًا في الثَّلج؟».

- «تتحرَّك بكلِّ جودة. المشكلة في الملح الذي يضعونه على الطُّرق لإذابة الثَّلج. الملح يُصدئ مثل هذه المليحة العجوز بسرعةٍ تستعصي على التَّصديق. هل تُريد الذَّهاب من الباب إلى الباب، أم تودُّ الجولة الكُبرى في أنحاء البلدة تحت ضوء القمر؟».

- «لا أريدُ أن أزعجك...».

- «لا إزعاج. عندما تَبلُغ سنِّي ستَشعُر بالامتنان لأقل سِنةٍ من النَّوم. هذه الأيام أكونُ محظوظًا إذا نلتُ قسطًا أطول من خمس ساعات... أستيقظُ

وعقلي يدور ويدور. أين أخلاقي؟ اسمي هينزلمان.[lxxiii] كنتُ لأقول لك أن تدعوني بريتشي، لكن مَن يعرفونني هنا يدعونني دائمًا بهينزلمان مجرّدًا. كنتُ لأصافحك، لكنني أحتاجُ إلى كلتا يديّ لأقود تسي. إنها تعلم متى تشتّت انتباهي».

قال شادو: «مايك آينسل. يسرُّني لقاؤك يا هينزلمان».

- «سندور حول البحيرة إذًا، الجولة الكُبرى».

الشّارع الرّئيسي، الذي يقطعانه الآن، شارع جميل حتى بالليل، ويبدو عتيق الطّراز بأفضل معنى للكلمة، كأن طيلة مئة عامٍ كاملة ظلَّ النّاس يعتنون بالشّارع ولا يتعجّلون فقدان أيّ شيءٍ يحبُّونه.

أشارَ هينزلمان إلى مطعمَي البلدة إذ مرَّا بهما (مطعم ألماني، ومطعم وصفَه العجوز بأنه «يوناني، نرويجي، القليل من كلِّ شيء، وفطيرة حُلوة منقوشة مع كلِّ طبق»)، وأشارَ إلى المخبز ومتجر الكُتب («رأيي أن بلدةً بلا متجر كُتبٍ ليست ببلدة. قد تُسمِّي نفسها بلدةً، ولكن إن لم يكن فيها متجر كُتبٍ فإنها تعلم أن خدعتها لا تنطلي على أحد»).[lxxiv] ولدى مرورهما بمكتبة البلدة أبطأ العجوز حركة تِسي ليُلقي نظرةً واضحةً. فوق المدخل تتلألأ مصابيح الغاز الأثريَّة، وبفخرٍ لفتَ هينزلمان انتباه شادو لها. «شيَّدها في سنة 1870 چون هنينج، أحد بارونات الأخشاب المحلِّيِّين. أرادَ أن تُسمَّى مكتبة هنينج التّذكاريَّة، ولكن عند وفاته بدأ النَّاس يسمُّونها مكتبة ليكسايد، وأظنُّها ستبقى مكتبة ليكسايد حتى نهاية الزَّمان. أليست جميلةً كالأحلام؟». ما كان الرَّجل ليَشعُر بفخرٍ أشد لو أنه بنى المكتبة بنفسه. ذكَّر المبنى شادو بالقلاع، ولمَّا أفصحَ عن هذا أيَّده هينزلمان بقوله: «صحيح. أبراج دفاعيَّة وما إلى ذلك. هكذا أرادَها هنينج أن تبدو من الخارج. في الدَّاخل ما زالَت رفوف خشب الصَّنوبر الأصليَّة موجودةً. ميريام شولتز تُريد هدمها من الدَّاخل وتحديثها بأسلوبٍ عصري، لكن المكتبة مدرجة في سجل الأماكن التَّاريخيَّة، وما بيدها حيلة».

دارا حول جانب البُحيرة الجنوبي. تُحيط البلدة بالبُحيرة المنخفضة ثلاثين قدمًا عن الطَّريق، ورأى شادو رُقعًا من الجليد الأبيض الباهت على سطحها، وهنا وهناك رُقعةً لامعةً من الماء تعكس أضواء البلدة.

- «يبدو أنها تتجمَّد».

قال هينزلمان: «إنها متجمِّدة منذ أكثر من شهر. البُقع الباهتة أكوام ثلج واللَّامعة جليد. بعد عيد الشُّكر بقليل تجمَّدت خلال ليلةٍ قارسة البرودة، تجمَّدت وصارَت ملساء كالزُّجاج. هل تُمارِس الصَّيد في الجليد كثيرًا يا مايك آينسل؟».

- «نهائيًّا».

- «أفضل شيءٍ يفعله الرَّجل. ليست الغاية السَّمك الذي تصطاده، بل راحة البال التي تأخذها معك إلى البيت في آخِر اليوم».

قال شادو: «سأتذكَّرُ هذا»، ورمقَ البُحيرة من نافذة تِسي متسائلًا: «أيُمكن المشي عليها الآن؟».

قال هينزلمان: «يُمكنك المشي عليها، والقيادة عليها أيضًا، لكنني لا أريدُ المخاطرة بذلك بعدُ. الطَّقس بارد هنا منذ ستَّة أسابيع، لكن عليك أن تقرَّ بأن الأشياء تتجمَّد بصلابةٍ وسرعةٍ أشد هنا في شمالي ويسكونسن من أغلب الأماكن الأخرى في الوجود. ذات مرَّةٍ خرجتُ للصَّيد بغية اقتناص أيِّل، وكان ذلك منذ، أوه، ثلاثين أو أربعين عامًا، وأطلقتُ النَّار على أيِّل وأخطأتُ التَّصويب فجعلته يهرع ليختفي في الغابة... كان ذلك عند طرف البُحيرة الشَّمالي، قُرب المنطقة التي ستُقيم بها يا مايك. كان أفضل أيِّلٍ رأيته على الإطلاق، لقرنيه عشرون أَسَلةً، حجمه كحصانٍ صغير، لا أكذبك القول. وقتها كنتُ أصغر وأجرأ مما أنا الآن. ورغم أن الثُّلوج بدأت تَسقُط قبل الهالووين في ذلك العام، كنا قد بلغنا عيد الشُّكر، وكان الثَّلج على الأرض طازجًا نظيفًا، واستطعتُ رؤية آثار أقدام الأيِّل. بدا لي أن صاحبنا الكبير هذا اتَّجه إلى البحيرة مذعورًا. طيِّب، أحمق لعينٍ فقط مَن يُحاوِل اللَّحاق بأيِّل، ولكن هأنذا، أحمق لعين يعدو وراءه، وها هو ذا يقف في البحيرة بعُمق، أوه، ثمان أو تسع بوصاتٍ من الماء، ويَنظُر إليَّ فحسب. وفي تلك اللَّحظة تحديدًا تتوارى الشَّمس خلف سحابةٍ ويبدأ التَّجمُّد... لا بُدَّ أن الحرارة انخفضَت ثلاثين درجةً خلال عشر دقائق، ولا كلمة من هذا كذب. ويستعدُّ ذلك الوعل العجوز للرَّكض، لكنه لا يقوى على الحركة. الجليد تجمَّد حول أقدامه. أمَّا أنا فأتقدَّمُ إليه ببُطء. يُمكنك أن ترى أنه يُريد الهرب، لكنه محبوس في الجليد ولن يستطيع. لكني لا أقدرُ على دفع نفسي إلى إطلاق النَّار على مخلوق أعزل لا يُمكنه الفرار. أيُّ رجلٍ أنا لو فعلتُ ذلك، هِه؟ وهكذا آخذُ بندقيَّتي وأُطلقُ خرطوشًا واحدًا في الهواء، والضجَّة والصَّدمة كفيلتان بجعل الأيِّل يقفز من جلده تقريبًا، ولأن أقدامه في الجليد فهذا هو ما

شرعَ في فعله بالضّبط، ويترُك فروته وأسلاته ملتصقةً بالجليد فيما يُسرِع إلى الغابة، لونه ورديٌّ كفأرٍ حديث الولادة ويرتجف بمنتهى العُنف. أشفقتُ على الأيّل العجوز لدرجة أنني تكلّمتُ مع دائرة سيّدات ليكسايد للحياكة ليُفصّلن شيئًا ثقيلًا يرتديه خلال الشّتاء، ففصّلن له حُلّةً كاملةً من الصُّوف من قطعةٍ واحدة لكيلا يتجمّد حتى الموت. طبعًا كانت النُّكتة على حسابنا نحن، لأنهن فصّلن له حُلّةً من الصُّوف البرتقالي الفاقع لكيلا يُطلق عليه أيُّ صيّادٍ النّار، فالصيّادون في هذه الأنحاء يرتدون البرتقالي في موسم الصّيد. وإن كنت تحسب أن في حكايتي هذه كلمةً واحدةً كاذبةً فيُمكنني أن أثبت لك صحّتها. ما زلتُ أعلّقُ الأسلات على حائط الاستراحة في منزلي حتى اليوم».

ضحكَ شادو، وابتسمَ العجوز ابتسامة حكّاءٍ أستاذ راضيةً.

توقّفا أمام بنايةٍ من القرميد يعلوها سطح خشبيٌّ كبير تتدلّى منه أنوار الأعياد الذّهبيّة وتَبرُق بجاذبيّة، وقال هينزلمان: «رقم 502. ستجد الشقّة 3 في الطّابق العُلوي على الطّرف الآخَر المطل على البحيرة. تفضّل يا مايك».

- «أشكرك يا مستر هينزلمان. هل أعطيك شيئًا مقابل الوقود؟».

- «هينزلمان فقط. ولست مدينًا لي ببنس واحد. كريسماس سعيدًا مني أنا وتِسي».

- «أواثق بأنك لن تقبل شيئًا؟».

حكَّ العجوز ذقنه، وقال: «حسن، سأخبرك بشيء. في وقتٍ ما خلال الأسبوع القادم تقريبًا سأمرُّ عليك وأبيعك بعض تذاكر اليانصيب. عمل خيري. أمّا الآن أيها الشّاب فيُمكنك الخلود إلى النّوم».

ابتسمَ شادو قائلًا: «كريسماس سعيدًا يا هينزلمان».

صافحَ العجوز شادو بيدٍ محمرّة المفاصل ملمسها جامد قاسٍ كفرع شجرة سنديان، وقال: «انتبه لطريقك وأنت تصعد. سيكون زلقًا. يُمكنني أن أرى بابك من هنا، عند الجانب هناك، هل تراه؟ سأنتظرُ في السيّارة حتى تَدخُل بأمان. فقط ارفع لي إبهامك عندما تصل بالسّلامة وسأتحرّك». وهكذا تركَ هينزلمان الـ «ڤِنت» دائرةً حتى صعدَ شادو السّلالم الخشبيّة على جانبِ المبنى بأمانٍ وأدارَ مفتاحه في باب الشقّة. انفتحَ الباب، وأشارَ شادو بإبهامه للعجوز الجالس في الـ «ڤِنت» -فكّر شادو: تِسي، وحدَث به فكرة

حمل سيّارةٍ اسمًا إلى الابتسام مجدّدًا- فدارَ هينزلمان وتسي وشقّا طريقهما عائدَيْن من فوق الجسر.

أغلقَ شادو الباب الأمامي. كانت الرّدهة ثلجيّة البرودة، ورائحتها رائحة أناسٍ رحلوا ليعيشوا حيواتٍ أخرى، ورائحة كلِّ ما أكلوه وحلموا به. وجدَ منظّم الحرارة ورفعَه إلى 70 درجةً، ثم دخلَ المطبخ وتفقّد الأدراج، وفتحَ الثّلّاجة ذات لون الأفوكادو فوجدَها خالية. لا مفاجأة في هذا. على الأقل رائحتها من الدّاخل نظيفة وليست زنخةً.

تضمُّ الشقّة بجوار المطبخ غُرفة نومٍ صغيرةً فيها حشيّة سرير عارية، تقع بعد حمّامٍ أصغر معظمه عبارة عن حُجيرة للاستحمام. في المرحاض يطفو عقب سيجارةٍ قديم ملوّثًا المياه بالبنّي، فشدَّ شادو عليه السيفون.

وجدَ ملاءاتٍ وأغطيةً في خزانةٍ ورتّب فِراشه، ثم خلعَ حذاءه وسُترته وساعته، وصعدَ فوق الفِراش ببقيّة ثيابه كاملةً وهو يتساءَل كم سيستغرق حتى يَشعُر بالدّفء.

الأضواء مطفأة، والصّمت سائد غالبًا، لا صوت إلّا طنين الثّلّاجة وراديو في مكانٍ ما من البناية. تمدَّد شادو في الظّلام متسائلًا إن كان قد شبعَ نومًا على متن الحافلة، وإن كان الجوع سيتّحد مع البرد والسّرير الجديد وجنون الأسابيع القليلة الماضية للحيلولة دون نومه اللّيلة.

في السُّكون المخيِّم سمعَ صوتًا كالطّلقة، فرعًا انكسرَ ربما، أو الجليد. العالم بالخارج متجمِّد.

تساءلَ كم سينتظر حتى يأتيه الأربعاء. يومًا؟ أسبوعًا؟ أيًّا كانت الفترة فقد علمَ أن عليه التّركيز على شيءٍ ما حتى ذلك الحين. قرَّر أن يُعاوِد التّمارين البدنيّة، ويتدرَّب على خدع العملة وخفّة اليد حتى يُجيدها تمام الإجادة (وهمسَ شخص ما داخل رأسه بصوتٍ ليس صوته: *تدرَّب على خدعك كلِّها، عليها جميعًا ما عدا واحدة، الخدعة التي أراكَ إياها المسكين الميت سويني المجنون، الذي قضيَ نحبه بفعل التّعرية والبرد والنِّسيان والإهمال. ليس تلك الخدعة. أوه، ليس تلك الخدعة*).

على أن هذه بلدة صالحة حقًّا، وبوسعه الإحساس بهذا.

فكَّر في حُلمه -إن كان حُلمًا- في ليلته الأولى بالقاهرة، وفكَّر في زوريا... ماذا كان اسمها بحقِّ الجحيم؟ أخت منتصَف اللّيل. ثم فكّر في لورا...

وكأن التّفكير فيها فتح نافذةً في عقله. يُمكنه رؤيتها. بوسيلةٍ ما يُمكنه رؤيتها.

إنها في إيجل بوينت، في الفِناء الخلفي خارج منزل أمّها الكبير.

تقف لورا في البرد الذي لم تَعُد تحسُّ به، أو تحسُّ به طوال الوقت. تقف خارج المنزل الذي اشترَته أمُّها في عام 1989 بمبلغ التّأمين الذي قبضَته بعد وفاة أبي لورا، هارفي مكيب، بأزمةٍ قلبيّة نجمَت عن إجهاده نفسه وهو قاعد على المرحاض. ترنو لورا ببصرها إلى الدّاخل وقد ألصقَت يديها الباردتين بالزُّجاج من غير أن تتكاثَف أنفاسها عليه على الإطلاق. تُشاهِد أمّها مع أختها وأطفال أختها وزوجها الذين جاؤوا في زيارةٍ من تكساس لحضور الكريسماس في الدِّيار. في الظُّلمة تقف لورا عاجزةً عن الإشاحة ببصرها.

ترقرقَت الدُّموع في عينَي شادو ووخزَتهما، وانقلبَ على جانبه فوق الفِراش.

فكَّر شادو: *الأربعاء*، وبمجرَّد التّفكير انفتحَت نافذة وإذا به يُشاهِد من رُكن حُجرةٍ في «موتل 6»، يُشاهِد جسدين يتناكحان ويتقلّبان في الظّلام الجزئي.

شعرَ بأنه متلصِّص، وطردَ أفكاره بعيدًا عن المشهد آمرًا إياها بالرُّجوع إليه. تخيَّل أجنحةً سوداء تَمرُق من هواء اللّيل في اتّجاهه، ورأى البُحيرة تتّسع أسفله فيما تهبُّ الرِّيح من المنطقة القُطبيّة الشّماليّة نافثةً البرد في الأرض ومجبِرةً كلَّ ما ظلَّ سائلًا على التّجلُّد، أصابعها صقيع أبرد مئة مرّة من أصابع أيِّ جثّة.

أصبحَت أنفاس شادو ضحلةً ولم يَعُد بردانَ، وسمعَ الرِّيح تشتدُّ صارخةً صرخاتٍ قاسيةً حول المنزل، وللحظةٍ حسبَ نفسه يسمع كلماتٍ محمولةً على الرِّيح.

فكَّر أنه إن كان سيذهب إلى أيِّ مكانٍ فلا بأس بوجوده هنا، ثم راحَ في النَّوم.

## في تلك الأثناء، محادثة.

دينج دونج.

- «الميز كرو؟».
- «نعم».
- «أنتِ سامانثا بلاك كرو؟».
- «نعم».
- «أتُمانعين إن ألقينا عليكِ بعض الأسئلة يا سيِّدتي؟».
- «نعم، في الحقيقة أمانعُ».
- «لا داعي لهذا الأسلوب يا سيِّدتي».
- «آأنتما شُرطيَّان؟ ماذا تعملان؟».
- «اسمي تاون، وهذا زميلي المستر رود. إننا نُحقِّق في اختفاء اثنين من زُملائنا».
- «ما اسماهما؟».
- «معذرةً؟».
- «أخبِرني باسميهما. أريدُ أن أعرف ماذا يُدعى زميلاكما هذان. أخبِرني باسميهما وقد أساعدكما».
- «... حسن، اسماهما المستر ستون والمستر وود. والآن هل يُمكننا أن نُلقي عليكِ بعض الأسئلة؟».
- «هل ترون الأشياء حولكم وتنتقون أسماءً عشوائيَّةً؟ يَنظُر الواحد منكم ويرى شيئًا كرصيفٍ أو سجَّادة أو طائرة ويُقرِّر أن يأخذ اسمه؟».
- «طريف جدًّا أيتها الشَّابَّة. السُّؤال الأوَّل: نُريد أن نعرف إن كنتِ قد رأيتِ هذا الرَّجل. هاكِ، يُمكنكِ أن تُمسكي الصُّورة».
- «ووه! من الأمام ومن الجانب، وأرقام أسفل الصَّفحة... وكبير الحجم، وسيم رغم ذلك. ماذا فعلَ؟».

- «ورَّط نفسه في عمليَّة سطوٍ على بنك ببلدةٍ صغيرة قبل سنوات. كان السَّائق، وقرَّر رفيقاه الاحتفاظ بالفَيء كلّه لنفسيهما وفرَّا دونه. وهكذا غضبَ، وعثرَ عليهما، وأوشكَ على قتلهما بيديه. أجرَت حكومة الولاية اتّفاقًا مع الرَّجلين اللذين آذاهما، فشهدا عليه وصدرَ عليهما حُكم مع إيقاف التَّنفيذ، وحُكِمَ على هذا الرَّجل شادو بستِّ سنواتٍ أمضى منها ثلاثًا. إذا طلبتِ رأيي، مع أمثاله من الرِّجال، المفترَض أن يحبسوهم ويتخلَّصوا من المفتاح».
- «أتعلم أني لم أسمع أحدًا يقول هذه الكلمة في عالم الواقع قَطُّ؟».
- «يقول ماذا يا ميز كرو؟».
- «كلمة «فَيء» هذه. ليست كلمةً تسمع النَّاس يقولونها. ربما يقولونها في الأفلام، ولكن ليس في الواقع».
- «ليس هذا فيلمًا يا ميز كرو».
- «بلاك كرو. اسمي الميز بلاك كرو. أصدقائي يدعونني بسام».
- «مفهوم يا سام. بالنِّسبة إلى هذا الرَّجل...».
- «لكنكما لستما صديقيَّ. يُمكنك أن تدعوني بالميز بلاك كرو».
- «اسمعي أيتها الصَّغيرة أمُّ الرِّيالة...».
- «لا عليك يا مستر رود. سام -معذرةً يا سيِّدتي، أعني الميز بلاك كرو- تُريد أن تُساعِدنا. إنها مواطنة تُراعي القانون».
- «سيِّدتي، إننا نعلم أنكِ ساعدتِ شادو. لقد شُوهِدتِ معه في «شفي نوفا» بيضاء. أوصلكِ ودعاكِ إلى العَشاء. هل قال أيَّ شيءٍ من شأنه أن يُعيننا في التَّحقيق؟ اثنان من أفضل رجالنا اختفَيا».
- «لم أقابله قَطُّ».
- «بل قابلتِه. من فضلكِ لا تُخطئي وتحسبينا أغبياء. لسنا أغبياء».
- «ممم. إنني أقابلُ أناسًا كثيرين. ربما قابلته ونسيته».
- «سيِّدتي، من مصلحتكِ حقًّا أن تتعاوَني معنا».
- «وإلَّا قدَّمتماني لصديقين لكما، أحدهما اسمه يعني أداة تعذيب والثَّاني مصل الحقيقة؟».
- «سيِّدتي، لستِ تُسهِّلين الأمر على نفسكِ».

- «چي! آسفة. أهناك شيء آخَر؟ لأني سأقولُ با-بايِ وأغلقْ الباب، وأظنكما ستركبان المستر سيَّارة وتتصرفان».

- «تقصيرك في التَّعاوُن ملحوظ يا سيِّدتي».

- «با-باي».

كليك.

# الفصل العاشر

سأحكي لكِ أسراري كلَّها
لكنني أكذبُ بشأن ماضيَّ
فأرسِليني إلى الفِراش إلى الأبد

- توم ويتس، **يرقُصون التانجو حتى التَّعب**

حياة كاملة في الظَّلام، محاصرًا بالقذارة. هذا هو ما حلمَ به شادو في ليلته الأولى بليكسايد. حياة طفل، قبل زمنٍ طويل وفي مكانٍ بعيد بأرضٍ وراء المحيط، في تلك الأراضي حيث تُشرِق الشَّمس. لكن تلك الحياة لم تتضمَّن شروقًا يومًا، فقط العتمة نهارًا والعمى ليلًا.

لا أحد يُكلِّمه. من الخارج يسمع أصواتًا بشريَّة، غير أنه لا يفهم كلام الإنسان أكثر مما يفهم نئيم البوم أو نباح الكلاب. يتذكَّر، أو يُخيَّل إليه أنه يتذكَّر، ليلةً منذ نصف عُمر، عندما دخلَت عليه واحدة من النَّاس الكبار بهدوءٍ ولم تُقيِّده أو تُطعِمه، بل رفعَته إلى صدرها وضمَّته. كانت رائحتها طيِّبةً، وراحَت تُصدِر أصوات تهويد، وتساقطَت قطرات ماءٍ حارَّة من وجهها على وجهه. كان خائفًا، وفي خوفه ارتفعَت عقيرته بالعويل.

بعجلةٍ وضعَته على القشّ، وغادرَت الكوخ موصدةً الباب خلفها.

يتذكَّر تلك اللَّحظة، ويعتزُّ بها، تمامًا كما يتذكَّر حلاوة قلب الكرنب، ولذوعة البرقوق، ومضغة التُّفَّاح، ولذاذة السَّمك المشوي الذَّفرة.

*والآن يرى الوجوه في ضوء النَّار، تَنظُر إليه جميعًا إذ يُقاد إلى خارج الكوخ للمرَّة الأولى، والمرَّة الوحيدة. هكذا يبدو البشر إذًا. لقد ترعرعَ في الظُّلمة، ولم يرَ وجوهًا من قبل قَطُّ. كلُّ شيءٍ جديد جدًّا، غريب جدًّا، وضوء النَّار يُؤلِم عينيه.*

*يُطوِّقون عُنقه بالحبل ليقودوه إلى المساحة بين النَّاريْن حيث ينتظره الرَّجل.*

*ويا للتَّهليل الذي تفجَّر من الحضور لمَّا رُفِعَ النَّصل الأول في ضوء النَّار، وبدأ طفل الظَّلام يضحك معهم ويضحك ابتهاجًا وحرِّيَّةً.*

*ثم هوى النَّصل.*

فتحَ شادو عينيه وأدركَ أنه جوعانٌ وبردان في شقَّةٍ تكسو فيها طبقة من الجليد زُجاج النَّافذة من الدَّاخل، وهو ما خطرَ له أنه أنفاسه المتجلِّدة. قامَ من الفِراش مسرورًا لكونه ليس مضطرًّا إلى ارتداء ثيابه، وعند مروره بنافذة غُرفة النَّوم كشطَ زُجاجها بأحد أظفاره، وأحسَّ بالجليد يتجمَّع تحت الظُّفر ثم يذوب.

حاولَ أن يستعيد حُلمه، ولم يتذكَّر منه إلَّا البؤس والظَّلام.

انتعلَ حذاءه مفكِّرًا أن يقطع الطَّريق إلى مركز البلدة سيرًا، يَعبُر الجسر فوق طرف البُحيرة الشَّمالي، إن كان قد ألمَّ بجغرافية البلدة. ارتدى سُترته الخفيفة متذكِّرًا وعده لنفسه بشراء معطفٍ شتوي ثقيل، ثم فتحَ باب الشقَّة وخرجَ إلى السَّطح الخشبي. صدمَته البرودة، وأخذَ شهيقًا شاعرًا بكلِّ شُعيرةٍ في منخريْه تتيبَّس. يمنحه السَّطح منظرًا جميلًا للبُحيرة، حيث يُحيط برُقعٍ متفرِّقة من الرَّمادي براح أبيض.

تساءلَ عن درجة البرد حاليًّا. الموجة القارسة بدأت، لا شكَّ في هذا. لا يُمكن أن الحرارة أعلى كثيرًا من الصِّفر، ولن تكون تمشيته إلى البلدة سارَّةً، لكنه واثق باستطاعته الوصول من غير متاعب جمَّة. ماذا قال هينزلمان البارحة؟ عشر دقائق من المشي؟ وشادو رجل كبير، بإمكانه أن يمشي بنشاطٍ ويُحافِظ على دفء جسده.

وهكذا تحرَّك جنوبيًا في اتِّجاه الجسر.

وسرعان ما بدأ يَسعُل، سُعاله جافٌّ ضعيف إذ مسَّ الهواء البارد الأليم رئتيه، وسرعان ما أوجعَته أذناه ووجهه وشفتاه، ثم قدماه. دسَّ يديه غير

المقفَّزتين في عُمق جيبَي معطفه، وقبضَ أصابعه بشدَّةٍ محاولًا العثور على شيءٍ من الدِّفء. وجدَ نفسه يتذكَّر حكايات لُو كي لايسميث المبالغ فيها عن شتاء منيسوتا... تحديدًا حكايته عن الصيَّاد الذي أرغمَه دبٌّ على الاحتماء فوق شجرةٍ خلال تجمُّدٍ قاسٍ، فأخرجَ ذَكره وصنعَ ببوله قوسًا أصفر مصحوبًا بالبُخار تجمَّد قبل أن يصل إلى الأرض، ثم انزلق فوق قائم البول المتجلِّد الصُّلب كالصُّخور إلى الحرِّيَّة. ابتسامة ساخرة عابسة للذِّكرى، وسعلة جافَّة مؤلمة أخرى.

خُطوة تلو الخُطوة تلو الخُطوة. نظرَ وراءه، ولم يرَ المبنى السَّكني بعيدًا البُعد الذي توقَّعه.

قرَّر أن تمشيته هذه غلطة، إلَّا أنه ابتعدَ ثلاث أو أربع دقائق عن الشقَّة بالفعل، والجسر في مرمى بصره. بدَت فكرتا مواصلة الطَّريق أو عودته أدراجه معقولتيْن بالتَّساوي (وإذا عادَ فماذا؟ يَطلُب تاكسي بالهاتف العطلان؟ ينتظر الرَّبيع؟ ذكَّر نفسه بأن لا طعام لديه في الشقَّة).

واصلَ المشي معدِّلًا تقديراته لدرجة الحرارة وخافضًا إياها مع تقدُّمه. سالب 10؟ سالب 20؟ سالب 40 ربما، تلك النُّقطة الغريبة على ميزان الحرارة، حيث تقول المئويَّة والفهرنهايت الشَّيء نفسه. ليس البرد بتلك الشِّدَّة على الأرجح، لكن برودة الرِّيح محسوسة، والرِّيح الآن قويَّة ثابتة مستمرَّة، تهبُّ فوق البحيرة آتيةً من المنطقة القُطبيَّة الشَّماليَّة عبر كندا.

بحسدٍ تذكَّر مدفِّئات اليدين والقدمين التي أخذَها من الرِّجال في القطار الأسود، وتمنَّى لو أنها معه الآن.

عشر دقائق أخرى من المشي -حسب تخمينه- والجسر لا يبدو أقرب. الصَّقعة التي يحسُّ بها أشدُّ من أن يرتجف، وعيناه تُؤلمانه. ليس هذا مجرَّد برد، هذا خيال علمي، قصَّة تدور أحداثها على الجانب المظلم من عُطارد في الزَّمن الذي اعتقَدوا فيه أن لعُطارد جانبًا مظلمًا، هذا مكان وسط صخور پلوتو، حيث الشَّمس مجرَّد نجمةٍ أخرى وهجها أسطع قليلًا في الظَّلام. هذا المكان -فكَّر شادو- قيد شعرةٍ لا أكثر من الأمكنة التي ينهمر فيها الهواء انهمارًا وينصبُّ مثل البيرة.

لم تبدُ السيَّارات التي هدرَت مارَّةً به على فتراتٍ متقطِّعة حقيقيَّة، بل سُفن فضاء، عُلب من المعدن والزُّجاج مجفَّفة بالتَّجميد يحتلُّها أناس يرتدون ثيابًا أثقل من ثيابه. بدأت أغنيَّة قديمة أحبَّتها أمُّه، «أرض العجائب الشَّتويَّة»،[xxxv]

تدور في رأسه، ومن بين شفتين مغلقتين دندنَ لحنها مجاريًا إيقاعها في مشيته.

إحساسه بقدميه فقدَه بالكامل. خفضَ نظره إلى حذائه الأسود والجورب الأبيض الخفيف، وبدأ يتناهَبه القلق من قضمة الصَّقيع.

المسألة تتعدّى المزاح كثيرًا، تتجاوزُ الحدَّ إلى نطاقِ «بحقّ-يسوع-المسيح-إنها-لغلطة-فادحة-عيار-24-قيراطًا» لا ريب فيه. كأنّ ملبسه من الشّبك أو الدانتلّة. نفذَت الرِّيح من لحمه وجمَّدت عظمه والنُّخاع في عظمه، جمَّدت رموش عينيه، جمُدت البُقعة الدَّافئة تحت خصيتيه اللتين بدأتا تنسحبان إلى داخل تجويفه الحوضي.

قال لنفسه: *واصِل المشي، واصِل المشي. يُمكنني أن أتوقّف وأعبّ الهواء عندما أعودُ إلى المنزل.* بدأت أغنيَّة لـ «البيتلز» في عقله، فعدَّل حركته ليُجاريها، وفقط حين وصلَ إلى الجوقة أدركَ أن الأغنيَّة التي يُدندِنها هي «النَّجدة!».[lxxvi]

يكاد يَبلُغ الجسر، ثم عليه أن يَعبُره، وبعد ذلك تفصله عن المتاجر غرب البحيرة دقائق عشر كاملة، وربما أكثر...

مرَّت به سيَّارة قاتمة، وتوقَّفت، ثم عادَت بظَهرها وسط سحابةٍ ضبابيَّة من دُخان العادم وتوقَّفت إلى جانبه. انخفضَت نافذة، وامتزجَت الغشاوة والأبخرة الخارجة من السيَّارة بالعادم لتتكوَّن أنفاس تنّينٍ حولها.

من الدَّاخل سألَه شُرطي: «أكلُّ شيءٍ بخير هنا؟».

أرادَته غريزته الآليَّة الأوَّليَّة أن يُجيب: نعم، *كلُّ شيءٍ بخيرٍ وفي أحسن حال، شكرًا أيها الضَّابط*، لا شيء يَحدُث هنا، *واصِل* طريقك، لا *يُوجَد ما يُرى*، لكن أوانَ ذلك فاتَ، وبدأ شادو يقول: «أظنُّني أتجمَّدُ. كنتُ ذاهبًا إلى داخل ليكسايد لأشتري طعامًا وثيابًا، لكنني استهنتُ بطول المسافة...». كان قد بلغَ ذلك الجزء من الجُملة في عقله عندما أدركَ أن كلَّ ما خرجَ منه هو «أتـتـتجمَّدُ» ولغوٌ مفكَّك، فقال: «آسـسف. بردان. آسف».

فتحَ الشُّرطي باب السيَّارة الخلفي قائلًا: «ادخُل فورًا ودفِّئ نفسك، مفهوم؟»، فركبَ شادو شاعرًا بالامتنان وجلسَ على الأريكة الخلفيَّة وفركَ يديه محاولًا ألّا يقلق بشأن أصابع القدمين التي قضمَها الصَّقيع. عادَ الشُّرطي إلى مقعد القيادة، ورمقَه شادو عبر الشَّبكة المعدنيَّة وهو يُحاوِل إبعاد تفكيره

عن آخر مرّةٍ جلَس في مؤخرة سيّارة شرطة، ويحاول ألّا يلحظ أن كلا البابين الخلفيّين بلا مقبض، وبدلًا من ذلك يُركّز على بثّ الحياة في يديه من جديد. آلمَه وجهه وآلمَته أصابعه المحمرّة، والآن في هذا الدّفء عادت أصابع قدميه تؤلِمه، وهو ما عدّه علامةً مبشّرةً.

نقلَ الشُّرطي السيّارة إلى وضع القيادة وتحرّك، ودون أن يلتفت، بل بصوتٍ رفعَه قليلًا فحسب، قال: «لا تؤاخذني على قولي هذا، لكن تصرُّفك هذا كان غبيًّا حقًّا. ألم تسمع أيًّا من تنبيهات الطّقس؟ الحرارة سالب ثلاثين بالخارج، والله وحده يعلم درجة برودة الرِّيح، سالب ستّين أو سالب سبعين، مع أنك إذا سألتني، فعندما تنخفض الحرارة إلى سالب ثلاثين تكون برودة الرِّيح أقلّ همومك».

قال شادو: «شكرًا. شكرًا لأنك توقّفت. إنني في غاية الامتنان».

- «صباح اليوم خرجَت امرأة في راينلاندر لتملأ حاوية إطعام الطُّيور واضعةً معطفها المنزلي وخُفّين فتجمّدت، حرفيًّا تجمّدت ملتصقةً بالرّصيف. إنها في العناية المركّزة الآن. الخبر أذيعَ في الراديو هذا الصّباح. أنت جديد في البلدة». كان شبه سؤال، لكن الرّجل يعلم الجواب بالفعل.

- «وصلتُ بالـ «جرايهاوند» ليلة أمس. خطرَ لي أن أشتري اليوم بعض الثّياب الثّقيلة وطعامًا وسيّارةً. لم أتوقّع هذا البرد».

قال الشُّرطي: «نعم. لقد فاجأني أيضًا. كنتُ مستغرقًا في انشغالي بالاحتباس الحراري. أنا تشاد موليجان، رئيس الشُّرطة هنا في ليكسايد».

- «مايك آينسل».

- «أهلًا مايك. أتَشعُر بتحسُّن؟».

- «قليلًا، نعم».

- «أخبِرني، أين تُريدني أن أوصِلك أوّلًا؟».

خفضَ شادو يديه إلى تيّار الهواء السّاخن لتتألّم أصابعه، ثم سحبَهما تاركًا لهما استعادة دفئهما على مهل. «هلّا أنزلتني في مركز البلدة؟».

- «انسَ! ما دمت لا تحتاج إليَّ لأقود سيّارة الهروب بعد سطوك على بنك، فيُسعِدني أن آخذك إلى حيث تُريد الذّهاب. اعتبِر هذه عربة التّرحيب الخاصّة بالبلدة».

- «أين تقترح أن نبدأ؟».
- «أنت وصلت لتوّك ليلة أمس».
- «صحيح».
- «هل تناولت الفطور؟».
- «ليس بعدُ».

قال موليجان: «حسن، هذه نُقطة بداية رائعة في رأيي».

كانا قد عبَرا الجسر ويَدخُلان جانب البلدة الشّمال غربي. قال موليجان: «هذا هو الشّارع الرّئيسي»، وأضافَ وهو يَعبُر الشّارع وينعطف: «وهذا هو ميدان البلدة».

حتى في الشّتاء يبدو ميدان البلدة بديعًا، وإن علمَ شادو أن هذا المكان مبنيٌّ ليُرى في الصّيف، حينما يتحوّل إلى مهرجان من الألوان، من الخشخاش والسّوسن وأزهارٍ من كلّ صنف، ويُصبِح دغل أشجار البَتولة القائمة في أحد الأركان تعريشةً من الخُضرة والفضّة. أمّا الآن فهو مكان معدوم الألوان، جميل على نحوٍ هيكلي، فكُشك الموسيقى خالٍ، والنّافورة معطّلة خلال الشّتاء، ودار البلديّة المبنيّة بالحجر الرّملي الأسمر مكلّلة بالثّلج الأبيض.

- «... وهذا هو مطعم ميبل». ختمَ تشاد موليجان إرشاداته موقفًا السيّارة أمام مبنى عالٍ زُجاجي الواجهة غربي الميدان، ثم ترجّل من السيّارة وفتحَ الباب الخلفي لشادو. خفضَ كلا الرّجلين رأسه وقايةً من البرد والرّيح، وهرعا عبر الرّصيف إلى داخل حُجرةٍ دافئة تعبق بروائح الخُبز الطّازج والمعجنات والحَساء واللّحم المقدّد.

كان المكان شبه خالٍ. جلسَ موليجان إلى إحدى الطّاولات وأخذَ شادو مقعدًا قُبالته، وقد شكّ أن الرّجل يفعل هذا في سبيل استبيان طبيعة هذا الغريب الوافد على البلدة، ولو أن رئيس الشُرطة قد يكون كما يبدو بالضّبط: ودودًا، مفيدًا، طيّبًا.

تقدّمت امرأة إلى طاولتهما بخُطواتٍ نشيطة. ليست سمينةً لكنها كبيرة، امرأة كبيرة الحجم في العقد السّابع من عُمرها، شعرها مصبوغ بالبرونزي.

قالت المرأة: «أهلًا تشاد. ستُريد شُكولاتةً ساخنةً فيما تُفكّر»، وناولَتهما قائمتين مغلّفتين بالبلاستيك.

وافقَها قائلًا: «ولكن بلا كِريمة على الوجه»، ثم قال لشادو: «ميبل تعرفني خير المعرفة. ماذا ستَطلُب يا صاحبي؟».

أجابَ شادو: «الشُّكولاتة السَّاخنة فكرة رائعة، ويسرُّني أن آخذها بالكِريمة المخفوقة على الوجه».

قالت ميبل: «عظيم. عِش بخطورةٍ يا عسل. هل ستُقدِّمني يا تشاد؟ أهذا الشَّاب ضابط جديد؟».

ابتسمَ تشاد موليجان كاشفًا عن أسنانٍ بيضاء، وأجابها: «ليس بعدُ. هذا مايك آينسل، انتقلَ إلى ليكسايد البارحة. بعد إذنكما»، ونهضَ وذهبَ إلى خلفيَّة المكان ليَدخُل من بابٍ عليه لافتة تقول: «**المصوِّبون**»، يُجاوِر بابًا تقول لافتته: «**الجالسات**».

قالت ميبل بسعادة: «أنت ساكن شقَّة نورثريدج رود الجديد، منزل آل پيلسن القديم. أوه، نعم، أعرفُ مَن تكون بالضَّبط. هينزلمان أتى صباح اليوم ليأكل الپاستي الصَّباحيَّة وأخبرَني بكلِّ شيءٍ عنك. هل ستكتفيان بالشُّكولاتة السَّاخنة فقط أيها الولدان أم تُريدان إلقاء نظرةٍ على قائمة الفطور؟».

- «فطور لي. ما الجيِّد هنا؟».
- «كلُّ شيء. إنني أطبخُ بنفسي. لكن هذا أبعد مكانٍ جنوب وغرب اليوپي يُمكنك أن تجد فيه الپاستي، وستجدها طيِّبةً للغاية، وستُدفِّئك وتُشبِعك أيضًا. إنها اختصاصي».

لم تكن لدى شادو فكرة عن ماهية الپاستي، لكنه قال لا بأس، وخلال لحظاتٍ قليلة عادَت ميبل حاملةً طبقًا عليه ما يبدو كفطيرةٍ مطويَّة، نصفها السُّفلي مغلَّف بمنديلٍ ورقي. أخذَ شادو الفطيرة بالمنديل وقضمَ منها، ليجدها دافئةً ومحشوَّةً باللَّحم والبطاطس والجزر والبصل، ثم قال: «أوَّل پاستي آكلها في حياتي. لذيذة حقًّا».

أخبرَته: «إنها من أطعمة يوپي. غالبًا عليك أن تكون قريبًا من آيرونوود لتجدها. الكورنيُّون الذين جاؤوا ليعملوا في مناجم الحديد جلبوها معهم».

- «يوپي؟».
- «شبه جزيرة مشيجن العُليا،[lxxvii] يو پي، اليوپي، حيث يجيء اليوپيُّون، تلك القطعة الصَّغيرة من مشيجن في الشَّمال الشَّرقي».

عادَ رئيس الشُّرطة وأخذَ شُكولاتته السَّاخنة ورشفَ منها بصوتٍ مسموع، ثم قال: «ميبل، هل تُرغِمين هذا الشَّاب اللَّطيف على أكل الپاستي؟».

علَّق شادو: «إنها لذيذة». وهي كذلك حقًّا، طعام شهي ملفوف بعجينٍ ساخن.

قال تشاد موليجان مربِّتًا على بطنه: «دعني أنبِّهك، إنها تنزل إلى المعدة مباشرةً. حسن، تحتاج إلى سيَّارة؟». الآن وقد خلعَ معطفه الپاركا، اتَّضح أنه رجل نحيف له بطن بارز مستدير كالتُّفاحة، يبدو مرهقًا لا تعوزه الكفاءة، أقرب إلى المهندس من الشُّرطي.

بفمٍ مملوء أومأ شادو برأسه إيجابًا.

- «ليكن. لقد أجريتُ بعض المكالمات. چستن ليبوويتز يبيع سيَّارته الچيپ. يُريد أربعة آلاف دولار لقاءها، وسيرضى بثلاثة. وسيَّارة الزَّوجين جِنثر الـ «تويوتا فور رَنَر» معروضة للبيع منذ ثمانية أشهُر. قطعة خُردة قبيحة، ولكن حاليًا سيدفعان هما لك مالًا على الأرجح لتأخذها من مدخل منزلهما. إن كنت لا تُبالي بالقُبح فهي صفقة عظيمة. لقد استخدمتُ الهاتف في حمَّام الرِّجال وتركتُ رسالةً لميسي جنثر في «ليكساليد للعقارات»، لكنها لم تكن قد وصلَت بعدُ. غالبًا تُصفِّف شعرها عند شيلا في الصَّالون».

ظلَّت الپاستي طيِّبَةً فيما أخذَ شادو يقضم منها ويلوك، وقد وجدَها مشبعةً على نحوٍ مدهش. «طعام يلتصق بضلوعك»، كما اعتادَت أمُّه القول، «طعام يلتصق بجانبيك».

قال رئيس الشُّرطة تشاد موليجان ماسحًا رغوة الشُّكولاتة السَّاخنة حول شفتيه: «حسن، أرى أن نتوقَّف بعد هذا عند «هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت» ونشتري لك ملابس شتويَّةً حقيقيَّةً. بعد ذلك نمرُّ على «ديف لأطيب الأطعمة» لتشتري كفايتك من المؤن، ثم أقلُّك إلى «ليكسايد للعقارات». سيُرضيهما أن تدفع ألف دولار عربونًا للسيَّارة، وإن لم يكن فلا بأس بدفع خمسمئة في الشَّهر لأربعة شهور. إنها سيَّارة قبيحة كما ذكرتُ، ولكن إن لم يطلِها الصَّبي بالأرجواني لاستحقَّت عشرة آلاف دولار، كما أنها مضمونة السَّلامة، وستحتاج إلى شيءٍ كهذا لتتحرَّك هنا وهناك خلال الشِّتاء، إذا طلبت رأيي».

قال شادو: «لطُف بالغ منك أن تفعل هذا، ولكن ألا يُفترَض أن تكون بالخارج لتقبض على المجرمين بدلًا من مساعدة وافدٍ جديد؟ لستُ أشكو طبعًا».

قهقهت ميبل قائلةً: «كلُّنا يقول له هذا».

هزَّ مولِجيان كتفيه، وقال ببساطة: «إنها بلدة صالحة. المتاعب قليلة. ستجد دائمًا أحدًا يتجاوَز السُّرعة المقرَّرة داخل حدود البلدة، وهذا شيء جيِّد لأن مخالفات المرور تدفع أجري. وفي ليالي الجمعة والسَّبت ستجد وغدًا ما يضرب زوجته، أو العكس، فهذا ينطبق على الطَّرفين، صدِّقني، الرِّجال والنِّساء. ولقد تعلَّمتُ وقت عملي بالشرطة في جرين باي أنني أوثِرُ أن أحضر سطوًا على بنكٍ على شجارٍ عائلي في مدينةٍ كبيرة، لكن الأحوال هنا هادئة. يطلُبونني حينما ينسى أحدهم مفاتيحه داخل سيَّارته، أو للإبلاغ عن إزعاج الكلاب. كلُّ عام يُقبَض على بعض طلبة المدرسة الثَّانويَّة يُدخِّنون الماريجوانا وراء المدرَّجات. أكبر قضيَّة شُرطة هنا منذ خمسة أعوام كانت عندما سكِرَ دان شوارتز وأطلق النَّار على مقطورته، ثم هربَ بمقعده المتحرِّك في الشَّارع الرَّئيسي، يُلوِّح ببندقيَّته اللَّعينة ويصيح أنه سيُطلِق النَّار على مَن يعترض طريقه، وأن أحدًا لن يحول بينه وبين الوصول إلى طريق الولايات. أظنُّه كان في طريقه إلى واشنطن لقتل رئيس الجمهوريَّة. ما زلتُ أضحكُ متى فكَّرتُ في دان وهو يقطع طريق الولايات بمقعده المتحرِّك الذي وضعَ على مؤخِّرته ملصقًا يقول: **ابني مجرم الأحداث ينكح ابنتكم المتفوِّقة.** أتذكُرين يا ميبل؟».

أومأت برأسها زامَّةً شفتيها، وقد بدا أنها لا تجد الموقف طريفًا مثلما يجده موليجان.

سألَه شادو: «ماذا فعلت؟».

- «كلَّمته وأعطاني البندقيَّة، ونامَ في الحبس حتى أفاقَ. دان ليس رجلًا سيِّئًا. كان سكرانَ ومستاءً فقط».

دفعَ شادو حساب فطوره، ورغم احتجاج تشاد موليجان الفاتر حاسبَ على كوبَي الشُّكولاتة السَّاخنة أيضًا.

«هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت» مبنى بمساحة مستودع في جنوبي البلدة، يبيع كلَّ شيءٍ من الجرَّارات الزِّراعيَّة إلى اللُّعب (واللُّعب، بالإضافة إلى زينة الكريسماس، تُباع حاليًّا بأسعارٍ مخفَّضة). عجَّ المتجر بمتسوِّقي ما بعد الكريسماس، وتعرَّف شادو إحدى الفتاتين -صُغراهما- اللتين جلسَتا أمامه على متن الحافلة. كانت تتحرَّك في أعقاب والديْها، ولمَّا لوَّح لها منحَته ابتسامةً مترددةً أبرزَت تقويم أسنانها المطَّاطي الأزرق، وبشرودٍ تساءَل شادو عن شكلها كيف سيبدو بعد عشرة أعوام.

في الغالب ستكون جميلةً كالفتاة الواقفة وراء شُبّاك الدَّفع في «هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت»، التي مسحَت مشترياته بمسدَّس يدوي يُصدِر طقطقةً، ولم يشكّ شادو في قُدرته على تسجيل جرّارٍ زراعي إذا قادَه أحدهم عبر المتجر.

قالت الفتاة التي تُشبِه نجمات السينما النّاشئات: «عشرون زوجًا من الثّياب الدّاخليّة الطّويلة؟ تشتري كمّيات للتّخزين، هَه؟».

شعرَ شادو كأنه عادَ إلى سنّ الرّابعة عشرة، وأنه أبله معقود اللّسان. لم يقل شيئًا فيما سجّلت الحذاء الحراري والقُفّازات والسويترات والمعطف المبطّن بريش الإوز.

لم يُرِد تجربة البطاقة الائتمانيّة التي أعطاها له الأربعاء في وجود رئيس الشُرطة موليجان الواقف بجواره ليُساعِده، ولذا دفعَ ثمن كلّ شيءٍ نقدًا، وبعد ذلك أخذَ أكياسه ودخلَ دورة المياه، وخرجَ مرتديًا عددًا كبيرًا من مشترياته.

علّق موليجان: «تبدو أنيقًا يا رفيقنا الكبير».

قال شادو: «على الأقل أشعرُ بالدّفء»، وفي الموقف بالخارج، مع أن برودة الرّيح حرقَت بشرة وجهه، كانت بقيّة جسده دافئةً بما فيه الكفاية. بدعوةٍ من موليجان، وضعَ أكياسه في مؤخّرة سيّارة الشُرطة، وركبَ على المقعد الأمامي.

سأله رئيس الشُرطة: «ما عملك يا مايك آينسل؟ رجل كبير مثلك. ما مهنتك؟ وهل ستُزاولها في ليكسايد؟».

بدأت دقّات قلب شادو تتسارَع، إلّا أن صوته خرجَ ثابتًا إذ أجابَ: «أعملُ لحساب خالي. إنه يبيع ويشتري أشياء بطول البلاد وعرضها، وأتولّى أنا رفع الأحمال الثّقيلة».

- «هل يدفع لك أجرًا مجزيًا؟».

- «أنا فرد من العائلة. إنه يعلم أني لن أسرق منه، وخلال عملي أتعلّمُ القليل عن التّجارة إلى أن أتبيّن المهنة التي أريدُ ممارستها حقًا». نطقَ الأجوبة بصدقٍ مقنِع، بنعومة الثّعابين. في تلك اللّحظة عرفَ كلّ شيءٍ عن الرّجل الكبير مايك آينسل، وراقَه مايك آينسل. مايك آينسل لا يُعاني أيًّا من مشكلات شادو. آينسل لم يتزوّج قَطُّ. مايك آينسل لم يخضع قَطُّ للاستجواب على متن قطار بضائع على يد المستر وود والمستر

ستون. التليفزيونات لا تُكلّم مايك آينسل (في عقله سأله صوت: هل تُريد رؤية صدر *لوسي*؟). مايك آينسل لا يرى أحلامًا سيّئة، أو يُصدّق أن في الطّريق عاصفةً.

في «ديف لأطيب الأطعمة» ملأ شادو سلّة التّسوّق فاعلًا ما عدّه كتوقُّفٍ سريع في محطّة وقود، فابتاعَ حليبًا وبيضًا وخُبزًا وتفّاحًا وجُبنةً وبسكويتًا. مجرّد طعام. لاحقًا سيتسوّق كما ينبغي.

فيما تحرّك شادو هنا وهناك، ألقى تشاد موليجان التّحيّة على النّاس وقدّم لهم شادو. «هذا مايك آينسل. لقد أخذَ الشقّة الشّاغرة في منزل آل پيلسن القديم، في الخلفيّة». كفّ شادو عن محاولة تذكُّر الأسماء، واكتفى بمصافحة أصحابها والابتسام لهم وقد بدأ يعرق بعض الشّيء، يَشعُر بعدم الرّاحة تحت طبقات الثّياب العازلة في المتجر الحار.

أقلّ تشاد موليجان شادو إلى «ليكسايد للعقارات» عبر الشّارع، حيث لم تحتَج ميسي جنثر -بشعرها المصفّف المصقول حديثًا- إلى تقديم، لأنها تعرف مَن هو مايك آينسل بالضّبط. ذلك المستر بورسن اللّطيف، خاله إمرسن، مرَّ عليها قبل... ستّة أو ثمانية أسابيع تقريبًا، واستأجرَ الشقّة الشّاغرة في منزل آل پيلسن القديم، وأليس المنظر باهرًا من هناك؟ طيِّب يا عسل، انتظِر حتى الرّبيع، ونحن محظوظون للغاية، لأن بُحيراتٍ كثيرةً جدًّا في هذا الجزء من العالم تخضرُّ خُضرةً يانعةً في الصّيف بفعل الطّحالب، والمشهد يقلب المعدة، أمّا بُحيرتنا فبحلول الرّابع من يوليو تظلُّ مياهها في حُكم الصّالحة للشُّرب، والمستر بورسن دفعَ إيجار سنةٍ كاملة مقدّمًا، وبالنّسبة إلى الـ «تويوتا فور رَنَر» فإنها لا تُصدّق أن تشاد موليجان لا يزال يَذكُرها، ونعم، سيسرُّها أن تتخلّص منها. الواقع أنها استسلمَت إلى حدٍّ كبير لفكرة إعطائها لهينزلمان لتكون خُردة هذا العام والقبول بخفض القيمة الضّريبيّة، ولو أن السيّارة ليست خُردةً، ليست كذلك إطلاقًا، نعم، بل كانت سيّارة ابنها قبل التحاقه بالجامعة في جرين باي، والواقع أنه طلاها بالأرجواني ذات يوم، هاها، ومؤكّد أنها تأمل أن مايك آينسل يحبُّ اللّون الأرجواني، وهذا هو كلُّ ما لديها لتقوله، وإن لم يكن يحبُّه فلن تلومه...

استأذنَ رئيس الشُّرطة مولجيان في الانصراف في منتصَف هذا الاستطراد قائلًا: «يبدو أنهم محتاجون إليّ في المكتب. سرَّني لقاؤك يا مايك»، ثم نقلَ أكياس شادو إلى مؤخّرة سيّارة ميسي جونثر الستيشن واجن.

أقلَّت ميسي شادو إلى منزلها، حيث رأى في المدخل عربة SUV عجوزًا صبغَ الثَّلج الذي ذرَته الرِّيح نصفها ببياضٍ مُعمٍ، وطُلِيَت بقيَّتها بأرجوانيٍّ زاهٍ، يجب أن يكون المرء مسطولًا جدًّا في أغلب الأوقات لمجرَّد أن يبدأ في احتسابه على أدنى قدرٍ من الجاذبيَّة.

على أن السيَّارة دارَت من المحاولة الأولى، وعملَت المدفأة، ولو أنها استغرقَت -مضبوطةً على طاقتها القُصوى- نحو عشر دقائق بعد تشغيل المحرِّك حتى بدأت تُغيِّر درجة الحرارة في داخل السيَّارة من زمهريرٍ لا يُحتمَل إلى مجرَّد برودة. في تلك الأثناء أخذَت ميسي جنثر شادو إلى مطبخها -معذرةً على هذه الفوضى، لكن الصِّغار يَترُكون لُعبهم في كلِّ مكانٍ بعد الكريسماس، وقلبها لا يُطاوِعها على إزالتها. هل يرغب في القليل من بواقي عَشاء الدِّيك الرُّومي؟ العام الماضي أكلوا إوزَّةً، أمَّا هذا العام فهو ديك رومي كبير تقليدي. طيِّب، قهوة إذًا. لن يستغرق تحضيرها دقيقةً- ورفعَ شادو عربةَ لُعبةً حمراء كبيرةً من فوق مقعدٍ مجاورٍ للنَّافذة وجلسَ، فيما سألَته ميسي جنثر إن كان قد قابلَ أيًّا من جيرانه بعدُ، فاعترفَ شادو بأنه لم يفعل.

وفي أثناء تساقُط قطرات القهوة داخل الوعاء، أُعلِمَ شادو بوجود أربعة سُكَّان في مبنى الشُّقق الذي يَقطُن به... عندما كان المبنى ملكًا لهم، أقامَ آل پيلسن في شقَّة الطَّابق السُّفلي وأجَّروا الشُّقتين الأخريَيْن، والآن يُقيم في شقَّتهم التي كانت بالطَّابق السُّفلي شابَّان هما المستر هولتز والمستر نايمان، وهما في الحقيقة زوجان -وضغطَت على كلمة «زوجان»- ويا للسَّماء يا مستر آينسل، إن عندنا جميع الأصناف هذه الأيام، أكثر من صنفٍ واحد من الأشجار في الغابة، مع أن المطاف ينتهي بهذا النَّوع من النَّاس عادةً في ماديسن أو المدينتين التَّوأمتين. لكن الواقع أن أحدًا هنا لا يُعير الأمر اهتمامًا. إنهما يقضيان الشِّتاء في كي وِست، وسيُقابِلهما عندما يعودان في إبريل. ما يُميِّز ليكسايد أنها بلدة صالحة. وفي الشقَّة المجاورة للمستر آينسل تُقيم مارجريت أولسن وولدها الصَّغير. سيِّدة عذبة، سيِّدة في غاية العذوبة، لكنها قاسَت حياةً عصيبةً، وما زالَت عذبةً كالفطير الحُلو، وتعمل في «أخبار ليكسايد». ليست أشدَّ الصُّحف إثارةً في العالم، لكن الواقع أن ميسي جنثر ترى أن هذا على الأرجح هو ما يجعل أكثر النَّاس في هذه الأنحاء يحبُّونها.

قالت: «أوه»، وصبّت له القهوة. لكم تتمنّى أن يرى المستر آينسل البلدة في الصّيف أو أواخر الرّبيع، حينما تتفتّح بتلات اللّيلك والتّفّاح والكرز، فليست تتصوّر وجود شيءٍ يُقارَن بها في الجمال، لا شيء مثلها في العالم أجمع.

نقدَها شادو خمسمئة دولار عربونًا، وركبَ السيّارة وبدأ يتراجَع بها من فِناء ميسي جنثر الأمامي إلى ممرّ السيّارات نفسه. نقرَت ميسي جنثر على نافذته الأماميّة قائلةً: «هذا لك. كدتُ أنسى»، وناولَته مظروفًا منتفخًا. «إنها طُرفة نوعًا. طبعناها قبل بضعة أعوام. ليس ضروريًا أن تُلقي نظرةً الآن».

شكرَها وانطلقَ بحذرٍ عائدًا إلى البلدة من الطّريق الدّائر حول البُحيرة. تمنّى أن يراها في الصّيف، أو الرّبيع، أو الخريف، فستبدو رائعة الجمال. ولا شكَّ لديه في هذا.

وخلال دقائق عشر كان في منزله.

ركنَ السيّارة في الشّارع وصعدَ السّلالم الخارجيّة إلى شقّته الباردة، حيث أخذَ مشترياته من أكياس التّسوُّق ووضعَ الطّعام في الدّواليب والثّلّاجة، ثم فتحَ المظروف الذي أعطَته له ميسي جنثر.

وجدَه يحتوي على جواز سفرٍ أزرق مغلَّف بالبلاستيك، وفي داخله بيان بأن *مايكل آينسل* (اسمه مكتوب بخطّ ميسي جنثر النّضيد) مواطن ليكسايدي. احتوَت الصّفحة التّالية على خارطةٍ للبلدة، وامتلأ باقي الجواز بقسائم خصمٍ من مختلِف المتاجر المحلّيّة.

قال شادو بصوتٍ مسموع: «أظنُّني قد أحبُّ هذا المكان»، ثم نظرَ عبر النّافذة المكسوّة بالجليد إلى البُحيرة المتجمِّدة مضيفًا: «هذا إذا دفئَ من البرد».

في حدود الثّانية مساءً دقّ باب الشّقّة. كانَ شادو يتمرَّن على خدعة «المغفّل» بربُع دولار، يُلقيه من يدٍ إلى الأخرى من غير أن يُلحَظ، لكن يديه كانتا باردتَيْن خرقاويْن، فأسقطَ العُملة على الطّاولة عدّة مرّات، والطَّرقة على الباب جعلَته يُسقِطها مرّةً أخرى.

ذهبَ شادو إلى الباب وفتحَه.

لحظة من الخوف الخالص. الطّارق يضع قناعًا أسود يُغطّي نصف وجهه السُّفلي، نوع الأقنعة الذي يضعه سارق بنكٍ في التليفزيون، أو قاتل تسلسُلي يُخيف ضحاياه في فيلمٍ رخيص. أمّا رأس الرّجل فتُغطّيه قبّعة سوداء

محبوكة. على أن الرَّجل أصغر من شادو وأنحف، ولم يبدُ مسلَّحًا، وقد ارتدى معطفًا منقوشًا بألوانٍ زاهية من النَّوع الذي يتجنَّبه القتَلة التَّسلسليُّون عادةً.

قال الزَّائر: «أها هيهلهان».

- «ها؟».

أنزلَ الرَّجل القناع كاشفًا عن وجه هينزلمان البشوش، وقال: «قلتُ: أنا هينزلمان. أتدري؟ لا أعلمُ ماذا كنا نفعل قبل أن يبتكروا هذه الأقنعة. أو إنني أذكرُ. قبَّعات محبوكة سميكة تُحيط بوجهك كلِّه وأوشحة، ولستَ تُريد أن تعرف ماذا أيضًا. أظنُّها معجزةً ما يبتكرونه هذه الأيام. قد أكون عجوزًا، لكنني لن أتذمَّر من التَّقدُّم، ليس أنا».

ختمَ خطبته بدسِّ سلَّةٍ بين يدَي شادو، ملأى بالأجبان والزُّجاجات والبرطمانات المحليَّة، وعددٍ كبير من أصابع السالامي الصَّغيرة التي تُعلِن كونها سجقًا صيفيًّا من لحم الغزلان. ودخلَ هينزلمان قائلًا: «يومًا تاليًا للكريسماس سعيدًا!». بقناعٍ أو دونه، كان أنفه وأذناه ووجنتاه بلون العُلَّيق الأحمر. «سمعتُ أنك أكلت پاستي عند ميبل. جلبتُ لك بضعة أشياء».

- «لُطف بالغ منك».

- «لا لُطف ولا شيء. سأستردُّ منك ثمنها الأسبوع المقبل خلال اليانصيب. الغُرفة التِّجاريَّة تُديره، وأنا أديرُ الغُرفة التِّجاريَّة. العام الماضي جمعنا سبعة عشر ألف دولار من أجل جناح الأطفال بمستشفى ليكسايد».

- «طيِّب، لِمَ لا تبيعني تذكرةً الآن؟».

قال هينزلمان: «لن يبدأ حتى تُوضَع الخُردة على الجليد»، ونظرَ إلى البُحيرة من نافذة شادو مردفًا: «الطَّقس بارد بالخارج. لا بُدَّ أن الحرارة انخفضَت خمسين درجةً ليلة أمس».

أيَّده شادو قائلًا: «انخفضَت بسرعةٍ شديدة».

- «قديمًا اعتدنا أن نُصلِّي لحدوث مثل هذا التَّجمُّد. دادي أخبرَني. كان ذلك في بداية مجيء المستوطنين إلى هذه الأنحاء، المزارعين والحطَّابين، قبل زمنٍ طويل من مجيء عُمَّال المناجم، ولو أن تعدينًا لم يَحدُث قَطُّ في هذه المقاطعة، وهو ما كان بإمكانهم، لأن تحت الأرض هنا حديدًا كافيًا...».

قاطعَه شادو: «كنتم تُصلُّون رغبةً في أيامٍ كهذه؟».

- «أجل. كانت تلك الوسيلة الوحيدة لبقاء المستوطنين على قيد الحياة آنذاك. لم يكن الطَّعام يكفي الجميع، وقديمًا لم يكن بإمكانك الذَّهاب ببساطةٍ إلى متجر ديف وملء عربة التَّسوُّق، لا يا سيِّدي. وهكذا شرعَ جرامپا يُفكِّر، ولمَّا يحلُّ يوم قارس البرودة مثل هذا كان يأخذ جراما والأولاد، عمِّي وعمَّتي ودادي -الذي كان أصغرهم- والخادمة والخادم، ويذهب بهم إلى الغدير ويسقيهم شرابًا من الرَّم والأعشاب حصلَ على وصفته من البلد القديم، ثم يصبُّ عليهم ماءً من الغدير، وبالطَّبع يتجمَّدون خلال ثوانٍ معدودة، يتيبَّسون ويزرقُّون مثل المصَّاصات المثلَّجة، ثم يسحبهم إلى خندقٍ حفروه بالفعل وملأوه بالقشِّ، ويرصُّهم واحدًا واحدًا مثل قطع الخشب المكرَّد ويُعبِّئ القشَّ حولهم، ثم يُغطِّي الخندق بألواح خشب اثنين في أربعة لحمايته من الحيوانات -ففي تلك الأيام كانت هناك ذئاب ودببة ومختلِف الحيوانات التي لم يَعُد أحد يراها هنا، ولكن لا هواديج،[1] فالهواديج مجرَّد قصَّةٍ خياليَّة، ولا يُمكنني أبدًا أن أضغط على قُدرتك على التَّصديق بأن أحكي لك قصصًا، لا يا سيِّدي- كان جرامپا يُغطِّي الخندق بألواح خشب اثنين في أربعة، ثم يَسقُط الثَّلج فيُغطِّيه بالكامل، باستثناء العَلم الذي غرسَه جرامپا ليُعلِّم مكان الخندق. وبعد ذلك كان جرامپا يقضي الشِّتاء مرتاحًا ولا يقلق أبدًا بشأن نفاد الطَّعام أو الوقود، وحين يرى أن الرَّبيع الحقيقي مقبل كان يذهب عند العَلم ويَحفُر في الثَّلج ويُزيح ألواح الخشب، ثم يحمل أفراد العائلة واحدًا واحدًا ويضعهم أمام النَّار ليذوبوا. لا أحد مانعَ اللهم إلَّا واحدًا من الخدم فقدَ نِصف أُذنه لمَّا قرمَته أسرة من الفئران في مرَّةٍ لم يُحسِن فيها جرامپا رصَّ ألواح الخشب. طبعًا في تلك الأيام كنا نشهد أشتيةً حقيقيَّةً، وكان يُمكنك أن تفعل هذا في ذلك الحين، أمَّا أشتية المخنَّثين التي نشهدها هذه الأيام فليست باردةً بما فيه الكفاية».

---

(1) في عام 1893 أعلنَ رجل من ويسكونسن اسمه يوچين شيرد اكتشاف وحشٍ قُرب بلدة راينلاندر «له رأس ضفدع، ووجه فيل عملاق، وسيقان سميكة قصيرة منتهية بمخالب حادَّة، وظهر ديناصور، وذيل طويل بتَّار». ادَّعى شيرد أنه ورفاقه قتلوا الوحش بالديناميت، ولمَّا أعلنَ معهد سميثسونيان نيَّته إرسال فريقٍ من العُلماء لفحص الجثَّة، اعترفَ شيرد بتلفيقه الخدعة، ومع ذلك يبقى الهُوداج تميمة المدرسة الثَّانويَّة بالبلدة. (المُترجم).

قال شادو: «حقًا؟». كان يلعب دور الرّجل الجاد، ومستمتعًا بالأمر استمتاعًا عظيمًا.

- «ليس منذ شتاء 49، وأنت أصغر من أن تتذكّره. كان ذلك شتاءً حقيقيًا. أرى أنك اشتريت لنفسك مركبةً».

- «نعم. ما رأيك؟».

أجابَ هينزلمان: «الواقع أن ابن جنثر هذا لم يُعجِبني يومًا. كان لي جدول أسماك ترويت في قلب الغابة، في آخِر المنطقة التي أملكها، بعيدًا جدًا. إنها أرض البلدة فعليًا، لكنني وضعتُ في النّهر أحجارًا وصنعتُ بِركًا وأماكن صغيرةً أحبُّ الترويت العيش فيها. واصطدتُ عدّة أسماكٍ مليحة أيضًا، كانت إحداها تُناهِز الثّلاثين بوصةً طولًا، ويأتي ابن جنثر الذي لا يُسمَّى، ويهدم الحجارة المحيطة بكلٍّ من البِرك ويُهدِّد بإبلاغ وزارة الموارد الطّبيعيّة عني. إنه في جرين باي الآن، وقريبًا سيرجع. لو أن في هذه الدُّنيا عدالةً لخرجَ إلى العالم مثله مثل غيره من الهاربين من الشّتاء، ولكن لا، بدلًا من ذلك يظلُّ لازقًا مثله مثل أشواك اللّزيق بصُدرةٍ من الصُّوف»، ثم شرعَ يرصُّ محتويات سلّة التّرحيب بشادو على منضدة المطبخ، وقال: «هذا چلي التُّفّاح البرّي الذي تَطبُخه كاثرين پاودرميكر. تُعطيني جرَّةً كلَّ كريسماس من قبل مولدك، والحقيقة الحزينة أني لم أفتحْ ولو واحدةً. إنها في قبوي، أربعون أو خمسون جرَّةً. لعلّي أفتحُ واحدةً وأكتشفُ أنه يُعجِبني. حتى ذلك الحين، هذه الجرَّة لك. قد يُعجِبك».

وضعَ شادو الجرَّة في الثّلاجة مع الهدايا الأخرى التي جلبَها هينزلمان، وسألَه رافعًا زُجاجةً طويلةً بلا بطاقة محتويات تملؤها مادّةٌ مزبدة مخضرّة: «ما هذا؟».

- «زيت زيتون. هكذا يبدو في هذا البرد. لا تقلق، إنه صالح تمامًا للطّهو».

- «حسن. مَن الهاربون من الشّتاء؟».

دفعَ العجوز قبّعته الصُّوف فوق أُذنيه وفركَ صدغه بسبّابةٍ ورديّة قائلًا: «ممم. شيء كهذا لا يقتصِر على ليكسايد... إننا بلدة صالحة، أفضل من معظم البلدات الأخرى، لكننا لسنا مثاليِّين. في بعض الأشتية يَحدُث أن يُجَنَّ جنون فتى ما من الحبسة، عندما يشتدُّ البرد لدرجةٍ تحول دون خروجك من بيتك، ويجفُّ الثّلج إلى حدٍّ يمنعك من مجرَّد تشكيل كُرة ثلجٍ من غير أن تتفتّت...».

- «فيهزبون؟».

أومأ العجوز برأسه بجهامة، وقال: «ألومُ التليفزيون الذي يُري الأطفال أشياء لن يحظوا بها أبدًا؛ «دالاس» و«السُّلالة» و«بفرلي هيلز» و«شُرطة هاواي» وكلَّ هذا الهُراء.[lxxviii] ليس عندي تليفزيون منذ خريف 83، باستثناء جهاز أبيض وأسود أحتفظُ به في الخزانة في حال مجيء زُوَّار من خارج البلدة في وقت مباراةٍ كبيرة».

- «هل تُريد مشروبًا يا هينزلمان؟».

أجابَ هينزلمان: «ليس القهوة. تُصيبني بحرقةٍ في المعدة. ماء فقط»، وهزَّ رأسه متابعًا: «أكبر مشكلةٍ في هذه البُقعة من العالم هي الفقر. ليس الفقر الذي عانيناه خلال الكساد الكبير، بل شيء أقرب إلى... ما الكلمة؟ شيء يزحف ببُطءٍ من الحواف مثل الصَّرصار».

- «لئيم؟».

- «نعم، لئيم. الحِطابة ماتَت، والتَّعدين مات، والسُّيَّاح لا يتوغَّلون شمالًا أبعد من منطقة المضايق النَّهريَّة، اللهم إلَّا مجموعات صغيرة من الصيَّادين وبعض الأطفال الذَّاهبين للتَّخييم على ضفاف البُحيرات... كما أنهم لا يُنفِقون مالهم في البلدات».

- «لكن ليكسايد تبدو مزدهرةً نوعًا».

التمعَت عينا العجوز الزَّرقاوان، وقال: «وصدِّقني، هذا الازدهار يستلزم الكثير من العمل، عملًا شاقًّا، لكنها بلدة صالحة، وكلُّ العمل الذي يقوم به كلُّ النَّاس هنا يجعل النَّتيجة تستحقُّ. لا يعني هذا أن عائلتي لم تكن فقيرةً ونحن صغار. اسألني لأيِّ حدٍّ كنا فقراء ونحن صغار».

غلَّف شادو وجهه بسيماء الرَّجل الجاد، وسألَه: «لأيِّ حدٍّ كنتم فقراء وأنتم صغار يا مستر هينزلمان؟».

- «هينزلمان مجرَّدًا يا مايك. كان فقرنا مدقعًا لدرجة أننا لم نملك ثمن حطب النَّار. عندما تحلُّ عشيَّة العام الجديد، كان أبي يمصُّ قُرصًا من النَّعناع، ونلتفُّ نحن الأطفال حوله مادِّين أيدينا لنتنعَّم بوهج أنفاسه».

أطلقَ شادو صوت «با-دَم-تسس!»، ووضعَ هينزلمان قناع التَّزلُّج وزرَّر معطفه الضَّخم وأخذَ مفاتيح سيَّارته من جيبه، وأخيرًا وضعَ قُفَّازيه الكبيرين، ثم قال: «إذا تمكَّن منك الملل هنا فتعالَ إلى المتجر واسأل عني.

سأريك مجموعتي من طعوم السّمك المربوطة يدويًا. سأضجرك لدرجة أن العودة إلى هنا ستُغيثك». كان صوته مكتومًا ولكن مسموعًا.

مبتسمًا قال شادو: «سأفعلُ. كيف حال تِسي؟».

أجابَه العجوز: «في بياتها الشّتوي. ستَخرُج في الرّبيع. اعتنِ بنفسك يا مستر آينسل»، وأغلقَ الباب وراءه إذ انصرفَ.

وازدادَت الشقّة برودةً.

وضعَ شادو معطفه وقفّازيه، ثم انتعلَ حذاءه. الآن يستطيع الرُّؤية من النّافذة بصعوبةٍ بسبب الجليد الذي يكسو الزُّجاج من الدّاخل، الذي حوَّل منظر البُحيرة إلى صورةٍ تجريديّة.

وأنفاسه تَخرُج سحابًا يُضبِّب الهواء.

خرجَ شادو من شقّته إلى السّطح الخشبي وطرقَ الباب المجاور. سمعَ صوت امرأةٍ تزعق في أحدٍ ما أن يخرس ويخفض صوت *التليفزيون بحقّ السّماء*... فخمّنَ أن المقصود طفل، فالبالغون لا يزعقون في البالغين بهذا الأسلوب أو هذه النّبرة. فُتِحَ الباب، وبحذرٍ رمقَته امرأة مرهَقة شعرها طويل جدًا أسود جدًا.

- «نعم؟».

- «كيف حالك يا سيِّدتي؟ أنا مايك آينسل، جارِكِ في الشقّة المجاورة».

لم يتبدَّل التّعبير على وجهها ولو شعرةً، وكرَّرت: «نعم؟».

- «سيِّدتي، شقّتي متجمِّدة. شبكة التّدفئة تُخرِج القليل من الحرارة، لكنها ليست كافيةً إطلاقًا لتدفئة المكان».

نظرَت إليه من أعلى إلى أسفل، ثم مسَّ شبح بسمةٍ حافة شفتيها، وقالت: «ادخُل إذًا. إن لم تفعل فلن نجد حرارةً هنا أيضًا».

خطا شادو إلى داخل الشقّة، حيث تتبعثَر على الأرض لُعب بلاستيكيّة متعدِّدة الألوان، وتتكدَّس عند الحائط أكوام صغيرة من ورق تغليف هدايا الكريسماس الممزَّق، ويجلس صبيٌّ صغير على بُعد بوصاتٍ معدودة من التليفزيون، الذي يعرض شريط ڤيديو لفيلم «هرقل» من إنتاج «ديزني»، وعلى الشّاشة ساتير كرتوني يدقُّ الأرض بحوافره ويرفع حسّه صائحًا.

أولى شادو التليفزيون ظَهره.

قالت جارته: «حسن، هذا ما عليك أن تفعله. أولًا تسدُّ النَّوافذ. يُمكنك شراء المادَّة من عند هنينج. إنها مثل الساران ولكن للنَّوافذ. ستلصقها بالنَّوافذ، وإن أردت التَّنميق فمرِّر عليها مجفِّف شعر وستبقى ملتصقةً طوال الشِّتاء وتمنع الحرارة من التَّسرُّب. بعد ذلك اشترِ مدفأةً أو اثنتين. فُرن البناية قديم ولا يُمكنه التَّغلُّب على البرد الحقيقي. لقد شهدنا أشتيةً خفيفةً في السَّنوات الأخيرة، وأظنُّ أن علينا أن نمتنَّ لهذا»، ثم مدَّت يدها قائلةً: «مارجريت أولسن».

قال شادو: «يسرُّني لقاؤكِ»، وخلعَ قفَّازه وصافحَها. «أتدرين يا سيِّدتي؟ لطالما حسبتُ أن مَن اسمهم أولسن أشدُّ شُقرةً منكِ».

- «زوجي السَّابق كان شديد الشُّقرة. كانت بشرتهورديَّةً وشعره أشقر، ولما استطاعَ أن يكتسب سُمرةً ولو تحت تهديد السِّلاح».

- «ميسي جنثر أخبرَتني بأنكِ تَكتُبين في الصَّحيفة المحلِّيَّة».

قالت: «ميسي جنثر تُخبِر الجميع بكلِّ شيء. لا أرى داعيًا لصحيفةٍ محلِّيَّة في وجود ميسي جنثر»، ثم أومأت برأسها إيجابًا، وأردفَت: «نعم. بعض التَّقارير الإخباريَّة هنا وهناك، لكن محرِّري يَكتُب معظم الأخبار. أمَّا أنا فأكتبُ عمود الطَّبيعة وعمود البستنة وعمود رأيٍ كلَّ يوم أحد، وكذا عمود أخبار المجتمع الذي يحكي بالتَّفصيل أن فُلانًا أخذَ فُلانةً إلى العَشاء وتنزَّها خمسة عشر ميلًا في أنحاء البلدة. أم إنها فُلانةَ؟».

قال شادو قبل أن يستطيع منع نفسه: «فُلانةَ. مفعول به».

رمقَته بعينيها السُّوداوين، وعندئذٍ اختبرَ شادو لحظة ديچا-ڤو صِرفًا، وفكَّر: *كنتُ هنا من قبل.*

*لا، بل إنها تُذكِّرك بواحدةٍ أخرى.*

- «على كلٍّ، هكذا تُدفِّئ شقَّتك».

- «أشكركِ. عندما تدفأ يجب أن تزوريني أنتِ وصغيركِ».

- «اسمه ليون. سرَّني لقاؤك يا مستر... آسفة...».

قال شادو: «آينسل، مايك آينسل».

سألَته: «وما أصل اسم آينسل هذا؟».

أجابَها شادو الذي لا يملك فكرةً: «إنه اسمي. للأسف لم أهتمَّ قطُّ بتاريخي العائلي».

- «نرويجي ربما؟».

قال: «لم نكن متقاربين قَطُّ»، ثم تذكَّر الخال إمرسن بورسن، فأضافَ: «على هذا الجانب من العائلة على الأقل».

عند وصول المستر أربعاء كان شادو قد وضعَ عوازل من البلاستيك الشفَّاف على جميع النَّوافذ، وشغَّل مدفأةً في الرَّدهة وأخرى في غُرفة النَّوم بمؤخَّرة الشقَّة، وأصبحَ المكان في حُكم المريح.

على سبيل التَّحيَّة سأله الأربعاء: «ما قطعة الخراء الأرجوانيَّة التي تقودها هذه بحقِّ الجحيم؟».

قال شادو: «أنت رحلت بقطعة الخراء البيضاء التي كنتُ أقودها. أين هي بالمناسبة؟».

- «استبدلتها في دولوث. الحذر واجب حتى إن لم يبدُ ضروريًّا. لا تقلق، ستنال نصيبك حينما ينتهي كلُّ هذا».

سأله شادو: «ماذا أفعلُ هنا؟ أعني في ليكسايد وليس الدُّنيا».

ابتسمَ الأربعاء ابتسامته إياها، تلك التي تجعل شادو يرغب في لكمه، وقال: «أنت مقيم هنا لأنه آخِر مكانٍ سيبحثون عنك فيه. هنا أستطيعُ أن أبقيك بعيدًا عن الأنظار».

- «تعني القبَّعات السَّوداء؟».

- «بالضَّبط. للأسف المنزل فوق الصَّخرة أصبحَ محظورًا. الأمر صعب بعض الشَّيء، لكننا سنُذلِّله. الآن نكتفي بالدَّبدبة بأقدامنا والتَّلويح بأعلامنا والدَّوران دوراتٍ نصفيَّة والمشي متَّئدين حتى يبدأ القتال... بعد فترةٍ أطول قليلًا مما توقَّع أيُّنا. أظنُّهم سيظلُّون بمنأى حتى الرَّبيع. لا شيء كبيرًا يُمكن أن يَحدُث حتى ذلك الحين».

- «لماذا؟».

- «لأن لهم أن يُجعجِعوا كما يحلو لهم عن الميكروملِّيثانية والعوالم الافتراضيَّة والتَّحوُّلات النَّموذجيَّة وكلِّ هذه الأشياء، لكنهم ما زالوا يَسكُنون هذا الكوكب ومقيَّدين بدورة السَّنة. حاليًّا نحن في الشُّهور الميتة. النَّصر في هذه الشُّهور نصر ميت».

علَّق شادو: «لا فكرة لديَّ عمَّ تتكلَّم»، وإن لم يكن هذا صحيحًا بالكامل، ذلك أن لديه فكرةً مبهمةً، ويأمل أنه مخطئ.

- «سيكون شتاءً سيِّئًا، وأنا وأنت سنستغلُّ وقتنا بكلِّ ما نقدر عليه من حكمة. سنستنفِر جُندنا ونختار ميدان المعركة».

قال شادو: «فليكن»، عالمًا أن الأربعاء يُخبِره بالحقيقة، أو بجزءٍ من الحقيقة. الحرب مقبلة. لا، خطأ. الحرب بدأت بالفعل. المعركة هي المقبلة. «سويني المجنون قال إنه كان يعمل لحسابك عندما التقيناه في تلك اللَّيلة الأولى. قال هذا قبل أن يموت».

- «وهل كنتُ لأريد تعيين شخصٍ لا يستطيع التَّغلُّب على بائسٍ مثله في شجارٍ ببار؟ ولكن لا تخف إطلاقًا، فقد رددت إيماني بك عشرة أضعاف. هل زُرت لاس ڤيجس من قبل؟».

- «لاس ڤيجس في نڤادا؟».

- «هي بالضَّبط».

- «لا».

- «سنطير إلى هناك من ماديسن في وقتٍ لاحقٍ اللَّيلة على رحلةٍ بطيران العين الحمراء[1] لعلية القوم، طائرة مؤجَّرة لكبار المقامرين. لقد أقنعتهم بوجوب وجودنا على متنها».

- «ألا تتعب من الكذب أبدًا؟». ألقى شادو السُّؤال برفقٍ وفضول.

- «نهائيًّا. وعلى كلِّ حالٍ ما قلته صحيح. إننا نُقامِر في سبيل أكبر الجوائز على الإطلاق. المفترَض ألَّا تستغرق الرِّحلة إلى ماديسن أكثر من ساعتين، فالطُّرق خالية من العوائق. أوصِد بابك إذًا وأطفئ المدافئ. سيكون شنيعًا أن يحترق المنزل في غيابك».

- «مَن سنرى في لاس ڤيجس؟».

وأخبرَه الأربعاء.

(1) طيران العين الحمراء: مصطلح دارج في أمريكا يُشير إلى الرِّحلات الجوِّيَّة اللَّيليَّة التي تصل في الصَّباح التَّالي، وهو مستمَد من احمرار العينين من السَّهر الطَّويل والإرهاق. (المُترجم).

أطفأ شادو المدفأتيْن وحزمَ ثياب مبيتٍ في حقيبة، ثم عادَ يلتفت إلى الأربعاء قائلًا: «اسمع. أشعرُ بأني أحمق نوعًا. أعرفُ أنك أخبرتني لتوِّك باسم مَن سنُقابِله، ولكن لا أدري، يبدو أن مخِّي تعطَّل أو ما شابهَ. لم أعُد أذكرُ مَن هو ثانيةً؟».

وأخبرَه الأربعاء ثانيةً.

وهذه المرَّة كادَ شادو يستوعبه. كان الاسم على حافة عقله، وتمنَّى لو أنه انتبهَ أكثر حين أخبرَه الأربعاء، ثم تناسى الأمر.

- «مَن سيقود؟».

أجابَ الأربعاء: «أنت»، وخرجا من الشقَّة ونزلا السَّلالم الخشبيَّة إلى الممرِّ المكسو بالجليد، حيث رُكِنَت سيَّارة «لينكن» سوداء فارهة.

وقادَ شادو.

*ما إن يخطو المرء داخل الكازينو حتى تُحدِق به الدَّعوات من كلِّ حدبٍ وصوب، دعوات يتطلَّب رفضُها إنسانًا من حجر، بلا قلب، بلا عقل، يُثير تجرُّده من الطَّمع الفضول. أصغِ: جلجلة مدفعٍ رشَّاش إذ تنهمر العُملات الفضَّة وتنبثق ساقطةً في صينيَّة ماكينة قمار، وتطفح حتى تَسقُط على بُسطٍ موسومة بالأحرُف الأولى من اسم الكازينو، ثم يحلُّ محلَّها نفير الماكينات المدوِّي، جوقة رنَّانة من الأصوات المتقطِّعة تبتلعها القاعة الهائلة، وتنخفض حتى تُصبِح لدى وصول المرء إلى طاولات الكُتشينة مجرَّد ضجَّةٍ مريحة في الخلفيَّة، وتصير الأصوات البعيدة عاليةً بما فيه الكفاية فقط للحفاظ على تدفُّق الأدرينالين في عروق المقامرين.*

*ثمَّة سرٌّ تستحوذ عليه الكازينوهات، سرٌّ تكتمه وتَحرُسه وتُثمِّنه، هو أقدس الطَّلاسم قاطبةً. ذلك أن أكثر النَّاس لا يُقامِرون في سبيل كسب المال، ولو أن ذلك هو المعلن والمبيع والمزعوم والمحلوم. إلَّا أنها مجرَّد أكذوبةٍ سهلة تُتيح للمقامرين أن يكذبوا على أنفُسهم، الأكذوبة الكُبرى التي تجعلهم يَدخُلون من الأبواب الضَّخمة المرحِّبة المفتوحة على الدَّوام.*

*السِّرُّ أنهم يُقامِرون ليخسروا المال. النَّاس يَدخُلون الكازينوهات من أجل اللَّحظة التي تُشعِرهم بالحياة، من أجل ركوب العجلة الدوَّارة والانقلاب*

مع ورق الكُتشينة وفقدان أنفسهم مع عملاتهم في فتحات ماكينات الحظّ. يُريدون أن يعلموا أن لهم أهميّة. قد يتباهون بالليالي التي كسبوا فيها، بالنقود التي أخذوها من الكازينو، لكنهم يعتزّون -خفية- بمرّات الخسارة. إنه نوع من القرابين.

تتدفّق النُقود في مجرى لا يُسدّ من الأخضر والفضّي، تنصبُّ من يدٍ إلى يد، من المقامر إلى مدير الطّاولة إلى الصرّاف إلى الإدارة إلى الأمن، وأخيرًا تصل إلى الحرم الأقدس، الصّومعة الأعمق، حُجرة العدّ، وهنا في حُجرة العدّ بهذا الكازينو مستقرُّك، هنا حيث تُفرَز أوراق البنكنوت الخضراء وتُرصُّ وتُفهرَس، هنا في مساحةٍ تُصبح شيئًا فشيئًا فائضةً لأن المزيد والمزيد من النُقود التي تتدفّق عبر الكازينو صارَ خياليًا، لا يعدو متوالياتٍ كهربيّة من دورات الفتح والإغلاق السّارية في خطوط الهاتف.

في حُجرة العدّ ترى ثلاثة رجالٍ يعدّون النُقود تحت النّظرة الزُّجاجيّة للكاميرات التي يرونها والنّظرات الحشريّة للكاميرات الدّقيقة التي لا يرونها. خلال المناوبة الواحدة يعدُّ كلٌّ من الرّجال نقودًا أكثر مما سيري من الرّواتب التي سيقبضها طيلة عُمره، وعندما ينام كلٌّ منهم يَحلُم بعدّ النُقود، بالرّزم وأربطة الورق والأرقام المتصاعدة لا محالة، التي تُفرَز وتضيع. مرّة في الأسبوع على الأقل يتساءَل كلٌّ من ثلاثة الرّجال ببالٍ شارد عن وسيلةٍ لمراوغة أنظمة الأمن بالكازينو والهرب بما يستطيع حمله من نقود، وبتردُّدٍ سبقَ لكلٍّ منهم أن حلَّل حُلمه ووجدَه غير عملي، فرضيَ براتبه الثّابت، وبهذا تجنّب البُعبُع المزدوج المتمثّل في السّجن وقبرٍ بلا شاهد.

وها هنا في قدس الأقداس يجلس الرّجال الثّلاثة الذين يعدّون النُقود، ويقف الحرس الذين يُراقبونهم ويأتون بالنُقود ويأخذونها. وفي المكان شخص آخَر؛ بدلته ذات اللّون الرّمادي الفحمي نظيفة مهندمة، وشعره داكن، ووجهه حليق، وملامحه وسلوكيّاته -بكلّ معنى للتّعبير- سهلة النّسيان. لا أحد من الرّجال الآخَرين لاحظَ وجوده قطّ، وإن كانوا لاحَظوه فقد غابَ عن ذاكرتهم في لحظة.

في نهاية المناوبة تُفتَح الأبواب ويُغادِر صاحب البدلة الفحميّة الحُجرة ويقطع الأروقة مع الحرس، تحتكُّ أقدامهم بالبُسط الموسومة بالأحرُف الأولى من اسم الكازينو فتُصدِر حفيفًا. تُنقَل النُقود في صناديق معدنيّةٍ مزوّدة بعجلاتٍ إلى رصيف تحميلٍ داخلي، حيث تُشحَن في عرباتٍ مدرّعة، وإذ يُفتَح

الباب المنحدر ليسمح للسيّارة المدرَّعة بالخروج إلى شوارع لاس ڤيجس في ساعات الصّباح المبكّرة. يَخرُج صاحب البدلة الفحميّة من المدخل دون أن يلحظه أحد، ويمشي الهوينى صاعدًا المنحدر إلى رصيف الشّارع، ولا يُكلّف نفسه مجرّد رفع بصره ليرى نيويورك المستعارة عن يساره.

تحوّلت لاس ڤيجس إلى حُلم بمدينة من كتابٍ مصوّر للأطفال؛ هنا قلعة من كتابٍ طفولي، وهناك هرم أسود على جانبيه تمثالان لأبي الهول، يشعُّ ضوءًا أبيض في الظّلام ليُرشِد الأطباق الطّائرة إلى الهبوط، وفي كلّ مكانٍ تتنبّأ العرّافات النيون والشّاشات الدوّارة بالسّعادة وحُسن الطّالع، وتُعلِن عن مغنّين وكوميديانات وسحرة مقيمين أو في طريقهم إلى المدينة، ودائمًا تُومِض الأضواء وتُشير لك بالاقتراب وتُناديك. مرّةً كلّ ساعةٍ يتفجّر بُركان من الضّوء واللّهب، مرّةً كلّ ساعةٍ تُغرِق سفينة قراصنةٍ رجلًا محاربًا.

يتمهّل صاحب البدلة الفحميّة في مشيته المريحة على الرّصيف، مستشعرًا تدفُّق الأموال في أرجاء المدينة. في الصّيف تخبز الشّمس الشّوارع، وينفث كلُّ مدخل متجرٍ يمرُّ به هواءً شتويًّا مكيَّفًا في الدّفء المبلّل بالعرق، فيُبرِّد ما يرشح من مسامّه على وجهه، أمّا الآن في الشّتاء الصّحراوي فالطّقس بارد جاف، وهو ما يستحبُّه صاحب البلدة الفحميّة. في عقله تُكوِّن حركة الأموال نقشًا شبكيًّا أنيقًا، تصميمًا متداخلًا ثُلاثي الأبعاد من الضّوء والحركة. ما يجده جذّابًا في مدينة الصّحراء هذه هو سرعة الحركة، الطّريقة التي تتنقّل بها الأموال من مكانٍ إلى مكانٍ ويدٍ إلى يد، طريقة لها يطرب وبها ينتشي، وكالمدمن تجتذبه إلى الشّارع.

في الشّارع يتبعه تاكسي ببُطءٍ محافظًا على مسافةٍ مناسبة بينهما، ولا يلحظه الرّجل ولا يَخطُر له أن يلحظه، فهو نفسه نادرًا ما يُلاحَظ، حتى إنه يعدُّ فكرة أن يتبعه أحد شبه مستحيلة.

إنها الرّابعة صباحًا، ويجد نفسه منجذبًا إلى فندق وكازينو عفا عليه الزّمن منذ ثلاثين عامًا، ما زال يعمل إلى أن يُفجّروه غدًا أو بعد ستّة شهورٍ من الآن، ويهدموه ويبنوا بدلًا منه قصر ملذّاتٍ وينسوه للأبد. لا أحد يعرفه، لا أحد يتذكّره، لكن بار اللوبي مبتذل وهادئ، والهواء مزرقٌّ من دُخان السّجائر القديم، وأحدهم على وشك المقامرة بعدّة ملايين من الدولارات في مباراة پوكر في غُرفةٍ خاصّة بالأعلى. يستقرُّ صاحب البدلة الفحميّة في البار تحت المباراة بعدّة طوابق، وتتجاهله النّادلة، فيما تتردّد «لِمَ لا يكون أنت؟»[lxxix]

لباتسي كلاين بتوزيع ميوزاكي[1] في مكان ما تحت عتبة الشُّعور، ويُشاهِد خمسة من مقلّدي إلڤس پرسلي -يرتدي كلٌّ منهم بدلةً من قطعةٍ واحدة بلونٍ مختلف- إعادةَ متأخِّرةَ لمباراة كُرة قدم على تليفزيون البار.

يجلس رجل كبير الحجم يرتدي بدلةً رماديَّة فاتحةً إلى طاولة صاحب البدلة الفحميَّة، ولمَّا تلحظه النَّادلة -الأنحف من أن تكون جميلةً، والواضح جدًّا أن إصابتها بفقدان الشَّهيَّة العصابي تحول دون عملها في «الأقصر» أو «تروپيكانا»، وتعدُّ الدَّقائق حتى تَفرُغ من العمل- تتَّجه إليه مباشرةً وتبتسم، فيبتسم لها ابتسامةً عريضةً قائلًا: «تبدين جذَّابةَ اللَّيلة يا عزيزتي، منظرك يسرُّ هاتين العينين العجوزين»، وإذ تشتمُّ النَّادلة بقشيشًا كبيرًا تتَّسع ابتسامتها، ويَطلُب صاحب البدلة الرَّماديَّة الفاتحة «چاك دانيلز» لنفسه و«لافرويج» وماءً لصاحب البدلة الفحميَّة الجالس بجواره.

حين يصل شرابه يقول صاحب البدلة الرَّماديَّة الفاتحة: «أتدري؟ أرفع بيتٍ من الشِّعر تفوَّه به أحد في تاريخ هذا البلد الملعون بأكمله قاله كندا بيل چونز في باتن روج في عام 1853، قاله فيما سُلِبَ منه كلُّ شيءٍ في لُعبة فرعون[2] مغشوشة. انتحى چورچ دڤول -الذي، على غرار كندا بيل، لم يكن يتورَّع عن نهب المغفَّلين- ببيل جانبًا وسأله إن كان لا يرى أن اللُّعبة مغشوشة، فتنهَّد كندا بيل وهزَّ كتفيه، وقال: أعرفُ، لكنها اللُّعبة الوحيدة في البلدة،lxxx ثم عادَ إلى اللَّعب».

بارتيابٍ تُحدِّق عينان داكنتان إلى صاحب البدلة الرَّماديَّة الفاتحة، ويردُّ صاحب البدلة الفحميَّة بشيءٍ ما، فيهزُّ صاحب البدلة الفاتحة -الذي يزحف الشَّيب على لحيته المحمرَّة- رأسه، ويقول: «اسمع، أنا آسفٌ لما جرى في ويسكونسن، لكنني أخرجتكم جميعًا بأمان، أليس كذلك؟ لا أحد تأذَّى».

يرشف صاحب البدلة الفحميَّة من كأس الـ «لافرويج» والماء متلذِّذًا بالمذاق الآسن، بخاصيَّة الويسكي الشَّبيهة بجثَّةٍ في مستنقع، ثم يُلقي سؤالًا.

---

(1) الميوزاك علامة تجاريَّة أمريكيَّة متخصِّصة في بيع مقطوعات الموسيقى التي تُشغِّلها المتاجر والمكاتب وغيرها في الخلفيَّة، وموسيقى المصاعد. (المُترجم).

(2) فرعون: لُعبة قمار ظهرَت في فرنسا في أواخر القرن السَّابع عشر، ويقول بعض المؤرِّخون إن الاسم يرجع إلى المقامرين الملكيِّين في عهد لويس الرَّابع عشر، الذين استمدُّوه من تصميم إحدى مجموعات الكُتشينة في البلاط الملكي. (المُترجم).

- «لا أدري. كلُّ شيءٍ يتحرَّك بسرعةٍ أكبر مما توقَّعتُ. الجميع هائجون على الفتى الذي استأجرته ليؤدِّي المهام... إنه معي بالخارج، ينتظر في تاكسي. أما زلت معنا؟».

ويُجيب صاحب البدلة الفحميَّة.

فيهزُّ الملتحي رأسه قائلًا: «لم تُرَ منذ مئتي عام. إن لم تكن ميتةً فقد أخرجَت نفسها من الصُورة».

ويُقال شيء آخَر.

فيُفرِغ الملتحي الـ «چاك دانيلز» في جوفه، ويقول: «اسمع. تعالَ، كُن موجودًا حينما نحتاج إليك وسأعتني بك. ماذا تُريد؟ سوما؟ يُمكنني أن أحضر لك زُجاجة سوما، الشراب الحقيقي».

يَرمُقه صاحب البدلة الفحميَّة لحظاتٍ، ثم يُومئ برأسه على مضضٍ ويُلقي تعليقًا.

وبابتسامةٍ كالسكِّين يقول الملتحي: «طبعًا. ماذا تتوقَّع؟ لكن انظُر إلى الأمر من هذه الزَّاوية: إنها اللُّعبة الوحيدة في البلدة»، ويمدُّ يدًا ككفِّ حيوانٍ ويُصافِح يد الرُّجل الآخَر ذات الأظفار المشذَّبة بعناية، ثم ينصرف.

تأتي النَّادلة المهزولة حائرةً، فالآن يجلس رجل واحد إلى الطَّاولة الرُّكنيَّة، رجل متأنِّق داكن الشَّعر يرتدي بدلةً رماديَّةً فحميَّةً. تسأله: «هل تحتاج إلى شيء؟ هل سيعود صديقك؟».

فيزفر ذو الشَّعر الدَّاكن ويقول إن صديقه لن يعود، وهكذا لن تنال شيئًا لقاء وقتها أو متاعبها، وحين يرى الألم في عينيها تأخذه الشَّفقة ويفحص الخيوط الذَّهبيَّة في عقله، يُراقِب المصفوفة ويتتبَّع الأموال حتى يَعثُر على نُقطة تقاطع، ويقول لها إنها إذا وقفَت أمام كازينو «ترچر آيلاند» في تمام السَّادسة صباحًا، بعد ثلاثين دقيقةً من فروغها من العمل، فستُقابِل اختصاصي أورام سيكون قد ربحَ لتوِّه أربعين ألف دولار على طاولة كرابس، وسيحتاج إلى مرشد، إلى شريك، شخصٍ يُعينه على إنفاق المبلغ كلِّه في ظرف ثمانيةٍ وأربعين ساعةً قبل أن يستقلَّ الطَّائرة إلى الدِّيار.

يتبخَّر الكلام في عقل النَّادلة، لكنه يَترُكها سعيدةً. تتنهَّد وتلحظ أن الرَّجلين اللذين جلسا إلى الطَّاولة الرُّكنيَّة غادَرا من غير دفع الحساب أو إعطائها بقشيشًا حتى، ويَخطُر لها أن تذهب إلى «ترچر آيلاند» بدلًا من

*التوجُه بسيّارتها إلى المنزل مباشرةً بعد انتهاء ورديّتها، ولكن إن سألتها فلما أمكنَها أبدًا أن تُخبِرك بالسّبب.*

- «مَن كان ذلك الرّجل الذي رأيته؟». ألقى شادو السُّؤال وهما سائران في مبنى الرُّكّاب بمطار لاس ڤيجس، حيث تُوجَد ماكينات قمارٍ يقف النّاس أمامها في هذه السّاعة من الصّباح ويُلقمونها قطع العُملة. تساءلَ شادو إن كان بعض النّاس لا يُغادِر المطار أبدًا. أناس ينزلون من طائراتهم ويقطعون جسر الإركاب إلى مبنى المطار، ويتوقّفون هناك وقد تصيّدتهم الصُّور الدوّارة والأضواء الخاطفة. أناس يبقون في المطار إلى أن يُلقّموا الماكينات آخِر قطعة عُملةٍ معهم، ثم يدورون على أعقابهم ويركبون طائرةً عائدين إلى ديارهم.

خمّن أن شيئًا كهذا حدثَ حتمًا، إذ يشكُّ أن أشياء قليلةً لم تَحدُث في لاس ڤيجس في وقتٍ أو آخَر، كما أن أمريكا كبيرة للغاية، وفي وجود كلُّ هؤلاء النّاس لا بُدَّ أن هنالك أحدًا دائمًا.

ثم أدركَ أنه سرحَ بأفكاره فيما أخبرَه الأربعاء بهُويّة الرّجل ذي البدلة الدّاكنة الذي تبعاه بالتاكسي، وفاتَته الإجابة.

قال الأربعاء: «إنه معنا إذًا، لكن وجوده سيُكلّفني زُجاجة سوما».

- «ما هو السوما؟».

- «شراب».

صعدا إلى متن الطّائرة المؤجّرة الخالية إلّا منهما وثُلاثي من كبار موظّفي الشّركات الباذخين، الذين عليهم العودة إلى شيكاجو مع بدء يوم العمل التّالي.

استرخى الأربعاء وطلبَ «چاك دانيلز»، ثم قال: «أمثالي يرون أمثالك...»، وتردّد قبل أن يُتابِع: «كما النّحل والعسل: كلُّ نحلةٍ تُفرِز قطرة عسلٍ في غاية الضّآلة، ويتطلّب الأمر ألوفًا، أو ربما ملايين، من النّحلات المشتغلة معًا لأجل عمل جرّة العسل التي تضعها على مائدة الفطور. والآن تخيَّل أنك لا تأكل إلّا العسل. هكذا الأمر بالنِّسبة إلى أمثالي... إننا نتغذّى على الإيمان، على الصّلوات، على الحُبّ، وتتطلّب تغذيتنا أناسًا كثيرين يُؤمِنون أضعف الإيمان. هذا هو ما نحتاج إليه بدلًا من الطّعام، الإيمان».

- «والسوما عبارة عن...».

قال الأربعاء: «لنتمادَ في التّشبيه سالف الذّكر، إنه نبيذ عسل، بِتع»، وقهقهَ مضيفًا: «إنه شراب،[xxxi] دُعاء وإيمان مركَّزان ومكرَّران إلى أن يُصبِحا خمرًا قويّة».

كانا في مكانٍ ما فوق نبراسكا، يأكلان فطور الطَّائرة الذي لا يُميِّزه شيء، عندما قال شادو: «زوجتي».

- «الميتة».

- «لورا. إنها لا تُريد أن تكون ميتةً. لقد أخبرَتني بعدما أنقذَتني من أولئك الرِّجال على متن القطار».

- «تصرُّف زوجةٍ صالحة، تحريرك من الحبس لأجلِ غير مسمًّى والفتك بمَن كانوا ليجتوا عليك. جديرٌ بك أن تعتزَّ بها يا آينسل يا ابن أختي».

- «تُريد أن تكون حيَّةً بحق، لا واحدةً من الموتى السَّائرين أو أيًّا كانت، تُريد العودة إلى الحياة. أيُمكننا أن نفعل ذلك؟ أهو ممكن؟».

طالَ صمت الأربعاء حتى إن شادو بدأ يتساءَل إن كان قد سمعَ السُّؤال، أو إن كان -ربما- قد غابَ في النَّوم بعينين مفتوحتين. ثم قال الأربعاء محدِّقًا أمامه وهو يتكلَّم: «أعرفُ تعويذةً تُعالِج الأوجاع والأمراض وتعتق قلب الحزين من الحزن.

أعرفُ تعويذةً تشفي بلمسة.

أعرفُ تعويذةً تُضلِّل أسلحة العدوّ.

أعرفُ تعويذةً أخرى تُحرِّرني من القيود والأصفاد كلِّها.

تعويذة خامسة: يُمكنني أن أمسك طلقةً في الهواء من غير أن يمسَّني ضرر».

كان حديثه هادئًا شديد الجدِّيَّة. راحَت النَّبرة المتغطرسة، راحَت الابتسامة الواسعة. تحدَّث الأربعاء كأنما يتلو كلمات شعيرةٍ دينيَّة، كما لو أنه يتلفَّظ بشيءٍ ظلاميٍّ مؤلم.

- «تعويذة سادسة: التَّعاويذ المرسَلة لإيذائي لن تؤذي إلَّا مُرسِلها.

تعويذة سابعة أعرفها: يُمكنني أن أطفئ النَّار بمجرَّد النَّظر.

تعويذة ثامنة: يُمكنني الظفر بصداقة أيِّ أحدٍ يكرهني.

تعويذة تاسعة: أستطيعُ أن أغنِّي للرِّيح حتى تخمد وأهدِّئ العواصف وقتًا يكفي لوصول السُّفن إلى السَّاحل.

هذه هي التَّعاويذ التِّسع الأولى التي تعلّمتها. تسع ليالٍ ظللتُ مشنوقًا من شجرةٍ جرداء وقد اخترق جانبي رأس حربة. تأرجحتُ وتمايلتُ في الرِّيح الباردة والرِّيح السَّاخنة. بلا طعام، وبلا ماء، تضحيةً بنفسي لنفسي، وانفتحَت لي العوالم.

بالتَّعويذة العاشرة تعلّمتُ أن أشتِّت السَّاحرات، أدوِّرهن في السَّماوات فلا يجدن سبيل العودة إلى أبواب بيوتهن أبدًا.

وتعويذة حادية عشرة: إن غنَّيتُ لمَّا تحتدم المعركة فيُمكن أن يَخرُج منها المُحاربون بلا جرحٍ أو خدش ويعودوا آمنين إلى ديارهم وذويهم.

تعويذة ثانية عشرة أعرفها: إن رأيتُ رجلًا مشنوقًا فيُمكنني أن أُنزِله من المشنقة ليهمس لنا بكلِّ ما يتذكَّره.

تعويذة ثالثة عشرة: إن رششتُ الماء على رأس طفلٍ فلن يَسقُط في المعركة.

تعويذة رابعة عشرة: أعرفُ أسماء الآلهة كلِّها، جميعها بلا استثناء.

تعويذة خامسة عشرة: إنني أحلمُ بالقوَّة، وبالمجد، وبالحكمة، وأستطيعُ أن أجعل النَّاس يُؤمِنون بأحلامي».

صارَ صوته خفيضًا للغاية، لدرجة أن شادو أرهفَ سمعه رغمًا عنه ليسمعه فوق هدير محرِّك الطَّائرة.

- «تعويذة سادسة عشرة أعرفها: إذا احتجتُ إلى الحُبِّ فبإمكاني أن أقلِّب عقل وقلب أيَّة امرأة.

وتعويذة سابعة عشرة: لا امرأة أرغبُ فيها سترغب في آخَر ثانيةً.

وأعرفُ تعويذةً ثامنة عشرة هي أعظمها جميعًا، وتلك التَّعويذة لا يُمكنني أن أفصح عنها لأحدٍ أبدًا، فالسِّرُّ الذي لا يعلمه أحد إلَّاك أقوى سرٍّ في الوجود».

ثم تنهَّد الأربعاء ولاذَ بالصَّمت.

أحسَّ شادو بجلده يقشعرُّ. كأنه رأى لتوِّه بابًا مفتوحًا على مكانٍ آخَر، على موضعٍ ما يَبعُد عوالم كاملةً يتأرجَح فيه المشنوقون في الرِّيح عند كلِّ مفترَق طُرق، وتَصرُخ السَّاحرات بالأعلى في جوف اللَّيل.

ولم يقل إلَّا: «لورا».

التفتَ الأربعاء برأسه وحدّق في عينَي شادو الرّماديَّتين الشّاحبتين بعينيه الرّماديَّتين الشّاحبتين، وقال: «ليس بمقدوري أن أجعلها تحيا من جديد. إنني أجهلُ حتى لماذا لم تبقَ ميتةً كما يُفترَض».

قال شادو: «أظنُّني السَّبب. إنها غلطتي»، وحين ردَّ الأربعاء برفعه حاجبًا كثًّا، تابعَ: «سويني المجنون أعطاني عُملةً ذهبيَّةً عندما أراني كيف أنفِّذُ الخدعة. حسب ما قاله، أعطاني العُملة الخطأ. ما أعطاه لي كان أقوى مما ظنَّ نفسه يُعطيني، ثم أعطيتها أنا للوراء».

أطلقَ الأربعاء نخيرًا خفيضًا وخفضَ ذقنه إلى صدره عابسًا، ثم أسندَ ظهره إلى المقعد قائلًا: «شيء كهذا قمين بإحداث تلك النَّتيجة. ولا، لا أستطيعُ مساعدتك. ما تفعله في وقتك الخاص شأنك أنت طبعًا».

سألَه شادو: «ما معنى ذلك؟».

- «معناه أنني لا أستطيعُ منعك من صيد أحجار العُقبان أو طيور الرَّعد، لكنني أحبِّذ لدرجةٍ لا نهائيَّة أن تقضي أيامك في عُزلةٍ هادئة بليكسايد، بعيدًا عن الأنظار، وبعيدًا عن العقول أيضًا كما آملُ. عندما يُصبح الخطر وشيكًا سنحتاج إلى جهود الجميع وانتباههم».

بدا طاعنًا في السِّنِّ إذ قال هذا، وهشًّا، وبدا جلده أقرب إلى الشّفافية، واللَّحم تحته رماديًّا.

أرادَ شادو -أرادَ بشدَّة- أن يمدَّ يده ويضعها على يد الأربعاء الرَّماديَّة، أرادَ أن يقول له إن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يُرام... وهو ما لا يَشعُر به شادو عن نفسه، وإن علمَ أنه يجب أن يُقال. إن في العالم رجالًا على متون قطاراتٍ سوداء، وفتى سمينًا في ليموزين مطوَّلة، وأناسًا في التليفزيون لا يُضمِرون لهم خيرًا.

لكنه لم يلمس الأربعاء، ولم يقل شيئًا.

لاحقًا سيتساءَل إن كان بإمكانه أن يُغيِّر الأحوال، إن كانت تلك اللَّفتة لتُثمِر أيَّ خير، إن كانت لتحول دون الأذى الذي تلا. قال لنفسه إنها ما كانت لتدرَّ نفعًا، قالها عالمًا هذا، ومع ذلك، لاحقًا، تمنَّى لو أنه للحظةٍ واحدةٍ في أثناء رحلة الطَّيران البطيئة إلى الدِّيار مسَّ يد الأربعاء.



كان ضوء النَّهار الشَّتوي العابر يخبو بالفعل عندما أنزلَ الأربعاء شادو خارج شقَّته، وعندما فتحَ شادو باب السيَّارة أحسَّ أن درجة الحرارة المتجمِّدة تنتمي أكثر إلى عوالم الخيال العلمي لدى مقارنتها بلاس ڤيجس.

قال الأربعاء: «لا تُوقِع نفسك في متاعب. طأطئ رأسك ولا تُحدِث قلقلةً».

- «كلُّ هذا في آنٍ واحد؟».

- «لا تتذاكَ عليَّ يا ولدي. يُمكنك البقاء بعيدًا عن الأنظار في ليكسايد. لقد التمستُ معروفًا كبيرًا لأبقيك هنا آمنًا سالمًا. لو أنك في مدينةٍ لاشتمُّوا رائحتك خلال دقائق».

- «سأبقى حيث أنا وأبتعدُ عن المتاعب». قالها شادو وهو يعنيها. لقد عاشَ عُمرًا كاملًا من المتاعب ومستعدٌّ للابتعاد عنها إلى الأبد. «متى ستعود؟».

أجابَ الأربعاء: «قريبًا»، ودوَّر محرِّك الـ «لينكن»، ورفعَ النَّافذة، وانطلقَ في اللَّيل القارس.



# الفصل الحادي عشر

*لثلاثةٍ أن يكتموا سرًّا، شريطة موت اثنين منهم.*

- بن فرانكلن، **تقويم ريتشرد الفقير**

مرَّت ثلاثة أيامٍ باردة. لم يرتفع مؤشِّر ميزان الحرارة إلى علامة الصُفر مطلقًا، ولا حتى في منتصَف النَّهار، وتساءلَ شادو كيف نجا النَّاس من مثل هذا الطَّقس في عصورٍ ما قبل الكهرباء، قبل أقنعة الوجه الحراريَّة والملابس الدَّاخليَّة الحراريَّة الخفيفة، قبل السَّفر السَّهل.

كان في محلِّ الڤيديو والتَّسمير والطُّعوم ومعدَّات الصَّيد، يُفرِّجه هينزلمان على طعوم الترويت المربوطة يدويًّا لتُحاكي شكل الذُّبابة، وقد ألفاها شادو أشدَّ إثارةً للاهتمام مما توقَّع، صُورًا مقلَّدةً ملوَّنةً للحياة من الرِّيش والخيوط، في داخل كلٍّ منها خُطَّاف مخبَّأ.

ألقى شادو سؤاله على هينزلمان.

وسألَه هينزلمان: «حقيقي؟».

- «حقيقي».

أخبرَه الرَّجل الأكبر سنًّا: «أحيانًا لم ينجوا وماتوا. المداخن التي تُسرِّب الدُّخان، والمواقد والأفران سيِّئة التَّهوية، قتلَت أناسًا بالأعداد نفسها كالبرد. لكنها كانت أيامًا عصيبةً. كانوا يقضون الصَّيف والخريف في تخزين الطَّعام والحطب من أجل الشِّتاء. أسوأ شيءٍ على الإطلاق كان الجنون. سمعتهم

يقولونَ في الراديو إن للأمر صلةً بضوءِ الشَّمس، وكيف أنه لا يظهر كفايةً في الشِّتاء. دادي قال إن النَّاس كانوا يُجَنُّون من الخنقة. جنون الشِّتاء، هكذا سمَّوه. لطالما كان الشِّتاء خفيف الوطأة على ليكسايد، لكن بعض البلدات الأخرى في هذه الأنحاء قاسي الأمرَّين. كانت في طفولتي مقولة رائجة: إن لم تُحاوِل الخادمة قتلك بحلول فبراير فإنها لا تتمتَّع بأيِّ شَجاعة. كانت كُتُب القصص نفيسةً كالتِّبر. أيُّ شيءٍ قابل للقراءة كان يُعَدُّ كنزًا قبل افتتاح مكتبة استعارةٍ بالبلدة. عندما تلقَّى جرامپا كتابًا أرسلَه إليه أخوه من باڤاريا، اجتمعَ كلُّ مَن في البلدة من ألمان في مبنى البلديَّة ليسمعوه يقرأه، والفنلنديُّون والأيرلنديُّون والبقيَّة جعلوا الألمان يحكون لهم القصص. في چيبواي، على بُعد عشرين ميلًا جنوبًا، وجدوا امرأةً تمشي في الشِّتاء كما ولدَتها أمُّها وتضمُّ إلى صدرها رضيعًا ميتًا، ولم تسمح لهم بأخذه»، وهزَّ هينزلمان رأسه متأمِّلًا، وصدرَت من دولابِ الطُّعوم تكَّة إذ أغلقَه، ثم أردفَ: «مسألة مؤسفة. هل تُريد بطاقة استئجار شرائط ڤيديو؟ في النِّهاية سيفتحون «بلُكبستر» هنا، وعندئذٍ لن يمضي وقت طويل حتى يتوقَّف نشاطنا، لكن حاليًّا لدينا مجموعة لا بأس بها».

ذكَّره شادو بأنه لا يملك جهاز تليفزيون أو ڤيديو. يستمتع شادو بصُحبة هينزلمان، باجترار الذِّكريات والحكايات المتعذِّر تصديقها وابتسامة العجوز الخبيثة. سيُصبِح الوضع بينهما محرجًا في حال اعتراف شادو بأن التليفزيون يُوتِّره منذ بدأ يُكلِّمه.

نقَّب هينزلمان في دُرجٍ وأخرجَ عُلبةً من الصَّفيح، يبدو من منظرها أنها كانت في الأصل عُلبة كريسماس من النَّوع الذي تُوضَع فيه شُكولاتة أو بسكويت، يرتفع من غطائها سانتا كلوز يرتدي ثوبًا مزركشًا ويحمل صينيَّةً من زُجاجات الـ «كوكا-كولا». خلعَ هينزلمان غطاء العُلبة المعدني برفقٍ كاشفًا عن مفكِّرةٍ ودفاتر تذاكر فارغة، وقال: «كم واحدةً تُريدني أن أسجِّل باسمك؟».

- «كم واحدةً ممَّ؟».
- «تذاكر الخُردة. ستُوضَع على الجليد اليوم، ولذا بدأنا بيع التَّذاكر. التَّذكرة بعشرة دولارات، الخمس تذاكر بأربعين، العشر بخمسة وسبعين. بالتَّذكرة الواحدة تشتري خمس دقائق. طبعًا لا يُمكننا أن نعدك بأنها ستغوص خلال دقائقك الخمس، لكن الشَّخص الأقرب مؤهَّل

للفوز بخمسمئة دولار، وإن غاصت خلال دقائقك الخمس فستفوز بألف. كلَّما بكَّرت بشراء تذاكرك وجدت أوقاتًا أكثر غير محجوزة. هل تودُّ رؤية نشرة المعلومات؟».

- «أكيد».

ناولَه هينزلمان ورقةً منسوخةً. الخُردة عبارة عن سيَّارةٍ قديمة أزيلَ منها المحرِّك وخزَّان الوقود، وستُركَن على الجليد خلال الشِّتاء، وفي وقتٍ ما خلال الرَّبيع سيذوب جليد البُحيرة، وحينما يُصبح أرقَّ من أن يحمل وزنها ستَسقُط السيَّارة في البُحيرة. أبكر موعدٍ غاصَت فيه في البُحيرة كان السَّابع والعشرين من فبراير («حدثَ ذلك في شتاء 1998. لا أظنُّه إنصافًا أن يُسمُّوه شتاءً على الإطلاق»)، وآخِر موعدٍ كان الأول من مايو («أمَّا ذلك فحدث في 1950. في ذلك العام بدا كأن الوسيلة الوحيدة لإنهاء الشِّتاء أن يدقَّ أحدهم في قلبه خازوقًا»). بدَت بداية إبريل أغلب وقتٍ تغرق فيه السيَّارة، عادةً في منتصَف الأصيل.

وكلُّ منتصَف أصيلٍ في إبريل محجوز، معلَّم عليه في مفكِّرة هينزلمان المسطَّرة. هكذا اشترى شادو مُدَّة خمسٍ وعشرين دقيقةً في صباح الثَّالث والعشرين من مارس، من التَّاسعة إلى التَّاسعة وخمسٍ وعشرين دقيقةً صباحًا، ونقدَ هينزلمان أربعين دولارًا.

قال هينزلمان: «ليت أهل البلدة جميعًا يشترون التَّذاكر بسهولةٍ مثلك».

- «إنه شُكر على توصيلي في ليلتي الأولى بالبلدة».

- «لا يا مايك. هذا من أجل الأطفال». للحظةٍ لاحَت الجدِّيَّة على هينزلمان، بلا أثرٍ للشَّيطنة على وجهه العجوز المتغضِّن. «تعالَ اليوم بعد الظُّهر. يُمكنك أن تُساعِدنا على دفع الخُردة على سطح البُحيرة». ناولَ هينزلمان شادو خمس بطاقاتٍ زرقاء دُوِّنَ على كلٍّ منها تاريخ وتوقيت بخطِّه قديم الطِّراز، ثم أدرجَ بيانات كلِّ تذكرةٍ في مفكِّرته.

سألَه شادو: «هينزلمان، هل سمعت من قبل بأحجار العُقبان؟».

- «شمال راينلاندر؟ لا، ذلك نهر العُقبان. لم أسمع بها، لا».

- «وطيور الرَّعد؟».

- «هناك «معرض طائر الرَّعد للبراويز» في الشَّارع الخامس، لكنه أغلقَ. لستُ أساعدك، هَه؟».

- «نعم».
- «سأخبرك بشيء. لِمَ لا تذهب للبحث في المكتبة؟ إنهم أناس صالحون، ولو أنهم قد يكونون مشغولين بتخفيضات المكتبة هذا الأسبوع. أريتك مكان المكتبة، صح؟».

أومأ شادو برأسه وقال إلى اللقاء، متمنيًا لو أنه فكَّر في المكتبة عن نفسه، ثم ركبَ الـ «فور رنَر» وقطعَ الشَّارع الرَّئيسي في اتِّجاه الجنوب دائرًا حول البُحيرة حتى أقصى نقاطها الجنوبيَّة، إلى أن بلغَ المبنى الشَّبيه بالقلاع الذي يضمُّ مكتبة البلدة. في داخل المبنى تُشير إلى القبو لافتة تقول: «بيع بالتَّخفيض»، أمَّا المكتبة نفسها فتقع في الطَّابق الأرضي. دبدبَ شادو بقدميه نافضًا الثَّلج عن حذائه، ثم دخلَ.

سألته امرأة متجهِّمة ذات شفتين مزمومتين مطليَّتين بالقرمزي بأسلوبٍ ينمُّ عن الضِّيق إن كان يُمكنها مساعدته.

أجابَ: «أظنُّني أحتاجُ إلى بطاقة مكتبة، وأريدُ أن أعرف كلَّ شيءٍ عن طيور الرَّعد».

جعلَته المرأة يملأ استمارةً، ثم أخبرَته بأن بطاقته ستَصدُر بعد أسبوع. تساءلَ شادو إن كانوا سيقضون هذا الأسبوع في إرسال الاستفسارات، ليضمنوا أنه ليس مطلوبًا في أيِّ مكتباتٍ أخرى في أنحاء أمريكا لتخاذُله عن إعادة الكُتب المستعارة.

في السِّجن عرفَ شادو رجلًا حُبِسَ لسرقته كُتبًا من مكتبات، ولمَّا أخبرَه الرَّجل بسبب سجنه علَّق: «تبدو عقوبةً غليظةً نوعًا».

ردَّ الرَّجل بفخر: «كُتب بقيمة نصف مليون دولار». كان اسمه جاري مجواير. «معظمها كُتب نادرة وقديمة من المكتبات والجامعات. عثروا على مخزنٍ كاملٍ ملآن بالكُتب من الأرض إلى السَّقف. قضيَّة واضحة».

سألَه شادو: «لماذا أخذتها؟».

وأجابَ جاري: «أردتها».

- «بحقِّ المسيح، كُتب بقيمة نصف مليون دولار».

افترَّ ثغر جاري عن ابتسامةٍ عريضة، وخفضَ صوته قائلًا: «في المخزن الذي عثروا عليه فقط، لكنهم لم يعثروا قَطُّ على الجراج في سان كليمنتي حيث أخبِّئ الأصناف العالية حقًّا».

ماتَ جاري في السِّجن عندما أخبروه في المستوصف بأن شعوره بالتّعب في ذلك اليوم ما هو إلّا تمارُض، ثم اتّضح أنه انفجار في الزّائدة الدُّوديّة. والآن، هنا في مكتبة ليكسايد، وجدَ شادو نفسه يُفكِّر في جراج بسان كليمنتي يحوي صندوقًا فوق صندوقٍ من كُتب نادرة غريبة جميلة، تتعفّن جميعًا وتصفرُّ وتَذبُل وتأكلها الفطريّات والحشرات في الظّلام، تنتظر أحدًا لن يأتي ليعتقها أبدًا.

يحتلُّ قسم معتقدات وتقاليد سُكّان أمريكا الأصليّين رفًّا أوحد في بُرَيجٍ كبُرَيجات القلاع. التقطَ شادو بعض الكُتب وجلسَ على المقعد المجاور للنّافذة، وفي غضون عدّة دقائق علمَ أن طيور الرّعد طيور خرافيّة عملاقة تعيش فوق قمم الجبال، تجلب البرق وتخفق بأجنحتها لتصنع الرّعد. قرأ شادو أن بعض القبائل يُؤمِن أن طيور الرّعد خلقَت العالم، وقضى نصف ساعةٍ آخَر في القراءة من غير أن يُحصِّل معلوماتٍ أخرى. أمّا أحجار العُقبان[xxxxx] فلم يجد عنها شيئًا على الإطلاق في فهارس الكُتب.

كان شادو يضع آخِر الكُتب في مكانه على الرَّفّ عندما انتبهَ لوجود مَن يُراقبه، شخص جاد صغير الحجم يختلس إليه النّظر من وراء الأرفُف الثّقيلة، وإذ التفتَ لينظُر اختفى الوجه. أولى شادو الصّبي ظَهره، ثم التفتَ يُلقي نظرةً ليرى أنه تحت المراقبة من جديد.

في جيبه كان دولار الحرّيّة، فأخرجَه ورفعَه بيُمناه ليضمن أن يراه الصّبي، ثم دفعَه بإصبعه إلى يُسراه وعرضَ كلتا يديه الخاليتين، ورفعَ يُسراه إلى فمه وسعلَ مرّةً تاركًا العُملة تَسقُط من يُسراه إلى يُمناه.

رمقَه الصّبي بعينين متّسعتين وهرعَ مبتعدًا، ليعود بعد لحظاتٍ قليلة جارًّا مارجريت أولسن العابسة، التي حدجَت شادو بنظرة ارتيابٍ قائلةً: «أهلًا مستر آينسل. ليون يقول إنك أدّيت له حيلةً سحريّة».

- «مجرّد حواية وإيهام يا سيّدتي».

قالت: «لا تفعل هذا من فضلك».

- «آسف. كنتُ أحاولُ تسليته لا أكثر».

مشدودة العُنق هزّت رأسها، لسان حالها: *اعدل عن الموضوع*، فعدلَ عنه شادو، وقال: «لم أشكركِ على نصيحتكِ بخصوص الحرارة في الشّقّة. إنها دافئة كالخُبز المحمّص الآن».

قالت: «عظيم»، ولم يبدأ التَّعبير الجليدي على وجهها في الذَّوبان.

قال شادو: «المكتبة رائعة».

- «المبنى جميل، لكن المدينة محتاجة إلى شيءٍ أكثر كفاءةً وأقل جمالًا. هل ستُلقي نظرةً على التَّخفيضات بالأسفل؟».

- «لم يكن ذلك في نيَّتي».

- «يَجدُر بك أن تفعل. الغاية وجيهة؛ الحصول على مالٍ لشراء كُتُبٍ جديدة وتوفير مساحةٍ على الرُّفوف، بالإضافة إلى جمع المال لوضع كمبيوترات في قسم الأطفال. لكن بناء مكتبةٍ جديدة في أقرب وقتٍ أفضل».

- «سأحرصُ على النُّزول».

- «اخرُج إلى البهو ثم انزل إلى الطَّابق السُّفلي. سُرِرتُ برؤيتك يا مستر آينسل».

- «ادعيني بمايك».

لم تقل مارجريت شيئًا، بل أخذَت يد ليون واتَّجهت بالصَّبي نحو قسم الأطفال.

وسمعَ شادو ليون يقول: «لكن يا ماما لم يكن هذا مجرَّد حوالة وإلهام! لم يكن كذلك فعلًا! لقد رأيتها بعيني تختفي ثم سقطت من أنفه! رأيتها بعيني!».

على الجِدار صورة بألوان الزَّيت لإبراهام لينكن حدَّقت إليه. نزلَ شادو الدَّرجات المصنوعة من الرُّخام والسَّنديان إلى قبو المكتبة، ومن بابٍ دخلَ إلى حُجرةٍ واسعة ملأى بالطَّاولات التي تُغطِّي كلًّا منها كُتب من كلِّ مجال، مصنَّفة عشوائيًّا ومرتَّبة جزافًا: أغلفة ورقيَّة وأغلفة صُلبة، وأعمال روائيَّة وغير روائيَّة، ودوريَّات وموسوعات، جميعها جنبًا إلى جنبٍ فوق الطَّاولات، وكعوبها إلى الدَّاخل أو الخارج.

ذهبَ شادو على مهلٍ إلى مؤخِّرة الحُجرة، حيث وُضِعَت طاولة مغطَّاة بكُتبٍ مغلَّفة بالجلد يبدو عليها القِدم، يحمل كعب كلٍّ منها رقم فهرسةٍ مرسومًا بالأبيض. خاطبَه الرَّجل الجالس عند كومة الصَّناديق والأكياس الفارغة وعُلبة النُّقود المعدنيَّة الصَّغيرة المفتوحة قائلًا: «أنت أوَّل شخصٍ يأتي إلى هذا الرُّكن اليوم. معظم النَّاس يأخذ قصص الإثارة وكُتب الأطفال وروايات «هارلكوين» الرومنسيَّة، چني كرتُن[lxxxiii] ودانيِل ستيل وما إلى

ذلك». كان يقرأ «مقتل روجر آكرويد» لأجاثا كرستي. «أيُّ كتابٍ على الطّاولة بخمسين سنتًا، أو خُذ ثلاثةً بدولار».

شكرَه شادو وواصلَ التّصفُّح. وجدَ نُسخةً من «التّواريخ» لهيرودوت مغلّفةً بجلدٍ بنّي متقشّر، وجعلَته يُفكّر في النُّسخة ذات الغلاف الورقي التي تركَها في السِّجن، ورأى كتابًا اسمه «حيل سحريّة مدهشة»، بدا أنه قد يحتوي على بعض خدع العُملة.

حملَ شادو الكتابين إلى الرّجل الجالس عند عُلبة النُّقود، الذي قال: «اشترِ واحدًا آخَر ولن تدفع أكثر من الدولار. وإذا أخذت كتابًا آخَر بلا مقابل فستُسدي إلينا معروفًا. نحن في حاجةٍ إلى المساحة الشّاغرة على الأرفُف».

هكذا عادَ شادو إلى الكُتب القديمة المغلّفة بالجلد، مقرّرًا أن يعتق أقل كتابٍ يُحتمَل أن يشتريه أيُّ أحدٍ آخَر. وجدَ نفسه عاجزًا عن اتّخاذ القرار بين «أمراض المسالك البوليّة الشّائعة مع رسوم إيضاحيّة من أستاذ في الطّب» و«محاضر اجتماعات مجلس بلدة ليكسايد 1872-1884». ألقى نظرةً على الرُّسوم في الكتاب الطبّي وقرّر أن في مكانٍ ما بالبلدة مراهقًا يستطيع استخدام الكتاب ليُقزّز أصدقاءه، وحملَ «المحاضر» إلى الرّجل الجالس عند الباب، الذي أخذَ منه دولارًا ووضعَ الكُتب في كيسٍ من الورق البنّي من محل «ديف لأطيب الأطعمة».

غادرَ شادو المكتبة. كان مشهد البُحيرة أمامه واضحًا حتى طرفها الشّمال شرقي، وباستطاعته أن يرى المبنى الذي تقع فيه شقّته، عُلبةً بنّيّةً صغيرةً على الضفّة بعد الجسر. رأى أيضًا رجالًا على الجليد قُرب الجسر، أربعةً أو خمسةً يدفعون سيّارةً خضراء غامقةً إلى مركز البُحيرة البيضاء.

بصوتٍ هامس قال شادو للبُحيرة: «الثّالث والعشرون من مارس، من التّاسعة إلى التّاسعة وخمسٍ وعشرين دقيقةً صباحًا». تساءلَ إن كان بإمكان البُحيرة أو السيّارة الخُردة سماعه... وإن كانتا ستُعيرانه اهتمامًا حتى لو أمكنَهما. خامرَه الشّكُّ في ذلك، فالحظُّ في عالم شادو، الحظُّ السَّعيد، شيء يحظى به الآخَرون، أمّا هو فلا.

هبَّت الرِّيح أليمةً على وجهه.

كان الضّابط تشاد موليجان منتظرًا خارج منزله عندما عاد شادو. حين رأى سيّارة الشُّرطة بدأ نبضه يتسارَع، قبل أن يسترخي بعض الشّيء إذ لاحظَ أن الشُّرطي يُنجز بعض الأعمال الورقيّة جالسًا على المقعد الأمامي.

عمدَ شادو إلى السيّارة حاملًا كيس الكُتب الورقي، وخفضَ موليجان نافذته سائلًا: «تخفيضات المكتبة؟».

- «نعم».

- «اشتريتُ منهم صندوقًا من كُتب روبرت لدلم قبل عامين أو ثلاثة. ما زلتُ باقيًا على نيّة قراءتها. ابن عمّي يحلف بالرَّجل. هذه الأيام أحسبُ أنه إذا ألقاني التيّار على جزيرةٍ مهجورة وكان صندوق كُتب روبرت لدلم معي فسيُمكنني أن أعوِّض ما فاتَني من القراءة».

- «هل من شيءٍ معيَّن يُمكنني أن أفعله لك أيها الرَّئيس؟».

- «لا شيء بتاتًا يا صاحبي. خطرَ لي أن أمرّ عليك وأرى إن كنت قد استقررت. أتذكُر المثل الصيني الذي يقول: إن أنقذت حياة رجلٍ فأنت مسؤول عنه؟ طيِّب، لا أدّعي أني أنقذت حياتك الأسبوع الماضي، لكنني فكَّرت أن سؤالي عنك واجب رغم ذلك. كيف حال مركبة الزَّوجين جنثر الأرجوانيّة؟».

- «معقولة، إنها معقولة، تعمل جيّدًا».

- «يسرُّني سماع هذا».

قال شادو: «رأيتُ جارتي بالشقَّة المجاورة في المكتبة، المِس أولسن. كنتُ أتساءلُ...».

- «من أين أتَت بدمها الثَّقيل؟».

- «إن أردت استخدام هذه الصِّياغة».

- «قصّة طويلة. إن أردت الرُّكوب معي قليلًا فسأحكي لك كلَّ شيء».

فكَّر شادو لحظةً، ثم قال «لا بأس»، وركبَ السيّارة متَّخذًا المقعد الأمامي المجاور للسّائق.

انطلقَ موليجان إلى شمالي المدينة، ثم أطفأ الأنوار وركنَ السيّارة على جانب الطَّريق، وشرعَ يحكي: «التقى دارن أولسن مارج في جامعة ويسكونسن بستيفنز پوينت، وجاء بها شمالًا إلى ليكسايد. كان تخصُّص

دراستها الصّحافة، أمّا هو فدرس -تبًّا، نسيت- إدارة الفنادق أو ما شابه. عندما وصلا ذهلَ الجميع. كان ذلك منذ -متى؟- ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا. كانت رائعة الجمال... شعرها الأسود هذا...»، وصمتَ لحظةً، ثم واصلَ: «عملَ دارن مديرًا لـ «موتل أمريكا» في كامدن على بُعد عشرين ميلًا غربًا. المشكلة أن أحدًا لم يرغبْ في التّوقُّف في كامدن على ما يبدو، وفي النّهاية أغلقَ الموتل أبوابه. أنجبا صبيّيْن، وحينئذٍ كان ساندي في الحادية عشرة، والصّغير -اسمه ليون؟- رضيعًا. دارن أولسن لم يكن رجلًا شُجاعًا. كان لاعب كُرة قدم بارعًا في المدرسة الثّانويّة، لكن تلك آخِر مرّةٍ حلّق فيها عاليًا. أيًّا كان. لم يجد الشّجاعة الكافية ليُخبِر مارچي بأنه فقدَ وظيفته، وهكذا، طيلة شهرٍ أو شهرين ربما، ظلَّ يَخرُج في الصّباح الباكر ويعود في آخِرِ المساء شاكيًا اليوم الصّعب الذي أمضاه في الموتل».

سألَه شادو: «ماذا كان يفعل؟».

- «ممم، لا يُمكنني الجزم. تقديري أنه كان يذهب شمالًا إلى آيرونوود أو جنوبًا إلى جرين باي. أظنُّه بدأ بالبحث عن وظيفة، وسرعان ما أصبحَ يقضي الوقت في الشُّرب والسَّطل، وأرجّحُ جدًّا لقاءه فتاةً عاملةً من النّوع إياه بين الحين والآخَر من أجل القليل من المُتعة اللّحظيّة. ومحتمَل أنه كان يُقامِر. ما أعلمه يقينًا أنه أفرغَ حسابهما المشترك في البنك في ظرف عشرة أسابيع، وكانت مسألة وقتٍ فقط حتى اكتشفَت مارچي الأمر... هيًّا بنا!».

انعطفَ موليجان بالسيّارة على الطّريق وشغّل السّرينة وأضواء الشُّرطة، مثيرًا هلع رجلٍ صغير الحجم تحمل سيّارته لوحة أرقامٍ من آيوا، نزلَ التّلَّ بسرعة سبعين ميلًا في السّاعة.

وبعد تحرير المخالفة لرجل آيوا الشّقي، عادَ موليجان إلى قصّته.

- «أين كنتُ؟ حسن. وهكذا تَطرُده مارچي وترفع عليه قضيّة طلاق، وتحوّل الأمر إلى معركة حضانة شعواء. هكذا يُسمّون مثل تلك القضايا عندما يَكتُبون عنها في مجلّة «پيپل»، معركة حضانة شعواء. دائمًا يجعلني الاسم أفكّرُ في محامين يحملون سكاكينَ وبنادق آليّةً ومفاصل أصابع نُحاسيّةً. حصلَت هي على حضانة الولديْن، وحصلَ دارن على حقوق الزّيارة والقليل جدًّا عدا ذلك. في ذلك الحين كان ليون صغيرًا جدًّا. ساندي كان أكبر، صبيًّا صالحًا، من الأولاد الذين يَعبُدون آباءهم

عبادةً. لم يسمح لمارچي بأن تَذكُر أباه بسوء. فقدوا منزلهم. كانوا مقيمين في مكانٍ لطيف عند دانيلز رود. انتقلت هي إلى هذه الشُّقق وترك هو البلدة ليعود كلَّ بضعة شهورٍ ليبثَّ البؤس في الجميع. دامَ هذا بضع سنوات، يعود ويُنفِق مالًا على الولديْن ويَترُك مارچي باكيةً. بدأ أغلبنا يتمنَّى لو أنه لا يعود على الإطلاق. انتقلَ أبوه وأُمُّه إلى فلوريدا عند تقاعُدهما، قائليْن إنهما لا يستطيعان احتمال شتاءٍ آخَر في ويسكونسن. العام الماضي جاءَ دارن وقال إنه يُريد أخذ الصَّبيَّيْن إلى فلوريدا في الكريسماس، فردَّت مارچي بأن الأمل في ذلك معدوم، وقالت له أن يذهب في داهية. ساءَ الأمر جدًّا... في مرحلةٍ ما اضطررتُ إلى الذَّهاب بنفسي. شجار عائلي. لدى وصولي كان دارن يقف في الفِناء الأمامي رافعًا صوته بالزَّعيق، والولدان متماسكَيْن بالكاد، ومارچي تبكي. قلتُ لدارن إنه يُهيِّئ نفسه لليلةٍ في الحبس. للحظةٍ حسبته سيضربني، لكنه كان مُفيقًا بما فيه الكفاية لئلَّا يفعلها. أوصلته بالسيَّارة إلى ساحة المقطورات في جنوبي البلدة وقلتُ له أن يتصرَّف بمسؤوليَّة، إنه آذاها كفايةً... في اليوم التَّالي غادرَ البلدة، وبعد أسبوعين اختفى ساندي. لم يركب حافلة المدرسة، وقال لصديقه الأقرب إنه سيرى أباه قريبًا، إن دارن سيجلب له هديَّة رائعةً مميَّزةً عوضًا عن الكريسماس الذي فاتَه في فلوريدا. منذ ذلك الحين لم يرَه أحد. قضايا اختطاف الأطفال من قِبل الآباء غير الحاصلين على الحضانة أصعب قضايا. من العسير أن تَعثُر على طفلٍ لا يُريد أن يُعثَر عليه، فاهم؟».

قال شادو إنه يفهم. والشَّيء الآخَر الذي فهمَه أن تشاد موليجان نفسه واقعٌ في حُبِّ مارجريت أولسن. تساءلَ إن كان الرَّجل يُدرِك وضوح الأمر.

تحرَّك موليجان بالسيَّارة ثانيةً بأضواءٍ تُومِض، وأوقفَ بعض المراهقين المنطلقين بسرعة ستِّين ميلًا في السَّاعة. لم يُحرِّر لهم مخالفةً، واكتفى بـ «تخويفهم ليعلموا أن الله حق».

---

في ذلك المساء جلسَ شادو إلى طاولة المطبخ يُحاوِل أن يتعلَّم كيف يُحوِّل دولارًا فضِّيًّا إلى بنس، وهي خدعة وجدَها في «حيل سحريَّة مدهشة»، إلَّا أن التَّعليمات تُثير الغيظ، تعليمات غامضة لا تُساعِد على فهم. عبارات على

غرار «ثم أخف البنس بالطَّريقة المعتادة» تتكرَّر كلُّ جُملةٍ تقريبًا، وهو ما دفعَ شادو إلى التَّساؤل عن «الطَّريقة المعتادة» في هذا السِّياق. أهي «الدوَّارة الفرنسيَّة»؟ إخفاء العُملة في كُمِّه؟ أن يصيح: «يا إلهي! احترسوا! إنه أسد جبلي!»، ويُسقِط العُملة في جيبه الجانبي والجمهور ملهٍ؟

قذفَ الدولار الفضِّي في الهواء وأمسكه متذكِّرًا القمر والمرأة التي أعطَته له، ثم جرَّب الحيلة السِّحريَّة، فلم تبدُ صالحةً. دخلَ الحمَّام وجرَّبها أمام المرآة وأكَّد صحَّة رأيه، فالخدعة كما هي مكتوبة -ببساطة- لا تعمل. تنهَّد شادو وألقى العُملتيْن في جيبه وجلسَ على الأريكة، حيث فردَ البساط الخفيف الرَّخيص فوق ساقيه وفتحَ «محاضر اجتماعات مجلس بلدة ليكسايد 1872-1884»، المطبوع في عموديْن بكلِّ صفحةٍ بحروفٍ في غاية الصِّغر تكاد تكون غير مقروءة. قلَّب شادو صفحات الدَّفتر متفرِّجًا على صُور تلك الحقبة المستنسَخة، وما تعرضه من تجسُّداتٍ عديدة لمجلس بلدة ليكسايد: سوالف طويلة وغلايين من الصَّلصال وقبَّعات منبعجة وقبَّعات لامعة، على وجوهٍ يبدو الكثير منها مألوفًا لدرجة الغرابة. لم يُدهِشه أن يرى أن سكرتير مجلس البلدة ذا البدن الممتلئ في عام 1882 كان اسمه پاتريك موليجان. احلق وجهه واجعله يخسُّ عشرين رطلًا وسيُصبِح صورةً طبق الأصل من تشاد موليجان، الذي هو... ماذا؟ حفيد حفيد حفيده؟ تساءلَ إن كان جدُّ هينزلمان الرَّائد موجودًا في الصُّور، ولكن لم يبدُ أن الرَّجل كان من خامةٍ تُخوِّل له أن يكون عُضو مجلس بلدة. خُيِّلَ إلى شادو أنه رأى إشارةً إلى أحدٍ باسم هينزلمان في مكانٍ ما في النَّص وهو يقلب الصَّفحات من صورةٍ إلى صورة، لكنها تملَّصت منه لَمَّا عادَ ليبحث عنها، كما أن الطِّباعة الدَّقيقة أوجعَت عينيه.

وضعَ الدَّفتر على صدره وأدركَ أن رأسه يتمايَل. قرَّر بوعيٍ أن من الحماقة أن يغيب في النَّوم على الأريكة، فغُرفة النَّوم تَبعُد أقدامًا معدودةً، ولكن من ناحيةٍ أخرى، ستبقى غُرفة النَّوم والفِراش خمس دقائق أخرى، ثم إنه لن ينام على كلِّ حال، بل سيُغمِض عينيه لحظاتٍ لا أكثر...

*زارَت الظُّلمة.*

*كان واقفًا في سهلٍ مفتوح، إلى جواره المكان الذي بزغَ منه من قبل، حيث تمخَّضت عنه الأرض. لم تزَل النُّجوم تهوي من السَّماء، وتتحوَّل كلُّ نجمةٍ تمسُّ التُّربة الحمراء إلى رجلٍ أو امرأة. للرِّجال شعور سوداء طويلة وعظم خدودٍ عالٍ، والنِّساء جميعهن يُشبِهن مارجريت أولسن. هؤلاء أهل النُّجوم.*

وقد رمقوه بأعينٍ قاتمة فخور.

قال شادو: «أخبروني عن طيور الرَّعد. أرجوكم. ليس هذا من أجلي، بل من أجل زوجتي».

واحدًا تلو الآخَر أداروا عنه ظهورهم، وإذ ضاعَت منه وجوههم اختفوا، توحَّدوا مع المنظر الطَّبيعي، لكن آخِرهم، ذات الشَّعر الرَّماديّ الدَّاكن الموخوط بالأبيض، أشارَت قبل أن تلتفت عنه، أشارَت إلى السَّماء الخمريَّة قائلةً: «سَلها بنفسك».

وفي السَّماء ومض برق صيفي أنارَ المنطقة بُرهةً من الأفق إلى الأفق.

رأى شادو صخورًا عاليةً قُربه، ذُرى وبروجًا من الحجر الرَّملي، وبدأ يتسلَّق أقربها، بُرجًا مدبَّبًا بلون العاج القديم. قبضَ شادو على دعامةٍ فأحسَّ بها تشقُّ لحم يده، وفكَّر: إنه عظم. ليس حجرًا، بل عظم قديم جاف.

لكنه حُلم، وفي الأحلام أحيانًا لا يملك المرء خيارات، فإمَّا أن لا قرارات متاحةً تتَّخذها وإمَّا أنها اتُّخِذَت لك بالفعل من قبل أن يبدأ الحُلم. واصلَ شادو التَّسلُّق ساحبًا نفسه إلى أعلى، تُوجِعه يداه وتُطَقطِق العظام وتنسحق وتتهشَّم تحت قدميه الحافيتين فتجرحهما جروحًا مؤلمةً. شدَّته الرِّيح فألصقَ نفسه بالبُرج، واستمرَّ في التَّسلُّق.

أدركَ أن البُرج مصنوع من نوعٍ واحدٍ من العظام يتكرَّر مرَّةً بعد مرَّة، وأن كلَّ عظمةٍ جافَّة شبه كرويَّة، وللحظةٍ تخيَّل أنها قد تكون أصدافًا صفراء أو بيضات طائرٍ مريع، غير أن شُعلةً أخرى من البرق أعلمَته بشيءٍ مختلف: إن لهذه العظام محاجر أعيُن، وإن لها أسنانًا تكشف عنها شفاه تبتسم بلا مرح.

في مكانٍ ما تصيح طيور، وعلى وجهه تتناثَر قطرات المطر.

كان قد ارتفعَ مئات الأقدام فوق الأرض، ويتشبَّث بجانب بُرج الجماجم، فيما يتَّقد وميض البرق في أجنحة الطُّيور الغامضة التي تدور حول البُرج، طيور ضخمة شبيهة بالكُندور حول رقابها أطواق من الرِّيش الأبيض، طيور هائلة رشيقة مخيفة، ضربات أجنحتها كهزيم الرَّعد في هواء اللَّيل.

وتدور حول البُرج.

فكَّر شادو: لا بُدَّ أنها تُناهِز العشرين قدمًا عرضًا من أقصى الجناح إلى أقصى الجناح.

ثم انحرفَ أوّل طائرٍ عن انزلاقته نحو شادو والبرق الأزرق يُطقطق في جناحيه، ودسَّ شادو نفسه داخل فلق من الجماجم، لتُحدّق إليه محاجر الأعيُن الفارغة وتبتسم له الأسنان العاجيَّة، لكنه ما انفكَّ يتسلَّق ساحبًا نفسه إلى أعلى فوق جبل الجماجم، تجرح كلُّ حافةٍ حادَّة جلده ويشعُر بالنُّفور والرُّعب والرَّهبة.

هجمَ عليه طائر آخر، وانغرسَ برثن بحجم الكفّ في ذراعه.

مدَّ يده وحاولَ أن يقبض على ريشةٍ من جناح الطَّائر. إن رجعَ إلى قبيلته من غير ريشة طائر رعدٍ فسيُكلَّل بالعار، لن يصير رجلًا أبدًا، لكن الطَّائر ارتفعَ لكي لا يستطيع شادو القبض ولو على ريشةٍ واحدة، ثم أرخى طائر الرَّعد مخلبه ودارَ راكبًا الرِّيح من جديد.

وواصلَ شادو التَّسلُّق.

مؤكَّد أنها ألف جمجمة، ألف ألف، وليست جميعًا لبشر.

أخيرًا وقفَ فوق قمَّة البُرج، تدور الطُّيور العظيمة، طيور الرَّعد، حوله ببُطء، تُبحِر وسط هبَّات العاصفة بضرباتٍ خفيفة للغاية من أجنحتها.

سمعَ صوتًا، صوت الرَّجل الجاموس، يُناديه محمولًا على الرِّيح، يُخبِره عن أصحاب الجماجم...

بدأ البُرج يتداعى، وانقضَّ عليه أكبر الطُّيور، عيناه بلون ألسنة البرق المتشعِّب البيضاء المزرقَّة المُعمي، انقضَّ عليه في فورةٍ من الرَّعد، وسقطَ شادو، هوى من فوق بُرج الجماجم...

دوَّى صريخ الهاتف. لم يكن شادو يعلم أنه متَّصل بالخطِّ حتى، ودائخًا مهزوزًا رفعَ السمَّاعة.

وبغضبٍ أشد مما سمعَه شادو قبلًا صاحَ الأربعاء: «بحقِّ الجحيم، بحقِّ أسفل أدراك الجحيم ماذا تحسب نفسك فاعلًا؟».

بغباءٍ ردَّ شادو في السمَّاعة: «كنتُ نائمًا».

- «ما الجدوى اللَّعينة من تخبئتك في مكمنٍ مثل ليكسايد إن كنت ستُثير ضجيجًا يسمعه الموتى أنفُسهم؟».

قال شادو: «حلمتُ بطيور الرَّعد... وبُرجٍ من الجماجم...». بدا له أن من المهم للغاية أن يروي حُلمه.

- «أعرفُ بِمَ كنت تحلُم، الجميع يعلمون بِمَ كنت تحلُم. يا للمسيح. ما الفائدة من إخفائك إن كنت ستُعلِن عن مخبأك اللَّعين؟».

ولم يُجِب شادو.

مرَّت لحظات صمتٍ على طرف المكالمة الآخَر، ثم قال الأربعاء: «سأكونُ عندك في الصَّباح»، وبدا أن غضبته خمدَت. «سنذهب إلى سان فرانسيسكو. وضع الزُّهور في شعرك اختياري».[lxxxiv] ثم انقطعَ الخطُّ.

وضعَ شادو الهاتف على البساط واعتدلَ جالسًا بجمود. إنها السَّادسة صباحًا، ولا يزال ظلام اللَّيل يُغلِّف العالم بالخارج. نهضَ من فوق الأريكة مرتجفًا، يتناهى إلى مسامعه صُراخ الرِّيح فوق البُحيرة المتجمِّدة، وصوت أحدٍ قريب يبكي، لا يفصل بينهما إلَّا سُمك الحائط. كان على يقينٍ بأنها مارجريت أولسن، وكان نحيبها متواصلًا خفيضًا يفطر القلب.

دخلَ شادو الحمَّام وتبوَّل، ثم دخلَ غُرفة نومه وأغلقَ الباب حاجبًا صوت المرأة الباكية. بالخارج عوَت الرِّيح وولولَت كأنَّما تسعى هي أيضًا للعثور على طفلٍ ضائع، ولم ينَم شادو ثانيةً ليلتها.

كانت سان فرانسيسكو في يناير دافئةً على غير العادة في هذا الموسم، دافئةً لدرجة أن قطرات العرق نضحَت على مؤخِّرة عُنق شادو ووخزَته. كان الأربعاء يرتدي بدلةً زرقاء غامقةً، ويضع عُويناتٍ ذهبيَّة الإطار جعلَته يبدو كمحامٍ في مجال التَّرفيه.

في هايت ستريت شاهدَهما المشرَّدون والنصَّابون والمتطفِّلون يمرَّان، ولا أحدَ هزَّ لهما كوب فكَّةٍ ورقيًّا، لا أحد طلبَ منهما شيئًا على الإطلاق.

ظلَّ الأربعاء مكبوس الفكَّين. من فوره رأى شادو أن الرَّجل لا يزال غاضبًا، ولم يُلقِ أسئلةً عندما توقَّفت الـ «لينكن» السَّوداء الفارهة أمام الشقَّة هذا الصَّباح، ولم يتبادَلا كلامًا في الطَّريق إلى المطار. لمَّا عرفَ أن الأربعاء مسافر في الدَّرجة الأولى وهو في الدَّرجة الاقتصاديَّة، شعرَ شادو بالرَّاحة.

الوقت الآن أواخر الأصيل. لم يَزُر شادو سان فرانسيسكو منذ صِباه، ومنذ ذلك الحين لا يراها إلَّا في خلفيَّة الأفلام، ومع ذلك أدهشَه كم تبدو مألوفةً،

وأدهشته ألوان المنازل الخشبيَّة وتفرُّدها، وانحدار التِّلال الشَّديد، وأن للمدينة إحساسًا لا كأيِّ مكانٍ آخر.

علَّق شادو: «يكاد يستعصي على التَّصديق أن هنا وليكسايد في البلد نفسه».

حدجَه الأربعاء بنظرةٍ ناريَّة، ثم قال: «لا، ليستا كذلك. سان فرانسيسكو ليست في البلد نفسه مثل ليكسايد، تمامًا كما أن نيو أورلينز ليست في البلد نفسه مثل نيويورك أو ميامي، اللتين ليستا في البلد نفسه مثل منيابوليس».

سألَه شادو برفق: «حقًّا؟».

- «بالتَّأكيد. قد تشترك تلك المُدن في بعض الدَّلالات الثَّقافيَّة -النُّقود، الحكومة الفدراليَّة، التَّرفيه، وهي الأرض نفسها كما هو واضح- لكن الأشياء الوحيدة التي تُوهِم النَّاس بكونه بلدًا واحدًا هي البنكنوت الأخضر و«برنامج اللَّيلة» و«مكدونالدز»». كانا يقتربان من حديقةٍ في نهاية الطَّريق. «كُن لطيفًا مع السيِّدة التي سنزورها، ولكن لا تتلطَّف أكثر من اللَّازم».

قال شادو: «سألتزمُ الرَّزانة».

وخطوَا فوق العُشب.

لدى مرورهما حدَّقت إليهما فتاة لا تتعدَّى الرَّابعة عشرة، شعرها مصبوغ بالأخضر والبرتقالي والوردي، تجلس بجوار كلبٍ هجين تُحيط بعُنقه قطعة من السِّلك على سبيل الطَّوق والمقود. بدَت الفتاة أشدَّ جوعًا من الكلب، ونبحَ لهما الكلب ثم راحَ يهزُّ ذيله.

أعطى شادو الفتاة دولارًا، فحملقَت إليه كأنها تجهل كنهه، فقال لها شادو مقترحًا: «اشتري به طعام كلاب»، وأومأت الفتاة برأسها وابتسمَت.

قال الأربعاء: «دعني أقولها بوضوحٍ تام. يجب أن تتوخَّى الحذر الشَّديد في حضور السيِّدة التي سنزورها. قد تستهويها، وسيكون ذلك سيِّئًا».

- «أهي صاحبتك أو ما شابهَ؟».

أجابَ الأربعاء بلُطف: «مستحيل ولو مقابل كلِّ اللُّعب البلاستيك في الصين». بدا أن غضبته انقشعَت، أو ربما يستثمرها من أجل المستقبل. لدى شادو شكٌّ أن الغضب هو المحرِّك الذي يُشغِّل الأربعاء.

على العُشب تجلس امرأة تحت شجرة، تبسط أمامها مفرش مائدةٍ ورقيًا عليه تشكيلة كبيرة من الأطباق البلاستيك.

هذه المرأة... ليست بدينةً، لا، بل بعيدة كلّ البُعد عن البدانة. إنها -طبقًا للوصف الذي لم يجد شادو داعيًا لاستخدامه حتى الآن- ذات منحنيات. شعرها بالغ الشُقرة لدرجة البياض، تلك الخُصل الشُقراء البلاتينيَّة التي يُفترَض أن تنتمي لنجمة سينما شابَّة ماتَت في زمنٍ بعيد، وشفتاها مطليَّتان بالقرمزي، وتبدو سنُّها في مرحلةٍ ما بين الخامسة والعشرين والخمسين.

عند وصولهما إليها كانت تنتقي بيضةً من طبقٍ من البيض المتبَّل، وإذ اقتربَ منها الأربعاء وضعَت البيضة التي انتقَتها ومسحَت يدها قائلةً: «مرحبًا أيها النصَّاب العجوز»، غير أن ابتسامةً صحبَت قولها، وانحنى الأربعاء بشدَّةٍ والتقطَ يدها ورفعَها إلى شفتيه.

- «تبدين ربَّانيَّة».

سألَته بعذوبة: «وكيف أبدو غير هذا بحقِّ الجحيم؟»، ثم أردفَت: «أنت كاذب على كلِّ حال. نيو أورليتز كانت خطأً كبيرًا جدًّا. وزني ازدادَ هناك نحو... كم؟ ثلاثين رطلًا؟ أقسمُ لك. علمتُ أن عليَّ أن أرحل حين بدأتُ أمشي مثل البطَّة. الآن يحتكُّ أعلى فخذيَّ معًا وأنا ماشية. أتُصدِّق ذلك؟». وجَّهت الجزء الأخير إلى شادو. الذي لم يعرف بِمَ يردُّ وأحسَّ بوجهه يتخضَّب بالحُمرة. ضحكَت المرأة مبتهجةً، وقالت: «إنه متورِّد خجلًا! جلبت لي واحدًا خجولًا يا أربعائي الحُلو! يا لروعتك. ما اسمه؟».

أجابَ الأربعاء: «هذا شادو»، وقد بدا عليه الاستمتاع بارتباك شادو. «شادو، ألقِ التَّحيَّة على إيستر»[lxxxv].

قال شادو شيئًا ربما كان «مرحبًا»، وعادَت المرأة تبتسم له، ليَشعُر كأنما سقطَت عليه أضواء ساطعة من النَّوع الذي يستخدمه الصيَّادون المخالفون ليُجمِّدوا غزالًا في مكانه قبل أن يُطلِقوا عليه النَّار. حيث وقفَ تناهى إلى أنفه عطرها، توليفة مسكِرة من الياسمين والعسلة، من الحليب المحلَّى والبشرة الأنثويَّة.

سألَها الأربعاء: «كيف الأحوال؟».

ضحكت المرأة -إيستر- ضحكةً حلقيَّةً عميقةً مفعمةً بالمرح ارتجّ لها جسدها كلُّه. كيف لا يحبُّ المرء أحدًا له هذه الضَّحكة؟ «كلُّ شيءٍ بخير. وأنت أيها الذِّئب العجوز؟».

- «كنتُ آملُ الاستعانة بخدماتكِ».

- «تُضيِّع وقتك».

- «على الأقل اسمعيني قبل أن ترفُضيني».

- «لا جدوى. لا تُزعِج نفسك».

ثم نظرَت المرأة إلى شادو قائلةً: «تفضَّل بالجلوس وكُل كما تشاء من هذا الطَّعام. هاكَ، خُذ طبقًا وكوِّم عليه ما تُريد. كلُّه طعام شهي. بيض، دجاج مشوي، دجاج بالكاري، سَلطة دجاج، وهذا لحم أرانب مخصيَّة... لحم أرانب عاديَّة في الحقيقة، لكن لحم الأرانب البارد من الأطايب. وهذا هناك لحمِ أرانب بريَّة مطبوخ في الفخَّار. دعني أملأ لك طبقًا بنفسي». وفعلَت ملتقطةً طبقًا من البلاستيك ومكوِّمةً عليه الطَّعام، ثم ناولَته لشادو، ونظرَت إلى الأربعاء وسألَته: «هل ستأكل؟».

قال الأربعاء: «أنا رهن إشارتكِ يا عزيزتي».

ردَّت: «كلامك كلُّه خراء في خراء لدرجة أنها أعجوبة أن عينيك لا تتلوَّنان بالبنِّي»، وناولَته طبقًا فارغًا، وقالت: «ساعِد نفسك».

أوقدَت شمس الأصيل وراء ظَهرها شعرها محيلةً إياه إلى هالةٍ من البلاتين، وقالت وهي تمضغ ساق دجاجةٍ بتلذُّذ: «اسمك حُلو. لماذا يدعوتك بشادو؟».

لعقَ شادو شفتيه ليُرطِّبهما، وقال: «في طفولتي عشنا، أمِّي وأنا، كنا، أعني أنها كانت مثل سكرتيرة في عددٍ كبير من السِّفارات الأمريكيَّة، وانتقلنا من مدينةٍ إلى مدينةٍ في جميع أنحاء شمالي أوربا، ثم مرضَت واضطرَّت إلى التَّقاعُد مبكِّرًا وعُدنا إلى الولايات. لم أعرف قطُّ ماذا أقولُ للأطفال الآخَرين، فكنتُ أجدُ الكبار وأتبعهم من غير أن أقول شيئًا. أظنُّني احتجتُ إلى الصُّحبة فقط. لا أدري. كنتُ طفلًا صغيرًا».

قالت: «لكنك كبرت».

- «نعم، كبرت».

التفتَت ثانيةً إلى الأربعاء الذي يأكل بالملعقة من وعاءٍ مما يبدو أنه حساء جَمبو بارد، وسألَته: «أهذا هو الفتى الذي يُثير انزعاج الجميع؟».

- «سمعتِ؟».

أجابَت: «إنني أرهفُ سمعي»، ثم قالت لشادو: «ابتعِد عن طريقهم. الجمعيَّات السرِّيَّة كثيرة جدًّا، ولا تعرف الولاء أو الحُبّ. تجاريُّون، مستقلُّون، حكومة، جميعهم في مركبٍ واحد، ويتراوَحون بين المؤهَّل بصعوبة وفائق الخطورة. أيها الذِّئب العجوز، قبل أيامٍ سمعتُ نُكتةً ستُعجِبك. كيف تعرف أن الـ CIA لم تكن متورِّطةً في اغتيال كنيدي؟».

- «سمعتها».

قالت: «مؤسف»، ثم عادَت تصبُّ انتباهها على شادو قائلةً: «لكن العُملاء إياهم الذين قابلتهم شيء آخَر. إنهم موجودون لأن الكلَّ يعلم أن وجودهم واجب»، وأمعنَت النَّظر إلى كوبٍ ورقي يحوي شيئًا يبدو أنه نبيذ أبيض، قبل أن تنهض قائلةً: «شادو اسم جيِّد. أريدُ موكاتشينو. هيَّا بنا».

بدأت تبتعد، فناداها الأربعاء: «وماذا عن الطَّعام؟ لا يُمكنكِ أن تترُكيه هنا».

ابتسمَت له وأشارَت إلى الفتاة الجالسة بجوار الكلب، ثم بسطَت ذراعيها لتحتوي بينهما منطقة هايت والعالم، وأعلنَت: «فليُطعِمهم»، وبدأت تمشي وفي أعقابها الأربعاء وشادو.

قالت للأربعاء وهُم سائرون: «تذكَّر أنني غنيَّة. أموري في أحسن حال. لِمَ أساعدك؟».

- «أنتِ واحدة منا، أنتِ مندثرة لا يحبُّكِ أحد أو يتذكَّركِ، مثلكِ مثل أيٍّ منا. واضحٌ تمامًا الطَّرف الذي يجب أن تنضمِّي إليه».

بلغوا مقهى على أحد الرُّصفان ودخلوا. في الدَّاخل نادلة واحدة تضع حلقةً في حاجبها دلالةً على انتمائها إلى طائفةٍ إثنيَّةٍ معيَّنة، وامرأة تعدُّ القهوة وراء المشرب. تقدَّمت النَّادلة إليهم مبتسمةً بآليَّة، وأجلسَتهم وسجَّلت طلباتهم.

وضعَت إيستر يدها النَّاحلة على يد الأربعاء الرَّماديَّة المربَّعة، وقالت: «كما أقولُ لك، أحوالي بخير. ما زالوا في أيام عيدي ينكبُّون على أكل البيض والأرانب، ويتلذَّذون بالحلوى ولحم بعضهم بعضًا تمثيلًا للميلاد من جديد والجماع، ويُزيِّنون قبَّعاتهم بالزُّهور ويُعطي بعضهم بعضًا زهورًا. يفعلون هذا باسمي، المزيد والمزيد منهم كلَّ عام. باسمي أنا أيها الذِّئب العجوز».

سألَها بجفاف: «وتسمنين أنتِ وترتعين في خبِّهم وتعبُّدهم؟».

- «لا تكن سافلًا». فجأةً بدَت متعبَةً للغاية، ورشفت من الموكاتشينو.

- «سؤال جاد يا عزيزتي. مؤكَّد أني أوافقك على أن ملايين الملايين منهم يمنح بعضهم بعضًا تذكاراتٍ باسمكِ، وأنهم ما زالوا يُمارسون طقوس عيدكِ كلَّها، بما في ذلك صيد البيض المخبأ. ولكن كم منهم يعرف مَن تكونين؟ إه؟ بعد إذنكِ يا آنسة». العبارة الأخيرة وجَّهها إلى نادلتهم.

سألَته: «إسپرسو آخَر؟».

- «لا يا عزيزتي. كنتُ أتساءلُ فقط إن كان يُمكنكِ أن تحلّي نقاشًا نخوضه هنا. أنا وصديقتي اختلفنا على ما تعنيه كلمة «إيستر»،[lxxxvi] فهل تعرفين معناها؟».

حملقَت إليه الفتاة كأن ضفادع خضراء بدأت تنبثق من بين شفتيه، ثم قالت: «لا أعرفُ شيئًا عن تلك الأمور المسيحيَّة. إنني وثنيَّة».

قالت المرأةُ الواقفة وراء المشرب: «أظنُّها كلمةً لاتينيَّةً أو شيئًا من هذا القبيل، بمعنى يسوع أشرقَ ربما».

قال الأربعاء: «حقًّا؟».

أجابَت المرأة: «نعم، أكيد، كما تُشرِق الشَّمس».

- «كإشراق ابن الرَّب. بالطَّبع، افتراض منطقي للغاية».

ابتسمَت المرأة وعادَت إلى مطحنة القهوة، ورفعَ الأربعاء عينيه إلى النَّادلة قائلًا: «أظنُّني سآخذُ إسپرسو آخَر فعلًا إنْ لم تُمانِعي. وأخبِريني، بصفتكِ وثنيَّةً، مَن تَعبُدين؟».

- «أعبدُ؟».

- «أجل. أتصوَّرُ أن المجال أمامكِ مفتوح على اتِّساعه. لمَن إذًا تنصبين مذبحًا في بيتكِ؟ لمَن تركعين؟ لمَن تُصلِّين في الفجر وفي الغسق؟».

وصفَت شفتاها أشكالًا عدَّةً من غير أن تنبسا بكلمة، قبل أن تقول: «مبدأ الأنثى. إنها مسألة تمكين. كما تعلم».

- «حقًّا. ومبدأكِ الأنثوي هذه، ألها اسم؟».

قالت الفتاة ذات الحلقة في حاجبها وقد بدأت وجنتاها تتورَّدان: «إنها الربَّة التي في داخلنا جميعًا، لا يعوزها اسم».

بابتسامة قردٍ عريضة قال الأربعاء: «آه، إذًا هل تُقيمين حفلاتٍ ماجنةً تكريمًا لها؟ هل تشربين نبيذ الدَّم تحت البدر التَّام فيما تحترق الشموع القرمزيَّة في شمعداناتٍ من الفضَّة؟ هل تخطين في رغوة البحر عاريةً تترنَّمين بنشوةٍ لربَّتك عديمة الاسم فيما تلعق الأمواج ساقيكِ وتلحس فخذيكِ كألسنة ألف نمر؟».

ردَّت: «أنت تسخر مني. لسنا نفعل أيًّا من تلك الأشياء التي قلتها»، وأخذت نفسًا عميقًا -وشكَّ شادو أنها تعدُّ حتى عشرة- ثم سألت: «هل يُريد أحد مزيدًا من القهوة؟ موكاتشينو آخَر لكِ يا سيِّدتي؟». قالتها بابتسامةٍ مشابهة للغاية للتي حيَّتهم بها لدى دخولهم.

هزُّوا رؤوسهم نفيًا، والتفتَت النَّادلة تُحيِّي زبونًا آخَر.

قال الأربعاء: «ها هي ذا واحدة لا تتمتَّع *بالإيمان وتأبى المُتعة*. ج. ك. تشسترتن. وثنيَّة حقًّا. طيِّب، هل نَخرُج إلى الشَّارع يا إيستر يا عزيزتي ونُكرِّر التَّمرين؟ نكتشف كم من المارَّة يعلم أن عيد الفصح يستمدُّ اسمه من أوستارا إلهة الفجر؟ لنرَ... وجدتها. سنسأل مئة شخص. لقاء كلِّ واحدٍ يعرف الحقيقة لكِ أن تَبتُري إحدى أصابعي، ولمَّا تنفد أصابع يديَّ اقطعي أصابع قدميَّ، ولقاء كلِّ عشرين لا يعرفون ستقضين ليلةً تُطارحينني الغرام. والاحتمالات في صالحكِ بالتَّأكيد، فهذه سان فرانسيسكو رغم كلِّ شيء. في هذه الشَّوارع شديدة الانحدار وفرة من الوثنيِّين وعبدة الأصنام وأتباع الويكا».[1]

رمقَت عيناها الخضراوان الأربعاء، وقرَّر شادو أن لونهما تحديدًا لون ورقة شجرةٍ في الرَّبيع تسطع من خلالها الشَّمس.

لم تقل إيستر شيئًا، فواصلَ الأربعاء: «يُمكننا أن نُجرِّب هذا حقًّا، لكن المحصِّلة أني سأحظى بعشر أصابع يدين وعشر أصابع قدمين وخمس ليالٍ في فِراشكِ. فلا تقولي لي إنهم يَعبُدونكِ ويحتفلون بعيدكِ كلَّ عام. إنهم ينطقون اسمكِ، لكنه لا يعني لهم شيئًا، لا يعني لهم شيئًا على الإطلاق».

اغرورقَت عيناها بالدُّموع، وقالت: «أعلمُ هذا. لستُ بلهاء».

---

(1) الويكا: ديانة وثنيَّة جديدة أشهرَها في عام 1954 چيرالد جاردنر، وتنتشر الآن في العديد من دول العالم. زعمَ جاردنر أن الويكا امتداد لديانة سِحر استمرَّت في السِّر لمئات السنين، رجوعًا إلى الوثنيَّة قبل المسيحية في أوروبا، ولهذا يُطلَق على الويكا أحيانًا اسم الديانة القديمة. (المُترجم).

قال الأربعاء: «نعم، لستِ كذلك».

وفكَّر شادو: *تمادى كثيرًا في الضَّغط عليها.*

خفضَ الأربعاء بصره بخجل، وقال: «أنا آسف»، وسمعَ شادو الصِّدق الحقيقي في نبرته. «إننا محتاجون إليكِ حقًّا. محتاجون إلى طاقتكِ، محتاجون إلى قوَّتكِ. هل ستُقاتِلين في صفِّنا حينما تهبُّ العاصفة؟».

تردَّدت. حول معصمها الأيسر وشم لسلسلةٍ من زهور أُذن الفأر.

وبعد فترةٍ أجابَت: «نعم، أظنُّني سأفعلُ».

لثمَ الأربعاء إصبعه ومسَّ بها خدَّها، ثم نادى نادلتهم ليدفع حساب القهوة، وعدَّ النُّقود بحرصٍ وطواها مع الفاتورة وهو يُناوِلها لها.

إذ دارَت النَّادلة قال شادو: «سيِّدتي؟ بعد إذنكِ. أظنُّكِ أوقعتِ هذه»، والتقطَ ورقةً بعشرة دولارات واقعةً على الأرض.

قالت ناظرةً إلى الأوراق المطويَّة في يدها: «لا».

بتهذيبٍ ردَّ شادو: «لقد رأيتها تقع يا سيِّدتي. عليكِ أن تعدِّي ما معكِ».

فعدَّت المبلغ في يدها، ولاحَت عليها الحيرة قائلةً: «يا للمسيح. أنت مُحق. آسفة»، وأخذَت ورقة الدولارات العشرة من شادو وابتعدَت.

خرجَت إيستر معهما إلى الرَّصيف بالخارج حيث بدأ ضوء النَّهار يخبو لتوِّه، وأومأت برأسها للأربعاء، ثم لمسَت يد شادو، وقالت: «بِمَ حلمت ليلة أمس؟».

أجابَها: «طيور رعد، وجبل جماجم».

أومأت، وسألَته: «وهل تعرف جماجم مَن كانت؟».

- «كان في حُلمي صوت، وقد أخبرَني».

عادَت تُومئ، وانتظرَت.

وقال شادو: «قال إنها جماجمي، جماجم قديمة لي، آلاف وآلاف منها».

رمقَت الأربعاء قائلةً: «أظنُّه يستأهل أن تحتفظ به»، وابتسمَت ابتسامتها المشرقة، ثم ربَّتت على ذراع شادو وابتعدَت على الرَّصيف، وشاهدَها شادو محاولًا -ومخفقًا- ألَّا يُفكِّر في فخذيها إذ تحتكَّان معًا وهي ماشية.

في التَّاكسي في الطَّريق إلى المطار التفتَ الأربعاء إلى شادو قائلًا: «ما هذا الذي فعلته بالعشرة دولارات بحقِّ الجحيم؟».

- «أنت خدعتها في الحساب. إذا كان الحساب ناقصًا فسيُخصَم من أجرها».

بدا الأربعاء حانقًا بحقٍّ إذ سأله: «ولِمَ تُبالي أنت بحقّ الجحيم؟».

فكَّر شادو لحظةً، ثم قال: «لا أريدُ أن يفعل أحد ذلك معي. إنها لم تُخطئ في شيء».

قال الأربعاء: «فعلًا؟»، وشردَ بصره إذ تابعَ: «عندما كانت في السَّابعة حبسَت قِطَّةً صغيرةً في خزانة، ولعدَّة أيامٍ أصغَت إلى مُوائها، ولمَّا انقطعَ المُواء أخرجَتها من الخزانة ووضعَتها في عُلبة حذاءٍ ودفنَتها في الفِناء الخلفي. أرادَت أن تدفن شيئًا. أينما عملَت في مكانٍ سرقَت منه بانتظام، مبالغ صغيرةً عادةً. العام الماضي زارَت جدَّتها في دارِ المسنِّين حيث تُحتجَز العجوز، وأخذَت ساعةً ذهبيَّةً نفيسةً من الصِّوان المجاور لسرير جدَّتها، ثم راحَت تتجوَّل خلسةً في عددٍ كبيرٍ من الغُرف الأخرى سارقةً مبالغ صغيرةً من المال وعددًا من المتعلِّقات الشَّخصيَّة من أناسٍ في سنوات غسق العُمر الذَّهبيَّة. حينَ عادَت إلى منزلها لم تعلم ماذا تفعل بالغنائم، وخشيَت أن يُلاحِقها أحد، فتخلَّصت من كلِّ شيءٍ باستثناء النُّقود».

قال شادو: «فهمتُ الفكرة».

- «إنها مصابة بسيلان بلا أعراض أيضًا. تشكُّ أن لديها العدوى، لكنها لا تفعل شيئًا إزاء الأمر. عندما اتَّهمَها صاحبها الأخير بإصابته بالعدوى انجرحَت وشعرَت بالإهانة ورفضَت أن تراه ثانيةً».

- «ليس هذا ضروريًّا. قلتُ إنني فهمتُ الفكرة. يُمكنك أن تفعل هذا مع أيِّ أحد، أليس كذلك؟ تُخبِرني بأشياء سيِّئة عنه».

أيَّده الأربعاء قائلًا: «طبعًا. كلُّهم يفعل الشَّيء عينه. قد يحسبون خطاياهم أصليَّةً، لكنها في الغالب تافهة مكرَّرة».

- «وهو ما يجعلك لا تتورَّع عن سرقة عشرة دولارات منها؟».

دفعَ الأربعاء أجرة التاكسي ودخلَ كلا الرَّجلين المطار واتَّجها إلى بوَّابتهما. لم يبدأ الصُّعود إلى متن الطَّائرة بعدُ. قال الأربعاء: «وماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك؟ إنهم لا يُضحُّون لي بالثِّيران أو الكباش، ولا يبعثون إليَّ بأرواح القتلة والعبيد المشنوقين الذين التهمَت الغِدفان لحمهم. إنهم هُم مَن صنعوني وهُم من نسوني، والآن أستردُّ منهم القليل. أليس هذا عدلًا؟».

قال شادو: «أمّي اعتادت أن تقول إن الحياة ليست عادلة».

- «طبعًا قالت هذا. واحد من الأشياء التي تقولها الأمهات، مثله مثل سؤالهن إن كنت ستثب في هاويةٍ إذا رأيت أصدقاءك يفعلون ذلك».

بإصرارٍ قال شادو: «أنت نصبت على هذه الفتاة في عشرة دولارات وأنا أعطيتها مثلها. كان هذا الصّواب، وقد فعلته».

أعلنَ أحدهم بدء الصّعود إلى متن طائرتهما، فنهض الأربعاء قائلًا: «عسى أن تكونَ خياراتك بهذا الوضوح دائمًا»، ومرّةً أخرى كانت نبرته صادقةً تمامًا.

وفكّر شادو: *ما يقولونه صحيح. إن استطعت ادّعاء الصّدق فقد نجحت.*

⁂

كانت الموجة القارسة قد بدأت تنفرِج عندما أوصلَ الأربعاء شادو إلى منزله في بواكير الصّباح. ما زالَت البرودة في ليكسايد بغيضةً، لكنها لم تَعُد برودةً تُحاكي المستحيل، وإذ قطعا البلدة بالسيّارة ومضَت اللّافتة المضاءة بجانب بنك M&I بالتّبادُل بين 3:30 صباحًا و5-° فهرنهايت.

في التّاسعة والنّصف صباحًا طرقَ رئيس الشُّرطة تشاد موليجان باب الشقّة، وسألَ شادو إن كان يعرف فتاةً باسم آليسن مكجفرن.

ناعسًا أجابَ شادو: «لا أظنُّ».

قال موليجان: «هذه صورتها»، وأراه صورة مدرسيةٍ ثانويّة. تعرّف شادو الشّخص في الصُّورة من فوره، الفتاة ذات تقويم الأسنان المطّاطي الأزرق، التي لقّنتها صديقتها كلَّ شيءٍ عن استخدامات الـ «ألكا-سلتزر» في الجنس الفموي.

- «آه، نعم، حسن. كانت على متن الحافلة حين وصلتُ إلى البلدة».

- «أين كنت أمس يا مستر آينسل؟».

شعرَ شادو بعالمه يميد به. كان يعلم أن شيئًا لا يدعو لإحساسه بالذّنب (لكن صوتًا هادئًا همسَ في عقله: *أنت مجرم خالفَ إخلاء سبيله المشروط ويحيا تحت اسمٍ مستعار. ألا يكفي هذا؟*).

قال: «سان فرانسيسكو. كاليفورنيا. كنتُ أساعدُ خالي على نقل سريرٍ بأربعة أعمدة».

- «ألديك أيّ إثبات؟ كعوب تذاكر؟ أيّ شيء من هذا القبيل؟».

- «أكيد». كان كلا كعبَي التذكرتين في جيبه الخلفي، فأخرجهما. «ماذا يَحدُث؟».

فحصَ تشاد موليجان الكعبيْن، وقال: «آليسن مكجڤرن اختفت. كانت تتطوَّع بالمساعدة في جمعيَّة الرِّفق بالحيوان بليكسايد، تُطعِم الحيوانات وتُمشِّي الكلاب، تقضي بضع ساعاتٍ هناك بعد المدرسة. واحدة من الأطفال محبّي الحيوانات. عادةً تقلُّها دولي كنُيف، مديرة جمعيَّة الرِّفق بالحيوان، إلى منزلها عندما يُغلِقون ليلًا. لكن آليسن لم تذهب أمس».

- «اختفت».

- «نعم. والداها اتَّصلا بنا ليلة أمس. الفتاة السَّخيفة تعوَّدت الاستركاب إلى جمعيَّة الرِّفق بالحيوان الواقعة على طريق المقاطعة W، معزولة جدًّا. قال لها والداها ألَّا تفعل ذلك، لكنه ليس بالمكان الذي يَحدُث فيه شيء... النَّاس هنا لا يُوصِدون أبوابهم، هل تفهمني؟ ولا يُمكنك أن تأمر الأطفال بشيء. ألقِ نظرةً أخرى على الصُّورة إذًا».

كانت آليسن مكجڤرن مبتسمةً، وتقويم أسنانها المطَّاطي في الصُّورة أحمر لا أزرق.

- «أتقول صدقًا إنك لم تختطفها أو تغتصبها أو تَقتُلها أو أي شيء نحو ذلك؟».

- «كنتُ في سان فرانسيسكو، ومستحيل أن أرتكب خراءً كهذا».

- «هكذا حسبتُ يا صاحبي. هل تُريد المجيء للمساعدة في البحث عنها؟».

- «أنا؟».

قال موليجان: «أنت. لقد أرسلنا وحدة الكلاب للبحث هذا الصَّباح... لا نتائج حتى الآن»، وزفرَ مضيفًا: «تبًّا يا مايك. آملُ فقط أن تظهر في المدينتين التَّوأمتين مع صاحبٍ أبله ما».

- «أتظنُّ هذا راجحًا؟».

- «أظنُّه واردًا. هل تُريد الانضمام إلى فرقة البحث؟».

تذكَّر شادو رؤية الفتاة في «هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت»، وبريق ابتسامةٍ خجول مقوَّمة بالأزرق، والحُسن البارع الذي علمَ أنها ستتحلَّى به يومًا، وقال: «سآتي».

في لوبي محطة المطافئ دستتان من الرّجال والنّساء المنتظرين. تعرّف شادو هينزلمان، وبدت له وجوه كثيرة أخرى مألوفةَ. ضمّ الموجودون عدّة ضُبّاط شرطة يرتدون الأزرق، وبعض الرّجال والنّساء من مكتب الشّريف في مقاطعة لمبر يرتدون البنّي.

أعلمَهم تشاد موليجان بما كانت آليسن تلبسه عندما اختفت (حُلّة ثلج قرمزيّة، وقُفّازان أخضران، وقُبّعة صوف زرقاء تحت قلنسوة حُلّة الثّلج). وقسّم المتطوّعين إلى مجموعاتٍ من ثلاثة أفراد، تكوّنت إحداها من شادو وهينزلمان ورجلٍ اسمه بروجان. ذكّرهم موليجان بقصر مُدّة ضوء النّهار، وأوصاهم -في حال العثور على جثّة آليسن لا قدّر الله- بعدم المساس -أكرّر، بعدم المساس- بأيّ شيء، وأن يكتفوا بطلب المساعدة باللا سلكي، لكن إن كانت حيّةً فعليهم بتدفئتها حتى تصل النّجدة.

ثم أنزلَتهم السيّارات على طريق المقاطعة W.

سارَ هينزلمان وبروجان وشادو بمحاذاة حافة غديرٍ متجمّد، وقد أُعطِيَت كلُّ مجموعةٍ ثُلاثيّةٍ ووكي توكي صغيرًا محمولًا باليد.

الغيوم في السّماء منخفضة، والعالم رمادي. لم يَسقُط ثلج خلال السّاعات السّت وثلاثين الأخيرة، فظهرَت آثار الأقدام بوضوحٍ في قشرة الثّلج الهش الملتمعة.

بشاربه الرّفيع وفوديه المبيضّيْن، يُشبِه بروجان عقيد جيشٍ متقاعدًا. فيما قادَهما بروجان أخبرَ شادو بأنه مدير مدرسةٍ ثانويّة متقاعد. «تقاعدتُ مبكّرًا لمّا رأيتُ أني لا أصغرُ في السّن. ما زلتُ أدرّسُ أحيانًا هذه الأيام، وأخرجُ مسرحيّة المدرسة -التي لطالما كانت أشدَّ أحداث العام الدّراسي إثارةً على كلِّ حال- والآن أمارسُ القليل من الصّيد وعندي كوخ على البُحيرة في پايك ليك، حيث أقضي أوقاتًا طويلةً». لدى خروجهم للبحث قال بروجان: «من ناحيةٍ آملُ أن نَعثُر عليها، ومن ناحيةٍ أخرى، إن كان سيُعثَر عليها، فسأكونُ في غاية الامتنان إذا عثرَ عليها أحد آخَر وليس نحن. هل تفهم ما أعنيه؟».

وفهمَ شادو ما يعنيه بالضّبط.

لم يتحدّث الرّجال الثّلاثة كثيرًا إذ مشوا يبحثون عن حُلّة ثلج حمراء، أو قُفّازين أخضرين، أو قبّعةٍ زرقاء، أو جثّةٍ بيضاء، وبين الحين والآخَر اتّصل بروجان -الذي يحمل الووكي توكي- بتشاد موليجان ليستعلم عن التّطوّرات.

في وقت الغداء جلسوا مع بقيَّة فرقة الصَّيد في حافلة مدرسةٍ صادرَتها الشُّرطة، وأكلوا الهُت دُج وشربوا الحساء السَّاخن. أشارَ أحدهم إلى بازٍ أحمر الذَّيل جاثم فوق شجرةٍ جرداء، وقال أحد آخَر إنه يبدو أقرب إلى صقر، لكن الطَّائر حلَّق مبتعدًا فتخلَّيا عن النِّقاش.

حكى لهم هينزلمان قصَّةً عن بوق جدِّه النُّحاسي، وكيف حاولَ العزف عليه خلال موجةٍ قارسة، وكان البرد شديدًا للغاية بالخارج عند الحظيرة حيث ذهبَ جدُّه للتَّدريب، فلم تَخرُج من البوق موسيقى.

- «وبعد دخوله المنزل وضعَ البوق عند موقد الحطب ليذوب. ليلتها الأسرة كلُّها في الفِراش، وفجأةً تَخرُج الأنغام الذَّائبة من البوق. فزِعَت جدَّتي حتى كادَت تلد قُطيطات».[lxxxvii]

كان الأصيل بلا نهاية، وغير مثمر، ومسبِّبًا للكآبة. ببُطءٍ خبا ضوء النَّهار؛ انهارَت المسافات واصطبغَ العالم باللَّونِ النِّيلجي وهبَّت الرِّيح ببرودةٍ كافية لحرق الجلد على وجهك، وحين صارَ الظَّلام أشدَّ حلكةً من أن يستمرُّوا اتَّصل بهم موليجان باللا سلكي ليكتفوا بهذا القدر هذا المساء، وركبوا سيَّارةً عادَت بهم إلى محطَّة المطافئ.

في مربَّع المباني المجاور لمحطَّة المطافئ يقع بار «بَك ستُپس هير»، وإلى هناك ذهبَ معظم الباحثين مرهَقين مغمومين، يتبادَلون الكلام عن العُقاب الأصلع الذي دارَ حولهم، وكم اشتدَّ البرد، والاحتمال الرَّاجح جدًّا لظهور آليسن خلال يومٍ أو نحوه بلا فكرةٍ عن قدر المتاعب التي سبَّبتها للجميع.

قال بروجان: «لا يَجدُر بك أن تُسيء الظَّن بالبلدة بسبب هذا. إنها بلدة صالحة حقًّا».

أضافَت امرأة مهندمة نسيَ شادو اسمها (إن كانا قد تعارَفا من الأصل): «ليكسايد أفضل بلدةٍ في منطقة الغابات الشَّماليَّة. هل تعرف عدد العاطلين عن العمل في ليكسايد؟».

قال شادو: «لا».

- «أقل من عشرين. في هذه البلدة وحولها أكثر من خمسة آلاف نَسمة. قد لا نكون أغنياء، لكن الجميع يعملون. لسنا مثل بلدات التَّعدين في الشَّمال الشَّرقي. أكثرها بلدات أشباحٍ الآن. تُوجَد بلدات زراعيَّة قتلَها

هبوط أسعار الحليب، أو سعر الخنازير المنخفض. أتعرف ما هو أكبر سبب للموت غير الطبيعي بين المزارعين في الغرب الأوسط؟».

خمّن شادو: «الانتحار؟».

لاحَ عليها تعبير أقرب إلى خيبة الأمل، وقالت: «نعم، بالضّبط. يقتُلون أنفُسهم»، وهزّت رأسها ثم تابعت: «في هذه الأنحاء بلدات كثيرة للغاية موجودة فقط من أجل الصيّادين والمستجمّين، بلدات تأخذ مالهم وتُعيدهم إلى ديارهم حاملين التّذكارات مصابين بلسع الحشرات. وهناك بلدات الشّركات، حيث كلّ شيءٍ تمام التّمام إلى أن ينقل «وول-مارت» مركز توزيعه إلى مكانٍ آخَر، أو تتوقّف 3M عن تصنيع أغلفة الأقراص المضغوطة هناك أو أيًا كان، وفجأةً تجد جماعاتٍ بأكملها من النّاس عاجزةً عن تسديد أقساط الرّهن العقاري. معذرةً، لم أسمع اسمك».

قال شادو: «آينسل، مايك آينسل». البيرة التي يشربها منتج محلي، مصنوعة من ماء الينابيع، وجيّدة.

قالت: «أنا كالي كنُيف، أخت دولي». لم يزَل وجهها محمرًا من البرد. «ما أعنيه أن ليكسايد محظوظة. إن لدينا القليل من كلّ شيءٍ هنا: زراعة، صناعات خفيفة، سياحة، أشغال يدويّة. المدارس جيّدة».

رمقَها شادو حائرًا. في قعر كلّ كلامها هذا شيء خاوٍ، كأنه يستمع لمندوب مبيعات، مندوب مبيعاتٍ بارع مؤمن بمنتجه، ومع ذلك يُريد أن يضمن أن ترجع إلى منزلك بطلقم الفُرش كلّه أو مجموعة الموسوعات كاملةً. ربما رأت أفكاره على وجهه، فقالت: «آسفة. عندما تحبُّ شيئًا لا ترغب في الكفّ عن الكلام عنه أبدًا. ما عملك يا مستر آينسل؟».

- «رفع الأحمال الثّقيلة. خالي يشتري الأنتيكات ويبيعها في جميع أنحاء البلاد، ويستخدمني في نقل الأشياء الكبيرة الثّقيلة... من غير أن أكسرها كسرًا يُشوّهها. إنها وظيفة جيّدة، لكن العمل ليس ثابتًا».

أنهَت قِطّة سوداء -هي تميمة البار- جولتها بين ساقَي شادو، وأخذَت تحكّ جبهتها بحذائه، ثم وثبَت بجواره فوق الدكّة ونامَت.

علّق بروجان: «على الأقل تنال فُرصة السّفر. هل تفعل شيئًا آخَر؟».

سأله شادو: «هل معك ثمانية أرباع؟»، فنقّب بروجان عن الفكّة في جيوبه، ووجدَ خمسة أرباعٍ دفعَها إلى شادو عبر المائدة، فيما أخرجَت كالي كنُيف ثلاثة أرباعٍ أخرى.

رصَّ شادو العُملات في صفّيْن من أربع، ثم دون خللٍ تقريبًا أدّى خدعة العُملات عبر المائدة، ليبدو كأنه أسقطَ نصف العُملات عبر خشب المائدة، من يده اليُسرى إلى اليُمنى.

بعد ذلك أخذَ ثمانية العُملات في يُمناه وكوب ماءٍ فارغًا في يُسراه، ثم غطّى الكوب بمنديلٍ وبدا كأنه أخفى العُملات واحدةً تلو الأخرى من يُمناه وأسقطَها برنينٍ مسموع في الكوب الزُّجاجي تحت المنديل، وأخيرًا فتحَ يُمناه ليُري أنها فارغة، ثم سحبَ المنديل ليعرض العُملات في الكوب.

أعادَ العُملات -ثلاثًا لكالي وخمسًا لبروجان- ثم أخذَ رُبع دولارٍ واحدًا من يد بروجان وتركَ أربعةً، ثم نفخَ فيه ليتحوَّل إلى بنس أعطاه لبروجان، الذي عدَّ ما معه من أرباعٍ وصعقَه أن الخمسة كلُّها ما زالَت في يده.

أطلقَ هينزلمان ضحكةً متقطِّعةً، وقال: «إن لك براعة هوديني، هكذا أنت حقًّا!».

ردَّ شادو: «مجرَّد هاوٍ. ما زالَ الطَّريق أمامي طويلًا»، ورغم ذلك شعرَ بكِسرةٍ من الفخر، وقد أدركَ أن هذا أوَّل جمهورٍ بالغ يتفرَّج على خدعه.

في الطَّريق إلى منزله توقَّف في متجر الأطعمة ليبتاع عُلبةً من الحليب. بدَت الفتاة الصَّهباء الواقفة عند ماكينة الكاشير مألوفةً. وجهها حبَّة نمشٍ واحدة كبيرة، ورأى شادو عينيها محفوفتيْن بحُمرة البُكاء.

قال شادو: «إنني أعرفكِ. أنتِ...»، وكان على وشك أن يقول: *فتاة الـ «ألكا-سلتزر»*، إلَّا أنه كبحَ نفسه وأكملَ: «أنتِ صديقة آليسن، من الحافلة. آملُ أن تكون بخير».

تنشَّقت وأومأت برأسها قائلةً: «وأنا أيضًا»، وتمخَّطت بقوَّةٍ في منديلٍ ورقي، ثم دسَّته في كُمِّها مجدَّدًا.

تقول شارتها: «*مرحبًا! أنا* **سوفي**! *اسألني* **أنا** *كيف* **يُمكنك** *أن تفقد 20 رطلًا في 30 يومًا!*».

- «قضيتُ اليوم في البحث عنها. لم يُحالِفنا الحظُّ بعدُ».

أومأت سوفي وراحت ترمش لتحبس دموعها، ثم حرّكت عُلبة الحليب أمام ماسحٍ زقزقَ لهما بالسّعر، ونقدَها شادو دولارَيْن.

وفجأةً قالت الفتاة بصوتٍ مخنوق: «سأرحلُ من هذه البلدة الحقيرة. سأذهبُ لأعيش مع أمّي في آشلاند. آليسن اختفَت، وساندي أولسن العام الماضي، وجو مينج قبله بعام. ماذا لو أنه دوري العام القادم؟».

- «حسبتُ أن ساندي أولسن أخذَه أبوه».

قالت بمرارة: «نعم، أنا واثقة بصحَّة ذلك. وجو مينج ذهبَ إلى كاليفورنيا، وسارا ليندكويست ضلَّت الطَّريق خلال تمشيةٍ طويلة ولم يجدوها. أيًّا كان، أريدُ الذّهاب إلى آشلاند».

أخذَت نفسًا عميقًا وكتمَته لحظةً، ثم ابتسمَت له. لم يرَ شادو في تلك الابتسامة رياءً. كانت مجرَّد ابتسامةٍ من واحدةٍ تعلم أن عليها الابتسام عندما تُعطي أحدًا باقي نقوده، وإذ وضعَت فكَّة شادو وإيصاله في يده تمنَّت له يومًا لطيفًا، ثم التفتَت إلى المرأة ذات عربة التَّسوُّق الملآنة الواقفة خلفه، وبدأت تُفرِغ المشتريات وتمسحها بالجهاز، فيما تقدَّم فتى لا يكبر سوفي سنًّا على مهلٍ ليُعبِّئ البقالة.

أخذَ شادو الحليب وانصرفَ بالسيَّارة مارًّا بمحطَّة الوقود والخُردة فوق الجليد، وعابرًا الجسر إلى منزله.

# المجيء إلى أمريكا
# 1778

*يخطّه النَّضيد الذي يُحاكي حروف الطِّباعة دوّن المستر آيبس:* في مرّةٍ كانت فتاة باعَها خالها.

هذه هي الحكاية من غير تطويل، والبقيَّة تفاصيل.

من القصص ما هو حقيقي، وفي تلك القصص، لحكايةِ كلِّ فردٍ تفرُّدها ومأسويّتها، وأسوأ ما في المأساة أننا سمعناها من قبل، فلا يُمكننا السَّماح لأنفسنا بالشُّعور بها شعورًا أعمق مما هو مستطاع، ومن ثمَّ نبني حولها قوقعةً كمثل محارةٍ تُجابِه حُبيبة رملٍ مؤلمةً، تُغلِّفها بطبقاتٍ لؤلؤيَّةٍ ملساء لكي تتغلَّب عليها. هكذا نمشي ونتكلَّم ونشتغل يومًا بعد يوم، عندنا مناعة ضد آلام الآخَرين وضياعهم. إذا مسَّتنا المأساة فلسوف تشلُّنا أو تجعل منا قدِّيسين، غير أنها لا تمسُّنا في الأغلب الأعم، لأننا لا نسمح لها.

بينما تأكل اللَّيلة، تدبَّر إن أمكنَ: في العالم أطفال جياع، يتضوَّرون جوعًا بأعدادٍ أكبر مما يستطيع العقل الاستيعاب، يُحصَون بالأعداد الكبيرة حيث يُمكن التَّغاضي عن خطأ في مليون هنا أو هناك. قد يُزعِجك التَّفكُّر في ذلك وقد لا يُزعِجك، لكنك ستأكل في جميع الأحوال.

من الرِّوايات ما يجرحنا جراحًا بليغةً إن فتحنا له قلوبنا. انظُر... ها هو ذا رجل صالح، صالح حسب معتقداته الشَّخصيَّة ومعتقدات أصدقائه، أي إنه وفيٌّ لزوجته ومخلص، ويهيم بأطفاله الصِّغار ويُغدِق عليهم من اهتمامه، ويهتمُّ بشؤون بلاده، ويُؤدِّي عمله بكلِّ دقَّةٍ وقدر طاقته. وهكذا، بكفاءةٍ ونفسٍ طيِّبة، يُبيد اليهود. يُقدِّر الرَّجل الموسيقى المعزوفة في الخلفيَّة لتهدئتهم، وينصح اليهود بعدم نسيان أرقام التَّعريف وهُم يَدخُلون الحمَّامات، ويُخبِرهم أن كثيرين ينسون أرقامهم فيأخذون الملابس الخطأ حينما يَخرُجون من الحمَّامات، وهو ما يُسكِّن اليهود، ويقولون لأنفسهم مُطمَئِنين إن بعد الاستحمام حياةً. وإنهم لمخطئون. يُشرِف رجلنا على فرقة الجنود التي تأخذ الجثث إلى الأفران، وإن شعرَ بشيءٍ يُثقِل عليه فهو أنه

لا يزالُ يسمح لقتل الهوام بالغاز بالتأثير في نفسه، عالمًا أنه لو كان رجلًا صالحًا حقًا لما شعرَ إلّا بالابتهاج لتطهُر الأرض من آفاتها.

دعه، فبلاغة جرحه تفوق الاحتمال. إنه قريب منا جدًا، وقُربه يُؤلم.

*في مرَّةٍ كانت فتاة باعَها خالها*. بهذه الصِّيغة يبدو الأمر في غاية البساطة.

لا رجل مثل *الجزيرة*. هكذا جاهرَ جون دَن، وكان مخطئًا. لو لم نكن مثل الجُزر لضِعنا وغرِقَ بعضنا في مآسي بعض. إننا مجزورون (وتذكَّر أن الكلمة تعني حرفيًّا *التَّحوُّل إلى جزيرة*) عن مآسي الآخَرين من خلال طبيعتنا الجزيريَّة، ومن خلال أشكال القصص وتكويناتها المتكرِّرة. نحن نعرف الشَّكل، والشَّكل لا يتبدَّل. ذات يومٍ وُلِدَ إنسان وعاش، ثم بطريقةٍ أو بأخرى ماتَ، وهذا كلُّ ما في الأمر. يُمكنك أن تملأ التَّفاصيل من تجربتك الشَّخصيَّة. حكاية غير أصليَّة كأيِّ حكايةٍ أخرى، فريدة كأيِّ حياةٍ أخرى. حيوات النَّاس مثلها مثل رُقاقات الثَّلج، متفرِّدة في تفاصيلها، تُكوِّن أنماطًا رأيناها من قبل، إلّا أنها -تمامًا مثل حبَّات البازلَّاء في قرن- ليست نُسخًا من بعضها بعضًا (وهل نظرت من قبل إلى حبَّات البازلَّاء في قرن؟ أعني أمعنت النَّظر إليها حقًّا؟ بعد دقيقةٍ من الفحص من كثب، لا فُرصة هنالك لخلطك بين واحدةٍ وأخرى).

نحن في حاجةٍ إلى القصص الفرديَّة، فـدون الأفراد لا نرى إلّا أرقامًا: مصرع ألف، مصرع مئة ألف، «قد يرتفع عدد الضَّحايا إلى مليون». مع القصص الفرديَّة تغدو الإحصاءات أناسًا... لكن حتى هذه كذبة، ذلك أن معاناة النَّاس مستمرَّة بأعدادٍ بلا معنى في حدِّ ذاتها، يستقبلها الآخَرون بإحساسٍ بليد. أمعِن النَّظر، أبصِر بطن هذا الطِّفل بتورُّمه الرَّهيب، والذُّباب الزَّاحف عند أركان عينيه، وأطرافه الضَّامرة. هل سيُخفِّف وطأة المنظر عليك أن تعرف اسمه أو سنَّه أو أحلامه أو مخاوفه؟ أن تراه من الدَّاخل؟ وإن خفَّفها، أفليس ذلك ظُلمًا لأخته المنطرحة إلى جواره في التُّراب الحارق كصورةٍ كاريكاتوريَّة مشوَّهة مضخَّمة لطفلةٍ بشريَّة؟ وإن عطفنا عليهما، فهل صارا أهمَّ عندنا الآن من ألف طفلٍ آخَر استبدَّت بهم المجاعة نفسها؟ من ألف نفسٍ صغيرة أخرى سرعان ما ستُصبِح طعامًا لأعدادٍ لا تُحصى من صِغار الذُّباب الجائعين؟

إننا نرسم حدودنا حول تلك اللحظات الأليمة، ونبقى على جُزرنا لكيلا نُمكِّنها من جرحنا، لحظاتٍ مغطّاة بطبقةٍ صدفيّة ملساء آمنة تجعلها تنخلع مثل اللآلئ من أرواحنا دون ألمٍ فعلي.

الخيال يُخوِّل لنا أن نلج تلك العقول الأخرى، تلك الأمكنة الأخرى، ونَنظر من خلال أعيُنٍ أخرى. ثم، في داخل الحكاية، نتوقّف قبل أن نموت، أو نموت ميتةً غير مباشرةٍ بلا أذى. وفي عالم ما وراء الحكاية نقلب الصّفحة أو نُغلِق الكتاب ونستأنف حياتَنا.

حياةً، كأيِّ حياةٍ أخرى، ليست كأيِّ حياةٍ أخرى.

وهي ذي الحقيقة البسيطة: في مرّةٍ كانت *فتاة باعَها خالها.*

هكذا اعتادوا القول حيث نشأت الفتاة: لا أحد يضمن من صُلب مَن يُولِد الطّفل، لكن الأمّ، آه، هذه مضمونة. الأنساب والأملاك كانت أشياء تستحوذ عليها سلسلة النّسل الأمومي، إلّا أن السُّلطة ظلّت في أيدي الرِّجال، وهو ما يعني أن للرّجل ملكيّة أولاد أخته كاملةً.

في ذلك المكان قامَت حرب، وكانت حربًا صغيرةً لم تتعدَّ مناوشةً بين رجال قريتَيْن خصيمتيْن، أقرب إلى تنابُذٍ بالألفاظ، وفي النِّهاية فازَت قرية في هذا الشِّجار اللّفظي وخسرَت قرية.

الحياة سلعةٌ، النّاس ممتلكاتٍ. لآلاف السِّنين كان الاسترقاق جزءًا من الثّقافة في تلك الأنحاء. النخّاسون العرب دمّروا آخر ممالك شرق إفريقيا العُظمى، فيما دمّرت أُمم غرب إفريقيا بعضها بعضًا.

لم يكن في بيع الخال التّوأميْن شيء غير متوقَّع أو غير معتاد -على الرغم من اعتبار التّوائم مخلوقاتٍ سحريّةً- وهذا علاوةً على خوف خالهما منهما، خوفٍ بلغَ به أن يُخفي عنهما نيّته بيعهما ليتجنّب أن يُؤذيا ظلّه ويَقتُلاه. كانا في الثّانية عشرة من العُمر، هي اسمها ووتوتو -أي طير الزّاجل- وهو أجاسو -اسم ملكٍ ميت- وكانا طفلين صحيحَي البدن، ولأنهما توأمان، ذكر وأنثى، فقد حُكيَت لهما أشياء كثيرة عن الآلهة، ولأنهما توأمان فقد أصغيا إلى ما حُكِيَ لهما، وتذكّراه.

كان خالهما رجلًا بدينًا كسولًا. لو احتكمَ على مزيدٍ من المواشي فلربما تخلّى عن إحداها بدلًا من الطّفلين، ولكن لا، وهكذا باعَ التّوأميْن. كفى كلامًا عنه، فدوره في هذه الحكاية ينتهي عند هذا الحد، ومن هنا نتبع التّوأميْن.

سيقَ الاثنان، مع عبيدٍ كُثر آخرين أُسروا أو بيعوا في الحرب، مسافة اثني عشر ميلًا إلى نُقطةٍ خارجيَّة صغيرة، وهنا بُودلا. واشترى التَّوأمَيْن وثلاثة عشر عبدًا آخَر ستَّةُ رجالٍ مسلَّحون بالحِراب والخناجر، ساقوهم غربًا في جهة البحر ثم أميالًا عديدةً بمحاذاة السَّاحل. إجمالي العبيد الآن خمسة عشر، أيديهم مقيَّدة بغير إحكام، ورقابهم مغلولة معًا.

سألت ووتوتو أخاها أجاسو عمَّا سيجري لهما.

أجابَها: «لا أدري». لطالما كان أجاسو صبيًّا بسَّامًا، تنفرج شفتاه عن ثنايا بيضاء نضيدة، فتبثُّ بسمته السَّعيدة في ووتوتو السَّعادة بدورها. أمَّا الآن فلا يبتسم أجاسو، وبدلًا من ذلك يُحاوِل إبداء الشَّجاعة من أجل أخته، مُرجعًا رأسه إلى الخلف وفاردًا كتفيه، فيبدو فخورًا، ويبدو ممهدِّدًا، ويبدو مضحكًا مثل جروٍ ينتصب الشَّعر على عُنقه وظَهره.

كان في الطَّابور وراء ووتوتو رجل ذو خدَّيْن نديبيْن قال: «سيبيعوننا للشَّياطين البِيض، الذين سيأخذوننا إلى موطنهم عبر الماء».

سألَته ووتوتو: «وماذا سيفعلون بنا هناك؟».

فلم يردَّ الرَّجل.

استحثَّته ووتوتو: «إذًا؟»، وحاولَ أجاسو أن يختلس نظرةً سريعةً من فوق كتفه، فليس مسموحًا لهم بالكلام أو الغناء وهُم سائرون.

قال الرَّجل: «محتمَل أن يأكلونا. هذا ما قيلَ لي. لهذا يحتاجون إلى أعدادٍ غفيرة من العبيد، لأنهم جائعون طوال الوقت».

أجهشَت ووتوتو بالبُكاء وهي سائرة، فقال لها أجاسو: «لا تبكي يا أختاه. لن يأكلوكِ. سأحميكِ. آلهتنا ستحميكِ».

غير أنها استمرَّت في البُكاء، تمشي بقلبٍ مثقل وتَشعُر بالألم والغضب والخوف على النَّحو الذي لا يَشعُر به سوى طفل، النَّحو الخام الغامر. عجزَت ووتوتو عن البوح لأجاسو بأن احتمال أن يأكلها الشَّياطين البِيض لا يُقلِقها. سوف تنجو، إنها موقنة بذلك. بُكاؤها مبعثه خوفها من أن يأكلوا أخاها، وهي ليست واثقةً بقُدرتها على حمايته.

وصلوا إلى محطَّةٍ تجاريَّة، وأبقوهم هناك عشرة أيام. في صباح اليوم العاشر أُخِذوا من الكوخ الذي احتُجِزوا فيه (واكتظَّ في الأيام الأخيرة مع وصول رجالٍ من بعيد، قطعَ بعضهم مئات الأميال، جالبين معهم أرتالًا

وقُطعانًا من العبيد)، وسيقوا إلى المرفأ حيث رأت ووتوتو السَّفينة التي ستحملهم إلى بعيد.

أوَّل ما خطرَ لها: يا لها من سفينةٍ كبيرة، وثاني ما خطرَ لها: إنها أصغر من أن تحتويهم جميعًا. استقرَّت السُّفينة بخفَّةٍ على سطح الماء، وتحرَّك قاربها ذهابًا وإيابًا ناقلًا الأسرى إلى متنها، حيث كبَّلهم بالأصفاد ورصَّهم على الأسطُح السُّفليَّة بحَّارةٌ لبعضهم بشرة حمراء كالقرميد أو بشرة مسمرَّة، ولهم أنوف مدبَّبة غريبة ولحى تجعلهم يُشبِهونَ الوحوش. بحَّارة كثيرون بدوا مثل قومها، مثل الرِّجال الذين ساقوها إلى السَّاحل. فُصِلَ الرِّجال والنِّساء والأطفال وحُشِروا في مناطق مختلفة على سطح العبيد، ولمَّا كان عددهم أكبر من أن تحتويه السُّفينة بسهولة، فقد قُيِّدَت دستة من الرِّجال بالسَّلاسل فوق السَّطح العُلوي المفتوح، تحت الأماكن التي يُعلِّق فيها أفراد الطَّاقم أسرَّتهم.

وُضِعَت ووتوتو مع الأطفال لا النِّساء، ولم يُقيِّدوها بل اكتفوا بحبسها، أمَّا أخوها أجاسو فقد حُشِرَ مسلسَلًا مع الرِّجال المعبَّئين مثل الزِّنجة. كانت الرَّائحة تحت السَّطح شنيعةً رغم أن الطَّاقم دعكه ونظَّفه بعد الحمولة الأخيرة، رائحةٌ تغلغلَت في الخشب، رائحة الخوف والمِرَّة والإسهال، رائحة الموت والحُمَّى والمقت. في المخزن السَّاخن جلسَت ووتوتو مع الأطفال الآخَرين شاعرةً بهم يتصبَّبون عرقًا على جانبيها. دفعَت موجة صبيًّا صغيرًا ليرتطم بها بعُنف، فاعتذرَ الصَّبي بلسانٍ لم تُميِّزه ووتوتو، وحاولَت أن تبتسم له في الظَّلام الجزئي.

أبحرَت السَّفينة، والآن تشقُّ الماء ببدنها الثَّقيل.

تساءلَت ووتوتو عن المكان الذي جاءَ منه البِيض (ولو أن أحدًا منهم ليس أبيض حقًّا، فبشرتهم داكنة سفعَها البحر ولفحَتها الشَّمس). أعندهم عجز هائل في الطَّعام لدرجة إرسالهم مَن يقطعون المسافة الشَّاسعة حتى أرضها لكي يأكلوا؟ أم إنها ستُعَدُّ من أطايب الطَّعام؟ وجبةً لذيذةً نادرةً لأناسٍ أكلوا أشياء عديدةً حتى أصبحَ اللَّحم المغلَّف ببشرةٍ سوداء في قدورهم وحده يُسيل لعابهم؟

في اليوم الثَّاني من الإبحار وقعَت السَّفينة في عاصفة. لم تكن عاصفةً سيِّئةً، لكن أسطُح السُّفينة تمايلَت وتخبَّطت، وانضمَّت رائحة القيء إلى خليط البول والبُراز السَّائل وعرق الخوف، فيما انصبَّ عليهم المطر مدرارًا من شباك التَّهوية في سقف سطح العبيد.

بعد مضي أسبوعٍ على بدء الرِّحلة، وابتعادهم تمامًا عن اليابسة، حُلَّ العبيد من قيودهم الحديديّة، وحُذِّروا من أيّ عصيانٍ أو متاعب، وإلّا نالوا عقابًا أسوأ مما تخيّلوا يومًا.

صباحًا أُطعِمَ الأسرى الفاصوليا وبسكويت السُفن، وأخذَ كلٌّ منهم شربةً من عصير اللّيمون الأخضر المزوَّد بالخلّ، الذي تلوي لذوعته قسماتهم وتجعلهم يَسعُلون ويُتَفتِفون، ويئنُّ بعضهم ويُوَلول مع صبّ كلّ شربةٍ من العصير. ولم يكن مسموحًا لهم ببصقه، فإذا ضُبِطَ أحدهم يتخلّص منه بالبصق أو الرِّيالة جُلِدَ أو ضُرِبَ.

وليلًا قُدِّمَ لهم لحم بقري مملّح مذاقه لا يسرُّ، وعلى سطحه الرّمادي لمعة بألوان قوس قزح. كان ذلك في بداية الرِّحلة، ومع استمرارها ساءَ اللّحم أكثر فأكثر.

متى استطاعا، كانت ووتوتو وأجاسو يربضان متلاصقَيْن ويتكلّمان عن أمّهما ووطنهما ورفاق اللّعب، وأحيانًا تحكي ووتوتو لأجاسو القصص التي حكَتها لهما أُمُّهما، مثل قصصها عن إلجبا،[1] أشد الآلهة مراوغةً، الذي كان عينَي ماوو العُظمى[2] وأذنيها في العالم، يأخذ إليها الرَّسائل ويعود بردودها.

في المساء، لتزجية رتابة الرِّحلة، كان البحّارة يجعلون العبيد يُغنّون لهم ويَرقُصون رقصات بلدانهم الوطنيّة.

من حُسنِ حظِّ ووتوتو أنها وُضِعَت مع الأطفال، فقد حُشِرَ هؤلاء معًا وتجاهلَهم الطّاقم، أمّا النّسوة فلم يكنّ محظوظاتٍ دائمًا مثل الأطفال. كان اغتصاب أفراد الطّاقم الإناث فعلًا متكرّرًا ومستمرًّا على بعض سُفن النّخاسة، وببساطةٍ عُدَّ علاوةً غير معلنة على الرِّحلة. على أن هذه لم تكن واحدةً من تلك السُّفن، وهو ما لا يعني بالضّرورة أن اغتصابًا لم يقع على الإطلاق.

مئة من الرِّجال والنِّساء والأطفال ماتوا خلال تلك الرِّحلة وأُلقوا في البحر من فوق حاجز السَّفينة، ومن الأسرى الذين أُلقوا مَن لم يَمُت بعدُ، لكن برودة المحيط الخضراء خفّفت حُمّاهم الأخيرة، وغاصوا في الماء متخبّطين مختنقين ضائعين.

---

(1) إلجبا: رسول ماوو وآخَرين من آلهة غرب إفريقيا. في كثيرٍ من الحكايات كان يُغوي البشر ليختبرهم. (المُترجم).

(2) ماوو: إلهة لقبائل غرب إفريقيا، تُوصَف بكونها أخت الإله ليسا التّوأم، وأنها خالقة الأرض وربّة الشّمس والقمر. (المُترجم).

كانت ووتوتو وأجاسو على متن سفينةٍ هولنديَّة، وإن لم يعلما ذلك، وبالسُّهولة نفسها كان يُمكن أن تكون السَّفينة بريطانيَّةً أو برتغاليَّةً أو إسپانيَّةً أو فرنسيَّةً.

أملى السُّود من أفراد الطَّاقم -رجال بشرتهم أشد حلكةً من بشرة ووتوتو- على الأسرى أين يذهبون وماذا يفعلون ومتى يَرقصون. ذات صباحٍ ضبطَت ووتوتو أحد الحُرَّاس السُّود يُحدِّق إليها، وبينما تأكل أتى الرَّجل وثبَّت عليها ناظريْه دون أن يقول شيئًا.

سألَته: «لماذا تفعل هذا؟ لماذا تخدم الشَّياطين البِيض؟».

ابتسمَ لها ابتسامةً واسعةً كأنَّ سؤالها أطرف شيءٍ سمعَه طوال حياته، ثم مالَ عليها حتى كادَت شفتاه تمسَّان أذنها، لتُشعِرها أنفاسه الحارَّة بغثيان مباغت، وقال لها: «لو أنكِ أكبر سنًّا لجعلتكِ تَصرُخين سعادةً بعُضوي. قد أفعلها اللَّيلة. لقد رأيتُ كم تُجيدين الرَّقص».

رمقَته بعينيها البنِّيَّتين كالجوز بجأشٍ ثابت، بل ومبتسمةً، وردَّت: «إذا وضعتَه في داخلي فسأقضمه بأسناني السُّفليَّة. إنني فتاة ساحرة، وأسناني السُّفليَّة ماضية الحدَّة». واستمتعَت ووتوتو بمرأى تعبيره يتبدَّل، ولم يردَّ الرَّجل وانصرفَ.

من فمها خرج الكلام، لكنه لم يكن كلامها، لم تُفكِّر فيه أو تختلقه، وأدركَت ووتوتو أن لا، هذا كلام إلجبا المخادع. ماوو خلقَت العالم، ثم بفضل خداع إلجبا فقدَت اهتمامها به، وإلجبا صاحب الأساليب الأريبة. والانتصاب الحديدي هو مَن تكلَّم من خلال ووتوتو، هو مَن ركبَها لحظةً، وفي تلك اللَّيلة قبل أن تنام أعربَت عن شكرها لإلجبا.

رفضَ عدد كبير من الأسرى الأكل، فجُلِدَ هؤلاء حتى وضعوا الطَّعام في أفواههم وابتلعوه، ولو أنَّ عُنف الجَلد أودى بحياة رجلين، لكن النَّتيجة أن أحدًا آخَر على ظَهر السَّفينة لم يُحاول تجويع نفسه حتى ينال الحرِّيَّة. حاولَ رجل وامرأة الانتحار بالقفز من فوق الحاجز، فنجحَت المرأة وأُنقِذَ الرَّجل ورُبِطَ بالصَّاري وخضعَ للجَلد قُرابة نهارٍ كامل، حتى تدفَّق الدَّم على ظَهره وتُرِكَ في مكانه حتى صارَ النَّهار ليلًا. لم يُعطَ الرَّجل طعامًا ولم يُعطَ ما يشربه إلَّا بوله، وبحلول اليوم الثَّالث أصبحَ يهذي مهتاجًا، وقد تورَّم رأسه وطريَ مثل ثمرة شمَّام قديمة، ولمَّا سكنَ ألقوه في البحر، وإضافةً إلى ذلك أُعيد الأسرى إلى أصفادهم وسلاسلهم طيلة أيامٍ خمسة بعد محاولة الهرب.

كانت رحلةً طويلةً شاقَّةً على الأسرى، ولم تكن مريحةً لأفراد الطَّاقم، ولو أنهم تعلَّموا أن يُقَسُّوا قلوبهم في عملهم هذا، ويتظاهَروا لأنفُسهم بأنهم ليسوا أكثر من مزارعين يأخذون بهائمهم إلى السُّوق.

ذات نهارٍ صافٍ عليل رسوا في بريدجتاون بباربادوس، ونُقِلَ الأسرى من السَّفينة إلى السَّاحل في قوارب منخفضة الجوانب مرسَلة من المرفأ، ثم أُخِذوا إلى ميدان السُّوق حيث رُصُّوا في صفوف، يحثُّهم قدر معيَّن من الزَّعيق وضربات الهراوات. نفخَ أحدهم في صفَّارة، وامتلأ ميدان السُّوق برجالٍ نخَزوهم ونكَزوهم، رجالٍ محمرّي الوجوه يصيحون ويفحصون ويُنادون ويُثمِّنون ويتبرَّمون.

عندئذٍ انفصلَت ووتوتو وأجاسو. حدث الأمر بمنتهى السُّرعة: أتى رجل كبير الحجم وفتحَ فم أجاسو عنوةً وألقى نظرةً على أسنانه وتحسَّس عضلات ذراعيه، ثم أومأ برأسه وسحبَ رجلان آخَران أجاسو بعيدًا. لم يُقاومهما أجاسو، بل نظرَ إلى ووتوتو ورفعَ عقيرته قائلًا: «تشجَّعي»، فأومأت برأسها، ثم غشَّت العبرات عينيها وشوَّشت بصرها، وشرعَت ووتوتو تُوَلوِل. معًا كانا توأمَيْن، سحريَّيْن، قويَّيْن، وبعد الفراق صارا طفلَيْن يتألَّمان.

لم ترَه ثانيةً إلَّا مرَّةً، ولم تكن في الدُّنيا.

إليك ما جرى لأجاسو. أوَّلًا أخذوه إلى مزرعة أقلمة،[1] حيث جلدوه يوميًا عقابًا على ما فعلَه وما لم يفعله، ولقَّنوه نُتَفًا من الإنجليزيَّة، ودعوه بچاك المحبَّر لدُكنة بشرته. عندما هربَ طارَدوه بالكلاب وأعادوه وقطعوا إصبعًا من قدمه بإزميل، ليُعلِّموه درسًا لا يُنسى. كان ليُجوِّع نفسه حتى الموت، لكن حين رفضَ الأكل كسروا أسنانه الأماميَّة وأقحَموا العصيدة المائعة في فمه حتى اقتصرَت خياراته على الابتلاع أو الاختناق.

حتى في تلك الأوقات كانوا يُفضِّلون العبيد المولودين في الأسر على المجلوبين من إفريقيا، فالعبيد المولودون أحرارًا يُحاوِلون الفرار، أو يُحاوِلون الموت، وفي كلتا الحالتين تضيع الأرباح.

(1) مزارع الأقلمة: أماكن أقامَها تُجَّار العبيد ومُلَّاكهم من أجل تعويد العبيد الواصلين من إفريقيا على الحياة في أمريكا، من حيث المناخ والأطعمة والبيئة والجغرافيا. علاوةً على تلقينهم القليل من الإنجليزيَّة. (المُترجم).

في سنِّ السَّادسة عشرة بيعَ چاك المحبَّر مع عددٍ كبير من العبيد لمزرعة سكَّر في سان دومانج، وأطلقوا عليه اسم هياسنث،[lxxxviii] أي العبد الكبير صاحب الأسنان المكسورة. في تلك المزرعة قابلَ عجوزًا من قريته -كانت أمة منزلٍ قبل أن تتغضَّن أصابعها وتلتهب مفاصلها- أخبرَته أن البِيض يتعمَّدون فصل الأسرى القادمين من القُرى أو البلدات أو الأقاليم أنفُسها ليتحاشوا العصيان والتَّمرُّد، ولا يحبُّون أن يتبادَل العبيد الكلام بلُغاتهم الأصليَّة.

تعلَّم هياسنث القليل من الفرنسيَّة، ولُقِّنَ بعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة، وقضى كلَّ يومٍ في قطع قصب السُّكَّر من قبل شروق الشَّمس بساعاتٍ إلى ما بعد غروبها.

أنجبَ هياسنث أطفالًا عدَّةً، وتعوَّد الذَّهاب مع العبيد الآخَرين في سُويعات ما بعد انتصاف اللَّيل إلى الغابة -رغم أن ذلك محظور- ليَرقُص الكاليندا ويُغنِّي لدامبالا-ودو،(1) الإله الأفعوان الذي يتَّخذ هيئة ثُعبانٍ أسود، ولإلجبا وأوجو(2) وشانجو(3) وزاكا(4) وكثيرين غيرهم، جميع الآلهة التي جلبَها العبيد معهم إلى الجزيرة، جلبوها في عقولهم وفي مكنون القلوب.

نادرًا ما عاشَ عبيد مزارع السُّكَّر في سان دامينج زمنًا أطول من عقد. ما مُنِحوه من وقت فراغ -ساعتان في قيظ الظَّهيرة وخمس ساعاتٍ في ظُلمة اللَّيل (من الحادية عشرة إلى الرَّابعة)- كان أيضًا الوقت الوحيد المتاح لهم لزراعة الطَّعام الذي يأكلونه ورعايته (لأنّ أسيادهم لا يُطعِمونهم، بل يكتفون بإعطائهم قطعًا صغيرةً من الأرض ليحرثوها ويُطعِموا منها أنفُسهم)، والوقت الذي ينامون فيه ويَحلُمون. ومع ذلك استغلُّوا وقتهم هذا في التَّجمُّع والرَّقص والغناء والتَّعبُّد. تُربة سان دامينج خصبة، وقد غرسَ آلهة داهومي والكونجو والنيجر فيها جذورًا غليظةً، ونموا وارفين ضخامًا واغلين، وبشَّروا بالحرِّيَّة مَن يَعبُدونهم ليلًا في الأيك.

---

(1) دامبالا-ودو: إله هايتي وراعٍ للأمطار والأنهار والغُدران. غالبًا جلبَه عبيد قبائل اليوروبا الإفريقيَّة معهم. (المُترجم).

(2) أوجو أو أوجن: إله إفريقي للحرب والحدادة. يُقال إنه وُلِدَ من بُركان. (المُترجم).

(3) شانجو: إله آخَر لقبائل اليوروبا، وهو إله للرَّعد والبرق والحرب والعدالة. يُقال إنه أخو أوجو. (المُترجم).

(4) زاكا أو أزاكا: إله للزِّراعة والحصاد. (المُترجم).

كان هياسنث في الخامسة والعشرين من العُمر حين لدغته عنكبوت في ظَهر يده اليُمنى. تلوَّثت اللَّدغة وتنخَّر لحم ظَهر يده، وسرعان ما تورَّمت ذراعه كلُّها وصارَ لونها أرجوانيًا، وفاحَت من اليد رائحة كريهة يُصاحِبها نبض الألم والحريق.

سقوه الرَّم الخام، وسخَّنوا نصل منجلٍ في النَّار حتى التهبَ وتوهَّج، وقطعوا ذراعه من عند الكتف بمنشار، ثم كووا الجرح بالنَّصل الحارق. ظلَّ هياسنث محمومًا طريح الفِراش أسبوعًا، ثم عادَ إلى العمل.

شاركَ العبد ذو الذِّراع الواحدة المسمَّى هياسنث في ثورة العبيد في عام 1791.

قُتِلَ خنزير، وشربَ رجال تلك المزرعة ونساؤها دمه ناذرين أنفُسهم للأخويَّة وموثقين أنفُسهم بها. أقسَموا إنهم جيش حرِّيَّة، ومرَّةً أخرى تعهَّدوا بأنفُسهم لآلهة جميع الأراضي التي جُرُّوا منها مستلَبين.

ولبعضهم بعضًا قالوا: «إن متنا في المعركة مع البِيض فسنُولَد من جديدٍ في إفريقيا، في بلداننا وقبائلنا».

ضمَّت الانتفاضة هياسنث آخَر، وهكذا أطلَقوا على أجاسو لقب صاحب الذِّراع الواحدة الكبير، وقاتلَ الرَّجل وتعبَّد وضحَّى وخطَّط، وشهدَ مقتل أصدقائه وحبيباته، وواصلَ القتال.

قاتلوا اثني عشر عامًا، خائضين صراعًا داميًا يُثير الجنون مع مُلَّاك المزارع والجنود الذين جيءَ بهم من فرنسا. قاتلوا، ودأبوا على القتال، وفي وجه المستحيل انتصَروا.

في الأوَّل من يناير عام 1804 أُعلِنَ استقلال سان دامينج، التي سيعرفها العالم قريبًا بجمهوريَّة هايتي، إلَّا أن صاحب الذِّراع الواحدة الكبير لم يعِش ليشهد هذا، إذ ماتَ في أغسطس عام 1802 بطعنةٍ من سُنكي بندقيَّة جُندي فرنسي.

في اللَّحظة ذاتها التي ماتَ فيها صاحب الذِّراع الواحدة الكبير (الذي سُمِّيَ من قبل هياسنث، وقبل ذلك چاك المحبَّر، وإلى الأبد ظلَّ في جَنانه أجاسو)، أحسَّت أخته (التي عُرِفَت قبلًا باسم ووتوتو، وسُمِّيَت ماري في مزرعتها الأولى في الكارولاينتيْن، ودايزي لمَّا أصبحَت أمة منزل، وسوكي عندما بيعَت لآل لاڤيري على النَّهر في نيو أورلينز) بالسُّنكي البارد ينغرس بين ضلوعها، وتفجَّر منها صُراخ ونُواح بلا رادع، حتى استيقظَت ابنتاها التَّوأمتان منفجرتيْن في العويل. كانت البنتان بلون الكِريمة والقهوة. هاتان

صغيرتاها الجديدتان، ليستا مثل الطِّفلَيْن الأسوديْن اللذين ولدَتهما وقت أن كانت في المزرعة وهي نفسها أكبر قليلًا من طفلة، طفلين لم ترَهما منذ بلغا الخامسة عشرة والعاشرة. أمّا الفتاة الوُسطى فماتَت قبل عامٍ عندما أخذوها منهم وباعوها.

مرارًا جُلِدَت سوكي منذ نزلَت على اليابسة، في إحداها فُرِكَت جروحها بالملح، وفي أخرى طالَ انهيال الكُرباج عليها لدرجة أنها لم تَعُد تستطيع الجلوس أو تدع شيئًا يلمس ظَهرها أيامًا طويلةً. واغتُصِبَت مرارًا لمّا كانت أصغر. اغتصبَها رجال سُود أُمِروا بمقاسمتها لوح نومها الخشبي، ورجال بيض. وقُيِّدَت بالسَّلاسل أيضًا. بيد أنها لم تبكِ خلال كلّ هذا، فمنذ أخذوا أخاها منها بكَت مرّةً واحدةً. كان ذلك في كارولاينا الشّماليّة، عندما رأت طعام العبيد والكلاب يُصَبُّ في معلفٍ واحد، وشهدَت أطفالها يُزاحِمون الكلاب على الفُتات. رأت هذا ذات يوم، وسبقَ أن رأته كلَّ يومٍ في تلك المزرعة، وستراه مرارًا قبل أن تُغادِر... لكنها في ذلك اليوم الواحد رأته وفطرَ قلبها.

ظلّت جميلةً فترةً، ثم أضنَتها سنون الألم ولم تَعُد جميلةً. تغضّن وجهها، وحملَت هاتان العينان البنّيّتان أوجاعًا جمّةً.

قبل أحد عشر عامًا، وهي في الخامسة والعشرين، ضمرَتِ ذراعها اليُمنى. لم يفهم أحد من البيض لِمَ حدثَ هذا. بدا كأنّ اللّحم ذابَ عن العظم، وتدلّت ذراعها اليُمنى إلى جانبها، لا تتعدّى هيكل ذراعٍ مغطًّى بالجلد، وتكاد لا تتحرَّك. بعد ذلك صارَت أَمة منزل.

أعجبَ آل كاسترسن -مُلّاك المزرعة- طهوُها ومهاراتها المنزليّة، غير أن المسز كاسترسن وجدَت منظر ذراعها الضّامرة مزعجًا، وهكذا بيعَت لآل لافيري الذين أتوا من لويزيانا في زيارةٍ مُدّتها عام. كان المستر لافيري رجلًا بدينًا بشوشًا، احتاجَ إلى طاهية وخادمةٍ تُمارِس أعمال المنزل كافّةً، ولم يجد منظر ذراع الأَمة دايزي الضّامرة منفّرًا على الإطلاق. وبعد عامٍ عندما عادوا إلى لويزيانا آخذَ آل لافيري الأَمة سوكي معهم.

في نيو أورلينز أتَتها النّساء، والرّجال أيضًا، لشراء الأدوية وتمائم الحُبّ والفتيشات[1] الصّغيرة. قوم سُود، نعم، بالطّبع، وقوم بِيض أيضًا. غضّ آل

(1) الفتيشيّة: الإيمان باحتواء الأشياء الماديّة على قُوى خارقة للطّبيعة، ويرجع منشأنها على الأرجح إلى غرب إفريقيا. (المُترجم).

لاڤيري الطَّرف عن الأمر. ولعلَّهم استمتعوا بوجاهة أن تحظى واحدةٌ من رفيقهم بخوف النَّاس واحترامهم. وعلى الرغم من ذلك أبوا أن يبيعوها حرِّيَّتها.

واظبَت سوكي على خوض مياه البايو[1] في ساعةٍ متأخِّرة من اللَّيل. ورقصَت الكاليندا والبامبولا، ومثل راقصي سان دامينج وراقصي أرضها الأمّ، اتَّخذ راقصو البايو ثُعبانًا أسود ڤودُن[2] لهم. ومع أن آلهة موطننا وآلهة الأمم الإفريقيَّة الأخرى لم تتلبَّس قومها مثلما تلبَّست أخاها وأهل سان دامينج. ظلَّت سوكي تتضرَّع إليها وتُناديها وتسألها المِنَن.

أصغَت سوكي إذا تحدَّث البِيض عن الثَّورة في سان دامينج (كما أطلقوا عليها) مؤكِّدين أن مصيرها الفشل -«فكِّر في الأمر! أرض من آكلي لحم البشر!»- ثم لاحظَت أنهم لم يعودوا يَذكُرونها.

وسرعان ما بدا لها أنهم يتظاهَرون بأن مكانًا اسمه سان دامينج لم يُوجَد قَطُّ. أمَّا كلمة هايتي فلم ينبس بها أحد. كأن الشَّعب الأمريكي بأكمله قرَّر أن باستطاعته، بمجرَّد جهد الإيمان، أن يأمر جزيرةً لا بأس بحجمها في البحر الكاريبي بالكفِّ عن الوجود بمجرَّد مشيئته ذلك.

ترعرعَ جيل من أطفال آل لاڤيري تحت عين سوكي اليقظة. لم يستطِع أصغرهم أن ينطق «سوكي» في صِغره، فسمَّاها ماما زوزو، والتصقَ بها الاسم. إنه العام 1821 الآن، وسوكي في منتصَف الخمسينيَّات، لكنها تبدو أكبر كثيرًا.

عرفَت سوكي أسرارًا أكثر من سانيتيه ديدي التي تبيع الحلوى خارج مبنى الكابيلدو، وأكثر من ماري سالوپه التي تدعو نفسها بملكة الڤودو. كلتاهما امرأة ملوَّنة حُرَّة، في حين أن ماما زوزو أَمة، وستموت أَمةً، أو هكذا قال سيِّدها.

---

(1) البايو: مصطلح إنجليزي فرنسي يُستخدَم في جنوب الولايات المتَّحدة للدَّلالة على المنخفضات المائيَّة في المناطق المسطَّحة، أو على المستنقعات. يُعتقَد أن أصل الكلمة يعود إلى قبائل التشوكتو التي كانت تَسكُن المنطقة التي أصبحَت ولاية لويزيانا. (المُترجم).

(2) في هذا السِّياق، تعني ڤودُن الأرواح المقدَّسة والعناصر التي يتكوَّن منها لُب النِّظام الإيماني، الذي يتَّخذ هنا فتيش الثُّعبان. (المُترجم).

المرأة التي أتتها لتعرف ماذا دهى زوجها لقّبت نفسها بالأرملة پاريس، شابّة شامخة النّهدين معتدّة بنفسها، في عروقها دماء إفريقيّة وأوربيّة وهنديّة، ولها بشرة محمرّة وشعر أسود لامع وعينان سوداوان متغطرستان. قد يكون زوجها چاك پاريس ميتًا، وكما تُحسَب هذه الأشياء فهو ثلاثة أرباع أبيض، وابن غير شرعي لعائلةٍ عزيزة ذلّت، أحد المهاجرين الكِثار الذين هربوا من سان دامينج، ومولود حُرًّا كزوجته الشّابّة الفاتنة.

سألتها: «زوجي چاك، أهو ميت؟». تعمل الأرملة پاريس مزيِّنةً، تذهب من منزلٍ إلى منزلٍ لتصفيف شعر سيّدات نيو أورلينز الأنيقات قبل ارتباطاتهن الاجتماعيّة المتطلّبة.

استشارَت ماما زوزو العظام، ثم هزّت رأسها قائلةً: «إنه مع امرأةٍ بيضاء في مكانٍ ما شمال المدينة، امرأة بيضاء ذات شعرٍ ذهبي. إنه حي». ليس هذا سحرًا، بل معلومة شائعة في نيو أورلينز عمَّن هربَ چاك پاريس معها تحديدًا ولون شعرها.

أدهشَ ماما زوزو إدراكها أن الأرملة پاريس لا تعلم حقًّا أن چاك يضع بُلبله الصّغير رُبع الأسود في فتاةٍ ورديّة البشرة من كولفاكس كلَّ ليلة، أو على الأقل في اللّيالي التي لا يسكر فيها لدرجة ألا يستطيع استخدامه في شيءٍ أفضل من التّبوُّل. ربما تعلم، وربما لمجيئها ذريعة أخرى.

أتَت الأرملة پاريس لترى الأَمة العجوز مرّةً أو مرّتين في الأسبوع، وبعد شهرٍ بدأت تجلب للعجوز هدايا؛ شرائط شعر، وكعكة بذور، وديكًا أسود.

وقالت الفتاة: «ماما زوزو، آن الأوان لتُعلّميني ما تعرفينه».

قالت ماما زوزو التي تعرف من أين تُؤكَل الكتف: «نعم». ثم إن الأرملة پاريس اعترفَت بأنها مولودة بأصابع قدمين وَتراء، وهو ما يعني أنها قتلَت توأمها في الرّحم، فأيُّ خيارٍ إذًا تملك ماما زوزو؟

علَّمت الفتاة أن علاج لغط القلب حبّتان من جوز الطّيب، تُعلَّقان في خيطٍ حول العُنق حتى ينقطِع الخيط، أمّا الخلاص من الحُمَّى فبحمامةٍ لم تَطِر قَطُّ، تُشَقُّ وتُوضَع على رأس المريض، وأرَتها كيف تصنع كيس أمنيات، وهو كيس جلدي صغير يحوي ثلاثة عشر بنسًا وتسع بذور قُطن وشعر كلبٍ أسود يابس، وكيف تَفرُك الكيس لتتحقّق الأماني.

تعلَّمت الأرملة باريس كلَّ ما لقَّنته لها ماما زوزو. وإن لم تهتمَّ اهتمامًا حقيقيًا بالآلهة، وانصبَّت اهتماماتها على التَّطبيقات العمليَّة. أبهجَها تعلُّمها أن بغمسِ ضفدعةٍ حيَّة في العسل ووضعها في عُشِّ نملٍ، ثم الانتظار حتى يَنظُف عظمها الأبيض تمامًا من اللَّحم، سيُفصح الفحص الدَّقيق عن عظمةٍ مسطَّحة بشكل القلب، وعظمةٍ أخرى عليها خُطَّاف. العظمة ذات الخُطَّاف لا بُدَّ أن تُثبَّت بملابس الشَّخص الذي تتمنَّى أن يُحبَّك، في حين يجب أن تُحفظ العظمة ذات شكل القلب بأمان (فإذا ضاعت فسينقلب عليك مَن تحبُّ مثل كلبٍ غاضب). وسيلة ناجعة مضمونة لتجعل مَن تحبُّ لك.

وتعلَّمت أنه إذا وُضِعَ مسحوق الثَّعابين المجفَّفة في مسحوق وجه عدوَّةٍ فسيُسبِّب العمى، وأن جعلَ عدوَّةٍ تُغرِق نفسها ممكن إذا أخذَت ثوبها الدَّاخلي وقلبَته ودفنَته تحت قطعة قرميد في منتصَف اللَّيل.

أرَت ماما زوزو الأرملة باريس جذر أعجوبة العالم، وجذور جون الفازي الكبيرة والصَّغيرة، وأرَتها دم التنِّين والنَّاردين وعُشبة الخمس أصابع، وأرَتها كيف تعدُّ شايًا للهزال، وماءً يجعل الرِّجال يتبعونكِ، وماء «ڤاير-شينجو» الذي يجعل المرء يغيب في النَّوم.

كلُّ هذه الأشياء وأكثر أرَته للأرملة باريس، ومع ذلك أصابَت العجوز خيبةُ الأمل. لم تألُ ماما زوزو جهدًا في تعليمها الحقائق الخفيَّة، المعارف العميقة، في إخبارها عن إلجبا وماوو وأفعى القودُن آيدو-هويدو وسائر الآلهة، إلَّا أن الأرملة باريس (سأخبرك الآن بالاسم الذي وُلِدَت به والاسم الذي اشتهرَت به لاحقًا: ماري لاڤو، لكن هذه ليست ماري لاڤو العظيمة التي سمعتَ بها، بل أمُّها التي أصبحَت في النِّهاية الأرملة جلاپيون) لم تكترث لآلهة الأرض البعيدة. إن كانت سان دامينج تُربةً سوداء خصبةً تنمو فيها آلهة إفريقيا، فهذه الأرض -بذُرتها وشمَّامها، بإربيانها وقُطنها- جدباء قاحلة.

- «لا تُريد أن تعرف». قالتها ماما زوزو شاكيةً لكاتمة أسرارها كلِمانتين، التي تتولَّى غسيل عددٍ كبير من المنازل في هذا القطاع، فتغسل السَّتائر وأغطيَّة الأسرَّة. على عُنق كلِمانتين زهرة من الحروق، وحُرِقَ أحد أطفالها بالماء المغلي حتى الموت عندما انقلبَت عليه قدر نُحاسيَّة.

تقول كلِمانتين: «لا تُعلِّميها إذًا».

- «إنني أعلِّمها، لكنها لا ترى ما له قيمة. كلُّ ما تراه هو ما يُمكنها فعله به. أعطيها ماسًا لكنها لا تعبأ إلَّا بالزُّجاج المزخرَف. أعطيها نصف قنينةِ

من أجود نبيذ كلاريه وتشرب ماء النهر. أعطيها سُمّانًا ولا ترغب إلا في أكل الجرذان».

فتسأل كلمانتين: «لِمَ تُصرّين إذًا؟».

وتهزّ ماما زوزو كتفيها النّحيلتين، لتهتزّ معهما ذراعها الذّابلة.

لا تستطيع الجواب. بإمكانها أن تقول إنها تعلّم لأنها ممتنّة لكونها حيّة، وهي كذلك، فقد شهدَت موت كثيرين. وبإمكانها أن تقول إنها تحلُم بأن يثور العبيد يومًا كما ثاروا (وهُزِموا) في لابلاس، وإن علمَت في قلبها أنهم دون آلهة إفريقيا لن يغلبوا آسريهم أبدًا، لن يعودوا إلى أوطانهم أبدًا.

عندما استيقظَت في تلك اللّيلة اللّيلاء قبل عشرين عامًا تقريبًا، وأحسَّت بالفولاذ البارد بين ضلوعها، انتهَت حياة ماما زوزو، والآن هي شخص لا يحيا، بل يكره فحسب. لو سألتها عن الكراهية لما أمكنَها أن تحكي لك عن فتاةٍ في الثّانية عشرة من العُمر على متن سفينةٍ كريهة الرّائحة، إذ كسَت ذلك الجرح قشرةٌ في عقلها من فرط ما جُلِدَت وضُرِبَت، من فرط اللّيالي التي قضَتها في الأصفاد، من فرط الفراق، من فرط الألم. على أنها كانت لتحكي لك عن ابنها الذي بُتِرَ إبهامه لمّا اكتشفَ سيّده أن الصّبي يقرأ ويَكتُب، وتحكي لك عن ابنةٍ في الثّانية عشرة وحُبلى في الشّهر الثّامن من أحد المشرفين، وكيف حفروا حُفرةً في التّربة الحمراء لتستطيع ابنتها النّوم على بطنها الحامل، ثم جلدوها حتى نزفَ ظَهرها، وعلى الرغم من الحُفرة المحفورة بعنايةٍ فقدَت الفتاة الجنين وحياتها في صباح أحدٍ في أثناء وجود القوم البِيض جميعًا في الكنيسة...

الألم عامرٌ.

في البايو، بعد ساعةٍ من انتصاف اللّيل، قالت ماما زوزو للأرملة پاريس الشّابّة: «تعبّدي إليهم». كانت كلتاهما عاريةً حتى الخصر، وتتصبّب عرقًا في رطوبة اللّيل، وقد أبرز نور القمر بشرتيهما.

كان چاك، زوج الأرملة پاريس (الذي سيحمل موته بعد سنواتٍ ثلاث عدّة معالم لافتة للنّظر)، قد أخبرَ ماري بالقليل عن آلهة سان دامينج، لكنها لم تهتمّ. القوّة تُستمَدُّ من الطّقوس لا الآلهة.

معًا ترنّمت ماما زوزو والأرملة پاريس في مياه المستنقع ودبدبَتا وندبَتا. كانتا تتغنّيان باسم الثّعابين السّوداء، الملوّنة الحُرّة والأمة ذات الذّراع الضّامرة.

قالت ماما زوزو: «في الأمر أكثر من مجرّد اقتران وهن أعدائكِ بازدهاركِ».

غابَ كثير من كلمات المراسم، كلماتٍ عرفتها قبلًا وعرفها أخوها أيضًا، عن ذاكرتها، لكنها أخبرَت ماري لافو الحسناء بأن الكلمات لا تهمُّ، بل الأنغام والدقّات وحدها، وهناك، بينما تُغنّي وتدقّ تكريمًا للثّعابين السّوداء في المستنقع، ترى ماما زوزو رؤيا غريبةً، ترى دقّات الأغاني، دقّة الكاليندا ودقّة البامبولا وجميع إيقاعات إفريقيا الاستوائيّة، تنتشر أمامها بتؤدةٍ في أنحاء أرض منتصَف اللّيل هذي، حتى ترتجف البلاد كلّها وتتأرجح على إيقاعات الآلهة القديمة التي غادرَت ماما زوزو ملكوتها. وحتى ذلك، كما فهمَت بوسيلةٍ ما هناك في المستنقع، حتى ذلك لن يكفي.

تلتفت إلى ماري الحسناء وترى نفسها في عينَيها، عجوزًا سوداء البشرة، وجهها متغضّن، وذراعها الضّاوية متدلّية مرتخية إلى جانبها، لها عينا امرأةٍ شاهدَت أطفالها يُقاتِلون الكلاب على طعام المعلف. رأت نفسها، وفي تلك اللّحظة علمَت للمرّة الأولى قدر ما تكنّه لها المرأة الأصغر سنًّا من نفورٍ وخوف.

ثم ضحكَت وأقعَت، وبيدها السّليمة التقطَت ثُعبانًا أسود طويلًا كشتلة شجرةٍ سميكًا كحبل سفينة، وقالت: «هنا، هنا سيكون لنا ڤودُن»، وأسقطَت الثّعبان الذي لم يُقاوِمها في السلّة التي تحملها ماري الصّفراء.

وفي نور القمر تلبّسها الإدراك الفائق للحسّ مرّةً أخيرةً، ورأت شقيقها أجاسو، ليس الصّبي ذا الاثني عشر عامًا الذي رأته آخِر مرّةٍ في سوق بريدچتاون قبل زمنٍ طويل، بل رجل أصلع ضخم الجثّة يبتسم ابتسامةً واسعةً تكشف عن أسنانٍ مكسورة، وعلى ظهره تتقاطَع ندوب عميقة، بيُسراه يحمل منجلًا، أمّا ذراعه اليمنى فبالكاد جذعة.

ومدّت ماما زوزو يدها اليُسرى السّليمة.

وهمسَت: «ابقَ، ابقَ قليلًا. إنني آتية، سأكونُ معك قريبًا».

وظنّت ماري پاريس أن العجوز تُكلّمها هي.

# الفصل الثّاني عشر

*استثمرت أمريكا دينها، علاوةً على أخلاقيّاتها، في أسهمٍ تدرُّ دخلًا طويل الأمد، وتبنّت موقفًا لا تتزحزح عنه لأمّةٍ ميمونة لأنها تستحقُّ أن تكون ميمونة، وأولادها -أيًّا كانت الأنظمة اللّاهوتيّة الأخرى التي يدّعون الانتماء إليها أو يستخفُّون بها- يكتتبون بلا تحفُّظٍ في هذا المذهب القومي.*

- آجنس ربلير، **أوقات ونزعات**

انطلقَ شادو بالسيّارة غربًا عبر ويسكونسن ومنيسوتا داخلًا داكوتا الشّماليّة، حيث تبدو التّلال المكسوّة بالثّلوج كجواميس عملاقة نائمة، ولم يرَ هو والأربعاء إلّا الكثير من اللا شيء ميلًا بعد ميل. ثم انعطفا جنوبًا ليَدخُلا داكوتا الجنوبيّة، متّجهيْن إلى أراضي المحميّات الهنديّة.

كان الأربعاء قد بادلَ الـ «لينكن» الفارهة، التي طابَت لشادو قيادتها، بمركبة «وِنابيجو» عتيقة ثقيلة الحركة، تنتشر فيها، من بين روائح أخرى، رائحة نفّاذة لا مجال للخطأ فيها لقطٍّ ذَكر، ولا يستمتع شادو بقيادتها على الإطلاق.

لدى مرورهما بأوّل لافتةٍ تُشير إلى جبل رشمور، الذي لم يزَل يَبعُد عدّة مئاتٍ من الأميال، أطلقَ الأربعاء نخيرًا، وقال: «إنما هذا مكان مقدّس حقًّا».

قال شادو الذي حسبه نائمًا: «أعرفُ أنه كان مقدسًا عند الهنود في ما مضى».

- «إنه مكان مقدس. هذه هي الطَّريقة الأمريكيَّة؛ يجب أن يُعطوا النَّاس حُجَّةً لكي يأتوا ويتعبَّدوا. هذه الأيام لا يُمكن أن يذهب النَّاس لمجرَّد أن يروا جبلًا، ومن ثمَّ وجوه المستر جتزُن بورجلم[1] الرِّئاسيَّة الهائلة. ما إن نُحِتَت حتى أُعطِيَ الإذن، والآن يجيء النَّاس أفواجًا ليروا رأي العين شيئًا رأوه من قبل على ألف بطاقةٍ بريديَّة».

- «قديمًا عرفتُ رجلًا يرفع الأثقال في «مزرعة العضلات»، قال إن شُبَّان هنود داكوتا يتسلَّقون الجبل، ثم يتحدُّون الموت بسلاسل بشريَّة فوق الرُّؤوس، لمجرَّد أن يتبوَّل مَن في طرف السِّلسلة على رأس الرَّئيس».

كركرَ الأربعاء، وقال: «أوه، رائع! رائع جدًّا! أهناك رئيس معيَّن تستهدِفه حفيظتهم؟».

هزَّ شادو كتفيه مجيبًا: «لم يقل».

انطوَت الأميال تحت عجلات الـ «وِنابيجو»، وبدأ شادو يتخيَّل أنه ثابتٌ في مكانه فيما تمرُّ بهما مناظر الطَّبيعة الأمريكيَّة بسرعةٍ مستقرَّة على سبعة وستِّين ميلًا في السَّاعة، وقد غيَّم ضباب شتوي حواف الأشياء.

انتصفَ نهار اليوم الثَّاني من الرِّحلة على الطَّريق، وأوشَكا على الوصول. قال شادو الذي كان يُفكِّر: «في ليكسايد فتاة اختفَت الأسبوع الماضي لمَّا كنا في سان فرانسيسكو».

بالكاد بدا الأربعاء مهتمًّا إذ قال: «ممم؟».

- «طفلة اسمها أليسن مكجڤرن. ليست أوَّل طفلةٍ تختفي هناك. حدثَ هذا من قبل مع آخَرين. يذهبون في وقت الشِّتاء».

زوَى الأربعاء ما بين حاجبيه قائلًا: «إنها لمأساة، أليس كذلك؟ الوجوه الصَّغيرة على عُلب الحليب -ولو أني لا أذكرُ آخِر مرَّة رأيتُ طفلًا على عُلبة حليبٍ- وعلى جُدران استراحات الطُّرق السَّريعة، تسأل: *هل رأيتني؟* سؤال وُجودي للغاية في أفضل الأحوال. *هل رأيتني؟* خُذ المخرج التَّالي».

---

(1) جتزُن بورجلم: نحَّات من أصل دانمركي، وصاحب تصميم الوجوه الرِّئاسيَّة -چورج واشنطن، وتوماس چفرسن، وثيودور روزڤلت، وإبراهام لينكن- على جبل رشمور. (المُترجم).

خُيِّل إلى شادو أنه سمع مروحيَّةً تمرُّ بالأعلى، لكن السُّحب أكثر انخفاضًا من أن يرى شيئًا.

سألَ شادو: «لماذا اخترت ليكسايد؟».

- «لقد أخبرتك. إنها مكان هادئ لطيف تختبئ فيه. أنت خارج النِّطاق هناك، لا تجذب انتباه أحد».

كرَّر شادو ضاغطًا على الكلمة: «لماذا؟».

- «لأنه الأمر الواقع. والآن انعطف يسارًا».

فانعطفَ شادو يسارًا.

قال الأربعاء: «شيء ما خطأ. تبًّا! يا للمصيبة السَّوداء! أبطئ السُّرعة لكن لا تتوقَّف».

- «هل ترغيب في التَّوضيح؟».

- «متاعب. هل تعرف أيَّ طُرقٍ بديلة؟».

أجابَ شادو: «لا. هذه أوَّل مرَّةٍ لي في داكوتا الجنوبيَّة، كما أني لا أعرفُ وجهتنا».

على الجانب الآخَر من المرتفَع ومضَ شيء ما بحُمرةٍ يُلطِّخها الضَّباب.

قال الأربعاء: «متراس على الطَّريق»، ودسَّ يده عميقًا في أحد جيوب بدلته، ثم في آخَر باحثًا عن شيءٍ ما.

- «يُمكنني أن أتوقَّف وأدور. لو أن معنا جيب لخرجت عن الطَّريق، لكن هذه الـ «وِنابيجو» ستنقلِب إذا حاولتُ قيادتها فوق هذا الخندق».

- «لا يُمكننا الدَّوران. إنهم خلفنا أيضًا. اخفض سرعتك إلى عشرة أو خمسة عشر ميلًا في السَّاعة».

نظرَ شادو في المرآة ليرى أضواء سيَّاراتٍ تَبعُد أقل من ميلٍ خلفهما، فسألَ: «أأنت واثق؟».

أطلقَ الأربعاء شخيرًا، وقال: «كثقتي بأن البيض هو البيض، كما قال مُربِّي الدُّيوك الرومي عندما فقسَ بيض سُلحفاته الأولى. آه، نجحت!»، ومن قاع جيبه أخرجَ قطعةً صغيرةً من الطَّباشير الأبيض.

شرعَ الأربعاء يُشخبِط بالطَّبشورة البيضاء على لوحة عدَّادات مركبة التَّخييم، يضع علاماتٍ كأنه يحلُّ مسألة جبرٍ معقَّدة، أو ربما -خطرَ لشادو-

كأنه متشرِّد يخطُّ رسائل طويلةً للمتشرِّدين الآخَرين بشفرة المتشرِّدين:" *كلب شرس هنا، بلدة خطرة، نساء لطيفات، حبس فيه مراتب ليِّنة لقضاء اللَّيل*...

قال الأربعاء: «حسن، ارفع سرعتك إلى ثلاثين، ولا تخفضها عن ذلك».

شغَّلت إحدى السيَّارات خلفهما أضواءها العُلويَّة وسرينتها وحثَّت الحركة صوبهما، فكرَّر الأربعاء: «لا تخفض السُّرعة. إنهم يُريدوننا أن نخفضها قبل أن نصل إلى المتراس». شخبطة. شخبطة. شخبطة.

بلغا قمَّة المرتفَع، وأصبحَ المتراس يَبعُد أقل من رُبع ميل. على قارعة الطَّريق ترتصُّ اثنتا عشرة سيَّارةً، وعلى جانبه سيَّارات شُرطة وعدَّة عربات SUV سوداء كبيرة.

قال الأربعاء: «عظيم»، ووضعَ طبشورته في جيبه. الآن تُغطِّي لوحة عدَّادات الـ «ونابيجو» شخبطة شبيهة بالأحرُف الرونيَّة.

صارَت السيَّارة مُطلقة السَّرينة خلفهما مباشرةً وقد أبطأت سرعتها لتُجاري سرعتهما، وأتى منها صوت مضخَّم يزعق: «توقَّف!».

نظرَ شادو إلى الأربعاء، الذي قال: «انعطِف يمينًا، اخرُج عن الطَّريق».

- «لا أستطيعُ الخروج بهذا الشَّيء عن الطَّريق. سننقلِب».

- «سنكون بخير. خُذ اليمين، الآن!».

دوَّر شادو عجلة القيادة إلى أسفل بيُمناه، وبحدَّةٍ مالَت الـ «ونابيجو» وارتجَّت. للحظةٍ ظنَّ نفسه مصيبًا، أن مركبة التَّخييم ستنقلِب، ثم ذابَ العالم خارج النَّافذة الأماميَّة وتلألأ مثل الانعكاس في بِركةٍ صافية حين تمسُّ الرِّيح سطحها، وتمدَّدت داكوتا وتبدَّلت معالمها.

والسُّحب والضَّباب والثُّلوج والنَّهار، كلُّها اختفى.

والآن بالأعلى نجوم معلَّقة كجِراب ضوء متجمِّدة تطعن سماء اللَّيل.

قال الأربعاء: «اركن هنا. يُمكننا أن نمشي بقيَّة الطَّريق».

أطفأ شادو المحرِّك، ثم ذهبَ إلى مؤخَّرة الـ «ونابيجو» ووضعَ معطفه وحذاءه الشَّتوي الـ «سورل» وقفَّازيه، ثم نزلَ من المركبة وانتظرَ. «حسن، هيَّا بنا».

رمقَه الأربعاء باستطراف، وشيءٍ آخر... الضِّيق ربما، أو الفخر. وسألَه الأربعاء: «لِمَ لا تُجادِل؟ لِمَ لا تهتف بأن هذا كلَّه مستحيل؟ لماذا بحقِّ الجحيم تُذعِن لما أقوله وتتقبَّل كلَّ شيءٍ بمنتهى الهدوء المستفِز؟».

قال شادو: «لأنك لا تنقذني أجرًا عن إلقاء الأسئلة»، ثم قال مدركًا الحقيقة إذ خرجَ الكلام من فمه: «على كلّ حال، لا شيء يُفاجئني حقًا منذ لوراء».

- «منذ عادت من الموت؟».

- «منذ علمتُ أنها كانت تُضاجع زُبي. آلمني ذلك، أمّا كلُّ شيء آخر فباقٍ فوق السَّطح. أين سنذهب الآن؟».

أشارَ الأربعاء، وباشَرا المشي. الأرض تحت أقدامهما صخور من نوعٍ بُركاني زلق، بعضها زُجاجي، وفي الهواء برودة لكنها ليست كبرد الشِّتاء. بخُطواتٍ جانبيَّة خرقاء نزلا تلًا سالكيْن دربًا وعرًا. نظرَ شادو إلى سفح التَّل، وتبيَّن أن ما يَنظُر إليه مستحيل.

قال شادو: «ما هذا بحقّ الجحيم؟»، إلّا أن الأربعاء مسّ شفتيه بإصبعه وهزَّ رأسه بحدَّة. صمتًا.

بدا الشَّيء كعنكبوت ميكانيكيَّة، معدنها أزرق، وتنبعث منها أضواء LED برّاقة، وحجمها مثل الجرّار الزّراعي. كان الشَّيء قابعًا عند سفح التَّل، وبعده تنتشر تشكيلة من العظام، بجوار كلٍّ منها شُعلة متذبذبة أكبر قليلًا من لهب الشُّموع.

أشارَ الأربعاء لشادو بالبقاء على مبعدةٍ من تلك الأشياء، فأخذَ شادو خُطوةً إضافيَّةً إلى الجانب، وهو ما اتَّضح خطؤه على هذا الدَّرب الزُّجاجي، إذ التوى كاحله وتشقلبَ على المنحدَر كأنما أسقطَه أحدهم، يتدحرج وينزلق ويتخبَّط. حاولَ القبض على صخرةٍ إذ سقطَ مارًّا بها، ومزَّق الزُّجاج البُركاني النَّاتئ قُفَّازه الجلدي كأنه من ورق.

وحطَّ شادو عند سفح التَّل بين العنكبوت الميكانيكيَّة والعظام.

وضعَ يده على الأرض ليدفع جسده إلى النُّهوض، ووجدَ نفسه يلمس بكفِّه ما يبدو أنه عظمة فخذ، وإذا به...

... واقفًا في ضوء النَّهار يُدخِّن سيجارةً ويَنظُر إلى ساعته. من كلِّ جهةٍ تُحيط به السيَّارات، ويتمنَّى لو أنه لم يشرب كوب القهوة الأخير، لأنه في حاجةٍ ماسَّة إلى إفراغ مثانته، وقد بدأ الأمر يُضايقه.

تقدَّم إليه أحد رجال قوَّة إنفاذ القانون المحلِّيَّة، رجل كبير الحجم شاربه الكثيف موخوط بالصَّقيع، وكان قد نسيَ اسمه بالفعل.

باعتذارٍ وحيرةٍ يقول مُنفذ القانون المحلِّي: «لا أدري كيف فقدناهما».

فيردُّ: «كان خداعًا بصريًا. يَحدُث هذا في ظروف الطَّقس الشَّاذَّة. الضُّباب. كان سرابًا. كانا يقطعان طريقًا آخَر وظننَّاهما على هذا الطَّريق».

تلوح على مُنفذ القانون المحلِّي خيبة الأمل، ويقول: «أوه. حسبتُ الأمر مثل «الملفَّات X» أو شيء من هذا القبيل».

- «لا شيء بتلك الإثارة للأسف». بين الحين والآخَر يُعاني التهاب البواسير، والآن بدأت مؤخِّرته تستحكُّه بالطَّريقة التي تُشير إلى أن في الطَّريق التهابًا. يُريد أن يعود إلى داخل منطقة الطَّريق الدَّائري، ويتمنَّى لو يجد شجرةً يقف وراءها، فحاجته إلى التَّبوُّل تسوء.

يرمي السِّيجارة ويدُوسها.

يذهب مُنفذ القانون المحلِّي إلى إحدى سيَّارات الشُّرطة ويقول شيئًا للسَّائق، ويهزُّ كلا الرَّجلين رأسه.

يتساءَل إن كان ينبغي ببساطةٍ أن يكزَّ على أسنانه ويُحاوِل أن يتخيَّل أنه في ماوي ولا أحد غيره موجود، ويتبوَّل على عجلة السيَّارة الخلفيَّة. يتمنَّى لو أنه لا يُعاني متلازمة مثانة خجول قهريَّة، ويُفكِّر أنه قد يستطيع حبسَ البول وقتًا أطول، لكنه يجد نفسه يتذكَّر قُصاصة صحيفةٍ مسمرَها أحدهم في ردهة بيت التَّآخي في أيام الجامعة قبل ثلاثين عامًا، وتحكي حكايةً تحذيريَّةً عن رجلٍ عجوز في رحلةٍ طويلة على حافلةٍ دورة مياهها تالفة، حبسَ بوله حتى احتاجَ في آخِر الرِّحلة إلى قسطرةٍ ليستطيع التَّبوُّل ثانيةً...

سخيفٌ هذا. إنه ليس متقدِّمًا في السِّن لتلك الدَّرجة. سوف يحتفل بعيد ميلاده الخمسين في إبريل، ومسالكه المائيَّة تعمل على ما يُرام. كلُّ شيءٍ يعمل على ما يُرام.

يُخرِج هاتفه ويضغط زرَّ القائمة ويتصفَّح إلى أسفل حتى يجد العنوان المسجَّل باسم «المغسلة»، وهو ما وجدَه في غاية الطَّرافة إذ كتبَه، لأنه إحالة إلى «الرَّجل من .U.N.C.L.E»،[xci] وبينما يَنظُر يُدرِك أن الإحالة ليست إليه البتَّة، ففي ذلك المسلسل محل خيَّاط، أمَّا ما يُفكِّر فيه فمسلسل آخَر هو «كُن ذكيًا»، وما زالَ يَشعُر بالاستغراب وشيءٍ من الحرج بعد كلِّ تلك السَّنوات، لأنه لم يُدرِك في طفولته أنه مسلسل كوميدي، ولم يرغب إلَّا في هاتفٍ حذاء...[xcii]

صوت امرأة على الهاتف: «نعم؟».

- «هنا المستر تاون، مخابرة للمستر وورلد».

- «انتظِر من فضلك. سأرى إن كان متاحًا».

صمتٌ. يضمُّ تاون ساقيه ويرفع حزامه ويشدُّه على بطنه -يجب حقًا أن يفقد تلك الأرطال العشرة الأخيرة- وبعيدًا عن مثانته. ثم يقول صوت دمث: «أهلًا مستر تاون».

يقول تاون: «فقدناهما»، ويَشعُر بعُقدةٍ من الإحباط في أحشائه. بحقِّ المسيح، هذان هما الوغدان، ابنا القحبة القذران الحقيران اللذان قتلا وودي وستون. رجلان صالحان، رجلان صالحان. لشدَّ ما يودُّ أن يُضاجع المسز وود، لكنه يعلم أن الوقت الذي مرَّ على موت وودي أقصر جدًّا من أن يأخذ تلك الخُطوة، وهكذا يَخرُج معها لتناوُل العَشاء كلَّ أسبوعين من باب الاستثمار في المستقبل، وهي ممتنَّة للغاية لاهتمامه...

- «كيف؟».

- «لا أدري. لقد نصبنا متراسًا على الطَّريق، ولم يكن أمامهما مكان يستطيعان الذَّهاب إليه، لكنهما ذهبا إليه رغم ذلك».

- «مجرَّد لُغزٍ آخَر من ألغاز الحياة الصَّغيرة. لا داعي للقلق. هل هدَّأت الرِّجال المحلِّيِّين؟».

- «قلتُ لهم إنه خداعٌ بصري».

- «وهل اقتنَعوا؟».

- «غالبًا».

*في صوت المستر وورلد شيء مألوف للغاية*... وهي الفكرة الغريبة، لأنه يعمل لحسابه مباشرةً منذ عامين، ويتكلَّم معه كلَّ يوم، أي إن في صوته شيئًا مألوفًا طبعًا.

- «سيكونان قد ابتعدا جدًّا».

- «هل نُرسِل أناسًا إلى المحميَّة ليعترضوا طريقهما؟».

- «المسألة لا تستحقُّ التأزيم. شؤون قضائيَّة كثيرة، ولا يُمكننا استخدام نفوذنا على نطاقٍ موسَّع في صباحٍ واحد. عندنا وقت طويل. عُد فحسب. إنني غارق حتى العُنق هنا في محاولة تنظيم اجتماع وضع السِّياسة».

- «متاعب؟».

- «المنافسة شرسة. اقترحتُ أن نعقده هنا. التقنيُّون يريدونه في أوستن، أو ربما سان هوزيه، والمشخِّصون يُريدونه في هوليوود، وغير الماديِّين يُريدونه في وول ستريت. كلٌّ واحدٍ يُريده في نطاقه، ولا أحد يُريد أن يتزحزح».

- «هل تُريدني أن أفعل شيئًا؟».

- «ليس بعدُ. سأهدِّدُ بعضهم وألاطفُ البعض الآخَر. أنت تعرف النَّهج المعتاد».

- «نعم يا سيِّدي».

- «تفضَّل يا تاون».

وينقطع الاتِّصال.

يُفكِّر تاون أنه كان عليه أن يُكلِّف فرقة SWAT بإطلاق النَّار على تلك الـ «وتابيجو» الملعونة، أو يزرع ألغامًا في الطَّريق، أو سلاحًا نوويًّا تكتيكيًّا حتى. كان ذلك ليُري الوغديْن قدر جدِّيَّتهم. كما قال له المستر وورلد ذات مرَّة: *إننا نَسطُر المستقبل بحروفٍ من نار*، ويُفكِّر المستر تاون أنه بحقِّ المسيح إذا لم يتبوَّل حالًا فسيفقد كُليةً، ستنفجر، وكما قال أبوه وهما في رحلةٍ طويلة لمَّا كان تاون طفلًا، وهما على طريق الولايات، تعوَّد باباه أن يقول دومًا: «أسناني الخلفيَّة طافية»،[xciii] وحتى الآن باستطاعة تاون أن يسمع صوته يقول بلُكنة اليانكي الحادَّة: «يجب أن أتبوَّل قريبًا. أسناني الخلفيَّة طافية»...

... وفي تلك اللَّحظة أحسَّ شادو بيدٍ تفتح يده، قسرًا تفتحها إصبعًا بعد إصبع لتُزيحها عن عظمة الفخذ التي تقبض عليها. لم يَعُد يحتاج إلى التَّبوُّل. كان ذلك شخصًا آخَر. إنه واقفٌ تحت النُّجوم في سهلٍ من الصَّخر الزُّجاجي، والعظمة على الأرض بجوار العظام الأخرى.

أشارَ له الأربعاء بالصَّمت ثانيةً، ثم بدأ يمشي، وتبعَه شادو.

صدرَ صرير من العنكبوت الميكانيكيَّة، وتجمَّد الأربعاء في مكانه، فتوقَّف شادو وانتظرَ معه فيما ومضَت الأضواء الخضراء وجرَت في مجموعاتٍ على جانب العنكبوت.

وحاولَ شادو ألَّا يتنفَّس بصوتٍ عالٍ.

فكَّر في ما حدثَ حالًا. كانت التَّجربة مثل النَّظر داخل عقل شخصٍ آخَر عبر نافذة. ثم قال لنفسه: *المستر وورلد. أنا الذي خطرَ له أن صوته مألوف.*

*كان ذلك خاطري أنا لا خاطر تاون، لهذا بدا بتلك الغرابة.* حاول تحديد الصَّوت في عقله، أن يضعه في التَّصنيف الذي ينتمي إليه، غير أنه أفلتَ منه.

*سأتذكَّره. عاجلًا أو آجلًا سأتذكَّره.*

ازرقَّت الأضواء الخضراء، ثم احمرَّت، ثم خبَت حُمرتها وبهتَت، واستقرَّت العنكبوت على كفلها المعدني.

بدأ الأربعاء يتقدَّم، صورته صورة شخصٍ وحيد تحت نجوم السَّماء. يعتمر قبَّعةً عريضة الحافة، وتتقلَّب عباءته القاتمة المهترئة بعشوائيَّةٍ في ريحٍ لا تهبُّ، وتَنقُر عصاه على صخر الأرض الزُّجاجي.

لمَّا باتَت العنكبوت المعدنيَّة لا تعدو لمعةً نائيةً في ضوء النُّجوم، تفصلها عنهما مسافة بعيدة خلفهما على أرض السَّهل، قال الأربعاء: «المفترَض أن يكون الكلام مأمونًا الآن».

- «أين نحن؟».

- «وراء الكواليس».

- «معذرةً؟».

- «فكِّر في المكان باعتباره وراءِ الكواليس، كما في المسرح أو ما شابه. لقد أخذتُنا من صفوف الجمهور، والآن نمشي خلف خشبة المسرح. إنه طريق مختصر».

- «عندما لمستُ تلك العظمة وجدتُ نفسي في عقل رجلٍ اسمه تاون. إنه مع العُملاء، ويكرهنا».

- «أجل».

- «له رئيس اسمه المستر وورلد، يُذكِّرني بأحدٍ لكنني لا أعرفُ مَن. كنتُ أنظرُ داخل رأس تاون... أو ربما كنتُ داخل رأسه، لستُ متأكِّدًا».

- «هل يعرفون وجهتنا؟».

- «أظنُّهم سيُوقِفون المطاردة في الوقت الحالي. لم يُريدوا أن يتبعونا إلى المحميَّة. أنحن ذاهبان إلى محميَّة؟».

قال الأربعاء: «ربما»، واتَّكأ على عصاه لحظةً، ثم استأنفَ السَّير.

- «ما هذا الشَّيء العنكبوتي؟».

- «تجسُّد نمطي، محرِّك بحث».

- «أهو خطر؟».

- «المرء لا يعيش إلى سنّي هذه إلّا بافتراض الأسوأ».

ابتسمَ شادو متسائلًا: «وكم تلك السّن؟».

- «كسنّ لساني، وأكبر بضعة شهورٍ من أسناني».

قال شادو: «تحتفظ بأسرارك طيّ كتمانٍ عميق، لدرجة أني لستُ واثقًا إن كانت أسرارًا على الإطلاق».

واكتفى الأربعاء بالزّمجرة.

كلُّ تلٍّ يَبلُغانه أصعب تسلُّقًا من سابقه.

بدأ شادو يحسُّ بصُداع. لضوء النُّجوم طابعٌ من الدَّقّ، شيء ما له صدى يتردَّد مع النّبضات في صدغَيْه وصدره. عند سفح التّل التّالي تعثّر. فتحَ فمه ليقول شيئًا، ودون إنذارٍ تقيّأ.

مدّ الأربعاء يده في جيبه الدّاخلي وأخرجَ قنينةً صغيرةً قائلًا: «خُذ رشفةً من هذا، رشفةً فقط».

وجدَ السّائل حرّيف المذاق، وقد تبخَّر في فمه كصنفٍ جيّد من البراندي، وإن لم يكن فيه طعم كحول. أخذَ الأربعاء القنينة ودسّها في جيبه، وقال: «ليس من مصلحة الجمهور أن يجد نفسه يمشي خلف خشبة المسرح. لهذا تَشعُر بالغثيان. يجب أن نُسارِع بإخراجك من هنا».

جدّا السّير، الأربعاء بخُطى ثقيلة مجهَدة ثابتة، وشادو متعثّرًا بين الحين والحين، ولو أنه شعرَ بتحسُّنٍ من المشروب الذي خلّف في فمه مذاق قشر البرتقال وزيت إكليل الجبل والنّعنع والقرنفل.

تأبّط الأربعاء ذراعه، وقال مشيرًا إلى ربوتيْن توأمتيْن من الصّخر الزُّجاجي المتجمّد: «هناك. امشِ بين هاتين التّلّتيْن. امشِ معي».

ومشيا، وارتطمَ الهواء البارد وضوء النّهار السّاطع بوجه شادو في آنٍ واحد. توقّف وأغمضَ عينيه مبهورًا معميًا بالضّوء، ثم ظلّلهما بيُسراه وعادَ يفتحهما.

كانا واقفيْن في منتصَف الطّريق إلى القمّة فوق تلٍّ لطيف الانحدار. انجابَ الضّباب، والنّهار مشمس فاتر البرودة، والسّماء زُرقتها مثاليّة. عند سفح التّل طريق مرصوف بالحصى، تتواثَب عليه ستيشن واجن حمراء كسيّارة طفلٍ

لُعبة. لسعت هبّة من دُخان الحطب وجه شادو وأدمعت عينيه، منبعثة من بناءٍ قريب يبدو كأنما رفعَ أحدهم بيتًا متنقّلًا وأسقطه على جانب التّل قبل ثلاثين عامًا، والآن يستقرُّ مرمَّمًا مرقّعًا في غير موضع، وفي بعض البقاع مضافًا إليه، فشادو واثق بأن هذه المدخنة المصنوعة من الصّفيح المجلفن ليست جزءًا من التّركيب الأصلي.

فُتِحَ الباب إذ وصلا إليه، ورمقهما رجل في منتصف العُمر له بشرة داكنة وعينان حادّتان وفم كشقّ سكّين، وقال: «إيْ نعم. سمعتُ أن في الطّريق لرؤيتي رجليْن أبيضيْن، أبيضيْن في «وِنابيجو». وسمعتُ أنهما ضلّا الطّريق مثلما يضلُّ البِيض طريقهم دومًا إذا لم يضعوا لافتاتٍ في كلّ مكان. والآن انظُر إلى هذين المأفونيْن على عتبة الباب. أتعلمان أنكما على أرض اللاكوتا؟». للرَّجل شعر أشيب، وطويل.

قال الأربعاء: «منذ متى كنت من اللاكوتا أيها النصّاب العجوز؟». الآن يرتدي الأربعاء معطفًا ويعتمر قبّعةً بغطاءٍ للأذنين، ويبدو لشادو مستبعدًا أنه قبل دقائق معدودة تحت النُّجوم كان يعتمر قبّعةً عريضة الحافّة ويرتدي أسمال عباءة. «ويسكي چاك[xciv] أيها الوغد التّعس، إنني أتضوّرُ جوعًا، وصديقي تقيّأ فطوره. هل ستدعونا للدُّخول؟».

حكّ ويسكي چاك إبطه. يرتدي الرَّجل الچينز الأزرق وقميصًا تحتيًّا بلون شعره الرّمادي، وينتعل حذاءً موكاسين من جلد الأيائل، ولا يبدو أنه يلحظ البرد. ثم إنه قال: «أحبُّ المكان هنا. ادخُلا أيها الرَّجلان الأبيضان اللذان فقدا عربتهما الـ «وِنابيجو»».

داخل المقطورة المزيد من دُخان الحطب، ورجل آخَر جالس إلى طاولةٍ حافي القدمين مرتديًا جلود ظباء متّسخةً، بشرته لونها كلحاء الشّجر.

لاحَت على الأربعاء البهجة إذ قال: «يبدو أن تأخيرنا كان من حُسن الطّالع. ويسكي چاك وآپل چوني، عُصفوران بحجرٍ واحد».

حدَّق الجالس إلى الطّاولة، آپل چوني، إلى الأربعاء، ثم خفضَ يده وقبضَ على ما بين ساقيه قائلًا: «أخطأت ثانيةً. لقد تحقّقتُ لتوّي وكلا حجريَّ ما زالَ في مكانه السَّليم»، ثم نظرَ إلى شادو ورفعَ يده باسطًا راحتها، وقال: «أنا چون تشاپمان.[xcv] لا تُلقِ بالًا لأيّ شيءٍ يقوله رئيسك عنّي. إنه سافل. لطالما كان سافلًا ودومًا سيبقى سافلًا. بعض النّاس سفلة، وهذا كلُّ ما هنالك».

قال شادو: «مايك آينسل».

فركَ تشاپمان ذقنه المغطّى بجُذامة الشَّعر قائلًا: «آينسل. ليس هذا اسمًا، لكنه يَصلُح وقت الضَّرورة. بِمَ يدعونك؟».

- «شادو».

- «سأدعوك بشادو إذًا. يا ويسكي چاك...». (لكنَّ شادو تبيَّن أنه لم يقل ويسكي چاك حقًّا، فمقاطع الاسم كثيرة جدًّا). «... ما أخبار الطَّعام؟».

أخذَ ويسكي چاك ملعقةً خشبيَّةً ورفعَ غطاء قدرٍ حديد سوداء يُبَقبِق ما فيها فوق موقد الحطب، وقال: «جاهز للأكل»، ثم أخذَ أربعة أوعية بلاستيكيَّة وغرفَ فيها محتويات القدر ووضعَها على المائدة، وبعد ذلك فتحَ الباب وخرجَ في الثَّلج ليسحب إبريقًا بلاستيكيًّا من كومة ثلج، وعادَ به إلى الدَّاخل حيث صبَّ أربع كؤوسٍ كبيرة من سائلٍ بنِّي مصفر عكر، واضعًا واحدةً إلى جوار كلِّ وعاء، وأخيرًا وجدَ أربع ملاعق، وجلسَ إلى المائدة مع الرِّجال الآخَرين.

رفعَ الأربعاء كأسه معلِّقًا بريبة: «يبدو كالبول».

ردَّ ويسكي چاك: «أما زلت تشرب ما تشربه؟ إنكم مجانين يا معشر البيض. هذا أفضل»، ثم قال لشادو: «اليخنة أغلبها لحم ديك رومي برِّي. أمَّا الآپلچاك فجلبَه چون».

قال چون تشاپمان: «إنه عصير تفَّاح مخمَّر خفيف. لم أومن قطُّ بالشُّراب القوي. يُذهِب عقول النَّاس».

كانت اليخنة شهيَّةً، وعصير التُّفَّاح ممتازًا. أجبرَ شادو نفسه على الأكل ببُطء، أن يمضغ طعامه ولا يبتلعه دفعةً واحدةً، وإن وجدَ جوعه أشدَّ من قُدرته على التَّصديق. غرفَ لنفسه وعاءً ثانيًا من اليخنة، وصبَّ كأسًا أخرى من العصير.

قال چون تشاپمان: «تقول الشَّائعة إنك كنت تتكلَّم مع مختلف الأشخاص وتعرض عليهم مختلِف الأشياء، تقول إنك تنتهج بالقوم القُدامى طريق الحرب».

كان شادو وويسكي چاك يغسلان أدوات المائدة ويضعان ما تبقَّى من اليخنة في أوعيةٍ من البلاستيك، دفنَها ويسكي چاك في أكوام الثَّلج خارج الباب الأمامي، ثم وضعَ قفص زُجاجات حليب فوقها لكي يجدها لاحقًا.

قال الأربعاء: «ملخَّص عادل ووافٍ للأحداث في رأيي».

بلهجةٍ قاطعة قال ويسكي چاك: «سينتصرون. لقد انتصروا بالفعل، وأنت انهزمت. مثل الرَّجل الأبيض وشعبي. انتصر البيض، ولمَّا انهزموا أبرموا معاهدات، ثم أخلُّوا بالمعاهدات، وانتصروا ثانيةً. لن أحارب في سبيل قضيةٍ خاسرة أخرى».

أضافَ چون تشاپمان: «ولا جدوى من نظرك إليّ، فحتى لو قاتلتُ في صفِّك -وهو ما لن أفعله- فلستُ ذا فائدةٍ لك. الأوغاد الجُرب ذوو الضَّفائر الطَّويلة استنزفوني ونسوني تمامًا»، وتوقَّف لحظةً، ثم قال: «پول بنين»،[1] وهزَّ رأسه ببُطءٍ وردَّد ضاغطًا على الاسم: «پول بَنيَن».

لم يسمع شادو قطُّ كلمتين لا ضير منهما مثل هاتين تُنطَقان بتلك اللَّهجة المُدينة. «پول بَنيَن؟ وماذا فعلَ؟».

أجابَه ويسكي چاك: «احتلَّ مساحةً في العقول»، وشحذ سيجارةً من الأربعاء، وجلسَ كلا الرَّجلين يُدخِّن.

قال الأربعاء موضحًا: «مثل الحمقى الذين يحسبون أن طيور الطنَّان تقلق بشأن وزنها أو تسوُّس أسنانها أو هراءٍ ما من ذلك القبيل، ولعلَّهم يرغبون في تجنيب الطنَّان شرور السُّكَّر ليس إلَّا، وهكذا يملؤون حاويات إطعام الطنَّان بمُحلِّياتٍ صناعيَّة لعينة، وتأتي الطُّيور وتشربها، ثم تموت لأن طعامها لا يحتوي على أيِّ سُعرات مع أن بطونها الصَّغيرة ممتلئة. إنَّما هذا پول بَنيَن. لا أحد حكى قصصًا عن پول بَنيَن، لا أحد آمنَ بپول بَنيَن، بل خرجَ متهاديًا من وكالة إعلاناتٍ نيويوركيَّة في عام 1910، وملأ بطن أساطير الأمَّة بالسُّعرات الفارغة».

قال ويسكي چاك: «أحبُّ پول بَنيَن. جرَّبتُ ركوبته في «مول أمريكا» قبل سنواتٍ قليلة. عند القمَّة ترى پول بَنيَن العجوز الكبير ثم تهوي. طش! لا بأس به عندي. لا يُضايقني أنه لم يُوجَد حقيقةً قطُّ، فمعنى هذا أنه لم يقطع أيَّ أشجار، ولو أن عدم قطع الأشجار ليس وزرعها سواءً، فذلك أفضل».

علَّق چوني تشاپمان: «كلام لا تشوبه شائبة».

---

(1) پول بَنيَن: رجل غاباتٍ من أساطير الحطَّابين الأمريكان، له تماثيل عديدة في مختلف الولايات، وإن لم يُوجَد له تاريخ شفهي قبل عام 1910، عندما بدأ چيمس مجيليڤراي نشر قصصه في صحيفة «دترويت نيوز تريبيون». (المُترجم).

نفخَ الأربعاء حلقة دُخانٍ علقت في الهواء كلقطةٍ من كرتون لـ «وارنر برذرز»، تتبدَّد ببُطءٍ في خيوطٍ ولفافات، ثم قال: «تبًا يا ويسكي چاك، ليس ذلك بيت القصيد وأنت تعلم هذا».

ردَّ ويسكي چاك: «لن أعينك. حينما يمسحون بك الأرض يُمكنك العودة إلى هنا، وإن كنتُ موجودًا فسأطعمك ثانيةً. عندنا أفضل طعامٍ في الخريف».

قال الأربعاء: «البدائل كلُّها أسوأ».

- «وليس لديك فكرة عن البدائل»، ثم نظرَ ويسكي چاك إلى شادو قائلًا: «أنت في مطاردة». صوته مخشوشن من التَّدخين، وقد تردَّد رنينه في تلك المساحة المسربلة بدُخان الحطب والسَّجائر.

قال شادو: «إنني أعملُ».

هزَّ ويسكي چاك رأسه نفيًا، وقال: «وتُطارِد شيئًا ما أيضًا. ثمَّة دين تبتغي تسديده».

فكَّر شادو في شفتَي لورا المزرقَّتين والدِّماء على يديها، وأومأ برأسه إيجابًا.

- «اسمع. الثَّعلب كان هنا أوَّلًا، وكان أخوه الذِّئب. قال الثَّعلب: *سيحيا البشر إلى الأبد، وإن ماتوا فلن يبقوا موتى طويلًا*، فقال الذِّئب: *لا، بل سيموت البشر، يجب أن يموتوا، كلُّ الكائنات الحيَّة منتهاها الموت، وإلَّا فستنتشر وتُغطِّي العالم وتأكل السلمون والرَّنَة والجواميس كلَّها، تأكل القرع كلَّه والذُّرة كلَّها*. وذات يوم ماتَ الذِّئب، وقال للثَّعلب: *أسرِع، أعِدني إلى الحياة*، فقال الثَّعلب: *لا، يجب أن يبقى الموتى موتى، لقد أقنعتني*، وبكى إذ قال هذا، لكنه قاله، وكان قوله فاصلًا. الآن يَحكُم الذِّئب عالم الموتى، ويحيا الثَّعلب تحت الشَّمس والقمر، ولا يزال في حدادٍ على أخيه».

قال الأربعاء: «ما دُمت لن تُساعِدنا فلن تُساعِدنا. سنُواصِل طريقنا».

بملامح جامدة قال ويسكي چاك: «إنني أكلِّمُ هذا الشَّاب. أنت لا سبيل لمساعدتك، أمَّا هو فلا»، ثم عادَ يلتفت إلى شادو قائلًا: «أتعلم أن أحدًا لا يستطيع المجيء إليَّ هنا دون رغبتي؟».

أدركَ شادو أنه يعلم ذلك بالفعل، وأجابَ: «أجل».

قال ويسكي چاك: «أخبِرني بأحلامك».

- «كنتُ أتسلّقُ بُرجًا من الجماجم تطير حوله طيور ضخمة. كان في أجنحتها برق، وهاجمَتني. البُرج انهارَ».

قال الأربعاء: «الجميع يَحلُمون. هلّا ذهبنا؟».

ردَّ ويسكي چاك: «الواكينياوو، طيور الرَّعد. لا يَحلُم بها الجميع. لقد شعرنا بأصداء الحُلم هنا».

قال الأربعاء: «قلتُ لك! يا للمسيح!».

قال تشاپمان: «في ڤرچينيا الغربيَّة مجموعة صغيرة من طيور الرَّعد. أنثيان وذكر مُسن واحد على الأقل. يُوجَد أيضًا زوجان متناسلان في الأرض التي كانوا يسمُّونها ولاية فرانكلن، لكِن بن العجوز لم ينَل ولايته قطُّ، بين كنتكي وتنيسي. طبعًا لم تعِش تلك الطُّيور بأعدادٍ غفيرة من الأصل، حتى في أفضل الأحوال».

مدَّ ويسكي چاك يدًا بلون الصَّلصال الأحمر، ومسَّ وجه شادو برفق. صبغة قزحيَّتيه بنِّيَّة فاتحة مؤطَّرة بالبنِّي الغامق، وفي هذا الوجه بدَت هاتان العينان منيرتيْن. «إيْ نعم، الأمر صحيح. إن اصطدت طائر الرَّعد فبإمكانك إعادة زوجتك. لكنها تنتمي إلى الذِّئب، في الأماكن الميتة، ولا ينبغي لها أن تذرع الأرض».

سألَه شادو: «وكيف تعلم ذلك يقينًا؟».

لم تتحرَّك شفتا ويسكي چاك إذ قال: «ماذا قال لك الجاموس؟».

- «أن أصدِّق».

- «نصيحة سديدة. هل ستأخذ بها؟».

- «نوعًا. أظنُّ». كانا يتكلَّمان بلا كلمات، بلا أفواه، بلا أصوات، وتساءلَ شادو إن كان المشهد من وجهة نظر الرَّجلين الآخريْن في المكان أنهما واقفان دون حراكٍ مُدَّة نبضة قلبٍ أو كسرٍ من نبضة قلب.

قال ويسكي چاك: «عندما تجد قبيلتك عُد لرؤيتي. يُمكنني أن أساعدك».

- «سأفعلُ».

خفضَ ويسكي چاك رأسه، ثم التفتَ إلى الأربعاء سائلًا: «هل ستُحضِر الهُو-تشَنك؟».

- «الماذا؟».

- «هُو-تشَنك. إنه الاسم الذي يُطلِقه شعب الوِنابيجو على نفسه».

هزَّ الأربعاء رأسه قائلًا: «المجازفة كبيرة. قد تُسبِّب استعادة المركَبة مشكلات. مؤكَّد أنهم يبحثون عنها».

- «أهي مسروقة؟».

بدا على الأربعاء الشُعور بالإهانة، وقال: «ولا قطعة واحدة منها. الأوراق في دُرج القُفَّازات».

- «والمفاتيح؟».

قال شادو: «معي».

- «هاري بلوچاي ابنَ أخي يملك «بيووك» طراز 81. لِمَ لا تُعطيني مفاتيح مركبة التَّخييم؟ يُمكنك أن تأخذ سيَّارته».

سأله الأربعاء حانقًا: «أيُّ صفقةٍ هذه؟».

هزَّ ويسكي چاك كتفيه، وقال: «أتُدرك مبلغ صعوبة استعادة مركبتك من حيث هجرتها؟ إنني أسدي إليك صنيعًا. اقبل العرض أو ارفضه، لا أبالي»، وأغلقَ فمه الشَّبيه بشقِّ السكِّين.

بدا الأربعاء غاضبًا، ثم أصبحَ غضبه أسفًا، وقال: «شادو، أعطِ الرَّجل مفاتيح الـ «وِنابيجو»»، فناولَ شادو المفاتيح لويسكي چاك.

قال ويسكي چاك: «چوني، هلَّا أخذت هذين الرَّجلين ليجدا هاري بلوچاي؟ أخبِره أنني قلتُ أن يُعطيهما سيَّارته».

أجابَ چوني تشاپمان: «بكلِّ سرور»، ونهضَ واتَّجه إلى الباب ملتقطًا من جواره جوالًا من الخيش الهِسِّي، وفتحَ الباب وخرجَ.

تبعَه شادو والأربعاء إلى الخارج، وانتظرَ ويسكي چاك في المدخل ونادى الأربعاء قائلًا: «لا تَعُد إلى هنا ثانيةً يا هذا. لست محلَّ ترحاب».

رفعَ الأربعاء إصبعه الوُسطى في اتِّجاه السَّماء، وبعذوبةٍ قال: «ركِّب نفسك على هذه ودُر».

بدأوا ينزلون التَّل في الثَّلج دافعين أكوامه عن الطَّريق، في المقدِّمة تشاپمان بقدميه الحافيتين بارزتَي الاحمرار على الثَّلج المغطَّى بقشرةٍ من الجليد.

سألَه شادو: «ألست بردانَ؟».

قال تشاپمان: «زوجتي كانت من التشوكتو».

- «وعلّمتك أساليب روحانيّة تقيك الإحساس بالبرد؟».

أجابَ تشاپمان: «لا، عدّتني مجنونًا. تعوّدت أن تقول لي: چوني، لِم لا تنتعل حذاءك؟». أصبحَ التّل أشدّ انحدارًا، وهو ما أرغمهم على الكفّ عن الكلام. تعثّر الرّجال الثّلاثة وانزلقوا على الثّلج، مستعينين بجذوع أشجار البَتولة على جانب التّل لتثبيت أنفسهم ومنعها من السّقوط، ولمّا غدت الأرض أكثر استواءً واصلَ تشاپمان: «إنها ميتة الآن طبعًا. أظنّني أُصبتُ بلوثةٍ صغيرة عندما ماتت. شيء وارد الحدوث لأيّ أحد، وارد الحدوث لك»، ثم ربّت على ذراع شادو قائلًا: «بحقّ يسوع ويهوشافاط، إنك لرجل كبير».

قال شادو: «هكذا يقولون لي».

نصف ساعةٍ آخَر من نزول ذلك التّل بخُطواتٍ ثقيلة، إلى أن بلغوا الطّريق المرصوف بالحصى الذي يلتفّ حول سفح التّل، وبدأ ثلاثتهم يمشون بمحاذاته صوب كُتلة المباني التي رأوها من علٍ.

أبطأت سيّارة سرعتها وتوقّفت، ومدّت سائقتها يدها مُنزلةً نافذة المقعد المجاور، وقالت: «أتحتاجون إلى توصيلة أيها المهرّجون؟».

قال الأربعاء: «أنتِ في غاية الكرم يا سيّدتي. إننا نبحث عن المستر هاري بلوچاي».

قالت المرأة التي خمّن شادو أنها في الأربعينيّات: «سيكون في صالة الألعاب. اركبوا».

وركبوا. أخذَ الأربعاء المقعد الأمامي، وجلسَ چون تشاپمان على الأريكة الخلفيّة مع شادو، الذي منعَته ساقاه الطّويلتان من الجلوس مرتاحًا، لكنه فعلَ ما بوسعه.

ارتجّت السيّارة منطلقةً على الطّريق المرصوف بالحصى، وسألتهم السّائقة: «من أين أتى ثلاثتكم؟».

قال الأربعاء: «كنا نزور صديقًا».

وقال شادو: «يعيش فوق التّل».

سألته: «أيّ تل؟».

نظرَ شادو وراءه عبر النّافذة الخلفيّة المغبّرة، نظرَ نحو التّل، إلّا أن تلًا لم يكن هناك، فقط السّحاب فوق السُّهول.

قال: «ويسكي چاك».

- «آه. نُسمّيه إينكتومي هنا. أظنّه الرّجل نفسه. كان جدّي يحكي عنه حكاياتٍ شائقةً. طبعًا أفضلها جميعًا بذيء نوعًا». ارتطموا بعقبةٍ في الطّريق، وأطلقت المرأة سبّةً، ثم قالت: «أأنتما بخير في المؤخّرة؟».

قال چوني تشايمان: «نعم يا سيّدتي». كان متشبّثًا بالأريكة بكلتا يديه.

- «طُرق المحميّات. المرء يعتادها بعد فترة».

سألها شادو: «أكلّها مثل هذا؟».

أجابته المرأة: «إلى حدٍّ كبير، كلّها في هذه الأنحاء. ولا تسَل عن أرباح الكازينوهات، فمَن ذا الذي يتمتّع بكامل قُواه العقليّة ويقطع المسافة إلى هنا ليذهب إلى كازينو؟ لسنا نرى أيًّا من تلك الأموال هنا».

- «آسف».

ردّت: «لا تأسف»، وبدّلت السُّرعة لتصرّ التُّروس بصوتٍ مدوٍّ، وتابعَت: «أتعلم أن تعداد السُّكّان البيض في هذه الأنحاء في تدهوُر؟ إذا خرجت واستطلعت فستجد بلدات أشباح. كيف تُبقيهم في المزرعة بعدما رأوا العالم على شاشات التليفزيون؟ ولا أحد يرى جدوى من فلاحة الأراضي الوعرة على كلّ حال. أخذوا أراضينا واستقرُّوا هنا، والآن يرحلون. يذهبون جنوبًا ويذهبون غربًا. ربما إذا انتظرنا أن ينتقل عدد كافٍ منهم إلى نيويورك وميامي ولوس أنچلس فسيُمكننا استعادة وسط البلاد كلّه من غير قتال».

قال شادو: «حظًّا سعيدًا».

وجدوا هاري بلوچاي عند طاولة البلياردو في صالة الألعاب، يُؤدّي عددًا من الضّربات المخادعة ليُثير إعجاب مجموعةٍ كبيرة من الفتيات. على ظَهر يده اليُمنى وشم لطائر قيق أزرق، وفي أُذنه اليُمنى عدّة ثقوبٍ مرصّعة بالجواهر.

قال چون تشايمان: «هُو-هوكا يا هاري بلوچاي».

ردّ هاري بلوچاي ببساطة: «اغرُب عن وجهي أيها الشّبح الأبيض الحافي المجنون. إنك تُقشعِرني».

في طرف الصّالة القصي رجال أكبر سنًّا، بعضهم يلعب الكُتشينة وبعضهم يتكلّم، فيما ينتظر آخَرون، رجال أصغر في سنّ هاري بلوچاي تقريبًا، دورهم في لعب البلياردو. الطّاولة بالحجم الكامل، وفي جانبها مزق في الجوخ الأخضر، مرتوق بشريط لصق رمادي فضّي.

قال تشاپمان بلا انزعاج: «لديّ رسالة من عمّك. يقول أن تُعطي هذين الاثنين سيَّارتك».

لا بُدّ أن مَن في الصَّالة ثلاثين فردًا أو ربما أربعين، والآن يَنظُرون جميعهم بلا استثناءٍ بإمعانٍ إلى أوراق الكُتشينة أو أقدامهم أو أظفارهم، ويتظاهَرون بكلّ ما أوتوا من قوَّةٍ بأنهم لا يسمعون.

- «ليس عمّي».

في سماء القاعة هواء فاسد من دُخان السَّجائر، معلّق كرُكام السَّحاب. ابتسمَ تشاپمان ابتسامةً عريضةً كشفَت عن أسوأ أسنان رآها شادو في فم إنسان، وقال: «أتُريد أن تقول هذا لعمّك؟ يقول إنك السَّبب الوحيد لبقائه بين اللاكوتا».

ردَّ هاري بلوچاي بوقاحة: «ويسكي چاك يقول أشياء كثيرةً». إلّا أن ما قاله هو أيضًا ليس ويسكي چاك. كان للاسم الوقع نفسه تقريبًا في أُذن شادو، ولكن ليس بالضَّبط. *ويساكِدچاك*. هذا هو الاسم الذي ينطقونه. لا ويسكي چاك إطلاقًا.

قال شادو: «نعم، ومن الأشياء التي قالها أن نُبادِل مركبتنا الـ «وِنابيجو» بسيَّارتك الـ «بيووِك»».

- «لا أرى «وِنابيجو» هنا».

قال چون تشاپمان: «سيجلب لك الـ «وِنابيجو»، تعلم أنه سيفعل».

حاولَ هاري بلوچاي تسديد ضربةٍ مخادعة وأخفقَ، فيده لم تكن ثابتةً كفايةً، ثم قال: «لستُ ابن أخٍ للثَّعلب العجوز. ليته لا يقول ذلك للنَّاس».

بصوتٍ أجش يُداني الزَّمجرة عُمقًا قال الأربعاء: «خيرٌ لك أن تحيا ثعلبًا من ذئبٍ ميت. والآن، هل ستبيعنا سيَّارتك؟».

وبوضوحٍ وعُنفٍ ارتعدَ هاري بلوچاي قائلًا: «بالتَّأكيد، بالتَّأكيد. كنتُ أمزَحُ فحسب. إنني كثير المزاح»، ووضعَ عصا البلياردو على الطَّاولة والتقطَ سُترةً سميكةً من وسط كُتلةٍ من السُّترات المشابهة المعلَّقة على مشاجب عند الباب، وقال: «دعني أخرجُ زُبالتي من السيَّارة أوَّلًا»، وما انفكَّ يرشق الأربعاء بالنَّظرات المختلَسة، كأنما يُقلِقه أن الرَّجل الأكبر سنًّا يُوشِك على الانفجار.

كانت سيَّارة هاري بلوچاي مركونةً على بُعد مئة ياردة، وإذ ساروا تجاهها مرُّوا بكنيسةٍ كاثوليكيَّة صغيرة مطليَّة بالجير الأبيض، حيث حدَّق إليهم رجل

أشقر يضع طوق القساوسة من المدخل لدى مرورهم. كان يمتصُّ الدُّخان من سيجارةٍ كأنه لا يستمتع بتدخينها.

ناداه چون تشاپمان: «طابَ يومك أيها الأب!»، لكن صاحب طوق الكلاب لم يردّ، وسحقَ السِّيجارة تحت كعبه ثم التقطَ العقب وألقاه في سلّة المهملات المجاورة للباب، ودخلَ.

قال هاري بلوچاي: «قلتُ لك آخِر مرّةٍ كنتَ هنا ألّا تُعطيه تلك المنشورات».

ردّ تشاپمان: «إنه هو المخطئ وليس أنا. لو قرأ كتابات سڤيدنبوري[1] التي أعطيتها له لعلمَ ذلك، لأنارَت حياته».

تفتقر سيّارة هاري بلوچاي إلى مرآتيها الجانبيّتيْن، وإطاراتها على درجةٍ من الاستواء لم يرَها شادو قطُّ، مطّاط أسود أملس تمامًا. أخبرَهما هاري بلوچاي بأن السيّارة تعبُّ الزّيت عبًّا، ولكن ما دُمت تصبُّه فيها فستظلُّ تعمل إلى الأبد، ما لم تتوقّف.

ملأ هاري بلوچاي كيس قمامةٍ أسود بزُبالة سيّارته (وتتضمّن تلك الزُّبالة عدّة زُجاجاتٍ ذات غطاءٍ لفّاف من البيرة الرّخيصة النّاقصة، وعبوّةً صغيرةً من راتنج القنّب ملفوفةً بالفويل الفضّي ومخبّأةً بلا عنايةٍ في منفضة السّجائر، وذيل ظَربان، ودستتيْن من شرائط كاسِت موسيقى الكنتري والوسترن، ونُسخةً باليةً مصفرّةً من «غريب في أرض غريبة»).

ناولَ هاري بلوچاي المفاتيح للأربعاء قائلًا: «آسفٌ لأني ضايقتك بمزاحي. أتعرف متى سأحصلُ على الـ «ونابيجو»؟».

زمجرَ الأربعاء: «سَل عمّك. هو تاجر السيّارات المستعملة اللّعين».

قال هاري بلوچاي «ويساكِدچاك ليس عمّي!»، وأخذَ كيس القمامة الأسود ودخلَ أقرب منزلٍ مغلِقًا الباب وراءه.

أنزَلا چوني تشاپمان في سُو فولز خارج متجرٍ للأطعمة الطّبيعيّة، ولم يقل الأربعاء شيئًا خلال الرّحلة إذ ظلّ لائذًا بالصّمت الواجم.

---

(1) كانت كتابات عالم اللاهوت اللوثري السويدي إيمانويل سڤيدنبوري أساس الحركة التي عُرفَت باسم الكنيسة الجديدة، أو السڤيدنبوريّة (السويدنبورجيّة بالنُّطق الأمريكي)، وكان چون تشاپمان من أبرز أنصارها. (المُترجم).

في مطعمٍ عائلي خارج سانت بول التقط شادو صحيفةً تركها أحدهم، وألقى عليها نظرةً، ثم أخرى، ثم أراها للأربعاء المستغرق في حالةٍ من التَّجهُّم الأسود كما ظلَّ منذ غادروا بيت ويسكي چاك.

قال شادو: «انظُر».

زفرَ الأربعاء ونظرَ إلى الصَّحيفة بتعبيرٍ من الألم على ملامحه، كأنَّ خفضه رأسه أوجعَه أكثر من قُدرته على الصِّياغة بالكلام، ثم قال: «يُسعدني أن خلاف المراقبين الجوِّيِّين حُلَّ دون اللُّجوء إلى إضرابٍ عن العمل».

قال شادو: «ليس ذلك. مكتوب أنه الرَّابع عشر من فبراير».

- «يوم ڤالانتاين سعيدًا».

- «خرجنا في أيِّ يومٍ من يناير؟ العشرين؟ الحادي والعشرين؟ لم أتابع التَّواريخ، لكنه كان الأسبوع الثَّالث من يناير. قضينا ثلاثة أيامٍ على الطَّريق في المجمل، فكيف يكون اليوم الرَّابع عشر من فبراير؟».

أجابَ الأربعاء: «لأننا مشينا شهرًا تقريبًا في الأراضي الوعرة، وراء الكواليس».

علَّق شادو: «يا له من طريق مختصر».

دفعَ الأربعاء الصَّحيفة عنه، وقال: «چوني آپلسيد اللَّعين، دائمًا يُسهِب في الكلام عن پول بَنيَن. في حياته الحقيقيَّة امتلكَ تشاپمان أربعة عشر بُستان تُفَّاح، وزرعَ آلاف الفدادين. نعم، ظلَّ يُواكِب الغرب القديم، ولكن ولا قصَّة مما يُحكى عنه تحوي كلمةً من الحقيقة، باستثناء أن لوثة جنونٍ أصابَته ذات مرَّة. لا يهمُّ. كما اعتادَت الصُّحف أن تقول، إن لم تكن الحقيقة كبيرةً بما فيه الكفاية فاطبع الأسطورة.[xcvi] هذا البلد في حاجةٍ إلى أساطيره، والأساطير نفسها لم تَعُد تُصدِّق هذا».

- «لكنك ترى».

- «إنني شخص طمسَه الزَّمن. مَن يُبالي بي بحقِّ الجحيم؟».

بخفوتٍ قال شادو: «أنت إله».

رماه الأربعاء بنظرةٍ حادَّة، وبدا على وشك قول شيءٍ ما، لكنه ارتخى في مقعده وخفضَ نظره إلى قائمة الطَّعام قائلًا: «وإن يكن؟».

قال شادو: «شيء جيِّد أن يكون المرء إلهًا».

سألَه الأربعاء: «حقًّا؟»، وهذه المرَّة كان شادو مَن أشاح ببصره.

في محطَّة وقود تَبعُد خمسةً وعشرين ميلًا خارج ليكسايد، على الحائط عند دورة المياه، رأى شادو نُسخةً من إشعارٍ مصنوع في المنزل: صورةً بالأبيض والأسود لآليسن مكجفرن، فوقها سؤال «*هل رأيتني؟*» مكتوبًا بخطِّ اليد. الصُّورة صورة حوليَّة المدرسة نفسها: فتاة تبتسم ابتسامةً واثقةً، على أسنانها العُلويَّة تقويم من المطَّاط الأحمر، تُريد العمل في مجال الحيوانات عندما تكبر. *هل رأيتني؟*

اشترى شادو قالبًا من شُكولاتة «سنيكرز» ونُسخةً من «أخبار ليكسايد». يضمُّ خبر ما فوق طيَّة الصَّحيفة في الصَّفحة الأولى، الذي كتبَته مارجريت أولسن مراسلتنا في ليكسايد، صورةً لصبيٍّ ورجلٍ يقفان فوق البحيرة المتجلِّدة أمام كوخٍ للصَّيد في الجليد يُشبِه مرحاضًا خارجيًّا، ويحملان بينهما سمكةً كبيرةً. «*أبٌ وابن يُحطِّمان رقم البلدة القياسي في صيد سمك الكراكي الشَّمالي. القصَّة الكاملة داخل العدد*».

قال الأربعاء وهو يقود السيَّارة: «اقرأ لي أيَّ شيءٍ يُثير الاهتمام تجده في الصَّحيفة».

بحثَ شادو بحرصٍ وقلَّب الصَّفحات بتأنٍّ، لكنه لم يجد شيئًا.

أنزلَه الأربعاء خارج شقَّته في ممرِّ السيَّارات، حيث حدَّقت إليهما قِطَّة بلون الدُّخان، ثم فرَّت عندما انحنى شادو ليُملِّس عليها.

توقَّف شادو على السَّطح الخشبي خارج الشقَّة وتطلَّع إلى البُحيرة المبرقشة هنا وهناك بأكواخ الصَّيد الخضراء والبنِّيَّة، المركونة بجوار كثيرٍ منها سيَّارات. فوق الجليد قُرب الجسر تستقرُّ الخُردة الخضراء القديمة كما رآها مستقرَّةً في الجريدة. قال شادو مشجِّعًا: «الثَّالث والعشرون من مارس، في حدود التَّاسعة والرُّبع صباحًا. يُمكنكِ أن تفعليها».

قال صوت امرأة: «نجوم السَّماء أقرب لك. الثَّالث من إبريل في السَّادسة مساءً. هكذا يُدفِئ النَّهار الجليد».

ابتسمَ شادو. كانت مارجريت أولسن ترتدي بذلة تزلُّج، وتقف في أقصى السَّطح معيدةً مَلء حاوية إطعام الطُّيور بقوالب بيضاء من شحم الحيوانات.

- «قرأتُ مقالكِ في «أخبار ليكسايد» عن تحطيم رقم البلدة القياسي في صيد الكراكي الشَّمالي».

- «مثير، هه؟».

- «تعليمي ربما».

- «ظننتك لن ترجع إلينا. اختفيت فترةً طويلةً، هه؟».

- «كان خالي محتاجًا إليَّ. الوقت جرى منا نوعًا».

وضعَت آخِر قالب شحمٍ في القفص، وبدأت تملأ جوربًا شبكيًّا ببذور الشَّوك من إبريق حليبٍ بلاستيكي، ومن فوق فروع شجرة تنُّوب قريبة زقزقَت بصبرٍ ينفد عدَّة طيور حسُّون ريشها شتوي زيتوني.

- «لم أرَ شيئًا في الصَّحيفة عن آليسن مكجفْرن».

- «لا يُوجَد ما يُكتَب عنها. ما زالَت مفقودةً. قالت شائعة إنها شُوهِدَت آخِر مرَّةٍ في دترويت، ثم اتَّضح أنه إنذار زائف».

- «مسكينة».

وضعَت مارجريت أولسن الغطاء على إبريق الحليب قائلةً بلهجةٍ تقريريَّة عمليَّة: «أرجو أن تكون ميتةً».

صدمَ قولها شادو، وقال: «لماذا؟».

- «لأن البدائل أسوأ».

بهياجٍ تواثبَت طيور الحسُّون من فرعٍ إلى فرعٍ فوق شجرة التنُّوب، وقد نفدَ صبرها راغبةً في رحيل البشر، وانضمَّ إليها نقَّار خشبٍ منفوش الرِّيش.

في قرارة نفسه قال شادو: *لستِ تُفكِّرين في آليسن، بل تُفكِّرين في ابنكِ، في ساندي.*

تذكَّر شخصًا يقول: *أوحشَني ساندي.* مَن كان؟

قال: «سرَّني التَّحدُّث إليكِ».

قالت: «نعم، وأنا أيضًا».[xcvii]

---

توالَت أنهُر فبراير قصيرةً ملبَّدةً بالغيوم. في بعض الأيام سقطَ الثَّلج وفي أغلبها لم يَسقُط، وتدريجيًّا دفِئَ الطَّقس، وفي الأيام الجيِّدة ارتفعَت الحرارة فوق درجة التَّجمُّد. مكثَ شادو في شقَّته حتى بدأ يَشعُر كأنها زنزانة، وعندئذٍ، في الأيام التي لم يتطلَّب الأربعاء وجوده فيها، شرعَ يمشي.

اعتادَ المشي ساعاتٍ كثيرةً من النَّهار، يقطع مسافاتٍ طويلةً خارج البلدة، فيمضي بمفرده حتى يصل إلى الغابة الوطنيَّة شمالًا وغربًا، أو حقول الذُّرة ومراعي البقر جنوبًا. قطعَ شادو درب البراري في مقاطعة لمبر، وسارَ بمحاذاة خطِّ السكَّة الحديد القديم، وسلكَ الطُّرق الخلفيَّة، وبضع مرَّاتٍ مشى على ضفَّة البُحيرة المتجمِّدة من الشَّمال إلى الجنوب. أحيانًا يرى سُكَّانًا محلِّيِّين أو سُيَّاحًا شتويِّين أو متريِّضين، فيلُوِّح لهم ويُلقي التَّحيَّة، لكنه لا يرى أحدًا على الإطلاق في معظم الأحيان، فقط غِربان وحساسين، وفي مرَّاتٍ قليلة لمحَ بازًا يلتهم جثَّة أبوسوم أو راكون قتلته سيَّارة على قارعة الطَّريق، بالإضافة إلى مناسبةٍ لا تُنسى شاهدَ فيها عُقابًا يختطف سمكةً فضِّيَّةً من منتصَف نهر الوايت باين، الذي تجمَّدت المياه عند حوافه وإن ظلَّ يتدفَّق ويجري في المركز. ملتمعةً في شمس منتصَف النَّهار، تلوَّت السَّمكة وانتفضت في براثن العُقاب، وتخيَّلها شادو تُحرِّر نفسها وتسبح مبتعدةً في السَّماء، وابتسمَ.

اكتشفَ شادو أنه إذا مشى فلن يضطرَّ إلى التَّفكير، ويُعجِبه هذا تمامًا، فعندما يُفكِّر يذهب عقله إلى أمكنةٍ لا يستطيع التَّحكُّم فيها، أمكنةٍ تُزعِجه. الإنهاك أفضل سبيل، فلمَّا يكون منهَكًا لا تسرح أفكاره إلى لورا، أو أضغاث الأحلام، أو إلى أشياءَ لا وجود لها ولا يُمكن أن تُوجَد، ويرجع من التَّمشية إلى منزله وينام بلا صعوبةٍ وبلا أحلام.

قابلَ رئيس الشُّرطة تشاد موليجان مصادفةً عند چورچ الحلَّاق في ميدان البلدة. لطالما عقدَ شادو آمالًا عريضةً على قَصَّة شعره، لكنها لم ترقَ إلى توقُّعاته قَطُّ، وبعد كلِّ حلاقةٍ لم يتغيَّر شكله إلَّا قليلًا، ولم يختلف فيه إلَّا قصر شعره. بدا تشاد، الجالس على مقعد الحلَّاق بجوار شادو، مهتمًّا بمظهره لدرجةٍ مدهشة، وبعدما فرغَ منه چورچ رمقَ انعكاسه بجهامةٍ كأنه يستعدُّ لأن يُحرِّر له مخالفة سرعة.

أخبرَه شادو: «تبدو جيِّدًا».

- «أكانت لتبدو جيِّدةً لك لو أنك امرأة؟».

- «أظنُّ».

قطعا الميدان معًا إلى مطعم ميبل، حيث طلبا الشُّكولاتة السَّاخنة. سألَه تشاد: «اسمع يا مايك، هل فكَّرت في احتراف العمل بسلك تطبيق القانون؟».

هزَّ شادو كتفيه مجيبًا: «لا يُمكنني أن أزعم ذلك. يبدو لي أن على المرء أن يعلم أشياء كثيرةً».

هزَّ تشاد رأسه، وقال: «أتعرف الجزء الأساسي من عمل الشُّرطة في مكانٍ كهذا؟ ما عليك إلّا الاحتفاظ برباطة جأشك. إذا وقع شيء وثمَّة من يَصرُخ فيك، يَصرُخ بأعلى حسِّه، فعليك ببساطةٍ أن تتمكَّن من القول بأنك واثق بكون المسألة كلّها غلطةً، وإنك ستُسوِّيها إذا خرجَ بهدوء، ويجب أن تعني قولك».

- «ثم تُسوِّي المسألة؟».

- «غالبًا تُقيِّده بالأصفاد لحظتها، ولكن نعم، تفعل ما باستطاعتك لتسوية المسألة. أعلِمني إن كنت ترغب في وظيفة. باب التَّعيين عندنا مفتوح حاليًا، وأنت من نوع الرِّجال الذين نُريدهم».

- «سأضعُ هذا بالحُسبان في حال فشلَ العمل مع خالي».

رشفا من الشُّكولاتة السَّاخنة، وقال موليجان: «أخبِرني يا مايك، ماذا كنت لتفعل لو أن لك ابنة عمومة؟ لو أنها أرملة وبدأت تتَّصل بك؟».

- «تتَّصل بك كيف؟».

أجابَ: «على الهاتف، مكالمات بعيدة المدى. إنها تعيش خارج الولاية»، واصطبغَت وجنتاه بالقرمزي وهو يُردِف: «رأيتها العام الماضي في زفافٍ عائلي في أوريجن، لكنها كانت متزوِّجةً آنذاك. أعني أن زوجها كان حيًّا، وهي من العائلة. ليست ابنة عمومة من الدَّرجة الأولى، قرابة بعيدة جدًّا».

- «هل تكنُّ لها مشاعر؟».

احمرار. «لا أدري».

- «طيِّب، بعبارةٍ أخرى، هل تكنُّ هي لك مشاعر؟».

- «حدثَ أنها قالت بضعة أشياء عندما اتَّصلت. إنها امرأة رائعة الجمال».

- «إذًا... ماذا ستفعل؟».

- «يُمكنني أن أسألها المجيء إلى هنا. يُمكنني أن أفعل ذلك، صح؟ لقد نوَّهت برغبتها في المجيء».

- «كلاكما بالغ. رأيي أن تسعى في الأمر».

أومأ تشاد برأسه، وتورَّد وجهه، وأومأ برأسه ثانيةً.

الهاتف في شقَّة شادو صامت ميت. فكَّر في توصيله، وإن لم يستطِع التَّفكير في أحدٍ يُريد أن يتَّصل به. في ساعةٍ متأخِّرة من إحدى اللَّيالي رفعَ السمَّاعة وأصغى، ووجدَ نفسه على قناعةٍ بأنه يسمع رياحًا تهبُّ وحوارًا بعيدًا بين مجموعةٍ من النَّاس أصواتهم أخفت من أن يُميِّزها. قال: «هالو؟»، و«مَن هناك؟»، لكنَّ أحدًا لم يردَّ، ولم يسمع إلَّا صمتًا مباغتًا، ثم صوت ضحكٍ بعيد، خافتًا لدرجة أنه لم يكن واثقًا بأنه لم يتخيَّله.

خلال الأسابيع التَّالية ذهبَ شادو في مزيدٍ من الرِّحلات مع الأربعاء.

انتظرَ في مطبخ كوخٍ في رود آيلاند، وأصغى فيما جلسَ الأربعاء في حُجرة نوم معتمة يُجادِلُ امرأةً تأبى الخروج من الفِراش وتأبى أن يرى الأربعاء أو شادو وجهها. كان في الثلَّاجة كيس بلاستيكي مملوء بصراصير الغيط، وآخر بجُثث فئران رضيعة.[xcviii]

في نادي رُك في سياتل شاهدَ شادو الأربعاء يرفع عقيرته بالتَّحيَّة فوق ضوضاء الفرقة الغنائيَّة لامرأةٍ شابَّة ذات شعرٍ أحمر قصير ووشومٍ لولبيَّة زرقاء. مؤكَّد أن حوارهما مضى على ما يُرام، إذ خرجَ منه الأربعاء مبتسمًا بحبور.

بعد خمسة أيام كان شادو منتظرًا في السيَّارة المؤجَّرة عندما خرجَ الأربعاء عابسًا من لوبي بناية مكاتب في دالاس. ركبَ الأربعاء وصفقَ باب السيَّارة، وجلسَ صامتًا بوجهٍ محتقن من الغضب، ثم قال: «تحرَّك»، ثم قال: «الألبان الملاعين.[xcix] كأن أحدًا يُبالي».

وبعد ثلاثة أيام طارا إلى بولدر، حيث تناوَلا غداءً سارًّا مع خمس شابَّاتٍ يابانيَّات.[c] امتلأ اللِّقاء بالمجاملات والكياسة، وخرجَ منه شادو غير واثقٍ إن كانوا قد اتَّفقوا على شيءٍ أو قرَّروه، وإن بدا الأربعاء راضيًا كفايةً.

بدأ شادو يتطلَّع إلى العودة إلى ليكسايد، فهناك سلام وترحاب يستحبُّهما.

في كلِّ صباحٍ لا يُريده الأربعاء في عمل، يَخرُج شادو بسيَّارته عبر الجسر إلى ميدان البلدة، ويبتاع فطيرتَي پاستي من عند ميبل، فيأكل واحدةً في التوِّ واللَّحظة ويشرب قهوةً. إذا تركَ أحدهم جريدةً قرأها، ولو أن اهتمامه بالأخبار لم يَبلُغ قطُّ درجة شراء واحدةٍ بنفسه.

أمّا الباستي الثّانية فيضعها في جيبه مغلّفة بكيسها الورقي، ويأكلها على الغداء.

ذات صباحٍ كان يقرأ «يو إس إيه توداي» عندما سألته ميبل: «مايك، أين ستذهب اليوم؟».

كانت السّماء زرقاء باهتةً، وقد ترَكَ ضباب الصّباح الأشجار مكسوّةً بالصّقيع. قال شادو: «لا أدري. قد أقطعُ درب البراري ثانيةً».

أعادَت مَلء قهوته قائلةً: «هل ذهبت شرقًا على طريق المقاطعة Q من قبل؟ المناظر جميلة نوعًا في ذلك الاتّجاه. إنه الطّريق الصّغير الذي يبدأ قبالة متجر البُسط في الجادّة العشرين».

- «لا، لم أذهب».

قالت: «طيِّب، المناظر جميلة نوعًا».

وجدَ شادو المناظر في غاية الجمال. ركنَ سيّارته عند حافة البلدة، وبدأ يمشي على الطّريق، وهو طريق ريفي متعرّج يتموّج حول التّلال الواقعة شرق البلدة، المغطّاة جميعًا بأشجار قيقب عارية من الأوراق، وبَتولة بيضاء كالعظم، وتنّوب وصنوبر داكنة. لا يُوجَد ممرٌّ للمُشاة، وهكذا مشى شادو في منتصَف الطّريق وعمدَ إلى جانبه متى سمعَ سيّارةً.

في أثناء سيرِه جارَت قِطّة صغيرة داكنة حركته على جانب الطّريق. كانت بلونِ التّراب، وكفّاها الأماميّتان بيضاويْن، ولمّا ذهبَ إليها لم تهرب.

بلا حرجٍ قال شادو: «مرحبًا يا قِطّة».

حنَت القِطّة رأسها جانبًا ورمقَته بعينين من زمرُّد، ثم هسهسَت... ليس له، بل لشيءٍ على جانب الطّريق، شيءٍ لا يراه.

قال شادو: «اهدئي»، وانسلّت القِطّة عبر الطّريق واختفَت في حقل ذُرةٍ قديمة لم تُحصَد.

عند المنحنى التّالي في الطّريق ظهرَت ساحة مقابر صغيرة للغاية. أبلَت عوامل التّعرية شواهد القبور، ولو أن باقاتٍ من الأزهار الطّازجة مسنَدة إلى الكثير منها. لا يُحيط بالمقبرة سور أو سياج، فقط أشجار توت أحمر قصيرة مزروعة على الهوامش، وقد أحناها الجليد والزّمن. خطا شادو فوق الجليد المتراكم والثّلج المائع على جانب الطّريق، حيث يقف قائما بوّابةٍ من الحجر ليُعلّما مدخل المقبرة بلا بوّابةٍ بينهما، ودخلَ السّاحة من بين القائمَيْن.

جالَ في المكان يَنظُر إلى الشَّواهد، التي لا تتجاوَز التَّواريخ المنقوشة عليها العام 1969. نفضَ الثَّلج عن ملاكٍ جرانيتي يبدو صُلبًا واستندَ إليه، ثم أخرجَ الكيس الورقي من جيبه وأخذَ منه الپاستي وكسرَها من أعلى لتنفث خيطًا رفيعًا من البُخار في الهواء الشَّتوي، وقضمَ منها.

أصدرَ شيء ما حفيفًا من خلفه، وللحظةٍ حسبَه القِطَّة، إلَّا أنه شمَّ عطرًا، وتحت العطر شمَّ عفنًا.

قال شادو: «أهلًا لورا».

خرجَ صوتها متردِّدًا -وربما خائفًا بعض الشَّيء كما خطرَ له- إذ قالت: «أهلًا يا جروي».

كسرَ قطعةً من الپاستي، وسألَها: «هل تُريدين قطعةً؟».

كانت واقفةً وراءه مباشرةً الآن. «لا. كُلها أنت. لم أعُد آكل الطَّعام».

أكلَ الپاستي، وكانت لذيذةً. «أريدُ أن أنظر إليكِ».

قالت: «لن يروقك المنظر».

- «أرجوكِ».

دارَت حول الملاك الحجري، ونظرَ شادو إليها في ضوء النَّهار. بعض الأشياء مختلف وبعضها كما هو. عيناها لم تتغيَّرا، ولا تغيَّر الأمل في ابتسامتها المعوجَّة، ومن الواضح جدًّا أنها ميتة جدًّا. أنهى شادو الپاستي واعتدلَ في وقفته وأفرغَ الكيس الورقي من الفتافيت، ثم طواه ووضعَه في جيبه ثانيةً.

بشكلٍ ما، سهَّل عليه الوقت الذي أمضاه في دار الجنازات بالقاهرة وجوده في حضورها، وإن لم يدرِ ماذا يقول لها.

سعَت يدها الباردة إلى يده، واعتصرَها برفقٍ شاعرًا بقلبه ينبض في صدره. كانَ خائفًا، وما أخافَه هو عاديَّة اللَّحظة، إذ شعرَ بارتياحٍ عميق لوجودها بجواره لدرجةٍ جعلَته يروم الوقوف هكذا إلى الأبد.

قال معترفًا: «افتقدتكِ».

قالت: «أنا هنا».

- «وهو أكثر وقتٍ أفتقدكِ فيه، وأنتِ هنا. عندما لا تكونين هنا، عندما تكونين مجرَّد شبحٍ من الماضي أو حُلمٍ من حياة أخرى، أجدُ الأمر أسهل».

واعتصرَت لورا أصابعه.

سألها: «كيف تجدين الموت؟».

أجابَت: «صعبًا، يستمرُّ بلا آخر».

أراحَت رأسها على كتفه، وكادَ إحساسه بها يُفنيه. سألها: «هلّا تمشّينا قليلًا؟».

قالت: «أكيد»، ورفعَت إليه رأسها مبتسمةً، ابتسامتها متوتّرة معوجّة في وجهٍ ميت.

خرجا من ساحة المقابر الصّغيرة على الطّريق وسارا في اتّجاه البلدة بيدين متعانقتين.

سألَته: «أين كنت؟».

- «هنا في الغالب».

- «منذ الكريسماس. لقد فقدتُ أثرك. أحيانًا أعرفُ أين أنت لبضع ساعاتٍ أو بضعة أيام، تكون محسوسًا للغاية، ثم تخبو ثانيةً».

قال: «كنتُ في هذه البلدة، ليكسايد. إنها بلدة صغيرة صالحة».

- «أوه».

لم تَعُد ترتدي البدلة الزّرقاء التي دُفِنَت بها. الآن ترتدي عدّة سويترات وتنّورةً طويلةً غامقةً، وتنتعل حذاءً خمريًّا طويل العُنق. علّق شادو على الحذاء، فخفضَت لورا رأسها مبتسمةً، وقالت: «أليس حذاءً رائعًا؟ وجدته في متجر أحذيةٍ رائع في شيكاجو».

- «وما الذي جعلَكِ تُقرّرين المجيء من شيكاجو؟».

- «أوه، لم أعُد في شيكاجو منذ مُدّةٍ يا جروي. كنتُ متّجهةً إلى الجنوب لأن البرد يُزعِجني، المفترَض أن أرحّب به، لكن للأمر علاقةً بكونك ميتًا على ما أظنُّ. ما تَشعُر به ليس بردًا، بل لا شيء، خُواء، وعندما تكون ميتًا، أظنُّ أن الشّيء الوحيد الذي يُخيفك هو اللا شيء. كنتُ ذاهبةً إلى تكساس. نويتُ أن أقضي الشّتاء في جالفستن. أظنُّني اعتدتُ قضاء الشّتاء في جالفستن في طفولتي».

- «لا أظنُّ. لم تَذكُري ذلك قطُّ».

قالت: «حقًّا؟ ربما كان شخصًا آخَر إذًا. لا أدري. أذكرُ النّوارس، إلقاء الخُبز في الهواء للنّوارس، مئات منها، فتُصبِح السّماء بأكملها نوارس تخفق

أجنحتها وتختطف الخُبز من الهواء»، وصمتَت لحظةً، ثم أردفت: «إن لم أكن رأيتُ ذلك فأظنُّ أن أحدًا آخَر رآه».

أتَت سيَّارة على جانب الطَّريق الآخَر، ولوَّح السَّائق لهما محيِّيًا فردَّ شادو التَّحيَّة. كان لمشيه مع زوجته شعور رائع في عاديَّته.

كأنها قرأت أفكاره، قالت لورا: «حُلو هذا الشُّعور».

- «نعم».

- «أنا مسرورة لأنك تستحليه أيضًا. حين بلغَني النِّداء اضطررتُ إلى العودة مسرعةً. كنتُ على وشك دخول تكساس».

- «النِّداء؟».

رفعَت إليه عينيها، والتمعَت العُملة الذَّهب المدلَّاة من عُنقها إذ قالت: «شعرتُ به كنداء. بدأتُ أفكِّرُ فيك، في استمتاعي بوجودي معك أكثر من جالفستن مئة مرَّة، في احتياجي الشَّديد إلى رؤيتك. كان شعورًا كالجوع».

- «وعلمتِ أني هنا تحديدًا؟».

قالت: «نعم»، ثم توقَّفت عاقدةً حاجبيها، وانضغطَت أسنانها العُلويَّة في شفتها السُّفليَّة المزرقَّة، تعضُّها برفق، وحنَت رأسها جانبًا قائلةً: «نعم، علمتُ، فجأةً علمتُ. حسبتك تُناديني، لكنه لم يكن أنت، أليس كذلك؟».

- «نعم».

- «لم تُرِد رؤيتي».

قال: «ليس ذلك»، وتردَّد، ثم قال: «نعم، لم أرِد رؤيتكِ. الألم أقوى من احتمالي».

قالت لورا: «لا بُدَّ أن من الصَّعب ألَّا يكون المرء حيًّا».

- «تعنين أن من الصَّعب عليكِ أن تكوني ميتةً؟ اسمعي، سوف أجدُ وسيلةً لإعادتكِ كما ينبغي. أظنُّني على المسار الصَّحيح...».

قاطعَته: «لا. أعني أنني ممتنَّة، وآملُ حقًّا أن تتمكَّن من ذلك. لقد ارتكبتُ أفعالًا سيِّئةً كثيرةً...»، وهزَّت رأسها مضيفة: «لكنني قصدتك أنت».

قال شادو: «أنا حي، لستُ ميتًا. أتذكُرين؟».

- «لست ميتًا، لكنني لستُ واثقة بكونك حيًّا كذلك، ليس بحق».

فكَّر شادو: *ليس هذا مسلكًا يسلكه هذا الحوار. ليس هذا مسلكًا يسلكه أيُّ شيء.*

قالت بنبرةٍ خالية من المشاعر: «إنني أحبُّك. أنت جروي. لكن حين تموت تتّضح لك الأشياء. الآن كأن لا أحد هنالك، هل تفهم؟ إنك مثل فجوةٍ كبيرةٍ مصمتة لها شكل رجل، فجوة في العالم»، وقطَّبت وجهها متابعةً: «حتى عندما كنا معًا. لقد أحببتُ أن أكون معك لأنك عشقتني وكنت لتفعل أيَّ شيءٍ من أجلي. لكن أحيانًا كنتُ أدخلُ غُرفةً ولا أحسبُ أن فيها أحدًا، وأشعلُ الضوء أو أطفئه وأدركُ أنك هناك، تجلس بمفردك، لا تقرأ أو تُشاهد التليفزيون أو تفعل شيئًا». لحظتها احتضنَته كأنما تبغي تجريد كلامها من أشواكه، وقالت: «أفضل ما في رُبي أنه كان شخصًا موجودًا. كان قليل الذَّوق أحيانًا، ويُمكنه أن يجعل نفسه أضحوكةً، وأحبَّ وضع المرايا حول السَّرير عندما نُمارس الحُبَّ ليتفرَّج على نفسه وهو يُضاجعني، لكنه كان حيًا يا جروي، يشتهي أشياءَ في الحياة، يملأ الفراغ»، وتوقَّف ورفعَت إليه ناظريْها، وأمالَت رأسها جانبًا بعض الشَّيء قائلةً: «آسفة. هل جرحتُ مشاعرك؟».

لم يستأمِن صوته على كتمان مشاعره، فاكتفى بهزِّ رأسه نفيًا.

قالت: «جيِّد، هذا جيِّد».

كانا يقتربان من الاستراحة التي ركنَ عندها سيَّارته. شعرَ أنه محتاج إلى قول شيءٍ ما: *أحبُّكِ*، أو *أرجوكِ لا ترحلي*، أو *آسف*، ضرب الكلام الذي يُقال لترقيع محادثةٍ جنحَت دون سابق إنذارٍ إلى نواحٍ ظلاميَّة، لكنه بدلًا من ذلك قال: «أنا لستُ ميتًا».

- «ربما، لكن أأنت واثق بكونك حيًّا؟».

- «انظُري إليَّ».

قالت زوجته الميتة: «ليس هذا جوابًا. عندما تكون حيًّا ستعرف».

- «والآن ماذا؟».

- «لقد رأيتك. سأذهبُ جنوبًا مجدَّدًا».

- «ستعودين إلى تكساس؟».

- «إلى أيِّ مكانٍ دافئ. لا أبالي».

قال شادو: «يجب أن أنتظر هنا حتى يحتاج إليَّ رئيسي».

قالت لورا: «ما هذه بحياة»، وتنهَّدت، ثم ابتسمَت الابتسامة نفسها التي استطاعَت دومًا أن تمسَّ شغاف قلبه مهما رآها مرارًا. كلَّما ابتسمَت له كانت تبتسم له للمرَّة الأولى من جديد.

- «هل سأراكِ ثانيةً؟».

نظرَت إليه واختفَت ابتسامتها، وقالت: «أظنُّ، في النِّهاية. لا شيء انتهى بعدُ، أليس كذلك؟».

- «بلى، لا شيء انتهى».

تقدَّم ليُطوِّقها بذراعه، إلَّا أنها هزَّت رأسها وابتعدَت عن متناوله، وجلسَت على حافة طاولة نُزهات مغطَّاة بالثَّلج، وشاهدَته يبتعد بسيَّارته.

# فاصل

الحرب بدأت وما من أحدٍ رأى. العاصفة تكفهرُ وما من أحدٍ يدري.

تُخاض الحروب طيلة الوقت، والعالم الخارجي لا يفقه شيئًا: الحرب على الجريمة، الحرب على الفقر، الحرب على المخدِّرات. ومع أن هذه الحرب أصغر من تلكم، وأضخم، وأكثر انتقائيَّة، فإنها حقيقيَّة كأيٍّ منها.

في مانهاتن سدَّت عارضة ساقطة شارعًا يومين، بعد أن قتلت اثنين من المارَّة وسائق تاكسي عربيًّا وراكب التاكسي.

في دنڤر عُثِرَ على سائق شاحنةٍ ميتًا في بيته. تُرِكت أداة الجريمة -مطرقة مخلبيَّة الرَّأس ذات مقبضٍ من المطَّاط- على الأرض بجوار الجثَّة، التي لم يُمَسَّ وجهها لكن مؤخِّرة رأسها دُمِّرَت تمامًا، وقد سُطِرَت عدَّة كلماتٍ بأبجديَّة أجنبيَّة على مرآة الحمَّام بطلاء شفاهٍ بنِّي.

في فينكس بأريزونا جُنَّ جنون رجلٍ بمحطَّة فرز بريديَّة، أصابته لوثة البريد بحسب تعبير نشرة الأخبار المسائيَّة، وأطلقَ النَّار على تري "الترول" إڤنسن، وهو رجل أخرق مفرط السُّمنة عاش وحده في مقطورة. أُطلِقَت النَّار على آخَرين عدَّة في محطَّة الفرز، لكن أحدًا لم يلقَ مصرعه إلَّا إڤنسن. أمَّا الرَّجل الذي أطلقَ النَّار -وظُنَّ في البداية أنه موظَّف بريد ساخط- فلم يُقبَض عليه أو تُحدَّد هُويَّته قَطُّ.

وقال مشرف تري "الترول" إڤنسن في نشرة أخبار الخامسة: «بصراحة، إن كان أحد هنا ستُصيبه لوثة البريد لحسبناه الترول. عامل لا بأس به، ولكن رجل غريب الأطوار. لا أحد يعرف أبدًا، هَه؟».

اقتُطِعَت هذه المقابلة من الفقرة عند إعادتها في وقتٍ لاحق من ذلك المساء.

في مونتانا عُثِرَ على طائفة من تسعة نُسَّاك موتى. قدَّر المراسلون أنه انتحار جماعي، ولكن سرعان ما أُعلِنَ أن سبب الوفاة التَّسمُّم بأوَّل أكسيد الكربون من فُرنٍ قديم.

في أتلانتا بلوبي مطعم مأكولات بحريَّة حُطِّمَ حوض كركند.

في كي وِست انتُهِكَ أحد القبور بساحة مقابر.

في آيداهو صدمَ قطار «أمتراك» شاحنة UPS موديًا بحياة سائقها، ولم يُصَب أحد من المسافرين بجروحٍ خطرة.

لا تزال حربًا باردةً في تلك المرحلة، حربًا زائفةً بلا مكسبٍ أو خسارةٍ حقًّا.

هزَّت الرِّيح فروع الشَّجرة، وقدحَ الشُّرر من النَّار. العاصفة مقبلة.

---

تقف ملكة سبأ التي قالوا إنها نصف شيطانة من جهة الأب، تقف السَّاحرة والحكيمة والملكة التي حكمَت سبأ حين كانت أفحش أرضٍ عرفَها العالم ثراءً، وحُمِّلَت توابلها وجواهرها وأخشابها العاطرة على متون القوارب وظهور الجِمال إلى أركان الأرض جميعًا، التي عُبِدَت حتى وهي على قيد الحياة، عبدَها أحكم الملوك باعتبارها ربَّةً حيَّةً، تقف على رصيف صنسِت بولڤار في الثَّانية صباحًا محدِّقةً بنظراتٍ خاوية إلى حركة المرور مثل عروسٍ بلاستيكيَّة خليعة فوق كعكة زفافٍ ملوَّنة بالأسود والنيون، تقف كأنما تملك الرَّصيف وتملك اللَّيل المحيط بها.

عندما يُوجِّه إليها أحدهم نظرةً مباشرةً تتحرَّك شفتاها كأنها تُكلِّم نفسها، وعندما يمرُّ بها رجال بسيَّاراتهم تُلامِس أعيُنهم بعينيها وتبتسم. أمَّا الرِّجال الذين يمرُّون بها على الرَّصيف فتتجاهَلهم (يتصادَف أن النَّاس يمشون في كلِّ مكان، حتى في غرب هوليوود)، تتجاهَلهم وتبذل قُصارى جهدها لتتظاهَر بأن لا وجود لهم.

كانت ليلةً طويلةً.

كان أسبوعًا طويلًا، وأربعة آلاف عامٍ طويلةً.

فخورٌ هي لأنها لا تدين بشيءٍ لأحد. الفتيات الأخريات في الشَّارع لهن قوَّادون، ولهن عادات تعاطٍ، ولهن أطفال، ولهن أناس يأخذون أرباحاهن. أمَّا هي فلا.

لم يتبقَّ شيء مقدَّس في مهنتها هذه، لا شيء.

قبل أسبوعٍ بدأ المطر ينهمر على لوس آنچلس محيلًا الشَّوارع إلى طُرقٍ زلقة كثُرت فيها الحوادث، ومفتِّتًا الطِّين على جوانب التِّلال، ومُسقطًا المنازل في الأخاديد، يجرف العالم إلى الميازيب والبالوعات ويُغرِق الصَّعاليك

والمشرَّدين المخيِّمين في قناة النَّهر الخرسانيَّة. متى هلَّت الأمطار على لوس آنچلس أخذت النَّاس على حين غرَّة.

أمضت بلقيس الأسبوع الماضي في الدَّاخل. لمَّا كانت عاجزةً عن الوقوف على الرَّصيف، فقد تكوَّرت على نفسها في فراشها بالغرفة ذات لون الكبد النِّيِّئة، تُصغي إلى وقع المطر على صندوق مكيِّف الهواء المعدني، وتضع إعلاناتٍ شخصيَّةً على الإنترنت، تاركةً دعواتٍ على Adultfriendfinder.com وLA-escorts.com وClassyhollywoodbabes.com. وقد أعطت نفسها عنوان إيميل مجهولًا. كانت فخورًا بنفسها لتفاوُضها على المناطق الجديدة، وإن ظلَّت متوتِّرةً، فقد قضت وقتًا طويلًا في اجتناب أيِّ شيءٍ له علاقة بسجلٍّ ورقي من قريبٍ أو بعيد، حتى إنها لم تَنشر ولو إعلانًا صغيرًا في صفحات «إل إيه ويلكي» الخلفيَّة، محبِّذةً أن تنتقي زبائنها بنفسها، أن تجد بالنَّظرة والرَّائحة واللَّمسة مَن يتعبَّدون إليها بقدر ما تحتاج إلى التَّعبُّد، مَن يدعونها تأخذهم إلى النِّهاية...

ويَخطُر لها الآن وهي واقفة ترتجف على ناصية الشَّارع (فلئن كانت أمطار أواخر فبراير قد انقطعت، فالبرد الذي جلبَته باقٍ) أن لها عادةً لا تقلُّ سوءًا عن عادات عاهرات الهروين وعاهرات الكوكايين، ويغمُّها هذا، وتعود شفتاها إلى الحركة، ولو كنت قريبًا بما فيه الكفاية من شفتيها الياقوتيَّتين لسمعتها تقول:

– «*إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي*». تهمس بهذا، وتهمس: «*أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي. قَالَ إِنَّ قَامَتِي هَذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ وَثَدْيَايَ بِالْعَنَاقِيدِ. قَالَ إِنَّهُ سَيَأْتِينِي حِينَئِذٍ. أَنَا لِحَبِيبِي وَإِلَيَّ اشْتِيَاقُهُ*».[102]

تأمل بلقيس أن تُعيد انفراجة الطَّقس المطير الزَّبائن. في معظم أيام السَّنة تتمشَّى عند مربَّعات البنايات القليلة في صنست مستمتعةً بليالي لوس آنچلس الفاترة، ومرَّةً في الشَّهر تدفع إتاوةً لضابطٍ بشُرطة لوس آنچلس اسمه صبَّاح، حلَّ محلَّ ضابطٍ آخر اعتادَت أن تدفع له الإتاوة قبل أن يختفي. كان اسمه چري ليبك، واختفاؤه الغامض حيَّر شُرطة لوس آنچلس. أصبحَ الرَّجل مهووسًا ببلقيس، وبدأ يتبعها سيرًا على الأقدام، وذات أصيلٍ أيقظَتها ضوضاء مفزوعةٌ، وحين فتحَت باب شقَّتها وجدَت چري ليبك بملابس مدنيَّة راكعًا يتمايَل على البساط البالي، خافضًا رأسه ينتظر خروجها. الضَّوضاء

التي سمعَتها كانت تلك التي صنعَها رأسه إذ خبطَ الباب مع تأرجُحه إلى الأمام والخلف على رُكبتيه.

ملَّست بلقيس على شعره ودعَته إلى الولوج، ولاحقًا وضعَت ثيابه في كيس قمامة بلاستيكي أسود ورمَتها في مكبِّ قمامة وراء فندقٍ يَبعُد عدّة أميال، أمّا مسدَّسه ومحفظته فوضعَتهما في كيس محلِّ بقالة، وسكبَت فوقهما ثُفل قهوة وبقايا طعام، وطوَت الكيس ورمَته في سلَّة مهملات بمحطَّة حافلات.

لا تحتفظ بلقيس بتذكارات.

تتوهَّج سماء اللَّيل البرتقاليَّة في الغرب مع سطوع برقٍ بعيد في مكانٍ ما فوق البحر، فتعلم بلقيس أن المطر سيَسقط قريبًا، وتتنهَّد. ليست تُريد أن تعلق في المطر، وهكذا تُقرِّر أن ترجع إلى شقَّتها وتأخذ حمَّامًا وتحلق ساقيها -ويبدو لها أنها تحلق ساقيها دائمًا- ثم تنام.

تهمس: «*فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلَاتِ فَمِهِ. حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ*».

تبدأ قطع شارعٍ جانبي صاعدةً على جانب التَّل إلى حيث ركنَت سيّارتها.

تسطع أضواء سيّارةٍ من خلفها، وتتباطأ حركتها إذ تدنو منها، وتلتفت بلقيس إلى الشَّارع وتبتسم، ثم تتجمَّد الابتسامة على وجهها حين ترى أن السيَّارة ليموزين مطوَّلة بيضاء. راكبو الليموزين المطوَّلة يُريدون ممارسة الجنس في الليموزين المطوَّلة، لا في خلوة مقام بلقيس. ومع ذلك قد يكون هذا استثمارًا، شيئًا ينفعها في المستقبل.

طنين نافذةٍ معتمة تنخفض، وبابتسامةٍ تتَّجه بلقيس إلى الليمو قائلةً: «أهلًا يا عسل. هل تبحث عن شيء؟».

فيُجيب صوت من مؤخَّرة السيّارة: «الغرام وحلاوته»، وتُمعِن بلقيس النَّظر إلى الدَّاخل قدر المستطاع عبر النَّافذة المفتوحة. إنها تعرف فتاةً ركبَت ليمو مطوَّلةً مع خمسة لاعبي كُرة قدم سكارى وتأذَّت بشدَّة. الآن ترى زبونًا واحدًا، ويبدو أقرب إلى الصِّغر نوعًا. لا يُعطيها إحساسًا بأنه متعبِّد، إلَّا أن المال، المبلغ السَّخي الذي ينتقل من يده إلى يدها، طاقة في حدِّ ذاته -بَركة كما كانوا يُسمُّونها في سالف الزَّمن- طاقة تستطيع استغلالها، وصراحةً هي محتاجة إلى كلِّ نواةٍ تسند الزِّير هذه الأيام.

يسألها: «كم؟».

- «حسب ما تُريد، وكم من الوقت تُريده، وإن كنت تقدر على تكلفته».

تشمُ شيئًا دُخانيًا يتسرَّب من نافذة الليمو، رائحةَ كالأسلاك المحترقة ولوحات الدوائر الكهربائيَّة زائدة السُّخونة.

يُفتَح الباب من الدَّاخل، ويقول الزَّبون: «يمكنني دفع تكلفة أيِّ شيءٍ أريده».

تميل داخل السيَّارة وتُلقي نظرةً في أنحائها. لا أحد آخر هنا، فقط الزُّبون، فتى منفوخ الوجه لا يبدو أنه بلغ سنَّ الشُّرب حتى. لا أحد غيره، وهكذا تدخل.

تقول: «فتى ثري، هَه؟».

فيردُّ دانيًا منها ببُطءٍ على المقعد الجلدي، حركته بادية الخرق: «أثرى من ثري».

تبتسم له قائلةً: «ممم. سخَّنتني يا عسل. لا بُدَّ أنك من أصحاب الدُّت كُم إياهم الذين أقرأ عنهم».

عندئذٍ يلوح عليه الاختيال، ينتفخ كضفدعٍ عُدواني، ويقول: «نعم، من ضمن أشياء أخرى. إنني فتى تقني»، وتتحرَّك السيَّارة.

يقول: «أخبِريني إذًا يا بلقيس، كم لكي تُمتعيني بفمكِ فقط؟».

- «بِمَ دعوتني؟».

يُكرِّر: «بلقيس»، ثم يُغنِّي بصوتٍ لا يَصلُح للغناء: «أنتِ فتاة روحانيَّة تعيش في عالم مادِّي».[1] في كلماته ما يُوحي بالمران، كأنه تدرَّب على هذا الحوار أمام مرآة.

تزول ابتسامتها، ويتبدَّل وجهها، يُصبِح أحكم وأحدَّ وأقسى، وتسأله: «ماذا تُريد؟».

- «أخبرتكِ، الغرام وحلاوته».

تقول: «سأعطيك أيَّ شيءٍ تُريده»، يجب أن تَخرُج من هذه الليمو. تُفكِّر أن حركة السيَّارة أسرع من أن تُلقي نفسها منها، ولكن إن لم تستطِع الخلاص من هذا الموقف بالكلام فستلجأ إلى ذلك. أيًّا كان ما يَحدُث هنا فهو لا يُعجِبها.

يقول: «ما أريده، نعم»، ويَصمُت ويجري لسانه على شفتيه، ثم يُتابِع: «أريدُ عالمًا نظيفًا. أريدُ أن أملك الغد. أريدُ التَّطوُّر والتَّدهوُر وثورةً تتفجَّر. أريدُ نقل نوعنا من هوامش التيَّار الخلفي إلى أرض التيَّار الرَّئيسي الأعلى. أنتم تعيشون تحت الأرض، وهذا خطأ. يجب أن نُسلِّط علينا الأضواء ونتألَّق، نحتلَّ الصَّدارة. لقد بقيتم متوغِّلين تحت الأرض زمنًا طويلًا جدًّا حتى إنكم فقدتم أبصاركم.

تقول: «اسمي عائشة. لا أدري عمَّ تتكلَّم. هناك فتاة أخرى تقف عند النَّاصية اسمها بلقيس. يُمكننا العودة إلى صنسنت، يُمكنك أخذنا معًا...».

يقول: «أوه، بلقيس»، ويُطلق تنهيدةً مسرحيَّة، ويُردِف: «الإيمان المتوفِّر قليل للغاية. إنهم على وشك بلوغ نهاية ما يقدرون على إعطائه لنا. إنها فجوة المصداقيَّة»، ثم يعود إلى الغناء بصوته الأنفي النَّشاز: «*أنتِ فتاة تناظُريَّة تعيش في عالمٍ رقمي*».

تدور الليمو حول زاوية بسرعةٍ أكبر من اللَّازم، وينقلب على المقعد مرتطمًا بها. سائق السيَّارة مختفٍ وراء الزُّجاج المعتم، وفجأةً ينتابها اقتناع غير منطقي بأن أحدًا لا يقود السيَّارة، بأن الليمو البيضاء تقود نفسها عبر بفرلي هيلز مثل هربي حشرة الحُبِّ،[1] بإرادتها الخاصَّة.

ثم يمدُّ الزَّبون يده وينقُر على الزُّجاج المعتم.

تُبطئ السيَّارة، وقبل أن تتوقَّف تفتح بلقيس الباب، وبحركةٍ نصفها قفزة ونصفها سقطة تَخرُج على الأسفلت الأسود. إنها على طريقٍ فوق جانب التَّل، عن يسارها مرتفَع شديد الانحدار وعن يمينها هاوية عموديَّة.

وتندفع بلقيس تجري على الطَّريق.

وتقف السيَّارة في مكانها بلا حراك.

يبدأ المطر في السُّقوط، وينزلق كعباها العاليان ويلتويان تحتها، فتخلعهما ركلًا وتجري غارقةً بالماء حتى الجلد بحثًا عن بُقعةٍ ما تَخرُج منها عن الطَّريق. إنها خائفة. حقيقيٌّ أنها تتمتَّع بقوَّة، لكنها قوَّة سحر الجوع، سحر الفرج، وحقيقيٌّ أنها أبقَتها حيَّةً في هذه الأرض دهرًا، لكن بلقيس تستخدم مع كلِّ شيءٍ آخَر ليس حيًّا حدَّة عينيها وعقلها، وطول قامتها وحضورها.

عن يمينها حاجز أمان معدني بارتفاع الرُّكبة، للحيلولة دون سقوط السيَّارات من فوق جانب التَّل، والآن يجري ماء المطر على الطَّريق جاعلًا منه نهرًا، ويبدأ أخمص قدميها ينزف.

أضواء لوس أنجلس منتشرة أمامها، خريطة كهربيَّة متلألئة لمملكةٍ خياليَّة، السَّماوات منبسطة ها هنا على الأرض، وتعلم أن كلَّ ما يلزمها لتُصبح آمنةً أن تَخرُج عن الطَّريق.

---

(1) هربي: سيَّارة «ڤولكسواجن»، وبطلة سلسلةٍ من أفلام «ديزني» الكوميديَّة. (المُترجم).

تُوَشوِش اللَّيل والمطر: «*أنا سَوداءُ ولكنَّني جميلةٌ. أنا نَرجسُ شارُونَ سَوسَنةُ الأَوديَةِ. أَدخلَني إلى بَيتِ الخَمرِ. أَنعشُوني بالتُّفاحِ فإنّي مريضةٌ حُبًّا*».

يتّقد لسان برق متشعِّب بالأخضر في سماء اللّيل، وتزلُّ بلقيس وتنزلق عدَّة أقدامٍ ساحجةً ساقها ومرفقها، وبينما تنهض ترى أضواء السيّارة تنزل التّل صوبها، تنزل بسرعةٍ تتعدّى حدَّ الأمان، وتتساءل بلقيس هل تُلقي نفسها يمينًا حيث يُمكن للسيّارة أن تسحقها على جانب التّل؟ أم يسارًا حيث يُمكن أن تَسقُط في الهوّة؟ وتجري عابرةَ الطّريق، نيّتها أن تدفع نفسها إلى أعلى على التُّربة المبتلّة، أن تتسلّق. وفي هذه اللّحظة تأتي الليمو المطوّلة البيضاء متأرجحةً على الطّريق الزّلق، وبحقّ الجحيم لا بُدَّ أنها منطلقة بسرعة ثمانين ميلًا في السّاعة، بل وربما تتزلّج على سطح الطّريق، وتغرس بلقيس يديها في الحشائش والتُّربة، وتعلم أنها ستتسلّق وتهرب، لكن التُّربة المبتلّة تتفتّت وتَسقُط بلقيس على الطّريق.

وتصدمها السيّارة بعُنفٍ انبعجَت منه الشّبكة الأماميّة وألقى بلقيس في الهواء كما لو أنها دُمية قُفّاز، لتحطَّ على الطّريق خلف الليمو، وتُحطِّم الصّدمة حوضها وتشرخ جمجمتها.

ويجري ماء المطر البارد على وجهها.

وتشرع بلقيس تلعن قاتلها، تلعنه بصمتٍ لأنها لا تستطيع تحريك شفتيها، تلعنه في اليقظة والنّوم، في الحياة والموت، تلعنه كما تستطيع نصف شيطانةٍ من جهة الأب وحدها أن تلعن.

يُفتَح باب سيّارة ويتقدّم إليها أحدهم، ومرّةً أخرى يُغنّي نشازًا: «*كنتِ فتاةً تناظُريّةً في عالمٍ رقمي*»، ثم يقول: «يا لكِن من مادونات لعينات،[1] يا لكِن جميعًا من مادونات لعينات»، ويبتعد.

ويُصفَق باب السيّارة.

تتحرّك الليمو إلى الوراء وتدعسها... ببُطءٍ أوّل مرّة، وتنسحِق عظامها تحت العجلات، ثم تنطلق الليمو نازلةً التّل نحوها ثانيةً.

وعندما تبتعد -أخيرًا- لا تُخلِّف السيّارة وراءها على الطّريق إلّا لحمًا معجونًا يكاد لا يتبيَّن لأحدٍ أنه لإنسان، وسرعان ما سيجرفه المطر.

# فاصل 2

- «أهلًا سامانثا».
- «ماجز؟ أهذه أنتِ؟».
- «ومَن غيري؟ ليون قال إن خالتو سامي اتّصلت وأنا أستحمُّ».
- «تكلّمنا كلامًا حُلوًا. إنه ولد في غاية العذوبة».
- «نعم. أظنُّني سأحتفظ به».

لحظة من عدم الارتياح بينهما، بالكاد لمحة من همسةٍ عبر خطوط الهاتف، ثم: «سامي، ما أخبار الدّراسة؟».

- «أعطونا أسبوعًا إجازةً. مشكلة في الأفران. كيف الأحوال في بُقعتكِ الضيّقة من الغابات الشّماليّة؟».
- «عندي جار جديد في الشقّة المجاورة، يُمارِس خدع العُملة. حاليًا يعرض عمود رسائل القُرّاء في «أخبار ليكسايد» نقاشًا ملتهبًا عن احتمال إعادة تقسيم أرض البلدة عند المقبرة القديمة على شاطئ البُحيرة الجنوب غربي، وعلى صاحبتكِ أن تَكتُب مقالةً افتتاحيّةً شديدة اللّهجة تُلخِّص موقف الصّحيفة من القضيّة، دون إهانة أحدٍ أو إعطاء فكرةٍ فعليّة عن موقفنا».
- «يبدو عملًا ممتعًا».
- «لا، ليس كذلك. آليسن مكجڤرن اختفَت الأسبوع الماضي، ابنة چيلي وستان مكجڤرن الكُبرى. لا أظنُّكِ قابلتِهم. فتاة لطيفة، عملَت جليسة لليون بضع مرّات».

ينفتِح فم ليقول شيئًا، ثم ينغلِق دون قول ما كان سيقوله، وبدلًا من ذلك يقول: «أمر فظيع».

- «نعم».
- «أخبِريني...»، ولأن لا شيء يُقال بعد ذلك لن يُؤلِم، تقول: «أهو وسيم؟».

- «منْ؟».

- «الجار».

- «اسمه آينسل، مايك آينسل. لا بأس به. صغير جدًّا بالنِّسبة إليَّ. رجل كبير الحجم، يبدو... ما الكلمة؟ تبدأ بالميم».

- «مؤذيًا؟ متقلِّب المزاج؟ مهيبًا؟ متزوِّجًا؟».

ضحكة قصيرة، ثم: «نعم، أظنُّه يبدو متزوِّجًا. أعني، إن كان للرِّجال المتزوِّجين شكل معيَّن فهذا هو شكله. لكن الكلمة التي كنتُ أفكِّرُ فيها هي مكتئب. يبدو مكتئبًا».

- «ومحفوفًا بالغموض؟».

- «ليسَ بشكلٍ خاص. في بداية سكنه بدا قليل الحيلة نوعًا، لم يكن يعرف كيف يعزل النَّوافذ حتى. هذه الأيام ما زالَ يبدو كأنه لا يعرف ما يفعله هنا. عندما يكون هنا... يكون هنا، ثم يرحل ثانيةً. أراه يتمشَّى بين الحين والآخَر. لا يُسبِّب متاعب».

- «قد يكون لصَّ بنوك».

- «آها، كما حسبتُ بالضَّبط».

- «لم تحسبي ذلك، إنها فكرتي. اسمعي يا ماجز، كيف حالكِ أنتِ؟ أأنتِ بخير؟».

- «نعم».

- «حقًّا؟».

- «لا».

صمتٌ طويل، يتبعه: «سآتي لأراكِ».

- «سامي، لا».

- «سآتي بعد نهاية الأسبوع قبل أن تعمل الأفران وتعود الدِّراسة، سنستمتع بوقتنا. أعدِّي لي فِراشًا على الأريكة، وادعي الجار الغامض إلى العَشاء ذات ليلة».

- «سام، إنكِ تتصرَّفين كخاطبة».

- «مَن تتصرّف كخاطبة؟ بعد كلودين الحقيرة الآتية من الجحيم، قد أكونُ مستعدّةً للعودة إلى الصُبيان بعض الوقت. قابلتُ واحدًا غريبًا لطيفًا عندما استركبتُ إلى إل پاسو لحضور الكريسماس».

- «أوه، اسمعي يا سام، يجب أن تكفّي عن الاستركاب».

- «كيف تحسبينني سأصلُ إلى ليكسايد؟».

- «آليسن مكجفرن كانت تستركِب. حتى في بلدةٍ كهذه ليس شيئًا آمنًا. سأحوّلُ لكِ النُقود. اركبي الحافلة».

- «سأكونُ بخير».

- «سامي!».

- «ليكن يا ماجز. حوِّلي لي النُقود إن كان ذلك سيُسهِّل عليكِ النَّوم».

- «تعلمين هذا».

- «حسن أيتها الأخت الكبيرة المتآمِرة. أعطي ليون حضنًا وقولي له إن خالتو سامي قادمة وألّا يُخبِّئ لُعبه في فِراشها هذه المرّة».

- «سأخبره، لكني لا أعدُ بأن يُجدي هذا نفعًا. متى أنتظركِ؟».

- «ليلة غد. ليس ضروريًا أن تُقابِليني في محطّة الحافلات. سأطلبُ من هينزلمان أن يُوصلني بتِسي».

- «فاتَ الأوان، تِسي مركونة حتى نهاية الشّتاء. لكن هينزلمان سيُوصلكِ على كلّ حال. إنه يحبُكِ لأنكِ تُصغين إلى قصصه».

- «قد يكون عليكِ أن تجعلي هينزلمان يَكتُب لكِ مقالتكِ: *بصدد إعادة تقسيم الأرض عند المقبرة القديمة، حدثَ في شتاء العام ألف وتسعمئة وثلاثة أن جرامپا أطلقَ النّار على وعلٍ عند المقبرة القديمة على البُحيرة. كانت طلقاته قد نفدَت، فاستخدمَ نواة كرزٍ من الغداء الذي حزمَته له جرانماما، وخدشَت الطّلقة جمجمة الوعل فانطلقَ يفرُّ كخُفّاشٍ من الجحيم. بعد عامين كان جرامپا في تلك المنطقة، ويرى ذلك الوعل الجسيم الذي تنبت شجرة كرزٍ متفرّعة بين أسلاته، فأطلقَ عليه النّار، وطبخَت جرانماما فطائر كرزٍ ظلّوا يأكلونها حتى عيد الرّابع من يوليو التّالي...*».

وضحكَت كلتاهما.

## فاصل 3

## چاكسنڤيل، فلوريدا. الثّانية صباحًا

– «اللّافتة تقول: مطلوب موظّفون».

– «باب التّعيين مفتوح دائمًا».

– «أستطيعُ العمل في ورديّة اللّيل فقط. هل ستكون تلك مشكلةً؟».

– «لا أظنُّ. يُمكنني أن أحضر لك استمارةً تملئينها. هل سبق لكِ العمل في محطّة وقود؟».

– «لا، لكنني أفكّرُ أنه ليس بالعمل الصّعب».

– «ليس كعلم الصّواريخ بكلّ تأكيد».

– «إنني جديدة هنا. ليس عندي هاتف. أنتظرُ توصيله».

– «أعرفُ هذا المكان بالتّأكيد، أعرفه بالتّأكيد. يجعلونكِ تنتظرين لمجرّد أنهم يقدرون. أرجو ألّا تُمانِعي قولي هذا يا سيّدتي، لكنكِ لا تبدين بخير».

– «أعرفُ. إنها حالة طبّيّة. تبدو أسوأ مما هي فعلًا. لا خطر على حياتي».

– «حسن. اترُكي الاستمارة معي. عندنا نقص حقيقي في العمالة بورديّة اللّيل حاليًا. نُسمّيها هنا ورديّة الزومبي. إذا عملتِ فيها وقتًا طويلًا فهكذا ستَشعُرين. طيّب... الاسم لارنا؟».

– «لورا».

– «لورا، حسن. آملُ أنكِ لا تُمانِعين التّعامُل مع غُرباء الأطوار، لأنهم يَخرُجون ليلًا».

– «مما لا شكّ فيه. باستطاعتي تدبُّر أمري».



# الفصل الثَّالث عشر

*يا صديقي القديم*
*ما قولك يا صديقي القديم؟*
*ارأب الصَّدع يا صديقي القديم*
*لأجل صداقتنا القديمة هوِّن عليك*
*لِمَ العبوس؟ إننا مستمرُّون إلى الأبد*
*أنت وأنا وهو، حيوات كثيرة جدًّا على المحك*

- ستيفن سوندهايم، **أصدقاء قُدامى**

في صباح السَّبت فتحَ شادو الباب للطَّارق.

وجدَ مارجريت أولسن أمامه. لم تَدخُل، بل ظلَّت واقفةً في ضوء الشَّمس والجدِّيَّة تبدو عليها، وقالت: «مستر آينسل...؟».

- «مايك من فضلكِ».

- «مايك، نعم. هل تودُّ تناوُل العَشاء عندنا اللَّيلة؟ في حدود السَّادسة؟ ليست وجبةً تدعو للحماسة، سپاجتي وكُرات لحم فقط».

- «لا مشكلة. أحبُّ السپاجتي وكُرات اللَّحم».

- «طبعًا إن كانت لديك ارتباطات أخرى...».

- «ليس لديَّ ارتباطات أخرى».

- «السَّاعة السَّادسة».

- «هل أجلبُ زهورًا؟».

قالت: «إن كان ولا بُدَّ. لكن هذه لفتة اجتماعيَّة لا رومنسيَّة»، وأغلقَت الباب وراءها.

استحمَّ شادو، ثم خرجَ في تمشيةٍ قصيرة قاطعًا الجسر ذهابًا وعودةً. كانت الشَّمس ساطعةً وباديةً كعُملةٍ معدنيَّة ملطَّخة في السَّماء، ولدى عودته إلى المنزل كان عَرقه يرشح تحت معطفه. مؤكَّد أن الحرارة فوق درجة التَّجمُّد. قادَ الـ «فور رَنَر» إلى «ديف لأطيب الأطعمة» واشترى زُجاجة نبيذٍ بعشرين دولارًا، وهو ما بدا له نوعًا من ضمان الجودة. يجهل شادو الفروق بين الخمور، وإن فكَّر أن مقابل عشرين دولارًا لا بُدَّ أن تكون طيِّبة المذاق. الزُّجاجة التي اشتراها من كابرينيه كاليفورنيا، لأنه في مرَّةٍ رأى ملصقًا على مِصَدِّ سيَّارة -حين كان أصغر سنًّا والنَّاس ما زالوا يضعون ملصقاتٍ على مِصَدَّات سيَّاراتهم- يقول: «**الحياة كابرينيه**»، وهو ما أضحكه.

اشترى نباتًا في أصيص هديَّة. أوراق خضراء، بلا زهور. لا شيء يمتُّ للرومنسيَّة بصلةٍ في هذا.

واشترى عُلبةً من الحليب لن يشربها أبدًا، وتشكيلةً من الفواكه لن يأكلها أبدًا.

ثم ذهبَ إلى ميبل واشترى پاستي واحدةً للغداء.

انبسطَت أسارير ميبل لمَّا رأته، وسألَته: «هل لحقَ بك هينزلمان؟».

- «لم أكن أعرفُ أنه يبحث عني».

أجابَته: «نعم. يُريد أخذك للصَّيد في الجليد. وتشاد موليجان سألَني إن كنتُ رأيتك. ابنة عمومته جاءَت من خارج الولاية. إنها أرملة، ابنة عمومته من الدَّرجة الثَّانية، من أولاد العمومة المتباوسين كما اعتدنا تسميتهم. يا لها من امرأةٍ محبَّبة. ستحبُّها»، ووضعَت الپاستي في كيسٍ ورقي بنِّي، ولوَت الكيس من أعلى لتحتفظ الپاستي بدفئها.

سلكَ شادو الطَّريق الطَّويل إلى المنزل، يأكل بيدٍ واحدة ليَسقُط فُتات عجين الپاستي السَّاخنة على بنطاله الجينز وأرضيَّة الـ «فور رَنَر». مرَّ بالمكتبة على شاطئ البُحيرة الجنوبي. البلدة في الجليد والثَّلج مثل صورةٍ بالأبيض والأسود، ويبدو الرَّبيع بعيدًا بُعدًا يستعصي على الخيال، وهكذا

ستبقى الخُردة مستقرَّةً فوق الجليد بلا نهاية، مع أكواخ الصَّيد وشاحنات البِيك أَپ وآثار عربات الثَّلج.

وصلَ إلى المنزل، وركنَ السيَّارة، وقطعَ الممرَّ، وصعدَ الدَّرجات الخشبيَّة إلى شقَّته. بالكاد كلَّفت الحساسين وكواسر الجوز أنفُسها نظرةً إليه وهي تلتقط الحَبَّ من حاوية إطعام الطُّيور. دخلَ، وسقى النَّبتة، وتساءلَ إن كان عليه أن يضع النَّبيذ في الثَّلاجة.

ما زالَ أمامه وقت طويل يَقتُله حتى السَّادسة.

تمنَّى شادو لو أنه يستطيع مشاهدة التليفزيون بارتياحٍ مجدَّدًا. يُريد أن يتسلَّى، ألَّا يضطرَّ إلى التَّفكير، أن يجلس ويَترُك الأصوات والأضواء تغمره. في ذاكرته همسَ شيء ما بصوت لوسي: هل تُريد رؤية صدر لوسي؟ فهزَّ رأسه نفيًا، مع أن أحدًا لا يراه.

أدركَ أنه متوتِّر. سيكون هذا تفاعُله الاجتماعي الحقيقي الأوَّل مع أناسٍ آخَرين -أناسٍ عاديِّين، لا مساجين ولا آلهة ولا أبطال ثقافيِّين ولا أحلام- منذ القبض عليه قبل أكثر من ثلاث سنوات. عليه أن يتجاذَب أطراف الحديث باعتباره مايك آينسل.

ألقى نظرةً على ساعته. الثَّانية والنِّصف. مارجريت أولسن قالت له أن يأتي في السَّادسة، فهل تعني تمام السَّادسة؟ أينبغي أن يُبكِّر قليلًا؟ يتأخَّر قليلًا؟ في النِّهاية قرَّر أن يذهب إلى الشقَّة المجاورة في السَّادسة وخمس دقائق.

رنَّ هاتف شادو.

- «نعم؟».

زمجرَ الأربعاء: «ليس هذا أسلوبًا للرَّدِّ على الهاتف».

قال شادو: «حينما يُوصَّل هاتفي سأردُّ عليه بأدب. أيُمكنني أن أساعدك؟».

قال الأربعاء: «لا أدري»، وسادَ الصَّمت لحظةً، ثم قال: «تنظيم الآلهة كجمع القِطط في صفوفٍ مستقيمة، ليس شيئًا يتأقلمون عليه بطبيعتهم». في صوت الأربعاء نبرة مَواتٍ وإرهاق لم يسمعها شادو من قبل.

- «ما الخطب؟».

- «المسألة صعبة، صعبة للغاية. لا أدري إن كان ما سنفعله سينجح. خيرٌ لنا أن ننحر أنفُسنا، ننحر أنفُسنا اللَّعينة ونَفرُغ».

- «يجب ألّا تتكلّم هكذا».

- «نعم، فعلًا».

قال شادو محاولًا إخراج الأربعاء من ظُلمته بالدُّعابة: «إذا فعلتها حقًّا ونحرت نفسك فقد لا تحسُّ بأيّ ألم».

- «سأتألَّمُ. حتى مع نوعي، الألم مؤلم. إذا تحرَّكت وتصرَّفت في العالم الماديّ تصرَّف العالم الماديّ فيك. الألم يُؤلم، مثلما يُسكِر الجشع وتحرق الشَّهوة. قد لا نموت بسهولة، وبكلِّ تأكيدٍ لا نموت ميتاتٍ حسنةً، لكن موتنا ممكن. إنّ ظللنا محبوبين ومذكورين أتى شيءٌ آخر يُشبِهنا كثيرًا وأخذَ مكاننا ليبدأ كلُّ شيءٍ من جديد، وإن طوانا النّسيان انتهى أمرنا».

لم يعرف شادو ماذا يقول، فسأل: «من أين تتَّصل؟».

- «ليس هذا من شأنك اللَّعين».

- «أأنت سكران؟».

- «ليس بعدُ. لا أستطيعُ الكفَّ عن التَّفكير في ثور. لم تعرفه. كان رجلًا كبيرًا مثلك، طيِّب القلب، ليس فائق الذّكاء ولكن لا يعزُّ عليه أن يُعطيك أيَّ شيءٍ تَطلُبه إن سألته. وقتلَ نفسه، وضعَ مسدَّسًا في فمه وفجَّر رأسه في فيلادلفيا في 1932. أهذه ميتة تليق بإله؟».

- «آسف».

قال الأربعاء: «لست تُبالي مقدار ذرَّةٍ يا بُني. كان يُشبِهك كثيرًا، كبير الحجم وأحمق»، ثم صمتَ وسعلَ.

للمرَّة الثَّانية سأله شادو: «ما الخطب؟».

- «لقد اتَّصلوا بنا».

- «مَن؟».

- «المعارضة».

- «و...؟».

- «يُريدون مناقشة هُدنة، مباحثات سلام، عِش ودَع الملاعين يعيشون».

- «وماذا سيَحدُث الآن؟».

- «الآن أذهبُ لأشرب قهوةً رديئةً مع السَّفلة العصريِّين في محفلٍ ماسوني بكانساس سيتي».

- «حسن. هل ستأتي لتأخذني أم أقابلك في مكانٍ ما؟».

- «ابقَ عندك ولا تلفت الأنظار. لا تُوقِع نفسك في متاعب. هل تسمعني؟».

- «لكن...».

صدرَت تكَّة، وقُطِعَ الخطُّ وظلَّ مقطوعًا. لم يسمع شادو نغمة اتّصال، لكنه لم يسمعها من قبل على كلِّ حال.

لا شيء يفعله إلّا قتل الوقت. تركَت المكالمة مع الأربعاء في شادو شعورًا بالاضطراب. نهضَ بنيَّة أن يذهب ليتمشَّى، إلّا أن ضوء النَّهار بدأ يخبو، فعادَ يجلس.

التقطَ نُسخة «محاضر اجتماعات مجلس بلدة ليكسايد 1872-1884» وقلَّب الصَّفحات، تمسح عيناه الحروف الصَّغيرة من غير أن تقرأها حقًّا، وبين الفينة والفينة يلمح شيئًا يلفت انتباهه.

قرأ شادو أن في يوليو من عام 1874 كان مجلس البلدة قلقًا من عدد الحطَّابين الأجانب المتنقّلين الذين يفدون إلى البلدة، وأن دار أوپرا كانت ستُبنى على ناصية الشّارع الثّالث وبرودواي، وأن المتوقَّع أن تهمد مصادر الإزعاج المصاحبة لسدِّ بِركة الطَّاحونة ما إن تتحوَّل البِركة التي تُشغِّل الطَّاحونة إلى بُحيرة. اعتمدَ المجلس سبعين دولارًا للمستر ساموِيل ساموِيلز، وثمانيةً وخمسين دولارًا للمستر هايكي سالماينن تعويضًا عن أرضيهما والنَّفقات التي تحمَّلاها بنقل مسكنيهما من المنطقة التي ستُغمَر بالماء.

لم يَخطُر لشادو قَطُّ أن البُحيرة صناعيَّة. لماذا يُطلِقون على بلدةٍ اسمًا يعني حرفيًّا «البلدة المجاورة للبُحيرة»، في حين أن البُحيرة كانت في البدء بِركةً لعينةً تُشغِّل طاحونةً؟ واصلَ القراءة ليكتشف أن المدعو المستر هينزلمان، المهاجر من موطنه الأصلي هودموهلن في برونزڤيك، كان المسؤول عن مشروع بناء البُحيرة، وأن مجلس البلدة منحَه مبلغ ثلاثمئة وسبعين دولارًا لتنفيذ المشروع، على أن يُسَدَّ أيُّ عجزٍ في الموازنة بالاكتتاب العمومي. مزَّق شادو شريطًا من منشفةٍ ورقيَّة ووضعَه في الكتاب علامةً، متخيِّلًا سرور هينزلمان لرؤية الإشارة إلى جدِّه، ومتسائلًا إن كان الشَّيخ يعلم أن لعائلته دورًا محوريًّا في بناء البُحيرة.

ظلَّ شادو يتصفَّح الدَّفتر باحثًا عن المزيد من الإشارات إلى مشروع بناء البُحيرة. في احتفالٍ رسمي في ربيع 1876 دشَّنوا البُحيرة باعتبارها

بادرةً لاحتفالات مئويّة البلدة، وصوّت المجلس على توجيه الشُّكر إلى المستر هينزلمان.

نظرَ شادو إلى ساعته. الخامسة والنّصف. دخلَ الحمّام وحلقَ ذقنه ومشّط شعره، ثم بدّل ثيابه. بوسيلةٍ ما مرّت الدّقائق الخمس عشرة الأخيرة، وأخذَ النّبيذ والنّبتة وذهبَ إلى الشقّة المجاورة.

فُتِحَ الباب إذ طرقَه. بدَت مارجريت أولسن تُدانيه في ما يَشعُر به من توتُّر، وقد أخذَت منه زُجاجة النّبيذ وأصيص الزّرع وقالت شكرًا. كان التليفزيون يعرض «ساحر أوز» من شريط ڤيديو. ما زالَ الفيلم ملوّنًا بالبنّي الدّاكن، أي إن دوروثي ما زالَت في كانساس، جالسةً مغمضة العينين في عربة البروفسور مارڤل فيما يتظاهَر المحتال العجوز بقراءة أفكارها، وتقترب الرّياح الإعصاريّة التي ستنتزعها من حياتها.

كان ليون جالسًا أمام الشّاشة يلعب بسيّارة مطافئ، وحين رأى شادو مسَّ تعبير من البهجة وجهه، ونهضَ وجرى متعثّرًا من فرط الحماسة إلى غُرفة نومٍ خلفيّة، خرجَ منها بعد لحظةٍ يُلوِّح بظلفرٍ بقطعةٍ من فئة الرُّبع دولار، ويصيح: «تفرّج يا مايك آينسل!»، ثم أغلقَ يديه وتظاهرَ بأخذ العُملة في يُمناه، التي بسطَها على اتّساعها قائلًا: «أخفيتُها يا مايك آينسل!».

قال شادو مؤيِّدًا: «صحيح»، ثم أردفَ: «بعد الأكل، إن وافقَت أمُّك، سأريك كيف تفعلها بالمزيد من النُّعومة».

قالت مارجريت: «أرِه الآن إن أردت. ما زلنا ننتظر سامانثا. أرسلتها لشراء الكِريمة الحامضة. لا أدري ماذا يُؤخِّرها حتى الآن».

ثم، كأن هذه إشارتها، ارتفعَ صوت خُطواتٍ على السَّطح الخشب، ودفعَ أحدهم الباب الأمامي بكتفه ليفتحه. في البدء لم يتعرَّفها شادو، ثم قالت: «لم أعرف إن كنتِ تُريدين النّوع المحتوي على سُعرات أم النّوع الذي طَعمه كمعجون ورق الحائط، فاشتريتُ النّوع المحتوي على سُعرات»، وفي هذه اللّحظة عرفَها: الفتاة التي قابلَها على الطّريق إلى القاهرة.

ردّت مارجريت: «لا بأس. سام، هذا جاري مايك آينسل. مايك، هذه سامانثا بلاك كرو، أختي».

وباستماتةٍ فكّر شادو: *لستُ أعرفك. لم تقابليني قطُّ. إننا غريبان تمامًا.* حاولَ أن يتذكّر كيف فكّر ثلج، وكم كان ذلك خفيفًا هيّنًا. أمّا هذا فميؤوس منه. مدّ يده قائلًا: «أهلًا وسهلًا».

اختلجَت جفونها، وحدّقت إلى وجهه. لحظةٌ من الحيرة، ثم نفذَ الإدراك إلى عينيها وقوّس رُكنَي ثغرها راسمًا ابتسامةً عريضةً. وقالت: «مرحبًا».

- «سأطمئنُّ على الطّعام». قالتها مارجريت بنبرةٍ مشدودةٍ لشخصٍ يُحرق الطّعام في المطبخ إذا تركَه بلا مراقبةٍ ولو لحظةً.

خلعَت سام معطفها المنتفخ وقبّعتها قائلةً: «أنت إذًا الجار المكتئب المحفوف بالغموض. مَن كان ليحسب هذا؟». حافظَت على صوتها منخفضًا.

- «وأنتِ سام الصّبيّة. هلّا تكلّمنا عن هذا لاحقًا؟».

- «إذا وعدت بإخباري بما يَحدُث».

- «اتّفقنا».

شدَّ ليون ساق بنطال شادو متسائلًا: «هل ستُريني الآن؟»، ومدَّ يده بعُملته.

قال شادو: «حسن، لكن إن أريتك فيجب أن تتذكّر أن أساتذة السّحر لا يُخبِرون أحدًا بكيفيّة أداء الحيلة أبدًا».

قال ليون بجدّيّة: «أعِدُك».

أخذَ شادو العُملة في يُسراه، ثم وضعَ ليون اليُمنى في يده الضّخمة بالمقارنة، وحرّكها ليريه كيف يبدو أنه أخذَ العُملة في يُمناه في حين أن شادو تركها في يُسراه، ثم وضعَ العُملة في يد ليون اليُسرى وجعلَه يُكرِّر الحركات بمفرده.

بعد عدّة محاولاتٍ أتقنَ الولد الحركة، فقال شادو: «الآن تعرف نصف الخدعة، لأن الحركات نصفها فقط. أمّا النّصف الآخر فكما يلي: ضع تركيزك على المكان المفترَض أن تكون فيه العُملة. انظُر إلى المكان الذي يجب أن تكون فيه. اتبعه ببصرك. إن تصرّفت كأنها في يدك اليُمنى فلن يَنظُر أحد إلى اليُسرى إطلاقًا مهما كنت أخرق».

شاهدَت سام كلَّ هذا وقد أمالَت رأسها إلى الجانب بعض الشّيء من غير أن تتكلّم.

نادَت مارجريت: «العَشاء!» وهي تشقُّ طريقها من المطبخ حاملةً وعاءً من السپاجتي يتصاعَد منه البُخار. «ليون، اذهب واغسل يديك».

كان الطَّعام طيِّبًا؛ الخُبز بالثُّوم هشًّا، والصوص أحمر ثخينًا، وكُرات اللَّحم حارَّةً لذيذةً، وقد أطرى شادو لمارجريت عليه.

أخبرَته: «وصفة عائليَّة قديمة، من جانب العائلة الكورسيكي».

- «ظننتكِ من السُّكَّان الأصليِّين».

قالت سام: «أبي من الشروكي، أمَّا أبو أمِّ ماجز فجاءَ من كورسيكا». هي الوحيدة في الغُرفة التي تشرب من الكابرينيه. «تركها أبي عندما كانت ماجز في العاشرة، وانتقلَ إلى طرف المدينة الآخَر، وبعد ستَّة شهورٍ وُلِدتُ أنا. تزوَّجت أمي وأبي بعد طلاقه، وأظنُّهما حاوَلا إنجاح الزِّيجة بعض الوقت، وعندما كنتُ في العاشرة رحلَ. أظنُّ أن سعة انتباهه لا تتعدَّى عشرة أعوام».

أضافَت مارجريت: «إنه في أوكلاهوما منذ عشرة أعوام».

تابعَت سام: «عائلة أمِّي أنا كانت من يهود أوروپا، من إحدى البلدان التي كانت شيوعيَّةً في ما مضى والآن تضربها الفوضى. أظنُّها استحبَّت فكرة أن تتزوَّج من الشروكي. خُبز محمَّر[*] وكبد مقطَّعة»، وأخذَت رشفةً أخرى من النَّبيذ الأحمر.

قالت مارجريت بشبه استحسان: «أمُّها امرأة جَموح».

سألَته سام: «أتعرف أين هي الآن؟»، ولمَّا هزَّ شادو رأسه نفيًا قالت: «في أستراليا. قابلَت على الإنترنت رجلًا يعيش في هوبارت، وحين التقيا شخصيًّا قرَّرت أنه في الحقيقة مقزِّز نوعًا، لكنها وقعَت في هوى تسمانيا، وتُقيم هناك الآن مع مجموعة نساء، تُعلِّمهن صباغة الأقمشة بالباتيك وأشياءَ من هذا القبيل. أليس هذا رائعًا؟ في سنِّها؟».

وافقَها شادو على روعة هذا، وأخذَ لنفسه المزيد من كُرات اللَّحم. حكَت سام عن البريطانيِّين الذين أبادوا سُكَّان تسمانيا الأبوريچِنيِّين الأصليِّين كافَّةً، وعن السُّلسلة البشريَّة التي صنعوها عبر الجزيرة للإيقاع بهم، ولم يقع فيها إلَّا رجل عجوز وصبي سقيم، وعن النَّبْر التسماني، الثِّيلاسين، الذي اعتادَ المُزارعون الخائفون على أغنامهم قتله، وكيف أن السَّاسة في الثَّلاثينيَّات لم يلحظوا وجوب حماية الثِّيلاسينات إلَّا بعد أن نفقَ آخِرها.

فرغَت سام من كأس النَّبيذ الثَّانية وصبَّت ثالثةً، وفجأةً قالت وخدَّاها يتورَّدان: «وأنت يا مايك، حدِّثنا عن عائلتك، صِف لنا آل آينسل». كانت مبتسمةً، وفي ابتسامتها خُبث عابث.

قال شادو: «نحن مملُّون للغاية، لا أحد منا ذهبَ حتى تسمانيا. أنتِ تدرسين في ماديسن. صِفي لي هذا».

- «كما تعلم، إنني أدرسُ تاريخ الفنّ والدّراسات النّسائيّة، وأصبُّ مجسّماتٍ من البرونز».

قال ليون: «عندما أكبرُ سأمارسُ السّحر. بوف! هل ستُعلّمني يا مايك آينسل؟».

أجابَ شادو: «أكيد، إن لم يكن عند أمّك مانع».

فهزّت مارجريت كتفيها.

قالت سام: «بعد الأكل، فيما تضعين ليون في فراشه يا ماجز، أظنُّني سأجعلُ مايك يأخذني إلى «بَك ستُپس هير» ساعةً أو نحوها».

فلم تهزّ مارجريت كتفيها، لكن رأسها تحرّك، وارتفعَ حاجبها بعض الشّيء.

قالت سام: «رأيي أنه يُثير الاهتمام، كما أن لدينا أشياءَ كثيرةً نتكلّم عنها».

نظرَت مارجريت إلى شادو، الذي شغلَ نفسه بمسح بُقعةٍ تخيُّليّة من الصوص الأحمر عن ذقنه بمنديلٍ ورقي، ثم قالت: «طيِّب، إنكما بالغان» بنبرة صوتٍ تسعى بكلّ جهدها للتّلميح إلى كونهما ليسا بالغيْن حقًّا، وحتى إن كانا كذلك فلا ينبغي أن يكونا.

بعد العَشاء سَاعدَ شادو سام في غسل الأطباق -بتجفيفها- ثم أدّى حيلةً لليون بعدّ البنسات في يد الصّغير. كلّما فتحَ ليون يده وعدّها وجدَها ناقصةً عُملةً، وبالنّسبة إلى البنس الأخير -«هل تقبض عليه؟ بإحكام؟»- فحين فتحَ ليون يده وجدَه تحوّل إلى دايم، وتبعَت شادو صيحات ليون الأسيانة -«كيف فعلتها؟! ماما، كيف فعلَها؟!»- إلى الرّدهة.

ناولَته سام معطفه قائلةً: «هيًّا بنا»، وقد احتقنَت وجنتاها من النّبيذ.

كان الطّقس باردًا بالخارج.

توقّف شادو في شقّته، وألقى «محاضر اجتماعات مجلس بلدة ليكسايد» في كيس تسوُّق بلاستيكي وأخذَه معه. قد يكون هينزلمان في البار، وشادو يُريد أن يُريه الإشارة إلى جدّه.

ثم قطعا ممرّ السيّارات جنبًا إلى جنب.

عندما فتحَ شادو باب الجراج انفجرَت سام ضاحكةً إذ رأت الـ «فور رَنَر»، وقالت: «يا ربِّي! سيَّارة پول جنثر، أنت اشتريت سيَّارة پول جنثر. يا ربِّي!».

فتحَ لها الباب، ثم دارَ حول السيَّارة وركبَ. «تعرفين هذه السيَّارة؟».

- «حين جئتُ قبل عامين أو ثلاثة لأقيم عند ماجز. أنا التي أقنعته بدهانها بالأرجواني».

قال شادو: «أوه. جيِّد أن أجد أحدًا ألومه».

خرجَ بالسيَّارة إلى الشَّارع، ثم نزلَ وأغلقَ باب الجراج وعادَ يركب. كانت سام تَرمُقه بغرابةٍ إذ ركبَ، كأن الثِّقة بدأت تتسرَّب منها. شدَّ حزام مقعده، وقالت هي: «أنا خائفة. كان هذا تصرُّفًا غبيًّا، أليس كذلك؟ ركوبي سيَّارةً مع قاتلٍ محتمَل».

- «المرَّة الماضية أوصلتكِ بأمان».

- «لقد قتلتَ رجلين. أنت مطلوب عند الفدراليِّين. والآن أجدك تعيش باسمٍ منتحَل في الشقَّة المجاورة لأختي. ما لم يكن مايك آينسل اسمك الحقيقي؟».

قال شادو: «لا»، وتنهَّد. «ليس كذلك». كرهَ أن يقولها، كأنما يتخلَّى عن شيءٍ مهم، يَهجُر مايك آينسل بإنكاره، كأنما يُودِّع صديقًا.

- «هل قتلت هذين الرَّجلين؟».

- «لا».

- «لقد أتوا إلى منزلي وقالوا إننا شُوهِدنا معًا، وأراني الرَّجل صورتك. ما اسمه... المستر هات؟ لا، المستر تاون. هذا هو. كان موقفًا كما في «الهارب». لكنني قلتُ إنني لم أرَك».

- «أشكركِ».

قالت: «أخبِرني إذًا بما يجري. سأحفظُ أسرارك إن حفظت أسراري».

ردَّ شادو: «لستُ أعرفُ أيًّا من أسرارِكِ».

- «تعرف أن دهان هذا الشَّيء بالأرجواني كان فكرتي، وبهذا أجبرتُ پول جنثر على أن يُصبِح مادَّةً للتهكُّم والاستهزاء على اتِّساع عدَّة مقاطعات، حتى إنه اضطرَّ إلى ترك البلدة بالكامل. كنا مسطولَيْن قليلًا».

قال شادو: «أشكُّ في كون الجزء الأخير سرًّا. مؤكّد أن أهل ليكسايد جميعًا عرفوا. إنها درجة أرجواني تليق بالمساطيل».

ولحظتها، بمنتهى الهدوء ومنتهى السُّرعة، قالت سام: «إن كنت ستقتلني فأرجوك لا تؤلمني. لم يكن يجب أن آتي معك. إنني في غاية الغباء، إنني غبيَّة لدرجةٍ لا تُعقل. كان عليَّ أن أهرب أو أطلب الشرطة بمجرّد أن رأيتك. باستطاعتي تعرُّفك. يا للمسيح. إنني في غاية الغباء».

زفرَ شادو، وقال: «لم أقتل أحدًا، حقيقةً. سآخذكِ إلى البار الآن، أو ما عليكِ إلّا أن تقولي وسأدور بهذه السيَّارة وأعيدكِ إلى المنزل. سأدعوكِ إلى شرابٍ إن كنتِ كبيرةً كفايةً للشُّرب، وإن لم تكوني فسأدعوكِ إلى صودا. ثم أعودُ بكِ إلى مارجريت وأوصلكِ آمنةً سالمةً، وآملُ ألّا تطلُبي الشُّرطة».

رانَ الصَّمت فيما عبرا الجسر.

ثم سألَته سام: «مَن قتلَ هذين الرَّجلين؟».

- «لن تُصدِّقيني إذا أخبرتكِ».

- «سأصدِّقُ!». خرجَت نبرتها غاضبةً هذه المرَّة، وتساءلَ شادو إن كان جلب النَّبيذ على العَشاء فكرةً حكيمةً. الحياة ليست كابرينيه الآن لا ريب.

- «ليس شيئًا سهل التَّصديق».

أخبرَته: «يُمكنني أن أصدِّق أيَّ شيء. ليست لديك أدنى فكرة عما أصدِّقه أو أومنُ به».

- «حقًّا؟».

- «من شأني أن أومن بأشياءَ حقيقيَّة ومن شأني أن أومن بأشياءَ غير حقيقيَّة ومن شأني أن أومن بأشياءَ لا يعلم أحد إن كانت حقيقيَّةً أم لا. من شأني أن أومن بسانتا كلوز وأرنب عيد الفِصح وماريلن مونرو والبيتلز وإلفس والمستر إد.[1] اسمع، إنني أومنُ أن النَّاس قابلون للكمال، وأن المعرفة لا متناهية، وأن اتِّحادات البنوك الاحتكاريَّة تُدير العالم، وأن الكائنات الفضائيَّة تزوره بانتظام، كائنات لطيفة تُشبِه اللِّيمور إذا كان وجهه متغضِّنًا، وكائنات شرِّيرة تُشوِّه المواشي وتُريد مياهنا ونساءنا. أومنُ أن المستقبل شنيع وأومنُ أن المستقبل بديع وأومنُ أن المرأة

(1) المستر إد: حصان متكلِّم وبطل مسلسل كرتون بالاسم نفسه. (المُترجم).

الجاموسة البيضاء[1] ستعود يومًا ما وتمسح بالجميع الأرض. أومنُ أن الرِّجال جميعًا أطفال حجمهم أكبر من سنِّهم، عندهم مشكلات عويصة في التَّواصُل، وأن الانتكاسة التي تشهدها أمريكا في الجنس المشبِع متزامنة مع انهيار سينمات السيَّارات من ولايةٍ إلى ولاية. أومنُ أن السَّاسة جميعًا غشَّاشون بلا مبادئ، ومع ذلك أومنُ بكونهم أفضل من البديل. أومنُ أن كاليفورنيا ستغرق في البحر حينما يضربنا الزِّلزال الكبير، أمَّا فلوريدا فسيُبدِّدها الجنون والتِّماسيح والنُّفايات السَّامَّة. أومنُ أن الصَّابون المضاد للبكتيريا يُدمِّر مقاومتنا التُّربة والأمراض، ويومًا ما سيفتك بنا الزُّكام مثل المريخيِّين في «حرب العوالم». أومنُ بأن إديث سيتول ودون ماركوس كانا أعظم شُعراء القرن الماضي، وأن اليَشب نُطفة تنانين جافَّة، وأني كنتُ قبل آلاف السِّنين في حياةٍ أخرى شامان من سيبيريا. أومنُ أن مصير البشريَّة يقع بين النُّجوم. أومنُ أن مذاق الحُلويات كان أفضل حقًّا وأنا صغيرة، وأن طيران النَّحل الطنَّان مستحيل من حيث الديناميكيَّة الهوائيَّة، وأن الضَّوء موجة وجُسيم، وأن في مكانٍ ما قِطَّةً داخل صندوق حيَّة وميتة في آنٍ واحد (ولكن إن لم يفتحوا الصَّندوق ليُطعِموها فستموت في النِّهاية بطريقتين مختلفتين)، وأن في الكون نجومًا أقدم من الكون ذاته ببلايين السِّنين. أومنُ بإلهٍ شخصي يهتمُّ بي ويقلق بشأني ويُشرِف على كلِّ ما أفعله. أومنُ بإلهٍ غير شخصي شغَّل الكون ثم ذهبَ ليقضي وقته مع صاحباته ولا يعلم أني موجودة. أومنُ بكونٍ خاوٍ بلا آلهةٍ يعمل بالفوضى السَّببيَّة، ضوضاء في الخلفيَّة وحظ أعمى صِرف. أومنُ أن كلَّ مَن يقول بالمبالغة في تقدير الجنس لم يُمارِسه كما يجب. أومنُ أن كلَّ مَن يَزعُم أنه يعرف ما يجري يكذب في كلامه عن الأشياء الصَّغيرة أيضًا. أومنُ بالصِّدق المطلق والأكاذيب الاجتماعيَّة الحصيفة. أومنُ بحقِّ المرأة في اختيار الإجهاض، وبحقِّ الوليد في الحياة، وأن كلَّ نفسٍ بشريَّة مقدَّسة، لكن عقوبة الإعدام لا يعيبها شيء إن كان باستطاعتك الثِّقة التَّامَّة بالنِّظام القانوني، وأن النِّظام القانوني لا يثق به إلَّا أبله. أومنُ أن الحياة لُعبة،

(1) المرأة الجاموسة: امرأة مقدَّسة عند شعب اللاكوتا، يقول بعض الحكايات إنها تستطيع تحويل نفسها إلى جاموسةٍ بيضاء. (المُترجم).

أن الحياة دُعابة قاسية، وأن الحياة هي ما يَحدُث وأنت حي، فخيرٌ لك إذًا أن تسترخي وتستمتع بها».

وتوقَّفت سام لاهثةً.

كادَ شادو يرفع يديه عن عجلة القيادة ليُصفِّق، لكنه قال بدلًا من ذلك: «حسن. إن أخبرتكِ إذًا بما علمته فلن تحسبيني مخبولًا».

قالت: «ربما. جرِّبني».

- «هل يُمكنكِ أن تُصدِّقي أن جميع الآلهة التي تخيَّلها الإنسان لا تزال معنا اليوم؟».

- «... ربما».

- «وأن عندنا آلهةً جديدةً، آلهة الكمپيوتر والتليفون وأشياء من هذا القبيل، وأن جميعها على ما يبدو يحسب أن العالم لا يسع كلا النَّوعين، وأن حربًا ما ستقوم على الأرجح».

- «وتلك الآلهة قتلَت الرَّجلين؟».

- «لا، زوجتي قتلَت الرَّجلين».

- «ظننتك قلت إن زوجتك ميتة».

- «إنها ميتة».

- «قتلَتهما قبل موتها إذًا؟».

- «بعده. لا تسألي».

رفعَت سام يدها وأزاحَت شعرها عنْ جبهتها.

توقَّفا في الشَّارع الرَّئيسي خارج «بَك ستُپس هير»، حيث يظهر في اللَّافتة فوق النَّافذة وعل تبدو عليه الدَّهشة ويقف على قائمتيه الخلفيَّتين ممسكًا كأسًا من البيرة. أخذَ شادو الكيس الذي وضعَ فيه الدَّفتر، ونزلَ.

سألَته سام: «لماذا تقوم حرب؟ تبدو خُطوةً لا لزوم لها. ما المكسب المنتظَر؟».

قال شادو معترفًا: «لا أدري».

- «الاعتقاد في وجود الكائنات الفضائيَّة أسهل من الآلهة. ربما كان المسترْ تاون والمستر أيًّا كان نظيرَي الرِّجال ذوي الحُلل السَّوداء عند الكائنات الفضائيَّة».

- «ربما كانا كذلك أيضًا».

كانا واقفيْن على الرَّصيف خارج البار، وهنا توقَّفت سام رافعةً عينيها إلى شادو، وقالت وأنفاسها تعلق في هواء اللَّيل كسحاباتٍ شاحبة: «قُل لي فقط إنك من الأخيار».

قال شادو: «لا أستطيعُ. ليتني أقدرُ. لكني أبذلُ أفضل ما بوسعي».

نظرَت إليه، وعضَّت شفتيها، ثم أومأت برأسها قائلةً: «لا بأس. لن أبلغ عنك. لك أن تدعوني إلى بيرة».

فتحَ لها شادو باب البار، ولطمَتهما دفقة من الحرارة والموسيقى، تُغلِّفها سحابة من الدِّفء رائحتها بيرة وهامبرجر.

دخلا، ولوَّحت سام لبعض أصدقائها، فيما أومأ شادو برأسه محيِّيًا لعددٍ صغير ممَّن يَذكُر وجوههم -وإن نسيَ أسماءهم- من اليوم الذي قضاه في البحث عن آليسن مكجڤرن، أو قابلَهم عند ميبل في الصَّباح. كان تشاد موليجان عند البار، واضعًا ذراعه حول كتفَي امرأةٍ صغيرة الحجم حمراء الشَّعر. خمَّن شادو أنها ابنة العمومة البوَّاسة، وتساءلَ عن شكلها، لكنها كانت تُوليه ظَهرها. ارتفعَت يد تشاد بتحيَّةٍ رسميَّة ساخرة عندما رأى شادو، وابتسمَ شادو ابتسامةً واسعةً ولوَّح له رادًّا التَّحيَّة، ثم تلفَّت حوله بحثًا عن هينزلمان، وإن لم يبدُ أن العجوز هنا هذا المساء. لمحَ طاولةً شاغرةً في المؤخِّرة وعمدَ إليها.

ثم انفجرَ أحدهم صارخًا.

كانت صرخةً سيِّئةً، صرخةً هستيريَّةً من أعماق الحلق كأن من أطلقَها رأى شبحًا، وقد أخرسَت كلَّ محادثةٍ في المكان. نظرَ شادو حوله واثقًا بأن أحدهم يُقتَل، ثم إذا به يُدرِك أن كلَّ وجهٍ في البار يلتفت نحوه، وحتى القِطَّة السَّوداء التي تنام على عتبة النَّافذة نهارًا وقفَت فوق صندوق الموسيقى رافعةً ذيلها ومقوَّسةً ظَهرها ومحملقةً إلى شادو.

وتباطأ الزَّمن.

بصوتٍ على حافة الهستيريا صاحَت امرأة: «اقبضوا عليه! أوه، بالله عليكم، فليُوقِفه أحد! لا تدعوه يهرب! أرجوكم!». كان صوتًا يعرفه.

لم يتحرَّك أحد، وحدَّقوا إلى شادو وحدَّق إليهم.

تقدَّم تشاد موليجان شاقًا طريقه بين الحضور، وتحرَّكت المرأة صغيرة الحجم وراءه بحذرٍ وعينين متَّسعتين كأنها تستعدُّ للانفجار في الصُّريخ ثانيةً.

يعرف شادو هذه المرأة، طبعًا يعرفها.

كان تشاد لا يزال يُمسك بيرته، فوضعَها على طاولةٍ قريبة، وقال: «مايك».

- «تشاد».

وقفَت أودري برتن وراء تشاد موليجان بخُطوة، وجهها ممتقع وعيناها دامعتان من جرَّاء الصُّراخ، وقالت: «شادو أيها الوغد، أيها الوغد القاتل الشرِّير».

سألَها تشاد: «أأنتِ واثقة بأنكِ تعرفين هذا الرَّجل يا عزيزتي؟». بدا مرتبكًا، ومن الجليّ أنه يأمل أن ما يَحدُث هنا أيًّا كان ما هو إلَّا حالة فوضى مخلوطة، شيء كفيل بإضحاكهم يومًا ما.

رمقَته أودري برتن مبهوتةً، وقالت ضاغطةً على كلِّ كلمةٍ أخيرة من عباراتها: «أأنت مجنون؟! لقد عملَ عند رُبي أعوامًا! زوجته الفاسقة كانت أفضل صديقاتي! إنه مطلوب في جريمة قتل! لقد اضطُررتُ إلى الإجابة عن أسئلة! إنه سجين هارب!». كان انفعالها مغرقًا في المغالاة، وصوتها يرتجف من الهستيريا المكبوتة، تلفظ كلماتها نشيجًا كممثِّلةٍ في مسلسل أوبرا صابون تسعى للترشُّح لجائزة إمي نهاريَّة.

بلا إعجابٍ فكَّر شادو: *أولاد عمومة متباوسون.*

لم ينبس أحد في البار بكلمة. نظرَ تشاد موليجان إلى شادو قائلًا بعقلانيَّة: «إنه خطأ على الأرجح. أنا واثق باستطاعتنا تسوية المسألة»، ثم قال مخاطبًا الحاضرين: «كلُّ شيءٍ بخير. لا داعي للقلق. يُمكننا تسوية المسألة. كلُّ شيءٍ بخير»، ثم قال لشادو: «لنَخرُج من هنا يا مايك». كفاءة هادئة أثارَت إعجاب شادو.

أحسَّ بيدٍ تمسُّ يده، والتفتَ ليرى سام تُحدِّق إليه، فابتسمَ لها بكلِّ ما استطاعَه من طمأنة.

نظرَت إليه سام، ثم جالَت ببصرها في أنحاء البار في الوجوه المحدِّقة إليهم، وقالت لأودري برتن: «لا أعرفُ مَن أنتِ، ولكن. يا. لكِ. من. عاهرة»، ثم وقفَت على أطراف أصابع قدميها وجذبَت إليها شادو وقبَّلته بقوَّةٍ على شفتيه، ملصقةً فمها بفمه لما شعرَ كأنه دقائق طويلة، ولعلَّه لم يتعدَّ الثَّواني الخمس

من الزَّمن الفعلي الذي يُقاس بتكّات السّاعة. بينما التصقَت شفتاها بشفتيه فكَّر شادو أنها قُبلة غريبة، ليس هو مقصدها بل الموجودون في البار، بُغية أن تُعلِمهم إلى مَن قرَّرت الانحياز. قُبلة غرضها إعلان الدَّعم بما لا يدع مجالًا للشَّك. حتى وهي تُقبِّله تأكَّد له أنه لا يُعجِبها من الأصل... من تلك النَّاحية.

على أنه يعرف حكايةً قرأها ذات مرَّةٍ في طفولته قبل زمنٍ طويل، قصَّة مسافرٍ سقطَ من فوق جُرف، أعلاه بُبور مفترسة وأسفله هاوية قاتلة. تمكَّن المسافر من إيقاف سقطته في منتصَف الطَّريق على جانب الجُرف، والآن يتشبَّث بحياته النَّفيسة. بجواره أجمة فراولة، وموت محقَّق أعلاه وأسفله. قال السُّؤال: *ماذا يفعل؟* وكان الجواب: *يأكل الفراولة*.

لم يستطِع شادو أن يعقل تلك القصَّة في طفولته قَطُّ، أمَّا الآن فيعقلها.

وهكذا أغمضَ عينيه، وألقى نفسه في القُبلة إلقاءً، ولم يختبر شيئًا إلَّا شفتَي سام ونعومة جلدها على جلده وحلاوته كما الفراولة البرِّيَّة.

قال تشاد موليجان بحزم: «هلمَّ يا مايك. من فضلك. دعنا نُعالِج الموضوع بالخارج».

تراجعَت سام، ولعقَت شفتيها مبتسمةً ابتسامةً كادَت تَبلُغ عينيها، وقالت: «ليس سيِّئًا. تُجيد التَّقبيل بالنِّسبة إلى صبي. حسن، اذهب والعب بالخارج»، ثم التفتَت إلى أودري برتن قائلةً: «لكنكِ ما زلتِ قحبةً».

ألقى شادو لسام مفاتيح سيَّارته فتلقَّفتها بيدٍ واحدة، ثم قطعَ البار إلى الخارج يتبعه تشاد موليجان. كان ثلج خفيف قد بدأ يَسقُط، والنُّدف تدور في ضوء لافتة البار النيون.

سألَه تشاد: «أتُريد أن تتكلَّم عن الأمر؟».

سألَه شادو: «أأنا مقبوض عليَّ؟».

تبعَتهما أودري إلى الخارج على الرَّصيف باديةً على استعدادٍ للصُّراخ من جديد، وقالت بصوتٍ راجف: «لقد قتل رجلين يا تشاد. الـFBI طرقَت بابي. إنه مختل. سآتي معك إلى القسم إذا أردت».

قال شادو: «لقد سبَّبتِ ما يكفي من المتاعب يا سيِّدتي». خرج صوته حاملًا نبرةً متعَبةً، حتى في أُذنيه شخصيًّا. «من فضلكِ ارحلي».

- «تشاد؟ هل سمعت ما قاله؟ لقد هدَّدني!».

قال تشاد موليجان: «عودي إلى الدّاخل يا أودري»، فبدا أنها ستُجادله. ثم زمّت شفتيها بشدّةٍ جعلتهما تبيضّان، وعادت إلى داخل البار. ثم سألَه تشاد موليجان: «هل تودُّ التّعليق على أيِّ شيءٍ قالته؟».

قال شادو: «لم أقتل أحدًا».

أومأ تشاد برأسه قائلًا: «أصدّقك. إنني واثق بسهولة استطاعتنا التّعامُل مع هذه الادّعاءات. إنها فارغة على الأرجح. يجب أن أفعل هذا. لن تُسبّب لي متاعب، أليس كذلك يا مايك؟».

قال شادو: «لا متاعب. الأمر بأكمله غلطة».

قال تشاد: «بالضّبط. ما رأيك إذًا أن نتّجه إلى مكتبي ونُسوّي كلَّ شيءٍ هناك؟».

ثانيةً سألَه شادو: «أأنا مقبوض عليَّ؟».

- «لا، ما لم تكن تُريد ذلك. رأيي أن نذهب إلى مكتبي معًا، أن تأتي معي بدافع الواجب المدني، ونفعل ما بإمكاننا لإصلاح الأمر».

فتّشه تشاد ولم يجد أسلحةً، ثم ركبا سيّارة موليجان، ومرّةً أخرى جلسَ شادو في المؤخّرة ناظرًا إلى العالم عبر قضبان الحاجز المعدني، وراحَ يُفكّر: *SOS، مِاي دِاي، الغوث*. حاولَ أن يحثَّ موليجان بعقله كما فعلَ من قبل مع شُرطي في شيكاجو... *هذا صديقك القديم مايك آينسل. لقد أنقذت حياته. ألا تُدرِك سخافة الموقف؟ لِمَ لا تعدل عن هذه المسألة برمّتها؟*

قال تشاد: «رأيي أن إخراجك من هناك تصرُّف سليم. لم يكن يلزمك إلّا ثرثار يُقرّر أنك قاتل آليسن مكجفرن لنجد أنفسنا وسط غوغاء يبتغون إعدامك دون محاكمة».

- «مضبوط».

- «أأنت واثق إذًا بأنك لا تُريد إخباري بشيء؟».

- «نعم. ليس لديَّ ما أقوله».

قضيا بقيّة الطّريق إلى قسم شُرطة ليكسايد في صمت، وإذ توقّفا أمام المبنى قال تشاد إنه تابع في الواقع لمكتب شِريف المقاطعة، ولقوّة الشُّرطة المحليّة بعض الحُجرات فيه. قريبًا جدًّا ستبني المقاطعة شيئًا حديثًا، أمّا الآن فعليهم تدبُّر أمورهم بالمتاح لهم.

دخلا القسم، وسألَ شادو: «أينبغي أن أتَّصل بمحامٍ؟».

أجابَه موليجان: «لستَ متَّهمًا بشيء. القرار لك»، ثم دخلا من بابٍ متأرجح، وقال له: «اجلس هناك».

جلسَ شادو على مقعدٍ خشبي في جانبه حروق سجائر، وقد انتابَه شعور بالغباء والخدر. على لوحة النَّشرات، بجوار لافتة «**ممنوع التَّدخين**»، ملصق صغير تتصدَّره عبارة «**مفقودة في خطر**» مصحوبةً بصورة آليسن مكجڤرن.

فوق منضدةٍ خشبيَّة نُسخ قديمة من «سپورتس إلسترِيتد» و«نيوزويك»، قُطِعَت من أغلفتها بعنايةٍ الأجزاء التي أُلصِقَت عليها عناوين أصحابها السَّابقين. الإضاءة رديئة، والطِّلاء على الجُدران أصفر، ولكن ربما كان أبيض من قبل.

بعد عشر دقائق جلبَ له تشاد كوبًا من الشُّكولاتة السَّاخنة المائعة من آلة البيع، وسألَه: «ما الذي في الكيس؟»، وعندئذٍ فقط أدركَ شادو أنه ما زالَ يحمل الكيس البلاستيكي الذي يحوي نُسخة «محاضر اجتماعات مجلس بلدة ليكسايد».

أجابَ شادو: «كتاب قديم. جدُّك له صورة هنا، أو ربما جدُّك الكبير».

- «حقًّا؟».

تصفَّح شادو الدَّفتر حتى وجدَ پورتريه مجلس البلدة، وأشارَ إلى الرَّجل المسمَّى موليجان، فقهقهَ تشاد قائلًا: «عجب عُجاب!».

مرَّت دقائق ومرَّت ساعات في تلك الحُجرة. قرأ شادو عددَيْن من «سپورتس إلسترِيتد» وبدأ يقرأ «نيوزويك»، وبين الحين والآخَر أتى تشاد ليسأله إن كان يحتاج إلى دخول الحمَّام، وفي مرَّةٍ قدَّم له لفافةً من فخذ الخنزير وكيسًا صغيرًا من رقائق البطاطس، وإذ أخذَهما شادو قال: «شكرًا. أأنا مقبوض عليَّ؟».

امتصَّ تشاد الهواء من بين أسنانه، وقال: «سنعرف بعد قليل. لا يبدو أنك حصلت على اسم مايك آينسل بشكلٍ قانوني، ولكن من ناحيةٍ أخرى بإمكانك أن تُطلِق على نفسك أيَّ اسمٍ تشاء في هذه الولاية، ما لم يكن غرضك التَّدليس. عليك بالاسترخاء».

- «أيُمكنني أن أجري مكالمةً؟».

- «أهي مكالمة محليَّة؟».

- «خارجيَّة».

- «ستُوفِّر مالك إذا وضعتها على بطاقة الاتّصالات التي أستخدمها، وإلّا فستُلقِم الهاتف الموجود في القاعة ما يُعادِل عشرة دولارات من الأرباع».

فكَّر شادو: طبعًا، *وبهذه الطَّريقة ستعرف الرَّقم الذي طلبته*. وعلى *الأرجح ستتنصَّت على المكالمة من وصلةٍ فرعيَّة*، وقال: «سيكون هذا عظيمًا».

دخلا مكتبًا خاليًا إلى جوار مكتب تشاد، الإضاءة فيه أفضل بعض الشَّيء. الرَّقم الذي أعطاه شادو لتشاد ليَطلُبه من أجله هو رقم دار الجنازات في القاهرة بإلينوي، وقد طلبَه تشاد وناولَ شادو السمَّاعة قائلًا: «سأتركك هنا»، ثم خرجَ.

رنَّ الهاتف عدَّة مرَّات، ثم ردَّ أحدهم.

- «جاكل وآيبس. كيف أساعدك؟».

- «مرحبًا. مستر آيبس، أنا مايك آينسل. كنتُ قد ساعدتكم في العمل بضعة أيامٍ خلال الكريسماس».

لحظة تردُّد، ثم: «بالطَّبع. مايك. كيف حالك؟».

- «لستُ في خير حالٍ يا مستر آيبس. إنني في ورطة، على وشك أن يُقبَض عليَّ. آملُ أنك رأيت خالي، أو ربما يُمكنك أن تُبلِّغه رسالةً».

- «يُمكنني أن أسأل عنه بالتَّأكيد. مهلًا يا، آه، مايك. معي أحد هنا يودُّ أن يُكلِّمك».

انتقلَت السمَّاعة إلى شخصٍ آخَر، ثم قال صوت أنثوي مثير: «أهلًا يا عسل. أوحشتني».

على الرغم من ثقته بأنه لم يسمع ذلك الصَّوت قَطُّ، ألفى نفسه يعرفها. كان على يقينٍ بأنه يعرفها...

وداخل عقله همسَ الصَّوت المثير في حُلمٍ رآه: *اصرف ما جرى من ذهنك، اصرف كلَّ شيءٍ من ذهنك*.

- «مَن الفتاة التي كنت تُقبِّلها يا عسل؟ أتُحاوِل إثارة غيرتي؟».

قال شادو: «إننا صديقان لا أكثر. أظنُّها كانت تُحاوِل إثبات وجهة نظر. كيف عرفتِ أنها قبَّلتني؟».

قالت: «إن لي أعينًا أينما ذهبَ قومي. اعتنِ بنفسك يا عسل...»، ومرَّت لحظة صمت، ثم عادَ الخطُّ إلى المستر آيبس، الذي قال: «مايك؟».

- «نعم».
- «لدينا مشكلة في الوصول إلى خالك. يبدو أنه مقيَّد حاليًا، لكنني سأحاولُ إيصال رسالةٍ إلى خالتك نانسي. حظًّا سعيدًا».

ثم انقطعَ الخطُّ.

جلسَ شادو مترقِّبًا عودة تشاد. جلسَ في المكتب الخالي متمنِّيًا لو أن معه شيئًا يصرف انتباهه، وعلى مضضٍ التقطَ «المحاضر» ثانيةً وفتحَ الدَّفتر على صفحةٍ عشوائيَّة في منتصَفه، وشرعَ في القراءة.

في ديسمبر 1876 طُرِحَ مرسوم بمنع البصق على الأرصفة وأرضيَّات المباني العامَّة، ومن ثمَّ منع رمي التَّبغ بأيِّ صورة، ومُرِّرَ بثمانية أصوات مقابل أربعة.

كان لمي هاوتلا في الثَّانية عشرة من العُمر، و«يُخشى أنه هامَ على وجهه في نوبةٍ من الهذيان» في الثَّالث عشر من ديسمبر 1876، «وقد خرجَت فرقة بحثٍ توًّا، بيد أنها تعطَّلت أمام الثُّلوج المُعمية». صوَّت المجلس بالإجماع على إرسال التَّعازي إلى عائلة هاوتلا.

أُخمِدَ الحريق الذي نشبَ في اسطبلات أولسن لتأجير الخيول في الأسبوع التَّالي من غير إصابات أو خسائر في الأرواح البشريَّة أو الخيْليَّة.

مسحَ شادو الأعمدة المطبوعة بحروفٍ دقيقة، ولم يجد ذِكرًا آخَر للمي هاوتلا.

ثم تملَّكه شيء أكبر قليلًا من نزوة، وقلبَ الصَّفحات حتى شتاء 1877.

وجدَ ما يبحث عنه مذكورًا في ملاحظةٍ جانبيَّة في محاضر شهر يناير: اختفَت جسي لوقات التي لم تُحدَّد سنُّها، وهي «طفلة نيجرو»، في ليلة الثَّامن والعشرين من ديسمبر، ويُعتقَد أنها «اختُطِفَت بأيدي الباعة المتجوِّلين المزعومين الذين طُردوا من البلدة في الأسبوع السَّابق، بعد اكتشاف تورُّطهم في أفعال لصوصيَّة معيَّنة، وقيلَ إنهم متَّجهون إلى سانت پول». أُرسِلَت تلجرامات إلى سانت پول وإن لم يُبلَّغ عن أيِّ نتائج، ولم تُرسَل تعازٍ إلى عائلة لوقات.

كان شادو يمسح محاضر شتاء 1878 عندما طرقَ تشاد موليجان الباب، ودخلَ والخجل بادٍ عليه مثل طفلٍ يُقدِّم لوالديْه بطاقة تقريرٍ مدرسي تحوي درجاته السَّيئة.

- «مستر آينسل. مايك. آسفٌ على كلّ هذا حقيقةً. أقدِّر تعامُلك الهادئ مع الموقف. أنا شخصيًا أحبُّك، لكنك تعلم أن ذلك لا يُغيِّر شيئًا».

فقال شادو إنه يعلم.

- «ليس لي خيار في الأمر إلّا القبض عليك لمخالفتك شروط إطلاق سراحك».

ثم قرأ رئيس الشُّرطة تشاد موليجان على شادو حقوقه، وملأ بعض الأوراق الرَّسميَّة، وأخذَ بصمات شادو، ثم ساقَه عبر الرُّواق إلى حبس المقاطعة على جانبِ المبنى الآخَر.

في أحد طرفَي الحُجرة منضدة طويلة وعدَّة أبواب، وفي الطَّرف الآخَر زنزانتان وباب واحد. إحدى الزِّنزانتين مشغولة، ينام فيها رجل فوق سريرٍ أسمنتي تحت غطاءٍ خفيف، والثَّانية شاغرة.

وراء المنضدة امرأة يلوح عليها النُّعاس، ترتدي زيَّ الشُّرطة البنِّي وتُشاهِد چاي لِنو على تليفزيون نقَّال أبيض صغير. أخذَت الأوراق من تشاد ووقَّعت بتسلُّم شادو، فيما مكثَ تشاد ليملأ المزيد من الأوراق. دارَت المرأة حول المنضدة وفتَّشت شادو وأخذَت متعلِّقاته كلَّها -المحفظة، والعُملات، ومفتاح الشقَّة، والدَّفتر، والسَّاعة- ووضعَتها فوق المنضدة، ثم أعطَته كيسًا بلاستيكيًّا فيه ملابس برتقاليَّة، وقالت له أن يَدخُل الزِّنزانة المفتوحة ويُبدِّل ملابسه، ولكن باستطاعته الاحتفاظ بثيابه الدَّاخليَّة وجوربه. هكذا دخلَ ووضعَ الملابس البرتقاليَّة وخُفَّي الحمَّام، وكانت رائحة الزِّنزانة شيطانيَّةً. يحمل القميص البرتقالي الذي ارتداه على ظَهره عبارة «**حبس مقاطعة لمبر**» بحروفٍ سوداء كبيرة.

كان مرحاض الزِّنزانة المعدني مسدودًا وطافحًا بخليطٍ بنِّي من الغائط السَّائل والبول المنتن الشَّبيه بالبيرة.

خرجَ شادو وأعطى المرأة ملابسه، التي وضعَتها في كيسٍ مع باقي متعلِّقاته، وجعلَته يُوقِّع بتسليمها. وقَّع شادو باسم مايك آينسل، ولو أنه وجدَ نفسه بدأ يُفكِّر في مايك آينسل باعتباره شخصًا كنَّ له قدرًا لا بأس به من المحبَّة في الماضي لكنه لن يراه مجدَّدًا في المستقبل. قبل أن يُسلِّم محفظته داعبَها بخفَّة يد، ثم قال للمرأة وهو يُعطيها لها: «حافِظي عليها، فحياتي كلُّها فيها». أخذَت منه المرأة المحفظة مؤكِّدةً أنها ستكون آمنةً معهم، وسألَت

تشاد إن كان ذلك غير صحيح، فرفعَ ناظريْه عن ورقته الأخيرة وقال إن ليز تقول الحقيقة، وإنهم لم يفقدوا متعلّقات محبوسٍ حتى اليوم.

عندما بدّل شادو ملابسه، دسّ الأربعمئة دولار التي أخذها خفيةً من محفظته في جوربه، ومعها دولار الحرّيّة الفضّي الذي أخفاه وهو يُفرغ جيوبه.

بعد خروجه من الزّنزانة سأل: «أخبِرني، أهناك مشكلة إذا أنهيتُ قراءة الكتاب؟».

أجابَه تشاد: «آسف يا مايك. القواعد هي القواعد».

وضعَت ليز كيس متعلّقات شادو في حُجرةٍ خلفيّة، وقال تشاد لشادو إنه سيَترُكه بين يدَي الضّابط بيوت القديرتيْن. بدَت ليز متعَبةً غير متأثّرة، وغادرَ تشاد. رنَّ الهاتف، وأجابَت ليز -الضّابط بيوت- مردِّدةً: «حسن. حسن. لا مشكلة. حسن. لا مشكلة. حسن»، ثم وضعَت السمّاعة وبانَ على وجهها الاستياء.

سألَها شادو: «مشكلة؟».

- «نعم. ليس بالضّبط. نوعًا. سيُرسِلون أحدًا من ميلواكي ليأخذك. طيّب، هل تُعاني أيَّ مشكلاتٍ صحّيّة؟ السُّكّري أو ما شابهَ؟».

- «لا، لا شيء من ذلك. لماذا هذه مشكلة؟».

قالت: «لأن عليّ أن أبقيك هنا معي ثلاث ساعات، وهذه الزّنزانة» -وأشارَت إلى الزّنزانة المجاورة للباب حيث الرّجل النّائم- «هذه مشغولة. إنه تحت المراقبة لمنعه من الانتحار. لا يَجدُر بي أن أضعك معه. لكن الأمر لا يستحقّ مشقّة التّوقيع باستلام المقاطعة لك ثم التّوقيع بتسليمك»، وهزّت رأسها متابعةً: «ولستَ تُريد الدُّخول هناك» -وأشارَت إلى الزّنزانة الشّاغرة حيث بدّل ملابسه- «لأن المرحاض تالف. الرّائحة هناك شنيعة، أليس كذلك؟».

- «بلى. مقرفة».

- «إنها مسألة إنسانيّة مشتركة ليس إلّا. لا أطيقُ صبرًا على انتقالنا إلى المنشأة الجديدة. لا بُدّ أن إحدى النّساء التي كنّ هنا أمس طردَت فوطة صحّيّة. أقول لهن دومًا ألّا يفعلن ذلك. عندنا سلال مهملات لأجل ذلك. المواسير تنسدُّ. كلُّ فوطةٍ لعينة تُطرَد من هذا المرحاض تُكلّف مئة

دولار أجر سباكة. يمكنني إذًا أن أبقيك هنا إذا قيّدتك، أو يمكنك دخول الزّنزانة». ثم نظرت إليه قائلةً: «القرار لك».

قال: «لستُ مولعًا بها، لكنني أختارُ الأصفاد».

أخذَت زوجين من الأصفاد من حزامها، ثم ربَتت على مسدّسها نصف الآلي في جرابه كأنما تُذكّره بوجوده، وقالت: «يداك خلف ظهرك».

كانت الأصفاد ضيّقةً بسبب معصميه الكبيرَين، ثم قيّدت ليز كاحليه بشِكالٍ وأجلسَته فوق دكّةٍ عند الحائط على جانب المنضدة البعيد. «والآن، إذا لم تُزعِجني فلن أزعجك». قالتها وحرّكت التليفزيون لكي يراه.

- «شكرًا».

قالت: «حين نَحصُل على مكاتبنا الجديدة لن يتكرّر هذا الهُراء».

انتهى «برنامج اللّيلة» بتمنّي چاي وضيوفه ليلةً طيّبةً للعالم بابتساماتٍ من الأُذنِ إلى الأُذن، وبدأت حلقة من «تشيرز».[*] لم يُشاهِد شادو «تشيرز» فعليًّا قَطُّ، بل رأى منه حلقةً واحدةً فقط -الحلقة التي تزور فيها ابنة كوتش البار- ولو أنه رآها عدّة مرّات. كان قد لاحظ أن المرء لا يُصادِف إلّا حلقةً واحدةً بعينها من المسلسلات التي لا يُشاهِدها، يُصادِفها مرارًا وتكرارًا على مرّ سنين متفرّقة، وهو ما جعلَه يُفكّر أنه قانون كوني لا بُدّ.

جلسَت الضّابط ليز بيوت مسترخيةً في مقعدها، لا يبدو عليها بوضوحٍ أنها غافية، وإن لم تكن مستيقظةً قطعًا، ولذا لم تلحظ عندما كفّت الشلّة في بار «تشيرز» عن الكلام وإلقاء التّعليقات الظّريفة القصيرة، وبدأت تُحدّق من الشّاشة إلى شادو.

كانت ديان، ساقية البار الشّقراء التي تخال نفسها من أصحاب الفكر، أوّل مَن تكلّم، فقالت: «شادو، كنا في غاية *القلق* عليك. لقد احتجبت عن العالم. جميل للغاية أن أراك ثانيةً... مع أنك مقيّد بالأصفاد وترتدي هذا الزّيّ البرتقالي».

قال زبون البار الممل كليف كأنما يُلقي عظةً: «رأيي أن ما عليك أن تفعله، أن تهرب خلال موسم الصّيد، حينما يرتدي الجميع البرتقالي على كلّ حال».

ولم يتكلّم شادو.

قالت ديان: «آه، أرى أن القِطّة أكلت لسانك. لقد دوّختنا بحثًا عنك!».

أشاحَ شادو ببصره. كانت ليز قد بدأت تغطُّ غطيطًا خفيفًا.

بحدَّةٍ صاحَت كارلا، النَّادلة صغيرة الحجم: «أنت أيها السَّفيه! نقطع هذا الإرسال لنُريك شيئًا سيجعلك تبول على نفسك. مستعد؟».

ارتعشَت الشَّاشة واسودَّت، ثم تذبذبَت عبارة «**بث حي**» بالأبيض على يسار الشَّاشة السُّفلي، وقال التَّعليق بصوتٍ أنثوي بليد: «لا شكَّ أن أوان الانضمام إلى الطَّرف *الرَّابع* لم يَفُت، ولكن اعلم أن لك *أيضًا* حرِّيَّة البقاء حيث أنت *بالضَّبط*. هذا هو ما يعنيه أن *تكون* أمريكيًّا. هذه هي معجزة أمريكا. حرِّيَّة الاعتقاد معناها حرِّيَّة الاعتقاد في الأشياء الخطأ رغم كلِّ شيء، مثلما تُعطيك حرِّيَّة *التَّعبير* الحقَّ في البقاء صامتًا».

ثم عرضَت الصُّورة مشهدًا لشارع، واندفعَت الكاميرا إلى الأمام بأسلوب كاميرات الفيديو المحمولة في الوثائقيَّات الحقيقيَّة.

ملأ رجل اللَّقطة، رجل مسمرُّ البشرة يزحف على شعره الصَّلع وتحمل ملامحه تعبيرًا ذليلًا خافتًا، يقف عند جِدارٍ يرشف القهوة من كوبٍ بلاستيكي، وقد نظرَ في الكاميرا قائلًا: «الإرهاب كلمة أبسط من أن يتشدَّق بها النَّاس، معناها أن الإرهابيِّين الحقيقيِّين يختبئون وراء كلماتٍ خبيثة ملتوية على غرار «مناضل حرِّيَّة»، في حين أنهم حُثالة قتلَة لا أكثر ولا أقل. لا يُسهِّل هذا عملنا، لكننا على الأقل نعرف أننا نصنع فرقًا. نحن نُخاطِر بحياتنا لنصنع فرقًا».

تعرَّف شادو الصَّوت. لقد كان داخل رأس الرَّجل. آنذاك بدا صوت المستر تاون مختلفًا من الدَّاخل؛ أعمق وأعلى رنينًا، ولكن لا مجال للخلط بينه وبين غيره.

انسحبَت الكاميرا لتُري المستر تاون واقفًا خارج مبنى من القرميد في شارعٍ أمريكي، وفوق الباب مثلَّث قائم الزَّاوية وبوصلة يحتويان الحرف G.[1]

من خارج اللَّقطة قال شخص: «في مواقعنا».

قال التَّعليق الصَّوتي الأنثوي: «هيَّا بنا نرى إن كانت الكاميرات داخل المحفل تعمل». الصَّوت من النَّوع المُطَمْئِن الذي يستعملونه في الإعلانات ليبيعوك أشياءَ لن يغتنم فُرصة شرائها إلَّا الأذكياء أمثالك.

---

(1) رمز أخويَّة الماسونيَّة. (المُترجم).

ظلّت عبارة «بث حي» تتذبذب على يسار الشّاشة السّفلي، والآن تعرض الصّورة قاعةً صغيرةً معتمةً من الدّاخل. في طرفها القصي يجلس رجلان إلى طاولة، ويُولي أحدهما الكاميرا ظهره. كبُرت الكاميرا لقطتهما بارتباك، في سلسلةٍ من الحركات المتعرّجة، وللحظةٍ خرَجا من التّركيز البؤري، ثم اتّضحت صورتهما من جديد. نهض الرّجل المواجه للكاميرا وبدأ يتحرّك جيئةً وذهابًا مثل دُبٍّ مربوط بسلسلة. الأربعاء، باديًا كأنه على نحوٍ ما يستمتع بالموقف. مع دخولهما بؤرة التّركيز فرقعَ الصّوت إذ اشتغلَ.

كان الرّجل الذي يُولي الكاميرا ظهره يقول: «... نعرضه فُرصة لإنهاء هذا، هنا والآن، دون المزيد من إراقة الدّماء، دون المزيد من الاعتداءات، دون المزيد من الألم، دون المزيد من الخسائر في الأرواح. ألا يستحقّ ذلك قليلًا من التّنازُل؟».

توقّف الأربعاء عن الحركة والتفتَ وقد اتّسعت طاقتا أنفه حنقًا، وزمجر: «أوّلًا، عليك أن تفهم أنك تَطلُب مني الكلام نيابةً عنا جميعًا، عن كلّ شخصٍ في موقفي في جميع أنحاء هذه البلاد، وهذا بكلّ وضوح مطلب غير معقول. سيفعلون ما سيفعلونه ورأيي لا يهمُّ. ثانيًا، لماذا تحسبونني أصدُقُ أنكم ستبرُّون بكلمتكم؟».

حرّك الرّجل الذي يُولي الكاميرا ظَهره رأسه، وقال: «إنك تبخس نفسك حقّها. واضحٌ أنكم بلا قادة، لكنك أنت مَن يُصغون إليه. إنهم ينتبهون لكلامك يا مستر كارجو. وبالنّسبة إلى برِّي بكلمتي، فهذه المباحثات التّمهيديّة تُصوَّر الآن وتُبَثُّ بثًّا مباشرًا»، وأشارَ إلى الكاميرا خلفه متابعًا: «بعض قومك يُشاهِد حاليًّا فيما نتكلّم، والبعض الآخر سيرى أشرطة الڤيديو، والبعض الآخَر سيحكي له مَن يثقون بهم. الكاميرا لا تكذب».

ردَّ الأربعاء: «الكلُّ يكذب».

تعرّف شادو صوت الرّجل الذي يُولي الكاميرا ظَهره. إنه المستر وورلد، الرّجل الذي كلّم تاون على الهاتف المحمول حين كان شادو داخل رأسه.

قال المستر وورلد: «لا تُصدِّق أننا سنبرُّ بكلمتنا؟».

- «رأيي أن وعودكم قُطِعَت لتُخلِفوها وأيمانكم حُلِفَت لتحنثوا بها. أمّا أنا فلسوف أبرُّ بكلمتي».

- «المرور الآمن هو المرور الآمن، وعَلم الهُدنة هو ما اتّفقنا عليه. بالمناسبة، عليَّ أن أعلمك بأن تلميذك الشّاب عادَ إلى حوزتنا».

أطلقَ الأربعاء نخيرًا ساخرًا، وقال: «لا، لم يَعُد».

- «كنا نُناقش سُبل التّعامُل مع التّحوُّل النّموذجي المقبل. ليس ضروريًا أن نكون أعداء، أليس كذلك؟».

قال الأربعاء وهو لا يزال يبدو مهزوزًا: «سأفعلُ ما بمقدوري أيًا كان...».

لاحظَ شادو شيئًا غريبًا في صورة الأربعاء على شاشة التليفزيون. في عينه اليُسرى، عينه الزُّجاج، وميض أحمر متّقد يجعل العين تشتعل بضوءٍ قرمزي، ولمّا يتحرَّك يُخلِّف الوميض نُقطةً فسفوريَّةً تصنع صورةً تِلويَّةً، وإن بدا أن الأربعاء لا يعي وجودها.

قال الأربعاء حاشدًا أفكاره: «إنه بلد كبير»، وحرَّك رأسه فانزلقَت اللُّطخة المتوهِّجة بالقرمزي إلى وجنته كنُقطةٍ حمراء من مؤشّر ليزر، ثم ارتفعَت ببُطءٍ إلى عينه الزُّجاجيَّة من جديد. «يُوجَد متَّسع لـ...».

انبعثَ دويٌّ كتمَته سمّاعات التليفزيون، وانفجرَ جانب رأس الأربعاء، وتهاوى جسده إلى الخلف.

نهضَ المستر وورلد موليًا الكاميرا ظَهره، وخرجَ من اللّقطة.

وقال التّعليق الصّوتي بنبرةٍ مُطمْئِنة: «لنرَ المشهد ثانيةً، بالحركة البطيئة هذه المرَّة».

تحوَّلت عبارة «**بث حي**» إلى «**إعادة**»، وببُطءٍ تعقَّب مؤشّر الليزر الأحمر ببُقعته عين الأربعاء الزُّجاج، ومرَّةً أخرى تبدَّد جانب وجهه في سحابةٍ من الدَّم. ثم تجمَّدت اللّقطة.

- «نعم، ما زالَت هذه بلاد الإله». قالتها المعلّقة كمذيعة أخبار تنطق السَّطر الأخير. «السُّؤال الوحيد هو: أيُّ الآلهة؟».

وقال صوت آخَر (فكَّر شادو أنه صوت المستر وورلد، لأن له ذلك الطّابع شبه المألوف ذاته): «والآن نعود إلى برامجكم حسب جدول البث».

في حلقة «تشيرز» أكَّد كوتش لابنته أنها جميلة حقًّا، تمامًا مثل أمّها.

رنَّ الهاتف، واعتدلَت الضّابط ليز في جلستها جافلةً. رفعَت السمّاعة، وقالت: «حسن. حسن. نعم. حسن، سأكونُ هناك»، ثم أغلقَت الخطَّ ونهضَت

من وراء المنضدة قائلة لشادو: «آسفة، يجب أن أضعك في الزِّنزانة. لا تستخدم المرحاض. إذا أردت قضاء حاجتك فاضغط على الجرس الكهربائي المجاوِر للباب، وسآتي في أسرع وقتٍ ممكن وأصحبك إلى دورات المياه في المؤخِّرة. المفترَض أن يصل أحد من مكتب شريف لافايت قريبًا ليأخذك».

حلَّت ليز الأصفاد والشِّكال وحبسَته في الزِّنزانة، حيث ساءت الرّائحة أكثر بعد إغلاق الباب.

جلسَ شادو على السَّرير الأسمنتي وأخرجَ الدولار الفضّي من فردة جوربه وبدأ يُحرِّكه من إصبعه إلى كفِّه، من وضعٍ إلى وضع، من يدٍ إلى يد، هدفه الوحيد ألّا يرى العُملة أيُّ أحدٍ ينظُر داخلَ الزِّنزانة. كان يُزجِّي الوقت. كان خدِرًا.

وعندئذٍ افتقدَ الأربعاء، افتقدَه افتقادًا مباغتًا عميقًا، افتقدَ ثقة الرَّجل وأسلوبه، افتقدَ يقينه.

فتحَ يده ونظرَ إلى نقش السيِّدة حرِّيّة الجانبي الفضّي، ثم أغلقَ أصابعه على العُملة بإحكام. تساءلَ إن كان سيُصبِح واحدًا ممن يُحكَم عليهم بالسِّجن مدى الحياة لجريمةٍ لم يرتكِبوها، هذا إن بلغَ تلك المرحلة من الأصل. مما رآه من المستر وورلد والمستر تاون، فلن يجدوا صعوبةً في حذفه من النِّظام. قد تقع له حادثة مؤسِفة في أثناء نقله إلى المحبس التّالي، قد يُردى قتيلًا وهو يُحاوِل الهرب. لا يبدو هذا مستبعَدًا على الإطلاق.

حركة نشطة في الحُجرة على الجانب الآخر من الزُّجاج، وعادَت الضّابط ليز وضغطَت زرًّا، فانفتحَ باب لا يراه شادو، ودخلَ معاون أسود يرتدي زيَّ الشَّريف البنِّي وتحرَّك بخُطواتٍ حثيثة نحو المكتب.

عادَ شادو يدسُّ الدولار الفضّي في جوربه، دافعًا إياه إلى كاحله.

ناولَ المعاون الجديد ليز بعض الأوراق، وجرَت عليها عيناها ووقَّعتها، ثم دخلَ تشاد موليجان وقال بضع كلماتٍ للرَّجل الجديد، قبل أن يفتح باب الزِّنزانة ويَدخُل.

- «الرّائحة فظيعة هنا».

- «حدِّث ولا حرج».

- «حسن، لقد أتوا لأخذك. يبدو أنك مسألة أمن قومي. أتعلم ذلك؟».

قال شادو: «سيكون موضوعًا ممتازًا لصفحة «أخبار ليكسايد» الأولى»،

رمقَه تشاد بلا تعبير، وقال: «القبض على هائمٍ لمخالفته شروط إطلاق سراحه؟ ليس موضوعًا يستحقُّ».

- «هكذا الأمر إذًا؟».

أجابَ تشاد موليجان: «هكذا يُخبرونني».

وضعَ شادو يديه أمامه هذه المرَّة، وقيَّده تشاد بالأصفاد، ثم أغلقَ الشُّكال حول كاحليه وأضافَ قضيبًا يربط الأصفاد بالشُّكال.

فكَّر شادو: *سيأخذونني إلى الخارج. قد يُمكنني أن أحاول الفرار، أحاول الفرار بالأصفاد والشُّكال والثِّياب البرتقاليَّة الخفيفة في الثَّلج*. ولكن فيما جالَ هذا بباله علمَ أنها محاولة حمقاء يائسة.

خرجَ به تشاد إلى المكتب، كيث كانت ليز قد أغلقَت التليفزيون. نظرَ إليه المعاون الأسود من رأسه إلى قدميه، وقال لتشاد: «إنه رجل كبير».

ناولَت ليز المعاون الجديد الكيس الذي وضعَت فيه متعلِّقات شادو، ووقَّع الرَّجل باستلامه.

نظرَ تشاد إلى شادو، ثم إلى المعاون، وقال بصوتٍ هادئ ولكن مرتفع بما فيه الكفاية ليسمعه شادو: «اسمع، أريدُ فقط أن أقول إنني لستُ مستريحًا للطَّريقة التي يجري بها الأمر».

أومأ المعاون برأسه. كان صوته عميقًا ينمُّ عن ثقافة، صوت رجلٍ بإمكانه أن يُنظِّم مؤتمرًا صحافيًّا بسهولة تنظيم مجزرة. «عليك أن تُناقِش هذا مع السُّلطات المعنيَّة يا سيِّدي. وظيفتنا ببساطة أن ننقله».

لاحَ الامتعاض على تشاد، والتفتَ إلى شادو قائلًا: «طيِّب. من الباب إلى المنفذ الجانبي».

- «ماذا؟».

- «بالخارج، حيث السيَّارة».

فتحَت ليز الباب الموصد، وقالت مخاطبةً المعاون: «احرصوا على إعادة هذا الزِّي البرتقالي. آخِر مذنبٍ أرسلناه إلى لافايت لم نرَ زيَّه ثانيةً. إنها تُكلِّف المقاطعة مالًا».

خرجَ تشاد والمعاون بشادو إلى المنفذ الجانبي حيث تنتظر سيَّارة، غير أنها ليست سيَّارةً تابعةً لمكتب الشَّريف، بل سيَّارة سوداء فارهة، يقف عندها

معاون آخر أبيض أشيب له شارب يدخّن سيجارةً. مع اقترابهم سحقها تحت حذائه، وفتحَ الباب الخلفي لشادو.

بعُسرٍ جلسَ شادو وقد أعاقت حركته الأصفاد والشّكال. لا تُوجَد شبكة بين مقدِّمة السيَّارة ومؤخّرتها.

جلسَ المعاونان في المقدِّمة، وشغَّل المعاون الأسود المحرِّك، وانتظرا أن يُفتَح باب المنفذ.

قال المعاون الأسود مطبِّلًا بأصابعه على عجلة القيادة: «هيَّا، هيَّا».

نقرَ تشاد موليجان على النَّافذة الجانبيَّة، فنظرَ المعاون الأبيض إلى السَّائق، ثم خفضَ النَّافذة. قال تشاد: «هذا خطأ. أردتُ أن أقول هذا فقط».

قال السَّائق: «تعليقاتك ملحوظة وستُنقَل إلى السُّلطات المعنيَّة».

انفتحَ الباب إلى العالم الخارجي، حيث لا يزال الثَّلج يَسقُط بمنظرٍ مدوِّخ في أضواء السيَّارة. وضعَ السَّائق قدمه على دوَّاسة الوقود، وانطلقوا في الشَّارع الجانبي ومنه إلى الرَّئيسي.

سألَ السَّائق: «هل سمعت بما جرى للأربعاء؟». صوته الآن مختلف، صوت أكبر سنًّا، ومألوف. «لقد ماتَ».

أجابَ شادو: «نعم، أعرفُ، شاهدته في التليفزيون».

قال الضَّابط الأبيض: «أولئك الملاعين». كانَ هذا أوَّل شيءٍ قاله، صوته خشن فيه لُكنة، ومثل صوت السَّائق يعرفه شادو. «أقولُ لك صدقًا إنهم ملاعين أولئك الملاعين».

قال شادو: «شكرًا لمجيئكما لإنقاذي».

ردَّ السَّائق: «عفوًا». في ضوء سيَّارةٍ مقبلة بدا وجهه أكبر سنًّا، وحجمه أصغر أيضًا. آخِر مرَّةٍ رآه شادو كان يلبس قُفَّازَيْن باللَّون الأصفر اللَّيموني وسُترةً كاروهات. «كنا في ميلواكي، ومع ذلك كان علينا أن نسعى إلى هنا كالشَّياطين عندما اتَّصل آيبس».

بتجهُّم سألَه المعاون الأبيض وهو يُفتِّش في جيبه عن عُلبة سجائر: «أحسبت أننا سندعهم يحبسونك ويُرسِلونك إلى المقعد الكهربائي في حين أني ما زلتُ أنتظرُ تحطيم رأسك بمطرقتي؟». كانت لهجته شرق أوربيَّة.

قال المستر نانسي باديًا كنفسه أكثر مع كلِّ لحظةٍ تمرُّ: «عاصفة الخراء الحقيقيَّة ستهبُّ بعد ساعةٍ أو أقل، حين يصلون لأخذك حقًّا. سنتوقَّف قبل بلوغ الطَّريق السَّريع 53 ونُحرِّرك من هذه الأغلال ونضعك في ملابسك».

رفعَ تشرنوبوج مفتاح أصفادٍ وابتسمَ، وقال شادو: «يُعجِبني الشَّارب، يُناسِبك».

داعبَ تشرنوبوج شاربه بإصبعٍ مصفرَّة قائلًا: «أشكرك».

قال شادو: «الأربعاء، هل ماتَ حقًّا؟ ليست هذه خدعةً، أليس كذلك؟».

أدركَ أنه كان متمسِّكًا بشيءٍ من الأمل على الرغم من حُمق الفكرة، إلَّا أن التَّعبير على وجه نانسي أخبرَه بكلِّ ما يحتاج إلى معرفته، وضاعَ الأمل.

## المجيء إلى أمريكا
## 14000 قبل الميلاد

باردًا كان العالم ومظلمًا حين أتتها الرُّؤيا، ففي أقصى الشَّمال ضوء النَّهار إن هو إلّا وقت غائم معتم في منتصَف اليوم، يجيء ويذهب ويجيء ثانيةً، فاصلًا بين الظُّلمات.

حسبما كانت تلك الأشياء تُقدَّر آنذاك، لم تكن قبيلتهم كبيرةً. هذه القبيلة من رُحَّل السُّهول الشَّماليَّة. كان لهم إله هو جمجمة ماموث وفروة ماموث شُكِّلَ منها ما يُشبِه العباءة، وقد أطلَقوا عليه اسم ننيونيني. حينما لا يُسافِرون من مكانٍ إلى آخَر، يستقرُّ على هيكلٍ خشبي بارتفاع قامة الإنسان.

كانت هي امرأة القبيلة المقدَّسة وحافظة أسرارها، واسمها أتسولا، الثَّعلبة. عندما يمشون، كانت أتسولا تتقدَّم رجلَي القبيلة اللذين يحملان إلههم على زانتيْن طويلتيْن مكسوًّا بفراء الدِّببة، إذ يجب ألَّا تُبصره عين دنسة، أو يُبصَر في وقتٍ يتجرَّد فيه من قداسته.

جابوا التندرا بخيامهم، أفخمها مصنوعة من جلد الكاريبو، وكانت خيمةً مقدَّسةً، وبداخلها جلسَ أربعة منهم: أتسولا الكاهنة، والثَّلاثة الذين استدعَتهم إلى الخيمة في اليوم التَّالي لرؤيتها الرُّؤيا؛ جوجواي شيخ القبيلة، ويانو القائد الحربي، وكالانو الكشَّافة.

كشطَت أتسولا القليل من الأُشنة في النَّار، ثم ألقَت فيها أوراق نباتاتٍ مجفَّفةً بيدها اليُسرى الضَّامرة، ليتصاعَد منها دُخان رمادي يلسع الأعيُن، وتنبعث رائحة نفَّاذة غريبة. ثم أخذَت أتسولا كوبًا خشبيًا من فوق المنصَّة الخشب، وناولَته لجوجواي، وكان الكوب نصف ممتلئ بسائلٍ أصفر قاتم.

كانت أتسولا قد وجدَت فطر البَنج -لكلِّ حبَّةٍ منه سبع رُقط، ووحدها امرأة مقدَّسة حقيقيَّة يُمكنها أن تجد الفطر سُباعي الرُّقط- وقطفَته في طور القمر المظلم، وجفَّفته على خيطٍ من غضاريف الغزال.

البارحة قبل نومها أكلَت رؤوس الفطر المجفَّف الثَّلاثة. ورأت أحلامًا مشوَّشةً مخيفةً، أحلامًا بأضواء ساطعة تتحرَّك مسرعةً، بجبالٍ صخريَّة ملأى بأضواء منتصبة كجِرابٍ من الجليد. في أديم اللَّيل استيقظَت تتصبَّب عرقًا ومحتاجةً إلى إفراغ مثانتها، وهكذا أقعَت فوق الكوب الخشبي وملأته ببولها، ثم وضعَت الكوب خارج الخيمة في الثَّلج، وعادَت إلى النَّوم.

وعندما استيقظَت استخرجَت كُتل الجليد من الكوب كما علَّمتها أمُّها، تاركةً سائلًا أقتم وأشدَّ تركيزًا.

هذا السَّائل هو ما مرَّرته في الخيمة الجلديَّة، أولًا إلى جوجواي، ثم إلى يانو وكالانو. أخذَ كلٌّ منهم جرعةً كبيرةً، وأخذَت أتسولا الجرعة الأخيرة، ابتلعَتها ثم صبَّت ما تبقَّى على الأرض أمام إلههم، سكيبةً[1] من أجل ننيونيني.

في الخيمة الدَّاخنة جلسوا منتظرين أن يتكلَّم إلههم، وفي الظُّلمة بالخارج عوَت الرِّيح وهبَّت.

بقوَّةٍ أغلقَت كالانو عينيها وفتحَتهما، ثم نهضَت وذهبَت عند جمجمة الماموث، وتسربلَت بفروة الماموث، ووقفَت واضعةً رأسها داخل جمجمة الماموث.

قال ننيونيني: «في هذه الأرض شرٌّ، شرٌّ مستطير، فإذا لبثتم ها هنا في أرض أمَّهاتكم وأمَّهات أمَّهاتكم فجميعكم هالكون».

وأنَّ المستمعون الثَّلاثة.

- «أهُم النخَّاسون؟ أو الذِّئاب العظيمة؟». ألقى السُّؤال جوجواي ذو الشَّعر الطَّويل الأبيض والوجه المتغضِّن كلحاء شجر الشَّوك الرَّمادي.

قال ننيونيني صاحب الجلد الحجري: «لا النخَّاسون ولا الذِّئاب العظيمة».

سألَ جوجواي: «أهي المجاعة؟ أتُقبِل علينا مجاعة؟».

لاذَ ننيونيني بالصَّمت، وخرجَت كالانو من الجمجمة وانتظرَت مع سائرهم.

ارتدى جوجواي عباءة فروة الماموث، ووضعَ رأسه داخل الجمجمة، وبفم جوجواي قال ننيونيني: «ليست مجاعةً كما تعرفونها، ولو أن مجاعةً ستتلو الواقعة».

(1) السَّكيبة: ما يُسكَب من الخمور أو غيرها من المشروبات تكريمًا للآلهة أو نخبًا للموتى. (المُترجم).

قال يانو: «ماذا سيحدث إذًا؟ لستُ خائفًا. سوف أواجهه. إن عندنا حرابًا، وعندنا حجارةً نقذفها. فليُهاجمنا مئة محاربٍ مغوارٍ، فلسوف ننتصر. سوف نقودهم إلى المستنقعات ونفلق جماجمهم بصخورنا».

ردَّ ننيونيني بصوت جوجواي العجوز: «ليس شيئًا بشريًا. سيأتي من السماء، ولن تحميكم حِرابكم أو صخوركم».

قالت أتسولا: «وكيف نحمي أنفسنا؟ لقد رأيتُ في السماء لهبًا، وسمعتُ ضجيجًا أصخب عشر مرّاتٍ من هزيم الرعد، ورأيتُ غاباتٍ تُدكُّ وأنهارًا تغلي».

قال ننيونيني: «إيْ...»، لكنه لم يقل المزيد.

خرجَ جوجواي من الجمجمة بظَهرٍ محنيٍّ متصلِّب، فهو رجل هَرِم، ومفاصل أصابعه متورِّمة مليئة بالعُقد.

خيَّم الصَّمت. ألقَت أتسولا مزيدًا من الأوراق في النَّار، وأدمعَ الدُّخان أعيُنهم.

ثم تقدَّم يانو بخُطواتٍ واسعة إلى رأس الماموث، ووضعَ العباءة حول كتفيه العريضتيْن، ورأسه داخل الجمجمة.

بصوتٍ مدوٍّ قال ننيونيني: «عليكم أن ترتحِلوا. عليكم أن تُيمِّموا وجوهكم شطر الشَّمس. حيث تُشرِق الشَّمس ستجدون أرضًا جديدةً تكونون فيها آمنين.[٧٦] ستكون رحلةً طويلةً. مرَّتين سينتفخ القمر ويفرغ، يعيش ويموت، وستُلاقون في طريقكم نخَّاسين ووحوشًا، لكنني سوف أهديكم وأحفظكم إن سافرتم نحو مشرق الشَّمس».

بصقَت أتسولا على وحل الأرض، وقالت: «لا». كانت تَشعُر بالإله يُحدِّق إليها. «لا. إنك إله سيِّئ إذ تأمرنا بهذا. سنموت، سنموت جميعًا، ومَن يتبقَّى حينئذٍ ليحملك من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ عالٍ؟ لينصب خيمتك؟ ليُمرِّخ نابيك العظيميْن بالشَّحم؟».

لم يقل الإله شيئًا. تبادلَت أتسولا ويانو الموضع، ونظرَ وجه أتسولا من خلال عظام الماموث المصفرَّة.

بصوت أتسولا قال ننيونيني: «أتسولا يعوزها الإيمان. أتسولا سوف تموت قبل أن تَدخُل بقيَّتكم الأرض الجديدة، لكن بقيَّتكم سوف تعيش. ثقوا بي، إلى الشَّرق أرض لا بشر فيها، وسوف تكون هذه الأرض أرضكم وأرض أطفالكم وأطفال أطفالكم طوال سبعة أجيال وسبع سبعاتٍ من الأجيال. لولا كُفران

أتسولا لاحتفظتم بها أبد الدّهر. في الصّباح احزموا خيامكم وممتلكاتكم وامشوا صوب مشرق الشّمس».

وحتى جوجواي ويانو وكالانو رؤوسهم، ورفعوا عقائرهم بالثّناء على جبروت ننيونيني وحكمته.

اكتملَ القمر وأمحقَ واكتملَ وأمحقَ ثانيةً، وأهل القبيلة يمشون شرقًا، نحو مشرق الشّمس، يُجاهِدون في الرِّيح الجليديَّة التي خدَّرت جلدهم المكشوف. صدقَ ننيونيني في وعده لهم، فلم يفقدوا خلال الرِّحلة فردًا، باستثناء امرأةٍ ماتَت في أثناء الوضع، والنّسوة الواضعات ينتمين إلى القمر لا إلى ننيونيني.

وعبروا جسر اليابسة.

عند بزوغ الفجر تركَتهم كالانو لتستطلع الطَّريق، والآن السّماء مظلمة ولم ترجع كالانو، لكن في سماء اللّيل أضواءً بعثَت فيها الحياة؛ تنعقِد وتُومِض وتتلوّى، بين انسيابٍ ونبض، بيضاء وخضراء وبنفسجيّة وحمراء. سبقَ لأتسولا وقومها مرأى أضواء الشّمال، إلّا أنها لم تزَل تُخيفهم، كما أنهم لم يروا لهذا العرض اللّيلي من قبل مثيلًا.

عادَت إليهم كالانو إذ تكوّنت الأضواء في السّماء وتدفّقت، وقالت لأتسولا: «أحيانًا أشعرُ كأن بإمكاني أن أبسط ذراعيَّ ببساطةٍ وأسقط في السّماء».

قالت أتسولا الكاهنة: «لأنكِ كشّافة. حينما تموتين سوف تَسقُطين في السّماء وتغدين نجمةً تُرشِدنا كما تُرشِدينا في الحياة».

لكالانو شعر أسود سواد الغِدفان، تُطيله كما يُطيل الرِّجال شعورهم. «إلى الشّرق جروف من الجليد، جروف مرتفعة. يُمكننا أن نتسلّقها، لكن ذلك سيستغرق عدّة أيام».

قالت أتسولا: «سوف تقودينا بأمان. سوف أموتُ عند سفح الجُرف، وسوف تكون تلك التّضحية التي تأخذكم إلى الأراضي الجديدة».

إلى الغرب، في الأرض التي قدموا منها، حيث غربَت الشّمس قبل ساعات، ومضَ ضوء أصفر مغثٍ أسطع من البرق، أسطع من نور النّهار، انفجار من الضّياء الخالص أجبرَ مَن فوق جسر اليابسة على إغلاق أعيُنهم والبصق تطيُّرًا والصّياح، وبدأ الأطفال يُوَلوِلون.

قال جوجواي الهَرِم: «إنه الهلاك الذي أنذرَنا منه ننيونيني. لا ريب أنه إله حكيم قدير».

قالت كالانو: «إنه أفضل الآلهة أجمعين. في أرضنا الجديدة سوف نرفعه عاليًا ونصقل نابيْه وجمجمته بزيت السَّمك وشحم الحيوانات. وسوف نحكي لأطفالنا، ولأطفال أطفالنا، ولأطفال سابع جيلٍ من أطفالنا، عن ننيونيني أقوى الآلهة قاطبةً، ولن يُنسى أبدًا».

بروِيَّةٍ قالت أتسولا كأنما تستوعب سرًا عظيمًا: «الآلهة عظيمة. غير أن القلب أعظم، ذلك أنها من قلوبنا تأتي، وإلى قلوبنا ترجع...».

ولا أحد يدري كم كانت لتستمرَّ في تجديفها هذا، لولا أنها قُوطِعت على نحوٍ لا يدع مجالًا للجدل.

الدَّوي الذي تفجَّر غربهم كان هادرًا لدرجة أن الآذان نزفت، لدرجة أنهم ظلُّوا وقتًا عاجزين عن سماع شيء، معميِّين مُصَمَّين ولكن أحياء، عالمين أنهم أحسن حظًّا من القبائل التي ظلَّت في الغرب.

- «خير». قالتها أتسولا، وإن لم تستطِع سماع الكلمة في داخل رأسها.

ماتَت أتسولا عند سفح الجروف لمَّا كانت شمس الرَّبيع في أوجها. لم تحيَ لترى العالم الجديد، ودخلَت القبيلة تلك الأراضي الجديدة من غير امرأةٍ مقدَّسة.

تسلَّقوا الجروف، وتوجَّهوا جنوبًا وغربًا، إلى أن وجدوا واديًا فيه مياه عذبة، وأنهارًا تعجُّ بأسماكٍ فضِّيَّة، وأيائل لم ترَ إنسانًا قَطُّ، وديعةً حتى إنه كان ضروريًّا أن يَبصُقوا ويعتذروا لأرواحها قبل أن يَقتُلوها.

وحلَّت أزمنة الجليد ومضَت أزمنة الجليد، وتفرَّق النَّاس في الأرض وكوَّنوا قبائل جديدةً واختاروا طواطم جديدةً لأنفُسهم: غِدفان وثعالب وكسالى أرضٍ وقِططًا عظيمةً وجواميس، كلُّ دائةٍ منها تابو يُعيِّن هُويَّة القبيلة، وكلُّ دائةٍ منها إله.

كانت ماموثات الأراضي الجديدة أكبر وأبطأ وأشدَّ حماقةً من ماموثات السُّهول السيبيريَّة، أمَّا فطر البِنج برُقطه السَّبع فلم يكن له وجود في الأراضي الجديدة، ولم يَعُد ننيونيني يُكلِّم القبيلة.

وفي أيام أحفاد أحفاد دالاني، كانت فرقة من محاربي قبيلةٍ كبيرة مزدهرة عائدةً من حملة نخاسة في شمال موطنها الجنوبي، وعثَر المحاربون على وادي البشر الأوائل، فقتلوا غالبيَّة الرِّجال وسبوا النِّساء وكثيرًا من الأطفال.

آملًا الرَّأفة، أخذَهم أحد الأطفال إلى كهفٍ في التِّلال، وفيه وجدوا جمجمة ماموث، والأسمال المتبقِّية من عباءةٍ من فروة ماموث، وكوبًا خشبيًّا، ورأس أتسولا العرَّافة المحفوظ.

ولئن أيَّد بعض محاربي القبيلة الجديدة أخذ الأجسام المقدَّسة معهم، سرقة آلهة البشر الأوائل بُغية الاستحواذ على قوَّتها، وعزَ آخَرون بتركها حيث هي، قائلين إنها لن تجلب إلَّا الحظَّ العاثر ونقمة إلههم (فهُم قوم واحدةٍ من قبائل الغِدفان، والغِدفان آلهة غيور).

وهكذا ألقوا الأجسام المقدَّسة من فوق جانب التَّل في وهدٍ عميق، وأخذوا النَّاجين من البشر الأوائل معهم في رحلتهم الطَّويلة جنوبًا، وتعاظمَت قوَّة قبائل الغِدفان وقبائل الثَّعالب في البلاد، وسرعان ما طوى ننيونيني النِّسيان.



# الجزء الثالث

# لحظة العاصفة

# الفصل الرَّابع عشر

*النَّاس في الظَّلام، لا يعرفون ما العمل*
*كان معي قنديل صغير، أوه، لكنه انطفأ أيضًا*
*أمدُّ يدي إليكِ*
*وآملُ أن تمدّي يدكِ أيضًا*
*لا أريدُ إلَّا أن أكون في الظَّلام معكِ*

- جرج براون، **في الظَّلام معكِ**

بدَّلوا السيَّارة في الخامسة صباحًا في منيابوليس، بموقف المطار المخصَّص للرَّكن الطَّويل، بعد أن قادوها إلى الطَّابق العُلوي حيث ينفتح مبنى الموقف على السَّماء.

أخذَ شادو الملابس البرتقاليَّة والأصفاد والشِّكال ووضعَها في الكيس الورقي البنِّي الذي حوى متعلِّقاته فترةً وجيزةً، وطوى الكيس ورماه في صندوق قمامةٍ بالموقف. كانوا منتظرين منذ عشر دقائق عندما خرجَ شابٌّ برميلي الصَّدر من أحد أبواب المطار وتقدَّم إليهم وهو يأكل عُبوَّةً من بطاطس «برجر كينج» المقليَّة. تعرَّفه شادو على الفور، فقد جلسَ في المؤخِّرة حين غادَروا المنزل فوق الصَّخرة، ودندنَ بعُمقٍ ذبذبَ السيَّارة. الآن يُطلِق لحيةً شتويَّةً موخوطةً بالأبيض لم تكن من معالم وجهه حين التقَيا في المنزل فوق الصَّخرة، وتجعله يبدو أكبر سنًّا.

مسحَ الرَّجل يديه من الدُّهن على سويتره، ومدَّ يدًا ضخمةً لشادو قائلًا: «سمعتُ بموت أبي الكلّ. سيدفعون الثَّمن، وسيدفعونه غاليًا».

سألَه شادو: «الأربعاء كان أباك؟».

قال الرَّجل: «كان أبا الكلّ»، واحتبسَ صوته الرَّخيم في حنجرته إذ أردفَ: «أخبِروهم، أخبِروهم جميعًا، عند الحاجة إلينا سيقف قومي بجانبكم».

التقطَ تشرنوبوج قُشيرةً من التَّبغ من بين أسنانه وبصقَها على الوحل المتجلِّد، ثم قال: «وكم عددكم؟ عشرة؟ عشرون؟».

انتفشَت لحية ذي الصَّدر البرميلي، وقال: «أفلا يُساوي عشرة منا مئةً منهم؟ مَن يَصمُد أمام ولو واحدٍ من قومي في معركة؟ لكن أعدادنا أكبر من ذلك، على حواف المُدن. قلائل منا في الجبال، بعضهم في جبال كاتسكيل، وقلَّة في بلدات الكرنفالات المتنقِّلة بفلوريدا. إنهم يُحافِظون على حدَّة فؤوسهم، وسيحضرون إذا استدعيتهم».

قال المستر نانسي: «افعل هذا يا إلفس». على الأقل حسبَه شادو قال إلفس، وإن لم يكن واثقًا. كان نانسي قد استبدلَ بزيِّ معاون الشُّرطة سُترةً بنِّيَّة سميكة من الصُّوف، وبنطالًا من الكُردروي، وحذاءً بنِّي بلا كعب. «استدعِهم. هذا ما كان الوغد العجوز ليُريده».

قال الرَّجل الذي قد يكون اسمه إلفس: «لقد خانوه، فقتلوه. سخرتُ من الأربعاء، إلَّا أنني كنتُ مخطئًا. ما عادَ أحد منا آمنًا. لكن يُمكنكم الاعتماد علينا»، وبرفقٍ ربَّت على ظَهر شادو، فكادَ يُسقِطه على وجهه. كأن كُرة هدمٍ ربَّتت على ظَهره برفق.

كان تشرنوبوج يجوس ببصره في أنحاء الموقف، والآن قال: «اعذُرني على السُّؤال، ولكن أيُّها مركبتنا الجديدة؟».

أشارَ ذو الصَّدر البرميلي مجيبًا: «ها هي ذي».

أطلقَ تشرنوبوج نخير احتجاج، وقال: «هذه؟».

كانت حافلةً «ڤولكسواجن» صغيرةً طراز 1970، في نافذتها الخلفيَّة ملصق لقوس قزح.

- «إنها مركبة مناسبة. كما أنها آخر شيءٍ سيتوقَّعون أنكم تقودونه، آخِر شيءٍ سيبحثون عنه».

دارَ تشرنوبوج حول الحافلة، ثم بدأ يسعُل، سُعاله سُعال عجوزٍ مدخّن يُقعقِع بالرّئتيْن في الخامسة صباحًا. تنخّع وبصق وراحَ يُدلّك صدره من الألم، قبلَ أن يقول: «نعم، آخِر سيّارةٍ سيرتابون فيها. ماذا سيَحدُث إذًا عندما تُوقِفنا الشّرطة بحثًا عن الهيبيّين والمخدّرات؟ إه؟ لسنا هنا لنركب الحافلة المسحورة. المفترَض أن نبدو مثل سائر النّاس».

فتحَ الملتحي قفل باب الحافلة قائلًا: «بسيطة. سيُلقون عليكم نظرةً ويرون أنكم لستم هيبيّين ويصرفونكم بالسّلامة. إنه التّنكُّر المثالي، وهذا هو كلُّ ما استطعتُ العثور عليه دون سابق إخطار».

بدا تشرنوبوج مستعدًا لمزيدٍ من الجدل، غير أن المستر نانسي تدخّل بخفّةٍ قائلًا: «إلڤس، لقد أسديت إلينا الصّنيع المطلوب. نحن في غاية الامتنان. والآن، هذه السيّارة يجب أن ترجع إلى شيكاجو».

ردَّ الملتحي: «سنتركها في بلومينجتن وستتولّى الذّئاب أمرها. لا تشغل بالك إطلاقًا»، والتفتَ إلى شادو من جديدٍ وقال له: «مرّةً أخرى، لك تعاطُفي، واعلم أني أشاطرك ألمك. حظًّا سعيدًا. وإذا وقعَت السّهرة على كاهلك فلك إعجابي، ولك تعاطُفي»، واعتصرَ يد شادو تعاطُفًا وصداقةً بقبضته الشّبيهة بقفّاز البيسبول، وهو ما آلمَ شادو. «أخبِر جُثمانه حينما تراه، أخبِره بأن آلڤس بن ڤيندالف باقٍ على العهد».

تفوح في الحافلةِ الـ «ڤولكسواجن» روائح أعشاب البتشولي والبخور القديم وتبغ اللّف، وبداخلها سجّادة ورديّة باهتة ملصَقة بالأرضيّة والجُدران بالغراء.

سألَ شادو إذ عشّق التّروس وتحرّك بالحافلة نازلًا المنحدر: «مَن كان هذا؟».

- «كما قال، آلڤس بن ڤيندالف. إنه ملك الأقزام، أكبر وأقوى وأعظم الأقزام جميعًا».

عقّب شادو: «لكنه ليس قزمًا. كم طوله؟ خمسة أقدام وثمانية بوصات؟ تسع بوصات؟».

قال تشرنوبوج من خلفه: «وهو ما يجعله عملاقًا بين الأقزام، أطول قزمٍ في أمريكا».

سألَ شادو: «ما الذي قصدَه بالسّهرة؟».

لم يقل العجوزان شيئًا. اختلسَ شادو نظرةً إلى يمينه، فرأى المستر نانسي يَنظُر من النَّافذة.

- «إذًا؟ كان يتكلَّم عن سهرة. لقد سمعتماه».

تكلَّم تشرنوبوج من المقعد الخلفي: «ليس عليك أن تفعل ذلك».

- «أفعلُ ماذا؟».

- «السَّهرة. إنه كثير الكلام. الأقزام كلُّهم يتكلَّمون ويتكلَّمون ويتكلَّمون، ويُغنُّون، طوال الوقت يُغنُّون ويُغنُّون ويُغنُّون. ليس شيئًا يستحقّ التَّفكير. الأفضل أن تُزيحه عن عقلك».

⁂

سافَروا جنوبًا ملتزمين الحركة بعيدًا عن الطُّرق السَّريعة (إذ قال المستر نانسي: «يجب أن نفترض أنها في الأيدي المعادية، أو أنها قد تكون أيديَ معاديةً قائمةً بذاتها»). كانت الحركة جنوبًا كالتَّقدُّم عبر الزَّمن. زالَت الثُّلوج شيئًا فشيئًا، وانمحَت تمامًا في الصَّباح التَّالي لدى بلوغ الحافلة كنتكي، حيث انتهى الشِّتاء بالفعل وأقبلَ الرَّبيع. بدأ شادو يتساءَل إن كانت تُوجَد معادلة تُفسِّر الأمر؛ ربما كلَّما توغَّل خمسين ميلًا في الجنوب توغَّل يومًا في المستقبل.

كان ليَذكُر هذه الفكرة للرَّاكبيْن، لولا غياب المستر نانسي في النَّوم على المقعد الأمامي، واستغراق تشرنوبوج في غطيطٍ لا ينقطع في الخلفيَّة.

بدا الزَّمن في تلك اللَّحظة مفهومًا مرنًا، وهمًا يتخيَّله فيما يقود. وجدَ شادو نفسه منتبهًا إلى حدٍّ مؤلم لما يمرُّ به من طيورٍ وحيوانات، فرأى الغِربان على جانب الطَّريق أو في مسار الحافلة، تقتطع بمناقيرها من لحوم الحيوانات المدعوسة، ودارَت أسراب من الطَّير في السَّماوات بأنماطٍ يكاد يكون لها معنى، وحدَّقت إليهم القِطط من أفنية المنازل الأماميَّة ومن فوق أعمدة الأسوجة.

خنفرَ تشرنوبوج واستيقظَ، وقال وهو يعتدل جالسًا ببُطء: «حلمتُ حُلمًا غريبًا، حلمتُ أني بيليبوج حقًّا، أن العالم سيتخيَّل للأبد أننا اثنان، إله النُّور وإله الظَّلام، لكن الآن وقد هرمَ كلانا أجدُني كنتُ الوحيد طوال الوقت، أعطيهم

العطايا وآخذها منهم». قالها وكسر فلتر سيجارة «لكي سترايك» ووضعها بين شفتيه وأشعلها بقدّاحته.

أنزلَ شادو نافذته، وسأل: «ألا تخشى سرطان الرّئة؟».

ردَّ تشرنوبوج: «إنني أنا السّرطان. لستُ أخيفُ نفسي»، وقهقه، ثم تحوّلت القهقهة إلى صفير، والصّفير إلى سُعال.

تكلّم نانسي: «أمثالنا لا يُصابون بالسّرطان، ولا نُصاب بتصلُّب الشّرايين أو الشّلل الرّعاشي أو الزُّهري. إننا صعبو القتل نوعًا».

قال شادو: «لقد قتلوا الأربعاء».

توقّفوا لتعبئة الوقود، ثم ركنوا الحافلة في موقفٍ يُجاور مطعمًا ليتناولوا فطورًا مبكّرًا. لدى دخولهم بدأ الهاتف العمومي في المدخل يرنُّ، لكنهم تجاوَزوه من غير ردٍّ وانقطعَ الرّنين.

أملوا طلباتهم على امرأةٍ مسنّة ذات ابتسامةٍ قلقة، كانت جالسةً تقرأ طبعةً بغلافٍ ورقي من «ما كان يعنيه قلبي» لجني كرتُن. عادَ الهاتف يرنُّ، فزفرَت المرأة وعادَت أدراجها متّجهةً نحو الهاتف، ورفعَت السمّاعة قائلةً: «نعم»، ثم نظرَت وراءها إلى القاعة، وقالت: «نعم. يبدون كذلك. انتظِر على الخط»، وتقدّمت إلى المستر نانسي، وأخبرَته: «المكالمة لك».

- «حسن. اسمعي يا سيِّدتي، احرصي على أن تكون البطاطس مقرمشة جدًّا، في حُكم المحروقة»، ثم ذهبَ إلى الهاتف.

قال نانسي: «هذا هو».

قال: «وماذا يجعلكم تحسبونني بالغباء الكافي للثّقة بكم؟».

قال: «أستطيعُ أن أجده، أعرفُ مكانه».

قال: «نعم، نُريده، تعلمون أننا نُريده، وأعلمُ أنكم تُريدون الخلاص منه، فلا تتحايَلوا عليّ بخرائكم».

ثم وضعَ نانسي السمّاعة وعادَ إلى الطّاولة.

سألَه شادو: «مَن المتّصل؟».

- «لم يقل».

- «ماذا يُريد؟».

- «يعرضون علينا هدنةً فيما يُسلّمون الجُثمان».

علّق تشرنوبوج: «كاذبون»، ثم أضافَ بفخرٍ كئيب: «يُريدون استدراجنا، ثم سيَقتُلوننا. ما فعلوه بالأربعاء هو ما اعتدتُ فعله دومًا. عِدهم بأيِّ شيءٍ لكن افعل ما تشاء».

ردَّ نانسي: «سيجري التَّسليم في منطقةٍ محايدة، محايدة فعلًا».

قهقة تشرنوبوج، فخرجَ الصَّوت ككُرةٍ معدنيَّة تتخبَّط داخل جمجمةٍ جافَّة. «اعتدتُ قول ذلك أيضًا. كنتُ أقولُ لهم تعالوا إلى مكانٍ محايد، ثم ننهض في جنح اللَّيل ونَقتُلهم جميعًا. تلك كانت الأيام الحُلوة».

هزَّ المستر نانسي كتفيه، وقضمَ من بطاطسه المحمَّرة البنيَّة الغامقة، ثم ابتسمَ باتِّساعٍ معربًا عن استحسانه، وقال: «مممم. بطاطس لذيذة».

قال شادو: «لا يُمكننا الثِّقة بهؤلاء النَّاس».

قال المستر نانسي ناقرًا على زُجاجة الكاتشب من أسفل ليَسقُط على بطاطسه المحروقة: «اسمع، أنا أكبر منك وأذكى منك وأوسم منك. يُمكنني أن أحصل خلال ظهيرةٍ واحدة على نسوان أكثر مما تنال في سنة، ويُمكنني الرَّقص كالملائكة، والقتال كدُبٍّ محاصَر، والتَّخطيط أفضل من ثعلب، والغناء كالعندليب...».

- «وما ترمي إليه هو...؟».

أمعنَت عينا نانسي البنيَّتان النَّظر إلى عينَي شادو إذ قال: «وهُم محتاجون إلى الخَلاص من الجُثمان بقدر حاجتنا إلى أخذه».

قال تشرنوبوج: «لا يُوجَد مكان محايد».

- «بل يُوجَد. إنه المركز».

هزَّ تشرنوبوج رأسه بشدَّةٍ قائلًا: «لا، لن يُقابِلونا هناك، لا يُمكنهم أن يفعلوا بنا شيئًا هناك. إنه مكان سيِّئ لنا جميعًا».

- «لهذا السَّبب تحديدًا عرضوا إجراء التَّسليم في المركز».

لاحَ على تشرنوبوج التَّفكير في هذا بعض الوقت، ثم قال: «ربما».

قال شادو: «عندما نعود على الطَّريق ستقود أنت. إنني في حاجةٍ إلى النَّوم».

تحديد مركز أيّ شيءٍ بالضّبط مسألة إشكاليّة في أحسن الأحوال. ومع الكائنات الحيَّة -البشر على سبيل المثال، أو القارَّات- تمتُّ المشكلة إلى ما هو غير ملموس. فما مركز الإنسان؟ وما مركز الحُلم؟ وفي حالة الولايات المتّحدة القارّيّة، هل يجب أن يحسب المرء ألاسكا حينما يُحاول العثور على المركز؟ أو هاواي؟

في مطلع القرن العشرين صنعوا نموذجًا ضخمًا من الكرتون للولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، شملَ الولايات الثّمانيَ والأربعين المتجاورة، وليجدوا المركز وازَنوا النّموذج على رأس دبُوس، إلى أن وجدوا الموضع الأوحد الذي يتوازَن فيه.

أقرب ما استطاعَ أحد الاستدلال عليه، أن مركز أمريكا يقع تحديدًا على مبعدة عدَّة أميال من بلدة لبانون بمقاطعة سميث في كانساس، على أرض مزرعة خنازير چوني جريب. بحلول الثّلاثينيّات كان أهل لبانون على أهبة الاستعداد لإقامة نُصبٍ تذكاريٍ في منتصَف المزرعة، إلّا أن چوني جريب قال إنه لا يُريد أن يأتي ملايين السُّيَّاح ليتسكّعوا في أنحاء المكان ويُزعِجوا الخنازير. ارتأى السُّكّان المحلّيُّون أن له حقًّا، فأقاموا نُصب مركز الولايات المتَّحدة الجغرافي على بُعد ميلَيْن شمال البلدة. بنوا حديقةً، ونُصبًا تذكاريًّا من الحجر وضعوه في الحديقة، ووضعوا لوحةً من النُّحاس الأصفر على النُّصب، تُؤكّد لك أنك تنظُر إلى مركز الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة الجغرافي بالتّحديد، ورصفوا الطّريق من البلدة إلى الحديقة الصّغيرة بالأسفلت، ولثقتهم بإقبال فيضان من السّائحين المنتظرين المجيء إلى لبانون على أحرِّ من الجمر، بنوا موتل عند النُّصب التّذكاري، وجلبوا أيضًا كنيسةً متنقّلةً وخلعوا عجلاتها. ثم انتظروا مجيء السّائحين والمعيِّدين، جميع من يرغبون في إعلام العالم بأنهم زاروا مركز أمريكا، وتعجَّبوا، وصلَّوا.

ولم يجئ السَّائحون. لم يجئ أحد.

هي الآن حديقة صغيرة بائسة، فيها كنيسة متنقِّلة يزيد حجمها قليلًا على حجم كوخ صيدٍ في الجليد، لا تتَّسع لمأتمٍ صغير، وموتل تبدو نوافذه كالأعيُن الميتة.

- «ولهذا السَّبب مركز أمريكا بالتّحديد هو حديقة ضئيلة متهدِّمة وكنيسة خالية وكومة من الحجارة وموتل مهمَل». هكذا ختمَ المستر نانسي

القصّة وهُم يَدخُلون هيومنزڤيل في ميزوري (تعداد السُّكّان: 1084 نسمةً).

علّق تشرنوبوج: «مزرعة خنازير. قلت لتوّك إن مركز أمريكا الحقيقي مزرعة خنازير».

ردّ المستر نانسي: «المقصود ليس ما هو قائم. المقصود هو ما يحسبه النّاس قائمًا. كلُّ هذا خيالي على أيّة حال، ولهذا فهو مهمٌّ. النّاس لا يتشاجَرون إلّا على الأشياء الخياليّة».

سألَ شادو: «النّاس مثلي أم مثلكم؟».

امتنعَ نانسي عن الرّد، أمّا تشرنوبوج فأصدرَ صوتًا ربما كان قهقهةً وربما كان نخيرًا.

حاولَ شادو أن يستريح في مؤخّرة الحافلة. كان قد نامَ قليلًا، ولكن قليلًا فقط، وقد انتابَه شعور سيّئ في فم معدته، أسوأ مما انتابَه في السّجن، أسوأ مما انتابَه حين أتته لورا وأخبرَته عن عمليّة السّطو. سيّئ هذا الشّعور حقًّا. وخزَته مؤخّرة عُنقه، وشعرَ بالغثيان، وعدّة مرّات، موجةً بعد موجةٍ، شعرَ بالخوف.

توقّف المستر نانسي في هيومنزڤيل وركنَ الحافلة خارج سوپر ماركت، ثم دخلَ وتبعَه شادو إلى الدّاخل، في حين انتظرَ تشرنوبوج في الموقف، يفرد ساقيه ويُدخّن سيجارته.

في داخل السوپر ماركت كان شاب أشقر، أكبر قليلًا من غُلام، يُعيد تموين رفوف حبوب الإفطار.

ألقى المستر نانسي التّحيّة على الشّاب، الذي قال: «أهلًا. الخبر صحيح، أليس كذلك؟ قتلوه؟».

- «نعم، قتلوه».

خبطَ الشّاب عدّة عُلبٍ من «كاپتن كرنش» مُسقطًا إياها على الرّف، وقال: «يخالون أنهم يستطيعون سحقنا كالصّراصير». على إحدى وجنتيه وجبهته طفح من حبِّ الشّباب، وحول أحد ساعديْه سوار فضّي. «لسنا ننسحِق بتلك السّهولة، أليس كذلك؟».

أجابَ المستر نانسي: «بلى».

قال الشّاب وقد اتّقدت عيناه الزّرقاوان الشّاحبتان: «سأكونُ موجودًا يا سيّدي».

- «أعلمْ هذا يا جويديون».[1]

ابتاعَ المستر نانسي عدّة زُجاجاتٍ كبيرة من الـ «آر سي كولا»، وعبوةً من ستّ لفائف من ورق الحمّام، وعُلبةً من السيجارلّو الأسود شرّير الشّكل، وسُباطةً من الموز، وعُلبةً من لُبان «دبلمينت».

قال نانسي لشادو: «إنه صبي صالح. جاءَ في القرن السّابع. من ويلز».

انعطفَت الحافلة غربًا أوّلًا ثم شمالًا، وانحسرَ الرّبيع مرتدًّا إلى نهاية الشّتاء المسدودة. كانت كانساس وحشةً رماديّةً من السُّحب المشتّتة والنّوافذ الخالية والقلوب الضّائعة. صارَ شادو خبيرًا في صيد محطّات الراديو، يُدير المفاوضات بين المستر نانسي الذي يحبُّ البرامج الحواريّة والموسيقى الرّاقصة، وتشرنوبوج الذي يُفضّل الموسيقى الكلاسيّة، الأكآب منها أفضل، مضافةً إليها خميرة من المحطّات الدّينيّة الإنجيليّة الأكثر تطرّفًا. أمّا شادو نفسه فيحبُّ محطّات الأغاني القديمة.

قُرب نهاية الأصيل توقّفوا بناءً على طلب تشرنوبوج على أطراف تشريڤايل في كانساس (تعداد السُّكّان: 2464 نسمةً)، وقادَ تشرنوبوج الطّريق إلى مرجٍ خارج البلدة، حيث لا تزال بقايا الثّلج واضحةً في ظلال الأشجار، ويصطبغ العُشب بلون التُّراب.

- «انتظِرا هنا».

سارَ تشرنوبوج وحده إلى مركز المرج، وهناك وقفَ في رياح أواخر فبراير بعض الوقت. في البداية طأطأ رأسه، ثم بدأ يُومئ.

قال شادو: «يبدو كأنه يُكلّم أحدًا».

قال المستر نانسي: «أشباح. لقد عبدوه هنا قبل أكثر من مئة عام، قدّموا له قرابين دم، سكائب بالمطرقة. بعد وقتٍ أدركَ الأهالي لِمَ لم يرجع أغراب كثيرون ممّن مرُّوا من البلدة.[2] إنه المكان الذي أخفوا فيه بعض الجثث».

رجعَ تشرنوبوج من منتصَف الحقل، وقد اكتسبَ شاربه دُكنةً، وأمسَت في شعره الشّائب خطوط من الأسود. ابتسمَ كاشفًا عن سنّه الحديد، وقال: «أنا بخير الآن، آههه. بعض الأشياء يبقى، والدّم يبقى زمنًا أطول من غيره».

(1) جويديون: إله كلتي للفنون والحضارة والسّحر والحكمة، يُقال إن يوم كذبة إبريل يُحيي ذكرى استخدامه الحيلة والخداع لإنقاذ رفيقه ليو من لعنة. (المُترجم).

عادوا أدراجهم عبر المرج إلى حيث ركنوا الـ «ڤولكسواجن». أشعلَ تشرنوبوج سيجارةً من غير أن يَسعُل، وقال: «كانوا يفعلونها بالمطرقة. جريمنير اعتادَ الكلام عن المشنقة والحربة، أمَّا أنا فكان لي شيء واحد...»، ومدَّ إصبعًا ملوَّنةً بالنيكوتين، وبقوَّةٍ نقرَ على منتصَف جبهة شادو.

قال شادو بتهذيب: «لا تفعل هذا من فضلك».

قلَّده تشرنوبوج قائلًا: «لا تفعل هذا من فضلك»، ثم قال: «يومًا ما سآخذُ مطرقتي وأفعلُ بك ما هو أسوأ كثيرًا يا صديقي، أتذكُر؟».

- «نعم، ولكن إذا نقرت على رأسي ثانيةً فسأكسرُ يدك».

أطلقَ تشرنوبوج نخيرًا، ثم قال: «المفروض أن يَشعُروا بالامتنان، أعني النَّاس هنا. يا للقوَّة التي حُشِدَت. حتى بعد ثلاثين عامًا من إجبارهم قومي على الاختباء، أعطتنا هذه الأرض، هذه الأرض عينها، أعظم نجمة سينما في التَّاريخ. كانت الأعظم على الإطلاق».

سأله شادو: «چودي جارلاند؟».

هزَّ تشرنوبوج رأسه نفيًا باقتضاب، وأجابَ المستر نانسي: «يتكلَّم عن لويز بروكس».

قرَّر شادو ألَّا يسأل مَن هي لويز بروكس،[cviii] وبدلًا من ذلك قال: «اسمعا، الأربعاء عندما ذهبَ ليتكلَّم معهم فعلَ هذا في ظلِّ هُدنة».

- «نعم».

- «ونحن سنأخذ منهم جثَّة الأربعاء من باب الهُدنة».

- «نعم».

- «ونعلم أنهم يُريدون موتي أو إبعادي عن الطَّريق».

قال نانسي: «يُريدون موتنا جميعًا».

- «ما لا أفهمه هو سبب تصوُّرنا أنهم سيلعبون بأمانةٍ هذه المرَّة، في حين أنهم لم يفعلوا ذلك مع الأربعاء».

ردَّ تشرنوبوج مبالغًا في لفظ كلِّ كلمةٍ كما كان ليفعل مع طفلٍ أجنبي أحمق أصم: «لهذا السَّبب سنُقابِلهم في المركز. هو...»، وقطَّب وجهه قائلًا: «ما الكلمة؟ عكس مقدَّس؟».

بلا تفكيرٍ أجابَ شادو: «مدنَّس».

- «لا. أعني مكانًا أقل قداسةً من أيّ مكانٍ آخر، سالب القداسة. إنها أماكن لا يُمكنهم بناء معابد فيها، أماكن لا يأتي إليها النّاس، ويرحلون عنها في أسرع وقتٍ ممكن، أماكن لا تمشي فيها الآلهة إلّا مرغمةً».

- «لا أدري. لا أظنُّ أن لكلمةٍ بذلك المعنى وجودًا».

قال تشرنوبوج: «أمريكا كلُّها هكذا بعض الشّيء. لهذا لسنا محلَّ ترحابٍ هنا. لكن المركز، المركز هو الأسوأ. هو مثل حقل ألغام. كلُّنا يخطو هناك بحذرٍ أشد من أن يجرؤ على خرق الهُدنة».

قال المستر نانسي: «أخبرتك بكلّ هذا بالفعل».

ردَّ شادو: «أيًّا كان».

كانوا قد بلغوا الحافلة. ربَّت تشرنوبوج على عضد شادو، وقال بطمأنةٍ جهيمة: «لا تقلق أنت. لا أحد آخر سيَقتلك. لا أحد إلّاي».

وجدَ شادو مركزَ أمريكا في مساء اليوم نفسه قبل الظّلام الدّامس، فوق رابيةٍ خفيفة الانحدار شمال غرب لبانون. دارَ بالحافلة حولَ الحديقة الصّغيرة على جانب الرّابية، مارًّا بالكنيسة المتنقِّلة الضّئيلة والنُّصب التّذكاري الحجري، ولمّا رأى الموتل ذا الطّابق الواحد المبنيّ على طراز الخمسينيّات عند حافة الحديقة، غاصَ قلبه بين قدميه. أمام الموتل سيّارة سوداء ضخمة مركونة، «همڤي» تبدو مثل چيپ معكوسة في مرآةٍ بالملاهي، مكتنزةً قبيحةً بلا معالم كسيّارةٍ مصفَّحة. أمّا مبنى الموتل نفسه فأضواؤه غير مشتعلة.

ركنوا الحافلة بجوار الموتل، وبينما يفعلون هذا خرجَ رجل بزيّ وقبّعة سائق خصوصي من المبنى، لتَسقُط عليه أضواء الحافلة الأماميّة. بأدبٍ مسَّ الرّجل قبّعته تحيّةً لهم، ثم ركبَ الـ «همڤي» وابتعدَ بها.

قال المستر نانسي: «السيّارة الكبيرة تعني قضيبًا صغيرًا».

قال شادو: «أتظنُّ أن لديهم أسرّةً هنا؟ لقد مرَّت أيام منذ نمتُ على سرير. هذا المكان يبدو كأنه ينتظر الهدم».

أجابَ المستر نانسي: «إنه مملوك لمجموعة صيّادين من تكساس. يأتون مرّةً في السّنة. فلتحلَّ بي اللّعنة إن كنتُ أعلمُ ماذا يصطادون. لكن ذلك يحول دون مصادرة المكان وتدميره».

نزلوا من الحافلة، وفي انتظارهم أمام الموتل وقفَت امرأة لم يتعرَّفها شادو، زينة وجهها مثاليَّة وتصفيفة شعرها مثاليَّة. ذكَّرته بكلِّ مذيعة نشرة أخبار شاهدَها في التليفزيون الصَّباحي جالسةً في ستوديو لا يُحاكي غُرفة معيشةٍ حقًّا، تبتسم لجمهور الصَّباح الكريم.

قالت: «جميل أن أراكم. مؤكَّد أنك *أنت* تشرنوبوج. لقد سمعتُ الكثير عنك. *وأنت* أنانسي السَّاعي للشَّيطنة دومًا، إه؟ أيها العجوز *الظَّريف*. وأنت، مؤكَّد أنك شادو. دوَّختنا بحثًا عنك فعلًا، أليس كذلك؟»، وقبضَت يدٌ على يده وضغطَت عليها بمتانة، ونظرَت عينان في عينيه مباشرةً. «أنا ميديا. تسرُّني مقابلتك. أتمنَّى أن نُتِمَّ شأننا هذا المساء بأكبر قدرٍ ممكن من *اللُّطف*».

انفتحَ الباب الرَّئيسي، وقال الفتى البدين الذي رآه شادو آخِر مرَّةٍ في ليموزين: «بشكلٍ ما يا توتو، لا أعتقدُ أننا ما زلنا في كانساس».[1]

ردَّ المستر نانسي: «نحن في كانساس. أظنُّنا قطعنا أكثرها اليوم حتمًا. سُحقًا، هذا البلد مسطَّح جدًّا».

قال الفتى البدين: «هذا المكان بلا ضوء أو كهرباء أو ماء ساخن، ولا تُؤاخِذوني، لكنكم في حاجةٍ حقيقيَّة إلى ماءٍ ساخن. رائحتكم كأنكم قضيتم أسبوعًا على متن هذه الحافلة».

بنعومةٍ قالت المرأة: «لا أرى *أيَّ* داعٍ للتَّطرُّق إلى ذلك. كلُّنا هنا أصدقاء. تفضَّلوا بالدُّخول. سنُريكم حُجراتكم. أخذنا نحن الحُجرات الأربع الأولى. صديقكم الرَّاحل في الخامسة، وجميع الحُجرات بعد رقم 5 شاغرة، فاختاروا منها ما شئتم. يُؤسِفني أنه *ليس* الـ «فور سيزنز»، ولكن أيُّ الفنادق كذلك؟»، ثم فتحَت لهم باب لوبي الموتل، الذي انبعثَت منه روائح العفن الفطري والرُّطوبة والغُبار والتَّحلُّل.

في اللوبي رجل جالس في الظُّلمة شبه الكاملة، سألَهم: «أأنتم جائعون؟».

أجابَ المستر نانسي: «يُمكنني أن آكل دومًا».

قال الرَّجل: «السَّائق ذهبَ ليشتري ساندوتشات هامبرجر. سيعود قريبًا»، ثم رفعَ وجهه. كانت الظُّلمة أشدَّ من أن تُرى فيها وجوه، لكنه قال: «أيها الرَّجل الكبير، أنت شادو، هه؟ السَّافل الذي قتلَ وودي وستون؟».

---

(1) مقولة شهيرة من «ساحر أوز». (المُترجم).

قال شادو: «لا. شخص آخر قتلهما. وأنا أعرفُ من تكون». وصحيحٌ أنه يعرف، فقد كان في داخل رأس الرَّجل. «أنت تاون. هل نمت مع أرملة وود بعدُ؟».

سقطَ المستر تاون من فوق كرسيِّه. لو أنه فيلم لبدا المشهد مضحكًا، أمَّا في عالم الواقع فكان ببساطةٍ أخرقَ. أسرعَ تاون ينهض، وتقدَّم إلى شادو، الذي نظرَ إليه من أعلى قائلًا: «لا تبدأ شيئًا لست مهيَّئًا لإنهائه».

أراحَ المستر نانسي يده على عضد شادو، وقال: «الهُدنة. أتذكُر؟ إننا في المركز».

أشاحَ المستر تاون بوجهه ومالَ فوق منضدة الاستقبال وأخذ ثلاثة مفاتيح. قال: «حُجراتكم في آخِر الطُّرقة. هاكَ»، وناولَ المستر نانسي المفاتيح وابتعدَ ليغيب في ظلال الرُّواق. سمعوا صوت أحد أبواب الموتيل يُفتَح، ثم سمعوه يُصفَق.

ناولَ المستر نانسي شادو مفتاحًا وتشرنوبوج الثَّاني، وسأله شادو: «أيُوجَد كشَّاف على متن الحافلة؟».

- «لا. لكنه مجرَّد ظلام. يجب ألَّا تخشى الظَّلام».

- «لستُ أخشاه. إنني أخشى مَن هُم في الظَّلام».

قال تشرنوبوج: «الظَّلام جيِّد». بدا أنه لا يجد عُسرًا في رؤية وجهته إذ قادَهما عبر الرُّواق المظلم، واضعًا المفاتيح في الأقفال من غير أن يتلمَّس الطُّريق. أخبرَهما: «سأكونُ في الحُجرة 10»، ثم قال: «ميديا. أظنُّني سمعتُ بها.[cix] أليست هي مَن قتلَت أطفالها؟».

ردَّ المستر نانسي: «امرأة مختلفة، القصَّة نفسها».

نزلَ المستر نانسي في الحُجرة 8، وشادو قُبالتهما في الحُجرة 9، حيث الرَّائحة رائحة رطوبةٍ وغُبارٍ وقفر. تضمُّ الحُجرة هيكل سريرٍ فوقه حشيَّة، ولكن لا ملاءات، ومن الغسق خارج النَّافذة يَدخُل ضوء خافت. جلسَ شادو فوق الحشيَّة وخلعَ حذاءه وتمدَّد فاردًا طوله كلَّه. لقد قضى وقتًا طويلًا جدًّا في القيادة على مرِّ الأيام الماضية.

وربما نامَ.



كان يمشي.

أخذَت ريح باردة تشدُّ ثيابه، ولم تزِد رقائق الثَّلج الضَّئيلة كثيرًا على غُبارٍ بلَّوري تُثيره الرِّيح وتذروه.

في المكان أشجار مجرَّدة من أوراقها في الشِّتاء، وتِلال عالية على جانبيه، والوقت أواخر أصيلٍ شتوي، إذ اكتسبَت السَّماء والثُّلوج درجة الأرجواني العميقة نفسها. في مكانٍ ما أمامه -لأن الجزم بالمسافات في هذا الضَّوء مستحيل- يتذبذَب لهب نارٍ عظيمة بالأصفر والبرتقالي.

أمامه يتقدَّم في الثَّلج ذئب أشهب.

توقَّف شادو، فتوقَّف الذِّئب أيضًا، والتفتَ، وانتظرَ، تلتمع إحدى عينيه بأخضر مصفر. هزَّ شادو كتفيه وعادَ يتقدَّم إلى اللَّهب، وسبقَه الذِّئب ماشيًا على مهل.

تشتعل النَّار في منتصَف بُستان شجر، ولا بُدَّ أن عدد الأشجار المزروعة في صفَّيْن لا يقلُّ عن مئة، ومنها تتدلَّى أجسام. في نهاية الصَّفَّيْن بناء يُشبِه بعض الشَّيء قاربًا مقلوبًا، منحوتًا من الخشب، وزاخرًا بالمخلوقات والوجوه الخشبيَّة -تنانين وجَرافِن وترولات وخنازير برِّيَّة- التي تتراقَص في ضوء النَّار المتذبذِب.

كانت النَّار متأجِّجةً مستعرةً لدرجة أن شادو استطاعَ الدُّنو منها بالكاد، أمَّا الذِّئب فلم يبدُ عليه أيُّ انزعاج، ودارَ حول الحريق المطقطِق.

انتظرَ شادو عودته، ولكن بدلًا من الذِّئب دارَ عائدًا رجل يتَّكئ على عُكَّازٍ طويل.

وبصوتٍ غليظ مألوف قال الرَّجل: «أنت في أوپسالا[ex] في السويد، قبل ألف عامٍ تقريبًا».

- «والأربعاء؟».

واصلَ الرَّجل الذي قد يكون الأربعاء الكلام، كأن شادو ليس موجودًا: «في البدء كلَّ عام، ولاحقًا، حين ابتدأ العفن وتهاوَنوا، كلَّ تسعة أعوام، اعتادوا تقديم القرابين هنا، قرابين تُساعيَّة. كلَّ يومٍ لتسعة أيامٍ كانوا يَشنُقون تسعة حيوانات من شجر البُستان، وكان أحد تلك الحيوانات إنسانًا دومًا».

ابتعدَ الرَّجل بخُطى واسعة عن ضوء النَّار متوجِّهًا نحو الأشجار، فتبعَه شادو. مع اقترابه من الأشجار تبدَّت الأجسام المُدلَّاة منها: أرجُل وأعيُن

وألسنة ورؤوس. هزّ شادو رأسه. ففي مرأى ثور معلّق من عنقه من شجرةٍ شيء ظلامي محزن، وفي الآن نفسه المشهد سيريالي كفايةً حتى إنه يُداني الطُّرافة. مرّ شادو بوعلٍ مشنوق، وكلب صيد ذئاب، وذئبٍ بنّي، وجواد كستنائي الفروة أبيض الغُرَّة، يزيد حجمه قليلًا على حصانٍ قزم. لا يزال الكلب حيًّا: كلّ بضع ثوانٍ يرفس متشنِّجًا، ويُصدر أنينًا مشدودًا وهو متدلٍّ من الحبل.

رفعَ الرَّجل الذي يتبعه شادو عُكّازه -الذي أدرك شادو الآن إذ رآه يتحرّك أنه حربة- وشقّ بطن الكلب بضربةٍ سُفليّة واحدة كالسكّين، لتسقط المصارين المتصاعد منها البُخار على الثّلج. وبلهجةٍ رسميّة قال الرَّجل: «أهدي هذه الميتة إلى أودِن».

ثم قال معاودًا الالتفات إلى شادو: «إنها مجرّد لفتةٍ رمزيّة. لكن اللّفتات تعني كلّ شيء. موت كلبٍ واحد يرمز إلى موت الكلاب جميعًا. تسعة بشرٍ كانوا يُعطونني، لكنهم مثّلوا البشر كلّهم، الدّماء كلّها، القوّة كلّها. إلّا أن ذلك لم يكفِ. ذات يومٍ كفّت الدّماء عن الجريان. الإيمان دون دماء لا يُبلّغنا غايتنا. لا بُدّ من تدفُّق الدِّماء».

قال شادو: «لقد رأيتك تموت».

ردّ الرَّجل الغامض، ولمّا ردّ أيقنَ شادو بكونه الأربعاء، فما من أحدٍ غيره يتكلّم بهذه البحّة أو يمتاز بهذا الابتهاج المتهكّم العميق بالكلام. «في صنعة الآلهة ليس الموت ما يهمُّ، بل فُرصة البعث. وعندما تتدفّق الدّماء...»، وأشارَ إلى المشنوق من الأشجار من حيواناتٍ وبشر.

لم يستطِع شادو أن يُقرِّر إن كان البشر الموتى الذين مرّا بهم أكثر أم أقل شناعةً من الحيوانات الميتة، فعلى الأقل كان البشر على درايةٍ بالمصير الذّاهبين إليه. من البشر تفوح رائحة خمورٍ قويّة تُوحي بالسّماح لهم بإفقاد أنفُسهم الحس في طريقهم إلى المشانق، في حين طُوِّقَت رقاب الحيوانات بالأناشيط ببساطةٍ وشُدَّت إلى أعلى حيّةً مذعورةً. بدَت وجوه البشر في ريعان الشَّباب، لا أحد منهم يتجاوَز العشرين.

سألَ شادو: «مَن أنا؟».

قال الرَّجل: «أنت إلهاء. كنتَ فُرصةً، أضفيتَ على القضيّة كلّها سمتًا من المصداقيّة كنتُ لأجد مشقّةً في تحقيقه وحدي، ولو أن كلينا مخلصٌ للقضيّة لدرجة الموت في سبيلها، إه؟».

- «مَن أنت؟».

قال الرَّجل: «أصعب جزءٍ هو مجرَّد البقاء». كان الحريق (الذي أدرك شادو بارتياعٍ غريب أنه حريق عظام؛ من اللَّهب تَبرُز أقفاص صدريَّة وتُحدِّق جماجم ناريَّة الأعيُن، تُفرقِع منها ألوان عناصر زهيدة، خضراء درجاتها وصفراء وزرقاء) تضطرم وتُطقطِق وتلتهب. «ثلاثة أيامٍ فوق الشَّجرة، ثلاثة أيامٍ في العالم السُّفلي، ثلاثة أيامٍ لأجد طريق العودة».

تأجَّج اللَّهب بوهجٍ أعجزَ شادو عن النَّظر إليه مباشرةً، فخفضَ ناظرَيْه إلى الظَّلام تحت الأشجار.

ولا نار هنالك ولا ثلج، لا أشجار ولا جثث مشنوقة ولا حربة دامية.

طَرقةٌ على الباب، والآن يترقرَق نور القمر من النَّافذة. اعتدلَ شادو جالسًا بجفول، وقال صوت ميديا: «العَشاء جاهز».

عادَ شادو ينتعل حذاءه، ثم ذهبَ إلى الباب وخرجَ إلى الطُّرقة. كان أحدهم قد وجدَ بعض الشُّموع، والآن يُنير ضوءٌ أصفر خافت بهو الاستقبال. دخلَ سائق الـ «همڤي» من الباب المتأرجح حاملًا صينيَّةً من الكرتون وكيسًا ورقيًّا، وقد ارتدى معطفًا أسود طويلًا واعتمرَ قبَّعة سائقٍ خاص بارزة القمَّة.

قال الرَّجل بصوتٍ مبحوح: «آسفٌ للتَّأخير. اشتريتُ الطَّعام نفسه للجميع: ساندوتشي برجر وبطاطس كبيرة و«كولا» كبيرة وفطيرة تُفَّاح. سآكلُ وجبتي في السيَّارة»، ووضعَ الطَّعام وخرجَ. أفعمَت رائحة الطَّعام السَّريع اللوبي، وأخذَ شادو الكيس الورقي وناولَهم الطَّعام والمناديل الورق وعبوَّات الكاتشب.

وأكلوا في صمتٍ فيما تذبذبَ لهب الشُّموع وهسهسَ الشَّمع المحترق.

لاحظَ شادو أن تاون يَنظُر إليه شزرًا، فحرَّك كرسيَّه قليلًا بحيث يكون ظَهره إلى الحائط.

أكلَت ميديا برجرها رافعةً منديلًا إلى شفتيها لتمسح الفُتات، في حين قال الفتى البدين: «أوه، رائع، هذا البرجر شبه بارد». لا يزال يضع نظَّارة الشَّمس، وهو ما عدَّه شادو عبثًا وحماقةً باعتبار الظَّلام السَّائد في المكان.

قال تاون: «معذرةً. الرّجل اضطرّ إلى قطع مسافة طويلة ليجده. أقرب «مكدونالدز» في نبراسكا».

فرغوا من ساندوتشاتهم فاترة الحرارة وبطاطسهم الباردة. قضم الفتى البدين من فطيرته المخبوزة لفردٍ واحد، لتضخّ حشوها على ذقنه، ويُفاجأ بأن الحشو ما زالَ ساخنًا. قال: «آوا»، ومسحَ ذقنه بيده منظفًا أصابعه لعقًا. «هذا الشّيء يلسع! هذه الفطائر دعوى جماعيّة لعينة تنتظر الرّفع!».

أدركَ شادو أنه يُريد أن يضرب الفتى. يُريد أن يضربه منذ ضربه هو وبلطجيّته في الليمو بعد جنازة لورا، وإن علمَ أنه من غير الحكمة أن يُفكّر في ذلك هنا والآن. سأل: «ألا يُمكننا أن نأخذ جثّة الأربعاء الآن ونُغادر؟».

– «منتصَف اللّيل». قالها المستر نانسي والفتى البدين في آنٍ واحد.

قال تشرنوبوج: «لا بُدَّ من إجراء هذه الأشياء وفقًا للقواعد. لكلّ الأشياء قواعد».

– «نعم، لكن أحدًا لا يُطلِعني عليها. لا تنفكّون جميعًا تتكلّمون عن القواعد عليها اللّعنة، وأنا لا أدري حتى أيُّ لُعبةٍ تلعبون».

قالت ميديا ببشاشة: «الأمر مثل مخالفة موعد الإصدار، كما تعلم، عندما يُصرَّح للبضائع بالبيع».

قال تاون: «في نظري، المسألة كلُّها سفاسف لا رأس لها ولا ذيل، ولكن إن كانت قواعدهم تُرضيهم فوكالتي راضية والكلُّ راضٍ»، ورشفَ من الـ «كولا» بصوتٍ مسموع، ثم تابعَ: «أرجو أن يحلَّ منتصَف اللّيل بسرعة. تأخذون الجثّة وترحلون، وكلُّنا في تباتٍ ونبات ونُلوِّح لكم مودِّعين، وبعدها يُمكننا استئناف صيدكم كالجرذان، لأنكم جرذان».

خاطبَ الفتى البدين شادو قائلًا: «أنت. تذكّرتُ. قلتُ لك أن تُبلغ رئيسك بأنه صارَ تاريخًا. هل أبلغته؟».

– «أبلغته. وهل تعرف ماذا قال لي؟ قال أن أخبر الحقير الصّغير إذا قابلته ثانيةً أن يتذكّر أن مستقبل اليوم هو أمس الغد». لم يقل الأربعاء شيئًا كهذا حقًّا، إلّا أن شادو ألقى العبارة كما كان الأربعاء ليُلقيها. يبدو أن هؤلاء القوم يحبُّون الكلام المبتذَل. عكسَت نظّارة الشّمس السّوداء لهب الشّموع المتذبذِب، ليبدو كعينين تَرمُقانه.

قال الفتى البدين: «هذا المكان مزبلة لعينة. لا كهرباء، وخارج نطاق اللا سلكي. عندما تضطرُّ إلى استخدام الأسلاك فقد عدت إلى العصر الحجري بالفعل»، وامتصَّ ما تبقَّى من الـ «كولا» بالشفَّاطة، وألقى الكوب على المائدة وقطعَ الرُّواق مبتعدًا.

مدَّ شادو يده ووضعَ قمامة الفتى البدين في الكيس الورقي، ثم أعلنَ: «سأذهبُ لأرى مركز أمريكا»، ونهضَ وخرجَ في اللَّيل. تبعَه المستر نانسي، ومعًا مشيا الهُوينى عبر الحديقة الصَّغيرة، لا يقولان شيئًا حتى بلغا النُّصب التَّذكاري الحجري، والرِّيح تهبُّ عليهما متقطِّعةً، أوَّلًا من جهةٍ واحدة ثم من أخرى. «وماذا الآن؟».

كان القمر النِّصفي شاحبًا في ظُلمة السَّماء.

أجابَ نانسي: «الآن يَجدُر بك أن ترجع إلى حُجرتك. أوصِد بابك وحاوِل أن تنال قسطًا آخَر من النَّوم. في منتصَف اللَّيل سيُسلِّمون إلينا الجثَّة، ثم نخرج من هنا سريعًا. المركز ليس مكانًا مستقرًّا لأيِّ أحد».

- «إن كان هذا رأيك».

اجتذبَ المستر نانسي الدُّخان من السيجارلُو، وقال: «ما كان ينبغي أن يَحدُث هذا. ما كان ينبغي أن يَحدُث شيء من هذا. النَّاس من نوعيَّتنا...»، ولوَّح بالسيجارلُو كأنما يستخدمه في اصطياد كلمةٍ، قبل أن يطعن به الهواء أمامه، ويُواصِل: «... خصوصيُّون. لسنا اجتماعيِّين. ولا حتى أنا، ولا حتى باخوس،[1] ليس لأوقاتٍ طويلة. إننا نتحرَّك على انفرادٍ أو نبقى في مجموعاتنا الصَّغيرة. لا نتعامَل براحةٍ مع الآخَرين. نُحِبُّ أن نُعشَق ونُحترَم ونُعبَد... وأنا، أنا أحبُّ أن يحكوا عني الحكايا، حكايا تستعرض شطارتي. إنه عيب، أعرفُ، ولكن هكذا أنا. نحبُّ أن نكون كبارًا، والآن في هذه الأيام العجاف نحن صغار. الآلهة الجديدة تنهض وتَسقُط وتنهض من جديد، لكن هذا البلد ليس بلدًا يتسامَح مع الآلهة طويلًا. براهما يخلق وفيشنو يحفظ وشيفا[2] يُدمِّر، وبهذا تخلو السَّاحة لبراهما ليخلق مرَّةً أخرى».

سألَه شادو: «ماذا تقول إذًا؟ القتال انتهى؟ المعركة تمَّت؟».

---

(1) باخوس: الاسم الروماني لديونيسوس، إله الخمر في الأساطير الإغريقيَّة. (المُترجم).

(2) حسب عقيدة التريمورتي الهندوسيَّة، تتجسَّد الوظائف الكونية الثَّلاث، من خلق وحفظ وتدمير، في ثالوث الآلهة براهما وفيشنو وشيفا. (المُترجم).

أطلقَ المستر نانسي نخيرًا، وقال: «هل فقدت عقلك؟ لقد قتلوا الأربعاء، قتلوه وتبجَّحوا بقتله. لقد نشروا الخبر، عرضوه على كلِّ قناةٍ لكلِّ من لهم أعيُن ترى. لا يا شادو، المعركة بدأت لتوِّها».

- «اعتدتَ إلقاء النُّكات، لكنك لم تَعُد».

- «صعبٌ العثور على النُّكات هذه الأيام. الأربعاء مات. هل ستدخُل؟».

- «بعد قليل».

ابتعدَ نانسي عائدًا إلى الموتل. مدَّ شادو يده ولامسَ حجارة النُّصب، وجرَّ أصابعه الكبيرة على اللَّوحة النُّحاس الباردة، ثم دارَ واتَّجه إلى الكنيسة البيضاء الضَّئيلة، ودخلَ في ظُلمتها من الباب المفتوح. جلسَ على أقرب دكَّة وأغمضَ عينيه وحنى رأسه مفكِّرًا في لورا، وفي الأربعاء، وفي كونه حيًّا.

سمعَ تكَّةً من خلفه، واحتكاك حذاءٍ بالتُّربة، فاعتدلَ في جلسته والتفتَ، ليرى شخصًا واقفًا خارج الباب المفتوح مباشرةً، شكلًا مظلمًا في ضوء النُّجوم، ونور القمر يلتمع منعكسًا على شيءٍ معدني.

سألَه شادو: «هل ستضربني بالنَّار؟».

قال المستر تاون: «بحقِّ المسيح، ليتني أستطيعُ. إنه للدِّفاع عن النَّفس فقط. هل تُصلِّي؟ هل أقنعوك بأنهم آلهة؟ ليسوا آلهةً».

ردَّ شادو: «لم أكن أصلِّي. كنتُ أفكِّرُ فحسب».

قال تاون: «حسبما أرى الأمر، فهُم طفرة، تجارب تطوُّريَّة. القليل من القُدرة على التَّنويم المغنطيسي، القليل من الخُزعبلات، وبإمكانهم أن يجلعوا النَّاس يُصدِّقون أيَّ شيء. لا شيء استثنائيًّا في المسألة. هذا كلُّ ما هنالك. إنهم يموتون مثل البشر في النِّهاية».

قال شادو: «لطالما ماتوا مثل البشر»، ونهضَ فتراجعَ تاون خُطوةً.

خرجَ شادو من الكنيسة الصَّغيرة، وحافظَ المستر تاون على المسافة بينهما. سألَه شادو: «قُل لي، هل تعرف مَن كانت لويز بروكس؟».

- «صديقة لك؟».

- «لا، كانت نجمة سينما من جنوب هذا المكان».

صمتَ تاون لحظةً، ثم قال مقترحًا على سبيل المساعدة: «ربما غيَّرت اسمها وأصبحَت ليز تيلور أو شارون ستون أو غيرهما».

- «ربما».

بدأ شادو يمشي عائدًا إلى الموتل، وجاراه تاون في مشيته قائلًا: «حريٌّ بك أن تكون في السِّجن، حريٌّ بك أن تكون في انتظار تنفيذ حُكم إعدامك».

- «لم أقتل زميليك، لكنني سأخبرك بشيءٍ أخبرَني به رجل ذات مرَّةٍ في السِّجن، شيءٍ لم أنسَه قَطُّ».

- «ألا وهو؟».

- «في الإنجيل كلِّه رجل واحد وعدَه المسيح بنفسه بمكانٍ معه في الجنَّة، ليس بطرس ولا بولس ولا أيًّا من هؤلاء. ذلك الرَّجل كان لصًّا مدانًا يُنفَّذ الحُكم بإعدامه، فلا تستخفَّ بالمحكوم عليهم بالإعدام، فعساهم يعلمون شيئًا لا تعلمه».

لدى مرورهما قال السَّائق الواقف عند الـ«همفي»: «ليلةً طيِّبةً أيها السيِّدان».

ردَّ المستر تاون: «ولك»، ثم قال لشادو: «شخصيًّا، لا أبالي قدر قطعةٍ من الخراء بأيٍّ من هذا. ما أفعله هو ما يقوله المستر وورلد. الأمر أسهل هكذا».

قطعَ شادو الرُّواق إلى الحُجرة 9. فتحَ الباب ودخلَ، ثم قال: «آسف. حسبتُ هذه حُجرتي».

قالت ميديا: «هي كذلك. كنتُ في انتظارك». كان شعرها مرئيًّا لشادو في نور القمر، ووجهها الشَّاحب، وقد جلسَت فوق سريره في وضعٍ متحفِّظ.

- «سأجدُ حُجرةً أخرى».

- «لن أبقى هنا طويلًا. خطرَ لي فقط أن الوقت قد يكون مناسبًا لأقدِّم لك عرضًا».

- «حسن، قدِّمي العرض».

قالت وفي صوتها ابتسامة: «استرخِ. *يا لك* من متزمِّت. اسمع، الأربعاء *ماتَ*. لستَ مدينًا لأحدٍ بشيء. انضمَّ إلينا. حانَ وقت الانتقال إلى الفريق الرَّابح».

لم يردَّ شادو.

- «باستطاعتنا أن *نُشهِرك* يا شادو. باستطاعتنا منحك سُلطةً على ما يُؤمِن به النَّاس ويقولونه ويرتدونه ويَحلُمون به. هل تُريد أن تكون كاري جرانت التَّالي؟ باستطاعتنا *إحداث* ذلك. باستطاعتنا أن نجعلك فريق الـ«بيتلز» التَّالي».

قال شادو: «أظنُّني آثرتُ أن تعرضي عليَّ أن تُريني صدر لوسي، إن كانت تلك أنتِ».

- «آه».

- «أريدُ حُجرتي. طابَت ليلتكِ».

قالت دون أن تتحرَّك كأنه لم يقل شيئًا: «وطبعًا باستطاعتنا أن نعكس الأمر كلَّه. باستطاعتنا أن نُسوِّئ عليك الأحوال. من الممكن أن تكون دُعابةً رديئةً إلى الأبد يا شادو، أو يَذكُرك العالم باعتبارك وحشًا. من الممكن أن يَذكُرك النَّاس إلى الأبد، ولكن على غرار تشارلز مانسن، أو هتلر... هل يُعجبك شيء كهذا؟».

- «آسفٌ يا سيِّدتي، لكنني متعَب. سأمتنُّ لكِ إن غادرتِ الآن».

- «لقد عرضتُ عليك العالم. تذكَّر هذا وأنت تُحتضَر في زُقاق».

قال: «سأحرصُ على تذكُّره».

بقيَ عطرها في هواء الحُجرة بعد خروجها. تمدَّد شادو على الحشيَّة العارية وفكَّر في لورا، ولكن أيَّما فكَّر -لورا تلعب الفريزبي، لورا تأكل آيس كريم البيرة الغازيَّة بلا ملعقة، لورا تُقهقِه وهي تعرض الثَّوب الدَّاخلي المثير الذي اشترَته حين حضرَت مؤتمر وُكلاء سفريَّات في آناهايم- تحوَّلت الفكرة في عقله إلى صورة لورا وقضيب رُبي في فمها فيما تُطيح بهما شاحنة عن الطَّريق وتُلقيهما في عالم الغفلة. ثم سمعَ كلماتها، وكلُّ مرَّةٍ آلَمته.

بصوتها الهادئ قالت لورا في خلفيَّة عقله: *لستَ ميتًا، لكنني لستُ واثقة بكونك حيًّا كذلك.*

طرقَ أحدهم الباب، فقامَ شادو وفتحَه، ليجد أمامه الفتى البدين يقول: «الهامبرجر كان مقرفًا فعلًا. أتُصدِّق هذا؟ خمسون ميلًا حتى «مكدونالدز». لم أحسب أن في العالم بأسره مكانًا يَبعُد عن «مكدونالدز» خمسين ميلًا».

قال شادو: «هذا المكان بدأ يتحوَّل إلى محطَّة جراند سنترال. طيِّب، أظنُّك هنا لتعرض عليَّ حرِّيَّة تصفُّح الإنترنت إذا انتقلتُ إلى فرقتكم، صح؟».

كان الفتى البدين يرتجف إذ قال: «لا، إنك مقضي عليك لا محالة. أنت... أنت مخطوطة قوطيَّة مذهَّبة مكتوبة بالحروف السَّوداء، لا يُمكنك أن تكون نصًّا فائقًا ولو حاولت. أنا... أنا التَّشابُك المعلوماتي في حين أنك... في حين أنك نظرة قاصرة...». أدركَ شادو أن رائحته غريبة. في السِّجن نزلَ بالزِّنزانة

المواجهة رجل لم يعرف شادو اسمه قَطُّ، في مرَّةٍ خلعَ ثيابه كلَّها في منتصَف النَّهار وقال للجميع إنه أُرسلَ ليأخذهم -الصَّالحين حقًّا مثله- في سفينة فضاءٍ فضِّيَّة إلى مكانٍ مثالي. كانت تلك آخر مرَّةٍ رآه شادو. هذا الفتى البدين رائحته كرائحة ذلك الرَّجل.

- «أأنت هنا لسبب؟».

- «أردتُ أن أتكلَّم ليس إلَّا». حملَ صوته نبرةً متذمِّرةً. «الجوُّ مخيف في حُجرتي، هذا كلُّ ما في الأمر، الجوُّ مخيف حقًّا هناك. خمسون ميلًا حتى «مكدونالدز»، أتُصدِّق هذا؟ ربما يُمكنني أن أمكث هنا معك».

- «وماذا عن أصدقائك في الليمو؟ الذين ضربوني؟ أليس أولى بك أن تَطلُب مكوثهم معك؟».

- «لن يستطيع الأطفال الاشتغال هنا. نحن في منطقةٍ ميتة».

قال شادو: «ما زالَ أمامنا فترة حتى منتصَف اللَّيل، وفترة أطول حتى الفجر. أظنُّك محتاجًا إلى الرَّاحة. أعلمُ أني محتاج إليها عن نفسي».

للحظةٍ لم يقل الفتى البدين شيئًا، ثم أومأ برأسه وخرجَ من الحُجرة.

أغلقَ شادو الباب وأوصدَه، وعادَ يتمدَّد فوق الحشيَّة.

بعد لحظاتٍ قليلة بدأت الضَّوضاء، واستغرقَ شادو بضع لحظاتٍ أخرى حتى أدركَ ماهيتها، ثم فتحَ رتاج بابه وخرجَ إلى الطُّرقة. إنه الفتى البدين الذي عادَ إلى حُجرته، والصَّوت كأنه يضرب بشيءٍ ضخم عرضَ حوائط الحُجرة. خمَّن شادو من الأصوات أن ما يضرب به هو نفسه، وكان الفتى يقول منتحبًا: «إنه أنا فقط!»، أو ربما: «إنه لحم فقط»، لكن شادو لم يستطِع التَّمييز.

من حُجرة تشرنوبوج عبر الطُّرقة أتى صوته الزَّاعق يقول: «صمتًا!».

قطعَ شادو اللوبي وخرجَ من الموتل شاعرًا بالإرهاق.

كان السَّائق واقفًا بجوار الـ «همڤي»، جسمًا مظلمًا بقبَّعةٍ بارزة القمَّة.

- «لم يُمكنك النَّوم يا سيِّدي؟».

- «نعم».

- «سيجارة يا سيِّدي؟».

- «لا، شكرًا لك».

- «هل تمانع إن دخنتُ أنا؟».

- «خُذ راحتك».

أشعلَ السَّائق سيجارته بقدّاحة «بِك» قابلة لإعادة التّدوير، وفي ضوء اللَّهب الأصفر رأى شادو وجه الرَّجل، رآه للمرّة الأولى في الواقع، وتعرَّفه، وبدأ يفهم.

يعرف شادو هذا الوجه النَّحيل، ويعرف أن تحت قبّعة السّائق شعرًا برتقاليًا مشذّبًا بعناية، محلوق حتى فروة الرّأس تقريبًا ليبدو كجذوات النّار. ويعرف أنه حينما تفترُّ شفتا الرَّجل عن ابتسامةٍ فستتجعّدان صانعتيْن شبكةً من النُّدوب الخشنة.

قال الرَّجل: «تبدو بخيرٍ أيها الرَّجل الكبير».

حدَّق شادو إلى زميل زنزانته القديم بحذرٍ قائلًا: «لُو كي؟».

صداقات السُّجون شيء جيِّد، فهي تُساعِدك على النَّجاة من الأماكن السيِّئة والأوقات العصيبة، إلّا أن صداقة السِّجن تنتهي عند بوّابة السِّجن، وصديق السِّجن الذي يُعاوِد الظُّهور في حياتك بعد ذلك يُعَدُّ في أحسن الأحوال مزيجًا من النِّعمة والنِّقمة.

قال شادو: «بحقِّ المسيح. لُو كي لايسميث»، ثم سمعَ ما يقوله وفهمَ. «لوكي. لوكي لاي-سميث. لوكي صائغ الأكاذيب».[1]

قال لوكي: «أنت بطيء البديهة، لكنك تفهم في النّهاية»، والتوَت شفتاه في بسمةٍ معوجَّة، وتراقصَ الجمر في ظلال عينيه.

---

جلسا في حُجرة شادو بالموتل المهجور، متواجهيْن فوق السَّرير على طرفَي الحشيَّة. كانت الأصوات في حُجرة الفتى البدين شبه توقَّفت.

قال شادو: «كذبتَ عليَّ».

ردَّ لوكي: «الكذب أحد الأشياء التي أجيدها. على أنك كنت محظوظًا لأننا حُبِسنا معًا. لم تكن لتَخرُج من عامك الأوَّل حيًا دوني».

- «ألم يكن بإمكانك الخروج إذا أردت؟».

- «قضاء المُدَّة أسهل. عليك أن تفهم مسألة الآلهة. إنها ليست سحرًا، ليس بالضَّبط، بل مسألة تركيز، مسألة كونك أنت، ولكن الأنت الذي يُؤمِن به النَّاس، مسألة كونك خُلاصتك المركَّزة المضخَّمة، أن تُصبِح الرَّعد، أو قوَّة حصانٍ راكض، أو الحكمة. تأخذ المعتقدات كلَّها والصَّلوات كلَّها، وتصير تلك الأشياء نوعًا من اليقين، شيئًا يجعلك أكبر، أروع، أكثر من إنسان. هكذا تتبلوَر»، وصمتَ لوكي لحظةً، ثم أردفَ: «ثم يأتي يوم وينسونك، ولا يُؤمنون بك، ولا يُضحُّون لك، ولا يكترثون، وإذا بك تلعب الثَّلاث ورقات على ناصية برودواي والشَّارع الثَّالث والأربعين».

- «لماذا نزلت في زنزانتي؟».

- «صُدفة محضة. إنها الزُّنزانة التي وضعوني فيها. ألا تُصدِّقني؟ ما أقوله صحيح».

- «والآن تعمل سائقًا؟».

- «أعملُ أشياءَ أخرى أيضًا».

- «تقود سيَّارات المعارضة».

- «إن أردت أن تدعوهم بذلك. الأمر يعتمد على موقفك. حسبما أرى الأمر، فأنا أقود سيَّارات الفريق الرَّابح».

- «ولكن أنت والأربعاء، لقد كنتما من مكانٍ واحد، كلاكما من...».

- «مجمع الآلهة النورديَّة. كلانا من مجمع الآلهة النورديَّة. أهذا ما تُحاوِل قوله؟».

- «نعم».

- «وماذا في هذا؟».

تردَّد شادو قبل أن يقول: «مؤكَّد أنكما كنتما صديقيْن يومًا».

- «لا، لم نكن صديقيْن قطُّ، ولا يُؤسِفني موته. لقد كان يُعَرقِل بقيَّتنا لا أكثر. الآن وقد رحلَ، على بقيَّتهم أن يُواجِهوا الحقائق: التَّغيير أو الموت، التَّطوُّر أو الهلاك. إنني مؤيِّدٌ كبير للتَّطوُّر؛ لُعبة التَّغيير أو الموت القديمة. لقد ماتَ. الحرب وضعَت أوزارها».

رمقه شادو حائرًا، وقال: «لستَ بذلك الغباء. لطالما كنت ثاقب الرُّؤية. موت الأربعاء لن يُنهي شيئًا. كلُّ ما فعلَه أنه دفعَ الواقفين على خطِّ التّماس إلى أحد جانبَي الملعب».

- «تخلط المجازات يا شادو. عادة سيّئة».

- «أيًا كان. ما زالَ ما أقوله صحيحًا. بحقِّ المسيح. لقد حقَّق موته في لحظةٍ ما أمضى الشُّهور القليلة الماضية يُحاوِل تحقيقه. موته وخُدعهم، أعطاهم شيئًا يُؤمِنون به».

هزَّ لوكي كتفيه قائلًا: «ربما. على حدِّ علمي، التَّفكير المهيمن على هذا الجانب من الملعب أن إخراج صانع المتاعب من الصُّورة يعني انتهاء المتاعب أيضًا. على أن ذلك ليس من شأني. إنني أقودُ فقط».

قال شادو: «أخبِرني إذًا، لِمَ يُبالي بي الجميع؟ إنهم يتصرَّفون كأنني مهم. لماذا يعني أحدًا ما أفعله؟».

أجابَه لوكي: «أنت استثمار. كنت مهمًّا لنا لأنك كنت مهمًّا للأربعاء. أمَّا السَّبب... فلا أظنُّ أن أيًّا منا يعلمه. هو كان يعلمه، وقد ماتَ. مجرَّد واحدةٍ أخرى من غوامض الحياة الصَّغيرة».

- «سئمتُ الغوامض».

- «حقًّا؟ رأيي أنها تُضيف إلى العالم نكهةً، مثل الملح في يخنة».

- «أنت سائقهم إذًا. هل تعمل عندهم جميعًا؟».

قال لوكي: «أيًّا كان مَن يحتاج إليَّ. إنه سبب للعيش»، ثم رفعَ ساعة يده إلى وجهه، وضغطَ زرًّا ليَبرُق قُرصها بأزرق رقيق أضاءَ محيَّاه مضفيًا عليه مظهرًا مؤثِّرًا متأثِّرًا. «خمس دقائق حتى منتصَف اللَّيل. حانَ الوقت، حانَ الوقت لإشعال الشُّموع، قول بعض الكلام عن الرَّاحل الغالي، الإجراءات الشَّكليَّة. هل ستأتي؟».

أخذَ شادو نفسًا عميقًا، وقال: «سآتي».

بينما قطعا رُواق الموتل المظلم قال لوكي: «اشتريتُ بعض الشُّموع لأجل اللَّيلة، لكنني وجدتُ الكثير من الشُّموع القديمة في أنحاء المكان أيضًا؛ أعقابًا وبقايا وأطرافًا في الحُجرات، وفي عُلبة داخل خزانة. لا أظنُّني أغفلتُ أيًّا منها. ومعي عُلبة ثقاب. إذا أشعلت الشُّموع بقدَّاحةٍ فسيسخن طرفها ويلسعك».

بلغا الحُجرة 5.

- «هل تُريد الدُّخول؟».

لم يُرِد شادو دخول تلك الحُجرة، لكنه قال: «حسن»، ودخلا.

أخرجَ لوكي عُلبة ثقابٍ من جيبه، وبظُفر إبهامه حكَّ عودًا بشريط الكبريت ليُشعِله، فآلمَ الوهج اللَّحظي عينَي شادو. ومضَ فتيل شمعةٍ واشتعلَ، ثم آخَر، وأشعلَ لوكي عودًا جديدًا وواصلَ إشعال الشُّموع الموضوعة على عتبة النَّافذة ولوح السَّرير الرَّأسي والحوض في رُكن الحجرة، وقد أرَت شادو معالم الحُجرة في ضوئها.

كان السَّرير قد نُقِلَ من موضعه عند الجِدار إلى منتصَف الحُجرة، وهو ما تركَ مسافة أقدامٍ قليلة بينه وبين الجِدارَيْن على جانبيه. تُغطِّي السَّرير بعض الملاءات، ملاءات الموتل القديمة بما فيها من بُقعٍ وثقوب عُثٍّ. لا بُدَّ أن لوكي وجدَها داخل خزانةٍ في مكانٍ ما.

وفوق الملاءات يَرقُد الأربعاء هامدًا.

يرتدي الأربعاء كامل ثيابه، مسجى بالبدلة الباهتة التي كان يرتديها حين ضُرِبَ بالنَّار. لم يُمَسّ جانب وجهه الأيمن، ما زالَ سليمًا لم يَشُبه الدَّم، أمَّا الجانب الأيسر ففوضى واهتراء، وعلى كتف البدلة اليُسرى ووجهها تتناثر بُقع داكنة صانعةً لوحةً تنقيطيَّةً للفوضى. يداه على جانبيه، والتَّعبير على هذا الوجه الخَرِب بعيد تمامًا عن السَّلام، تعبير يبدو جريحًا، جريح الرُّوح، جريحًا في أعمق أعماقه، مليئًا بالمقت والغضب والجنون الخام... وعلى مستوى ما يبدو راضيًا أيضًا.

تخيَّل شادو يدَي المستر چاكل المتمرِّستيْن تُلطِّفان هذين المقت والألم، تُعيدان بناء وجهٍ للأربعاء بمساحيق زينة الحانوتيَّة وشمعهم، فتمنحانه سلامًا ووقارًا أخيريْن أباهما عليه الموت نفسه.

على أن جسد الأربعاء لم يبدُ أصغر حجمًا وهو ميت، لم ينكمِش، ولا يزال يحمل رائحة «چاك دانيِلز» خافتةً.

كانت الرِّيح الهابَّة من السُّهول تشتدُّ، يسمعها شادو تعوي حول الموتل القديم في صميم مركز أمريكا التَّخيُّلي، وعلى عتبة النَّافذة تذبذبَ ضوء الشُّموع وارتعَش.

سمعَ خُطواتٍ في الطُّرقة، وطرق أحدهم بابًا مناديًا: «أسرع من فضلك. حانَ الوقت»، وبدأ الآخرون يَدخلون الحُجرة مجرجري الأقدام خافضي الرُّؤوس.

دخلَ تاون أولًا، تتبعه ميديا والمستر نانسي وتشرنوبوج، وأخيرًا دخلَ الفتى البدين، على وجهه رضوض حمراء حديثة وتتحرَّك شفتاه بلا انقطاعٍ كأنما يتلو كلامًا ما على نفسه، وإن لم يُصدِر صوتًا. وجد شادو نفسه يشعُر بالأسف من أجله.

على نحوٍ غير رسمي، دون كلمةٍ واحدة، رصُّوا أنفُسهم حول الجثة. يبعُد كلٌّ منهم عن الآخَر مسافة ذراع، وقد خيَّم على الحُجرة جوٌّ ديني، ديني لدرجةٍ بليغة لم يختبرها شادو من قبل قطُّ، ولا صوت إلَّا عُواء الرِّيح وطقطقة لهب الشموع.

تحدَّث لوكي: «نجتمع هنا معًا في هذا المكان الجاحد بالآلهة لتسليم جُثمان هذا الشَّخص لمَن سيتصرَّفون فيه كما يليق طبقًا للشَّعائر. إن كان أحدكم يودُّ أن يقول شيئًا فليقله الآن».

قال تاون: «ليس أنا. إنني لم أقابل الرَّجل حقًّا، وهذه المسألة كلُّها تُشعِرني بالانزعاج».

قال تشرنوبوج: «ستكون لهذه الأفعال عواقب. أتعلمون ذلك؟ إنما هذه البداية فحسب».

شرعَ الفتى البدين يُقهقِه مطلقًا صوتًا بناتيًا عاليًا حادًّا، وقال: «حسن، حسن، وجدتها»، ثم بنغمةٍ رتيبة تلا:

*«نلفُّ وندور في حلقةٍ تتَّسع*
*الصَّقر لا يسمع الصَّقَّار*
*والأشياء تتداعى، والمركز لن يقوى على التَّماسُك...»*[***]

ثم بترَ كلامه وقد تجعَّدت جبهته، وقال: «تبًا. كنتُ أحفظها عن ظَهر قلب»، وفركَ صدغيه والتوَت قسماته ولاذَ بالصَّمت.

ثم نظروا جميعهم إلى شادو. كانت الرِّيح تَصرُخ الآن. لم يعرف ماذا يقول، فقال: «هذه المسألة بأكملها بائسة. نصفكم قتلَه أو كانت له يد في

موته، والآن تُعطوننا جثّته. عظيم. لقد كان نذلًا عجوزًا غضوبًا، لكنني شربتُ بِتعه وما زلتُ أعمل لحسابه. هذا كلُّ شيء».

قالت ميديا: «في عالم يموت فيه النّاس يوميًّا أرى أن الشّيء *المهمّ* الذي علينا تذكُّره، هو أن كلَّ لحظة أسى نمرُّ بها حين *يرحل* النّاس من هذا العالم تُعادِلها لحظة بهجة حين يُولَد طفل جديد في هذا العالم. ولولته الأولى... إنها سحر، أليس كذلك؟ قد يكون قول هذا صعبًا، لكن البهجة والأسى مثل الحليب والبسكويت. *لهذه الدّرجة* ينسجمان معًا. أظنُّ أن علينا جميعًا أن نأخذ لحظةً لنتأمّل هذا».

وتنحنحَ المستر نانسي، وقال: «طيِّب. يجب أن أقولها أنا لأن أحدًا آخَر هنا لن يقولها. نحن في مركز هذا المكان، أرض لا وقت لديها للآلهة، وهنا في المركز لديها وقت أقل لنا من أيِّ مكانٍ آخَر. إنها منطقة محرَّمة، مكان للهُدنة، وها هنا نُراعي هُدناتنا. ليس لدينا خيار. طيِّب. تُعطوننا جثّة صديقنا. نحن نقبلها. ستدفعون الثّمن، قتلًا لقاء قتل، دمًا لقاء دم».

قال تاون: «أيًّا كان. يُمكنكم أن تُوفِّروا على أنفُسكم الكثير من الوقت والجهد بعودتكم إلى بيوتكم وإطلاق النّار على رؤوسكم. استغنوا عن الوسيط».

ردَّ تشرنوبوج: «عليك اللّعنة، عليك اللّعنة وعلى أمِّك اللّعنة وعلى عجرفتك اللّعينة اللّعنة. لن تموت في المعركة حتى، لا محارب سيتذوَّق دمك، لا أحد حيًّا سيسلبك حياتك. ستموت ميتةً ناعمةً رخيصةً، ستموت بقُبلةٍ على شفتيك وكذبة في قلبك».

قال تاون: «دعك من هذا أيها العجوز».

قال الفتى البدين: «*المدُّ المخضّب بالدّم الأقتم طليق*. هذا هو البيت التّالي على ما أظنُّ».

وعوَت الرِّيح.

قال لوكي: «حسن، إنه لكم، فرغنا. خُذوا الوغدَ العجوز»، وأشارَ بأصابعه ليُغادِر تاون وميديا والفتى البدين الحُجرة، ثم ابتسمَ لشادو قائلًا: «لا تصِف رجلًا بالسّعادة، أليس كذلك يا فتى؟»، وخرجَ بدوره.

سألَ شادو: «ماذا سيَحدُث الآن؟».

أجابَ أنانسي: «الآن نلفُّه ونأخذه من هنا».

لفُّوا الجثّة بملاءات الموتل، لفُّوها بكفنها المرتجَل بحيث لا تُرى وبحيث يستطيعون حملها. ذهبَ كلٌّ من الرَّجليْن العجوزيْن عند أحد جانبَي الجثّة،

غير أن شادو قال: «دعْني أرى شيئًا»، وثنى رُكبتيه وطوّق الجسد المكفّن بالأبيض ودفعَه إلى أعلى فوق كتفيه. ثم فرَدَ رُكبتيه حتى استطاع الوقوف بنوعٍ من السُّهولة، وقال: «حسن. حملته. لنضعه في مؤخرة السيّارة».

بدا على تشرنوبوج أنه سيُجادِله، لكنه أغلقَ فمه، ثم بصقَ على سبّابته وإبهامه وبدأ يُطفئ الشُّموع بين أنملتيْه، وسمعَها شادو تئزُّ إذ خرجَ من الحُجرة التي أظلمَت شيئًا فشيئًا.

الأربعاء ثقيل، لكن شادو يستطيع احتمال وزنه إذا مشى بثبات. ليس لديه خيار. مع كلِّ خُطوةٍ أخذَها في الرُّواق تردَّد كلام الأربعاء في عقله. وفي مؤخِّرة حلقه كان بإمكانه تذوُّق حلاوة البِتع الحامضة. *أنت تعمل لحسابي: تحميني، تُعاوِنني، تنقلني من مكان إلى مكان، تتحرَّى عن شيءٍ ما بين الحين والآخَر... تذهب هنا وهناك وتُلقي أسئلةً أريدُ أجوبةً عنها. ستؤدِّي خدمات، وفي حالات الطَّوارئ -في حالات الطَّوارئ فقط- ستؤذي مَن تجب أذيَّتهم، وفي حالة موتي المستبعَدة ستبقى ساهرًا على جُثماني...*

الاتّفاق اتّفاق، وهذا الاتّفاق في دمه وفي عظمه.

فتحَ له المستر نانسي باب لوبي الموتل، ثم هرعَ وفتحَ مؤخِّرة الحافلة. كان الأربعة الآخَرون واقفين عند سيّارتهم الـ «همفي» يُشاهِدونهم كأنهم لا يطيقون انتظارًا ليرحلوا، وقد أعادَ لوكي وضع قبّعة السّائق فوق رأسه. جلدَت الرِّيح الباردة الملاءات، وأخذَت تشدُّ ثياب شادو وهو يتقدَّم.

وبأقصى ما يُمكنه من رفقٍ وضعَ الأربعاء في مؤخِّرة الحافلة.

نقرَ أحدهم على كتفه، فالتفتَ ليجد تاون واقفًا يمدُّ يده بشيءٍ يحمله.

- «هاكَ. المستر وورلد أرادَك أن تأخذ هذه». كانت عينًا زُجاجيَّةً في منتصَفها صدع بعرض شعرة، وفي مقدِّمتها شظيَّة ضئيلة مفقودة. «وجدناها في المحفل الماسوني في أثناء التَّنظيف. احتفِظ بها لتجلب لك الحظَّ. الله يعلم أنك ستحتاج إليه».

أطبقَ شادو يده على العين، وتمنَّى لو يردُّ بقولٍ ذكي حاد لبق، إلَّا أن تاون كان قد عادَ إلى الـ «همفي» ويركبها بالفعل، ولم يستطِع شادو التَّفكير في شيءٍ ذكي يقوله.



آخِر من غادرَ الموتل تشرنوبوج، وبينما أوصدَ باب المبنى شاهدَ الـ «همفي» تنسحِب من الحديقة وتتَّجه إلى الطَّريق المسفلت. وضعَ مفتاح الموتل تحت صخرةٍ عند باب اللوبي، وهزَّ رأسه وقال لشادو عرَضًا: «كان حريًّا بي أن آكل قلبه ولا أكتفي بلعن موته. يجب أن يتعلَّم الاحترام»، ثم ركبَ في مؤخَّرة الحافلة.

قال المستر نانسي لشادو: «خُذ أنت المقعد الأمامي. سأقودُ بعض الوقت».

وقادَ بهم الحافلة شرقًا.

طلعَ عليهم الفجر في پرينستن بميزوري، ولم يكن شادو قد نامَ بعدُ.

قال نانسي: «أتُريدنا أن نُنزلك في مكانٍ معيَّن؟ لو أنني مكانك لتصرَّفت في بطاقة هُويَّة واتَّجهت إلى كندا، أو المكسيك».

ردَّ شادو: «أنا باقٍ معكما. هذا ما كان الأربعاء ليُريده».

- «لم تَعُد تعمل عنده. لقد ماتَ. بمجرَّد أن نُوصل جثَّته لك أن ترحل».

- «وأفعل ماذا؟».

أجابَ نانسي: «ابتعد عن الطَّريق فيما تدور الحرب. كما أقولُ، يَجدُر بك أن تَترُك البلاد»، وشغَّل إشارة الانعطاف واتَّجه يسارًا.

قال تشرنوبوج: «خبِّئ نفسك بعض الوقت، ثم عندما تتمُّ هذه المسألة سترجع إليَّ وأنهي كلَّ شيء... بمطرقتي».

سألَ شادو: «إلى أين نأخذ الجثَّة؟».

قال نانسي: «ڤرچينيا. هناك شجرة».

أضافَ تشرنوبوج باستحسانٍ عابس: «شجرة عالم. كانت عندنا واحدة في منطقتي من العالم، لكن شجرتنا نمَت تحت العالم لا فوقه».

قال نانسي: «نضعه عند قدم الشَّجرة، نَترُكه هناك، ندعك ترحل، نتَّجه جنوبًا، تقوم معركة، تُراق الدِّماء، يموت كثيرون، يتغيَّر العالم قليلًا».

- «ألا تُريدونني في معركتكم؟ إنني رجل كبير، أجيدُ القتال».

التفتَ نانسي برأسه إلى شادو مبتسمًا -أوَّل ابتسامةٍ حقيقيَّة يراها شادو على وجه المستر نانسي منذ أنقذَه من الحبس في مقاطعة لمبر- وقال: «معظم هذه المعركة سيُخاض في مكانٍ لا يُمكنك الذَّهاب إليه، ولا يُمكنك لمسه».

قال تشرنوبوج: «في قلوب النّاس وعقولهم، كما في الدوّامة الكبيرة».

- «هه؟».

أجابَه المستر نانسي: «الكاروسِل».

- «أوه. وراء الكواليس. فهمتُ. مثل الصّحراء حيث كلُّ تلك العظام».

رفعَ المستر نانسي رأسه قائلًا: «وراء الكواليس، نعم. كلّما فكّرتُ أنك أجهل من دابّة فاجأتني. صحيح، وراء الكواليس. هناك ستدور المعركة الحقيقيّة. كلُّ شيءٍ آخَر سيكون وميضًا ورعدًا».

قال شادو: «حدِّثني عن السَّهرة».

- «على أحدهم أن يبقى مع الجثّة. إنه تقليد. واحد من قومنا سيفعل ذلك».

- «لقد أرادَني أنا أن أفعلها».

ردَّ تشرنوبوج: «لا. شيء كهذا سيقتلك. فكرة سيئة جدًا جدًا جدًا».

- «فعلًا؟ سيَقتُلني أن أبقى مع جثّته؟».

قال المستر نانسي: «هذا هو ما يَحدُث عندما يموت أبو الكلّ. لن ينطبق ذلك عليَّ. حينما أموتُ أريدهم أن يزرعوني في مكانٍ دافئ، ثم لمّا تمرُّ الحسناوات من فوق قبري سأقبضُ على كواحلهن كما في الفيلم إياه».

قال تشرنوبوج: «لم أشاهد ذلك الفيلم».

- «طبعًا شاهدته. في المشهد الأخير. فيلم المدرسة الثّانويّة. الأطفال كلُّهم ذاهبون إلى البروم».

هزَّ تشرنوبوج رأسه، فقال شادو: «الفيلم اسمه «كاري» يا مستر تشرنوبوج. حسن، ليُخبِرني أحدكم عن السَّهرة».

قال نانسي: «أخبِره أنت. أنا أسوقُ».

- «لم أسمع قَطُّ بفيلم اسمه «كاري». أخبِره أنت».

قال نانسي: «الشّخص القائم على السّهرة... يُربَط إلى شجرة، تمامًا كما رُبِطَ الأربعاء، ثم يُعلَّق منها تسعة أيامٍ وتسع ليالٍ، بلا طعام، بلا ماء، وحده تمامًا. في النّهاية يحلّون وثاقه ويُنزِلونه، وإذا عاشَ... واردٌ أن يعيش. وسيكون الأربعاء قد حظيَ بسهرته الجنائزيّة».

قال تشرنوبوج: «قد يُرسِل إلينا آلفُس واحدًا من قومه. من شأن قزمٍ أن ينجو من تلك التّجربة».

قال شادو: «سأفعلها أنا».

ردَّ المستر نانسي: «لا».

ردَّ شادو: «نعم».

صمتَ كلا العجوزيْن، ثم سألَ نانسي: «لماذا؟».

- «لأنه شيء يُمكن لشخصٍ حي أن يفعله».

قال تشرنوبوج: «أنت مجنون».

- «ربما، لكنني سأقومُ على سهرة الأربعاء».

عندما توقَّفوا لتعبئة الوقود أعلنَ تشرنوبوج أنه يَشعُر بالغثيان ويُريد الرُّكوب في المقدِّمة. لم يُمانِع شادو الانتقال إلى مؤخِّرة الحافلة، حيث يُمكنه أن يتمدَّد بعض الوقت وينام.

واصَلوا الحركة في صمت، وقد شعرَ شادو بأنه فعلَ شيئًا كبيرًا للغاية وغريبًا للغاية، وإن لم يُدرِك ما هو على وجه التَّحديد.

بعد فترةٍ قال المستر نانسي: «تشرنوبوج، هل رأيت الفتى التِّقني في الموتل؟ لم يكن مسرورًا. لقد عبثَ مع شيءٍ ما ردَّ عليه العبث أضعافًا. هذه أكبر مشكلات العيال الجُدد؛ يخالون أنفُسهم يعلمون كلَّ شيء، ولا يُمكن أن تُعلِّمهم شيئًا إلّا بالطَّريقة الصَّعبة».

قال تشرنوبوج: «جيِّد».

كانَ شادو قد فردَ كامل طوله على الأريكة في المؤخِّرة شاعرًا كأنه شخصان، أو أكثر من شخصين. جزء منه يَشعُر بانتشاءٍ خفيف. لقد فعلَ شيئًا فعلًا، تحرَّك، ولما همَّه لو أنه لا يُريد أن يعيش، لكنه يُريد أن يعيش، ولقد كان هذا الفيصل. أملُه أن يَخرُج من التَّجربة حيًّا، لكنه مستعدٌّ للموت إن كان ذلك ما يتطلَّبه لكي يعيش. ثم، للحظة، خطرَ له أن الأمر كلَّه طريف، أطرف شيءٍ في العالم، وتساءلَ إن كانت لورا لتُقدِّر الدُّعابة.

وجزء آخَر منه -فكَّر أنه قد يكون مايك آينسل، الذي اختفى في العدم بضغطة زرٍّ في قسم شُرطة ليكسايد- ما زالَ يسعى لاستيعاب كلِّ شيء، يسعى لرؤية الصُّورة الكبيرة.

بصوتٍ عالٍ قال: «الهنود الخفيُّون».

أتى نعيق تشرنوبوج الضَّجِر من المقعد الأمامي يتساءَل: «ماذا؟».

- «الصُّور التي كنا نلوِّنها في صِغرنا. *هل ترى الهنود الخفيِّين في هذه الصُّورة؟ في هذه الصُّورة عشرة هنود. هل يُمكنك أن تجدهم جميعًا؟* ولأوَّل وهلةٍ لا ترى إلَّا الشلَّال والصُّخور والأشجار، ثم ترى أنه إذا قلبت الصُّورة على جانبها فهذا الظِّلُّ هندي...». ثم تثاءب شادو.

قال تشرنوبوج ناصحًا: «نَم».

قال شادو: «لكن الصُّورة الكبيرة»، ثم غاب في النَّوم، وحلم بالهنود الخفيِّين.

الشَّجرة في ڤرچينيا، بعيدة مسافةً طويلةً عن أيِّ مكان، وتقع في مؤخِّرة مزرعةٍ قديمة. للوصول إلى المزرعة سافَروا نحو ساعةٍ جنوبًا من بلاكسبرج، قاطعين طُرقًا لها أسماء على غرار پنيوينكل برانش وروستر سپر. مرَّتين اضطرُّوا إلى العودة أدراجهم، وانفعلَ كلا المستر نانسي وتشرنوبوج على شادو وعلى الآخَر.

ليَحصُلوا على إرشادات الطَّريق، توقَّفوا عند متجرٍ عام صغير جدًّا مبني عند سفح تلٍّ في النُّقطة التي تتفرَّع فيها الطُّرق. خرجَ من مؤخِّرة المتجر رجل عجوز حدَّق إليهم، يلبس أوڤرول من الدنيم طراز «أُشكُش بَجُش» ولا شيء غيره، ولا حتى حذاءً. اشترى تشرنوبوج قدم خنزيرٍ مخلَّلةً من برطمان أقدام الخنازير الضَّخم الموضوع على منضدة البيع، وخرجَ ليأكلها على السَّطح الخشبي فيما تبادلَ نانسي والرَّجل ذو الأوڤرول رسم الخرائط على أظهُر المناديل الورقيَّة، معلِّمين المنعطفات والمعالم المحلِّيَّة.

من جديدٍ تحرَّكوا وقد تولَّى المستر نانسي القيادة، وخلال دقائق عشر وصلوا. على البوَّابة لافتة معلَّقة تقول: «آش».[cxiii]

نزلَ شادو من الحافلة وفتحَ البوَّابة، لتَدخُل الحافلة وتقطع أرض المرج مرتجَّةً، ثم أغلقَ البوَّابة وسارَ وراء الحافلة قليلًا ليفرد ساقيه، وإذا ابتعدَت الحافلة أمامه هرولَ مستمتعًا بإحساس تحريك بدنه.

كان قد فقدَ كلَّ إحساسٍ بالزَّمن خلال الرِّحلة من كانساس. أهُم على الطَّريق منذ يومين؟ ثلاثة أيام؟ لا يدري.

لم يبدُ أن الجثَّة في مؤخِّرة الحافلة تتعفَّن. بإمكانه أن يشمَّها؛ رائحة «چاك دانيلز» ضعيفة مموَّهة بشيءٍ قد يكون عسلًا حامضًا، إلَّا أنها ليست

رائحةً منفرةً. من حينٍ إلى آخر كان يُخرج العينَ الزُّجاج من جيبه ويَنظر إليها. عميقًا في داخلها كسر، تصدَّعت مما يتصوَّر شادو أنه صدمة طلقة الرَّصاص، ولكن باستثناء شُطفةٍ على جانب القزحيَّة فلا تلف في سطحها. بين يديه مرَّر شادو العينَ وأخفاها ودحرجَها ودفعَها بأصابعه. إنها تذكار شنيع، لكنه للغرابة مريح، ويشكُّ أن الأربعاء كان ليستطرِف الأمر لو علمَ أن استقرَّت في النِّهاية في جيب شادو.

كان منزل المزرعة مظلمًا مغلقًا، والمروج عُشبها مفرط النُّمو وتبدو مهجورةً، وسقف المبنى متهدِّمًا في الخلفيَّة ومغطى بالبلاستيك الأسود. ارتجَّت بهم الحافلة عابرةً قمَّة مرتفَع، وأبصرَ شادو الشَّجرة.

لونها رمادي فضِّي، وارتفاعها أطول من منزل المزرعة، وهي أجمل شجرةٍ رآها شادو على الإطلاق؛ شبحيَّة ومع ذلك حقيقيَّة لأقصى درجة، وتكاد تكون تامَّة التَّناسُق. على الفور بدَت له مألوفةً، وتساءلَ إن كان قد رآها في حُلم، قبل أن يُدرِك أن لا، لقد رآها من قبل، أو رأى تصويرًا لها، مرَّاتٍ عديدة على دبُّوس ربطة عُنق الأربعاء الفضِّي.

ارتجَّت الـ «ڤولكسواجن» واهتزَّت قاطعةً المرج، وتوقَّفت على بُعد عشرين قدمًا تقريبًا من جذع الشَّجرة.

عند الشَّجرة وقفَت ثلاث نساء. للوهلة الأولى حسبهن شادو الزوريا، ثم أدركَ في غضون لحظاتٍ أنه مخطئ، أنهن ثلاث نساءٍ لا يعرفهن، يبدو عليهن التَّعب والسَّأم كأنهن واقفات هنا منذ وقتٍ طويل. حملَت كلٌّ منهن سُلَّمًا خشبيًّا، وأكبرهن حجمًا جوالًا بنِّيًّا أيضًا. بدون مثل مجموعةٍ من الدُّمى الروسيَّة: إحداهن تُعادِل شادو طولًا أو تفوقه، والثَّانية متوسِّطة الحجم، وامرأة حدباء قصيرة القامة لدرجة أن شادو في البدء حسبَها خطأً طفلةً. ومع ذلك بدون متشابهاتٍ للغاية -شيء ما في الجبهة، أو العينين، أو الذَّقن- حتى إن شادو أيقنَ بكونهن أخوات.

انحنَت أصغر النِّساء ثانيةً رُكبتيها إذ توقَّفت الحافلة، فيما اكتفَت الأخريان بالتَّحديق وهما تتقاسَمان سيجارةً دخَّنتاها حتى الفلتر قبل أن تُطفِئها إحداهما على جذر.

فتحَ تشرنوبوج مؤخِّرة الحافلة، وتقدَّمت أكبر النِّساء متجاوزةً إياه، وبسهولةٍ كأنه جوال من الدَّقيق رفعَت جُثمان الأربعاء وأخرجَته من الحافلة وحملَته إلى الشَّجرة. وضعَته المرأة أمام الشَّجرة على بُعد عشرة أقدامٍ تقريبًا

من الجذع، ثم حلّت هي وأختاها الملاءات عن جثمان الأربعاء، الذي بدا أسوأ في ضوء النهار مما بدا في ضوء الشموع بحُجرة الموتل، وبعد نظرةٍ خاطفة أشاحَ شادو ببصره. رتّبت النّساء ثيابه وهندمن بدلته. ثم وضعنه في رُكن ملاءةٍ ولففنه من جديد.

ثم تقدّمن إلى شادو.

- *أنت هو؟* سألته أكبرهن.

- *هو الذي سيرثي أبا الكلّ؟* سألته وُسطاهن.

- *هل اخترت القيام على السّهرة؟* سألته أصغرهن.

أومأ شادو برأسه إيجابًا، ولاحقًا لم يستطِع أن يتذكّر إن كان قد سمع أصواتهن حقًا. ربما أدركَ ببساطةٍ ما يعنينه من نظراتهن وأعيُنهن.

عادَ المستر نانسي -الذي دخلَ المنزل ليستخدم الحمّام- إلى الشّجرة مدخِّنًا سيجارلُّو، وقد بدا عليه التّفكير.

- «شادو، ليس عليك أن تفعل هذا حقًا. يُمكننا أن نجد أحدًا أنسب. لست مهيَّئًا لهذا».

ردَّ شادو ببساطة: «سأفعلها».

- «ليس عليك ذلك. لست تعلم فيمَ تُقحِم نفسك».

- «لا يهمُّ».

- «وإن مُتَّ؟ إن قتلَتك التّجربة؟».

- «فلتَقتُلني إذًا».

نفضَ المستر نانسي رماد السيجارلُّو على أرض المرج مغضبًا، وقال: «قلتُ إن في رأسك خراءً بدلًا من المخّ، وما زالَ في رأسك خراء بدلًا من المخ. ألا ترى عندما يُحاوِل أحدهم أن يُتيح لك مَخرجًا؟».

قال شادو: «آسف»، ولم يقل شيئًا آخر، وعادَ نانسي إلى الحافلة.

اقتربَ تشرنوبوج من شادو والاستياء بادٍ عليه، وقال: «يجب أن تَخرُج من هذه التّجربة حيًا، تَخرُج منها آمنًا من أجلي»، ثم نقرَ على جبهة شادو بمفصل إصبعه برفقٍ مضيفًا: «بام!»، واعتصرَ كتف شادو وربُت على ذراعه وعادَ إلى الحافلة.

بحركات البانتومايم، قالت له أكبر النساء، التي يبدو أن اسمها أورثا أو أوردر (لم يستطِع شادو أن يُردِّده على مسامعها بنُطقٍ يُرضيها) أن يتجرَّد من ثيابه.

- «جميعها؟».

هزَّت المرأة الكبيرة كتفيها، فخلعَ شادو ثيابه حتى السِّروال الدَّاخلي والتيشرت. أسندَت النِّساء السَّلالم إلى الشَّجرة، وأشرن إلى واحدٍ منها مطليٍّ باليد، رُسِمَت على درجاته زهور وأوراق شجر صغيرة.

تسلَّق شادو الدَّرجات التِّسع، ثم بحثٌ منهن وقفَ فوق فرعٍ منخفض.

سكبَت الوُسطى محتويات الجوال على عُشب المرج. اتَّضح أنها حبال رفيعة متشابكة أكسبَها الزَّمن والتُّراب لونًا بنِّيًّا، وبدأت المرأة تحلُّ الحبال وتفردها بحرصٍ على الأرض بجوار جثَّة الأربعاء.

ثم تسلَّقت النِّساء السَّلالم وبدأن يعقدن الحبال عُقدًا مُحكمةً أنيقةً، ولففنها حول الشَّجرة أوَّلًا ثم حول شادو، وبلا حرجٍ -مثل القابلات أو الممرِّضات أو مَن يُجهِّزن الجثث للدَّفن- خلعن تيشرت شادو وسرواله الدَّاخلي، وقيَّدنه، ليس بشدَّةٍ ولكن بإحكامٍ لا رجعة فيه. أذهلَته الرَّاحة التي احتملَت بها الحبال والعُقد وزنه، وقد امتدَّت الحبال تحت إبطيه وبين ساقيه وحول خصره وكاحليه وصدره مقيِّدةً إياه إلى الشَّجرة.

الحبل الأخير رُبِطَ مرتخيًا حول عُنقه. في البداية لم يكن مريحًا، إلَّا أن وزن شادو جيِّد التَّوزيع، ولم يقطع أيُّ الحبال جلده.

قدماه ترتفعان عن الأرض أقدامًا خمسةً، والشَّجرة مرداء ضخمة، وفروعها سوداء تحت السَّماء الغائمة، ولحاؤها رمادي فضِّي أملس.

أزالَت النِّساء السَّلالم، ومرَّ شادو بلحظة هلعٍ حين سقطَ بضع بوصات وحملَت الحبال وزنه كلَّه، وإن لم يُصدِر صوتًا.

عندئذٍ كان عاريًا تمامًا.

وضعَت النِّساء الجُثمان المكفَّن بملاءات الموتل عند قدم الشَّجرة وتركنَه هناك.

وترَكن شادو وحده.

# الفصل الخامس عشر

*اشنُقوني، أوه، اشنُقوني، وهكذا أموتُ وأرحلُ*
*اشنُقوني، أوه، اشنُقوني، وهكذا أموتُ وأرحلُ*
*لن يُزعِجني الشّنق، بل هو الرّحيل زمنًا طويلًا*
*هو الرُّقاد في القبر زمنًا طويلًا*

- أغنيّة قديمة

في اليوم الأوّل الذي تدلّى فيه من الشّجرة لم يختبر شادو إلّا غياب الرّاحة، الذي تحوّل شيئًا فشيئًا إلى ألمٍ وخوف، وأحيانًا إلى شعورٍ يقع في منطقةٍ ما بين الملل والفتور، إلى قبولٍ كالح، إلى انتظار.

تدلّى.

والرّيح ساكنة.

بعد عدّة ساعاتٍ بدأت دفقات خاطفة من الألوان تتفجّر في بصره مزهرةً بالقرمزي والذّهبي، تخفق وتنبض بحياةٍ دبَّت فيها من تلقاء نفسها.

تدريجيًّا باتَ الألم في ذراعيه وساقيه لا يُطاق. إذا أرخاها تاركًا جسده يتهدّل، إذا ارتمى إلى الأمام بحركةٍ ثقيلة، وقعَ الارتخاء على الحبل المحيط بعُنقه ليُومِض العالم ويميد، وهكذا يدفع نفسه إلى الخلف ويستنِد إلى جذع الشّجرة، شاعرًا بقلبه يكدح في صدره كوشمٍ حي مختل الضّربات يضخّ الدّم في جسده...

أمام عينيه تبلورَ زمرُّد وصفير وياقوت وتفجَّروا، وصارت أنفاسه جرعاتٍ ضحلةً. لحاء الشَّجرة خشن على ظهره، وبرودة الأصيل على جلده العاري تُرجِفه وتجعله يخز ويقشعرُّ.

في خلفيَّة عقله قال أحدهم: *المسألة سهلة. ثمَّة حيلة للتَّعامُل معها. إمَّا تفعلها وإمَّا تموت.*

قرَّر أن تفكيره في هذا حكمة، وقد سرَّته المقولة وما انفكَّ يُردِّدها مرَّةً تلو المرَّةَ تلو المرَّة في خلفيَّة عقله، بعضها ترنيمة وبعضها تهويدة، تُخَشخِش مع دقَّات طبلة قلبه.

*المسألة سهلة. ثمَّة حيلة للتَّعامُل معها. إمَّا تفعلها وإمَّا تموت.*

*المسألة سهلة. ثمَّة حيلة للتَّعامُل معها. إمَّا تفعلها وإمَّا تموت.*

*المسألة سهلة. ثمَّة حيلة للتَّعامُل معها. إمَّا تفعلها وإمَّا تموت.*

*المسألة سهلة. ثمَّة حيلة للتَّعامُل معها. إمَّا تفعلها وإمَّا تموت.*

مرَّ الوقت، واستمرَّ التَّرنيم، وظلَّ شادو يسمعه. أحدهم كان يُردِّد الكلمات، ولم يتوقَّف إلَّا عندما بدأ فم شادو يجفُّ، عندما يبس لسانه وصارَ مثل الجلد. بقدميه دفعَ نفسه إلى أعلى وعن الشَّجرة، محاولًا دعم وزنه بطريقةٍ تُتيح له أن يملأ رئتيه بالهواء.

تنفَّس حتى لم يَعُد قادرًا على تثبيت نفسه، ثم سقطَ في قيوده من جديد، وتدلَّى من الشَّجرة.

حين بدأ اللَّغو -جلبة ضاحكة غاضبة- أغلقَ فمه قلقًا من كونه يُصدِره بنفسه، إلَّا أن الجلبة استمرَّت، ففكَّر شادو: *العالم يضحك منِّي إذًا*، وارتخى رأسه على جانبه. جرى شيء ما على جذع الشَّجرة بجواره متوقِّفًا عند رأسه، وبصوتٍ صاخب لغا في أذنه بكلمةٍ واحدةٍ بدَت أقرب كثيرًا إلى «راتاتُسك»[cxiv]. حاولَ شادو ترديدها، لكن لسانه التصقَ بسقف فمه، وببُطءٍ التفتَ ليُحدِّق إلى وجهٍ بنِّي رمادي وأذنين مدبَّبتين لسنجاب.

أدركَ أن من كثبٍ تبدو السَّناجب أقل ظرافةً مما تبدو من بُعد. هذا المخلوق يُشبِه الجرذان، وخطر، ليس جميلًا أو جذَّابًا، وأسنانه تبدو حادَّةً. أملَ شادو

ألا يعتبره تهديدًا أو مصدر غذاء. لا يحسب أن السّناجب من اللّواحم... ولو أن أشياءَ كثيرةً جدًا لم يحسبها اتّضح عكسها...

نامَ.

وأيقظه الألم عدّة مرّاتٍ خلال السّاعات القليلة التّالية. سحبه من حُلمٍ ظلامي قامَ فيه أطفالٌ موتى وأتوه بأعيُن تنسلخ مثل لآلئ منتفخة يُوبِّخونه لأنه خذلَهم، وسحبَه من حُلمٍ آخر تطلّع فيه إلى ماموث قاتم مشعر إذ تقدّم إليه بخُطى ثقيلة في الضّباب، لكن (استيقظ لحظةً ليجد عنكبًا يزحف على وجهه، فهزَّ رأسه لينفضه أو يُخيفه) الماموث أصبحَ رجلًا برأس فيل، بارز الكرش وأحد نابيه مكسور، والآن يركب فوق ظهر فأرةٍ ضخمة مقتربًا. لوى الرَّجل ذو رأس الفيل خُرطومه نحو شادو، وقال: «لو أنك توجّهت إليّ بالدُّعاء قبل أن تبدأ هذه الرّحلة لأمكنَك تفادي بعض متاعبك». ثم أخذ الفيل الفأرة -التي صبحَت بوسيلةٍ ما لم يتبيَّنها شادو ضئيلةً من غير أن يتبدّل حجمها على الإطلاق- ومرّرها من يدٍ إلى يدٍ إلى يد، تنثني الأصابع حول الكائنة البُنّيّة الصّغيرة إذ هرعَت من كفٍّ إلى كف، ولم يندهش شادو البتّة حين فتحَ الإله ذو رأس الفيل أيديه الأربع أخيرًا كاشفًا خلوّها التّام، ثم هزَّ ذراعًا بعد ذراعٍ بعد ذراعٍ بحركةٍ انسيابيّة غريبة، ورمقَ شادو بوجهٍ لا يشي بشيء.

قال شادو للرَّجل الفيل: «إنها في الخُرطوم»، فقد رأى الذَّيل المهتزَّ يختفي.

أومأ الرَّجل الفيل برأسه الضّخم، وقال: «نعم، في الخُرطوم. سوف تنسى أشياءَ كثيرةً، وتتخلّى عن أشياءَ كثيرة، وتفقد أشياءَ كثيرةً، ولكن إيّاك أن تفقد هذا». ثم بدأ المطر يَسقُط، واستيقظَ شادو مجدّدًا، هوى مرتجفًا مبتلًا من النّوم العميق إلى اليقظة في لحظات. اشتدّت الرّجفة حتى أخافَت شادو، إذ جعلَ يرتجف بعُنفٍ لم يتخيَّله ممكنًا، سلسلة من الرّعدات المتشنّجة تفاقمَت واستفحلَت. أمرَ نفسه بالكفّ عن الاهتزاز، لكنه ما برحَ يرتجف، تصطكُّ أسنانه وتختلج أطرافه وترتعش بلا أدنى سيطرةٍ منه، وصاحبَ هذا ألم حقيقي أيضًا، ألم عميق كما السكّين غطّى جسده بجروحٍ ضئيلة خفيّة، جروحٍ حميميّة لا تُحتمَل.



فتحَ فمه ليلتقط قطرات المطر المتساقطة مرطِّبًا شفتيه المشقَّقتين ولسانه الجاف، فيما بلَّل الماء الحبال التي تربطه إلى الشَّجرة. مرَّةً ومضَ البرق بسطوعٍ أحسَّ شادو به كضربةٍ على عينيه، وحوَّل العالم إلى پانوراما كثيفة من الصُّور والصُّور التَّلويَّة، ثم تلا البرقَ الرَّعدُ هزيمًا ودويًّا وقصفًا، وإذ تردَّدت أصداؤه تضاعفَ المطر، وفي المطر واللَّيل سكنَت الرَّجفة ودُسَّت نصال الألم في أغمدتها. لم يَعُد شادو يحسُّ بالبرد، أو بالأحرى لم يَعُد يحسُّ إلَّا بالبرد، لكنَّ البرد أمسى جزءًا منه، ينتمي شادو إليه، وإليه البرد ينتمي.

تدلَّى شادو من الشَّجرة فيما لمعَ البرق وتشعَّب في السَّماء، وخفتَ الرَّعد مستحيلًا إلى قرقعةٍ منتشرة، يتخلَّلها أحيانًا دويٌّ وهدير كما لو أن قنابل بعيدةً تنفجر في قلب اللَّيل، وشدَّت الرِّيح شادو محاولةً جذبه عن الشَّجرة، تسلخ جلده وتنفذ منه حتى العظم. وفي أوج العاصفة... علمَ شادو في روحه أن العاصفة الحقيقيَّة بدأت بالفعل، العاصفة الفعليَّة، وأن الآن وقد هبَّت فما من شيءٍ بيد أحدٍ إلَّا أن يتصدَّى لها من غير أن تقضي عليه، ليس بإمكان أحدهم إلَّا ذلك، سواء أكان إلهًا قديمًا أم جديدًا، روحًا أم قوَّةً، امرأةً أم رجلًا...

عندئذٍ تصاعدَت في داخله بهجة عجيبة، وانفجرَ ضاحكًا فيما غسلَ المطر جلده العاري وومضَ البرق وهزمَ الرَّعد بصخبٍ جعلَه يسمع نفسه بالكاد. ضحكَ شادو وانتشى.

إنه حيٌّ، ومثل هذا الشُّعور لم يعترِه من قبل قَطُّ، ولا مرَّة.

فكَّر أنه إذا ماتَ، إذا ماتَ الآن وهنا فوق الشَّجرة، فمجرَّد كونه ظفرَ بهذه اللَّحظة المثاليَّة المجنونة يستحقُّ.

وفي وجه العاصفة هتفَ: «هيَّا! هيَّا! إنه أنا! إنني هنا!».

حبسَ القليل من الماء بين كتفه العارية وجذع الشَّجرة، ولوى رأسه وشربَ ماء المطر المحبوس، يمتصُّه ويجرعه، وشربَ المزيد وضحكَ، ضحكَ بابتهاجٍ واغتباطٍ وليس بجنون، حتى لم يَعُد يستطيع الضَّحك، حتى عادَ يتدلَّى بإنهاكٍ أشد من أن يتحرَّك.

عند قدم الشَّجرة، على الأرض، جعلَ المطر الملاءات شفَّافةً جزئيًّا، ورفعَها ودفعَها بحيث رأى شادو يد الأربعاء الميتة الشَّمعيَّة الشَّاحبة وشكل رأسه. فكَّر في كفن تورينو، وتذكَّر جثَّة الفتاة المفتوحة على طاولة چاكل في القاهرة، ثم كأنما ينكي البرد، لاحظَ أنه يَشعُر بالدِّفء والرَّاحة، وبلحاء

الشُجرة ناعمًا على جلده، ومن جديدٍ نام، وإذا كان قد رأى أحلامًا في الظُلمة هذه المرة فإنه لم يتذكّرها.

بحلول الصَّباح التَّالي صارَ الألم كلّيًا؛ لم يعُد موضعيًا محصورًا في البُقع التي تنغرس فيها الحبال في لحمه أو حيث يكشط اللّحاء جلده، بل أصبح في كلّ مكان.

ثم إنه جائع، في أعماق بؤرته انقباضات خاوية، ورأسه يدقُّ بعُنف. أحيانًا يتخيَّل أنه كفَّ عن التَّنفُّس وأن قلبه توقَّف عن الخفقان، وعندئذٍ يكتم أنفاسه حتى يسمع قلبه يهدر كالمحيط في أُذنيه، ويُجبَر على عبِّ الهواء كغوّاصٍ يطلع إلى السّطح من القاع.

بدا له كأن الشَّجرة تمتدُّ من الجحيم إلى الجنَّة، وكأنه معلَّق منها منذ الأزل. دارَ بازٌ بنّي حول الشَّجرة، ثم حطَّ على فرعٍ مكسورٍ قُربه، ثم عادَ يُحلّق متَّجهًا غربًا.

كانت العاصفة قد انحسرَت عند الفجر، لكنها بدأت تعود مع مرور النَّهار، فتراكمَت سُحبٌ رماديَّة عكِرة من الأفق إلى الأفق، وبدأ رذاذ بطيء يتساقَط. في حين بدَت الجثَّة عند قاعدة الشَّجرة كأنها غدَت أضأل وهي ملفوفة بملاءات الموتل المبقَّعة، تتقوّض على نفسها مثل كعكة سُكَّر تُرِكت في المطر.

أحيانًا احترقَ شادو، وأحيانًا تجمَّد.

عندما عادَ الرَّعد يُصوِّت تخيَّل أنه يسمع قرعات طبول، يسمع دفوفًا في الرَّعد وفي ضربات قلبه، داخل رأسه أو خارجه، لا يهمُّ.

أبصرَ شادو الألم بالألوان: أحمر لافتة بار نيون، أخضر إشارة مرورٍ في ليلةٍ مطيرة، أزرق شاشة ڤيديو فارغة.

وثبَ السّنجاب من لحاء الجذع إلى كتفه لتنغرِس المخالب الحادَّة في جلده، ولغا: «راتاتُسك!»، وقد مسَّت حافة أنفه شفتَي شادو. «راتاتُسك». ثم عادَ يثب فوق الشَّجرة.

اكتوى جلده بسخونةٍ أحر من الجمر، واستشرى فيه نغز غطَّى جسده بأكمله؛ إحساس فوق الاحتمال.

رأى حياته مفرودةً أمامه على كفن الموتل، حرفيًا مفرودةً مثل الأصناف المتنوّعة في نُزهةٍ دادائيّة،[1] مثل تابلوه سيريالي. رأى نظرة أمّه الحائرة، والسّفارة الأمريكيّة في النرويج، وعينَي لورا يوم زفافهما...

وقهقهَ من بين شفتيه الجافّتين.

سألته لورا: «ما المضحك يا جروي؟».

- «يوم زفافنا، يومها رشوتِ عازف الأرغن ليُبدِّل «لحن العُرس» بأغنيّة المقدِّمة من «سكوبي دو» فيما تتقدَّمين إليَّ على الممشى. أتذكُرين؟».

- «أذكرُ طبعًا يا حبيبي. وكنتُ لأنجو بفعلتي لولا هؤلاء الأولاد المتطفّلين».

قال شادو: «لقد أحببتكِ جدًا».

أحسّ بشفتيها على شفتيه دافئتيْن بليلتيْن حيّتيْن لا باردتيْن ميتتيْن، فأدركَ أنها هلوسة أخرى، وسألها: «لستِ هنا حقًّا، أليس كذلك؟».

قالت: «بلى. لكنك تُناديني للمرّة الأخيرة، وأنا قادمة».

أصبحَ التّنفُّس أصعب، وأصبحَت الحبال المنغرسة في لحمه مفهومًا تجريديًّا مثل الإرادة الحُرّة، أو الأبديّة.

قالت لورا: «نَم يا جروي»، وإن جالَ بباله أن الصّوت الذي سمعَه صوته هو، ونامَ.

الشّمس عُملة من القصدير في سماءٍ من الرّصاص. ببُطءٍ أدركَ شادو أنه مستيقظ، وبردان أيضًا، لكن الجزء الوحيد منه الذي استوعبَ هذا بدا معزولًا تمامًا عن بقيّته. في مكانٍ ما بعيد كان يعي الحريق في فمه وحلقه المتألّميْن المتشقّقيْن، وبين حينٍ وحينٍ في نور النّهار رأى نجومًا تهوي، وفي أحيانٍ أخرى رأى طيورًا ضخمةً بحجم سيّارات النّقل تطير صوبه، ولا شيء بلغَه، ولا شيء مسّه.

- «راتاتُسك. راتاتُسك». أصبحَ اللّغو زجرًا.

(1) الدادائيّة: حركة فنّيّة نشأت في مطلع القرن العشرين ولم تعش طويلاً، كان غرضها التّسفيه من افتقار المجتمع المعاصر إلى المعنى. (المُترجم)

حطَّ السّنجاب بثقلٍ ومخالب حادّة على كتفه وحملق إلى وجهه. وتساءلَ شادو إن كان يهذي، فالحيوان يُمسك بكفّيه الأماميّتين قشرة جوز ككوب من بيت دُمى. ألصقَ الحيوان القشرة بشفتَي شادو، وأحسَّ شادو بالماء، ولا إراديًا امتصّه في فمه شاربًا من الكوب الدّقيق، ودوّره على شفتيه المشقّقتين ولسانه اليابس. بلّل فمه بالماء وابتلع ما تبقّى، وهو ما لم يكن كثيرًا

وثبَ السّنجاب فوق الشّجرة وجرى على جذعها نحو الجذور، ثم بعد ثوانٍ، أو دقائق، أو ساعات -لم يستطع شادو التّمييز (وفكّر أن كلّ ما في عقله من ساعاتٍ تلفَ: جميع تروسها وسنونها وزنابكها الآن خليط مُربك منثور على الكلأ المتلوّي)- عادَ السّنجاب بكوب قشرة الجوز متسلّقًا الشّجرة بحذر، وشربَ شادو الماء الذي أحضرَه له.

أفعمَ مذاق الماء الحديدي الموحل فمه، ولطّف حرارة حلقه القاحل، وخفّف إعياءه وجنونه.

ومع الكوب الثّالث لم يَعُد عطشانَ.

وعندئذٍ بدأ يُكافِح، يجذب الحبال، ينتفض جسده محاولًا النّزول، التّحرُّر، الابتعاد... وأنَّ شادو.

العُقد مُحكمة، والحبال قويّة وظلّت معقودةً، وسرعان ما أنهكَ نفسه مرّةً أخرى.

---

في هذيانه أصبحَ شادو الشّجرة، وجذور الشّجرة منغرسة في أعماق طُفال الأرض السّحيقة، في أعماق الزّمن وفي الينابيع الخفيّة. شعرَ بينبوع المرأة المسمّاة أورد -أي «الماضي»- وهي امرأة ضخمة، عملاقة، جبل تحت الأرض، والمياه التي تَحرُسها مياه الزّمن. وفي أماكن أخرى جذور أُخرى منغرسة، بعضها سرّي. والآن وقد أصابه الظّمأ، سحبَ شادو الماء من جذوره، سحبَه إلى جسد كيانه.

له مئة ذراع تتفرّع إلى مئة ألف إصبع، وامتدّت أصابعه كلّها إلى السّماء، وأحسَّ بوزن السّماء ثقيلًا على عاتقه.

لم تخفّ وعثاؤه، إلّا أن الألم صارَ ينتمي إلى الجسد المتدلّي من الشّجرة وليس الشّجرة نفسها، وفي جنونه أصبحَ شادو أكثر كثيرًا من مجرّد الرّجل المعلّق من الشّجرة. إنه هو الشّجرة، والرّيح التي تهزّ أغصان شجرة العالم

الجرداء، هو السَّماء الغائمة والسَّحاب المزجَّى، هو السَّنجاب راتاتُسك الجاري من أعمق الجذور إلى أعلى الفروع، هو الباز مجنون العينين الذي جثَمَ فوق الفرع المكسور على قمَّة الشَّجرة يتفحَّص العالم، هو الدُّودة في قلب الشَّجرة.

دارَت النُّجوم، ومرَّر أياديه المئة على النُّجوم المتلألئة، يلمسها، يُبدِّلها، يُخفيها...

⁂

لحظةٌ من الصَّفاء في خضمِّ الألم والجنون. شعرَ شادو بنفسه يصعد إلى السَّطح، وإن علمَ أن ذلك لن يدوم طويلًا. أبهرَت شمس الصَّباح بصره، فأغمضَ عينيه متمنِّيًا لو أنه يستطيع سترهما.

لم يتبقَّ له وقت طويل، وهذا أيضًا يعلمه.

عندما فتحَ عينيه لاحظَ أن معه فوق الشَّجرة رجلًا شابًّا.

بشرته بنِّيَّة قاتمة، وجبهته عالية، وشعره الدَّاكن مجعَّد مشدود، وقد جلسَ على فرعٍ مرتفع فوق رأس شادو، الذي رآه بوضوح إذ اشرأبَّ بعُنقه ورفعَ رأسه. والرَّجل مجنون، وهو ما رآه شادو بمجرَّد النَّظر.

بصوتٍ مبحوح باح الرَّجل: «أنت عارٍ. أنا أيضًا عارٍ».

ردَّ شادو بصوتٍ أجش: «أرى هذا».

رمقَه المجنون، ثم أومأ برأسه ولواه إلى أسفل ودوَّره كأنما يُحاوِل الخلاص من تيبُّسٍ في عُنقه، وأخيرًا سألَ: «هل تعرفني؟».

- «لا».

- «أنا أعرفك. لقد راقبتك في القاهرة، وراقبتك بعدها. أختي معجبة بك».

- «أنت...». تهرَّب منه الاسم لحظةً. *يأكل الحيوانات المدعوسة على قارعة الطُّريق*، نعم. «أنت حورس».

أومأ المجنون برأسه قائلًا: «حورس. أنا صقر الصَّباح وباز الأصيل. أنا الشَّمس مثلما أنت الشَّمس. وأعرفُ اسم رع الحقيقي. أمِّي أخبرَتني».

قال شادو بأدب: «عظيم».

حدَّق المجنون إلى الأرض أسفلهما بإمعانٍ من غير أن يقول شيئًا، ثم قفزَ من فوق الشَّجرة.

وهوى باز نحو الأرض كالحجر، وحوّل سقطته إلى غطسةٍ في الهواء. وخفقَ بجناحيه بثقلٍ عائدًا إلى الشّجرة وفي براثنه أرنب رضيع، ليحطّ على فرعٍ أقرب إلى شادو.

سألَه المجنون: «أأنت جائع؟».

- «لا. المفترَض أن أكونَ كذلك، لكنني لستُ جائعًا».

قال المجنون: «أنا جائع»، وبسرعةٍ التهمَ الأرنب، يَفسَخه، يمصُّ لحمه، يُقطِّعه، يُمزِّقه، وإذ فرغَ ألقى العظم الممضوغ والفرو أرضًا، ثم تحرّك فوق فرع الشّجرة مقتربًا حتى صارَ يَبعُد ذراعًا لا أكثر عن شادو، وأمعنَ النّظر إليه بلا أدنى حرج، يتفحّصه بعنايةٍ وحذرٍ من رأسه إلى قدميه. على شفتَي الرّجل وصدره دم من الأرنب، وقد مسحَه بظَهر كفّه.

شعرَ شادو أنّ عليه أنْ يقول شيئًا، فقال: «أهلًا».

قال الرّجل: «أهلًا»، ثم وقفَ فوق الفرع والتفتَ عن شادو، وقضى وقتًا طويلًا يصنع ببوله الدّاكن قوسًا سقطَ على أرض المرج بالأسفل، ولمّا فرغ عادَ يُقعي فوق الفرع.

سألَه حورس: «بِمَ يدعونك؟».

- «شادو».

أومأ الرّجل المجنون، وقال: «أنت الظّلُّ وأنا الضّوء. كلُّ ما له وجود يُلقي ظلًّا»، ثم قال: «سيتقاتَلون عمَّا قريب. كنتُ أراقبهم عندما بدأوا يصلون. كنتُ في أعالي السَّماء ولا أحد منهم رآني، مع أنّ لبعضهم أعيُنًا بصيرةً».

ثم قال الرّجل المجنون: «إنك تُحتضَر، أليس كذلك؟».

لكنّ شادو لم يَعُد قادرًا على الكلام. كلُّ شيءٍ بعيد ناءٍ. فقفزَ باز في الهواء، وببُطءٍ دارَ إلى أعلى ممتطيًا التيّارات الصّاعدة إلى الصّباح.

---

نور القمر.

رجَّ السُّعال جسد شادو، سُعال موجع ممض طعنَ صدره وحلقه، وبلهفةٍ مخنوقة حاولَ التقاط أنفاسه.

ناداه صوت يعرفه: «يا جروي»، فنظرَ إلى أسفل.

كان نور القمر متّقدًا بالأبيض بين غصون الشّجرة، ساطعًا كالنّهار، وعلى الأرض أسفله تقف امرأة وجهها بيضاوي شاحب، والرّيح تهزّ الفروع.

قالت: «مرحبًا يا جروي».

حاولَ الكلام، وبدلًا من ذلك سعلَ سُعالًا عميقًا في صدره استمرّ وقتًا طويلًا.

قالت منْ باب المساعدة: «ليس هذا صوتًا ينمُّ عن خير».

تمتمَ بصوتٍ مبحوح: «أهلًا يا لورا».

نظرَت إليه بعينين ميتتين، وابتسمَت.

سألَها: «كيف وجدتِني؟».

ظلَّت صامتةً حينًا في نور القمر، ثم قالت: «أنت أقرب شيءٍ عندي للحياة. أنت الشّيء الوحيد الذي تبقّى لي، الشّيء الوحيد الذي ليس موحشًا وراكدًا ورماديًّا. حتى لو غُمِّيَت عيناني وأُلقيتُ في قاع أعمق المحيطات فسأعرفُ أين أجدك. حتى لو دُفِنتُ على عُمق مئة ميلٍ تحت الأرض فسأعرفُ مكانك».

نظرَ إلى المرأة الواقفة في نور القمر، ولسعَ الدّمع عينيه.

بعد قليلٍ قالت: «سأقطعُ حبالك. إنني أقضي أوقاتًا كثيرةً جدًّا في إنقاذك، أليس كذلك؟».

سعلَ ثانيةً، ثم ردَّ: «لا، اتركيني. يجب أن أفعل هذا».

رمقَته هازّةً رأسها، وقالت: «أنت مجنون. إنك تُحتضَر، أو ستُشَلُّ إن لم تكنْ شُلِلت بالفعل».

- «ربما، لكنني حيٌّ».

قالت بعد لحظة: «أجل، أظنُّ هذا».

- «كما أخبرتِني ونحن في المقابر».

قالت: «يبدو لي كأن ذلك حدثَ منذ زمنٍ طويل جدًّا يا جروي»، ثم أردفَت: «أشعرُ بتحسّنٍ هنا. الألم ليس بتلك الشّدّة. أتفهم ما أعنيه؟ لكنني في غاية الجفاف».

سكنَت الرّيح وتناهَت رائحتها إلى أنفه، رائحة لحمٍ متعفّن ومرضٍ وتحلُّلٍ نفّاذة منفّرة.

قالت: «طُرِدتُ من وظيفتي. كانت وظيفةً ليليَّةً. لكنهم قالوا إن النَّاس اشتكوا. قلتُ لهم إنني مريضة، فقالوا إن الأمر لا يعنيهم. كم أنا ظمآنة».

أخبرَها: «النِّساء، إن عندهم ماءً، في المنزل».

خرجَت نبرتها خائفةً إذ قالت: «جروي...».

– «أخبِريهن... أخبِريهن بأنني قلتُ أن يُعطينك ماءً...».

حدَّق إليه الوجه الأبيض، وقالت: «عليَّ أن أذهب». ثم إذا بها تسعُل بقوَّةٍ وتمتعض ملامحها وتَبصُق كُتلةً بيضاء على العُشب. تفتَّتت عندما سقطت أرضًا وتمعَّجت مبتعدةً.

كان التَّنفُّس شبه مستحيل، وأحسَّ شادو بصدره ثقيلًا وتمايل رأسه.

– «ابقي». قالها بنَفسٍ ذاتي الهمسة، غير واثق إن كانت سمعَته أم لا. «أرجوكِ لا ترحلي». وبدأ يَسعُل. «ابقي معي اللَّيلة».

– «سأمكثُ بعض الوقت». ثم مثل أمٍّ تُكلِّم طفلًا قالت: «لا شيء سيُؤذيك وأنا هنا، أتعرف هذا؟».

مرَّةً أخرى سعلَ شادو، وأغمضَ عينيه... للحظةٍ فقط كما حسبَ، ولكن لمَّا فتحَهما ثانيةً كان القمر قد احتجبَ، وعادَ شادو وحيدًا.

---

في رأسه دقٌّ وقرعٌ يتجاوَزان ألم الصُّداع النِّصفي، يتجاوَزان أيَّ ألم. ذابَ كلُّ شيءٍ مستحيلًا إلى فراشاتٍ ضئيلة دارَت حوله كعاصفة تُرابٍ متعدِّدة الألوان ثم تبخَّرت في اللَّيل.

خفقَت الملاءات البيضاء الملفوفة حول الجُثمان عند قاعدة الشَّجرة بصوتٍ صاخب في ريح الصَّباح.

خفَّ الدَّقُّ، وتباطأ كلُّ شيء، ولم يتبقَّ شيء يجعله يُواصِل التَّنفُّس، وكفَّ قلبه عن الخفقان في صدره.

والظَّلام الذي دخلَه هذه المرَّة حالك لا ضوء فيه إلَّا لنجمةٍ واحدة، ظلام نهائي.

# الفصل السَّادس عشر

*أعرفُ أنها مغشوشة، لكنها اللُّعبة الوحيدة في البلدة.*

- كندا بيل جونز

اختفَت الشَّجرة، واختفَت الدُّنيا، واختفَت سماء الصَّباح الغائمة من فوقه. السَّماء الآن بلون منتصَف اللَّيل، فيها نجمة وحيدة باردة تَبرُق في الأعالي، ضياؤها متلألئ وهَّاج، ولا شيء عداها. أخذَ خُطوةً واحدةً، وكادَ يزلُّ.

نظرَ شادو تحته، ليجد درجاتٍ منحوتةً في الصَّخر تتَّجه إلى أسفل، درجاتٍ ضخمةً لدرجة أن كلَّ ما تخيَّله أن مَن نحتوها ونزلوها قبل زمنٍ طويل كانوا عماليق.

بجهدٍ نزلَ نصف قافزٍ نصف طافرٍ من درجةٍ إلى درجة. أوجعَه جسده، لكنه وجع قلَّة الاستخدام وليس عذاب جسدٍ تدلَّى من شجرةٍ حتى ماتَ.

لاحظَ بلا دهشةٍ أنه يرتدي ثيابًا كاملةً الآن، من أسفل چينز ومن أعلى تيشرت أبيض، ولو أنه حافي القدمين. ثم إذا به يختبر لحظةً بليغةً من الديچا ڤو: هذا هو ما كان يرتديه حين وقفَ في شقَّة تشرنوبوج ليلة أتته زوريا پولونوتشنايا وحدَّثته عن كوكبة النُّجوم المسمَّاة عربة أودِن، ومن أجله قطفَت القمر من السَّماء.

وفجأةً علمَ أن التَّالي سيَحدُث: سيجد زوريا پولونوتشنايا هناك.

كانت في انتظاره عند قاع السَّلالم. لا قمر في السَّماء، إلّا أن نور القمر يغمرها؛ شعرها الأبيض شاحب شحوب القمر، وترتدي الغلالة الكتَّان والدانتلَّة نفسها التي ارتدَتها تلك اللَّيلة في شيكاجو.

ابتسمَت لمَّا رأته، وطأطأت رأسها كأنها شعرَت بحرجٍ لحظي، وقالت: «مرحبًا».

قال شادو: «أهلًا».

- «كيف حالك؟».

- «لا أدري. أظنُّه حُلمًا غريبًا آخَر أراه وأنا فوق الشَّجرة. منذ خرجتُ من السِّجن أرى أحلامًا جنونيَّة».

صبغَ نور القمر وجهها بالفضِّي (مع أن لا قمر في السَّماء برقوقيَّة السَّواد، والآن وهنا عند قاع السَّلالم تتوارى النَّجمة الوحيدة عن النَّظر)، وبدَت في آنٍ واحدٍ مهيبةً وهشَّةً. «لأسئلتك كلِّها أجوبة إن كانت تلك رغبتك، ولكن ما إن تعرف الأجوبة فلا رجعة من معرفتك. يجب أن تفهم هذا».

قال: «مفهوم».

من ورائها يتفرَّع السَّبيل، وقد علمَ شادو أن عليه أن يُقرِّر أيُّ الفرعين يَسلُك، لكن عليه أن يفعل شيئًا أوَّلًا. دسَّ يده في جيب بنطاله الجينز، وأراحَه أن يحسَّ بوزن العُملة المألوف في قعر الجيب، وبرفقٍ بين سبَّابته وإبهامه أخرجَ دولار حرِّيَّة مسكوكًا في عام 1922. «هذا ملكِكِ».

ثم تذكَّر أن ثيابه في الحقيقة عند قدم الشَّجرة، فالنِّسوة الثَّلاث وضعنها في الجوال القنَّبي الذي أخَذن منه الحبال، ثم ربَطن طرف الجوال ووضعَت أكبرهن حجمًا صخرةً فوقه لكيلا تُطيِّره الرِّيح، وهكذا علمَ أن دولار الحرِّيَّة في عالم الواقع داخل جيبٍ في ذلك الجوال تحت الصَّخرة. وعلى الرغم من ذلك أحسَّ بثقل وزن العُملة في يده هناك عند مدخل العالم السُّفلي.

أخذَت الدولار من كفِّه بأصابعها الرَّفيعة قائلةً: «أشكرك. لقد اشترى لك حرِّيَّتك مرَّتين. والآن سيُضيء طريقك في أماكن الظُّلمة».

ضمَّت قبضتها حول الدولار، ثم مدَّت يدها ووضعَته في الهواء على أقصى ارتفاعٍ تستطيع بلوغه، وتركَته. عندئذٍ علمَ شادو أن هذا حُلم آخَر، فبدلًا من السُّقوط طفَت العُملة إلى أعلى حتى أصبحَت تعلو رأسه بقدمٍ أو نحوه. على أنها لم تَعُد عُملةً فضِّيَّة، إذ اختفَت السيِّدة حرِّيَّة وتاجها مدبَّب

الرُّؤوس، والوجه الذي رآه في مكانها على العُملة هو وجه القمر المبهم في سماء الصَّيف، الوجه الذي لا يظهر إلَّا عندما تحدِّق إليه. وحينئذٍ يتحوَّل إلى بحورٍ وأشكالٍ مظلمة على سطح القمر المحفَّر، وتحلُّ محلَّ النَّمط والوجه ظلالٌ من العشوائيَّة والصُّدفة المحضة.

لم يستطِع شادو الجزم بما يَنظُر إليه، سواء أكان قمرًا بحجم دولار يرتفع قدمًا فوق رأسه، أم قمرًا بحجم المحيط الهادي يبعُد ألوفًا عديدةً من الأميال، ولا استطاع الجزم بوجود أيِّ فرقٍ بين الفكرتيْن. قد يكون كلُّ شيءٍ مسألة منظور، قد يكون كلُّ شيءٍ وجهة نظر.

نظرَ إلى السَّبيل المتفرِّع أمامه، وسألَها: «أيَّ سبيلٍ أسلكُ؟ أيُّهما مأمونٌ؟».

قالت: «اسلُك واحدًا ولن يُمكنك سلوك الآخَر، لكن لا هذا ولا ذاك مأمون. أيَّ السَّبيليْن تُريد أن تَسلُك؟ سبيل الحقائق القاسية أم سبيل الأكاذيب النَّاعمة؟».

تردَّد شادو قبل أن يقول: «الحقائق. لقد قطعتُ شوطًا أطول من أن أسمع مزيدًا من الأكاذيب».

لاحَ عليها الحُزن، وقالت: «عليك أن تدفع ثمنًا».

- «سأدفعه. ما الثَّمن؟».

- «اسمك، اسمك الحقيقي. ستُعطيه لي».

- «كيف؟».

قالت: «هكذا»، ومدَّت يدًا مثاليَّةً نحو رأسه، وأحسَّ بأصابعها تمسُّ جلده، ثم أحسَّ بها تخترق جلده وجمجمته، أحسَّ بها تتوغَّل في رأسه، ودغدغَه شيءٌ ما داخل جمجمته وبطول عموده الفقري. سحبَت يدها من رأسه، على أُنملة سبَّابتها يتذبذَب لهبٌ كلهب الشَّمعة، لكنه متَّقد ببريق مغنيسيوم أبيض صافٍ.

سألَها: «أهذا اسمي؟».

أغلقَت يدها ليختفي الضَّوء، وقالت: «كان كذلك»، ثم مدَّت يدها وأشارَت إلى السَّبيل الأيمن قائلةً: «من هناك، مؤقَّتًا».

بلا اسمٍ سلكَ شادو السَّبيل الأيمن في نور القمر، ولمَّا التفتَ ليَشكُرها لم يرَ إلَّا الظَّلام. بدا له أنه في مكانٍ سحيق تحت الأرض، ولكن حين رفعَ عينيه إلى الظَّلام فوقه ظلَّ يرى القمر الضَّئيل.

انعطفَ عند ناصية.

إن كانت هذه الحياة الآخِرة فإنها أشبه كثيرًا بالمنزل فوق الصَّخرة؛ جزء عرض مجسَّم وجزء كابوس.

نظرَ إلى نفسه بزيِّ السِّجن الأزرق في مكتب المأمور إذ أخبرَه بموت لورا في حادثة سيَّارة، ورأى التَّعبير على وجهه، تعبير رجلٍ يبدو كما لو أن العالم هجرَه. آلمَته رؤية مشهد التَّجرُّد والخوف هذا، فهرعَ عابرًا مكتب المأمور الرَّمادي، ووجدَ نفسه يَنظُر إلى محلٍّ إصلاح الڤيديو على مشارف إيجل پوينت. قبل ثلاث سنوات. نعم.

علمَ أنه -في داخل المحلّ- يُوسِع لاري پاورز وبي چيه وِست ضربًا، وهو ما أفضى إلى كدماتٍ في مفاصل أصابعه. قريبًا سيَخرُج حاملًا كيس سوپر ماركت بنيًّا مملوءًا بأوراقٍ من فئة العشرين دولارًا، المبلغ الذي لم يستطيعوا إثبات أنه أخذَه، نصيبه من الأرباح، وأكثر قليلًا لأنه ما كان يجب أن يُحاوِلوا أن يغشُّوه هو ولورا. صحيحٌ أنه كان السَّائق فقط، لكنه أدَّى دوره، فعلَ كلَّ ما طلبَته منه...

خلال المحاكمة لم يَذكُر أحد عمليَّة السَّطو على البنك، على الرغم من ثقته برغبة الجميع في ذِكرها. لن يستطيع الادِّعاء إثبات شيءٍ ما دامَ أنه لا أحد يتكلَّم، ولا أحد تكلَّم، وهو ما اضطرَّ المدَّعي إلى التَّركيز على الضَّرر البدني الذي ألحقَه شادو بپاورز ووِست، فعرضَ صُورًا للرَّجلين لدى وصولهما إلى المستشفى. بالكاد دافعَ شادو عن نفسه. كان ذلك أسهل. لا پاورز ولا وِست بدا قادرًا على تذكُّر سبب المشاجرة، وإن أقرَّ كلاهما باعتداء شادو عليه.

لا أحد تكلَّم عن النُّقود.

لا أحد ذكرَ لورا حتى، وهو كلُّ ما أرادَه شادو.

تساءلَ إن كان سلوك طريق الأكاذيب المريحة أفضل. ابتعدَ عن ذلك المكان واتَّبع السَّبيل الصَّخري إلى ما بدا أنه غُرفة مستشفى، مستشفى عام في شيكاجو، وأحسَّ بالصَّفراء ترتفع في حلقه. توقَّف، لا يُريد النَّظر ولا يُريد مواصلة المشي.

في سرير المستشفى كانت أمُّه تموت ثانيةً كما ماتَت وهو في السَّادسة عشرة، ونعم، ها هو ذا، فتى كبير أخرق في السَّادسة عشرة من العُمر، ينتشر حَبُّ الشَّباب في وجهه ذي لون الكِريمة والقهوة، ويجلس بجوار سريرها

عاجزًا عن النّظر إليها ويقرأ كتابًا سميكًا ورقيّ الغلاف. تساءل شادو أيّ كتابٍ هذا، ودارَ حول سرير المستشفى ليُلقي نظرةً من كثب. وقف بين السّرير والمقعد ناظرًا من هذا إلى ذاك، والفتى الكبير يجلس محدّبًا ظهره ودافنًا أنفه في «قوس قزح الجاذبيّة»، يُحاول الهرب من وفاة أمّه إلى لندن خلال غارات النازيّين الخاطفة، فلا يجد في خيال الكتاب الجنوني مهربًا أو عُذرًا.

كانت عينا أمّه مغمضتيْن في سلامٍ مورفيني. ما حسبته أزمة فقر دم منجلي أخرى، وعكةً مؤلمةً أخرى عليها تحمّلها، اكتشفوا متأخرًا جدًا أنه ورم في الغدد اللمفاويّة. اكتسبَ جِلدها مسحةً من الرّمادي اللّيموني. ورغم كونها في أوائل الثّلاثينيّات فقد بدَت أكبر كثيرًا.

أرادَ شادو أن يهزّ نفسه، يهزّ الفتى السّاذج الذي كانه، يجعله يُمسك يدها، يُكلّمها، يفعل شيئًا، أيّ شيء، قبل أن ترحل، وهو ما علمَ أنه سيَحدُث، إلّا أنه لم يستطِع لمس نفسه، وواصلَ القراءة، وهكذا ماتَت أمّه وهو جالس بجوارها يقرأ كتابًا ثخينًا.

بعد ذلك كفّ عن القراءة تقريبًا. لا يُمكنك الثّقة بالخيال. ما جدوى الكُتب إن لم تحمِك من شيءٍ كهذا؟

خرجَ شادو من غُرفة المستشفى إلى الدّهليز المتعرّج في باطن الأرض.

يرى أمّه أوّلًا فلا يُصدّق كم تبدو صغيرةً، لم تَبلُغ الخامسة والعشرين بعدُ حسب تخمينه، قبل صرفها من العمل لأسبابٍ صحّيّة، وهما في شقّتهما، شقّة أخرى استأجرَتها السّفارة في مكانٍ ما في شمالي أوربا، ويتلفّت في المكان بحثًا عن شيءٍ يُعطيه فكرةً، وها هو ذا طفل صغير نحيل، عيناه رماديّتان شاحبتان كبيرتان، وشعره فاحم منسدل. إنهما يتجادَلان، ويعلم شادو هذا من غير أن يسمع ما يشي بموضوع جدالهما، فرغم كلّ شيءٍ لم يُوجَد إلّا موضوع واحد تشاجَرا بشأنه.

- *أخبِريني عن أبي.*

- *إنه ميت. لا تسأل عنه.*

- *ولكن مَن كان؟*

- *انسَه. لقد ماتَ ورحلَ ولم يَفُتك شيء.*

- *أريدُ أن أرى صورةً له.*

- لا صُور عندي. تقولها ويهدأ صوتها ويغلظ، ويعرف أنه إذا استمرَّ في أسئلته فستزعق فيه أو ربما تضربه، ويعرف أنه لا يستطيع الكفَّ عن السُّؤال، ولذا يُعرِض عن المشهد ويعود يقطع النَّفق.

التوى الطَّريق الذي سلكه وتعرَّج وانثنى على نفسه، وهو ما ذكَّره بجلود الثَّعابين والأمعاء وجذور الأشجار سحيقة الغُمق. إلى يساره بِركة، وقد سمعَ الماء يتقاطَر فيها في مكانٍ ما في مؤخِّرة النُّفق. بالكاد يُموِّج صفحتها الملساء كالمرآة. خرَّ على رُكبتيه وشربَ مستعملًا يده لرفع الماء إلى شفتيه، ثم واصلَ المشي إلى أن وقفَ في الأضواء الزُّخرفيَّة الطَّافية التي تُلقيها كُرة ديسكو مرصَّعة بالمرايا. يَشعُر كأنه في عينِ مركز الكون، والنُّجوم والكواكب كلُّها تدور حوله، لا يسمع شيئًا، لا الموسيقى ولا المحادثات الزَّاعقة، والآن يُحدِّق شادو إلى امرأةٍ تبدو كما لم تبدُ أمُّه قطُّ طيلة السِّنين التي عرفَها فيها، تبدو أكبر قليلًا من طفلة...

وتَرقُص.

ووجدَ شادو أنه لم يَشعُر بأضأل قدرٍ من الدَّهشة عندما تعرَّف الرَّجل الذي يَرقُص معها، فلم يتغيَّر كثيرًا على مرِّ ثلاثةٍ وثلاثين عامًا.

إنها ثملة، وهو ما أبصرَه شادو بمجرَّد النَّظر. ليست ثملةً جدًّا، لكنها لم تتعوَّد الشُّرب، وخلال أسبوعٍ أو نحوه ستستقلُّ سفينةً إلى النرويج. كانا يشربان المارجريتا، وعلى شفتيها وظَهر يدها ملح.

لا يرتدي الأربعاء بدلةً وربطة عُنق، لكن دبُّوس الشَّجرة الفضِّيَّة الذي يُثبِّته بجيب قميصه يلتمع ويَبرُق حين يَسقُط عليه ضوء الكُرة. رقصه ليس سيِّئًا، ومعًا يصنعان زوجين جميلَي المنظر باعتبار فرق السِّن بينهما، ولحركاته رشاقة ذئبيَّة.

رقصة بطيئة. يجذبها إليه، وبتملُّكٍ تنثني يده الشَّبيهة بكفِّ حيوانٍ حول ردف تنُّورتها لتُقرِّبها منه، وتأخذ يده الأخرى ذقنها وترفعه دفعًا إلى وجهه، ويتبادَل الاثنان قُبلةً هناك في حلبة الرَّقص فيما تدور حولهما أضواء الكُرة البرَّاقة في مركز الكون.

وبعد قليلٍ يُغادِران. تترنَّح مستندةً إليه، ويقودها إلى خارج قاعة الرَّقص، ويدفن شادو رأسه بين يديه ولا يتبعهما، عاجزًا أو عازفًا عن شهادة ما أدَّى إلى الحمل به.

اختفت أضواء المرايا، وأصبح مصدر الإضاءة الوحيد القمر الضئيل المتوهّج عاليًا فوق رأسه.

واصلَ المشي، وعند منعطفٍ في الطَّريق توقَّف لحظةً لالتقاط أنفاسه.

وأحسَّ بيدٍ تجري برفقٍ على ظهره وأصابع رقيقة تنفش شعر مؤخّرة رأسه.

ومن فوق كتفه همسَ صوت أنثوي حار: «أهلًا يا عسل».

التفتَ يُواجِهها قائلًا: «أهلًا».

شعرها بنّي، وبشرتها بنّيّة، وعيناها كهرمان ذهبي داكن كقطفة العسل الممتاز، حدقتاهما مشقوقتان طوليًّا.

بحيرةٍ سألَها شادو: «هل أعرفكِ؟».

أجابَت: «معرفةً حميميَّة»، وابتسمَت متابعةً: «لقد اعتدتُ النَّوم فوق سريرك، وقومي وضعوك نصب أعيُنهم من أجلي»، ثم التفتت إلى السَّبيل أمامه وأشارَت إلى فروعه الثَّلاثة قائلةً: «حسن. أحدها سيُؤتيك الحكمة، وأحدها سيُؤتيك الكمال، وأحدها سيَقتُلك».

قال شادو: «أظنُّني ميتًا بالفعل. مِتُّ على الشَّجرة».

مطَّت شفتيها بتجهُّم، وقالت: «يُوجَد موت، ويُوجَد موت، ويُوجَد موت. إنها مسألة نسبيَّة»، وعادَت تبتسم مضيفةً: «يُمكنني أن أؤلِّف نُكتةً عن هذا، شيئًا ما عن الأنسباء الموتى».

ردَّ شادو: «لا، لا عليكِ».

سألَته: «أيُّ سبيلٍ تُريد سلوكه إذًا؟».

أجابَ مقرًّا: «لا أدري».

حنَت رأسها جانبًا، لفتة سِنَّوريَّة تمامًا، وفجأةً علمَ شادو مَن هي بالضَّبط، والمكان الذي عرفَته فيه، وشعرَ بدماء الخجل ترتفع إلى وجهه. قالت باسِتت: «إن كنت تثق بي فيُمكنني أن أختار لك».

بلا تردُّدٍ قال: «أثق بكِ».

- «أتُريد أن تعرف ماذا سيُكلِّفك الاختيار؟».

أخبرَها: «لقد فقدتُ اسمي بالفعل».

- «الأسماء تأتي وتذهب. أكان ما عرفته يستحقُّ؟».

- «نعم. ربما. لم يكن سهلًا. نسبةً إلى التّجلّيات، كانت معرفةً شخصيّةً نوعًا».

- «التّجلّيات كلُّها شخصيّة، ولذا فالتّجلّيات كلُّها موضع شك».

- «لستُ أفهمُ».

قالت: «نعم، لست تفهم. سآخذُ قلبك. سنحتاج إليه لاحقًا»، ودسَّت يدها في صدره، ثم سحبَتها ممسكةً شيئًا ياقوتيًّا ينبض بين أظفارها الحادَّة، لونه لونِ دم الحمام، وتكوينه ضوء صافٍ، وينبسِط وينقبِض بإيقاعٍ منتظم.

ثم أغلقَت يدها، واختفى.

- «خُذ السَّبيل الأوسط».

تردَّد شادو قبل أن يسألها: «أأنتِ هنا حقًّا؟».

أمالَت رأسها إلى الجانب وحدجَته بنظرةٍ مكفهرَّة، ولم تقل شيئًا على الإطلاق.

- «ماذا تكونين؟ ماذا تكونون جميعًا؟».

تثاءبَت كاشفةً لسانًا ورديًّا داكنًا مثاليًّا، ثم قالت: «فكِّر فينا باعتبارنا رموزًا. إننا الحُلم الذي تختلقه البشريَّة لكي تعقل الظِّلال على جُدران الكهوف. والآن اذهب، واصِل الحركة. جثَّتك تَبرُد. الحمقى يجتمعون فوق الجبل. الوقت يجري».

أومأ شادو برأسه، وواصلَ المشي.

بدأ الطَّريق يُصبِح زلقًا. الآن يكسو الجليد الصَّخر. تعثَّر شادو وتزحلقَ إذ قطعَ الطَّريق الصَّخري إلى حيث يتفرَّع، خادشًا مفاصل أصابعه على صخرةٍ ناتئة بارتفاع الصَّدر، وحاولَ التَّقدُّم ببطءٍ قدر المستطاع. تلألأ القمر من فوقه عبر بلُّورات الجليد السَّابحة في الهواء، وقد أحاطَت بالقمر هالةٌ صانعةً قوس قزحٍ قمريًّا يُشتِّت الضَّوء. مشهد جميل، لكنه صعَّب المشي على هذا الطَّريق الخدَّاع.

بلغَ البُقعة التي يتفرَّع عندها الطَّريق.

بإحساسٍ من التَّمييز نظرَ إلى الفرع الأوَّل، الذي ينفتِح على قاعةٍ فسيحة، أو مجموعةٍ من القاعات، مثل متحفٍ مظلم. يعرف شادو هذا المكان. لقد كان هنا مرَّةً، ولو أن لحظاتٍ عدَّةً مرَّت دون أن يتذكَّر متى أو أين. كان بإمكانه

سماع الأصداء الطَّويلة للأصوات الخافتة، وسماع ذرَّات الغُبار إذ تحطُّ على الأرض.

إنه المكان الذي حلمَ به ليلة أتته لورا أوَّل مرَّة في الموتيل قبل زمنٍ طويل، القاعة التَّذكاريَّة التي تَسكُنها الآلهة المنسيَّة، وتلك التي انمحى وجودها ذاته.

تقدَّم خُطوةً.

ذهبَ إلى أوَّل الفرع الأقصى ونظرَ أمامه. للدِّهليز سمت يُذكِّرك بديزني لاند؛ جُدران من زُجاج البِلكسي الأسود مثبَّتة فيها أضواء ملوَّنة تلمع وتُومض موهمةً -بلا سببٍ معيَّن- بالنِّظام، مثل أضواء لوحة التَّحكُّم بمركبةٍ فضائيَّةٍ في مسلسلٍ تليفزيوني.

وتناهى إلى مسامعه صوت أيضًا، طنين عميق خفيض متذبذب أحسَّ به شادو في فم معدته.

توقَّف ونظرَ حوله. لا هذا ولا ذاك يبدو الطَّريق الصَّحيح، كلاهما لم يَعُد كذلك. لقد فرغَ من التَّفرُّعات. الطَّريق الأوسط، الطَّريق الذي قالت له المرأة القِطَّة أن يَسلُكه، هو ذا طريقه. وهكذا تحرَّك نحوه.

بدأ القمر من فوقه يضمحلُّ؛ الآن تصطبغ حافته بالوردي مع دخوله في خسوف.

في الطَّريق إطار بابٍ ضخم.

ما عادَت الآن اتِّفاقات تُجرى أو صفقات، لا شيء يفعله إلَّا الدُّخول، وعليه خطا شادو عبر المدخل إلى الظَّلام. وجدَ الهواء دافئًا، رائحته غُبار مبتل كشارع مدينةٍ بعد باكورة أمطار الصَّيف.

ولم يخَف شادو.

لم يَعُد خائفًا. الخوف ماتَ فوق الشَّجرة مثلما ماتَ شادو. لم يتبقَّ خوف، أو كراهية، أو ألم. لم يتبقَّ شيء إلَّا الجوهر.

بعيدًا نثرَ شيء كبير الماء، وتردَّدت أصداء الصَّوت في المكان الرَّحب. ضيَّق شادو عينيه لكنه لم يرَ شيئًا في الظَّلام الدَّامس. ثم، من اتِّجاه صوت الماء المنثور، لاحَ ضوء شبحي واتَّخذ العالم شكلًا. إنه في كهف، وأمامه مسطَّح مائي أملس ملاسة المرآة.

اقتربَ صوت تناثُر الماء وصارَ الضَّوء أقوى، وانتظرَ شادو على الشَّاطئ. سرعان ما دخلَ مجال بصره قاربٌ واطئ مسطَّح، فوق مقدِّمته المرتفعة مصباح مشتعل بضوءٍ أبيض راجف، وعلى صفحة الماء الزُّجاجيَّة السَّوداء ينعكس مصباح آخَر يَبعُد عدَّة أقدامٍ تحته. القارب يركبه شخص طويل ويُحرِّكه بمجذاف، وصوت الماء المتناثر الذي سمعَه شادو هو صوت ارتفاع المجذاف وحركته وهو يدفع المركب في مياه بِركة العالم السُّفلي.

نادى شادو: «مرحبًا!»، وبغتةً أحاطَت به أصداء الكلمة، ليتخيَّل جوقةً كاملةً من النَّاس تُرحِّب به وتُناديه، لكلِّ فردٍ منها صوته هو.

غير أن الشَّخص الذي يُجذِّف بالقارب لم يردَّ.

النُّوتي فارع القامة بالغ النُّحافة، ويرتدي الرَّجل -إن كان رجلًا- عباءةً بيضاء خاليةً من الزِّينة، والرَّأس الشَّاحب الذي يعلوها لا يمتُّ للإنسانيَّة بأدنى صلة، حتى إن شادو وجدَ نفسه موقنًا بكونه قناعًا، فهو رأس طائرٍ صغير فوق رقبةٍ طويلة، منقاره عالٍ طويل. وأيقنَ شادو أيضًا بأنه رآه من قبل، هذا الكائن الشَّبحي الشَّبيه بالطُّيور. حاولَ القبض على الذِّكرى، ثم أدركَ بخيبة أملٍ أنه يتخيَّل الماكينة التي تعمل بالعُملة في المنزل فوق الصَّخرة، والجسم الشَّاحب الغامض الشَّبيه بطائرٍ الذي انزلقَ في الهواء من وراء السِّرداب ليقبض روح السكِّير.

قطرَ الماء من المجذاف ومقدِّمة القارب وتردَّد صدى قُطوره، وموَّج أثرُ مخرِ المركب المياه سطحها الزُّجاجي.

القارب مصنوع من البوص المربوط والمعقود، وقد اقتربَ من الشَّاطئ والنُّوتي متَّكئ على مجذافه. أدارَ الكائن رأسه بتؤدةٍ حتى واجهَ شادو، وقال دون أن يُحرِّك منقاره: «مرحبًا». صوت ذَكر، وككلِّ شيءٍ في آخِرة شادو حتى الآن، مألوف. «اركب. للأسف ستبتلُّ قدماك، ولكن ما من شيءٍ يُمكن فعله حيال ذلك. هذه القوارب قديمة. وإذا دنوتُ فمن الممكن أن ينشقَّ القاع».

خلعَ شادو الحذاء الذي لم يعِ أنه ينتعله، وخطا في الماء الذي ارتفعَ حتى منتصَف ربلتَي ساقيه، وبعد صدمة البلل المبدئيَّة ألفاه شادو دافئًا. بلغَ القارب ومدَّ النُّوتي يدًا ليُساعِده على الرُّكوب، ليهتزَّ القارب البوص بعض الشَّيء ويتناثرَ الماء فوق جانبيه المنخفضيْن، ثم يَثبُت.

حرَّك النُّوتي مجذافه مبتعدًا عن الشَّاطئ، ووقف شادو في مكانه وشاهد والماء يَقطُر من ساقَي بنطاله.

ثم قال للكائن الواقف عند المقدّمة: «إنني أعرفك».

قال الملّاح: «تعرفني حقًّا». بدأ تذبذُب مصباح الزَّيت في مقدّمة القارب يتقطَّع أكثر فأكثر، وجعلَ الدُّخان المنبعث منه شادو يَسعُل. «لقد عملت لحسابي. يُؤسِفني أننا اضطررنا إلى دفن ليلا جودتشايلد من غيرك». صوته نيِّق مضبوط.

لسعَ الدُّخان عينَي شادو، ومسحَ بيده الدُّموع. للحظةٍ عبر الدُّخان خُيِّلَ إليه أنه يرى رجلًا طويلًا يرتدي بدلةً ويضع عُويناتٍ مؤطَّرةً بالذَّهب، ثم انقشعَ الدُّخان وعادَ الملّاح كائنًا نصف بشريٍّ له رأس طائرٍ نهري.

- «مستر آيبس؟».

قال الكائن بصوت المستر آيبس: «تسرُّني رؤيتك يا شادو. هل تعرف معنى مرشد الأرواح؟».

حسبَ شادو أنه يعرف الكلمة، لكن زمنًا طويلًا مرَّ منذ تعلَّمها، وهكذا هزَّ رأسه نفيًا.

قال المستر آيبس: «إنه مصطلح مبهرج يعني المُرافق. لكلٍّ منا جميعًا وظائف متعدِّدة، أساليب كثيرة جدًّا للوجود. في رؤياي عن نفسي أراني طالب علمٍ يعيش حياةً هادئةً ويخطُّ حكاياته ويَحلُم بماضٍ ربما كان له وجود وربما لم يكن. وهذا صحيح إلى حدٍّ ما. على أنني أيضًا، حسب إحدى قُدراتي، ومثل عديدين ممَّن اخترت الاختلاط بهم، مرشد أرواح، أرافقُ الأحياء إلى عالم الموتى».

- «ظننتُ هذا عالم الموتى».

- «لا، ليس بالضَّبط. إنه أقرب إلى تمهيد».

انزلقَ القارب وجرى على سطح بِركة العالم السُّفلي المرآوي، وثبّت رأس الطَّائر المستقرُّ فوق كتفَي الكائن ناظريْه أمامه. ثم قال المستر آيبس من غير أن يتحرَّك منقاره: «تتكلَّمون يا معشر البشر عن الأحياء والموتى كأنهم ينتمون إلى فئتيْن متعارضتيْن، كأنما لا يُمكن أن يكون نهرٌ طريقًا أيضًا، أو تكون أغنيَةٌ لونًا أيضًا».

قال شادو: «لا يُمكن، أليس كذلك؟»، وردّت إليه الأصداء كلماته همسًا من شاطئ البِركة الآخَر.

حانقًا قال المستر آيبس: «ما ينبغي لك أن تتذكّره أن الحياة والموت وجهان مختلفان لعُملةٍ واحدة، كالملك والكتابة على قطعةٍ بِرُبع دولار».

- «وإذا كان معي رُبع دولار على وجهيه ملكان؟».

- «غير ممكن. تلك تخصُّ الحمقى فقط، والآلهة».

لحظتها انتابَت شادو القشعريرة وهما يمخران المياه السَّوداء، إذ تخيَّل أنه يرى وجوه أطفالٍ تُحدِّق إليه بلومٍ من تحت سطح الماء الزُّجاجي، وجوههم طريَّة مشبَّعة بالرُّطوبة، وأعيُنهم العمياء معكَّرة. في الكهف تحت الأرض لا ريح تُعكِّر صفو سطح البُحيرة الأسود.

قال شادو: «أنا ميت إذًا». كان قد بدأ يعتاد الفكرة. «أو في طريقي إلى الموت».

- «نحن في طريقنا إلى قاعة الموتى. طلبتُ أن أكون أنا مَن يأتي لمرافقتك».

- «لِمَ؟».

- «إنني مرشد أرواح. وأنت تروقني. كنتَ عاملًا مجتهدًا. لِمَ لا؟».

- «لأن...». حشدَ شادو أفكاره، وتابعَ: «لأني لم أومن بكم قَطُّ. لأني لا أعرفُ الكثير عن الميثولوچيا المصريَّة. لأني لم أتوقَّع هذا. ماذا جرى للقدِّيس بطرس وأبواب الجنَّة اللُّؤلؤيَّة؟».

برصانةٍ اهتزَّ الرَّأس الأبيض ذو المنقار الطَّويل من جانبٍ إلى جانب، وقال المستر آيبس: «لا يهمُّ أنك لم تُؤمن بنا. نحن آمنَّا بك».

لمسَ القارب قاع الشَّاطئ المقابل، فنزلَ المستر آيبس في البِركة من فوق الجانب قائلًا لشادو أن يحذو حذوه، ثم أخذَ حبلًا من مقدِّمة القارب وناولَ شادو المصباح الهلالي ليحمله. سارا إلى الشَّاطئ، وربطَ المستر آيبس المركب بحلقةٍ معدنيَّة مثبَّتة في الأرض الصَّخريَّة، ثم أخذَ المصباح من شادو وتحرَّك إلى الأمام مسرعًا، يحمل المصباح عاليًا ليُلقي ظلالًا ضخمةً على صخور الأرض والجُدران.

سألَه المستر آيبس: «أأنت خائف؟».

- «لا».

- «حسن، حاوِل أن تُنمّي مشاعر الرّهبة الصّادقة والرُّعب الرُّوحاني ونحن ماشيان. إنها المشاعر الملائمة للموقف الرّاهن».

لم يكن شادو خائفًا. كان مهتمًّا، ومغتمًّا، لكنه لم يعُد كذلك. لم يخش الظُّلمة المتقلّبة، ولا كونه ميتًا، ولا حتى الكائن ذا رأس الكلب وحجم صومعة الغلال الذي حدّق إليهما إذ اقتربا. زمجرَ الكائن في أعماق حلقه، وأحسّ شادو بالشُّعيرات تنتصِب على عُنقه.

وقال الكائن: «شادو، حانَ وقت الحساب».

رفعَ شادو عينيه إلى الكائن قائلًا: «مستر چاكل؟».

امتدّت يدا أنوبيس، يدان قاتمتان ضخمتان، وانتشلَتا شادو وقرّبتاه.

فحصَته عينا ابن آوى بعينين لامعتين برّاقتين، فحصَتاه بالحياد عينه الذي فحصَ به المستر چاكل الفتاة الميتة على المحفّة، وعلمَ شادو أن عيوبه كلّها، إخفاقاته كلّها، مواطن ضعفه كلّها، تؤخَذ الآن لتُوزَن وتُقاس، أنه على نحوٍ ما يُشرَّح ويُقطّع ويُذاق.

إننا لا نتذكّر دومًا الأشياء التي لا تُبيِّض وجوهنا، ذلك أننا نُبرِّرها، نُغطّيها بالأكاذيب الوضّاءة أو بغُبار النِّسيان الكثيف. كلُّ ما فعلَه شادو في حياته ولا يفخر به، كلُّ ما يتمنّى لو أنه فعلَه بطريقةٍ مختلفة أو لم يفعله، كلُّ هذا كرّ عليه بدوّامةٍ عاصفة من الذّنب والنّدم والخزي، وما من وسيلةٍ للاختباء. كان عاريًا مفتوحًا كجثّةٍ فوق طاولة تشريح، وأنوبيس الأسود، الإله ابن آوى، هو المشرِّح والمشرِّع والمشرِّد.

قال شادو: «توقّف، أرجوك توقّف».

لكن الفحص لم يتوقّف. كلُّ كذبةٍ تفوّه بها، كلُّ شيءٍ سرقَه، كلُّ أذى أنزلَه بشخصٍ آخَر، كلُّ الجرائم الصّغيرة وجرائم القتل الدّقيقة التي يتكوّن منها اليوم، كلُّ هذا اجتُثَّ منه ورفعَه في الضّوء قاضي الموتى صاحب رأس ابن آوى.

أجهشَ شادو ببُكاءٍ موجع في كفّ يد الإله الأسود. عادَ طفلًا ضئيلًا، عاجزًا معدوم الحيلة.

ثم، دون إنذار، انتهى الأمر. لهثَ شادو، وانتحبَ، وسالَ المُخاط من أنفه. ما زالَ يَشعُر بالعجز، إلّا أن اليدين أنزلَتاه بحرصٍ، وبشبه رقّة، على الأرض الصَّخريَّة.

زمجرَ أنوبيس: «مَن يحمل قلبه؟».

قرقرَ صوت امرأة: «أنا»، فرفعَ شادو نظره ليرى باستت واقفةً بجوار الشَّيء الذي لم يَعُد المستر آيبس، تحمل بيدها اليُمنى قلب شادو الذي يُضيء وجهها بضوءٍ ياقوتي.

قال تحوت، الإله ذو رأس أبي منجل: «أعطيني إياه»، وأخذَ القلب بيديه اللتين لم تعودا يدين بشريَّتين، وتقدَّم بحركةٍ انسيابيَّة.

ووضعَ أنوبيس ميزانًا ذهبيَّ الكفَّتين أمامه.

همسَ شادو لباستت: «الآن إذًا سنعرف مثواي؟ الجنَّة؟ الجحيم؟ المطهر؟».

قالت: «إن توازنَت الرِّيشة فلك أن تختار وجهتك».

- «وإن لم تتوازَن؟».

هزَّت كتفيها كأن الموضوع لا يُريحها، ثم قالت: «حينئذٍ سنُطعِم عمميت آكلة الأرواح قلبك وروحك...».

- «ربما، وربما أنالُ نهايةً سعيدةً نوعًا».

أخبرَته: «ليس فقط أن النِّهايات السَّعيدة لا وجود لها، بل لا وجود للنِّهايات من الأصل».

في إحدى كفَّتَي الميزان، بعنايةٍ وتبجيل، وضعَ أنوبيس ريشةً.

ثم وضعَ أنوبيس قلب شادو في الكفَّة الأخرى، وتحرَّك شيء ما في الظِّلال تحت الميزان، شيء جعلَ شادو أشدَّ انزعاجًا من أن يُدقِّق إليه النَّظر.

الرِّيشة ثقيلة، لكن قلب شادو مثقل، وقد ارتفعَت الكفَّتان وانخفضَتا على نحوٍ مقلق.

غير أنهما توازَنتا في النِّهاية، وانسلَّ الكائن المتواري في الظِّلال مبتعدًا باستياء.

قالت باستت بشجن: «قُضيَ الأمر إذًا. مجرّد جمجمةٍ أخرى لكومة الجماجم. مؤسف. كنتُ آملُ أن تفعل شيئًا نافعًا إزاء المتاعب الحاليّة. الأمر مثل مشاهدتك حادثة سيّارةٍ بالحركة البطيئة عاجزًا عن منعها».

- «ألن تكوني هناك؟».

هزّت رأسها نفيًا مجيبةً: «لا أحبُّ أن يختار لي الآخرون معاركي».

ثم سادَ الصّمت في بهو الموت الشّاسع، حيث تتردّد أصداء المياه والظُّلمات.

قال شادو: «الآن يُمكنني أن أختار أين أذهبُ؟».

قال تحوت: «اختَر، أو يُمكننا أن نختار لك».

- «لا، لا بأس. إنه خياري».

هدرَ أنوبيس: «وهو؟».

قال شادو: «أريدُ أن أستريح الآن. هذا هو ما أريده. لا أريدُ شيئًا. لا الجنّة ولا الجحيم، لا شيء. ضعوا النّهاية».

سألَه تحوت: «أأنت واثق؟».

- «نعم».

فتحَ المستر چاكل آخِر الأبواب لشادو، ووراء ذلك الباب كان لا شيء: لا ظلام، ولا حتى عدم، بل لا شيء.

وقبلَه شادو قبولًا تامًّا بلا تحفُّظات، ودخلَ من الباب إلى اللا شيء شاعرًا ببهجةٍ غريبة عاتية.



# الفصل السَّابع عشر

*كلُّ شيءٍ في هذه القارَّة يتَّسم بالجسامة. الأنهار ضخمة، والمناخ عنيف في الحرِّ والبرد، والإمكانات هائلة، والرَّعد والبرق رهيبان. إن الاضطرابات الواقعة في البلاد كفيلة بهزِّ كلِّ بنية. زلَّاتنا هنا، وسوء تصرُّفنا، وخسائرنا، وسوآتنا، ودمارنا، كلُّها جسيم.*

- إيرل كارلايل، إلى چورج سلوين، 1778

أهمُّ مكانٍ على الإطلاق في جنوب شرقي الولايات المتَّحدة إعلاناته منشورة فوق مئاتٍ من سطوح الحظائر المتقادمة في چورچا وتنيسي وحتى داخل كنتكي. على طريقٍ ملتف يشقُّ غابةً سيمرُّ أيُّ سائقٍ بحظيرةٍ حمراء عطنة، ويرى فوق سطحها مكتوبًا بالطِّلاء:

**شاهِد مدينة الصُّخور**

**أعجوبة العالم الثَّامنة**

وفوق سطح سقيفة حَلْبٍ متداعية قريبة، سيرى بحروفٍ بيضاء كبيرة:

## شاهِد سبع ولايات من مدينة الصُّخور
## أعجوبة العالم

وهو ما يحدو بالسَّائق إلى اعتقاد أن مدينة الصُّخور تقع بالتَّأكيد عند أقرب منعطفٍ على الطَّريق، بدلًا من وقوعها في چورچيا على بُعد يومٍ كامل من القيادة، فوق جبل لوكاوت الذي يتجاوَزُ حدود الولاية مسافة شعرة، جنوب غرب مدينة تشاتانوجا في تنيسي.

ليس جبل لوكاوت جبلًا بمعنى الكلمة، بل يُشبِه تلًّا مهيمِنًا مستحيل الارتفاع، يبدو من بعيدٍ بنِّيًا، ومن قريبٍ تُخضِّره الأشجار والبيوت. كان التشيكاماوجا، وهُم فرع من الشروكي، يعيشون هناك حين جاءَ الرَّجل الأبيض، وأطلقوا على الجبل اسم تشاتوتونوجي، الذي تُرجِمَ إلى «الجبل الذي يرتفع حتى نُقطةٍ معيَّنة».

في ثلاثينيات القرن التَّاسع عشر أجبرَهم قانون إجلاء الهنود الذي استنَّه آندرو چاكسن على هجر أرضهم، جميع التشوكتو والتشيكاماوجا والشروكي والتشيكاسو، وقسرَ الجنود الأمريكان كلَّ من وجدوه وقبضوا عليه منهم على المشي أكثر من ألف ميلٍ إلى الأقاليم الهنديَّة الجديدة، في ما سيُصبِح يومًا ما أوكلاهوما، ليقطعوا درب الدُّموع في لفتةٍ مرحة إلى الإبادة الجماعيَّة العرَضيَّة. ألوف من الرِّجال والنِّساء والأطفال ماتوا في الطَّريق. إذا انتصرت فقد انتصرت، ولا أحد بإمكانه الجدل.

ذلك أن من يتحكَّم في جبل لوكاوت يتحكَّم في الأرض. هكذا قالت الأسطورة، فهو موقع مقدَّس رغم كلِّ شيء، وبُقعة مرتفعة أيضًا. خلال الحرب الأهليَّة، الحرب بين الولايات، دارَت معركة هناك، المعركة فوق السَّحاب، التي انقضى يومها الأوَّل في القتال، ثم حقَّقت قوَّات الاتِّحاد المستحيل، ومن غير أوامر اكتسحَت مشيناري ريدج وأخذَته. خرجَ جنود الچنرال جرانت من المعركة ظافرين، وفازَ الشَّمال بجبل لوكاوت، وفازَ الشَّمال بالحرب.

تحت جبل لوكاوت أنفاق وكهوف، بعضها قديم جدًّا. الآن أكثرها مسدود، ولو أن رجل أعمالٍ محليًّا نقَّب عن شلَّالٍ تحت الأرض وسمَّاه شلَّال روبي. يُمكنك الوصول إليه بمصعد، وهو معلم سياحي، وإن كان المعلم السِّياحي الأكبر يقع فوق قمَّة الجبل، ألا وهو مدينة الصُّخور.

بداية مدينة الصُّخور حديقة زينيَّة على جانب جبل، فيسلُك زوّارها مسارًا يأخذهم عبر الصُّخور وفوق الصُّخور وبين الصُّخور، ويلقون حبوب الذُّرة في حظيرة غزلان مسيَّجة، ويعبُرون جسرًا معلّقًا، وينظُرون بمناظير معظّمة -يُكلّف استخدامها رُبع دولار في المرّة- إلى مشهدٍ يعدهم برؤية سبع ولاياتٍ في الأنهُر المشمسة النَّادرة عندما يكون الهواء صافيًا تمامًا. ومن هناك، مثل هوّة تأخذك إلى جحيمٍ غريبة، يأخذ السَّبيل الزَّائرين، ملايين فوق ملايين منهم كل عام، إلى الكهوف حيث يُشاهِدون دُمى تحت إضاءةٍ سوداء، مرصوصةً في مجسَّماتٍ لأغاني المهد والحكايات الخُرافيَّة. وحينما يُغادِرون يُغادِرون محتارين، التبس عليهم سبب مجيئهم وما رأوه، والتبَس عليهم إن كانوا قد استمتَعوا بوقتهم أم لا.

جاؤوا إلى جبل لوكاوت من جميع أنحاء الولايات المتَّحدة، وليس للسِّياحة. جاؤوا بالسيَّارة، وجاؤوا بالطَّائرة والحافلة والقطار وسيرًا على الأقدام. بعضهم جاءَ طيرانًا؛ طارَ على ارتفاعٍ منخفض، وطارَ في ظلام اللَّيل فقط، لكنهم طاروا. عديدون منهم سلكوا طُرقهم الخاصَّة تحت الأرض، وكثيرون منهم سافَروا استركابًا، متسوِّلين الرُّكوب من سائقي الدرَّاجات البخاريَّة المتوتِّرين أو من قائدي الشَّاحنات. كان مَن يملكون سيَّاراتٍ أو شاحناتٍ يرون مَن لا يملكونها ماشين على جوانب الطُّرق أو جالسين في الاستراحات والمطاعم على الطَّريق، ولدى إدراكهم ماهيتهم يعرضون عليهم ركوبةً.

وصلوا متربِّين متعَبين إلى سفح جبل لوكاوت، وإذ نظروا إلى مرتفعات المنحدر المغطَّى بالشَّجر رأوا -أو تخيَّلوا أنهم يرون- مسالك مدينة الصُّخور وحدائقها وجداولها.

بدأوا يصلون في الصَّباح الباكر، ووصلَت موجة ثانية منهم عند الغسق، ولأيامٍ عدَّة ظلُّوا يتوافَدون.

توقَّفت شاحنة «يو-هول» متهالكة لافظةً عددًا كبيرًا من الڤيلا[1] والروسالكا[2] اللائي أعياهن السَّفر، زينتهن ملطَّخة، وجواربهن مشرَّطة، وأجفانهن ثقيلة، وملامحهن مرهَقة.

(1) الڤيلا: حوريَّات الفُلكلور السلافي. (المُترجم).

(2) الروسالكا: أرواح أو جنيَّات سلافيَّة، عادةً إناث. (المُترجم).

في دغلٍ من الأشجار عند سفح الجبل عرضَ ڤامپير[1] عجوز سيجارةَ «مارلبرو» على كائنٍ ضخم عارٍ شبيه بالقرد، يكسو جسمه فرو برتقالي متشابك، وقبلَ الكائن السِّيجارة بلُطفٍ ووقفا يُدخِّنان في صمتٍ جنبًا إلى جنب.

على جانب الطَّريق توقَّفت «تويوتا پريڤيا»، ونزلَ منها سبعة رجالٍ ونساءٍ صينيِّين. فوق كلُّ شيءٍ بدوا نظيفين، وقد ارتدوا نوع البِذَل الغامقة التي يرتديها -في بعض الدُّول- صغار موظَّفي الحكومة. كان أحدهم يحمل لوحًا مشبكيًّا، وراجعَ قائمة الجرد وهُم يُفرغون حمولةً من حقائب الجولف الكبيرة من مؤخِّرة السيَّارة، تحتوي على سيوفٍ مزخرفة ذات مقابض خشبيَّة مصقولة، علاوةً على عِصي منحوتة ومرايا. وُزِّعَت الأسلحة وأُشِّرَ عليها ووُقِّعَ باستلامها.

نزلَ كوميديان مشهور سابقًا، كان يُعتقَد أنه ماتَ في العشرينيَّات، من سيَّارته الصَّدئة وشرعَ يخلع ثيابه. ساقاه ساقا كبش، وذيله قصير كذيول الماعز.

حضرَ أربعة مكسيكيِّين بابتساماتٍ تتصدَّر وجوههم وشعرٍ أسود لامع فوق رؤوسهم، وراحوا يتناوَلون فيما بينهم زُجاجةَ بيرة أخفوها عن الأنظار في كيسٍ ورقي بنِّي، محتوياتها مزيج مُر من الشُّكولاتة المطحونة والخمر والدَّم.

قاطعًا الحقول، أقبلَ عليهم رجل صغيرُ الحجم داكن اللِّحية يعتمر قبْعَةَ دِربي، ويضع شال صلاةٍ مهدَّبًا مهترئًا، ويتجعَّد سالفاه على طريقة الپيئوت. "״״ تحرَّك الرَّجل متقدِّمًا بعدَّة أقدامٍ على رفيقه، الذي يَبلُغ ضعفَي قامته طولًا، وتتلوَّن بشرته بلون الصَّلصال الپولندي الرَّمادي المصمت الممتاز، وتعني الكلمة المنقوشة على جبهته «الحقيقة».

ظلُّوا يتوافَدون. توقَّفت سيَّارة أجرة ونزلَ منها عدد كبير من الراكشاسا، شياطين شبه القارَّة الهنديَّة، وتسكَّعوا رامقين المجتمعين عند سفح الجبل دون كلام، إلى أن وجدوا ماما-چي مغمضة العينين وتتحرَّك شفتاها بالصَّلاة. إنها الشَّيء الوحيد المألوف لهم ها هنا، ومع ذلك تردَّدوا في الدُّنو منها متذكِّرين المعارك القديمة. فركَت أيديها قلادة الجماجم المحيطة

(1) الڤامپير: مصَّاص دماء بالألمانيَّة. (المُترجم).

بعُنقها، وببُطءٍ تحوّلت بشرتها البنّيّة إلى الأسود، أسود السَّبج والأبسيدين الزُّجاجي، والتوَت شفاهها لتتبدّى أسنانها البيضاء الطّويلة الماضية. ثم إنها فتحَت أعيُنَها كلَّها، وأشارَت إلى الراكشاسا بالدُّنو، وحيَّتهم كما لو أنها تُحيّي أطفالها.

لم تُفلِح العواصف، التي هبّت على مرّ الأيام القليلة المنصرمة في الشّمال والشّرق، في تخفيف الشّعور بالضّغط والضّيق في الهواء. كان مذيعو النّشرات الجوّيّة المحليُّون قد بدأوا يُحذّرون من خلايا قد تُولّد أعاصير قمعيّة، ومن بقاعٍ عالية الضّغط لا تتحرّك. الطّقس دافئ نهارًا هناك، لكن اللّيالي باردة.

تكتّلوا معًا في مجموعاتٍ غير رسميّة، يتجمّعون حسب الجنسيّة أحيانًا، أو العرق، أو المزاج، أو حتى الصّنف.

وبدوا مهمومين، وبدوا متعَبين.

تجاذبَ بعضهم أطراف الحديث، وبين الفينة والفينة سُمِعَ ضحك لكنه متقطّع مكتوم، وتناولَ بعضهم عُلب البيرة من بعض.

أعداد كبيرة من الرِّجال والنّساء المحلّيّين أتَت ماشيةً عبر المروج، تتحرّك أجسادهم حركاتٍ غير مألوفة، وإذا تكلّموا خرجَت أصوات أرواح اللُّوا التي تتلبّسهم. رجل أسود فارع تكلّم بصوت پاپا لِجبا[1] الذي يفتح البوّابات، في حين استولى البارون سامدي -الڤودُن سيّد الموت- على جسد فتاةٍ مراهقة ڤوطيّة من تشاتانوجا، ربما لأنها تملك قبّعةً سوداء من الحرير تستقرُّ فوق شعرها الأسود بزاويةٍ مرحة. تكلّمت الفتاة بصوت البارون العميق، ودخّنت سيجارًا ضخمًا، وقادَت ثلاثةً من الجيدي[2] -لُوا الموتى- الذين احتلّوا أجساد ثلاثة إخوةٍ في منتصَف العُمر، وقد حملوا البنادق وما انفكّوا يُلقون نكاتٍ مذهلة البذاءة، لدرجة أنهم الوحيدون الذين ضحكوا منها بصخَبٍ متكرّر.

تجوّلت امرأتان من التشيكاماوجا لا تتقدّمان في السِّن في أرجاء المكان مرتديتيْن الجينز الأزرق وسُترتين من الجلد البالي، تُشاهِدان الموجودين

---

(1) پاپا لِجبا: إله محتال عُبِدَ في مملكة داهومي الإفريقيّة، وبعد ذلك في هايتي. (المُترجم).

(2) اللُّوا: أرواح الڤودُن، والجيدي هي عائلة الأرواح المقرونة بالموتى والخصوبة. من بين اللُّوا البارون سامدي الذي عُبِدَ باعتباره إلهًا للموتى. (المُترجم).

واستعدادات المعركة، أحيانًا تُشيران وتضحكان، إذ لا تنويان المشاركة في الصِّراع الآتي.

تضخَّم القمر وارتفعَ في الشَّرق، يفصله يوم واحد عن تمامه بدرًا، وبينما طلعَ بدا كأنما يُماثِل نصف السَّماء حجمًا، لونه برتقالي ضارب إلى الحُمرة القانية فوق التِّلال مباشرةً، وإذ قطعَ السَّماء بدا أنه ينكمِش ويشحب إلى أن تعلَّق عاليًا مثل القنديل.

أعداد غفيرة منهم كانت منتظرةً هناك في نور القمر عند سفح جبل لوكاوت.

---

كانت لورا ظمأى.

تارةً يُضيء الأحياء بثباتٍ في عقلها مثل الشُّموع، وتارةً يتَّقدون مثل المشاعل، وهو ما يُسهِّل تحاشيهم، وأحيانًا يُسهِّل العثور عليهم. أمَّا شادو فيشتعل بلهبٍ غريب جدًّا، بضوئه الذَّاتي فوق تلك الشَّجرة.

في مرَّةٍ أنَّبته، في ذلك اليوم الذي تمشَّيا فيه متعانقَي اليدين، أنَّبته لكونه ليس حيًّا، آملةً أن ترى ولو شرارةً من المشاعر الصِّرفة، شيئًا يُريها أن الرَّجل الذي تزوَّجته يومًا رجل حقيقي، رجل حي، ولم ترَ شيئًا على الإطلاق.

تَذكُر المشي إلى جواره راجيةً أن يفهم ما تُحاوِل قوله.

والآن إذ يُحتضَر فوق الشَّجرة، يضطرم شادو حياةً. لقد شاهدَته والحياة تذوي منه، وكان مركَّزًا وحقيقيًّا، وطلبَ منها البقاء معه، البقاء اللَّيلة بطولها. وسامحَها شادو... ربما سامحَها. لا يهمُّ. لقد تغيَّر، وهذا هو كلُّ ما تعرفه.

شادو قال لها أن تذهب إلى منزل المزرعة، إنهن سيُعطينها ماءً تشربه هناك. لا أضواء مشتعلة في المبنى، ولا تستشعِر وجود أحدٍ هناك، لكنه قال لها إنهن سيعتنين بها، وهكذا دفعَت باب منزل المزرعة، وانفتحَ ومفصلاته الصَّدئة تضجُّ بالاعتراض طوال الوقت.

تحرَّك شيء ما في رئتها اليُسرى، شيء انحشرَ وتلوَّى وجعلَها تَسعُل.

وجدَت نفسها في رُواقٍ ضيِّق، طريقها شبه مسدودٍ ببيانو طويل مغبَّر، وقد فاحَت في داخل المبنى رائحة الرُّطوبة القديمة. اعتصرَت جسدها متجاوزةً البيانو، وفتحَت بابًا لتجد نفسها في حُجرة استقبالٍ خربة ملأى

بالأثاث المتهالك. فوق رفِّ المدفأة مصباح زيتٍ مشتعل، وتحته في المدفأة نفسها نار موقدة في فحم، مع أنها لم ترَ أو تشمّ دُخانًا خارج المنزل. لم تفعل نار الفحم شيئًا لطرد البرودة التي أحسّت بها لورا في الحُجرة، وإن كانت على استعدادٍ للتّسليم بأن هذه ليست غلطة الحُجرة بالضرورة.

يُؤلِم الموت لورا، ولو أن الألم يتكوّن في الغالب من الغياب، من الأشياء التي تفتقِر إليها. في داخلها عطش عنيف يستنزِف كلَّ خليّةٍ من خلاياها، وبرد في عظامها لا تقدر حرارة على طرده. أحيانًا تضبط نفسها تتساءل إن كان من شأن لهب محرقةٍ وقّاد أن يُدفئها، أو دثارٍ ناعم من التُّربة البنيّة، تتساءَل إن كان بإمكان البحر البارد إطفاء عطشها...

أدركَت أن الحُجرة ليست خالية.

على أريكةٍ عتيقة تجلس ثلاث نساءٍ باديات كأنما أتين في مجموعةٍ متوافقة بمعرضٍ فنّي عجيب. الأريكة منجَّدة بمخملٍ مهلهل، ربما كان لونه البنّي الباهت ذات يومٍ قبل مئة عامٍ أصفر كناري فاقعًا، والنّساء يرتدين تنانيرَ وكنزاتٍ متماثلةً لونها رمادي ضبابي، وأعيُنهن غائصة للغاية في أوجُههن. وبياض بشرتهن كالعظم الطّازج. الجالسة عن يسار الأريكة عملاقة، أو شبه عملاقة، والجالسة عن اليمين أكبر قليلًا من قزمة، وبينهما امرأة علمَت لورا يقينًا أنها تُساويها طولًا. تابعَتها النّسوة بأعيُنهن إذ دخلَت الحُجرة، ولم يتكلَّمن.

لم تكن لورا تعرف أنهن سيكن هنا.

تلوَّى شيء ما وسقطَ في تجويفها الأنفي، ونقَّبت لورا في كُمِّها عن منديلٍ ورقي وتمخَّطت فيه، ثم كوَّرت المنديل وألقته بمحتوياته فوق فحم النّار، وشاهدَته يتجعَّد ويسودُّ ويتحوَّل إلى دانتلَّة برتقاليَّة مخرَّمة، وشاهدَت اليرقات تتغضَّن وتسمرُّ وتحترق.

بعد ذلك عادَت تلتفت إلى الجالسات على الأريكة. منذ دخولها لم يتحرَّكن البتَّة، لا عضلة ولا شعرة، واكتفَين بالتَّحديق إليها.

قالت لورا: «مرحبًا. أهذه مزرعتكن؟».

أومأت أكبرهن برأسها إيجابًا. يداها شديدتا الاحمرار، والتَّعبير على وجهها جامد.

- «شادو... الرَّجل المعلَّق على الشَّجرة. إنه زوجي. قال أن أخبركن أنه يُريدكن أن تُعطينني ماءً».

تحرَّك شيء كبير في أحشائها وتمعَّج، ثم سكَنَ.

أومأت أصغرهن برأسها وقامَت من فوق الأريكة (لم تكن قدماها تلمسان الأرض وهي جالسة)، وخرجَت مسرعةً.

سمعَت لورا أبوابًا تُفتح وتُغلَق في أنحاء منزل المزرعة، ثم سمعَت من الخارج سلسلةً من الصرَّات العالية، يتبع كلًّا منها صوت ماءٍ يتناثر.

وبعد قليلٍ رجعَت المرأة الصَّغيرة حاملةً كوز ماءٍ من الفخَّار، وضعَته بحرصٍ فوق المنضدة ثم تراجعَت إلى الأريكة من جديد، حيث سحبَت نفسها إلى أعلى متلوِّيةً مرتجفةً، وعادَت تجلس بجوار أختيْها.

قالت لورا: «شكرًا»، وذهبَت إلى المنضدة باحثةً عن كأسٍ أو كوب، إلَّا أنها لم ترَ شيئًا من ذلك، فالتقطَت الكوز لتجده أثقل مما يبدو، والماء في داخله في منتهى الصَّفاء.

ورفعَت الكوز إلى شفتيها وبدأت تشرب.

ألفَت الماء باردًا برودةً لم تتخيَّلها للماء السَّائل، برودةً جمَّدت لسانها وأسنانها وحُلقومها، ومع ذلك شربَت عاجزةً عن التَّوقُّف، شاعرةً بالماء يجري مجمِّدًا في طريقه إلى معدتها، إلى أحشائها، إلى قلبها، إلى عروقها.

تدفَّق الماء في داخلها، كأنها تشرب جليدًا سائلًا.

ثم أدركَت أن الكوز فرغَ، ومدهوشةً وضعَته فوق المنضدة.

كانت النِّساء يُراقِبنها بلا مشاعر. منذ موتها لم تُفكِّر لورا بالمجازات؛ الأشياء إمَّا تكون وإمَّا لا تكون، لكن الآن إذ نظرَت إلى الجالسات على الأريكة وجدَت نفسها تُفكِّر في هيئة محلِّفين، في عُلماءٍ يلحظون حيوانات التَّجارب.

وعلى حين غرَّةٍ انتابَتها رجفة متشنِّجة. مدَّت يدها إلى المنضدة لتُثبِّت نفسها، لكن المنضدة انزلقَت وتمايلَت، وكادَت تتملَّص من قبضتها، وبينما وضعَت يدها على المنضدة بدأت لورا تتقيَّأ، تُفرغ معدتها من المِرَّة والفُرمالين، من اليرقات وأمَّهات أربع وأربعين، ثم أحسَّت بأحشائها تَفرُغ من محتوياتها، وبمثانتها أيضًا، بأشياءَ مبتلَّةٍ تُطرَد بعُنفٍ من داخل جسدها. كانت لتَصرُخ لو استطاعَت، لكن ألواح الأرضيَّة المغبَّرة ارتفعَت لتضربها بكلِّ سرعةٍ وكلِّ قوَّة، حتى إنها لو كانت حيَّةً لأفرغَت صدرها من الهواء.

واندفعَ الزَّمن يغمرها ويتخلَّلها، يدور كدوَّامةٍ من تُراب، وفي وجدانها استعادَت في آنٍ واحد ألف ذكرى. إنها مبتلَّة نتنة الرَّائحة على أرض منزل

المزرعة، وضائعة في المتجر متعدِّد الأقسام قبل أسبوعٍ من الكريسماس ولا ترى أباها في أيِّ مكان، والآن تجلس في بار «تشي-تشي» وتطلُب داكري الفراولة وتتفحَّص الرَّجل الطِّفل الجاد الكبير الذي أتى إلى موعدهما الغرامي العمياني متسائلةً إن كان يُجيد التَّقبيل، وإذا بها في السيَّارة التي تنقلب وتتدحرج بحركةٍ مغثية، ورُبي يصرخ فيها إلى أن أوقفَ العمود المعدني السيَّارة أخيرًا -ولكن ليس راكبيْها- عن الحركة...

مياه الزَّمن التي تأتي من نبع القدر، أي من بئر أورد، ليست مياه حياة، ليس بالضَّبط. على أنها تروي جذور شجرة العالم. وليس كمثلها مياه.

عندما استيقظَت لورا في حُجرة منزل المزرعة الخالية كانت ترتجف، وخرجَت أنفاسها بُخارًا فعليًّا في هواء الصَّباح. على ظَهر يدها خدش. وعلى الخدش لطخة بليلة بلون الدَّم الطازج البرتقالي المحمر.

وعلمَت أين عليها الذَّهاب. لقد شربَت من مياه الزَّمن التي تأتي من نبع القدر، وباستطاعتها رؤية الجبل في مخيِّلتها.

لعقَت الدَّم عن ظَهر يدها متعجِّبةً من طبقة اللُّعاب، ثم باشرَت المشي.

كان يومًا بليلًا في مارس، باردًا بردًا غير معتادٍ في هذا الموسم، وقد ثارَت عواصفُ الأيام القليلة الماضية شاقَّةً طريقها عبر الولايات الجنوبيَّة، وهو ما يعني أن السُّيَّاح الحقيقيِّين في مدينة الصُّخور فوق جبل لوكاوت قلَّة قليلة للغاية. كانت أضواء الكريسماس قد أزيلَت، ولم يبدأ زُوَّار الصَّيف في الوصول بعدُ.

ومع ذلك في المكان عدد من النَّاس الحقيقيِّين، بل وتوقَّفت حافلة رحلاتٍ في الصَّباح مُنزلةً دستةً من الرِّجال والنِّساء ببشراتٍ مسمَّرة مثالية وابتساماتٍ مُطَمْئِنَة لامعة. بدوا كمقدِّمي النَّشرات الإخباريَّة، وكان المرء ليكاد يتخيَّل أن لهم طابعًا من النِّقاط الفسفوريَّة، إذ بدوا كأنما يتشوَّشون نوعًا حينما يتحرَّكون. في موقف السيَّارات الأمامي الخاص بمدينة الصُّخور كانت «همڤي» سوداء مركونةً قُرب روكي، النُّوم[1] الأنيماتروني.

(1) النُّوم: تمثال لقزمٍ يُستخدَم لتزيين الحدائق، مستوحى من مخلوق من الأساطير الجرمانيَّة. (المُترجِم).

تحرّك أناس التليفزيون في مدينة الصُّخور والاهتمام البالغ بادٍ عليهم، ممركزِين أنفُسهم على مقربةٍ من الصَّخرة المتوازنة، حيث تبادلوا الكلام بأصواتٍ رشيدة باشَّة.

ولم يكن هؤلاء الزُّوَّار الوحيدين. لو أنك سلكت طُرقات مدينة الصُّخور في ذلك اليوم فلربما لاحظت أناسًا يبدون كنجوم السينما، وأناسًا يبدون كالكائنات الفضائيَّة، وعددًا ممَّن يبدون في الأغلب الأعم كفكرةٍ عن شخصٍ ولا يمتُّون بصلةٍ للواقع. ربما كنت لتراهم، لكن الأرجح أنك ما كنت لتلحظهم إطلاقًا.

جاؤوا إلى مدينة الصُّخور راكبين الليموزينات الطَّويلة والسيَّارات الرِّياضيَّة الصَّغيرة وعربات الـ SUV الضَّخمة، يضع كثيرون منهم نظَّارات الشَّمس التي يضعها اعتياديًا مَن يضعون نظَّارات الشَّمس على أعيُنهم في الدَّاخل والخارج، ولا يخلعونها طواعيةً أو بارتياح. كانت وجوه مسمرَّةً من الشَّمس، وبِدَل ونظَّارات شمس وابتسامات وتكشيرات، وجاءَ هؤلاء بجميع الأحجام والأشكال، وجميع الأعمار والطُّرز.

كلُّ المشترَك بينهم نظرة، نظرة معيَّنة جدًّا تقول: *أنت تعرفني*، أو ربما: *المفروض أن تعرفني*. أُلفةٌ فوريَّةٌ هي أيضًا مسافة، أو نظرة، أو سلوك... الثِّقة بأن العالم وُجِدَ من أجلهم، وبأنه يُرحِّب بهم، وبأنهم معشوقون.

تحرَّك الفتى البدين بينهم جارًّا قدميه كمَن أحرزَ نجاحًا يتجاوَز أحلامه على الرغم من عدم تمتُّعه بمهاراتٍ اجتماعيَّة، يُرَفرِف معطفه الأسود في الرِّيح.

في «ساحة الإوزَّة الأُم»، عند كُشك المياه الغازيَّة، تنحنحَ شيء ما ليجذب انتباه الفتى البدين، شيء عملاق تَبرُز نصال المباضع من أصابعه ووجهه، ووجهه هذا سرطاني. بصوتٍ غروي قال للفتى البدين: «ستكون معركةً عظيمةً».

- «لن تقع معركة. لسنا نُواجِه هنا إلَّا تحوُّلًا نموذجيًّا لعينًا. إنها إعادة تنظيم جذريَّة. الأنماط اللُّغويَّة على غرار «معركة» تليق بلاو تسو[1] اللَّعين».

---

(1) لاو تسو: فليسوف صيني يُعَدُّ مؤسِّس الطاويَّة، التي تدعو للمعيشة في إخاء وانسجامٍ مع الكون. (المُترجم).

حملقَ إليه الشَّيء السَّرطاني، ولم يقل ردًا إلَّا: «أنتظِرْ».

قال الفتى البدين: «أيًا كان»، ثم: «إنني أبحثُ عن المستر ووِرلد. هل رأيته؟».

حكَّ الشَّيء نفسه بنصل مبضع، ومطَّ شفةً سُفليَّةً ورميَّةً بتركيز، ثم أومأ برأسه قائلًا: «هناك».

ابتعدَ الفتى البدين من غير أن يَشكُره، متحرِّكًا في الاتِّجاه المشار إليه، وانتظرَ الشَّيء السَّرطاني بصمتٍ حتى غابَ الفتى عن نظره.

ثم قال الشَّيء السَّرطاني لامرأةٍ تُلطِّخ وجهها نقاط الفسفور: «المعركة واقعة».

أومأت برأسها ومالَت مقتربةً منه، وبنبرةٍ متعاطفة سألَته: «وبِمَ يُشعِرك ذلك؟».

حملقَ إليها الشَّيء، ثم بدأ يُخبِرها.

تحتوي سيَّارة تاون الـ «فورد إكسبلورر» على نظام تموضُع عالمي، صندوق فضِّي صغير يُصغي إلى الأقمار الصِّناعيَّة ثم يهمس للسيَّارة بموقعها، ومع ذلك ضلَّ تاون الطَّريق بمجرَّد أن أصبحَ جنوبَ بلاكسبرج وبدأ يَسلُك الطُّرق الرِّيفيَّة، والطُّرق التي سلكها تبدو علاقتها بالخطوط المتشابكة المعروضة على الشَّاشة محدودة. في النِّهاية أوقفَ السيَّارة على طريقٍ ريفي ضيِّق وأنزلَ النَّافذة ليسأل امرأةً بيضاء سمينةً، يجرُّها كلب صيد دِبَبٍ في تمشيته الصَّباحيَّة، عن إرشادات الطَّريق إلى مزرعة آشتري.

أومأت برأسها وأشارَت وأخبرَته بشيءٍ ما. لم يفهم ما قالته، إلَّا أنه قال شكرًا جزيلًا ورفعَ النَّافذة وتحرَّك في الاتِّجاه العام الذي أشارَت إليه.

استمرَّ في القيادة أربعين دقيقةً أخرى، يشقُّ الطَّريق الرِّيفي تلو الطَّريق الرِّيفي، جميعها واعدٌ ولا واحد منها المنشود. بدأ تاون يَمضُغ شفته السُّفلى.

- «كبرتُ جدًّا على هذا الخراء». قالها متلذِّذًا بما تحمله العبارة من رنينٍ يوحي بالضَّجر من العالم يليق بنجوم السينما.

يدنو تاون من الخمسين. معظم حياته العمليَّة قضاه في شُعبةٍ من الحكومة معروفة فقط بالأحرُف الأولى من اسمها، أمَّا تركه وظيفته الحكوميَّة

من عدمه -قبل دستةٍ من الأعوام لينخرط في القطاع الخاص- فمسألة رأي، ففي بعض الأيام يحسب هذا، وفي بعضها يحسب ذاك. على كلٍّ حال، لا يبدو إلّا على مستوى مواطن الشّارع العادي أن أحدًا يفترض وجود فرق.

كان على وشك اليأس من العثور على المزرعة عندما صعدَ تلًّا ورأى اللّافتة المرسومة بخطّ اليد على البوّابة، تقول ببساطة، كما قيل له: «آش». أوقفَ الـ «فورد إكسبلورر» ونزلَ وفكَّ السّلك الذي يُثبّت البوّابة المغلقة، ثم عادَ إلى السيّارة ودخلَ.

فكّر أن الأمر مثل طبخ الضّفادع: تضع الضّفدعة في الماء ثم تُشعِل الموقد، ولدى ملاحظة الضّفدعة أن شيئًا ما ليس على ما يُرام تكون قد طُبِخَت بالفعل. العالم الذي يعمل فيه بالغ الغرابة، لا أرض صُلبة تحت قدميه، والماء في القِدر يُبَقبِق ويغلي.

حين نُقِلَ إلى الوكالة بدا كلُّ شيءٍ في غاية البساطة، أمّا الآن فكلُّ شيء... ليس معقّدًا، بل غريب غرابةً محضةً. في الثّانية من صباح اليوم كان جالسًا في مكتب المستر وورلد، حيث أُملِيَ عليه ما سيفعله. ناولَه المستر وورلد السكّين في غِمده الجلدي الدّاكن قائلًا: «مفهوم؟ اقطع لي عصا. ليس ضروريًّا أن تكون أطول من قدمَيْن».

قال تاون: «عُلِم»، ثم سألَ: «لِمَ يجب أن أفعل ذلك يا سيّدي؟».

بنبرةٍ قاطعة قال المستر وورلد: «لأنّي قلتُ لك أن تفعله. اعثُر على الشّجرة. نفِّذ المهمّة. قابِلني في تشاتانوجا. لا تُضيِّع وقتًا».

- «وبخصوص السّافل؟».

أجابَ المستر وورلد: «شادو؟ إذا رأيته فتجنّبه. لا تلمسه. لا تعبث معه بأيّ شكل. لا أريدك أن تصنع منه شهيدًا. لا متّسع للشُّهداء في خطّة اللُّعبة الحاليّة»، ثم ابتسمَ ابتسامته النّدبية. سهلةٌ التّسلية عند المستر وورلد، وهو ما لحظَه المستر تاون في عدّة مناسبات. لقد سلّاه أن يلعب دور السّائق الخصوصي في كانساس رغم كلّ شيء.

- «واسمع...».

- «لا شُهداء يا تاون».

وأومأ تاونَ برأسه مذعنًا، وأخذَ السكّين بغِمده الجلد، ودفنَ السُّخط الذي تصاعدَ بداخله بعيدًا في أغوار نفسه.

أمسَت الكراهية التي يحملها المستر تاون لشادو جزءًا منه. عندما يأوي إلى النَّوم يرى وجه شادو الجاد، يرى تلك الابتسامة التي ليست بابتسامة، الطَّريقة التي يبتسم بها شادو من غير أن يبتسم، وتجعل تاون يرغب في خرق أحشاء الرَّجل بقبضته، وحتى وهو يغيب في النَّوم يحسُّ بفكَّيه ينكبسان وصدغيه ينشدَّان وبحُلقومه يشتعل.

قادَ الـ «فورد إكسپلورر» عبر المرج مارًا بمنزل مزرعة، ثم صعد إلى قمَّة مرتفعٍ ورأى الشَّجرة. ركنَ السيَّارة بعدها بمسافةٍ قصيرة، ثم أطفأ المحرِّك، وقالت ساعة لوحة القيادة إنها 6:38 صباحًا. تركَ المفاتيح في السيَّارة، وتقدَّم نحو الشَّجرة.

ضخمة الشَّجرة، تبدو كأنها موجودة حسب مقاييسها الخاصَّة، حتى إن تاون لم يستطِع الجزم بارتفاعها خمسين قدمًا أم مئتين، ولحاؤها رماديٌّ كوشاحٍ من الحرير الفاخر.

فوق الأرض بقليلٍ رجل عارٍ مقيَّد إلى الجذع بشبكةٍ من الحبال، وعند قدم الشَّجرة شيء ملفوف بملاءة. تبيَّن تاون ماهيته لدى مروره، ودفعَ الملاءة بقدمه ليُحدِّق إليه نصف الوجه الخرِب الذي تبقَّى للأربعاء. كان ليتوقَّع أن يجد الجثَّة تعجُّ بالدِّيدان والذُّباب، غير أن حشرةً لم تمسَّها، ولا تفوح منها رائحة غريبة حتى، بل تبدو بالضَّبط كما كانت عندما أخذَها إلى الموتل.

وصلَ تاون عند الشَّجرة، ودارَ قليلًا حول الجذع الغليظ بعيدًا عن أعيُن منزل المزرعة العمياء. أنزلَ سحَّاب بنطاله وتبوَّل على جذع الشَّجرة، ثم رفعَ السحَّاب. بعد ذلك مشى إلى المنزل، ووجدَ سُلَّمًا مدَّادًا من الخشب حملَه إلى الشَّجرة، حيث أسندَه إلى الجذع بحرص، ثم تسلَّقه.

تدلَّى شادو مرتخيًا من الحبال التي تُقيِّده إلى الشَّجرة. تساءلَ تاون إن كان الرَّجل لا يزال حيًّا، فصدره لا يرتفع أو ينخفض. ميْتًا أو ميِّتًا، لا يهمُّ.

بصوتٍ مسموع قال تاون: «أهلًا أيها السَّافل»، ولم يتحرَّك شادو.

بلغَ تاون قمَّة السُّلَّم واستلَّ السكِّين. وجدَ غُصنًا صغيرًا يبدو أنه يُوافِق مواصفات المستر وورلد، وراحَ يشقُّ عند قاعدته بنصل السكِّين حتى وصلَ إلى المنتصَف، ثم كسرَه بيدٍ واحدة. كان طوله نحو ثلاثين بوصةً.

أعادَ السكِّين إلى الغِمد، ثم بدأ ينزل السُّلَّم، ولمَّا صارَ قُبالة شادو توقَّف قائلًا: «يا الله، كم أكرهك». تمنَّى لو أن بمقدوره أن يُخرِج مسدَّسًا ويضربه

بالنَّار، عالمًا أنه لا يستطيع. ثم إنه سدَّد العصا في الهواء نحو الرَّجل المعلَّق بحركةٍ طاعنة. كانت لفتةً غريزيَّةً تحوي كلَّ ما في نفس تاون من إحباطٍ وغيظ، وقد تخيَّل أنه يُمسِك حربةً ويُغمِدها في أحشاء شادو.

قال بصوتٍ عالٍ: «هيَّا، حانَ وقت الذَّهاب»، ثم فكَّر: *أولى علامات الجنون أن تُكلِّم نفسك*. نزلَ بضع درجاتٍ أخرى ثم قفزَ. رمقَ العصا التي يحملها شاعرًا كأنه صبيٌّ صغير يحمل عصاه مثل سيفٍ أو حربة، وفكَّر: *كان بإمكاني أن أقطع عصا من أيَّة شجرة. لم يكن ضروريًّا أن تكون هذه الشَّجرة. مَن كان ليعلم؟*

ثم فكَّر: *المستر وورلد كان ليعلم*.

عادَ بالسُّلَّم إلى منزل المزرعة. بطرف عينه خُيِّلَ إليه أنه رأى شيئًا يتحرَّك، فنظرَ من النَّافذة إلى داخل الحُجرة المظلمة الملأى بالأثاث المكسور، التي يتقشَّر الطِّلاء الجيري عن جُدرانها، وللحظةٍ، في شبه حُلم، تخيَّل أنه يرى ثلاث نساءٍ جالساتٍ في الصَّالون المظلم.

كانت إحداهن تحوك، وإحداهن تَنظُر إليه مباشرةً، وإحداهن تبدو نائمةً. بدأت ابتسامة ترتسم على وجه مَن تُحدِّق إليه، ابتسامة ضخمة بدَت كأنما تقسم وجهها بالطُّول وتمتدُّ من الأُذن إلى الأُذن، ثم رفعَت المرأة إصبعًا تُلامِس عُنقها، وجرَت بها من جانبٍ إلى جانب.

هذا هو ما خُيِّلَ إليه أنه رآه في لحظةٍ واحدة، في تلك الحُجرة المظلمة التي لا تحتوي -كما رأى حين ألقى نظرةً ثانيةً- إلَّا على أثاثٍ قديم بالٍ وبُقع ذُبابٍ وعفنٍ جاف. لا أحد هناك على الإطلاق.

وفركَ تاون عينيه.

عادَ إلى الـ «فورد إكسبلورر» البنِّيَّة وركبَ، وألقى العصا على جلد المقعد المجاور الأبيض. أدارَ مفتاح الإشعال، ورأى ساعة لوحة القيادة تقول إنها 6:37 صباحًا. عقدَ تاون حاجبيه وألقى نظرةً على ساعة يده، التي قالت إنها 13:58.

عظيم. *إمَّا أنني قضيتُ ثمانيَ ساعاتٍ فوق تلك الشَّجرة، وإمَّا قضيتُ سالب دقيقة*. هكذا فكَّر، لكن ما اعتقدَه أن كلتا السَّاعتَيْن -في آنٍ واحد- أصابَها عُطل.

فوق الشّجرة بدأ جسد شادو ينزف. الجرح في جانبه، والدّم المنبجس منه بطيء وثخين وبلون العسل الأسود.

لم يتحرّك شادو، وإن كان نائمًا فلم يستيقظ.

غطّى السّحاب قمّة جبل لوكاوت.

جلسَت إيستر على مسافةٍ من الحشد عند سفح الجبل، تُشاهد الفجر يطلع فوق التّلال إلى الشّرق. حول معصمها الأيسر وشم لسلسلةٍ من زهور أذن الفأر الزّرقاء، وقد راحَت تَفرُكه بذهنٍ شارد بإبهامها الأيمن.

ليلة أخرى حلّت ومرّت، ولا شيء. ما زالوا يتوافَدون آحادًا ومثانيَ. جلبَت اللّيلة السّابقة كائناتٍ عديدةً من الجنوب الغربي، تضمَّنت ولدَيْن صغيرَيْن يُساوي كلٌّ منهما شجرة التُّفّاح حجمًا، وشيئًا لمحَته فقط وبدا كرأسٍ مبتور بحجم عربة «ڤولكسواجن بَج». ثم اختفوا بين الأشجار عند سفح الجبل.

لا أحد أزعجَهم، لا أحد من العالم الخارجي بدا أنه يلحظ وجودهم، حتى إنها تصوَّرت سائحي مدينة الصُّخور يَرمُقونهم من أعلى بالنظّارات المعظّمة التي تعمل بالعُملة، يَنظُرون مباشرةً إلى مخيَّم آيل للسُّقوط من الأشياء والأشخاص عند سفح الجبل، ولا يرون إلّا أشجارًا وشُجيراتٍ وصخورًا.

بلغَت أنفها رائحة دُخانٍ من نار طبخ، رائحة لحمٍ مقدَّد محروق محمولة على ريح الفجر الباردة. في طرف المخيَّم القصيِّ بدأ أحدهم يعزف على الهرمونيكا، وهو ما جعلَها تبتسم وترتجف لا إراديًّا. كان معها كتاب ورقي الغلاف في حقيبة ظَهرها، وقد انتظرَت أن تُنير السّماء بما يكفي لتقرأ.

في السّماء نُقطتان تحت السُّحب مباشرةً، واحدة صغيرة وواحدة كبيرة.

مسَّت رشّة من ماء المطر وجهها في ريح الصّباح.

خرجَت من المخيَّم فتاة حافية آتيةً في اتّجاهها، وتوقّفت بجوار شجرة ورفعَت تنُّورتها وقرفصَت، ولمّا فرغَت نادَتها إيستر، فأقبلَت الفتاة.

قالت الفتاة: «صباح الخير أيتها السيِّدة. المعركة ستبدأ قريبًا»، ولمسَت حافة لسانها الوردي شفتيها القرمزيّتين. تُثبِّت قطعة من الجلد جناح غُرابٍ أسود إلى كتفها، وحول عُنقها سلسلة تتدلّى منها قدم غُراب، وذراعاها موشومتان بالأزرق بخطوطٍ ونقوشٍ وعُقدٍ منمَّقة.

- «كيف عرفتِ؟».

ابتسمَت الفتاة ابتسامةً عريضةً مجيبةً: «أنا ماخا، واحدة من الموريجَن.[1] عندما تُقبِل الحرب أشمُّ رائحتها في الهواء. إنني ربَّة حرب، وأقولُ إن دماءً ستُسفَك اليوم».

قالت إيستر: «أوه. طيِّب، ليكن إذًا». كانت تُشاهِد النُّقطة الثَّانية إذ هوَت نحوهما ساقطةً كصخرة.

تابعَت الفتاة: «وسنُقاتِلهم، وسنَقتُلهم عن آخِرهم، وسنأخذ رؤوسهم غنائمَ، وستأكل الغِربان أعيُنهم وجثثهم».

أصبحَت النُّقطة طائرًا مبسوط الجناحيْن، يركب ريح الصَّباح العاصفة أعلاهما.

حنَت إيستر رأسها جانبًا، وسألَت: «أهذه معرفة خفيَّة تخصُّ ربَّات الحرب؟ مجمل مسألة مَن سينتصر؟ ومَن سيَحصُل على رأس مَن؟».

أجابَت الفتاة: «لا. بإمكاني أن أشمَّ رائحة المعركة، وهذا كلُّ شيء. لكننا سننتصر، أليس كذلك؟ لا مفرَّ من النَّصر. لقد رأيتُ ما فعلوه بأبي الكلّ. إمَّا نحن وإمَّا هُم».

قالت إيستر: «نعم، أظنُّ هذا».

ابتسمَت الفتاة ثانيةً في العتمة وعادَت أدراجها إلى المخيَّم. مدَّت إيستر يدها ولمسَت فسيلة خضراء نافذةً من الأرض كنصل خنجر، وإذ لمسَتها نمَت وتفتَّحت والتوَت وتبدَّلت، حتى أصبحَت إيستر تُريح يدها على رأس زهرة توليپ خضراء. عندما تعلو الشَّمس في السَّماء ستفتح الزَّهرة بتلاتها.

رفعَت إيستر عينيها إلى الباز متسائلةً: «أيُمكنني مساعدتك؟».

دارَ الباز ببُطءٍ على ارتفاع خمسة عشر قدمًا تقريبًا فوق رأس إيستر، ثم انزلقَ على الهواء صوبها وحطَّ على الأرض قُربها، ورمقَها بعينين مجنونتين.

قالت: «أهلًا يا جميل. والآن، كيف تبدو حقًّا؟ إه؟».

تواثبَ الباز نحوها بتردُّد، ثم لم يَعُد بازًا، بل صارَ رجلًا شابًّا. نظرَ إليها، ثم إلى الأرض، وقال: «وأنتِ؟». كانت عيناه تَنظُران إلى كلِّ شيء، إلى العُشب وإلى السَّماء وإلى الشُّجيرات، ولكن ليس إليها.

---

(1) الموريجَن: ثالوث ربَّات من الميثولوچيا الأيرلنديَّة، آنا وبادب وماخا (الغُداف). (المُترجم).

– «أنا؟ وماذا عني؟».

قال: «أنت»، وتوقَّف. بدا كأنما يُحاول استجماع أفكاره إذ مرّت على وجهه تعبيرات غريبة خاطفة وسبحَت. فكَّرت إيستر: قضى وقتًا طويلًا جدًّا متحوِّلًا *إلى طائر، حتى إنه نسيَ كيف يكون رجلًا*. انتظرت بصبر، وأخيرًا قال: «هلَّا أتيتِ معي؟».

– «ربما. أين تُريدني أن أذهب؟».

– «الرَّجل فوق الشَّجرة. إنه محتاج إليكِ. جرح شبحي في جانبه. الدَّم نزفَ، ثم توقَّف. أظنُّه ماتَ».

– «الحرب دائرة. لا يُمكنني أن أهرب».

لم يقل الرَّجل العاري شيئًا. فقط تحرَّك من قدمٍ إلى قدمٍ كأنَّه لا يثق بوزنه، كأنه اعتادَ الاستقرار في الهواء أو فوق فرعِ شجرةٍ متمايل، لا على الأرض الصُّلبة الثَّابتة، ثم قال: «إذا رحلَ إلى الأبد فهي نهاية كلِّ شيء».

– «لكن المعركة...».

قال مثبِّتًا ذراعيه على جانبيه بجمود: «إذا ضاعَ فلن يهمَّ مَن ينتصر». بدا كأنما يحتاج إلى دثار، وإلى كوبٍ من القهوة المحلَّاة، وإلى أحدٍ يأخذه إلى مكانٍ ما يرتجف فيه ويُهذرِم إلى أن يستعيد عقله.

– «وأين هذا المكان؟ قريب؟».

رمقَ نبتة التوليب، وأجابَ: «بعيد جدًّا».

– «طيِّب، إنهم في حاجةٍ إليَّ هنا، ولا يُمكنني أن أغادر بتلك البساطة. كيف تتوقَّع أن أصل؟ إنني لا أستطيعُ الطَّيران مثلك».

قالَ حورس: «نعم، لا تستطيعين»، ثم نظرَ إلى أعلى بخطورة، وأشارَ إلى النُّقطة الأخرى الدَّائرة فوقهما إذ هوَت من السَّحاب الذي تتزايد ظُلمته وحجمها ينمو، وأكملَ حورس: «أمَّا هو فيستطيع».

---

عدَّة ساعاتٍ أخرى من القيادة بلا طائل، والآن يكاد تاون يكره الـGPS بقدر ما يكره شادو، ولو أن لا حرارة في كراهيته هذه. لقد حسبَ العثور على الطَّريق إلى المزرعة، إلى شجرة المُرَّان الفضِّيَّة العظيمة، صعبًا، أمَّا العثور على الطَّريق من المزرعة فألفاه أصعب مرارًا. لم يهمَّ أيُّ طريقٍ سلكَ،

أيُّ اتّجاهٍ أخذَ في السّكك الرّيفيّة الضيّقة -سِكك ڤرجينيا الخلفيّة الملتوية، التي يعتقد يقينًا أنها كانت في بداياتها دروبًا للغزلان والبقر- ففي النّهاية وجدَ نفسه يمرُّ بالمزرعة من جديد، وبلافتتها المرسومة بخطّ اليد التي تقول: «آش».

جنونٌ هذا، أليس كذلك؟ ما عليه إلّا أن يعود أدراجه وينعطف يسارًا بدلًا من كلِّ يمينٍ أخذَه في الطّريق إلى هنا، ويمينًا بدلًا من كلِّ يسار.

على أن هذا هو ما فعلَه بالضّبط آخِر مرّة، والآن ها هو ذا، عادَ عند المزرعة مرّةً أخرى. في السّماء تحتشِد سُحب رعديّة مثقلة بالأمطار، والظّلام يهبط سريعًا، حتى إنه شعرَ كأنه اللّيل لا النّهار، ولا تزال أمامه رحلة طويلة. على هذه الحال لن يصل إلى تشاتانوجا قبل العصر أبدًا.

لم يُعطِه هاتفه إلّا رسالة «خارج الخدمة»، والخريطة القابلة للطّي في دُرج القُفّازات بالسيّارة أرَته الطُّرق الرّئيسيّة، جميع الطُّرق الرّابطة بين الولايات والطُّرق السّريعة، ولكن بالنِّسبة إلى الخريطة لا شيء عدا ذلك له وجود.

ولا أحد في الجوار ليسأله. المنازل مبنيّة بعيدًا عن الطّريق، ولا أضواء مرحِّبة مشتعلة فيها. والآن يُقارِب مؤشّر الوقود الفروغ. سمعَ هزيم رعدٍ بعيد، وسقطَت قطرة مطرٍ وحيدة بثقلٍ على نافذته الأماميّة.

ولذا عندما رأى تاون المرأة السّائرة على جانب الطّريق، ابتسمَ لا إراديًّا، وقال: «حمدًا لله»، وأوقفَ السيّارة بجانبها، ثم أنزلَ النّافذة المجاورة لها قائلًا: «سيّدتي؟ معذرةً. لقد ضللتُ الطّريق. أيُمكنكِ أن تُرشِديني إلى الطّريق السّريع 81 من هنا؟».

نظرَت إليه من نافذة المقعد المجاور المفتوحة، وقالت: «لا أظنُّني أستطيعُ أن أشرح لك، ولكن يُمكنني أن أريك إذا أردت». بشرتها شاحبة، وشعرها المبتلُّ طويل داكن.

قال تاون: «اركبي». لم يتردَّد ولو لحظةً. «أوّلًا علينا شراء وقود».

قالت: «شكرًا. إنني محتاجة إلى رَكوبة»، وركبَت إلى جواره. عيناها زرقاوان إلى حدٍّ مدهش. قالت مرتبكةً: «هناك عصا على المقعد».

- «ألقيها في الخلفيّة. ما وجهتكِ؟ سيّدتي، إذا أوصلتِني إلى محطّة وقودٍ ثم إلى طريقٍ سريع فسأقلُّك حتى باب منزلك».

قالت: «أشكرك، لكن أظنُّ أن وجهتي أبعد من وجهتك. إذا أوصلتني إلى الطَّريق السَّريع فلا بأس. قد أجدُ سائق شاحنةٍ يقلُّني»، وابتسمَت ابتسامةً عازمةً معوجَّةً، وكانت هذه الابتسامة ما جعله يحزم أمره.

- «سيِّدتي، يُمكنني أن أعطيكِ رَكوبةً أفضل من أيِّ سائق شاحنة». بلغَ أنفَه عطرُها الثَّقيل الفاغم، رائحته من فرط الحلاوة مميّعة، مثل المجنوليا أو اللَّيلك، لكنه لم يُمانِع.

- «أنا ذاهبة إلى چورچيا. إنه طريق طويل».

- «أنا ذاهب إلى تشاتانوجا. سآخذكِ إلى أبعد نُقطةٍ ممكنة».

- «ممم. ما اسمك؟».

أجابَ تاون: «يدعونني بماك». حينما يُكلِّم النِّساء في البارات يُتبِع هذا أحيانًا بـ «ومَن يعرفونني حقَّ المعرفة يدعونني ببيج ماك». ولكن ليُرجئ ذلك. أمامهما ساعات طويلة من الصُّحبة ليتعارَفا. «وما اسمكِ؟».

أخبرَته: «لورا».

قال: «ليكن يا لورا. أنا واثق بأننا سنُصبِح صديقيْن قريبيْن للغاية».

---

وجدَ الفتى البدين المستر وورلد في «غُرفة قوس قزح»، وهي قطاعٌ من الطَّريق محاط بالجُدران، تُغطِّي نوافذه الزُّجاجيَّة فروخ بلاستيك شفَّاف خضراء وحمراء وصفراء. كان يرتدي معطف مطرٍ «بربري»، ويتنقَّل بصبرٍ نافد من نافذةٍ إلى نافذة، ويَنظُر من كلِّ واحدةٍ بدورها إلى عالمٍ ذهبي وعالمٍ أحمر وعالمٍ أخضر. شعره برتقالي مائل إلى الحُمرة، يُغطِّي جمجمته مقصوصًا قَصَّةً قصيرةً جدًّا.

تنحنحَ الفتى البدين، والتفتَ إليه المستر وورلد.

- «معذرةً. مستر وورلد؟».

- «نعم؟ هل يمضي كلُّ شيءٍ حسب الجدول الزَّمني؟».

كان فم الفتى البدين جافًّا. لعقَ شفتيه، وقال: «لقد جهَّزتُ كلَّ شيء، ولكن لا تأكيد عندي بخصوص المروحيَّات».

- «المروحيَّات ستأتي حين نحتاج إليها».

قال الفتى البدين: «عظيم. عظيم»، وظلَّ في مكانه، لا يقول شيئًا ولا ينصرِف. كانت على جبهته كدمة ظاهرة.

بعد فترةٍ قال المستر وورلد: «هل من شيءٍ آخَر يُمكنني فعله من أجلك؟».

صمتٌ. ثم ابتلعَ الفتى ريقه، وأومأ برأسه قائلًا: «شيء آخَر. نعم».

- «هل سيُريحك أكثر أن نُناقِشه على انفراد؟».

مرَّةً أخرى أومأ الفتى برأسه.

سارَ المستر وورلد مع الفتى إلى مركز العمليَّات في المؤخِّرة، المنصوب في كهفٍ رطب يضمُّ مجسَّمًا لپيكسيَّات ثملات يصنعن شراب ضياء القمر بمقطرة. خارج الكهف لافتة تُحذِّر السَّائحين من الدُّخول في أثناء التَّجديدات.

جلسَ الرَّجلان على مقعديْن من البلاستيك، وسألَ المستر وورلد: «كيف أساعدك؟».

- «نعم، حسن، تمام. أمران. حسن، أوَّلًا. ماذا ننتظر؟ وثانيًا. ثانيًا أصعب. اسمع. إن معنا الأسلحة، تمام؟ القوَّة النَّاريَّة. هُم معهم سيوف وسكاكين لعينة، ومطارق وفؤوس حجريَّة لعينة، وعتلات إطارات أو ما شابهَ. نحن معنا قنابل ذكيَّة لعينة!».

علَّق الرَّجل الأكبر سنًّا موضِّحًا: «قنابل لن نستخدمها».

- «أعرفُ هذا. قلتَه بالفعل. أعرفُ هذا. وهو ممكن. ولكن... اسمع، منذ تنفيذي عمليَّة المومس في لوس آنچلس أشعرُ...». ثم بترَ الفتى عبارته، وقلبَ سحنته، وبدا رافضًا للاستمرار.

- «تَشعُر بالاضطراب؟».

- «نعم. كلمة مناسبة. الاضطراب. نعم. مثل دارٍ للمراهقين المضطربين. طريف. نعم».

- «وما الذي يُشعِرك بالاضطراب بالضَّبط؟».

- «إذا قاتَلنا فسننتصر».

- «وذلك مصدر اضطراب؟ عن نفسي أجدها مسألة ظَفرٍ وابتهاج».

- «لكنهم... سينقرِضون على كلِّ حال. إنهم كحمام الزَّاجل والبَبْر التسماني، صح؟ مَن يُبالي؟ بطريقتنا هذه سيكون حمَّام دم. إذا انتظرنا بصبرٍ فسنربح كلَّ شيء».

أومأ المستر وورلد، وقال: «آه».

إنه يُتابِعه، وهذا مؤشّر جيّد. قال الفتى البدين: «اسمع، لستُ الوحيد الذي يرى هذا. لقد رجعتُ إلى الطّاقم في «راديو مودرن»، وجميعهم راغبون في التّسوية السّلميّة، وغير المادّيّين يُؤيّدون إلى حدٍّ كبير ترك قوى السّوق تتولّى المسألة. إنني... صوت العقل هنا».

- «أنت كذلك حقًّا. للأسف لديّ معلومات غير متاحةٍ لك». الابتسامة التي تلَت هذا كانت ملتويةً نديبةً.

حدَّق إليه الفتى البدين متسائلًا: «مستر وورلد، ماذا حدثَ لشفتيك؟».

تنهّد وورلد، وقال: «الحقيقة أن أحدهم خاطهما معًا[xxvii] قبل زمنٍ طويل».

- «ووه! كلام أومرتا[1] لا هزر فيه».

- «نعم. تُريد أن تعرف ماذا ننتظر؟ لِمَ لم نضرب ضربتنا ليلة أمس؟».

أومأ الفتى البدين برأسه. كان يتصبّب عرقًا، لكنه عرق بارد.

- «لم نضرب ضربتنا بعدُ لأني في انتظار عصا».

- «عصا؟».

- «بالضّبط، عصا. وهل تعرف ما سأفعله بتلك العصا؟».

هزّةُ رأسٍ بالنّفي. «حسن، سأسايرك. ماذا؟».

بجدّيّة قال المستر وورلد: «يُمكنني أن أخبرك، ولكن بعدها عليّ أن أقتلك»، ثم غمزَ، وتبخّر التّوتّر من المكان.

بدأ الفتى البدين يُقهقِه، ضحكته واطئة مخنفرة في أنفه ومؤخّرة حلقه، وقال: «حسن. هِي هِي. حسن. هِي. مفهوم. وصلَت الرّسالة إلى الكوكب التقني. واضحة ومسموعة. غطّ على الأسئلة».

هزّ المستر وورلد رأسه، وأراحَ يدًا على كتف الفتى البدين قائلًا: «أتُريد أن تعرف حقًّا؟».

- «أكيد».

قال المستر وورلد: «طيّب، بما أننا صديقان، فهذه هي الإجابة: سآخذُ العصا، وسألقيها فوق الجيشين حينما يلتحمان، وبينما ألقيها ستتحوّل

---

(1) الأومرتا: عُرف الصّمت والطّاعة والخضوع عند المافيا الإيطاليّة. (المُترجم).

إلى حربة، ثم عندما تشقُّ الحربة الهواء فوق المعركة سأصيحُ: أهدي هذه المعركة إلى أودِن».

- «هَه؟ لماذا؟».

أجابَ المستر وورلد: «القوَّة»، وحكَّ ذقنه متابعًا: «والطّعام. مزيج من الاثنين. نتيجة المعركة لا تهمُّ. ما يهمُّ هو الفوضى، المذبحة».

- «لا أفهمُ».

قال المستر وورلد: «دعني أريك. هذا هو ما سيَحدُث بالضَّبط. تفرَّج!»، وأخذَ سكِّين صيدٍ خشبي المقبض من جيب معطفه الـ «بِربري»، وبحركةٍ واحدة سلسة أغمدَ النَّصل في اللَّحم الطَّري تحت ذقن الفتى البدين، ودفعَه بقوَّةٍ إلى أعلى نحو المُخِّ، وبينما غاصَ النَّصل قال: «أهدي هذه الميتة إلى أودِن».

سالَ على يده شيء ليس دمًا فعليًّا، وارتفعَ صوت شراراتٍ مطقطِقة من وراء عينَي الفتى البدين، وفاحَت في الهواء رائحة أسلاك العزل المحروقة، كأن في مكانٍ ما قابسًا عليه تحميل زائد.

ارتعشَت يد الفتى البدين متشنِّجةً، ثم سقطَ وعلى وجهه تعبير من الحيرة والبؤس.

قال المستر وورلد للهواء: «انظرْ إليه. يبدو كأنما رأى متتاليةً من الأصفار والآحاد تتحوَّل إلى سربٍ من الطُّيور زاهية الألوان ثم تطير».

ولم يأتِ ردٌّ من الرُّواق الصَّخري الخالي.

حملَ المستر وورلد الجثَّة على كتفيه كأن لا وزن لها تقريبًا، وفتحَ مجسَّم البيكسيَّات وألقى الجثَّة إلى جوار المقطرة وغطَّاها بمعطف مطرٍ أسود طويل. قرَّر أن يتخلَّص منها هذا المساء، وابتسمَ ابتسامته النَّديبة. إخفاء جثَّةٍ في ميدان معركةٍ يكاد يكون في غاية السُّهولة. لا أحد سيُلاحِظ، لا أحد سيكترث.

لفترةٍ قصيرة سادَ الصَّمت في المكان، ثم تنحنحَ في الظِّلال صوت أجش لم يَخرُج من حلق المستر وورلد، وقال: «بداية جيِّدة».

# الفصل الثّامن عشر

*حاوَلا منع الجنود، لكن الرِّجال أطلَقوا النّار وقتلوهما. الأغنيّة إذًا مخطئة بشأن السّجن، لكن هذا الجزء أضيفَ للضّرورة الشّعريّة. في الشّعر لا تُوصف الأشياء كما هي في الواقع دومًا. الشّعر ليس شيئًا يُمكنك اعتباره حقيقةً، فليس في الأبيات متّسع.*

- تعليق مغنٍّ على «بالاد سام باس»، **خزانة الفلكلور الأمريكي**

لا شيء من هذا يُمكن أن يكون حادثًا حقًّا. إن كان ذلك سيُريحك أكثر، فلك ببساطةٍ أن تُفكّر في الأمر باعتباره مجازًا، ففي النّهاية الأديان في جوهرها مجازات؛ الإله حُلم، أمل، امرأة، ساخر، أب، مدينة، منزل متعدّد الغُرف، ساعاتي تركَ ميقاتيّته الثّمينة في الصّحراء، أحد يحبُّك... بل وحتى -رغم غياب كلّ دليل- وجود سماوي اهتمامه الوحيد ضمان فلاح فريق كُرة القدم الذي تُشجّعه، أو جيشك، أو تجارتك، أو زواجك، ضمان ازدهار أيٍّ من هذه الأشياء وانتصارها على كلّ عائق.

الأديان أماكن للوقوف والنّظر والتّصرُّف، نقاط تفوُّقٍ يُعايَن منها العالم.

إذًا لا شيء من هذا حادث، فمثل تلك الأشياء لا يُمكن أن يقع الآن في هذا العصر. ولا كلمة واحدة منه حقيقيّة، مع أنه حدثَ بالفعل، وما حدثَ تاليًا حدثَ هكذا:

عند سفح جبل لوكاوت، الذي يُجاوِز بالكاد تلًا طويلًا جدًّا، اجتمعَ رجال ونساء حول نارٍ صغيرة في المطر، يقفون تحت الأشجار التي تُزوِّدهم بوقايةٍ رديئة، ويتجادَلون.

ببشرتها السُّوداء كالمِداد وأسنانها البيضاء الحادَّة قالت السيِّدة كالي: «حانَ الوقت».

وبقُفَّازين أصفرَيْن كاللَّيمون وشعرٍ تزحف عليه الفضَّة هزَّ أنانسي رأسه، وردَّ: «باستطاعتنا الانتظار. ما دامَ باستطاعتنا الانتظار فعلينا الانتظار».

صدرَت همهمة معارضةٍ من المجتمعين.

- «لا، اسمعوا. إنه مُحق». قالها شيخ شعره رمادي كالحديد، تشرنوبوج الذي يحمل مرزبةً صغيرةً مُسندًا رأسها إلى كتفه. «إنهم يتمتَّعون بالأرض المرتفعة، والطَّقس ضدنا. إنه لجنون أن نبدأ الآن».

زامَ شيء يُشبِه الذِّئب قليلًا والرَّجل أكثر قليلًا، وبصقَ على أرض الغابة قائلًا: «أيُّ وقتٍ أفضل لمهاجمتهم يا ديدوشكا؟[1] هل ننتظر حتى يصفو الطَّقس ويتوقَّعون الهجوم؟ أقولُ أن نذهب الآن، أقولُ أن نتحرَّك».

علَّق إيشتن إله المجريِّين: «إن بيننا وبينهم سحابًا». يعتمِر الرَّجل قبَّعةً سوداء متربةً، وله شارب أسود ناعم، وابتسامة رجلٍ يكسب قوته من بيع ألواح الألومنيوم والسُّقوف والمزاريب الجديدة لكبار السِّن، ودائمًا يُغادِر البلدة بعد يومٍ من استحقاق الشِّيكات الصَّرف، سواء أتمَّ العمل أم لم يتمّ.

شبَّك رجل يرتدي بدلةً أنيقةً، لم يكن قد تكلَّم حتى الآن، يديه وخطا في ضوء النَّار ليشرح وجهة نظره بوضوحٍ واختصارٍ مفيد، وصدرَت من الجمع إشارات الموافقة وهمهماتها.

أتى صوت واحدةٍ من المحاربات الثَّلاث اللواتي يُكوِّنَّ الموريجَن، الواقفات متقارباتٍ للغاية في الظِّلال حتى إنهن أمسين مصفوفةً من الأطراف الموشومة بالأزرق وأجنحة الغِربان المتدلِّية. قالت: «لا يهمُّ إن كان الوقت مناسبًا أم لا. لقد حانَ بغضِّ النَّظر. لقد قتلونا، وسيستمرُّون في قتلنا سواء أقاتَلنا أم لم نُقاتِل. قد ننتصر. قد نموت. خيرٌ لنا الموت معًا، مهاجِمين مثل الآلهة، من الموت هاربين واحدًا تلو الواحد كالجرذان في قبو».

(1) «جدِّي» بالروسيَّة، إشارةً إلى شيخوخة تشرنوبوج. (المُترجم).

همهمةٌ أخرى تُعرِب هذه المرّة عن موافقةٍ قويّة. لقد تحدّثت بلسانهم جميعًا. حانَ الوقت.

- «الرّأس الأوّل لي». قالها رجل صيني مديد القامة[***] يُحيط بعُنقه حبل من الجماجم الضّئيلة. وبدأ يمشي بأناةٍ وعزمٍ صاعدًا الجبل، يتّكئ على عُكّازٍ في طرفه نصل معقوف مثل قمرٍ فضّي.

حتى اللا شيء لا يُمكن أن يدوم إلى الأبد.

ربما قضى هناك في اللا مكان عشر دقائق، وربما قضى عشرة آلاف عام. لا يهمُّ. الزّمن فكرة لم يَعُد في أدنى حاجةٍ إليها.

لم يَعُد يَذكُر اسمه الحقيقي، وفي هذا المكان الذي ليس مكانًا يَشعُر بأنه فارغ طاهر.

إنه بلا هيئة، وخالٍ.

إنه لا شيء.

وفي هذا اللا شيء قال صوت: «هُو-هوكا يا ابن العمّ. يجب أن نتكلّم».

وتساءلَ شيء ربما كان يومًا شادو: «ويسكي جاك؟».

أجابَ ويسكي جاك في الظّلام: «نعم. إنك رجل يَصعُب تعقُّبه وأنت ميت. لم تذهب إلى أيٍّ من الأماكن التي خطرَت لي. اضطررتُ إلى البحث في كلِّ مكانٍ قبل أن أفكّر في إلقاء نظرةٍ هنا. أخبِرني، هل عثرت على قبيلتك؟».

تذكّر شادو الرّجل والفتاة في الديسكو تحت كُرة المرايا الدوّارة، وقال: «أظنُّني عثرتُ على عائلتي، ولكن لا، قبيلتي لم أعثر عليها».

- «آسفٌ لاضطراري إلى إزعاجك».

- «لا، لستَ آسفًا. اترُكني في حالي. لقد نلتُ ما أردته. انتهيتُ».

قال ويسكي جاك: «إنهم يسعون إليك. سيُحيونك».

ردّ شادو: «لكنني انتهيتُ. كلُّ شيءٍ تمّ وانتهى».

قال ويسكي جاك: «لا وجود لشيءٍ من ذلك القبيل، لا وجود له أبدًا. سنذهب إلى داري. هل تُريد بيرةً؟».

خمّن شادو أنه قد يرغب في شُرب بيرة رغم الموقف، فقال: «أكيد».

قال ويسكي چاك: «أحضِر لي واحدةً أيضًا. ستجد مبرِّدًا خارج الباب»، وأشارَ. كانا في كوخه.

فتحَ شادو باب الكوخ بيدين بدا له أنه لم يكن يملكهما قبل لحظات، ووجدَ مبرِّدًا بلاستيكيًّا مملوءًا بكُتلٍ من جليد النَّهر القريب، وفي الجليد دستةٌ من عُلب بيرة «بَدوايزر». أخذَ عُلبتين وجلسَ في المدخل رانيًا ببصره إلى الوادي.

كانا فوق قمَّة تل، قُرب شلَّالٍ مترع بالثَّلج الذَّائب ومدد النَّهر، تنهمر مياهه على مراحل أسفلهما بسبعين قدمًا ربما، أو ربما مئة، وأشعَّة الشَّمس منعكسة على الجليد الذي يكسو الأشجار متدلِّية الفروع حول حوض الشلَّال، وقد ملأ صوت الخضخضة الهواء إذ تلاطمَت المياه وهوَت.

سألَ شادو: «أين نحن؟».

- «حيث كنتَ المرَّة السَّابقة، في داري. هل تنوي أن تُمسِك بيرتي حتى تدفأ؟ طعمها ليس جيِّدًا هكذا».

نهضَ شادو وناولَه عُلبة البيرة قائلًا: «لم يكن خارج دارك شلَّال لمَّا كنتُ هنا المرَّة السَّابقة».

لم يقل ويسكي چاك شيئًا. فتحَ عُلبة الـ «بَد» وشربَ نصفها جرعةً واحدةً طويلةً، ثم قال: «هل تَذكُر ابن أخي؟ هاري بلوچاي؟ الشَّاعر؟ لقد بادلَ سيَّارته الـ «بيووِك» بمركبتك الـ «وِنابيجو». هل تَذكُر؟».

- «أكيد. لم أكن أعرف أنه شاعر».

رفعَ ويسكي چاك ذقنه وبدا عليه الفخر إذ قال: «أفضل شاعرٍ في أمريكا كلِّها»، ثم أفرغَ بقيَّة البيرة في جوفه وجلبَ عُلبةً أخرى فيما فتحَ شادو عُلبته، وجلسَ الرَّجلان في شمس الصَّباح بالخارج فوق صخرةٍ قُرب السَّراخس الخضراء الشَّاحبة، وشاهَدا المياه السَّاقطة وشربا بيرتهما. ما زالَ على الأرض ثلج في البقاع التي لا ينجلي عنها الظِّل أبدًا.

والتُّربة مبتلَّة موحلة.

تابعَ ويسكي چاك: «هاري كان مصابًا بالسُّكَّري. هذه الأشياء تَحدُث، تَحدُث كثيرًا جدًّا. تجيؤون أنتم إلى أمريكا وتأخذون قصبنا وبطاطسنا وذُرتنا، ثم تبيعوننا رقائق بطاطس وفشارًا بالكرامل، ونمرض نحن»، ورشفَ من بيرته متأمِّلًا، ثم أردفَ: «لقد فازَ ببضع جوائز عن أشعاره. كان في منيسوتا أناس أرادوا طبع قصائده في كتاب. كان في طريقه إلى منيسوتا

بسيَّارةٍ رياضيَّة ليُقابِلهم. قبل ذلك بادلَ الـ «بيجو» بـ «مياتا» صفراء. قال الأطبَّاء إنهم يظنُّون أنه دخلَ في غيبوبةٍ في أثناء القيادة، وخرجَ عن الطَّريق ليرتطم بواحدةٍ من لافتاتكم. إنكم أكسل من أن تنظُروا أين أنتم، من أن تقرؤوا الجبال والسُّحب، ولذا تحتاجون إلى لافتات طريق في كلِّ مكان. وهكذا رحلَ هاري بلوچاي إلى الأبد، رحلَ ليعيش مع الأخ الذِّئب. وعليه قلتُ إن شيئًا لم يَعُد يُبقيني هناك، فجئتُ إلى الشَّمال. الأسماك وفيرة هنا».

- «آسفٌ بشأن ابن أخيك».

- «وأنا أيضًا. وهكذا أعيشُ هنا في الشَّمال الآن، بعيدًا عن أمراض الرَّجل الأبيض، وطُرق الرَّجل الأبيض، ولافتات طُرق الرَّجل الأبيض، و«مياتات» الرَّجل الأبيض الصَّفراء، وقشار الرَّجل الأبيض وكرامله».

- «وبيرة الرَّجل الأبيض؟».

رمقَ ويسكي چاك العُلبة قائلًا: «عندما تستسلمون أخيرًا وتعودون إلى أوطانكم اترُكوا لنا معامل الـ «بَدوايزر»».

سألَه شادو: «أين نحن؟ أأنا فوق الشَّجرة؟ أأنا ميت؟ أأنا هنا؟ حسبتُ كلَّ شيءٍ انتهى. ما الحقيقي؟».

قال ويسكي چاك: «نعم».

- «نعم؟! أيُّ إجابةٍ هذه؟».

- «إجابة جيِّدة. إجابة حقيقيَّة أيضًا».

سألَه شادو: «أأنت أيضًا إله؟».

هزَّ ويسكي چاك رأسه نفيًا مجيبًا: «أنا بطل ثقافي. إننا نفعل الهُراء نفسه الذي تفعله الآلهة، لكننا نزلُّ أكثر ولا أحد يَعبُدنا. النَّاس يحكون عنا قصصًا، لكنهم يحكون القصص التي تُسوِّئ صورتنا مثلما يحكون القصص التي نبدو فيها لا بأس بنا».

قال شادو: «فهمتُ». وبالفعل فهمَ إلى حدٍّ ما.

قال ويسكي چاك: «اسمع. هذا البلد ليس ملائمًا للآلهة. قومي تبيَّنوا هذا مبكِّرًا. أرواح خالقة أوجدَت الأرض أو صنعَتها أو تبرَّزتها، ولكن فكِّر في هذا:

مَن سيَعبُد القيُوط؟ لقد طارحَ المرأة الشّيهم[1] الغرام وانغرسَت في قضيبه إبرٌ أكثر من وسادة دبابيس. كان ليَدخُل في جدلٍ مع صخرةٍ وتغلبه الصَّخرة. نعم إذًا، قومي فكَّروا أنه قد يكون في خلفيَّة كلِّ شيءٍ خالق، روح عُظمى، ولذا نتوجَّه إليها بشكرنا؛ لأن الشُّكر دائمًا خير. لكننا لا نبني كنائس أبدًا. لم نرَ داعيًا. الأرض كانت الكنيسة، الأرض كانت الدِّين، الأرض كانت أقدم وأحكم ممَّن يطؤونها. لقد وهبَت لنا السلمون والذُّرة والجاموس وحمام الزَّاجل، وهبَت لنا الأرز البرِّي وسمك الجاحظ، وهبَت لنا الشمَّام والقرع والدِّيك الرومي. وكنا أطفال الأرض، تمامًا مثل الشّيهم والظَّربان والقيق الأزرق».

فرغَ ويسكي چاك من بيرته الثَّانية، وأشارَ نحو النَّهر في قاع الشلَّال مواصلًا: «إذا اتَّبعت هذا النَّهر مسافةً فستصل إلى البُحيرات التي ينمو فيها الأرز البرِّي. إنه أوان الأرز البرِّي. تَخرُج بزورقٍ مع صديقٍ وتُسقِط الأرز في زورقك، وتطهوه، وتُخزِّنه، وسيُقيتك وقتًا طويلًا. في أماكن مختلفة تنمو أطعمة مختلفة. إذا توغَّلت جنوبًا بما يكفي فستجد أشجار برتقال وأشجار ليمون، وتلك الثِّمار الخضراء الرَّخوة، تُشبِه الكمَّثري...».

- «الأڤوكادو».

- «الأڤوكادو، هو ذا. إنه لا ينمو هنا. هذا ريف الأرز البرِّي، ريف الموظ. ما أحاولُ أن أقوله إن أمريكا كذلك، إنها ليست بلدًا ملائمًا لنموِّ الآلهة. الآلهة لا يَحسُن نموُّها هنا. إنها مثل الأڤوكادو إذا حاولَ النُّمو في ريف الأرز البرِّي».

قال شادو متذكِّرًا: «قد لا يَحسُن نموُّها، لكنها ذاهبة إلى الحرب».

كانت هذه المرَّة الوحيدة التي رأى فيها شادو ويسكي چاك يضحك. خرجَت ضحكته أقرب إلى نباح، ولم تحمل من المرح إلَّا قليلًا. «اسمع يا شادو، إذا قفزَ أصدقاؤك كلُّهم في هاوية، فهل تقفز أيضًا؟».

- «ربما». كان شادو في مزاجٍ حُلو، ولا يحسب أن البيرة وحدها السَّبب. لم يستطِع أن يتذكَّر آخِر مرَّةٍ شعرَ فيها بنفسه نابضًا بالحياة متكاملًا لهذه الدَّرجة البليغة.

- «لن تقوم حرب».

(1) الشّيهم: حيوان قارض يتميَّز بأشواكه الحادَّة التي يستخدمها في الدِّفاع عن نفسه. حكاية القيُوط والمرأة الشّيهم من فُلكلور شعب الأپاتشي. (المُترجم).

- «ماذا إذًا؟».

سحقَ ويسكي چاك عُلبة البيرة بين يديه ضاغطًا عليها حتى بطَّطها، وقال مشيرًا إلى الشلَّال: «انظُر». كانت الشَّمس عاليةً كفايةً في السَّماء، فسقطَ ضوؤها على رذاذ ماء الشلَّال لتعلق هالةٌ من قوس قزح في الهواء، وفكَّر شادو أن هذا أجمل منظرٍ رآه في حياته على الإطلاق.

ثم قال ويسكي چاك بنبرةٍ قاطعة: «سيكون حمَّام دم».

وعندئذٍ رأى شادو الصُّورة، رآها كاملةً قاسيةً من فرط بساطتها. هزَّ رأسه، ثم شرعَ يُقَهقِه، وهزَّ رأسه ثانيةً، وتحوَّلت القهقهة إلى ضحكةٍ من أعماق الحلق.

- «أأنت بخير؟».

- «أنا على ما يُرام. لقد رأيتُ الهنود الخفيِّين. لم أرَهم جميعًا، لكنني رأيتهم على أيِّ حال».

علَّق ويسكي چاك: «إنهم هُو-تشَنك على الأرجح. لطالما كانت خيبتهم في الاختباء كبيرةً»، ثم رفعَ عينيه إلى الشَّمس قائلًا: «حانَ وقت العودة»، وقام.

قال شادو: «إنها حيلة يُنفِّذها شخصان وليست حربًا على الإطلاق. أليس كذلك؟».

ربَّت ويسكي چاك على ذراعه، وقال: «لستَ غبيًّا لتلك الدَّرجة».

عادا إلى الكوخ. فتحَ ويسكي چاك الباب، فيما تردَّد شادو، وقال: «ليتني أستطيعُ البقاء هنا معك. يبدو مكانًا طيِّبًا».

- «الأماكن الطيِّبة كثيرة. هذا هو بيت القصيد نوعًا. اسمع، الآلهة تموت حينما تُنسى، والنَّاس أيضًا، لكن الأرض لا تزال هنا، الأماكن الطيِّبة والسيِّئة. الأرض لن ترحل أبدًا، ولا أنا».

أغلقَ شادو الباب. شيء ما كان يجذبه، ومن جديدٍ عادَ وحيدًا في الظَّلام، إلَّا أن الظَّلام انجابَ، وسطعَ الضَّوء وسطعَ حتى استعرَ كالشَّمس.

ثم بدأ الألم.

كانت امرأة تمشي في مرج، ولدى مرورها تتفتَّح أزهار الرَّبيع. في هذا المكان وهذا الزَّمان سمَّت نفسها إيستر.

مرَّت بموضعٍ احتلَّه قبل زمنٍ طويل منزلُ مزرعة. حتى اليوم تظلُّ جُدران عدَّة قائمةً، تَبرُز من الحشائش وعُشب المرج كالأسنان النَّخرة. كان مطر خفيف يَسقُط، والسُّحب غائمةٌ منخفضةٌ، والأجواء باردةٌ.

بعد مسافةٍ قصيرة من البُقعة التي كان منزل المزرعة يرتفع فيها، تقع شجرة، شجرة رماديَّة فضيَّة ضخمة، أماتَها الشِّتاء حسب ما يتبدَّى للعيان، وجرداء. أمام الشَّجرة، فوق العُشب، كُتل متهتِّكة من نسيجٍ بلا لونٍ، وقد توقَّفت المرأة عند النَّسيج وانحنَت والتقطَت شيئًا أبيض ضاربًا إلى البنِّي: شظيَّةٌ متآكلةٌ للغاية من عظمةٍ ربما كانت ذات يومٍ جزءًا من جمجمةٍ بشريَّة.

ألقَت إيستر قطعة العظم أرضًا، ثم نظرَت إلى الرَّجل المعلَّق على الشَّجرة وابتسمَت بامتعاضٍ قائلةً: «حقًّا لا يُثيرون الاهتمام نفسه وهُم عرايا. نصف المُتعة فضُّ الغلاف، مثل الهدايا، والبيض».

خفضَ الرَّجل ذو رأس الباز الذي يمشي بجوارها بصره إلى ذَكره، باديًا أنه -للمرَّة الأولى- يعي عُريه، وقال: «يُمكنني النَّظر إلى الشَّمس من غير أن يطرف لي جفن».

علَّقت إيستر بنبرة طمأنة: «مهارة بالغة منك»، ثم قالت: «والآن فلنُنزِله من فوق هذه الشَّجرة».

تفسَّخت الحبال التي تُثبِّت شادو إلى الشَّجرة وتعفَّنت منذ زمنٍ طويل، وقد انحلَّت بسهولةٍ إذ شدَّها الاثنان. ارتخى الجسد المعلَّق على الشَّجرة وانزلقَ صوب الجذور، وإذ سقطَ تلقَّفاه ورفعاه وحملاه بيُسرٍ مع أنه رجل ضخم الحجم، ووضعاه على أرض المرج الرَّماديَّة.

الجثَّة فوق الكلأ باردة، ولا تتنفَّس، وفي جانبها رُقعة من الدَّم الأسود الجاف، كأنها طُعِنَت بحربة.

- «والآن ماذا؟».

أجابَت: «الآن نُدفِّئه. تعرف ما عليك أن تفعله».

- «أعرفُ. لا أستطيعُ».

- «إن لم تكن مستعدًّا للمساعدة فما كان يجب أن تستدعيني إلى هنا».

- «لكن زمنًا طويلًا جدًّا مرَّ».

- «زمن طويل جدًّا مرَّ علينا جميعًا».

- «ثم إنني مجنون جنونًا مطبقًا».

قالت: «أعرفُ»، ومدَّت يدًا بيضاء إلى حورس وتحسَّست شعره الأسود. رمقَها باهتمامٍ بالغ، ثم بدأ يلتمِع كأنما تُحيط به غشاوة سبَّبتها الحرارة.

برقَت عين الباز التي تُواجِهها بالبرتقالي كأن لهبًا اشتعلَ في داخلها، لهبًا خمدَ منذ أمدٍ طويل.

وثبَ الباز في الهواء، وارتفعَ يدور ويُحلِّق في حلقةٍ متصاعدة، يدور حول بُقعةٍ معيَّنة في السَّحاب الرَّمادي يجوز أن الشَّمس وراءها، وإذ ارتفع الباز أصبحَ نُقطةً أوَّلًا ثم نُقيطةً، ثم لا شيء على الإطلاق للعين المجرَّدة، شيئًا يُمكنك أن تتخيَّله فحسب. بدأت السُّحب ترقُّ وتتبخَّر مفسحةً المجال لرُقعةٍ من السَّماء الزَّرقاء أبلجَت منها الشَّمس. كان شُعاع الشَّمس الأوحد الذي يخترق السُّحب ويغمر المرج جميلًا، إلَّا أن الصُّورة خبَت إذ تلاشى المزيد من السَّحاب، وسرعان ما شملَت شمس الصَّباح المرج بضوئها الملهِب كأنها شمس الظَّهيرة في الصَّيف، تحرق بُخار الماء المتخلِّف من أمطار الصَّباح محيلةً إياه إلى شبُّورة خفيفة، ومحيلةً الشبُّورة إلى لا شيء.

غمرَت شمس الصَّباح الجثَّة الممدَّدة على أرض المرج بضيائها وحرارتها، وبدأت درجات من الوردي والبنِّي الدَّافئ تلمس الشَّيء الميت.

جرَّت المرأة أصابع يُمناها بخفَّةٍ على صدر الجثَّة، وتخيَّلت أنها تحسُّ برعدةٍ في صدر شادو، بشيءٍ ليس نبضة قلب، ومع ذلك... تركَت يدها هناك على صدره، فوق القلب مباشرةً، ثم خفضَت شفتيها إلى شفتَي شادو، وبدأت تُطلِق أنفاسها في رئتيه، زفيرًا وشهيقًا، ثم تحوَّلت الأنفاس إلى قُبلة، وكانت قُبلتها رقيقةً لها مذاق أمطار الرَّبيع وزهر المروج.

عادَ الجرح في جانبه ينزف دمًا جاريًا، دمًا قرمزيًّا نزَّ كما الياقوت السَّائل في ضوء الشَّمس، ثم انقطعَ النَّزيف.

لثمَت إيستر خدَّه وجبهته، وقالت: «هلمَّ. حانَ وقت الاستيقاظ. كلُّ شيءٍ حادث الآن. لستَ تُريد أن يفوتك».

اختلجَ جفناه، ثم انفتَحا، عيناه رماديَّتان لدرجة أنهما بلا لون، رماديَّتان رمادي المساء، ونظرَ إليها.

ابتسمَت، ثم رفعَت يدها عن صدره.

- «لقد أعدتِني». قالها ببُطءٍ كأنه نسيَ كيف يتكلَّم الإنجليزيَّة، وكان في صوته ألم وحيرة.

- «أجل».

- «كنتُ قد انتهيتُ. حُكِمَ عليَّ. انتهى أمري. وأنتِ أعدتِني، جرؤتِ على إعادتي».

- «أنا آسفة».

- «نعم».

اعتدلَ جالسًا ببُطء، وجفلَ ألمًا، ولامسَ جانبه، ثم بدَت عليه الحيرة، فرغم وجود قطرةٍ من الدَّم فلا جرح تحتها.

مدَّ يده، وطوَّقته بذراعها وساعدَته على النُّهوض. جالَ ببصره في أنحاء المرج كأنما يُحاوِل تذكُّر أسماء الأشياء التي يَنظُر إليها؛ الزُّهور في العُشب الطَّويل، وأنقاض منزل المزرعة، وسديم البراعم الخضراء التي تُغطِّي فروع الشَّجرة الفضِّيَّة السَّامقة.

سألته: «هل تَذكُر؟ هل تَذكُر ما تعلَّمته؟».

- «نعم. لكنه سيخبو، مثل الأحلام. أعلمُ هذا. لقد فقدتُ اسمي، وفقدتُ قلبي، وأنتِ أعدتِني».

للمرَّة الثَّانية قالت: «أنا آسفة»، ثم أتبعَت: «سيتقاتَلون قريبًا، الآلهة القُدامى والآلهة الجُدد».

- «وتُريدينني أن أحارب في صفوفكم؟ ضيَّعتِ وقتكِ».

ردَّت: «لقد أعدتك لأن هذا ما كان عليَّ أن أفعله. إنه ما أستطيعُ أن أفعله، أفضل ما أُجيده. ما تفعله أنت الآن هو ما عليك أن تفعله أيًّا كان. القرار لك. لقد أدَّيتُ دوري». وفجأةً انتبهَت إلى عُريه، وتورَّد وجهها بحُمرةٍ قرمزيَّة ملتهبة، فخفضَت بصرها وأشاحَت به.

في المطر والسَّحاب ارتفعَت الظِّلال على جانب الجبل. تقطع دروب الصَّخر.

تحرّكت ثعالب بيضاء مصاحبةً رجالًا حُمر الشَّعر يرتدون سُترات خضراء، وسارَ مينوتور برأس ثورٍ بجوار داكتِل[1] حديدي الأصابع، وعلى جانب التَّل صعدَ خنزير وقرد وغول حاد الأسنان[cxix] في صُحبة رجلٍ أزرق البشرة يحمل قوسًا مشتعلًا،[122] وذئبٌ بزهورٍ مضفورة في فروه، ورجلًا يرتدي قميصًا واقيًا من حلقات الذَّهب شاهرًا سيفًا من الأعيُن.

صعدَ أنتينوس جميل المحيًا، الذي كان محبوب الإمبراطور هادريان، على رأس جماعةٍ من ملكات الجلد[cxx] بأذرُعٍ وصدورٍ منتفخة من المنشِّطات ومنحوتة بأشكالٍ مثاليَّة.

بيبوسٍ صعدَ التَّل رجل رمادي البشرة، عينه السِّيكلوبيسيَّة الوحيدة زمرُّدة مشكَّلة مصقولة، يتقدَّم عددًا كبيرًا من الرِّجال القصار المكتنزين ذوي اللَّون الأكمد، وجوههم الجامدة متناسقة مثل منحوتات الأزتك، رجالٍ يعلمون الأسرار التي ابتلعَتها الغابات.

صوَّب قنَّاص فوق قمَّة التَّل بندقيَّته بحرصٍ نحو ثعلبٍ أبيض وأطلقَ النَّار. دوَّى انفجار، وارتفعَت سحابة من الكوردايت، وأفعمَت رائحة البارود الهواء البليل، والجثَّة جثَّة امرأةٍ يابانيَّة انفجرَ بطنها ولطَّخ وجهها الدَّم، وشيئًا فشيئًا بدأت الجثَّة تتلاشى.

وواصلَ اللَّفيف صعود التَّل، على قدمين، وعلى أربع، وبلا أقدام.

---

كانت الرِّحلة عبر ريف تنيسي الجبلي جميلةً لدرجة الغرابة متى خفَّت العاصفة، ومحطِّمةً للأعصاب متى هطلَت الأمطار. طوال الطَّريق تكلَّم تاون ولورا وتكلَّما وتكلَّما. كم هو مسرورٌ للقائها، كأنه لاقى صديقةً قديمةً، صديقةً قديمةً مقرَّبةً لم يلقَها من قبل قَطُّ. تكلَّما عن التَّاريخ والأفلام والموسيقى، واتَّضح أنها الشَّخص الوحيد -وأعني الشَّخص الآخَر الوحيد- الذي قابَله وشاهدَ فيلمًا أجنبيًّا (كان المستر تاون واثقًا بأنه إسباني، في حين لم تقلْ لورا عنه ثقةً بكونه پولنديًّا) من السِّتِّينيَّات اسمه «مخطوطة ساراجوسا»، وهو فيلم كان قد بدأ يعتقد أنه هلوسَه.

---

(1) الداكتِلوي: عِرق من الذُّكور الحدَّادين من ذرِّيَّة ريا في الأساطير الإغريقيَّة. (المُترجم).

عندما أشارَت لورا إلى أوّل حظيرة تحمل لافتة «**شاهِد مدينة الصُّخور**»، قهقهَ معترفًا بأنّ هذه وجهته، فقالت إنه خبر في غاية الرَّوعة. لقد أرادَت دومًا أن تزور أماكن مثل هذه، لكنها لم تُخصِّص وقتًا لذلك قَطُّ، ودائمًا ندمَت لاحقًا. إنها على الطَّريق الآن لهذا السَّبب، تخوض مغامرةً.

أخبرَته بأنها وكيلة سفريَّات، وبأنها منفصلة عن زوجها. أقرَّت بأن عودتهما معًا ليست في حُسبانها، وقالت إن الغلطة غلطتها.

- «لا أصدِّقُ ذلك».

تنهَّدت قائلةً: «هذا هو ما حدثَ حقًّا يا ماك. الواقع أني لم أعُد المرأة التي تزوَّجها».

قال لها إن النَّاس يتغيَّرون، وقبل أن يُفكِّر إذا به يحكي لها كلَّ ما باستطاعته أن يحكيه عن حياته، بما في ذلك أشياءَ عن وودي وستونر، وكيف كان ثلاثتهم الفُرسان الثَّلاثة، ثم قُتِلَ اثنان منهم، وإن العمل في الحكومة قد يجعل المرء أصلب في مواجهة شيءٍ كهذا، إلَّا أن ذلك لم يَحدُث على الإطلاق.

ومدَّت لورا يدًا -باردةً لدرجة أنه شغَّل مدفأة السيَّارة- واعتصرَت يده بقوَّة.

في وقت الغداء أكلا طعامًا يابانيًّا رديئًا فيما انخفضَت عاصفة رعديَّة فوق نوكسفيل، ولم يُبالِ تاون بتأخُّر الطَّعام، أو بكون الميسو باردًا، أو السوشي دافئًا.

كم أحبَّ فكرة أنها بالخارج، معه، تخوض مغامرةً.

باحَت له لورا: «لقد كرهتُ فكرة أن أبلى. كنتُ أتعفَّنُ حيث كنتُ، وهكذا خرجتُ دون سيَّارتي أو بطاقاتي الائتمانيَّة. إنني معتمدة على كرم الغُرباء، وقد قضيتُ وقتًا رائعًا. وجدتُ النَّاس طيِّبين جدًّا معي».

- «ألستِ خائفةً؟ أعني، من الممكن أن تعلقي في منطقةٍ ما، أو تتعرَّضي للسَّطو، أو تتضوَّري جوعًا».

هزَّت رأسها نفيًا، ثم قالت بابتسامةٍ متردِّدة: «لقد قابلتك، أليس كذلك؟»، فلم يجد تاون شيئًا يردُّ به.

بعد انتهاء الوجبة جريَا في العاصفة إلى سيَّارته رافعيْن صحيفتيْن باللُّغة اليابانيَّة ليُغطِّيا رأسيهما، وإذ جريَا ضحكا كتلميذَي مدرسةٍ في المطر.

عندما ركبا سألَها: «ما أبعد نُقطةٍ يُمكنني أن آخذكِ إليها؟».

أخبرَته بخجل: «سأذهبُ إلى أبعد نُقطةٍ ستذهب إليها يا ماك».

سرَّه أنه لم يستخدم هذرة البيج ماك إياها. ليست هذه امرأةً قابلها في بار ليقضي معها ليلةً واحدةً، وقد علمَ تاون هذا في روحه. ربما استغرقَ خمسين عامًا ليَعثُر عليها، لكنه وصلَ في النِّهاية، إنها هي، المرأة السِّحريَّة الجامحة ذات الشَّعر الدَّاكن الطَّويل.

هذا هو الحُب.

مع اقترابهما من تشاتانوجا قال: «اسمعي». كانت المسَّاحات تُزيح الماء عن النَّافذة الأماميَّة ملطِّخةً المدينة الغائمة. «ما رأيكِ أن أجد لكِ موتل اللَّيلة؟ سأدفعُ الأجرة. وبمجرَّد أن أوصِّل حمولتي يُمكننا أن.. يُمكننا أن نأخذ حمَّامًا معًا على سبيل البداية، نُدفِّئكِ».

قالت لورا: «فكرة ممتازة. ما الحمولة التي تُوصِّلها؟».

أخبرَها مقهقهًا: «العصا، تلك الموضوعة على الأريكة الخلفيَّة».

قالت مجاريةً: «حسن، لا تُخبِرني أيها الرَّجل الغامض».

قال لها إن الأفضل أن تنتظر في السيَّارة بموقف مدينة الصُّخور حتى يُوصِّل حمولته، وصعدَ جانب جبل لوكاوت في المطر العاصف من غير أن يتعدَّى سرعة ثلاثين ميلًا في السَّاعة، وقد شغَّل الأضواء الأماميَّة.

ركنا السيَّارة في مؤخِّرة الموقف، وأطفأ تاون المحرِّك.

سألَته لورا مبتسمةً: «مهلًا، ماك، قبل أن ننزل من السيَّارة، ألا يُمكنني أن آخذ حضنًا؟».

قال المستر تاون: «طبعًا»، وطوَّقها بذراعيه، واستكانَت على صدره فيما رسمَت قطرات المطر المنهمرة وشمًا على سقف الـ «فورد إكسبلورر». شمَّ شعرها، وتحت العطر كانت رائحة منفِّرة. هذا هو ما يفعله السَّفر على الدَّوام. قرَّر أن ذلك الحمَّام ضروري لكليهما، وتساءلَ إن كان في تشاتانوجا مكان يشتري منه كُرات الاستحمام الفوَّارة المعطَّرة التي أحبَّتها زوجته الأولى حُبًّا جمًّا.

رفعَت لورا رأسها ملتصقًا برأسه، وبشرودٍ ملَّست على خطِّ عُنقه قائلةً: «ماك... لا أنفكُّ أفكِّرُ، مؤكَّد أنك راغب بقوَّة في معرفة ما جرى لصديقيك هذين، وودي وستون، أليس كذلك؟».

أجابَ خافضًا شفتيه إلى شفتيها ليتبادَلا قُبلتهما الأولى: «بلى، بالتَّأكيد».

وهكذا أرَته.

⁂

مشى شادو على أرض المرج في دوراتٍ بطيئة حول جذع الشَّجرة، تدريجيًّا يُوسِّع دائرته، وأحيانًا يتوقَّف ويلتقط شيئًا -زهرةً أو ورقةَ شجرةٍ أو حصاةً أو غُصينًا أو نصل عُشب- ويفحصه بدقَّة، كأنه يُركِّز بالكامل على غُصينيَّة الغُصين أو ورقيَّة ورقة الشَّجرة، وكأنه يرى هذا الشَّيء أو ذاك للمرَّة الأولى.

وجدَت إيستر نفسها تتذكَّر نظرة الرَّضيع في اللَّحظة التي يتعلَّم فيها التَّركيز.

لم تجرؤ على توجيه كلامٍ إليه. لكان ذلك في تلك اللَّحظة انتهاكًا للحُرمة، ولذا اكتفَت بمشاهدته على الرغم من إنهاكها، وبالتَّساؤل.

على بُعد عشرين قدمًا تقريبًا من قاعدة الشَّجرة، وجدَ شادو كيسًا من قُماش القنَّب شبه مغطًّى بعُشب المرج الطَّويل والنَّباتات الزَّاحفة الميتة. التقطَه وحلَّ العُقدة عند رأسه وأرخى الرِّباط.

الثِّياب التي أخرجَها ثيابه، قديمة ولكن لا تزال صالحةً للارتداء. قلَّب الحذاء بين يديه، وتحسَّس نسيج القميص، وصوف السويتر، وحدَّق إلى قطع الملابس كأنما يَنظُر إليها من مسافة مليون عام.

لوقتٍ طويل نظرَ إليها، ثم ارتداها قطعةً قطعةً.

دسَّ يديه في جيوبه، وبدا حائرًا إذ أخرجَ يدًا تُمسِك ما بدا لإيستر أنه بِلية بيضاء ورماديَّة.

- «لا عُملات». أوَّل شيءٍ يقوله منذ ساعاتٍ طويلة.

ردَّدت إيستر: «لا عُملات؟».

هزَّ رأسه قائلًا: «كان مفيدًا أن أحمل عُملاتٍ. لقد مدَّتني بشيءٍ أفعله بيديَّ»، ثم انحنى لينتعِل حذاءه.

ما إن ارتدى ثيابه حتى بدا عاديًا أكثر، وإن بدا متجهِّمًا أيضًا. تساءلت كم المسافة التي سافرَها، وكم كلَّفه الرُّجوع. شادو ليس أوَّل واحدٍ استهلَّت إيستر عودته، وقد علمَت أن نظرة المليون عام سرعان ما ستخبو، وأن الذِّكريات والأحلام التي عادَ بها من الشَّجرة سيطمرها عالم الأشياء الملموسة. هذا ما يَحدُث دومًا.

قادَت طريقهما إلى مؤخَّرة المزرعة، حيث تنتظر مطيَّتها فوق الأشجار.

أخبرَته: «لا يُمكنه حملنا معًا. سأشقُّ طريقي إلى الدِّبار بنفسي».

أومأ شادو برأسه وقد بدا أنه يُحاوِل تذكُّر شيء، ثم فتحَ فمه وأطلقَ صيحة ترحيبٍ وابتهاجٍ حادَّة.

وفتحَ طائر الرَّعد منقاره القاسي وردَّ التَّرحيب بالتَّرحيب.

ظاهريًّا على الأقل يُشبِه الطَّائر الكُندور. ريشه أسود وبه لمعة مائلة إلى الأرجواني، ورقبته مطوَّقة بالأبيض، ومنقاره أسود قاسٍ، منقار طائرٍ كاسر مخلوق للتَّمزيق. وهو مستريح على الأرض ومطويُّ الجناحين، يُناهِز حجمه حجم دُبٍّ أسود، ويُواجِه رأسه رأس شادو.

بفخرٍ قال حورس: «لقد جلبته. إنها تقطن في الجبال».

أومأ شادو برأسه قائلًا: «حلمتُ بطيور الرَّعد مرَّةً. ألعن حُلمٍ رأيته في حياتي».

فتحَ طائر الرَّعد منقاره وأصدرَ صوتًا رقيقًا لدرجةٍ مدهشة: كرورو؟

سألَه شادو: «أنت أيضًا سمعت حُلمي؟»، ومدَّ يده يَفرُك برفقٍ رأس طائر الرَّعد، الذي دفعَ نفسه ملتصقًا به كمُهرٍ ودود، وحكَّ شادو وراء البُقعة التي لا بُدَّ أن الأذنين تحتلَّانها.

التفتَ شادو إلى إيستر متسائلًا: «ركبتِه إلى هنا؟».

- «نعم، ويُمكنك أن تركبه في طريق العودة إذا سمحَ لك».

- «كيف تركبينه؟».

- «الأمر سهل... إن لم تَسقُط. مثل ركوب البرق».

- «هل سأراكِ هناك؟».

هزَّت رأسها قائلةً: «دوري انتهى يا عزيزي. اذهب وافعل ما عليك أن تفعله. إنني متعَبة. إعادتك بهذه الطَّريقة... استنفدَت مني الكثير. يجب أن أرتاح وأدَّخر طاقتي حتى يبدأ عيدي. أنا آسفة. حظًّا سعيدًا».

أومأ شادو برأسه، وقال: «ويسكي چاك. لقد رأيته، بعد انتقالي. جاءَ ووجدَني، وشربنا البيرة معًا».

قالت: «نعم، إنني واثقة».

سألها شادو: «هل سأراكِ ثانيةً؟».

رمقَته بعينين بخُضرة الذُّرة في طور النُّضوج ولم تُجِب، ثم هزَّت رأسها فجأةً، وقالت: «أشكُّ».

صعدَ شادو فوق ظَهر طائر الرَّعد بحركاتٍ مرتبكة، شاعرًا كأنه فأر فوق ظَهر باز. أحسَّ في فمه بمذاق أوزوني، معدني وأزرق، وطقطقَ شيء ما، وبسطَ طائر الرَّعد جناحيه وبدأ يخفق بهما بقوَّة.

وإذ انخفضَت الأرض أسفلهما تشبَّث شادو وقلبه يدقُّ في صدره بعُنف. كان الأمر مثل ركوب البرق بالضَّبط.

أخذَت لورا العصا من فوق الأريكة الخلفيَّة، وتركَت المستر تاون في مقعد الـ «فورد إكسپلورر» الأمامي، ونزلَت من السيَّارة لتمشي في المطر نحو مدينة الصُّخور. وجدَت مكتب التَّذاكر مغلقًا، أمَّا باب متجر الهدايا فلم يكن موصدًا. دخلَت منه ومرَّت بالحلوى ذات الشَّكل الصَّخري وبيوت «شاهِد مدينة الصُّخور» المعروضة، لتَدخُل أعجوبة العالم الثَّامنة.

لم يعترض طريقها أحد، مع أنها مرَّت بعددٍ كبير من الرِّجال والنِّساء على الطَّريق في المطر، كُثر منهم يبدون صناعيِّين بعض الشَّيء، وكُثر شبه شفَّافين. عبرَت جسر حبالٍ متأرجحًا، ومرَّت بحدائق الغزلان البيضاء، ودفعَت نفسها عبر «حشْرة الرَّجل البدين»، حيث يمضي الطَّريق بين جِدارَيْن صخريَّيْن.

وفي النِّهاية خطَت من فوق سلسلةٍ عليها لافتة تقول إن هذا الجزء من المزار مغلق، ودخلَت كهفًا، حيث رأت رجلًا جالسًا على مقعدٍ بلاستيكي أمام مجسَّمٍ للنُّومات السُّكرانين. كان يقرأ الـ «واشنطن پوست» على ضوء مصباحٍ كهربي صغير، ولمَّا رآها طوى الجريدة ووضعَها تحت المقعد، ثم نهضَ. الرَّجل طويل، شعره برتقالي قصير للغاية، ويرتدي معطف مطرٍ ثمينًا، وقد انحنى لها انحناءةً صغيرةً.

- «سأفترضُ أن المستر تاون مات. مرحبًا بحاملة الحربة».

- «أشكرك. آسفةٌ بشأن ماك. أكنتما صديقيْن؟».

قال: «بتاتًا. كان عليه الحفاظ على حياته لو أرادَ الاحتفاظ بوظيفته. لكنكِ جلبتِ العصا»، ونظرَ إليها من أعلى إلى أسفل بعينين تبرّقان كجمرتيْن برتقاليَّتيْن في نارٍ تَهمُد، وتابعَ: «أخشى أن لك الأفضليّة عليّ. يدعونني بالمستر وورلد، هنا فوق قمّة التّل».

- «أنا زوجة شادو».

- «طبعًا. الجميلة لورا. كان حريًّا بي أن أتعرَّفكِ. لقد علَّق صُورًا كثيرةً لكِ فوق فِراشه في الزِّنزانة التي تقاسَمناها. وإذا أذنتِ لي في القول، فإنكِ تبدين أروع جمالًا مما يحقّ لكِ. ألم يُفترَض أنكِ قطعتِ شوطًا أطول على طريق التَّعفُّن والتَّحلُّل؟».

ردَّت ببساطة: «كنتُ، كنتُ قد قطعتُ شوطًا أطول كثيرًا. لا أدري ماذا تغيَّر. أعرفُ متى بدأتُ أشعرُ بتحسُّن. هذا الصَّباح. النِّسوة في المزرعة سقينَني ماءً من بئرهن».

ارتفعَ حاجبٌ. «بئر أورد؟ مؤكَّد لا».

أشارَت إلى نفسها. بشرتها شاحبة، ومحجرا عينيها قاتمان. لكنها بجلاءٍ كاملة. إن كانت جثّة سائرةً فقد ماتَت حديثًا.

قال المستر وورلد: «لن يدوم هذا. النورنات ذوَّقنكِ نزرًا يسيرًا من الماضي، لكنه سيذوب في الحاضر عمَّا قريب، وحينئذٍ ستتدحرَج هاتان العينان الزّرقاوان الحُلوتان من محجريهما وتسيلان على هاتين الوجنتين الحُلوتين، اللتين لن تعودا حُلوتين وقتها طبعًا. بالمناسبة، عصاي إذا سمحتِ»، وأخرجَ عُلبةً من الـ «لكي سترايك» وأخذَ سيجارةً أشعلَها بقدَّاحة «بك» قابلة لإعادة التَّدوير.

قالت: «أتسمح بواحدة؟».

- «أكيد. سأعطيكِ سيجارةً إذا أعطيتِني عصاي».

- «لا. إن كنت تُريدها فإن قيمتها أكبر من مجرَّد سيجارة»، ولمَّا لم يقل شيئًا أردفَت: «أريدُ أجوبةً، أريدُ أن أعرف بعض الأشياء».

أشعلَ سيجارةً وأعطاها لها، وتناولَتها لورا وأخذَت نفَسًا، ثم طرفَت بجفنيها قائلةً: «أكادُ أتذوّقها. أظنُّني أستطيعُ»، وابتسمَت مضيفةً: «ممم. نيكوتين».

قال: «نعم. لماذا ذهبتِ إلى النِّساء في منزل المزرعة؟».

- «شادو قال لي أن أذهب إليهن، أن أطلب منهن ماءً».

- «أتساءلُ إن كان يعلم ما سيفعله الماء. غالبًا لا. ومع ذلك، هذه هي جدوى كونه ميتًا فوق الشّجرة. الآن أعرفُ أين هو في أيِّ وقت. إنه خارج المضمار».

- «لقد نصبتم لزوجي فخًّا، نصبتم له فخًّا من البداية. إنه طيِّب القلب، أتعرف هذا؟».

أجابَ المستر وورلد: «نعم، أعرفُ».

- «لماذا أردتموه؟».

- «الأنماط والإلهاء. حينما ينتهي كلُّ هذا، أظنُّني سأشحذُ عصا من خشب الهَدال[1] وأذهبُ إلى شجرة المُرّان وأغرزها في عينه. هذا هو ما لم يستطِع الحمقى المتقاتلون بالخارج استيعابه قَطُّ. إنها ليست مسألة قديمٍ وجديدٍ على الإطلاق، بل مسألة أنماطٍ فقط. والآن عصاي من فضلكِ».

- «لماذا تُريدها؟».

قال المستر وورلد: «إنها تذكار من هذه الفوضى المؤسفة. لا تقلقي، ليست من الهَدال.[cxli] إنها ترمز إلى حربة، وفي هذا العالم البائس الرَّمز هو الشّيء».

تزايدَت الضّوضاء الآتية من الخارج.

سألَته: «مع أيِّ فريقٍ أنت؟».

أخبرَها: «ليست مسألة فِرق، ولكن ما دُمتِ قد سألتِ فأنا مع الفريق الرّابح. دائمًا. هذا أفضل ما أجيده».

أومأت برأسها، ولم تتخلَّ عن العصا إذ قالت: «أرى هذا».

---

(1) الهَدال: اسم شائع لنباتٍ طُفيلي من الفصيلة اللورانثيَّة، يعيش على أغصان بعض الأشجار المثمرة ويمتصُّ نُسغها، ويتكرّر ظهوره في ميثولوچيات الشّعوب الأوروبيَّة. (المُترجم).

التفتَت عنه ونظرَت من باب الكهف. بعيدًا أسفلها، بين الصُّخور، رأت شيئًا متوهِّجًا نابضًا يلفُّ نفسه حول رجلٍ ملتحٍ بنفسجي الوجه يضرب الشيء بممسحة نوافذ، ممسحةٍ من النَّوع الذي يستخدمه مَن هم على شاكلته لتلطيخ نوافذ السيَّارات في إشارات المرور. ارتفعَت صرخة، واختفى كلاهما عن نظرها.

قالت لورا: «حسن، سأعطيك العصا».

أتى صوت المستر وورلد من ورائها يقول بنبرةٍ مُطَمْئِنَة: «فتاة مطيعة».

وقعَ أسلوبه عليها في آنٍ واحدٍ مشجِّعًا مترفِّعًا وذكريًّا غامضًا، وجعل جلدها يقشعرُّ.

انتظرَت عند المدخل الصَّخري حتى سمعَت أنفاسه في أُذنها. عليها الانتظار حتى يقترب بما فيه الكفاية. هذا القدر تُدرِكه.

كانت الرِّحلة أكثر من سارَّة. كانت كهربيَّة.

انطلقا في العاصفة كصواعق البرق المحزَّزة، يندفعان بسرعةٍ خاطفة من سحابةٍ إلى سحابة، ويتحرَّكان مثل دويِّ الرَّعد، مثل الإعصار إذ يتفاقم ويُمزِّق الموجودات تمزيقًا. كانت رحلةً مستحيلةً ملأى بالطَّقطقة، وفي الحال تقريبًا نسيَ شادو أن يخاف. لا يُمكن أن تخاف حين تمتطي طائر الرَّعد. لا خوف هنالك، فقط عُنفوان العاصفة الغامر الذي لا رادع له، وبهجة الطَّيران.

غرسَ شادو أصابعه في ريش طائر الرَّعد شاعرًا بالإستاتيكيَّة تخز جلده، وتلوَّت شرارات زرقاء على يديه كثعابين دقيقة، وغسلَ المطر وجهه.

وهتفَ شادو رافعًا صوته فوق هدير العاصفة: «هذا أفضل شعورٍ في الدُّنيا».

كأنه سمعَه، بدأ الطَّائر يرتفع، كلُّ ضربةٍ من جناحيه قصفة رعد، وعبر السَّحاب المظلم كرَّ وفرَّ وهوى.

قال شادو والرِّيح تنتزع كلماته انتزاعًا: «في حُلمي كنتُ أحاولُ صيدك، في حُلمي. كان يجب أن أعود بريشةٍ منك».

– نعم. كانت الكلمة طقطقةً إستاتيكيَّةً في راديو عقله. *لقد أتونا في سبيل الرِّيش، ليُثبِتوا أنهم رجال، وأتونا ليقطعوا الأحجار من رؤوسنا، ليُعطوا موتاهم حيواتنا.*

ولحظتها ملأت صورةٌ عقل شادو، صورة لطائر رعدٍ -افترضَ أنه أنثى، لأن الرِّيش بنِّي لا أسود- ملقى وقد ماتَ لتوِّه على جانب جبل، وبجواره امرأةٌ تفتح جمجمته بكُتلةٍ من الصوَّان، ثم تُنقِّب بين شذرات العظم المبتلَّة وخلايا المُخّ إلى أن عثرَت على حجرٍ أملس لا تشوبه شائبة، لونه لون العقيق، وفي أعماقه تتذبذَب نار برَّاقة. فكَّر شادو: *أحجار العُقبان*. كانت ستأخذ الحجر إلى ابنها الرَّضيع الميت منذ ثلاث ليالٍ، وتضعه على صدره البارد، ومع الشُّروق التَّالي سيكون الصَّبي حيًّا ضاحكًا، وستُصبِح الجوهرةُ رماديَّةً مشوَّبةً، ومثل الطَّائر التي سُرقَت منه، ميتةً.

قال شادو للطَّائر: «فهمتُ».

رفعَ الطَّائر رأسه ونعقَ، وكان نعيقه رعدًا.

ومرَّ العالم من تحتهما مرورًا خاطفًا في حُلمٍ واحدٍ غريب.

ضبطَت لورا قبضتها حول العصا، وانتظرَت أن يأتي إليها الرَّجل الذي تعرفه باسم المستر وورلد. كانت تُوليه ظَهرها، تَنظُر إلى العاصفة بالخارج، والتِّلال الخضراء المظلمة بالأسفل.

قالت لنفسها: *في هذا العالم الرَّمز هو الشَّيء*. نعم.

أحسَّت بيده تنغلق بنعومةٍ على كتفها اليُمنى.

- *جيِّد. لا يُريد أن يُفزِعني. يخشى أن ألقي عصاه في العاصفة فتَسقُط على جانب الجبل ويفقدها.*

مالَت إلى الوراء قليلًا حتى تلامسَ ظَهرها وصدره. التفَّت ذراعه اليُسرى حولها بحركةٍ حميميَّة، وانفتحَت يده اليُسرى أمامها، وأطبقَت لورا كلتا يديها على رأس العصا، وزفرَت، وركَّزت.

قال في أُذنيها: «من فضلكِ، عصاي».

قالت: «نعم، إنها لك»، ثم، من غير أن تدري إن كان قولها سيعني شيئًا، قالت: «أهدي هذه الميتة إلى شادو»، وأغمدَت العصا في صدرها تحت عظمة القصِّ مباشرةً، وأحسَّت بها تتلوَّى وتتبدَّل في يدها وتتحوَّل إلى حربة.

منذ موتها تبدَّدت الحدود بين الحسِّ والألم. أحسَّت برأس الحربة يخترق صدرها، وأحسَّت به ينفذ من ظَهرها، ومرَّت لحظة مقاومةٍ دفعَت خلالها لورا

بمزيدٍ من الشِّدَّة، وانغرزَت بعدها الحربة في جسد المستر وورلد، وأحسَّت لورا بأنفاسه الدَّافئة على بشرتها الباردة إذ ولول موجوعًا مبهوتًا وخوزقته الحربة.

لم تتعرَّف الكلمات التي قالها ولا اللُّغة التي لفظَها بها. دفعت قناة الحربة إلى الدَّاخل أكثر فأكثر، مقحمةً إياها عبر جسدها وفي جسده وعبره.

وأحسَّت بدمه الحار ينبثق على ظَهرها.

قال بالإنجليزيَّة: «حقيرة. أيتها الحقيرة الملعونة»، وحمل صوته غرغرةً مبتلَّةً، فخمَّنت أن نصل الحربة شقَّ إحدى رئتيه. والآن يتحرَّك المستر وورلد، أو يُحاوِل الحركة، وكلُّ حركةٍ يتحرَّكها ترجُّها أيضًا، فهما مضمومان على القناة، مخوزَقان كسمكتيْن على حربةٍ واحدة. رأت أن في يده الآن سكِّينًا، وقد راحَ يطعن به صدرها ونهديها عشوائيًّا، عاجزًا عن رؤية ما يفعله.

ولم تعبأ. ماذا تفعل طعنات سكِّينٍ بجثَّة؟

بقوَّةٍ ضربَت معصمه الملوِّح، فطارَ السكِّين من يده وسقطَ على أرضيَّة الكهف، وركلَته لورا بعيدًا.

والآن يبكي ويُوَلوِل، وتحسُّ به يدفع نفسه على جسدها، وتتخبَّط يداه على ظَهرها، وتسيل دموعه السَّاخنة على عُنقها. كان دمه يُغرِق ظَهرها ويسيل على مؤخِّرة ساقيها.

بهمسةٍ ميتة لم تفتقر إلى نوعٍ معين من الاستمتاع الظَّلامي قالت: «مؤكَّد أن المنظر يبدو مهينًا».

وأحسَّت بالمستر وورلد يتعثَّر خلفها، وتعثَّرت معه، وانزلقَت قدماها في الدَّم (كلُّ الدَّم دمه) الذي تتَّسع بِركته على أرض الكهف، وسقطَ كلاهما.

* * *

هبطَ طائر الرَّعد في موقف سيَّارات مدينة الصُّخور. كان المطر ينهمر مدرارًا، وبالكاد استطاعَ شادو أن يرى مسافة دستةٍ من الأقدام أمام وجهه. أفلتَ ريش طائر الرَّعد، ونزلَ بحركةٍ نصفها انزلاق ونصفها شقلبة على الأسفلت المبتل.

نظرَ إليه الطَّائر، وومضَ البرق، واختفى الطَّائر.

ثم نهضَ شادو.

ثلاثة أرباع الموقف شاغرة. تحرَّك شادو نحو المدخل مارًّا بـ «فورد إكسپلورر» بنيَّة مركونة عند جدارٍ صخري. شيء ما في السيَّارة كان مألوفًا للغاية، وقد رمقها شادو بفضولٍ ليلحظ الرَّجل في داخلها، المائل مرتخيًا على عجلة القيادة كأنه نائم.

فتحَ شادو باب السَّائق.

آخِر مرَّة رأى المستر تاون كان واقفًا أمام الموتل في مركز أمريكا. التَّعبير الحالي على وجهه تعبير مفاجأة، وعُنقه مكسور بحركةٍ متقنة. لامسَ شادو وجه الرَّجل، ليجده ما زالَ دافئًا.

شمَّ شادو رائحةً في هواء السيَّارة، خافتةً كعطر شخصٍ غادرَ غُرفةً قبل سنواتٍ كاملة، إلَّا أن شادو كان ليتعرَّفها في أيِّ مكان. صفقَ باب الـ «فورد إكسپلورر»، وشقَّ طريقه عبر الموقف.

بينما يمشي أحسَّ بوخزٍ في جانبه، بألمٍ شائك حاد لا بُدَّ أنه لم يُوجَد إلَّا في عقله، لأنه دامَ ثانيةً واحدةً أو أقل، ثم اختفى.

لا أحد في متجر الهدايا، ولا أحد يبيع التَّذاكر. عبرَ شادو من داخل المبنى وخرجَ إلى حدائق مدينة الصُّخور.

قعقعَ الرَّعد، فرجَّ الصَّوت فروع الأشجار واهتزَّ في عُمق الصُّخور الضَّخمة، وانصبَّ المطر بعُنفٍ بارد. إنها أواخِر الأصيل، لكن الظَّلام حالك كما اللَّيل.

طعنَ ذَنَبٌ من البرق السَّحاب كالحربة، فتساءلَ شادو إن كان هذا طائر الرَّعد عائدًا إلى جروفه الشَّاهقة، أم مجرَّد تفريغٍ كهربي في الغلاف الجوِّي، أم إن الفكرتين -على مستوى ما- سواءٌ.

وهما كذلك بالطَّبع، فهذا هو بيت القصيد.

في مكانٍ ما ارتفعَ صوت رجلٍ بالصِّياح، وتناهَت الصَّيحة إلى مسامع شادو. الكلمتان الوحيدتان اللتان ميَّزهما، أو حسبَ أنه ميَّزهما، هما: «... *إلى أودِن!*».

هرعَ شادو يقطع «ساحة أعلام الولايات السَّبع»، حيث تغمر الأرض المبلَّطة بالأحجار اللَّوحيَّة كميَّات خطرة من ماء المطر الجاري، حتى إنه انزلَقَ في مرَّةٍ على حجرٍ أملس. تُحيط بالجبل طبقة سميكة من السُّحب، وفي الظُّلمة والعاصفة وراء السَّاحة لم يرَ أيَّ ولايات.

لا أصوات على الإطلاق، والمكان يبدو مهجورًا تمامًا.

رفعَ شادو عقيرته بالنِّداء، وتخيَّل أنه سمع شيئًا يردُّ، وسارَ نحو البُقعة التي حسبَ أن الصَّوت صدرَ منها.

لا أحد. لا شيء. فقط سلسلة أمام مدخل كهفٍ تُعلن أن دخوله محظور على الزَّائرين.

خطا شادو من فوق السِّلسلة.

وتلفَّت حوله محاولًا اختراق حُجب الظَّلام ببصره.

واقشعرَّ جلده.

بهدوءٍ بالغ قال صوت في الظِّلال من خلفه: «لم تُخيِّب أملي فيك قطُّ».

قال شادو من غير أن يلتفت: «غريب. لقد خيَّبتُ أملي في نفسي طول الطَّريق، كلَّ مرَّة».

قهقهَ الصَّوت، وقال: «إطلاقًا. لقد فعلت كلَّ ما كان مُرادًا منك أن تفعله وأكثر، استحوذت على انتباه الجميع فلم يَنظُروا نهائيًّا إلى اليد التي تُخفي العُملة. اسمه التَّضليل. وفي تضحيَّة الابن قوَّة، قوَّة تكفي وزيادة لتسيير كلِّ شيء. أصدقك القول، إنني فخور بك».

قال شادو: «كانت مغشوشةً، المسألة كلُّها. لا شيء منها كان حقيقيًّا. كانت مجرَّد توطئةٍ لمذبحة».

من الظِّلال قال صوت الأربعاء: «بالضَّبط. كانت مغشوشةً، لكنها كانت اللُّعبة الوحيدة في البلدة».

- «أريدُ لورا. أريدُ لوكي. أين هما؟».

صمتٌ فقط. ضربَته هبَّة من ماء المطر المتناثر، وهدرَ الرَّعد في مكانٍ قريب.

توغَّل شادو في الكهف.

كان لوكي صائغ الأكاذيب على الأرض مُسندًا ظَهره إلى قفصٍ حديدي، في داخله تعمل الپيكسيَّات السَّكارى على مقطرتهن. يُغطِّي لوكي دثارٌ لا يُظهِر منه إلَّا وجهه، وتستقرُّ عليه يداه البيضاوان الطَّويلتان، وإلى جواره فوق مقعدٍ مصباح كهربي تُوشِك بطَّاريَّاته على النَّفاد، فيُلقي ضوءًا خافتًا مصفرًّا.

بدا لوكي ممتقعًا، وبدا مزريًا.

لكنّ عينيه... عينيه ما زالَتا متأجّجتيْن، وقد رشقَتا شادو بنظراتٍ ناريَّة إذ تحرَّك في الكهف.

ولمّا أصبحَ شادو يَبعُد عدَّة خُطواتٍ عن لوكي توقَّف.

قال شادو بصوتٍ مبحوح ينمُّ عن بلل: «تأخَّرت جدًّا. لقد ألقيتُ الحربة، أهديتُ المعركة. المعركة بدأت».

- «يا للمفاجأة».

- «يا للمفاجأة. لم يَعُد يهمُّ ما تفعله. فاتَ الأوان».

قال شادو: «حسن»، وتوقَّف مفكِّرًا، ثم قال: «تقول إنه كان عليك إلقاء حربةٍ لتبدأ المعركة، مثلما كان يَحدُث في أوپسالا. هذه هي المعركة التي ستتغذَّى عليها، صح؟».

صمتٌ. ويسمع شادو لوكي يتنفَّس، شهيقه خشخشة شنيعة.

- «لقد استنتجتُ الحقيقة... نوعًا. لا أدري متى استنتجتها بالضَّبط. ربما وأنا معلَّق من الشَّجرة، ربما قبل ذلك. كان شيئًا قاله لي الأربعاء في الكريسماس».

اكتفى لوكي بالتَّحديق إليه، لا يقول شيئًا.

تابعَ شادو: «إنها مجرَّد حيلةٍ يُنفِّذها شخصان، مثل المطران والقلادة الماس والشُّرطي، مثل صاحب الكمنجة والرَّجل الذي يُريد شراء الكمنجة والسَّاذج المسكين بينهما الذي يدفع ثمن الكمنجة. رجلان يبدوان ظاهريًّا في طرفيْن متعارضيْن لكنهما يلعبان اللُّعبة نفسها».

همسَ لوكي: «أنت سخيف».

- «لماذا؟ لقد أعجبَني ما فعلته في الموتل. كان تصرُّفًا ذكيًّا. احتجتَ إلى أن تكون حاضرًا لتضمن أن كلَّ شيءٍ يمضي وفق الخطَّة. لقد رأيتك، بل وتعرَّفتك، ومع ذلك لم أدرك أنك رئيسهم المستر وورلد. أو ربما أدركتُ في مكانٍ ما في أعماقي. كنتُ أعلمُ أني أعرفُ صوتك على الأقل».

ثم رفعَ شادو صوته مخاطبًا الكهف: «يُمكنك الخروج أينما كنت. أظهِر نفسك».

عوَت الرِّيح في مدخل الكهف ودفعَت نحوهما رذاذًا من ماء المطر، وارتجفَ شادو.

- «لقد سئمتُ من استغفالي. أظهِر نفسك، دعني أراك».

تبدَّلت الظِّلال في مؤخِّرة الكهف. أصبح شيء ما أكثر صلابةً، وتحرَّك شيء ما حركةً طفيفةً، وقال الأربعاء بجهورته المألوفة: «تعرف أكثر كثيرًا من اللَّازم يا ولدي».

- «لم يَقتلُوك إذًا».

قال الأربعاء من الظِّلال: «بل قتلوني. ما كان شيء من هذا لينجح لو لم يفعلوا». تكلَّم بصوتٍ خافت؛ ليس هادئًا فعلًا، لكن له سمةٌ حدت بشادو إلى التَّفكير في راديو قديم ليس مضبوطًا تمامًا على محطَّةٍ بعيدة. «لو لم أمُت حقيقةً لما استطعنا المجيء بهم إلى هنا قطُّ، كالي والموريجَن واللُّوا والألبان الملاعين و... أنت رأيتهم. موتي هو ما لمَّ شملهم جميعًا، وكنتُ أنا كبش الفداء».

ردَّ شادو: «لا، بل كنتَ كبش يهوذا».[1]

دارَ الشَّكل الطَّيفي في الظِّلال وتبدَّل، وقال الأربعاء: «على الإطلاق. قولك هذا يُلمِّح إلى خيانتي الآلهة القديمة من أجل الجديدة، وهو ما لم نكن نفعله».

همسَ لوكي: «على الإطلاق».

قال شادو: «أرى هذا. لم تكونا تخونان أيًّا من الجانبيْن. كنتما تخونان كلا الجانبيْن».

قال الأربعاء: «على ما أظنُّ»، ونمَّت نبرته عن سروره بنفسه.

- «أردتما مجزرةً، احتجتما إلى قُربان دم، قُربانٍ من الآلهة».

اشتدَّت الرِّيح، واستحالَ العُواء عند مدخل الكهف إلى صريخ، كأن شيئًا حجمه لا يُقاس من فرط الضَّخامة يتألَّم.

- «ولِمَ لا بحقِّ الجحيم؟ إنني حبيس في هذه الأرض عليها اللَّعنة منذ ألفين ومئتَي عام تقريبًا. إنني فقير الدَّم. إنني جائع».

قال شادو: «وأنتما الاثنان تتغذَّيان على الموت».

تصوَّر أنه يرى الأربعاء الآن واقفًا في الظِّلال، ومن ورائه -ومن خلاله- تلوح قضبان قفصٍ يحوي ما يبدو كلِبريكونات من البلاستيك. كان شكلًا

(1) كبش يهوذا: كبش يُدرَّب على قيادة باقي القطيع إلى المذبح من غير إثارة الفزع، للحفاظ على جودة اللَّحم. (المُترجم).

تكوينه الظَّلام، يُصبِح حقيقيًا أكثر كلما أبعدَ شادو عنه بصره، وهو ما أتاح له أن يتجسَّد في رؤيته المحيطيَّة.

قال الأربعاء: «أتغذَّى على الموت المهدى إليَّ».

- «مثل موتي على الشَّجرة».

- «كان ذلك موتًا مميزًا».

سألَ شادو ناظرًا إلى لوكي: «وأنت أيضًا تتغذَّى على الموت؟».

هزَّ لوكي رأسه نفيًا بإعياء.

- «لا، بالطَّبع لا. ما تتغذَّى عليه أنت هو الفوضى».

ابتسمَ لوكي لقوله ابتسامةً أليمةً عابرةً، وتراقصَ اللَّهب البرتقالي في عينيه وتذبذبَ كالدانتلَّة المحترقة تحت جلده الشَّاحب.

قال الأربعاء من رُكن عينِ شادو: «لم نكن لنستطيع أن نفعلها دونك. لقد عرفتُ نساءً كثيراتٍ للغاية...».

- «احتجتَ إلى ابن».

تردَّد صدى صوت الأربعاء الشَّبحي إذ قال: «احتجتُ إليك أنت يا ولدي. نعم. ولدي من صُلبي. لقد علمتُ أن أمَّك حبلَت بك، لكنها غادرَت البلاد. استغرقنا وقتًا طويلًا جدًّا للعثور عليك، وعندما عثرنا عليك كنت في السِّجن. احتجنا إلى معرفة الأشياء التي تتحكَّم في سلوكك، نقاط الضَّغط التي يُمكننا استغلالها لدفعك، مَن تكون». للحظةٍ بدا لوكي مسرورًا بنفسه، وأرادَ شادو أن يضربه. «وكانت لك زوجة ترجع إليها في بيتك. عقبة مؤسفة، وإن لم يكن تذليلها مستحيلًا».

همسَ لوكي: «لم تكن تَصلُح لك. كنت أحسن حالًا من غيرها».

قال الأربعاء: «ليتها كانت طريقة أخرى»، وهذه المرَّة أدركَ شادو ما يعنيه.

قال لوكي لاهثًا: «ولو تمتَّعت... بالكياسة... للبقاء ميتةً. وود وستون... كانا رجلَيْن صالحيْن. كان سيُسمَح لك... بالهرب... عندما يَعبُر القطار الداكوتاتيْن...».

سألَ شادو: «أين هي؟».

مدَّ لوكي ذراعًا شاحبةً مشيرًا إلى مؤخّرة الكهف، وقال: «ذهبَت في ذلك الاتِّجاه»، ثم انقلبَ إلى الأمام دون إنذار، وانهارَ جسده على الأرض الصَّخريَّة.

رأى شادو ما خبّأه عنه الدّثار: بركة الدّم، والفجوة في ظهر لوكي، ومعطف المطر المصنوع من جلد الظّباء الذي سوّده الدّم.

سألَ شادو: «ماذا حدث؟»، فلم يُجب لوكي، ولم يحسب شادو أنه سيقول شيئًا ثانيةً.

قال صوت الأربعاء البعيد: «زوجتك حدثت له يا ولدي». أصبحت رؤيته أصعب، كأنه يتلاشى من جديدٍ في الأثير. «لكن المعركة ستعيده كما ستعيدني عودةً أبديّةً. إنني شبح، وهو جثّة، لكننا ربحنا. اللّعبة كانت مغشوشة».

متذكّرًا قال شادو: «الألعاب المغشوشة أسهل ألعابٍ يُمكن الفوز بها».

ولم يأتِ رد، ولم يتحرّك شيء في الظّلال.

قال شادو: «وداعًا»، ثم أضافَ: «يا أبي»، ولكن مع قوله هذا لم يكن في الكهف أثر لأيّ أحدٍ آخَر، لا أثر لأحدٍ على الإطلاق.

عادَ شادو إلى «ساحة أعلام الولايات السّبع»، لكنه لم يرَ أحدًا هناك أو يسمع إلّا خفقان الأعلام في الرّيح العاصفة. لا ناس يحملون سيوفًا عند الصّخرة المتوازنة التي تزن ألف طن، ولا مدافعين عند الجسر المتأرجح. إنه بمفرده.

لا شيء يُرى. المكان مهجور. ساحة المعركة خالية.

لا، ليس مهجورًا، ليس تمامًا.

إنما هو في المكان الخطأ لا أكثر.

هذه مدينة الصُّخور. إنها مكان هيبةٍ وعبادةٍ منذ آلاف السّنين، واليوم لملايين السّائحين، الذين يتجوّلون في الحدائق ويَعبُرون الجسر المتأرجح متمايلين، التّأثير ذاته للماء إذ يُدوِّر مليون عجلة صلاة. الواقع ها هنا رهيف.

وعلمَ شادو يقينًا أين تدور رحى المعركة.

وهكذا بدأ يمشي. تذكّر شعوره حين ركبَ الكاروسِل، وحاولَ أن يَشعُر بذلك، ولكن في نُقطةٍ أخرى من الزّمن...

تذكّر الدّوران بالـ«وِنابيجو»، بنقلها إلى الزّاوية الصّحيحة من كلّ شيء. حاولَ القبضَ على ذلك الشّعور...

ثم، بسهولةٍ وعلى أكمل وجه، نجحَ.

كان الأمر مثل دفع نفسك عبر غشاء، كالانبثاق من مياهٍ عميقة إلى الهواء. بخُطوةٍ واحدة انتقلَ من طريق السُيَّاح على الجبل إلى...

إلى مكانٍ حقيقي. إنه وراء الكواليس.

ما زالَ فوق قمَّة الجبل. هذا الجزء ظلَّ كما هو. غير أنه الآن أكثر كثيرًا من ذلك. قمَّة الجبل هذه جوهر الأمكنة، لُبُّ الأشياء في وجودها الحقيقي، ومقارنةً بها تُضاهي قمَّة جبل لوكاوت التي تركها لوحةً في خلفيَّة مسرح، أو نموذجًا من الورق المعجَّن على شاشة تليفزيون، مجرَّد تمثيلٍ للشَّيء وليس الشَّيء نفسه.

هذا هو المكان الحقيقي.

تُكوِّن جُدران الصَّخر مسرحًا مدرَّجًا طبيعيًّا، تتعرَّج الممرَّات الحجريَّة حوله وعبره صانعةً جسورًا ملتويةً طبيعيَّةً تتخلَّل الجُدران الصَّخريَّة مثل تصميمٍ لإشر.[1]

والسَّماء...

السَّماء مظلمة، يُنيرها ويُلقي الضَّوء على العالم تحتها خطٌّ أبيض مخضر متَّقد أسطع من الشَّمس. يتشعَّب بجنونٍ في ظُلمتها من أقصاها إلى أقصاها كمزقٍ أبيض.

تبيَّن شادو أنه برق، برق مجمَّد في لحظةٍ واحدة دائمة إلى الأبد، والضَّوء الذي يُلقيه قاسٍ لا يرحم، يبهت على الوجوه ويُجوِّف الأعيُن جاعلًا إياها حُفرًا مظلمةً.

هذه هي لحظة العاصفة.

النَّماذج تتبدَّل، وشادو يَشعُر بهذا. العالم القديم، عالم من الرَّحابة السَّرمديَّة ومن الموارد والمستقبَلات اللا محدودة، يُواجِهه شيء آخَر... شبكةٌ من الطَّاقة، من الآراء، من الفجوات الهائلة.

فكَّر شادو أن النَّاس يُؤمنون. هذا ديدنهم. إنهم يُؤمِنون، ثم يُعرِضون عن تحمُّل مسؤوليَّة إيمانهم، يستحضِرون أشياء ولا يثقون بما استحضَروه.

---

(1) موريتس كورنيلس إشر: رسَّام هولندي عُرِفَ بلوحاته المستوحاة من الرِّياضيَّات، وهو ما جعله رائدًا في مجال محاولة تمثيل المفارقات الرياضية عن طريق الفن؛ ويظهر في لوحاته العديد من التركيبات المستحيلة. (المُترجم).

النّاس يُعمّرون الظّلام... بالأشباح، بالآلهة، بالإلكترونات، بالحكايا. النّاس يتخيّلون، ويُؤمنون، وهذا الإيمان، هذا الإيمان الرّاسخ رسوخ الصّخر، هو ما يجعل الأشياء تَحدُث.

قمّة الجبل حلبة قتال، وقد رأى شادو هذا على الفور، وعلى جانبَي الحلبة رآهم مصطفّين.

ضخام جدًّا هُم. في هذا المكان كلُّ شيءٍ ضخم جدًّا.

منهم آلهة قُدامى، آلهة بشرتهم بنّيّة كالفطر القديم، أو ورديّة كلحم الدّجاج، أو صفراء كورق شجر الخريف، بعضهم مجنون وبعضهم عاقل. عرفَ شادو الآلهة القُدامى، فقد التقاهم من قبل، أو التقى ما يُشبههم. في المكان عفاريت وبيسكيّات وعمالقة وأقزام، ورأى شادو المرأة التي قابلها في غُرفة النّوم المعتمة في رود آيلاند، وثعابين شعرها الخضراء الملتويّة، ورأى ماما-چي التي قابلَها في الكاروسِل، على يديها دماء وعلى وجهها ابتسامة. عرفَهم جميعًا.

وتعرَّف الآلهة الجُدد أيضًا.

أحدهم شخص لا بُدَّ أنه بارون سكك حديديّة، يرتدي بدلةً عتيقة الطّراز وتمتدُّ سلسلة ساعته على صُدرته. للرّجل طابع شخصٍ شهدَ أيامًا أفضل، وجبهته تختلج.

ومنهم آلهة الطّائرات الرّماديُّون العظام، ورثة أحلام السّفر الأثقل من الهواء.

وآلهة السيّارات، فئة من الأشخاص جادّي الوجوه، تُلوِّث الدّماء قُفّازاتهم السّوداء وأسنانهم الكروم، المتلقّين قرابين بشريّةً بأعدادٍ لم يَحلُم بها أحد منذ عصر الأزتك. حتى هُم بدوا متوتّرين. العوالم تتغيَّر.

ولبعض الآخَرين وجوه من الفسفور الملطّخ، وهجهم خافت كأنهم موجودون في أضوائهم الخاصّة.

وشعرَ شادو بالأسف نحوهم جميعًا.

يتّسم الجُدد بشيءٍ من الغطرسة، وقد رأى شادو هذا، لكنهم يستشعرون خوفًا أيضًا.

يخافون أنهم ما لم يُجاروا العالم المتبدِّل، ما لم يُعيدوا تشكيل العالم ورسمه وبناءه على صورتهم، فسينقضي زمانهم.

وقفَ كلا الفريقيْن في مواجهة الآخَر بشَجاعة، وعند كلٍّ منهما المناوئون هُم الشَّياطين، الوحوش، الملعونون.

رأى شادو أن اشتباكًا أوّليًا قد وقعَ، فالدّماء تُوسّخ الصُّخور بالفعل.

كانوا يُعدُّون أنفُسهم للمعركة الحقيقيَّة، للحرب الحقيقيَّة. الآن أو لا للأبد. إن لم يتحرَّك شادو الآن فسيفوت الأوان.

في مؤخّره عقله قال صوت: *في أمريكا يستمرُّ كلُّ شيءٍ أبد الدَّهر. خمسينيَّات القرن العشرين استمرَّت ألف عام. لديك وقت غير محدود.*

تقدَّم شادو بحركةٍ نصفها مشي متمهِّل ونصفها تعثُّر محكوم إلى مركز الحلبة.

وشعرَ بالأعيُن المسلَّطة عليه، أعيُن وأشياء ليست بالأعيُن، وارتجفَ.

قال صوت الجاموس: *تُبلي بلاءً حسنًا.*

وفكَّر شادو: بكلِّ تأكيد. *لقد عدتُ من الموت صباح اليوم. بعد ذلك يهون كلُّ شيءٍ آخَر.*

بنبرةٍ مخاطبَة قال شادو للهواء: «ليست هذه حربًا. لم تكن النِّيَّة قطُّ أن تقوم حرب. وإن كان أحدكم يحسبها حربًا فإنه يُوهِم نفسه».

سمعَ دمدمةً من كلا الجانبيْن. واضحٌ أنه لم يُؤثِّر في أحد.

خارَ مينوتور من أحد طرفَي الحلبة: «إننا نُقاتِل لأجل بقائنا».

ومن الطَّرف الآخَر صاحَ فم في عمودٍ من الدُّخان الملتمع: «إننا نُقاتِل لأجل وجودنا».

قال شادو: «هذه أرض سيِّئة للآلهة». على سبيل البيان الافتتاحي، فإنه لا يقرب «*أيها الأصدقاء، أيها الرومان، يا بني وطني*»،[1] لكنه يَصلُح. «كلُّكم تعلَّمَ هذا على الأرجح، كلٌّ على طريقته. الآلهة القديمة مهمَلة، والآلهة الجديدة تُهجَر كما تُعبَد بالسُّرعة نفسها، تُطرَح جانبًا من أجل الصَّيحة الكُبرى التَّالية. إمَّا أنكم نُسيتم وإمَّا تخشون الاندثار، وإمَّا لعلَّكم بدأتم تسأمون الوجود حسب نزوات النَّاس».

قلَّت الدَّمدمات. لقد قال شيئًا يتَّفقون معه، والآن وهُم منصتون عليه أن يحكي لهم القصَّة.

---

(1) افتتاحيَّة خطبة مارك آنتوني في مسرحيَّة «يوليوس قيصر» لشيكسپير. (المُترجم).

- «كان إلهٌ جاءَ إلى هنا من أرضٍ بعيدة، وعندما ضعفَ الإيمان به ذبلَت سُلطته ونفوذه. كان إلهًا يستمدُّ قوّته من القرابين، ومن الموت، ولا سيَّما من الحرب، جعلَ ميتات مَن يَسقُطون قتلى في الحرب تُهدى إليه... ميادين معارك كاملة مدَّته في البلد القديم بالقوَّة والقوت. شاخَ الإله، وأصبحَ يكتسِب معاشه من عمله نصّابًا مع إلهٍ آخر من مجمعه، إلهٍ للفوضى والخديعة. معًا احتالا على السُّذَّج، ومعًا سلبا النَّاس كلَّ ما يملكون. ثم في مرحلةٍ ما -ربما قبل خمسين عامًا، أو مئة- وضعا خطَّةً قيد التَّنفيذ، خطَّةً لخلق ذخيرةٍ من القوَّة يستطيع كلاهما استغلالها، شيء يجعلهما أقوى مما كانا في أوج قوَّتهما، وما الأقوى من ميدان معركةٍ مغطًّى بالآلهة الموتى؟ اللُّعبة التي لعباها اسمها «فلتتقاتلوا أنتم». هل ترون؟ المعركة التي جئتم لتخوضوها ليست معركةً يُمكن لأيّكم أن يَخرُج منها منتصرًا أو مهزومًا. الانتصار والهزيمة لا يعنيانه، لا يعنيانهما. المهمُّ أن يموت منكم عدد كافٍ. كلُّ مَن يَسقُط منكم صريعًا في المعركة يمنحه قوَّةً. كلُّ مَن يموت منكم يُغذّيه. هل تفهمون؟».

تردَّد صوت هادر لشيءٍ تنشب فيه النَّار في أنحاء الحلبة، فنظرَ شادو في الجهة التي صدرَ منها الصَّوت، وبنبرةٍ عميقة كالقبر تكلَّم رجل عملاق بشرته بنّيَّة كالماهوجني وصدره عارٍ ويعتمر قبَّعةً ويتدلَّى من فمه بأناقةٍ سيجار. قال البارون سامدي: «حسن. ولكن أودِن. لقد ماتَ! خلال محادثات السَّلام. أولاد الزَّواني قتلوه. لقد ماتَ. إنني أعرفُ الموت حقَّ المعرفة. في الموت لا يستطيع أحد أن يخدعني».

قال شادو: «واضحٌ. كان يجب أن يموت حقًّا. اضطرَّ إلى التَّضحية بجسده المادّي ليجعل هذه الحرب تقوم. بعد المعركة كان ليُصبِح أقوى مما كان يومًا».

نادى أحدهم متسائلًا: «مَن أنت؟».

- «إنني... كنتُ... إنني ابنه».

تكلَّم أحد الآلهة الجُدد -شكَّ شادو أنه مخدِّر من الطَّريقة التي ابتسمَ بها ولمعَ وارتعشَ- قائلًا: «لكن المستر وورلد قال...».

- «لم يكن هناك مستر وورلد. لم يكن له وجود قطُّ. كان مجرَّد واحدٍ آخر منكم أيها الأوغاد، يُحاوِل التَّغذّي على الفوضى التي صنعَها».

كان باستطاعته أن يرى أنهم صدّقوه، وباستطاعته رؤية الألم في أعيُنهم.

هزّ شادو رأسه، وقال: «أتدرون؟ أظنُّني أوثرُ أن أكون بشريًا على أن أكون إلهًا. نحنُ البشر لسنا في حاجةٍ إلى إيمانِ أحدٍ بنا. إننا نستمرُّ على كلِّ حال، هذا طبعنا».

سادَ الصّمت في ذلك المكان العالي.

ثم، بطقطقةٍ صادمة، هوَت صاعقة البرق المجمَّدة في السّماء على قمّة الجبل، وأظلمَت السّاحة بالكامل.

وفي الظّلام توهّج كثيرون من هؤلاء الحضور.

تساءلَ شادو إن كانوا سيُجادِلونه، أو يُهاجِمونه، أو يُحاوِلون قتله، وانتظرَ منهم استجابةً ما.

ثم أدركَ شادو أن الأضواء تنطفئ، أن الآلهة تُغادِر هذا المكان، بالحُفنات أوّلًا ثم بالعشرات، وأخيرًا بالمئات.

تقدّم إليه عنكب بحجم كلب رُتوايلر بخُطواتٍ ثقيلة من أقدامه السّبع، وفي أعيُنه وهج خافت.

وثبتَ شادو في مكانه، ولو أنه شعرَ بشيءٍ من الغثيان.

ولمّا اقتربَ العنكب كفايةً قال بصوت المستر نانسي: «أتقنتَ صُنعًا. أنا فخور بك. أحسنتَ البلاء يا فتى».

قال شادو: «أشكرك».

- «علينا أن نُعيدك. قضاء وقتٍ أطول من اللّازم في هذا المكان سيُؤذيك أذى بالغًا». ثم وضعَ المستر نانسي ساق عنكبٍ بنّيّة الشّعر على كتف شادو...

... وفي «ساحة أعلام الولايات السّبع» سعلَ المستر نانسي وقد استقرَّت يده اليُمنى على كتف شادو. كان المطر قد توقّف.

وضعَ المستر نانسي يده على جانبه كأنه جريح. سأله شادو إن كان بخير، فقال: «إنني متين كالمسامير القديمة، بل أمتن». لم تكن لهجته لهجة رجلٍ سعيد، بل لهجة عجوزٍ يتألّم.

في المكان عشرات منهم واقفون أو جالسون على الأرض أو الدّكك. وقد بدا كثيرون منهم مصابين إصاباتٍ بليغةً.

سمعَ شادو صوتًا مجلجلًا في السّماء يقترب من جهة الجنوب، فنظرَ إلى نانسي سائلًا: «مروحيّات؟».

أومأ المستر نانسي برأسه إيجابًا، وقال: «لا تشغل بالك بهم ثانيةً. سيُنظّفون الفوضى ويرحلون. إنهم بارعون في هذا».

– «مفهوم».

كان شادو يعلم أنه يُريد أن يرى جزءًا معيّنًا من الفوضى بنفسه قبل تنظيفها. استعارَ كشّافًا من رجلٍ أشيب يبدو كمذيع أخبارٍ متقاعد، وبدأ يبحث.

ووجدَ لورا متمدّدةً على الأرض في كهفٍ فرعي إلى جوار مجسّمٍ لنُومات يُمارِسون التّعدين كمشهدٍ مأخوذ مباشرةً من «سنو وايت». الأرض تحتها مبلّلة بالدّم اللّزج، وقد انقلبَت على جانبها حيث ألقاها لوكي بعدما سحبَ الحربة منهما.

تشبّثت إحدى يدَي لورا بصدرها، وبدَت واهنةً إلى حدٍّ مرعب، كما بدَت ميتةً أيضًا، ولو أن شادو كادَ يعتاد هذا.

أقعى شادو بجوارها ولامسَ وجنتها ونطقَ اسمها، لتنفتِح عيناها ويدور رأسها حتى أصبحَت تَنظُر إليه.

بصوتٍ ضعيف قالت: «أهلًا جروي».

– «أهلًا لورا. ماذا حدثَ هنا؟».

– «لا شيء. مجرّد أشياء. هل فازا؟».

– «لا أدري. أظنُّ أن تلك الأشياء نسبيّة نوعًا، لكنني منعتُ المحركة التي حاولا إشعالها».

قالت: «جروي الذّكي. ذلك الرّجل، المستر وورلد، قال إنه سيغرز في عينك عصا. لم يُعجِبني على الإطلاق».

– «لقد ماتَ. أنتِ قتلتِه يا حبيبتي».

أومأت قائلةً: «عظيم».

انغلقَت عيناها، ووجدَت يد شادو يدها الباردة واحتوَتها، وبعد فترةٍ عادَت تفتح عينيها.

سألَته: «هل عرفت كيف تُعيدني من الموت؟».

قال: «أظنُّ. على الأقل أعرفُ وسيلةً واحدةً».

قالت: «عظيم»، واعتصرَت يده بيدها الباردة، ثم قالت: «والعكس؟ ماذا عن العكس؟».

- «العكس؟».

همسَت: «نعم. أظنُّني استحققتُه».

- «لا أريدُ أن أفعل ذلك».

فلم تقل شيئًا، وببساطةٍ انتظرَت.

قال شادو: «ليكن»، ثم سحبَ يده من يدها ورفعَها إلى عُنقها.

قالت: «هو ذا زوجي»، وقالتها بفخر.

قال شادو: «أحبُّك يا حُلوتي».

همسَت لورا: «أحبُّك يا جروي».

أغلقَ يده حول العُملة الذَّهب المعلَّقة من رقبتها، وبقوَّةٍ شدَّ السُّلسلة التي انقطعَت بسهولة، ثم أخذَ العُملة الذَّهب بين سبَّابته وإبهامه، ونفخَ فيها، وبسطَ يده عن آخِرها.

ولم تَعُد العُملة هناك.

ظلَّت عينا لورا مفتوحتين، لكنهما لم تتحرَّكا.

مالَ شادو عليها وطبعَ قُبلةً حانيةً على خدِّها البارد، لكنها لم تستجِب، ولم يتوقَّع أن تستجيب. ثم نهضَ وخرجَ من الكهف ليُحدِّق إلى اللَّيل.

انجابَت العواصف، والهواء عادَ طازجًا نظيفًا جديدًا.

لا شكَّ لديه أن غدًا سيكون يومًا في غاية الجمال.

# الجزء الرّابع

## خاتمة:
## شيء ما يُضمِره الموتى



# الفصل التَّاسع عشر

*أفضل طريقةٍ يصف المرء بها حكايةً هي حكيها. هل ترى؟ الطَّريقة التي يصف بها المرء قصَّةً -لنفسه أو للعالم- هي حكي القصَّة. إنه فعل موازنة، وإنه حُلم. كلَّما كانت الخريطة أدق حاكَت المنطقة أكثر، وأدقُّ خريطةٍ ممكنة ستكون المنطقة نفسها، ومن ثَمّ دقيقةً تمامًا ولا فائدة منها على الإطلاق. الحكاية هي الخريطة التي هي المنطقة. يجب أن تتذكَّر هذا.*

- من دفاتر المستر آيبس

كانا يقودان الحافلة الـ «ڤولكسواجن» إلى فلوريدا على طريق الولايات 75. منذ الفجر وهما يقودان، أو بالأحرى يقود شادو فيما يجلس المستر نانسي بجواره على المقعد الأمامي، وبين الحين والآخَر، بتعبيرٍ موجوع على وجهه، يعرض تولِّي القيادة، فيردُّ شادو كلَّ مرَّةٍ بالرَّفض.

- «أأنت سعيد؟». ألقى المستر نانسي السُّؤال فجأةً. منذ ساعاتٍ يُحدِّق إليه الرَّجل؛ متى اختلسَ شادو نظرةً خاطفةً إلى يمينه وجدَ المستر نانسي يَنظُر إليه بعينين بنِّيَّتين كالتُّربة.

أجابَ شادو: «لستُ سعيدًا حقًّا، لكنني لم أمُت بعدُ».

- «هه؟».

- «لا تصِف رجلًا بالسَّعادة قبل أن يموت. هيرودوت».

رفعَ المستر نانسي حاجبيْن أبيضيْن قائلًا: «أنا لم أمُت بعدُ، وغالبًا لأني لم أمُت بعد فإنني في منتهى السَّعادة».

قال شادو: «مقولة هيرودوت هذه، إنها لا تعني أن الموتى سُعداء، بل تعني أنك لا تستطيع الحُكم على شكل حياة أحدٍ حتى تنتهي».

- «حتى في ذلك الحين لا أحكمُ. أمَّا السَّعادة... للسَّعادة أصناف مختلفة، تمامًا كما للموت أصناف عديدة. وبالنِّسبة إليَّ، إنني آخذُ ما أستطيعُ الحصول عليه وقت استطاعتي الحصول عليه».

غيَّر شادو الموضوع بقوله: «تلك المروحيَّات، التي أخذَت الجثث والجرحى».

- «ماذا عنها؟».

- «مَن أرسلَها؟ من أين أتَت؟».

- «لا تشغل بالك بها. إنها مثل الڤالكيري أو الصُّقور الحوَّامة،[1] تأتي لأن عليها أن تأتي».

- «كما تقول».

- «الموتى والجرحى سيتلقُّون العناية اللَّازمة. إن سألتني، فيبدو أن چاكل العجوز سيقضي الشَّهر القادم تقريبًا مشغولًا جدًّا. أخبِرني بشيءٍ يا ولد يا شادو».

- «حسن».

- «هل تعلَّمت شيئًا من كلِّ ما حدثَ؟».

هزَّ شادو كتفيه قائلًا: «لا أدري. معظم ما تعلَّمته على الشَّجرة نسيته بالفعل. أظنُّني قابلتُ بعض النَّاس. لكنني لم أعُد متأكِّدًا من أيِّ شيء. الأمر يُشبِه واحدًا من تلك الأحلام التي تُغيِّرك؛ تحتفظ بجزءٍ من الحُلم للأبد، وتعرف

---

(1) الڤالكيري: مجموعة من الربَّات في الميثولوچيا النورديَّة، مسؤولات عن نقل مَن ماتوا بشجاعةٍ في المعركة إلى ڤالهالا. أمَّا الصُّقور الحوَّامة فمقرونة بالموت في فُلكلور سُكَّان أمريكا الأصليِّين. يُلحَظ أن كلا الڤالكيري والصُّقور الحوَّامة اسم يُطلَق على أنواعٍ مختلفة من المروحيَّات. (المُترجم).

أشياء في أعماق نفسك لأنها حدثت لك، لكن إذا جربت البحث عن تفاصيل فلتت من عقلك».

قال المستر نانسي: «أجل». ثم قال على مضض: «است غبيًا لتلك الدرجة».

- «ربما، لكنني أتمنّى لو أني احتفظتُ بالمزيد مما ضاع مني منذ خرجت من السّجن. لقد مُنِحتُ أشياءَ كثيرةً وفقدتها ثانيةً».

- «لعلّك احتفظت بأشياءَ أكثر مما تحسب».

ردَّ شادو: «لا».

عبرا الحدود إلى فلوريدا، ورأى شادو نخلةً للمرّة الأولى في حياته. تساءل إن كانوا زرعوها هنا على الحدود عمدًا لكي يُعلِموك أنك الآن في فلوريدا.

بدأ المستر نانسي يغطُّ، فألقى شادو عليه نظرةً. ما زالَ لونُ العجوز رماديًّا قاتمًا، وفي أنفاسه حشرجة، حتى إن شادو تساءلَ -وليس للمرّة الأولى- إن كان الرّجل قد أُصيبَ بجرحٍ في الصّدر أو الرّئة في أثناء القتال. كان نانسي قد رفضَ أيَّ عنايةٍ طبّيّة.

امتدّت فلوريدا مسافةً أطول مما تخيَّل شادو، وكان الوقت قد تأخَّر عندما توقَّف في ضواحي فورت پيرس أمام منزلٍ خشبيٍّ صغيرٍ من طابقٍ واحد، نوافذه مغلقة بإحكام. دعاه نانسي، الذي أرشده خلال الأميال الخمسة الأخيرة، إلى المبيت، فقال شادو: «يُمكنني أن أستأجر حُجرةً في موتل. ليست مشكلةً».

- «يُمكنك أن تفعل ذلك، وستجرحني. واضحٌ أني لن أقول شيئًا، لكنني سأنجرحُ بشدّة. أفضل إذًا أن تبيت هنا، وسأُعدُّ لك فِراشًا على الأريكة».

فتحَ المستر نانسي مصاريع الوقاية من الأعاصير ثم النّوافذ. كانت في المنزل رائحة زنخٍ ورطوبة، والقليل من الحلاوة، كأنه مسكونٌ بأشباح بسكويت ماتَ منذ زمنٍ طويل.

على مضضٍ وافقَ شادو على قضاء اللّيلة هنا، تمامًا كما وافق على مضضٍ أشد أن يمشي مع المستر نانسي إلى البار في نهاية الطّريق، ليتناوَلا شراب آخِرِ ليلٍ واحدًا فيما يُهوّى المنزل.

سألَه نانسي وهما ماشيان ببُطءٍ في ليل فلوريدا الحار الرَّطب: «هل رأيت تشرنوبوج؟». كان الهواء يعجُّ بصراصير النَّخيل الطنّانة، والأرض بمخلوقاتٍ تزحف وتُطَقطِق. أشعلَ المستر نانسي سيجارلّو، وسعلَ وخنقَه الدُّخان، لكنه ظلَّ يُدخِّن.

- «كان قد رحلَ عندما خرجتُ من الكهف».

- «لا بُدَّ أنه عادَ إلى داره. سيكون في انتظارك هناك كما تعلم».

- «أجل».

ساراصامتيْن حتى نهاية الطَّريق. ليس البار فخمًا، لكنهما وجداه مفتوحًا.

قال المستر نانسي: «سأشتري دور البيرة الأوَّل».

ردَّ شادو: «سنشرب بيرةً واحدةً فقط، تذكَّر هذا».

- «ألنت بخيل أم ماذا؟».

اشترى المستر نانسي دور البيرة الأوَّل، والثَّاني اشتراه شادو، الذي حدَّق برُعبٍ فيما أقنعَ نانسي السَّاقي بتشغيل ماكينة الكاريوكي، ثم شاهدَ بحرجٍ مفتون فيما غنَّى العجوز «ما الجديد يا قطَّة؟»[cxxiii] بصوتٍ صدري قوي، قبل أن يُدَندِن نُسخةً شجيَّةً مؤثِّرةً من «كما تبدين اللَّيلة».[cxxiv] للرَّجل صوتُ مطرب، وفي النِّهاية كان القلائل الباقون في البار يُهلِّلون له ويُصفِّقون.

حين عادَ إلى شادو الجالس إلى المشرب بدا نانسي أفضل شكلًا؛ صفا بياض عينيه، واختفى الشُّحوب الرَّمادي الذي صبغَ بشرته. قال لشادو: «دورك».

- «مستحيل».

إلَّا أن المستر نانسي طلبَ المزيد من البيرة، وناولَ شادو قائمةً مطبوعةً مبقَّعةً بأغانٍ يُمكنه الاختيار منها قائلًا: «اختَر واحدةً تعرف كلماتها».

قال شادو: «ليس هذا طريفًا». كان العالم قد بدأ يميد به، إي نعم قليلًا، لكنه لم يستطِع استجماع طاقةٍ للجدل، وإذا بالمستر نانسي يُشغِّل شريط الموسيقى المصاحبة لـ «لا تدعني أُفهَم خطأً»،[cxxv] ويدفع شادو -حرفيًّا يدفعه دفعًا- إلى المنصَّة المرتجَلة الضَّئيلة في طرف البار.

أمسكَ شادو المايك كأنه مكهرَب، ثم بدأت الموسيقى المصاحبة، وببحَّةٍ غنَّى بادئة «*يا حبيبي...*»، فلم يقذف أحد في البار شيئًا في اتِّجاهه، ووجدَه شادو شعورًا طيِّبًا. «*هل تفهمني الآن؟*». كان صوته خشنًا منغَّمًا، لكن الخشونة تُلائِم هذه الأغنيَّة تمامًا. «*أحيانًا ينتابني شيء من الغضب. ألا تعلم أن أحدًا حيًّا لا يُمكن أن يكون ملاكًا دومًا...*».

وكان لا يزال يُغنِّي وهما عائدان إلى المنزل في ليل فلوريدا النَّشط، العجوز والشَّاب يتعثَّران وسعيدان.

- «إنني مجرّد روحٍ حسنة النّيات». غنّى شادو للشراطين والعناكب وصراصير النّخيل والسّحالي واللّيل. «يا رب لا تدعني أُفهم خطأً».

قاده المستر نانسي إلى الأريكة، التي وجدها شادو أصغر منه كثيرًا، فقرّر أن ينام على الأرض، ولكن حين حزم أمر نومه على الأرض كان قد غاب في نومٍ عميق، نصف جالسٍ ونصف متمدّدٍ على الأريكة الضّئيلة.

في البدء لم يَحلُم، ولم يختبر إلّا الظّلام المريح، ثم رأى نارًا مشتعلةً في الظّلام، وعمدَ إليها.

دون أن يُحرّك شفتيه همسَ الرّجل الجاموس: «أحسنتَ البلاء».

قال شادو: «لا أدري ماذا فعلتُ».

- «أقمتَ السّلام. أخذتَ كلامنا وجعلته كلامك. إنهم لم يفهموا قطُّ أنهم هنا -والنّاس الذين يَعبُدونهم هنا- لأن وجودهم هنا يُناسِبنا. لكن بإمكاننا أن نُغيِّر رأينا، وقد نُغيِّره».

سألَه شادو: «أأنت إله؟».

هزَّ الرَّجل ذو رأس الجاموس رأسه نفيًا، وللحظةٍ خُيِّلَ إلى شادو أن الكائن استطرفَ السُّؤال. «أنا الأرض».

وإن كان الحُلم قد استمرَّ فشادو لم يتذكَّره.

سمعَ شيئًا يطشُّ، وقد أحسَّ برأسه يُؤلِمه ويدقُّ خلف عينيه.

وجدَ المستر نانسي يطهو الفطور؛ كومةً من البانكيك، ولحمًا مقدّدًا ساخنًا، وبيضًا مقليًا مثاليًا، وقهوةً. بدا الرَّجل في ريعانِ الصِّحَّة.

قال شادو: «رأسي يُؤلِمني».

- «تناوَل فطورًا شهيًّا وستَشعُر أنك رجل جديد».

- «أفضِّلُ أن أشعر أني الرَّجل نفسه، ولكن برأسٍ جديد».

قال المستر نانسي: «كُل».

فأكلَ شادو.

- «بِمَ تَشعُر الآن؟».

- «بأني مصاب بصداع، مع فرق أن في بطني طعامًا وأظنُّ أنني سأتقيأ».

- «تعالَ معي». بجوار الأريكة التي قضى عليها شادو اللّيل يستقرُّ صندوق مصنوع من خشبٍ داكن مغطى بدثارٍ إفريقي، ويبدو كصندوق قراصنةٍ صغير الحجم. فتحَ المستر نانسي القفل ورفعَ الغطاء ليكشف عن عددٍ من العُلب في داخله، ونقَّب بينها قائلًا: «إنه علاج عُشبي إفريقي قديم، مصنوع من لحاء الصَّفصاف المطحون وأشياءَ من هذا القبيل».

- «مثل الأسبرين؟».

أجابَ المستر نانسي: «نعم، مثله بالضَّبط»، ومن قاع الصُّندوق التقطَ زُجاجةً ضخمةً من الحجم الاقتصادي من الأسبرين الشَّائع، وحلَّ غطاءها وأخرجَ منها قُرصيْن أبيضيْن قائلًا: «هاكَ».

علَّق شادو: «صندوق أنيق»، وأخذَ القُرصيْن المُرَّيْن وابتلعَهما بكوبٍ من الماء.

- «ابني أرسله إليَّ. إنه ولد بار. لا أراه بالقدر الذي أحبِّذه».

قال شادو: «إنني أفتقدُ الأربعاء، على الرغم من كلِّ ما فعلَه. لا أنفكُّ أتوقَّعُ أن أراه، لكنني أرفعُ عينيَّ ولا أجده». ظلَّ يُحدِّق إلى صندوق القراصنة محاولًا التَّوصُّل إلى ما يُذكِّره به.

*سوف تفقد أشياءَ كثيرةً، ولكن إيَّاك أن تفقد هذا.* مَن قال ذلك؟

- «تفتقده؟ بعد كلِّ ما عرَّضك إليه؟ كلُّ ما عرَّضنا جميعًا إليه؟».

- «نعم، أحسبُ هذا. أتظنُّه سيعود؟».

قال المستر نانسي: «أظنُّ أنه أينما اجتمعَ رجلان لبيع رجلٍ ثالث كمنجةً قيمتها عشرون دولارًا بعشرة آلاف دولار، سيكون حاضرًا بروحه».

- «نعم، ولكن...».

قاطعَه المستر نانسي وقد بدأ التَّعبير على وجهه يتحجَّر: «يَجدُر بنا أن نعود إلى المطبخ. تلك المقالي لن تغسل أنفُسها».

غسلَ المستر نانسي المقالي والأطباق، وجفَّفها شادو ووضعَها في أماكنها، وفي أثناء ذلك بدأ الصُّداع يخفُّ.

عادا إلى حُجرة الجلوس، وعادَ شادو يُحدِّق إلى الصُّندوق عازمًا على التَّذكُّر. ثم سألَ: «إذا لم أذهب لأرى تشرنوبوج فماذا سيَحدُث؟».

ردَّ المستر نانسي بنبرةٍ قاطعة: «ستراه. قد يعثُر عليك، وقد يجلبك إليه، لكنك -بوسيلةٍ أو بأخرى- ستراه».

أومأ شادو برأسه. بدأ شيء ما ينجلي في عقله. وسأل: «أخبرني، أهناك إله له رأس فيل؟».

- «جانش؟ إنه إله هندوسي،[1] يُزيل العقبات ويُسهِّل الرِّحلات. طاه بارع أيضًا».

رفعَ شادو عينيه قائلًا: «... *إنها في الخرطوم*. كنتُ أعرفُ أن لهذا أهميَّة، لكنني لم أعرف لِمَ. فكَّرتُ أنه قد يعني جذع الشَّجرة أو ما شابه. لكنه لم يكن يتكلَّم عن ذلك على الإطلاق، أليس كذلك؟».

قال المستر نانسي مقطِّبًا وجهه: «لا أفهمُ».

قال شادو: «إنها في الصُّندوق»،[cxxvi] وقالها عالمًا صحَّة هذا. ما لم يعلمه هو لماذا يُمكن أن يكون صحيحًا، إلَّا أن يقينه كان تامًّا.

نهضَ معلنًا: «يجب أن أذهب. أنا آسف».

رفعَ المستر نانسي حاجبًا متسائلًا: «لِمَ العجلة؟».

أجابَ شادو: «لأن الجليد يذوب».

---

(1) جانش أو جانشا: إله الحكمة والفصاحة والعلم الهندوسي، والمدوِّن الأوَّل. وُلد جانش بهيئة إنسان، لكن شيفا قطعَ رأسه، وبعد ذلك حلَّ محلَّه أقرب رأسٍ وجدوه، وهو رأس فيل. يُصوَّر جانش عادةً بأربع أذرُع وكرش، ويُسافر على ظهر فأر. (المُترجم).

# الفصل العشرون

إنــه
*الدّبيع*
*و*
*رجل البالون*
*ذو قدمَي الكبش*
*يصفر*
*بعيدًا*
*و*
*قريبًا*

- إي إي كمنز

كان شادو يقود سيّارةً مستأجرةً. خرجَ من الغابة على مهلٍ في حدود الثّامنة والنّصف صباحًا، نازلًا التّل بسرعة خمسةٍ وأربعين ميلًا في السّاعة، ليَدخُل ليكسايد بعد ثلاثة أسابيع من اعتقاده الوطيد أنه غادرَها إلى الأبد.

قطعَ طُرقات البلدة مدهوشًا لرؤيتها لم تتغيَّر إلَّا قليلًا جدًّا خلال الأسابيع القليلة الماضية التي مرَّت كعُمرٍ كامل، وركنَ السيَّارة في منتصَف الممرِّ الذي يقود إلى البُحيرة، ثم خرجَ من السيَّارة.

لم تَعُد على البُحيرة المتجمِّدة أكواخ صيدٍ أو عربات SUV، ولا أحد يجلس عند فتحة صيدٍ بصنارةٍ ودستةٍ من عُلب البيرة. البُحيرة الآن مظلمة؛ لم تَعُد ملتحفةً بطبقةٍ بيضاء مصمتة من الثَّلج، وعلى سطح الجليد رُقع عاكسة من الماء، والماء تحت الجليد مظلم، والجليد نفسه صافٍ بما يكفي لظهور الظُّلمة من تحته واضحةً. السَّماء غائمة، لكن البُحيرة الجليديَّة موحشة وخالية.

أو شبه خالية.

سيَّارة واحدة باقية فوق الجليد، مركونة على سطح البُحيرة المتجمِّدة تحت الجسر تقريبًا، لكي لا يسع أيَّ أحدٍ يمرُّ بالبلدة أو منها إلَّا أن يراها. لونها أخضر متَّسخ، سيَّارة من النَّوع الذي يتخلَّى عنه النَّاس في موقف، النَّوع الذي يُركَن ويُترَك لأنه لا يستأهِل العودة إليه. لا تحتوي هذه السيَّارة على محرِّك. إنها رمز لرهان، تنتظر أن يتعفَّن الجليد بما فيه الكفاية، أن يلين ويصير خطرًا بما فيه الكفاية، حتى تأخذها البُحيرة إلى الأبد.

تعترض سلسلة الممرَّ القصير الذي يقود إلى البُحيرة، وتمنع لافتة دخول النَّاس أو المركبات معلنةً: «**جليد رقيق**»، وتحتها متتالية رسوم توضيحيَّة باليد تتخلَّلها خطوط تُوضِّح أنه ممنوع السيَّارات، ممنوع المشي، ممنوع عربات الثَّلج. خطر.

تجاهلَ شادو التَّحذيراتِ وهبطَ على الضفَّة مستندًا إلى يديه. الضفَّة زلقة، فقد ذابَ الجليد محيلًا التُّربة إلى وحلٍ تحت قدميه، والعُشب البنِّي بالكاد أتاحَ قوَّة جرٍّ، وهكذا تزحلقَ شادو وزحفَ، وبحذرٍ مشى إلى رصيفٍ خشبيٍّ قصير، ومنه خطا على سطح الجليد.

طبقة الماء فوق الجليد، المكوَّنة من الجليد والثَّلج الذَّائبيْن، أعمق مما بدَت من أعلى، والجليد تحت الماء أشدُّ زلقًا وملاسةً من أيِّ ساحة تزلُّج، حتى إن شادو وجدَ نفسه يُكافِح مرغمًا للحفاظ على توازُنه. خاضَ شادو الماء الذي غطَّى حذاءه حتى الأربطة وتسرَّب إلى داخله، ماءً جليديًّا خدَّر كلَّ بُقعةٍ لمسَها، وإذ تقدَّم بصعوبةٍ عبر البُحيرة المتجمِّدة اعتراه شعور غريب من البُعد، كأنما يُشاهِد نفسه على شاشة سينما تعرض فيلمًا هو بطله، في دور محقِّق ربما. الشُّعور الآن شعور بالحتميَّة، كأن كلَّ شيءٍ سيَحدُث سيُعرَض إلى النِّهاية، وما من شيءٍ بوسعه لتغيير لحظةٍ واحدة.

تقدَّم إلى الخُردة واعيًا إلى حدٍّ مؤلم أن الجليد أشدُّ عفنًا من أن يفعل هذا، وأن برودة الماء تحت الجليد في أقصى درجاتها من غير تجمُّد. شعرَ

بأنه مكشوف وهو وحده على الجليد، لكنه استمرَّ يمشي متعثِّرًا منزلقًا، وعدَّة مرَّاتٍ سقط.

مرَّ بعُلب وزُجاجات بيرة ملقاة على الجليد، وبفتحاتٍ دائريَّة مقطوعة من أجل الصَّيد، فتحاتٍ لم تتجمَّد ثانيةً وتملأ كلًّا منها مياهٌ سوداء.

بدَت الخُردة أبعد مما بدَت من الطَّريق. سمعَ شادو طقطقةً مرتفعةً من جنوب البحيرة مثل صوت عصا تنكسِر، تبعَها طنين شيءٍ ضخم كأن وترَ جيتار بيس بحجم البُحيرة يرتعِش. بصوتٍ مدوٍّ صرَّ الجليد وأنَّ مثل بابٍ قديم يحتجُّ على فتحه، وواصلَ شادو المشي بثباتٍ قدر إمكانه.

همس صوتٌ عاقل في مؤخِّره ذهنه: *هذا انتحار. ألا يُمكنك أن تنسى الأمر؟*

ردَّ بصوتٍ مسموع: «لا. يجب أن أعرف»، وظلَّ يمشي.

وصلَ عند الخُردة، ومن قبل وصوله علمَ أنه محقٌّ، فحول السيَّارة جوٌّ فاسد خانق، شيء هو -في آنٍ واحد- رائحة منفِّرة خفيفة وأيضًا طَعم كريه في مؤخِّرة حلقه. دارَ حول السيَّارة ناظرًا داخلها. المقاعد متَّسخة وممزَّقة، والسيَّارة نفسها خالية بوضوح. جرَّب فتح الأبواب، فوجدَها موصدةً. جرَّب الصُّندوق. موصدٌ أيضًا.

تمنَّى لو أنه أحضرَ عتلةً.

ضمَّ قبضته داخل القُفَّاز، وعدَّ إلى ثلاثة، ثم هوى بيده بقوَّةٍ على نافذة مقعد السَّائق.

وأوجعَته يده، وظلَّ زُجاج النَّافذة سليمًا.

فكَّر في الانقضاض على النَّافذة، فهو واثق بقُدرته على كسرها بركلة، إن لم ينزلِق ويَسقُط على الجليد المبتل، لكن آخر ما يُريد فعله أن يُقلقِل الخُردة لدرجة تشقُّق الجليد تحتها.

تطلَّع إلى السيَّارة، ثم مدَّ يده إلى هوائي الراديو -وهو من النَّوع الذي يُفترَض أنه يُفتَح ويُقفَل، لكنه لم يَعُد يُقفَل منذ عقدٍ من الزَّمن، ومنذ ذلك الحين وهو مفتوح- وبالقليل من الثَّني كسرَه عند القاعدة، ثم أخذَ طرف الهوائي الرَّفيع -الذي كان في آخِره زرٌّ معدني سابقًا، لكنه ضاعَ مع الزَّمن- وبأصابع قويَّة ثناه صانعًا خُطَّافًا مرتجلًا.

ثم أقحمَ شادو الهوائي المعدني المطوَّل بين مطَّاط النَّافذة وزُجاجها، متوغِّلًا به في آليَّة الباب، ثم أخذَ يُنقِّب في الآليَّة، يلوي الهوائي المعدني ويُحرِّكه ويدفعه هنا وهناك حتى اشتبكَ، وعندها جذبَه إلى أعلى.

وشعرَ بالخُطَّاف المرتجَل ينزلِق من القفل بلا فائدة.

زفرَ شادو، وعادَ يُنقِّب بمزيدٍ من البُطء والحذر، متخيِّلًا الجليد يتبرَّم تحت قدميه إذ نقلَ ثقله من قدمٍ إلى قدم. وببُطءٍ... و...

ثَبَّته! جذبَ الهوائي، وانفتحَت آلية الإغلاق داخل الباب الأمامي. مدَّ شادو يدًا مقفَّزةً وأمسكَ مقبض الباب وضغطَ الزِّرَّ وشدَّ.

ولم ينفتح الباب.

فكَّر: *إنه عالق، مغلَّف بالجليد لا أكثر*، وشدَّ الباب منزلقًا على الجليد، وفجأةً انفتحَ باب الخُردة بعُنفٍ مبعثرًا الجليد في كلِّ اتِّجاه.

الجوُّ الخانق أسوأ داخل السيَّارة؛ رائحة عفنٍ ومرضٍ أصابَت شادو بالغثيان.

مدَّ يده تحت لوحة القيادة، ووجدَ المقبض البلاستيكي الذي يفتح صندوق السيَّارة، وبقوَّةٍ شدَّه.

وصدرَ صوت ثقيل مكتوم من خلفه إذ انفتحَ غطاء الصُّندوق.

سارَ شادو على الجليد، وانزلقَ ناثرًا الماء حول السيَّارة وقد تمسَّك بجانبها.

وفكَّر: *إنها في الصُّندوق*.

كان الصُّندوق مفتوحًا مقدار بوصة، فمدَّ شادو يديه ورفعَ الغطاء فاتحًا إياه على وسعه.

الرَّائحة سيِّئة، ولكن لأمكنَ أن تكون أسوأ كثيرًا. يملأ قاع الصُّندوق جليد نصف ذائبٍ بارتفاع بوصةٍ أو نحوها، وفي الصُّندوق فتاة ترتدي حُلَّة ثلجٍ قرمزيَّة لم تَعُد نظيفةً، وشعرها الفئراني طويل، وفمها مغلق، فلم يرَ شادو تقويم الأسنان المطَّاطي الأزرق، وإن علمَ أنه موجود.

البرد حفظَها، أبقاها طازجةً كما لو أنها مودعة في مجمِّد.

عيناها مفتوحتان عن آخِرهما، وتبدو كأنها كانت تبكي حين ماتَت، والدُّموع التي تجمَّدت على وجنتيها لم تَذُب بعدُ، ولون قُفَّازيْها أخضر يانع.

قال شادو لجثّة أليسن مكجفرن: «كنتِ هنا طوال الوقت. كلُّ شخصٍ عبرَ هذا الجسر رآكِ، كلُّ مَن مرَّ من البلدة رآكِ. صيّادو الجليد مرّوا بكِ كلَّ يوم، ولم يعلم أحد». ثم أدركَ كم هو أحمق.

أحدهم يعلم.

أحدهم وضعَها هنا.

مدَّ يده داخل الصُّندوق ليرى إن كان يستطيع إخراجها. لقد عثرَ عليها رغم كلِّ شيء، والآن عليه أن يُخرجها. وضعَ ثقله على السيّارة إذ انحنى داخل الصُّندوق.

وربما كان هذا السَّبب.

انكسرَ الجليد تحت العجلتين الأماميَّتين في تلك اللَّحظة، ربما بسبب حركته وربما لا. مالَت مقدِّمة السيّارة غائصةً عدّة أقدام في مياه البُحيرة المظلمة، وبدأ الماء ينصبُّ داخل السيّارة من نافذة السّائق المفتوحة وانتشرَ حول كاحلَي شادو، ولو أن الجليد الذي يقف عليه ظلَّ ثابتًا. تلفَّت حوله بعجلةٍ متسائلًا كيف يَهرُب... ثم فاتَ الأوان. مالَ الجليد بانحدارٍ شديد ليُلقيه على السيّارة والفتاة الميتة في صندوقها، وغاصَت مؤخّرة السيّارة، وغاصَ شادو معها في مياه البُحيرة الباردة. كانت السّاعة التّاسعة وعشر دقائق صباح الثّالث والعشرين من مارس.

قبل أن يَسقُط أخذَ نفسًا عميقًا وأغمضَ عينيه، إلّا أن برودة البُحيرة لطمَته كأنما ارتطمَ بحائط، وطردَت ما في جسده من أنفاس.

غطسَ شادو في المياه الجليديَّة الحالكة، تسحبه السيّارة إلى أسفل.

إنه تحت البُحيرة، في الظَّلام والبرد، مثقل بثيابه وقُفّازيه وحذائه، عالق ومعصوب بمعطفه الذي بدا كأنه صارَ أثقل وأضخم مما تخيَّل.

ما زالَ يَسقُط. حاولَ دفع نفسه بعيدًا عن السيّارة، لكنها تسحبه معها، ثم ارتفعَ دويٌّ سمعَه شادو بجسده بأكمله لا بأذنيه، وشُدَّت قدمه اليُسرى بعُنفٍ من الكاحل والتوَت محصورةً تحت السيّارة إذ استقرَّت في قاع البُحيرة، واستولى عليه الذُّعر.

فتحَ عينيه.

كان يعلم أن القاع مظلم. عقلانيًا، كان يعلم أن الظَّلام أشدُّ دموسًا من أن يرى فيه شيئًا، ومع ذلك وجدَ أن باستطاعته الرُّؤية، ورأى كلَّ شيء. رأى وجه

آليسن مكجفرن الشّاحب يُحدّق إليه من الصُّندوق المفتوح، ورأى سيّاراتٍ أخرى أيضًا، خُردوات السّنين المنقضية، هياكل باليةً في الظّلام، نصف مدفونة في طمي البُحيرة. تساءلَ شادو في نفسه: *وماذا كانوا يجرُّون على جليد البُحيرة قبل ظهور السيّارات؟*

علمَ شادو دون أدنى شكٍّ أن في صندوق كلّ سيّارةٍ طفلًا ميتًا. السيّارات هنا بالعشرات، كلٌّ منها استقرّ على الجليد أمام أعيُن العالم طوال الشّتاء البارد، وكلٌّ منها غاصَ في مياه البُحيرة الباردة في نهاية الشّتاء.

ها هنا مثواهم: لمي هاوتلا وچسي لوڤات وساندي أولسن وچو مينچ وسارا ليندكويست وسائرهم، هنا في القاع حيث يسود الصّمت والبرد...

حاولَ شادو سحب قدمه، فوجدَها محشورةً بشدّة، وقد بدأ الضّغط في رئتيه يستعصي على الاحتمال، واستبدّ ألم حاد رهيب بأُذنيه. زفرَ ببُطء، فارتفعَت فقاقيع الهواء حول وجهه، وفكّر شادو: *قريبًا، عليّ أن أتنفّس قريبًا وإلّا اختنقتُ.*

مدّ كلتا يديه ووضعَهما حول مِصَدّ السيّارة الخُردة، وبكلّ قوّته دفعَ مرتكزًا على وزنه، ولم يَحدُث شيء.

قال لنفسه: *إنه مجرّد هيكل سيّارة. لقد خلعوا المحرّك. المحرّك أثقل أجزاء السيّارة. يُمكنك أن تفعلها. استمرّ في الدّفع.*

ودفعَ شادو.

ببُطءٍ ممض، كسرًا من البوصة في المرّة، انزلقَت السيّارة إلى الأمام في الطّمي، وسحبَ شادو قدمه من تحت السيّارة وركلَ، وحاولَ دفع نفسه إلى مياه البُحيرة الباردة.

ولمّا لم يتحرّك قال لنفسه: *المعطف، إنه المعطف، إنه عالق أو مشبوك في شيء.* سحبَ ذراعيه من كُمّي المعطف، وتلمّس السحّاب المتجمّد بأصابع خدرة، ثم شدّ جانبَي السحّاب بكلتا يديه وأحسّ بالمعطف يلين ويتمزّق، وبعجلةٍ حلّ نفسه من حضنه ودفعَ نفسه إلى أعلى بعيدًا عن السيّارة.

غمرَه إحساس بالاندفاع، وإن لم يُميّز أعلى من أسفل، وكان شادو يختنق، والألم في صدره ورأسه أبلغ من قُدرته على التّحمُّل، لدرجة أنه أيقنَ بأنه سيشهق لا محالة، سيتنفّس ماء البُحيرة البارد، سيموت. ثم صدمَ رأسه شيئًا جامدًا.

جليد. جسده ضاغطٌ على الجليد فوق سطح البُحيرة. هوى عليه بقبضتيه، لكن قوَّةً لم تتبقَّ في ذراعيه، ولا شيء يتشبَّث به، ولا شيء يركن إليه ليدفع. ذابَ العالم في السَّواد البارد تحت البُحيرة، وما من شيءٍ باقٍ إلَّا البرد.

فكَّر: *هذا سُخف*، وفكَّر متذكِّرًا فيلمًا قديمًا لتوني كرتس[***] شاهدَه في طفولته: *عليَّ أن أنقلب على ظهري وأدفع الجليد إلى أعلى وألصق به وجهي لأجد القليل من الهواء. يُمكنني أن أتنفَّس ثانيةً. في مكانٍ ما هنا هواء*. لكنه كان طافيًا يتجمَّد، ولم يَعُد يقوى على تحريك عضلةٍ واحدة ولو اعتمدَت حياته على ذلك، وهي معتمدةٌ عليه.

صارَ البرد محتملًا، صارَ دفئًا، وفكَّر شادو: *إنني أموتُ*. كان في نفسه غضب هذه المرَّة، ثورة عميقة، وقد أخذَ الألم والغضب وسخَّرهما ليتخبَّط ويُجبِر على الحركة عضلاتٍ قرَّرت عدم الحركة ثانيةً أبدًا.

دفعَ يده إلى أعلى، وأحسَّ بها تحتكُّ بحافة الجليد ثم ترتفع في الهواء. سعَت يده تبحث عن شيءٍ تتمسَّك به، وأحسَّ شادو بيدٍ أخرى تقبض عليها وتسحب.

اصطدمَ رأسه بالجليد، وحكَّه وجهه من أسفل، ثم برزَ رأسه في الهواء ورأى أنه يَخرُج من فتحةٍ في الجليد، وللحظةٍ لم يُمكنه إلَّا أن يتنفَّس ويَترُك ماء البُحيرة الأسود يسيل من أنفه وفمه، ويفتح ويُغلِق عينيه اللتين لا تريان إلَّا ضوء النَّهار المُعمي وأشكالًا غامضةً. والآن يسحبه أحدهم ويجرُّه من الماء جرًّا ويقول شيئًا ما عن تجمُّده حتى الموت، فهلمَّ يا رجل، اسحب نفسك! وتلوَّى شادو وانتفضَ مثل فيل بحرٍ يَخرُج على السَّاحل، يرتجف ويَسعُل ويرتعد.

شهقَ ناهلًا الهواء، وتمدَّد فاردًا جسده كلَّه على الجليد المطقطِق، عالمًا أنه لن يحتمل طويلًا، ولكن لا جدوى، فالآن تَخطُر أفكاره بصعوبة، ببُطءٍ كسيلان العسل الأسود.

حاولَ أن يقول: «اترُكني. سأكونُ بخير»، لكن كلامه خرجَ ملتبسًا مبهمًا، وبدأ كلُّ شيءٍ يتباطأ توطئةً للتَّوقُّف التَّام.

يحتاج إلى دقيقةٍ من الرَّاحة، هذا كلُّ شيء، يُريد أن يرتاح فقط، ثم يُمكنه أن ينهض ويتحرَّك، فواضحٌ أنه لا يستطيع الاستلقاء في مكانه هذا للأبد.

رجَّة، وماء يتناثَر على وجهه، ورُفِعَ رأسه. أحسَّ شادو بنفسه يُجَرُّ على الجليد، يتزحلق على ظَهره فوق السَّطح الأملس، وأرادَ أن يعترض، أن يشرح

حاجته إلى شيءٍ من الرَّاحة فحسب -وربما القليل من النَّوم. أهذا طلب مبالغ فيه؟- وبعدها سيكون بخير. ليتهم يدعونه وشأنه.

لم يعتقد أنه راحَ في النَّوم، لكنه كان واقفًا في سهلٍ شاسع، وهناك رجل له رأس وكتفا جاموس، وامرأة لها رأس كُندور هائل، وبينهما يقف ويسكي چاك يَنظُر إليه بحُزنٍ ويهزُّ رأسه.

دارَ ويسكي چاك على عقبيه وابتعدَ بخُطواتٍ بطيئة عن شادو، وابتعدَ الرَّجل الجاموس إلى جواره، وابتعدَت المرأة طائرة الرَّعد أيضًا، ثم حنَت رأسها وركَلَت وارتفعَت محلِّقةً في أعالي السَّماوات.

وشعرَ شادو بالضَّياع. أرادَ أن يُناديهم، يتوسَّل إليهم أن يرجعوا، ألَّا يتخلَّوا عنه، إلَّا أن كلَّ شيءٍ بدأ يفقد هيئته وشكله. رحلوا، وبدأت السُّهول تتلاشى، وأصبحَ كلُّ شيءٍ عدمًا.

كان الألم فظيعًا، كأن خلايا جسده وأعصابه كلَّها تذوب وتستيقظ وتُعلِن حضورها عن طريق حرقه وإيلامه.

أحس بيدٍ عند مؤخِّرة رأسه تُمسِكه من شعره، وبيدٍ أخرى تحت ذقنه. فتحَ عينيه متوقِّعًا أن يجد نفسه في مستشفى.

ووجدَ أنه حافي القدمين، ويرتدي بنطالًا چينز، وعاري الجذع. كان البُخار يُفعِم الهواء، ورأى شادو مرآة حلاقةٍ معلَّقةً على الحائط قُبالته، وحوضًا صغيرًا، وفُرشة أسنانٍ زرقاء في كوبٍ زُجاجي مبقَّع بالمعجون.

ببُطءٍ عُولِجَت البيانات، وحدةً واحدةً فقط في المرَّة.

في أصابع يديه حريق، وفي أصابع قدميه.

وبدأ يتأوَّه من الألم.

قال صوت يعرفه: «على مهلك يا مايك، على مهلك».

قال، أو حاولَ أن يقول: «ماذا؟ ماذا يَحدُث؟»، فنزلَ الكلام على أُذنيه بوقعٍ مشدود غريب.

إنه في مغطس، والماء ساخن -أو يحسبه ساخنًا، مع أنه لا يستطيع الجزم- ويرتفع منسوبه حتى عُنقه.

- «أغبى ما يُمكن فعله مع امرئٍ يتجمَّد حتى الموت أن تضعه أمام نار. وثاني أغبى شيءٍ يُمكن فعله أن تُدثِّره، خاصَّةً إن كانت ملابسه مبتلَّة وباردةً بالفعل. فالدُّثُر تعزله وتُحافِظ على برودته. وثالث أغبى شيء -وهذا رأيي الشَّخصي- أن تأخذ دمه وتُدفِّئه ثم تُعيد ضخِّه في جسده. هكذا يفعل الأطبّاء هذه الأيام. عمليّةٌ معقَّدة، مكلِّفة، حمقاء». كان الصَّوت آتيًا من فوق رأسه ومن خلفه. «أذكى وأسرع ما يُمكن فعله هو ما فعلَه البحَّارة مع السَّاقطين في الماء طيلة مئات السِّنين: تضعه في ماءٍ ساخن. ليس ساخنًا لدرجة الغليان، ولكن بما فيه الكفاية. والآن، ليكن في معلومك أنك كنت في حُكم الميت عندما عثرتُ عليك على الجليد. بِمَ تَشعُر الآن يا هوديني؟».

أجابَ شادو: «بألم. كلُّ شيءٍ يُؤلمني. لقد أنقذتَ حياتي».

- «أظنُّني فعلتُ. أيُمكنك أن ترفع رأسك دون عونٍ الآن؟».

- «ربما».

- «سأتركك. إذا بدأت تغوص تحت الماء فسأسحبك إلى أعلى».

وأطلقَت اليدان سراح رأسه.

أحسَّ بنفسه ينزلق إلى الأمام، فمدَّ يديه يضغط بهما على جانبَي المغطس، وأسندَ ظَهره. الحمَّام صغير، والمغطس معدني ومطلي بمينا توسَّخ وتقشَّر.

دخلَ رجل عجوز مجال رؤيته وقد بدا عليه القلق.

وقال هينزلمان: «هل تَشعُر بتحسُّن؟ تمدَّد واسترخِ. لقد دفَّأتُ حُجرة المعيشة. أخبِرني متى استعددت، وعندي معطف يُمكنك أن ترتديه، وسألقي بنطالك في المجفِّف مع بقيَّة ثيابك. هل يُناسِبك هذا يا مايك؟».

- «ليس ذلك اسمي».

- «كما تقول». قالها العجوز والتوى وجهه الخبيث في تعبيرٍ يُفشي الضِّيق.

لم يكن لدى شادو إحساس حقيقي بالزَّمن، وقد تمدَّد في المغطس حتى همدَ الحريق واستطاعَ ثني أصابع يديه وقدميه بلا انزعاج حقيقي، ثم ساعدَه هينزلمان على النُّهوض وصرَّف الماء الدَّافئ. جلسَ شادو على حافة المغطس، ومعًا خلعا عنه بنطاله.

من غير صعوبةٍ جمّة دسّ شادو نفسه في معطفٍ من قُماش المناشف مقاسه أصغر منه كثيرًا، ثم خرجَ متّكئًا على العجوز إلى حُجرة المعيشة وتهاوى على أريكةٍ عتيقة. كان متعبًا وضعيفًا، في غاية الإعياء، لكنه حيٌّ. في المدفأة تتّقد نار حطب، ومن فوق الجُدران تَنظُر مجموعة رؤوس غزلان مغبَّرة تبدو عليها الدَّهشة، مزاحمةً عددًا كبيرًا من الأسماك الكبيرة المدهونة بالورنيش.

خرجَ هينزلمان ببنطال شادو، ومن الحُجرة المجاورة سمعَ شادو وقفةً وجيزةً في ضجّة مجفّف الملابس قبل أن يُواصِل دورته.

عادَ العجوز حاملًا كوبًا خزفيًّا يتصاعَد منه البُخار، وقال: «هذه قهوة، أي إنها منبِّه. وصببتُ فيها القليل من الشنابس، قليلًا فقط. هذا ما اعتدنا فعله دومًا في الأيام الخوالي. ليس شيئًا يُوصي به الأطبَّاء».

تناولَ شادو القهوة بكلتا يديه. على جانب الكوب صورة لبعوضةٍ ورسالة تقول: «**تبرّع بالدّم—زُر ويسكونسن!!**».

قال شادو: «شكرًا».

- «إنه واجب الأصدقاء. يُمكنك أن تُنقِذ حياتي يومًا ما، أمّا حاليًّا فلا عليك».

رشفَ شادو من القهوة، وقال: «حسبتُني مِتُّ».

- «لقد حالفَك الحظُّ. كنتُ فوق الجسر –فقد خمَّنتُ أن اليوم غالبًا هو اليوم الكبير. عندما تَبلُغ سنّي هذه يُمكنك استشعار تلك الأشياء– وهكذا كنتُ هناك ومعي ساعة جيبي، ورأيتك تَخرُج على البُحيرة. ناديتك، لكن كلّي ثقة بعدم استطاعتك سماعي. رأيتُ السيَّارة تغوص ورأيتك تغوص معها، وظننتُني فقدتك، فنزلتُ على الجليد. لقد أرعبتني. لا بُدَّ أنك قضيت تحت الماء قُرابة الدَّقيقتيْن. ثم رأيتُ يدك تَبرُز من البُقعة التي غاصَت فيها السيَّارة. رؤيتك هناك كانت كرؤية شبح...». عندئذٍ شردَ هينزلمان لحظةً، قبل أن يُتابِع: «من حظّنا السَّعيد أنا وأنت أن الجليد احتملَ وزننا وأنا أجرُّك إلى الشَّاطئ».

أومأ شادو برأسه، وقال لهينزلمان: «فعلتَ خيرًا»، لتتهلَّل أسارير وجه العجوز الخبيث.

سمعَ شادو بابًا يُغلَق في مكانٍ ما في المنزل، ورشفَ من قهوته.

الآن وقد باتَ قادرًا على التَّفكير بوضوح، بدأ يسأل نفسه بعض الأسئلة.

تساءلَ كيف تمكَّن رجل مُسن، رجل يَبلُغ نصف طوله وربما ثُلث وزنه، من جرِّه -وهو فاقد الوعي- على الجليد أو صعود الضفَّة به إلى سيَّارته، وتساءلَ كيف أدخلَه هينزلمان المنزل ووضعَه في المغطس.

ذهبَ هينزلمان عند المدفأة، حيث أخذَ الملقط ووضعَ قطعةً رفيعةً من الحطب بحرصٍ فوق النَّار المضطرمة.

- «أتُريد أن تعرف ما كنتُ أفعله على الجليد؟».

هزَّ هينزلمان كتفيه قائلًا: «ليس شأني».

قال شادو: «أتعرف؟ ما لا أفهمه...»، وتردَّد مرتبًا أفكاره. «لا أفهمُ لماذا أنقذتَ حياتي».

- «تربيتي علَّمتني أنه إذا رأيت شخصًا آخر في مأزق...».

قاطعَه شادو: «لا، لا أعني ذلك. ما أعنيه أنك قتلت أولئك الأطفال جميعًا، كلَّ شتاء، وأنا الوحيد الذي اكتشفَ الأمر. مؤكَّد أنك رأيتني أفتحُ الصُّندوق. لِمَ لم تَترُكني أغرقُ؟».

حنى هينزلمان رأسه جانبًا، وحكَّ أنفه متأمِّلًا، وتأرجحَ إلى الأمام والخلف كأنما يُفكِّر، ثم قال: «سؤال وجيه. أظنُّ السَّبب أني كنتُ مدينًا لطرفٍ ما. وأنا أسدِّدُ ديوني».

- «الأربعاء؟».

- «هو ذا».

- «كان لتخبئتي في ليكسايد سبب، أليس كذلك؟ سبب كان يُفترَض أن يحول دون عثور أحدٍ عليَّ هنا».

لم يردَّ هينزلمان، وخلعَ مِحراكًا أسود ثقيلًا من مكانه على الجِدار، وراحَ يُذكي به النَّار مثيرًا سحابةً من الشَّرر البرتقالي والدُّخان، ثم قال بوقاحة: «هذه داري. إنها بلدة صالحة حقًّا».

أنهى شادو قهوته، ووضعَ الكوب على الأرض، وهو ما جشَّمه جهدًا مضنيًا. «منذ متى وأنت هنا؟».

- «منذ زمنٍ طويل بما فيه الكفاية».

- «وصنعت أنت البُحيرة؟».

رمقه هينزلمان بدهشة، وقال: «نعم، صنعتُ البُحيرة. كانوا يُسمُّونها بُحيرةً وقت مجيئي، لكنها لم تكن أكثر من نبعٍ وبِركة طاحونة وجدول»، وأردفَ بعد لحظة صمت: «لقد أدركتُ أن هذا البلد جحيم على نوعي. إنه يأكلنا، وأنا لم أُرِد أن أوكل، ولذا أبرمتُ صفقةً، فأعطيتهم البُحيرة، وأعطيتهم الرَّخاء...».

- «ولا يُكلِّفهم هذا إلّا طفلًا واحدًا كلَّ شتاء».

هزَّ هينزلمان رأسه العجوز ببُطءٍ قائلًا: «أولاد صالحون. كانوا أولادًا صالحين جميعًا. لقد اعتدتُ انتقاء مَن أحبُّهم فقط، باستثناء تشارلي نليجان. كان مخلوقًا سيِّئًا بطبيعته. متى كان؟ 1924؟ 1925؟ نعم، كان هذا هو الاتِّفاق».

سألَ شادو: «أهل البلدة. ميبل، مارجريت، تشاد موليجان. هل يعرفون؟».

لم يُجِبه هينزلمان، وسحبَ المِحراك من النَّار وقد توهَّجت البوصات السِّت الأولى من طرفه بالبرتقالي الباهت. علمَ شادو أن مقبض المِحراك أشدُّ سخونةً من أن يُمسَك، وإن لم يبدُ على هينزلمان انزعاج إذ عادَ يُذكي النَّار، قبل أن يضع المِحراك فيها من طرفه مجدَّدًا ويَترُكه هناك، ثم يقول: «يعرفون أنهم يعيشون في مكانٍ صالح، في حين أن كلَّ بلدةٍ ومدينةٍ أخرى في هذه المقاطعة، بل في هذا الجزء من الولاية، تنهار ويُحيق بها الخراب. يعرفون ذلك».

- «وهذا من صُنعك؟».

قال هينزلمان: «هذه البلدة، إنني أرعاها. لا شيء يَحدُث هنا من غير إرادتي. هل تفهم؟ لا أحد يجيء إلى هنا من غير إرادتي. لهذا أرسلَك أبوك إلى هنا. لم يُرِدك في العالم الخارجي لتجذب الانتباه. هذا كلُّ شيء».

- «وخُنته».

- «لم أفعل شيئًا من ذلك القبيل. لقد كان غشَّاشًا، لكنني أسدِّدُ ديوني دومًا».

- «لا أصدِّقك».

بدا على هينزلمان أنه أُهينَ، وشدَّ بيده كُتلة الشَّعر الأبيض على صدغه إذ قال: «إنني أصونُ كلمتي».

- «لا، لا تصونها. لورا جاءَت إلى هنا. قالت إن شيئًا ما ناداها إلى هذا المكان. وماذا عن المصادفة التي جلبَت سام بلاك كرو وأودري برتن إلى هنا في اللّيلة نفسها؟ لم أعُد أومنُ بالمصادفات. سام بلاك كرو وأودري برتن، شخصان يعرفان هُويَّتي الحقيقيَّة ويعرفان بوجود مَن يبحثون عني. إذا فشلَت واحدة منهما فالأخرى متاحة على ما أظنُّ. وإذا فشلوا جميعًا، فمَن أيضًا كان في طريقه إلى ليكسايد يا هينزلمان؟ مأمور السِّجن الذي يبغي قضاء نهاية الأسبوع في الصَّيد في الجليد؟ أمْ لورا؟». أدركَ شادو أنه غاضب. «لقد أردت خروجي من بلدتك. لكنك لم تُرِد إخبار الأربعاء بحقيقة ما تفعله».

في ضوء النَّار بدا هينزلمان أقرب إلى كَرْجَلٍ[1] من كائنٍ شيطاني وهو يقول: «هذه بلدة صالحة». دون ابتسامته بدا شمعيًّا شبيهًا بجثَّة. «كان يُمكن أن تجذب انتباهًا غير مرغوب. ليس ذلك في صالح البلدة».

قال شادو: «كان يَجدُر بك أن تَترُكني على الجليد، كان يَجدُر بك أن تَترُكني في البُحيرة. لقد فتحتُ صندوق الخُردة. في الوقت الرَّاهن ما زالت آليسن مغلَّفةً بالجليد في الصُّندوق، لكن الجليد سيذوب، وستطفو جثَّتها إلى السَّطح، وعندئذٍ سيغوصون في البُحيرة ويبحثون ليروا إن كانوا سيَعثُرون على شيءٍ آخَر، يَعثُرون على خبيئتك من الأطفال بأكملها. أظنُّ أن بعض تلك الجثث ما زالَ محفوظًا سليمًا».

مدَّ هينزلمان يده والتقطَ المِحراك. لم يَعُد يتظاهَر بإذكاء النَّار، بل أمسكَه مثل السَّيف أو الهراوة، ولوَّح بطرفه المتوهِّج بالأبيض البرتقالي في الهواء ليتصاعَد منه الدُّخان. كان شادو يُدرِك تمامًا أنه شبه عارٍ، كما أنه لا يزال متعَبًا، وأخرق الحركة، وبعيدًا كلَّ البُعد عن القُدرة على الدِّفاع عن نفسه.

- «تُريد أن تَقتُلني؟ هلمَّ، افعلها. إنني ميِّت على كلِّ حال. أعلمُ أنك تملك هذه البلدة. إنها عالمك الصَّغير. لكن إن كنت تحسب أن أحدًا لن يأتي ليبحث عني فإنك تعيش في عالم الأحلام. تمَّ الأمر يا هينزلمان، بوسيلة أو بأخرى انتهى».

---

(1) الكَراجِل (تُعرَّب أيضًا إلى غراغيل): مخلوقات أسطوريَّة ذات مظهرٍ مشوَّه مخيف مصوَّرة في منحوتاتٍ عدَّة، خاصَّةً على الجدران الخارجيَّة لعددٍ من كَنائس العصور الوُسطى، حيث تتَّخذ شكل ميزاب ناتئ. (المُترجم).

دفعَ هينزلمان نفسه إلى النُّهوض مستخدمًا المِحراك كعُكّاز، وتفحَّم البساط وانبعثَ منه الدُّخان حيث أسندَ رأس المِحراك الملتهب وهو ينهض. رمقَ العجوز شادو، وكانت في عينيه الزَّرقاويْن الباهتتيْن دموع إذ قال: «إنني أحبُّ هذه البلدة. لقد طابَ لي حقًّا أن أكون عجوزًا عصبي المزاج، وأن أحكي قصصي وأقود تِسي وأصطاد في الجليد. تذكَّر ما قلته لك: ليست الغاية السَّمك الذي تأخذه إلى البيت في آخِر اليوم، بل راحة البال».

ثم مدَّ هينزلمان طرف المِحراك في اتِّجاه شادو، وأحسَّ شادو بحرارته من بُعد قدم.

- «يُمكنني أن أقتلك، يُمكنني أن أصلح المسألة. سبقَ أن فعلت هذا. لستَ أوَّل مَن يكتشف الأمر. أبو تشاد موليجان اكتشفَه، وأصلحته. بإمكاني أن أصلحك».

قال شادو: «ربما، ولكن لكم من الوقت يا هينزلمان؟ عام آخَر؟ عقد آخَر؟ إن عندهم كمبيوترات، وليسوا أغبياء. إنهم ينتبهون إلى الأنماط. كلَّ عامٍ سيختفي طفل، وسيأتون للتَّحرِّي هنا، تمامًا كما سيأتون للبحث عني. أخبِرني، كم سنُّك حقًّا؟»، وضمَّ أصابعه حول إحدى وسائد الأريكة واستعدَّ لتغطية رأسه بها لتُزيغ الضَّربة الأولى.

بلا تعبير على قسماته قال هينزلمان: «كانوا يُعطونني أطفالهم من قبل مجيء الرومان إلى الغابة السَّوداء. كنتُ إلهًا من قبل أن أكون كوبُلد».

ردَّ شادو: «ربما حانَ وقت انتقالك إلى مكانٍ آخَر»، وفي داخله تساءلَ عن معنى الكوبُلد.[cxxviii]

حدَّق إليه هينزلمان، ثم أخذَ المِحراك ودفنَ طرفه وسط الجذوات المشتعلة قائلًا: «ربما، لكن المسألة ليست بتلك البساطة. ما الذي يجعلك تحسبني أستطيعُ الرَّحيل من هذه البلدة حتى إذا أردتُ يا شادو؟ إنني جزء من هذه البلدة. هل ستُرغِمني على الرَّحيل يا شادو؟ أأنت مستعدٌّ لقتلي؟ لكي أغادر؟».

خفضَ شادو ناظريْه إلى الأرض. ما زالَ في البساط شرار ووهج حيث استندَ رأس المِحراك. تابعَ هينزلمان النَّظرة بعينيه، وسحقَ الجمر بقدمه لاويًا إياها.

في عقل شادو، بلا دعوةٍ منه، تراءى له أطفال، مئات منهم يُحَملِقون إليه بأعيُنٍ عظميَّة عمياء، تلتوي شعورهم ببُطءٍ حول وجوههم كسعف الطَّحالب البحريَّة، ويَرمُقونه بتأنيب.

وعلمَ أنه يخذلهم، وإن لم يعلم ما العمل غير هذا.

قال شادو: «لا أستطيعُ قتلك. لقد أنقذتَ حياتي».

وهزَّ رأسه وقد استبدَّ به بؤس من كلِّ صنف. لم يَعُد يَشعُر بأنه بطل أو محقِّق، بل مجرَّد متنازلٍ لعين آخَر، يُلوِّح بإصبعه بصرامةٍ للظُّلمة قبل أن يُوليها ظَهره.

سألَه هينزلمان: «أتُريد أن تعرف سرًّا؟».

بقلبٍ مثقل بالغمِّ أجابَ شادو: «أكيد». كان مستعدًّا للفروغ من الأسرار.

- «تفرَّج».

حيث وقفَ هينزلمان يقف الآن طفل ذَكر لا يتعدَّى الخامسة من العُمر، شعره بنِّي داكن وطويل، وجسده عارٍ تمامًا إلَّا من رباطٍ جلدي بالٍ حول عُنقه، وقد اخترقَه سيفان، أحدهما مغروز في صدره، والثَّاني في كتفه بحيث يَبرُز رأسه من تحت قفصه الصَّدري. تدفَّق الدَّم من الجروح بلا توقُّف وسالَ على بدن الطِّفل ليتجمَّع في بِركةٍ على الأرض. أمَّا السَّيفان فبدَوا قديمَيْن على نحوٍ يفوق التَّصوُّر.

رمقَ الصَّبي الصَّغير شادو بعينين لا تحويان إلَّا الألم.

وفكَّر شادو: *طبعًا*. وسيلة مناسبة هذه، كأيِّ وسيلةٍ أخرى، لعمل إلهٍ قَبَلي. لم يحتَج إلى شرح، بل علمَ.

تأخذ رضيعًا وتُربِّيه في الظَّلام، ولا تدعه يرى أحدًا أو يلمس أحدًا، وتُحسِن إطعامه على مرِّ الأعوام، تُطعِمه طعامًا أفضل مما يناله أيٌّ من أطفال القرية الآخَرين، ثم بعد خمسة أشتية، حينما يكون اللَّيل في أطول أطواره، تجرُّ الطِّفل المرتاع من كوخه إلى دائرة النِّيران وتطعنه بنصليْن من الحديد والبرونز، ثم تضع الجثَّة الصَّغيرة فوق نار الفحم حتى تجفَّ كما ينبغي، وتلفُّها بالفراء وتحملها معك من مخيَّمٍ إلى مخيَّمٍ في أعماق الغابة السَّوداء، مضحِّيًا لها بالحيوانات والأطفال وجاعلًا منها تميمة حظِّ القبيلة، وفي النِّهاية، عندما يتفسَّخ هذا الشَّيء بفعل السِّنين، تضع العظام الهشَّة في صندوق، وتَعبُد الصُّندوق، إلى أن يأتي يوم تتبعثَر فيه العظام وتُنسى، وتكون القبائل

التي عبدَت إله الصُّندوق الطِّفل قد اندثرَت قبل زمنٍ طويل، وبالكاد سيَذكُر أحد الإله الطِّفل، تميمة حظِّ القبيلة، إلَّا باعتباره شبحًا أو براوني[1] أو كوبْلد.

تساءلَ شادو عمَّن جاؤوا إلى شمالي ويسكونسن قبل مئةٍ وخمسين عامًا، ومَن منهم -حطَّاب ربما، أو رسَّام خرائط- عبرَ الأطلنطي والهينزلمان حيٌّ في وجدانه.

ثم اختفى الطِّفل الدَّامي، واختفى الدَّم، ولم يَعُد في المكان إلَّا العجوز ذو الشَّعر الأبيض الزَّغب والابتسامة الخبيثة، الذي ما زالَ الماء يُبلِّل كُمَّيه من وضع شادو في الحمَّام السَّاخن الذي أنقذَ حياته.

- «هينزلمان؟». أتى الصَّوت من مدخل حُجرة المعيشة.

والتفتَ هينزلمان، والتفتَ شادو أيضًا.

وقال تشاد موليجان بصوتٍ مشدود: «أتيتُ لأخبرك بأن الخُردة غاصَت. رأيتُ أنها غرقَت وأنا في طريقي إلى هذه المنطقة، وخطرَ لي أن آتي لأبلغك في حال فاتَك الأمر».

كان يُمسِك مسدَّسًا مصوَّبًا إلى الأرض.

قال شادو: «أهلًا تشاد».

قال تشاد موليجان: «أهلًا يا صاحبي. أرسَلوا إليَّ إخطارًا يقول إنك مُتَّ في الحبس. نوبة قلبيَّة».

- «عجبًا! يبدو كأنني أموتُ في كلِّ مكان».

قال هينزلمان: «لقد أتى إلى هنا يا تشاد. لقد هدَّدني».

ردَّ تشاد موليجان: «لا، لم يفعل. إنني هنا منذ عشر دقائق يا هينزلمان، وسمعتُ كلَّ ما قلته؛ عن والدي، عن البُحيرة»، وتقدَّم بضع خُطواتٍ داخل الحُجرة، ولكن دون أن يرفع مسدَّسه، وتابعَ: «بحقِّ المسيح يا هينزلمان. لا أحد يمرُّ من هذه البلدة من غير أن يرى تلك البُحيرة عليها اللَّعنة. إنها في مركز كلِّ شيء. ما المفروض أن أفعله بحقِّ الجحيم؟».

---

(1) البراوني أو البروني: روح أو جنِّي منزلي من الفُلكلور السكوتلندي، ينهض ليلًا وأصحاب المنزل نيام ليُمارِس أعمالهم. (المُترجم).

- «يجب أن تقبض عليه. لقد قال إنه سيقتُلني». قالها هينزلمان وقد بدا رجلًا مُسنًّا خائفًا في حُجرة معيشةٍ مغبَّرة. «تشاد، إنني مسرور لوجودك هنا».

ردَّ تشاد موليجان: «لا، لستَ مسرورًا».

زفرَ هينزلمان، وانحنى كأنما يُعلِن استسلامه، ومن النَّار سحبَ المحراك الذي يتّقد طرفه بالبرتقالي الزّاهي.

- «ضعه يا هينزلمان، ضعه ببُطءٍ وارفع يديك في الهواء حيث أراهما، ودُر وواجِه الحائط».

كان التَّعبير على وجه العجوز تعبيرَ خوفٍ خالص، وكان شادو ليشعُر نحوه بالأسف لولا أنه تذكَّر الدُّموع المتجلِّدة على وجنتي أليسن مكجفرن، فلم يَشعُر بأيِّ شيء. لم يتحرَّك هينزلمان، ولم يضع المِحراك، ولم يلتفت إلى الحائط، وكان شادو على وشك مدِّ يده إلى هينزلمان ليُحاول أخذ المحراك منه، عندما قذفَ العجوز تشاد موليجان بالمِحراك الملتهب.

ألقاه هينزلمان بحركةٍ خرقاء، رماه ببُطءٍ وتثاقُلٍ كأنه فعلَ هذا على سبيل المظاهر فحسب، وإذ ألقاه كان يهرع نحو الباب بالفعل.

وارتدَّ المِحراك عن ذراع تشاد اليُسرى.

وكان دويُّ الطَّلقة في حُجرة العجوز الضيِّقة يصمُّ الآذان.

طلقة واحدة في الرَّأس، وهذا كلُّ شيء.

قال موليجان: «الأفضل أن ترتدي ثيابك»، وخرجَ صوته فاترًا ميتًا.

أومأ شادو برأسه، وذهبَ إلى الحُجرة المجاورة حيث فتحَ باب المجفِّف وتناولَ ثيابه. ما زالَ البنطال رطبًا، لكنه ارتداه رغم ذلك، ولدى عودته إلى حُجرة المعيشة بكامل ملبسه -باستثناء معطفه الغارق في مكانٍ ما في طمي البُحيرة الجليدي، وحذائه الذي لم يجده- كان موليجان قد سحبَ قدرًا كبيرًا من الحطب المشتعل من المدفأة.

قال موليجان: «يوم سيِّئ لشُرطي أن يضطرَّ إلى ارتكاب الحرق العمد ليتستَّر على جريمة قتل»، ثم رفعَ عينيه إلى شادو قائلًا: «تحتاج إلى حذاء».

- «لا أدري أين وضعَه».

قال موليجان: «تبًّا»، ثم قال: «آسفُ يا هينزلمان»، ورفعَ العجوز من ياقته وإبزيم حزامه وألقاه إلى الأمام مسقطًا الجثَّة بحيث حطَّ رأسها داخل المدفأة المفتوحة. طقطقَ الشَّعر الأبيض واشتعلَ، وبدأت رائحة اللَّحم المتفحِّم تُفعِم الحُجرة.

قال شادو: «لم يكن قتلًا. كان دفاعًا عن النَّفس».

ردَّ موليجان بنبرةٍ قاطعة: «أعرفُ ماذا كان». كان انتباهه قد انتقلَ إلى الحطب الذي بعثره في أنحاء الحُجرة بدُخانه المتصاعد. بقدمه دفعَ قطعةً إلى حافة الأريكة، ثم التقطَ نُسخةً قديمةً من «أخبار ليكسايد» مزَّق صفحاتها ثم كوَّرها وألقاها على قطعة الحطب، لتصطبغ صفحات الجريدة بالبنِّي ثم ينشب فيها اللَّهب.

قال تشاد موليجان: «اذهب خارج المنزل».

وفي طريق خروجهما من المنزل فتحَ النَّوافذ، وأطلقَ زنبرك رتاج الباب الأمامي ليُوصَد، ثم أغلقَ الباب.

تبعَه شادو حافيًا إلى سيَّارة الشُّرطة. فتحَ له موليجان باب الرَّاكب الأمامي، وركبَ شادو ومسحَ قدميه على الدوَّاسة قبل أن يضع جوربه الذي جفَّ إلى حدٍّ كبير.

قال تشاد موليجان: «يُمكننا أن نشتري لك حذاءً من «هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت»».

سألَه شادو: «كم سمعت بالدَّاخل؟».

أجابَ موليجان: «ما يكفي»، ثم أضافَ: «أكثر من اللَّازم».

تحرَّكا بالسيَّارة إلى «هنينج لمستلزمات المزرعة والبيت» في صمت، ولدى وصولهما سألَه رئيس الشُّرطة: «ما مقاس قدميك؟».

وأخبرَه شادو.

دخلَ موليجان المتجر، وعادَ بزوجين من الجوارب الصُّوف السَّميكة وحذاء مزرعةٍ جلدي. «كلُّ ما تبقَّى لديهم من مقاسك، ما لم تكن تُريد حذاءً مطَّاطيًّا، لكنني فكَّرتُ أنك لن تُريده».

وضعَ شادو الجورب والحذاء فوجدَ مقاسهما مناسبًا، وقال: «شكرًا».

- «هل معك سيَّارة؟».

- «مركونة على طريق النُّزول إلى البُحيرة، قُرب الجسر».

شغَّل موليجان المحرِّك وخرجَ من موقف «هنينج».

سألَ شادو: «ماذا حدثَ لأودري؟».

- «في اليوم التَّالي لترحيلك قالت إنها تحبُّني كصديق، لكن علاقتنا لن تنجح أبدًا بسبب صلة القرابة بيننا وما إلى ذلك، وعادت إلى إيجل پوينت. كسرَت قلبي المسكين».

- «معقول. ولم تكن مسألةً شخصيةً. هينزلمان لم يَعُد محتاجًا إلى وجودها هنا».

مرَّا في طريقهما بمنزل هينزلمان، الذي يتصاعَد من مدخنته عمود من الدُّخان الأبيض الكثيف.

- «لم تجئ أودري إلى البلدة إلَّا لأنه أرادَها هنا. كانت شيئًا يُساعده على إخراجي من البلدة. كنتُ أجذبُ انتباهًا هو في غنى عنه».

- «حسبتُني أعجبتها».

توقَّفا بجوار السيَّارة المستأجرة، وسألَه شادو: «ماذا ستفعل الآن؟».

قال موليجان: «لا أدري». كان وجهه المرهَق عادةً قد بدأ يبدو أكثر حياةً مما بدا في أيَّة لحظةٍ منذ حُجرة هينزلمان، وبدا أكثر انزعاجًا أيضًا. «أفكِّرُ أن لديَّ خيارَيْن. إمَّا...» -وصنعَ مسدَّسًا بوُسطاه وسبَّابته ودسَّ أنملتيهما في فمه المفتوح، ثم أخرجَهما- «... أطلقُ رصاصةً على مُخِّي، أو أنتظرُ بضعة أيامٍ حتى يذوب الجليد تقريبًا وأربطُ قالبًا من الخرسانة بساقي وأقفزُ من فوق الجسر. أو أستخدمُ الحبوب. شيش! ربما ينبغي أن أمضي بالسيَّارة بعض الوقت وأتوغَّل في إحدى الغابات. آخذُ الحبوب هناك. لا أريدُ أن يضطرَّ أحد رجالي إلى التَّنظيف. أتركُ الأمر لسُلطة المقاطعة، هَه؟». قالها موليجان وتنهَّد وهزَّ رأسه.

- «أنت لم تَقتُل هينزلمان يا تشاد. لقد ماتَ منذ زمنٍ طويل في مكانٍ بعيد عن هنا».

- «أشكرك لقولك هذا يا مايك، لكنني قتله، أطلقتُ النَّار على رجلٍ بدم بارد وتستَّرتُ على الأمر. وإذا سألتني لِمَ فعلتها، لِمَ فعلتها حقًّا، فلتحلَّ بي اللَّعنة إن استطعتُ الإجابة».

مدَّ شادو يده ومسَّ ذراع موليجان قائلًا: «هينزلمان كان يملك هذه البلدة. لا أحسبُ أنك تمتَّعت بخياراتٍ كثيرة بصدد ما جرى. أظنُّه جلبَك إلى هناك لأنه أرادَك أن تسمع ما سمعت. لقد نصبَ لك شركًا. تخميني أنها كانت الوسيلة الوحيدة لديه ليستطيع الرَّحيل».

لم يتبدَّل تعبير موليجان البائس، ورأى شادو أن رئيس الشُّرطة لم يسمع شيئًا تقريبًا مما قاله. لقد قتلَ هينزلمان وبنى له محرقةً، والآن -انصياعًا لرغبة هينزلمان الأخيرة، أو ربما لكونه الشَّيء الوحيد الذي يُمكنه فعله لكي يستطيع العيش مع نفسه- سينتحر.

أغمضَ شادو عينيه متذكِّرًا ذلك المكان في عقله الذي ذهبَ إليه حين طلبَ منه الأربعاء أن يستحضر الثَّلج، ذلك المكان الذي يدفع الأفكار، عقلًا لعقل. وابتسمَ شادو ابتسامةً لا يَشعُر بها، وقال: «تشاد، انسَ الأمر». في عقل الرَّجل سحابة، سحابة مظلمة طاغية يكاد شادو يراها، وإذ ركَّز عليها وتخيَّلها تنقشع كالضَّباب في الصَّباح قال بتصميمٍ محاولًا اختراقها: «تشاد، هذه البلدة ستبدأ تتغيَّر. لن تعود البلدة الصَّالحة الوحيدة في هذه المنطقة الكئيبة. ستُصبِح أشبه كثيرًا ببقيَّة هذا الجزء من العالم. ستَكثُر المتاعب؛ أناس عاطلون عن العمل، أناس عاطلون عن التَّفكير السَّليم. مزيد من النَّاس سيتأذَّون، مزيد من الحوادث السيِّئة. سيحتاجون إلى رئيس شُرطةٍ يتحلَّى بالخبرة. البلدة محتاجة إليك»، ثم أضافَ شادو: «مارجريت محتاجة إليك».

تبدَّل شيء ما في سحابة العاصفة التي تملأ رأس الرَّجل، وشعرَ به شادو يتبدَّل، وعندئذٍ بدأ يدفع الفكرة دفعًا، متخيِّلًا مارجريت أولسن بيديها البنيَّتين العمليَّتين وعينيها الدَّاكنتين وشعرها الطَّويل المسترسل، متخيِّلًا الطَّريقة التي تحني بها رأسها جانبًا والابتسامة النِّصفيَّة التي ترتسم على وجهها حينما تستطرِف شيئًا. قال شادو: «إنها تنتظرك»، وإذ قال هذا علمَ أنه صحيح.

قال تشاد موليجان: «مارجي؟».

وفي تلك اللَّحظة -ولو أنه ما كان ليستطيع أبدًا أن يُخبِرك كيف فعلَها، علاوةً على شكِّه في استطاعته فِعلها ثانيةً- مدَّ شادو نفسه داخل عقل تشاد موليجان بمنتهى السُّهولة، واقتلعَ أحداث هذا الأصيل بدقَّةٍ وحيادٍ تامَّيْن مثل غُدافٍ ينزع عينًا من حيوانٍ قُتِلَ على قارعة الطَّريق.

انبسطَت التَّجاعيد في جبهة تشاد، وأخذَ يُغمِض عينيه ويفتحهما بنُعاس.

قال شادو: «اذهب إلى مارچي. سرّتني رؤيتك يا تشاد. اعتنِ بنفسك».

تثاءبَ تشاد موليجان قائلًا: «أكيد».

طقطقت رسالة من لا سلكي الشُّرطة، فالتقطَ تشاد السمّاعة. في حين نزلَ شادو من السيّارة.

ذهبَ شادو إلى سيّارته المستأجرة. كان يرى صفحة البُحيرة الرُّماديّة المسطَّحة في مركز البلدة، وفكَّر في الأطفال الموتى المنتظرين في قاع المياه.

عمَّا قريب ستطفو آليسن إلى السَّطح...

بينما مرَّ بمنزل هينزلمان رأى عمود الدُّخان وقد تحوَّل إلى حريقٍ متأجّج، وسمعَ سرينةً تُولوِل.

قادَ السيَّارة جنوبًا متَّجهًا إلى الطَّريق السَّريع 51. إنه في طريقه للحفاظ على موعده النِّهائي، وإن فكَّر أنه سيتوقَّف قبل ذلك في ماديسن من أجل وداعٍ أخير.

أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر، يحلو لسامانثا بلاك كرو إغلاق الـ «كُفي هاوس» ليلًا. نشاط مهدِّئ للغاية، يبثُّ فيها شعورًا بأنها تُعيد إلى العالم نظامه. تُشغِّل أسطوانةً مدمجةً لفرقة «إنديجو جرلز»، وتؤدِّي مهامَّها اللَّيليَّة الأخيرة بوتيرتها الخاصَّة وعلى طريقتها الخاصَّة. أوَّلًا تُنظِّف ماكينة الإسپرسو، ثم تدور على الطَّاولات دورةً أخيرةً لتتأكَّد من إيداع أيِّ أكوابٍ أو أطباقٍ فاتَتها في مكانها بالمطبخ، ومن جمع الصُّحف التي تجدها دومًا مبعثرةً في أنحاء المقهى بحلول نهاية اليوم، ووضعها في كومةٍ متناسقة عند الباب الأمامي لتكون جاهزةً لإعادة التَّدوير.

تحبُّ سام الـ «كُفي هاوس»، وقد كانت زبونة المقهى طوال ستَّة شهورٍ قبل أن تُقنِع مديره چف بتوظيفها. يتكوَّن المكان من سلسلةٍ طويلة متعرِّجة من الحُجرات الملأى بالأرائك والطَّاولات الواطئة والكراسي ذات المساند، ويقع في شارعٍ تصطفُّ فيه متاجر الكُتب المستعملة.

غطَّت الشَّرائح الباقية من كعك الجُبنة ووضعَتها في الثلَّاجة الكبيرة، ثم أخذَت خرقةً ومسحَت الفُتات المتبقِّي. تستمتع سام بالوحدة.

فيما تعمل تُغنِّي مع «إنديجو جرلز»، وأحيانًا تنطلق راقصةً خُطوةً أو خُطوتيْن قبل أن تضبط نفسها وتتوقَّف مبتسمةً بتهكُّمٍ على نفسها.

انتزعَت نقرة على النّافذة انتباهها من أعمالها إلى عالم الواقع، وذهبَت إلى الباب وفتحَته لتُدخِل امرأةً تُناهِزها سنًّا، شعرها أرجواني محمر معقوص في ضفيرتَيْن على جانبَي رأسها، واسمها ناتالي.

قالت ناتالي: «أهلًا»، واشرأبّت على أصابع قدميها وقبّلت سام، طابعةً القُبلة الدّافئة بين خدِّها ورُكن فمها. يُمكنك أن تقول أشياء كثيرةً بقُبلةٍ كهذه. «هل فرغتِ؟».

- «على وشك».

- «تُريدين أن تُشاهِدي فيلمًا؟».

- «أكيد. أحبُّ أن أفعل ذلك. لكن أمامي خمس دقائق كاملةً هنا. ما رأيكِ أن تجلسي وتقرئي الـ «أُنيُن»؟».

ردَّت ناتالي: «رأيتُ عدد هذا الأسبوع بالفعل»، وجلسَت على مقعدٍ قُرب الباب وعبثَت بكومة الصُّحف الموضوعة جانبًا لأجل إعادة التّدوير، إلى أن وجدَت شيئًا شرعَت تقرأه ريثما عبّأت سام المبلغ المتبقّي في دُرج النّقود ووضعَته في الخزينة.

بدأتا النّوم معًا منذ أسبوع، وتتساءَل سام إن كانت هذه هي العلاقة التي انتظرَتها طيلة حياتها. تقول لنفسها إن ما يُسعِدها حين ترى ناتالي ليس إلّا كيمياء دماغيّة وفرومونات، ولعلَّ ذلك هو كلُّ ما في الأمر. ومع ذلك، كلُّ ما تعرفه يقينًا أنها تبتسم حين ترى ناتالي، وأنها تَشعُر بنفسها مرتاحةً مريحةً وهما معًا.

قالت ناتالي: «في هذه الجريدة واحدة أخرى من المقالات إياها. هل تتغيَّر أمريكا؟».

- «طيِّب، هل تتغيَّر؟».

- «لا يقولون. يقولون إنها ربما تتغيَّر، لكنهم لا يعرفون كيف ولا يعرفون لماذا، وربما لا يُوجَد تغيير على الإطلاق».

ابتسمَت سام ابتسامةً عريضةً قائلةً: «حسن، هكذا يُغطُّون الآراء كلَّها، أليس كذلك؟».

ردَّت ناتالي: «أظنُّ»، وقطّبت جبهتها وعادَت تقرأ الجريدة.

غسلَت سام فوطة الصُّحون وطوَتها، وقالت: «رأيي أن، على الرغم من الحكومة وما إلى ذلك، كلَّ شيءٍ أصبحَ يُعطيني إحساسًا طيِّبًا فجأةً. ربما

لأن الرَّبيع حلَّ مبكِّرًا بعض الشَّيء. لقد كان شتاءً طويلًا، وأنا مسرورة لأنه انتهى».

- «وأنا أيضًا». لحظة صمت. «المقالة تقول إن أناسًا كثيرين يُبلغون عن رؤيتهم أحلامًا غريبةً. عن نفسي لم أرَ أحلامًا غريبةً حقًّا، لا شيء أغرب من المعتاد».

تلفَّتت سام حولها لترى إن كان شيء قد فاتها. لا. أحسنَت العمل. خلعَت مريلتها وعلَّقتها في المطبخ، ثم عادَت وبدأت تُطفئ الأضواء قائلةً: «أنا رأيتُ بعض الأحلام الغريبة في الفترة الأخيرة، وتزايدت غرابتها لدرجة أنني بدأتُ أدوِّنها في دفتر. حينما أحلمُ يبدو لي أن لها مضمونًا عظيمًا، ولمَّا أستيقظُ أدوِّنها، ثم أقرأها ولا يبدو أن لها أيَّ مضمون».

ثم وضعَت معطف الخروج وقُفَّازيْها الصَّالحيْن لجميع المقاسات.

قالت ناتالي: «لقد مارستُ القليل من تحليل الأحلام». مارسَت ناتالي القليل من كلِّ شيء، من أنظمة الدِّفاع عن النَّفس الغامضة وأكواخ العرق، إلى ضرب الرَّمل على الطَّريقة الصينيَّة ورقص الجاز. «احكي لي. سأخبركِ بمعناها».

- «حسن». فتحَت سام قفل الباب وأطفأت آخِر الأضواء، ثم أخرجَت ناتالي وخرجَت إلى الشَّارع وأوصدَت باب الـ «كُفي هاوس» وراءها بإحكام. «أحيانًا أحلمُ بأناسٍ سقطوا من السَّماء، وأحيانًا أكونُ تحت الأرض، أكلِّمُ امرأةً برأس جاموسة، وأحيانًا أحلمُ بالرَّجل الذي قبَّلته مرَّةً في بار».

أطلقَت ناتالي صوتًا، وقالت: «أهذا شيء كان يجب أن تحكي لي عنه؟».

- «ربما، ولكن ليس بهذه الطَّريقة. كانت قُبلةً بمعنى اذهبوا إلى الجحيم».

- «كنتِ تقولين له أن يذهب إلى الجحيم؟».

- «لا، كنتُ أقولُ لبقيَّة الموجودين أن يذهبوا إلى الجحيم. كان يجب أن تكوني حاضرةً على ما أظنُّ».

طقطقَ حذاء ناتالي على الرَّصيف، ومضَت سام إلى جوارها.

قالت سام: «إنه يملك سيَّارتي».

- «تلك العُلبة الأرجوانيَّة التي أخذتِها من عند أختكِ؟».

- «نعم».

- «ماذا جرى له؟ لماذا لا يُريد سيَّارته؟».

- «لا أدري. قد يكون في السِّجن، وربما ماتَ».

- «ماتَ؟».

قالت سام: «أظنُّ»، وتردَّدت لحظةً، ثم قالت: «قبل بضعة أسابيع كنتُ واثقةً بأنه ماتَ. إدراك فائق للحواس أو أيًّا كان. يعني، لقد علمتُ. ثم بدأتُ أفكِّرُ أنه قد لا يكون ميتًا. لا أدري. أظنُّ أن إدراكي الفائق ليس بتلك الدِّقَّة».

- «إلى متى ستحتفظين بسيَّارته؟».

- «إلى أن يأتي أحد ليأخذها. أظنُّه كان ليُريد ذلك».

نظرَت ناتالي إلى سام، ثم نظرَت إليها ثانيةً، ثم سألَتها: «من أين أتيتِ بهذه؟».

- «ماذا؟».

- «الزُّهور، الزُّهور التي تحملينها يا سام! من أين أتَت؟ أكانت معكِ حين خرجنا من المقهى؟ كنتُ لأراها».

خفضَت سام بصرها، ثم ابتسمَت باتِّساعٍ قائلةً: «أنتِ في غاية اللُّطف. كان عليَّ أن أقول شيئًا حين أعطيتِني إياها، أليس كذلك؟ إنها جميلة. شكرًا جزيلًا. ولكن ألم يكن الأحمر أنسب؟».

في يديها ورد سُوقه ملفوفة بالورق، ستُّ ورداتٍ بيضاء.

ردَّت ناتالي وقد ضمَّت شفتيها: «لم أعطِكِ إياها».

ولم تتفوَّه كلتاهما بكلمةٍ أخرى حتى بلغَتا دار السينما.

عندما عادَت سام إلى منزلها ليلتها وضعَت الورد في مزهريَّةٍ مرتجَلة، ولاحقًا صبَّت عليه قالبًا من البرونز، واستأثرَت لنفسها بحكاية حصولها عليه. لكنها حكَت لكارولاين -التي تلَت ناتالي- قصَّة الوردات الشَّبحيَّة في ليلةٍ سكرَتا فيها جدًّا، ووافقَتها كارولاين على كونها قصَّةً غريبةً ومخيفةً للغاية، وإن لم تُصدِّق في قرارة نفسها شيئًا منها، فلا بأس إذًا.

⁂

ركنَ شادو السيَّارة قُرب مبنى الكابيتُل وتمشَّى على مهلٍ في الميدان ليفرد ساقيه بعد ساعات القيادة الطَّويلة. ليست ثيابه مريحةً رغم أنها جفَّت على بدنه، وحذاؤه الجديد ما زالَ ضيِّقًا. مرَّ بهاتفٍ عمومي، فاتَّصل بالاستعلامات وأعطوه الرَّقم.

قيلَ له لا، إنها ليست هنا، لم ترجع بعدُ، على الأرجح لم تزَل في الـ «كُفي هاوس».

في الطَّريق إلى الـ «كُفي هاوس» توقَّف ليشتري زهورًا.

وجدَ الـ «كُفي هاوس»، ثم عبرَ الطَّريق ووقفَ في مدخَل متجرٍ للكُتب المستعملة، وانتظرَ، وراقبَ.

أغلقَ المكان في الثَّامنة، وفي الثَّامنة وعشر دقائق رأى شادو سام بلاك كرو تُغادِر الـ «كُفي هاوس» في صُحبة امرأةٍ أصغر سنًّا لها شعر مضفور مصبوغ بدرجةٍ غريبة مميَّزة من الأحمر. كانت يداهما متعانقتيْن بقوَّة، كأن من شأن تعانُق الأيدي على بساطته أن يصدَّ عنهما العالم، وتتكلَّمان... أو بالأحرى تتكلَّم سام غالبًا فيما تُصغي صديقتها. تساءلَ شادو عمَّا تقوله سام إذ تكلَّمت مبتسمةً.

عبرَت المرأتان الطَّريق ومرَّتا بالبُقعة التي يقف فيها شادو. مرَّت ذات الضَّفيرتيْن على بُعد قدمٍ منه. كان بإمكانه أن يمدَّ يده ويلمسها، ولم ترَياه على الإطلاق.

شاهدَهما شادو تبتعدان في الشَّارع، وشعرَ بوخزٍ مفاجئ كأنما يُعزَف على وترٍ صغير في داخله.

فكَّر شادو أنها كانت قُبلةً حُلوةً، إلَّا أن سام لم تَنظُر إليه قطُّ نظرتها إلى ذات الضَّفيرتيْن، ولن تفعل أبدًا.

وبصوتٍ هامسٍ قال إذ ابتعدَت عنه سام: «لا يهمُّ. ستبقى پيرو بيننا دومًا، وإل پاسو. سنحظى بذلك دومًا».

ثم هرعَ في أعقاب سام ووضعَ الزُّهور في يديها، وأسرعَ مبتعدًا لكي لا تستطيع إعادتها.

بعد ذلك صعدَ التَّل إلى حيث ركنَ سيَّارته، وسلكَ الطَّريق السَّريع 90 جنوبًا إلى شيكاجو، منطلقًا حسب الحدِّ الأقصى للسُّرعة أو أقل منه قليلًا.

إنه آخِر شيءٍ عليه أن يفعله.

وليس مستعجلًا.



قضى شادو اللَّيل في فرعٍ لـ «موتل 6»، وعندما استيقظَ في الصَّباح التَّالي أدركَ أنّ رائحة قاع البُحيرة لا تزال في ملابسه، لكنه ارتداها على كلِّ حالٍ مفكِّرًا أن حاجته إليها لن تطول.

دفعَ شادو حساب الحُجرة، ثم قادَ السيَّارة إلى بناية الشُّقق المشيَّدة بالحجر الرَّملي الأسمر. وجدَها بلا أيِّ صعوبة، ووجدَها أصغر مما يَذكُر.

صعدَ السَّلالم بخُطى ثابتة، ليس بسرعةٍ تعني أنه تائق إلى قضاء نحبه، ولا ببُطءٍ يعني أنه خائف. كان أحدهم قد نظَّف بئر السُّلَّم. أزيلَت أقياس القمامة السَّوداء، ورائحة المكان الآن رائحة الكلورين المميِّزة للمبيِّضات بدلًا من رائحة الخضراوات المتعفِّنة.

وجدَ الباب المطليَّ بالأحمر عند قمَّة السَّلالم مفتوحًا على وسعه، وشمَّ رائحة وجباتٍ قديمة عالقةً في الهواء. تردَّد شادو، ثم دقَّ جرس الباب.

نادى صوت امرأة: «آتية!»، ومن المطبخ خرجَت زوريا أوترنيايا بحجمها الضَّئيل كالأقزام وشعرها الأشقر الباهر، وتقدَّمت إليه ماسحةً يديها على مريلتها. تبيَّن شادو أنها تبدو مختلفةً، تبدو سعيدةً؛ وجنتاها متورِّدتان، وفي عينيها العجوزيْن لمعة. حين رأته تحوَّل فمها إلى دائرة، وصاحَت: «شادو؟ عُدت إلينا؟»، وأسرعَت إليه فاردةً ذراعيها. انحنى شادو وعانقَها، وقبَّلت خدَّه وقالت: «جميل للغاية أن أراك! والآن يجب أن ترحل».

خطا شادو داخل الشقَّة، حيث رأى الأبواب كلَّها (باستثناء باب زوريا پولونوتشنايا، وهو ما لا يدعو للدَّهشة) مفتوحةً عن آخِرها، وكلَّ ما رأى من نوافذ أيضًا. كان نسيم عليل يهبُّ متقطِّعًا في الرُّواق.

قال لزوريا أوترنيايا: «تُنظِّفون التَّنظيف الرَّبيعي».

- «عندنا ضيف قادم. والآن يجب أن ترحل. هل تُريد قهوةً أوَّلًا؟».

قال شادو: «أتيتُ لأرى تشرنوبوج. حانَ الوقت».

هزَّت زوريا أوترنيايا رأسها بعُنفٍ قائلةً: «لا، لا. لستَ تُريد رؤيته. ليست فكرةً جيِّدة».

- «أعرفُ. ولكن أتدرين؟ الشَّيء الوحيد الذي تعلَّمته بحقٍّ من التَّعامُل مع الآلهة، أن مَن يعقد اتِّفاقًا عليه أن يفي به. الآلهة تستطيع كسر جميع القواعد حسب هواها. نحن لا. حتى إذا حاولتُ الخروج من هنا فستُعيدني قدماي».

مطَّت شفتها السُّفليَّة إلى أعلى، ثم قالت: «هو صحيح. لكن اذهب اليوم. عُد غدًا. سيكون قد رحل».

نادى صوت امرأةٍ من مكانٍ أبعد في الرُّواق: «مَن هذا؟ زوريا أوتِرنيايا، مَن الذي تُكلِّمينه؟ هذه الحشيَّة، لا أستطيعُ أن أقلبها وحدي كما تعلمين».

قطعَ شادو الرُّواق، وقال: «صباح الخير يا زوريا ڤيتشرنيايا. هل يُمكنني مساعدتكِ؟»، وهو ما جعلَ المرأة في الغُرفة تصيح من المفاجأة وتُسقِط رُكن حشيَّة الفِراش الذي ترفعه.

في غُرفة النَّوم غُبار كثيف يُغطِّي كلَّ سطحٍ من الخشب ومن الزُّجاج، وتسبح ذرَّاته وتَرقُص في أشعَّة الشَّمس الدَّاخلة من النَّافذة المفتوحة. تُقاطِعها هبَّات متقطِّعة من النَّسيم ورفرفة خاملة من السَّتائر الدانتلَّ المصفرَّة.

تذكَّر هذه الغُرفة. إنها الغُرفة التي أعطوها للأربعاء في اللَّيلة إياها، غُرفة بيليبوج.

رمقَته زوريا ڤيتشرنيايا بارتياب، وقالت: «الحشيَّة، نُريد قلبها».

قال شادو: «لا مشكلة»، ومدَّ يديه آخذًا الحشيَّة، ورفعَها بسهولةٍ وقلبَها على الوجه الآخَر. السَّرير خشبي قديم، والحشيَّة الرِّيش تُقارِب رجلًا في الوزن. طارَ الغُبار ودارَ في الهواء إذ نزلَت الحشيَّة في مكانها.

سألَته زوريا ڤيتشرنيايا: «لماذا أنت هنا؟». لم يكن سؤالًا ودودًا بالطَّريقة التي طرحَته بها.

أجابَ شادو: «أنا هنا لأن في ديسمبر الماضي لعبَ بشريٌّ شاب مباراة دامةٍ مع إلهٍ عجوز، وخسرَ».

كانت العجوز تعقد شعرها في كعكةٍ محكمة فوق قمَّة رأسها. زمَّت زوريا ڤيتشرنيايا شفتيها قائلةً: «عُد غدًا».

ردَّ ببساطة: «لا أستطيعُ».

- «هي جنازتك أنت. اذهب واجلس الآن. زوريا أوترنيايا ستُحضِر لك قهوةً. تشرنوبوج سيعود قريبًا».

قطعَ شادو الرُّواق إلى غُرفة الجلوس. مثلما يَذكُرها تمامًا، ولو أن النَّافذة مفتوحة الآن، والقِطُّ الرَّمادي نائم على ذراع الأريكة. لمَّا دخلَ شادو فتحَ عينًا واحدًا، ثم -بلا مبالاة- عادَ إلى نومه.

هنا لعبَ الدَّامة مع تشرنوبوج، هنا راهنَ بحياته ليجعل العجوز ينضمُّ إليهما في خدعة الأربعاء الأخيرة الفاشلة. من النَّافذة المفتوحة دخلَ الهواء الطَّازج ذاريًا الهواء الفاسد.

دخلَت زوريا أوترنيايا حاملةً صينيَّةً خشبيَّةً حمراء، عليها كوب صغير مطلي بالمينا مملوء بالقهوة السَّوداء، وبجواره صحن مملوء ببسكويت رقائق الشُّكولاتة الصَّغير.

وضعَت الصينيَّة على الطَّاولة أمامه، وأخبرَها شادو: «رأيتُ زوريا پولونوتشنايا ثانيةً. أتَتني تحت العالم وأعطَتني القمر ليُنير طريقي. وأخذَت مني شيئًا أيضًا، لكني لا أذكره».

قالت زوريا أوترنيايا: «أنت تُعجِبها. إنها تَحلُم كثيرًا، وتَحرُسنا جميعًا. كم هي شُجاعة».

- «أين تشرنوبوج؟».

- «يقول إن التَّنظيف الرَّبيعي يُزعِجه. يَخرُج ليشتري صحيفةً، يجلس في الحديقة، يشتري سجائر. قد لا يعود اليوم. ليس عليك الانتظار. لِمَ لا تذهب؟ عُد غدًا».

قال شادو: «سأنتظرُ». كان يعلم أنه لا يُوجَد جِشٌ[1] يُجبِره على الانتظار. هذا قراره هو. إنه شيء أخير يجب أن يَحدُث، وإن كان آخِر شيءٍ سيَحدُث فهو ذاهبٌ إليه طواعيةً. بعد ذلك لا مزيد من الالتزامات، لا مزيد من الألغاز، لا مزيد من الأشباح.

رشفَ من القهوة السَّاخنة، سوداء حُلوة كما يَذكُرها.

سمعَ صوتًا ذكريًّا عميقًا في الرُّواق، فاعتدلَ قليلًا في جلسته، وسرَّه ألَّا يرى في يده رجفةً.

وفُتِحَ الباب.

- «شادو؟».

قال شادو: «مرحبًا»، وظلَّ جالسًا.

(1) الجِشْ: في الفُلكلور الأيرلندي التزام أو قيد يُوضَع على الشَّخص باستخدام السِّحر. (المُترجم).

دخلَ تشرنوبوج الغرفة. كان يحمل نُسخةً مطويَّةً من «شيكاجو صن-تايمز»، وضعَها على طاولة القهوة. حدَّق إلى شادو، ثم مدَّ يده بتردُّد، وتصافحَ الرَّجلان.

قال شادو: «لقد أتيتُ. اتَّفاقنا. أنت أدَّيت دورك كما ينبغي، وهذا دوري».

أومأ تشرنوبوج برأسه، وتجعَّدت جبهته، وقد التمعَ ضوء الشَّمس على شعره وشاربه الشَّائبيْن ليجعلهما يبدوان شبه ذهبيَّيْن. قال تشرنوبوج عاقدًا حاجبيه: «هو... هو ليس...»، وبترَ عبارته قائلًا: «ربما عليك الذَّهاب الآن. هو ليس وقتًا مناسبًا».

- «خُذ كلَّ ما يلزمك من وقت. إنني مستعدٌّ».

زفرَ تشرنوبوج، وقال: «أنت صبي في غاية الغباء، أتعلم هذا؟».

- «أظنُّ».

- «أنت صبي غبي، وعلى قمَّة الجبل فعلت شيئًا طيِّبًا جدًّا».

- «فعلتُ ما كان عليَّ أن أفعله».

- «ربما».

ذهبَ تشرنوبوج إلى الخُوان الخشبي القديم، وانحنى ساحبًا حقيبة أوراقٍ من تحته، ثم دفعَ مزلاجيها لينفتح كلاهما بصوتٍ مكتوم مُرضٍ. فتحَ الحقيبة، ومنها أخرجَ مطرقةً ورفعَها مختبرًا وزنها. بدَت المطرقة كنموذجٍ مصغَّرٍ لمرزبة، وقد تلطَّخ مقبضها الخشبي.

ثم نهضَ تشرنوبوج، وقال: «إنني مدين لك بالكثير، أكثر مما تعلم. بسببك الأحوال تتبدَّل. إنه أوان الرَّبيع، الرَّبيع الحقيقي».

قال شادو: «أعرفُ ماذا فعلتُ. لم تكن لديَّ خيارات كثيرة».

أومأ تشرنوبوج برأسه. كانت في عينيه نظرة لم يرَها شادو سابقًا. «هل حكيتُ لك عن أخي من قبل؟».

قال شادو: «بييليبوج؟»، وذهبَ إلى منتصَف البساط المتَّسخ بالرَّماد، وركعَ على رُكبتيه متابعًا: «قلتَ إنك لم ترَه منذ زمنٍ طويل».

قال العجوز رافعًا المطرقة: «نعم. كان شتاءً طويلًا يا ولد، شتاءً في غاية الطُّول، لكن الشِّتاء ينتهي الآن»، وهزَّ رأسه ببُطءٍ كأنما يتذكَّر شيئًا، وقال: «أغمِض عينيك».

أغمضَ شادو عينيه، ورفعَ رأسه، وانتظرَ.

كان رأس المرزبة باردًا، جليديَّ البرودة، وقد مسَّ جبهته برقَّة القُبلة.

وقال تشرنوبوج: «طخ! انتهى الأمر». كانت على وجهه ابتسامة لم يرَها شادو من قبل، ابتسامة ليِّنة ناعمة كضوء الشَّمس في نهارٍ صيفي. عادَ العجوز إلى الحقيبة ووضعَ فيها المطرقة، ثم أغلقَها ودفعَها تحت الخُوان من جديد.

سألَ شادو: «تشرنوبوج؟»، ثم: «أأنت تشرنوبوج؟».

أجابَ العجوز: «نعم. اليوم. غدًا سأكونُ ببيليبوج، أمَّا اليوم فما زلتُ تشرنوبوج».

- «لماذا إذًا؟ لماذا لم تَقتُلني وأنت قادر؟».

أخرجَ العجوز سيجارةً بلا فلترٍ من عُلبةٍ في جيبه، والتقطَ عُلبة ثقابٍ كبيرةً من فوق رفِّ المدفأة وأشعلَ السِّيجارة. لاحَ عليه الاستغراق في التَّفكير، ثم قال العجوز بعد فترة: «لأن بيننا دمًا، لكن بيننا امتنانًا أيضًا. ولقد كان شتاءً طويلًا جدًّا».

نهضَ شادو ونفضَ رُقعتَي الغُبار عن رُكبتَي بنطاله حيث ركعَ، وقال: «شكرًا».

- «عفوًا. تعرف أين تجدني عندما تُريد لعب الدَّامة المرَّة القادمة. هذه المرَّة سألعبُ أنا بالأبيض».

قال شادو: «شكرًا. قد أفعلُ ذلك، ولكن ليس قبل مُدَّة»، ثم نظرَ في عينَي العجوز المتلألئتيْن متسائلًا إن كانتا دومًا بهذه الدَّرجة من زُرقة زهرة الذُّرة.

تصافَحا، ولم ينطق أيُّهما كلمة وداع.

في طريق الخروج قبَّل شادو زوريا أوترنيايا على وجنتها، وقبَّل زوريا ڤيتشرنيايا على ظَهر يدها، ونزلَ سلالم ذلك المكان درجتيْن درجتيْن.

# تذييل

رايكاڤيك الآيسلنديَّة مدينة غريبة، حتى بالنِّسبة إلى مَن رأوا الكثير من المُدن الغريبة. إنها مدينة بُركانيَّة، أي إنها تستمدُّ تدفئتها من الأعماق تحت الأرض.

السُّيَّاح موجودون، ولكن ليس بالأعداد التي قد تتوقَّعها، ولا حتى في أوائل يوليو. الشَّمس مشرقة إشراقتها الدَّائمة منذ أسابيع، ولا تكفُّ عنها إلَّا ساعةً أو نحوها في هزيع اللَّيل الأخير. بين الثَّانية والثَّالثة صباحًا سيَبزُغ نوع من الفجر الغسقي، ثم يبدأ النَّهار مجدَّدًا.

كان السَّائح الكبير قد تجوَّل في معظم أنحاء رايكاڤيك هذا الصَّباح، يُصغي إلى أناسٍ يتحدَّثون لُغةً لم تتغيَّر إلَّا قليلًا على مرِّ ألف عام، حتى إن باستطاعة أهل البلاد هنا قراءة الملاحم القديمة بسهولة قراءتهم الجريدة. على هذه الجزيرة إحساس بالاستمراريَّة يُخيفه، وفي الوقت ذاته يجده مُطَمْئِنًا لأبعد الحدود. كان متعَبًا، فضوء النَّهار اللا متناهي جعلَ النَّوم شبه مستحيل، وقد جلسَ في غُرفته بالفندق طيلة اللَّيلة اللا ليليَّة، يقرأ بالتَّبادُل كُتيِّب إرشاداتٍ و«المنزل الموحش»، وهي رواية اشتراها من أحد المطارات خلال الأسابيع القليلة الماضية، وإن لم يَعُد يَذكُر أيُّ مطار. وأحيانًا كان يَنظُر من النَّافذة.

وأخيرًا أعلنَت السَّاعة، علاوةً على الشَّمس، طلوع الصُّبح.

ابتاعَ قالب شُكولاتة من أحد محال الحلوى العديدة، وسارَ على الرَّصيف واجدًا نفسه بين الفينة والفينة يُذكَّر بطبيعة آيسلندا البُركانيَّة؛ ينعطف حول

ناصية ويلحظ لوهلةٍ وجود خاصيَّة كبريتيَّة للهواء، وهو ما يجعله يُفكّر ليس في هيدرَ بل في البيض العفِن.

نساء كثيرات ممَّن مرَّ بهن رائعات الجمال، نحيلات شاحبات، من صنف النِّساء الذي أعجبَ الأربعاء. تساءلَ شادو عمَّا جذبَ الأربعاء لأمّه، التي كانت جميلةً وإن لم تتمتَّع بأيٍّ من هاتين الصِّفتين.

ابتسمَ شادو للحسناوات لأنهن أشعرنَه بذكورته على نحوٍ سار، وابتسمَ للأخريات أيضًا لأنه مستمتع بوقته.

لا يعرف تحديدًا متى انتبهَ إلى كونه تحت المراقبة. في مرحلةٍ ما من تمشيته في أرجاء رايكافيك صارَ على يقينٍ بأن شخصًا ما يُراقبه، وبين الحين والآخَر كان يلتفت محاولًا أن يلمح المراقِب، ويَنظُر في واجهات المحال وإلى الشَّارع المنعكس من ورائه، إلَّا أنه لم يرَ أحدًا غير مألوف. لا أحد يبدو أنه يُراقِبه.

دخلَ مطعمًا صغيرًا أكلَ فيه لحم طائر البَفن المدخَّن، وتوت السَّحاب، وسمك الشار الأركتيكي، وبطاطس مسلوقةً، وشربَ «كوكا-كولا» مذاقها أحلى وسُكَّرها أكثر مما يَذكُر تذوُّقه في الولايات.

جلبَ النَّادل الفاتورة، ووجدَ شادو الوجبة أعلى تكلفةً مما توقَّع، وإن بدا أن هذا ينطبق على الوجبات جميعًا في كلِّ مكانٍ زارَه في ترحاله. بينما وضعَ النَّادل الفاتورة على المائدة قال: «معذرةً. أأنت أمريكي؟».

- «نعم».

قال النَّادل: «رابع من يوليو سعيدًا إذًا»، وقد بدا عليه السُّرور بنفسه.

لم يكن شادو يعي أنه الرَّابع من الشَّهر، عيد الاستقلال. نعم، تطيب له فكرة الاستقلال. تركَ الحساب وبقشيشًا على المائدة، ثم خرجَ إلى حيث يهبُّ نسيم بارد من الأطلنطي، وزرَّر معطفه.

جلسَ على ضفَّةٍ معشوشبة وتطلَّع إلى المدينة المحيطة به، مفكِّرًا أن عليه العودة إلى الوطن يومًا ما، ويومًا ما عليه أن يبني لنفسه بيتًا يعود إليه في الوطن. تساءلَ إن كان الوطن شيئًا ينطبق على المكان بعد زمن، أم إنه شيء تجده في آخِر المشوار إذا مشيت وانتظرته ورغبت فيه زمنًا كافيًا.

أخرجَ كتابه.

أتى رجل عجوز يتقدَّم إليه بخُطواتٍ واسعة على جانب التَّل، مرتديًا معطفًا رماديًا غامقًا مهترئ الحاشية كأنه أسرفَ في السَّفر به، ومعتمرًا قبَّعةً زرقاء عريضة الحافة، يدسُّ في حزامها ريشة نورسٍ بزاويةٍ أنيقة مرحة. فكَّر شادو أن الرَّجل يبدو مثل هيبي مُسن، أو مقاتل سلاحٍ ناري تقاعدَ منذ أعوامٍ طويلة. كان العجوز مديد القامة.

أقعى الرَّجل بجوار شادو على جانب التَّل، وأومأ له برأسه باقتضاب. فوق إحدى عينيه عصابة سوداء كالقراصنة، ومن ذقنه تَبرُز لحية بيضاء طويلة. تساءلَ شادو إن كان الرَّجل سيشحذ منه سيجارةً.

قال العجوز: «كوِرْنِكْ جِنْجُر؟ مانِسْتْ ثُو إِفتِر مِير؟».[1]

ردَّ شادو: «آسفٌ. لا أتحدَّثُ الآيسلنديَّة»، ثم ردَّد -بركاكة- العبارة التي تعلَّمها من كُتيِّب التَّعبيرات في ضوء نهار الهزيع الأخير من اللَّيلة السَّابقة: «يِجْ تالا بارا إِنْشْكِه». *أتحدَّث الإنجليزيَّة فقط*. «أمريكي».

أومأ العجوز برأسه ببُطء، وقال: «قومي ذهبوا من هنا إلى أمريكا قبل زمنٍ طويل. ذهبوا إلى هناك ثم عادوا إلى آيسلندا. قالوا إنها مكان جيِّد للبشر، لكنها مكان سيِّئ للآلهة. ودون آلهتهم شعروا بقدرٍ غامرٍ من... الوحدة». تكلَّم بإنجليزيَّةٍ طليقة، لكن تقطُّعات الجُملة وإيقاعاتها غريبة. نظرَ إليه شادو من كثب، فبدا الرَّجل أعتى كِبرًا مما تخيَّله شادو ممكنًا، بشرته ملأى بالتَّجاعيد الضَّئيلة ومشقَّقة كالجرانيت.

قال العجوز: «إنني أعرفك يا ولد».

- «حقًّا؟».

- «أنت وأنا سلكنا السَّبيل نفسه. أنا أيضًا تدلَّيتُ من الشَّجرة تسعة أيام، تضحيةً بي إليَّ. أنا سيِّد الأسير، أنا إله المشانق».

قال شادو: «أنت أودِن».

أومأ الرَّجل مفكِّرًا كأنه يزن الاسم، ثم قال: «يدعونني بأسماء كثيرة، لكن نعم، أنا أودِن بن بور».

---

(1) كيف حالك؟ هل تَذكُرني؟ (المُترجم).

- «لقد رأيتك تموت، وسهرتُ على جثّتك. لقد حاولتَ تدمير أشياء كثيرة جدًّا في سبيل السُّلطة. كنتَ لتضحّي بالكثير جدًّا من أجل نفسك. أنت فعلت ذلك».

- «لم أفعل ذلك».

- «الأربعاء فعله. كان أنت».

ردَّ الرَّجل: «كان أنا، نعم، لكنني لستُ هو»، وحكَّ جانب أنفه، فاهتزَّت ريشة النَّورس في قبّعته.

ثم سأله سيِّد المشانق: «هل ستعود؟ إلى أمريكا؟».

أجابَ شادو: «لا شيء أعودُ إليه»، وإذ قالها علمَ أنها كذبة.

قال العجوز: «في انتظارك هناك أشياء، لكنها ستنتظر حتى تعود».

طارَت فراشة بيضاء في خطٍّ متعرِّج مارَّةً بهما.

لم يُعلِّق شادو. لقد نالَ من الآلهة ومآخذها ما يكفيه أعمارًا بأكملها. قرَّر أن يركب الحافلة إلى المطار ويُبدِّل تذكرته ليذهب إلى مكانٍ لم يَزُره من قبل. سيُواصِل الحركة.

قال شادو: «معي شيء لك»، وغاصَت يده في جيبه وقبضَت على الشَّيء المنشود، ثم قال: «مدَّ يدك».

رمقَه أودِن باستغرابٍ وجدِّيَّة، ثم هزَّ كتفيه ومدَّ يُمناه براحتها إلى أسفل، فمدَّ شادو يده وقلبَها لتكون الرَّاحة إلى أعلى.

ثم فتحَ يديه واحدةً تلو الثَّانية ليُريه أنهما خاليتان تمامًا، ثم دسَّ العين الزُّجاج في راحة يد العجوز ذات الملمس الجلدي، وتركَها هناك.

- «كيف فعلت هذا؟».

أجابَ شادو من غير أن يبتسم: «سحر».

ابتسمَ العجوز وضحكَ وصفَّق، ونظرَ إلى العين التي أمسكَها بين سبَّابته وإبهامه مومئًا برأسه كأنه يعرف ماهيتها بالضَّبط، ثم وضعَها في جرابٍ من الجلد يتدلَّى من خصره، وقال: «*تاك كِرْليا*. سأحافظُ عليها».

قال شادو: «عفوًا»، وقامَ ونفضَ العُشب العالق ببنطاله الجينز، ثم أغلقَ الكتاب وعادَ يضعه في جيب حقيبته الجانبي.

بتلويحةٍ متغطرسة بيده ونبرةٍ عميقة آمرة قال سيِّد آسجارد: «مرَّةً أُخرى، المزيد. ثانيةً».

قال شادو: «أنتم يا معشر الآلهة، لا شيء يُرضيكم أبدًا. ليكن. هذه حيلة تعلَّمتها من رجلٍ مات».

مدَّ يده في اللا مكان وأخذَ عُملةً ذهبيَّةً من الهواء، عُملةً ذهبيَّةً عاديَّةً، لا يُمكنها إحياء الموتى أو شفاء المرضى، لكنها عُملة ذهبيَّة من غير ريب. قال شادو عارضًا إياها بين سبَّابته وإبهامه: «وهذا كلُّ ما هنالك، هذا كلُّ ما في الأمر».[cxxix]

ثم ألقى شادو العُملة في الهواء بنقرةٍ من إبهامه، فدارَت ذهبيَّةً في قمَّة قوسها في ضوء الشَّمس، والتمعَت وبرقَت وعلقَت في سماء منتصَف الصَّيف كأنها لن تَسقُط أبدًا.

وقد لا تَسقُط أبدًا. لم ينتظر شادو ليرى، بل مشى مبتعدًا وظلَّ يمشي.

**النِّهاية**



ذ.ك

# شُكر وتقدير

كان كتابًا طويلًا، وكانت رحلةً طويلةً، وإنني مدين لكثيرين بالكثير.

أعارَتني المسز هاولي منزلها بفلوريدا لأكتب فيه، ولم يكن عليَّ في المقابل إلّا أن أطرد النُّسور، ثم أعارَتني منزلها الأيرلندي لأنهي فيه الكتابة، وحذّرتني من طرد الأشباح. شكري لها وللمستر هاولي على لُطفهما وكرمهما. چوناثان وچاين أعاراني منزلهما وأرجوحتهما الشُّبكيَّة من أجل الكتابة، ولم يكن عليَّ إلّا اصطياد حشرةٍ فلوريديَّة غريبة من بِركة السَّحالي بين الحين والآخَر. إنني في غاية الامتنان لهم جميعًا.

أعطاني الدكتور دان چونسن معلوماتٍ طبِّيَّةً متى احتجتُ إليها، ودلَّني على ما استخدمته بشرودٍ أو بغير قصدٍ من الاصطلاحات المستعارة من الإنجليزيَّة (وهو ما فعلَه الباقون جميعًا أيضًا)، وأجابَ عن أغرب الأسئلة، وفي نهارٍ يوليوي طارَ بي فوق شمالي ويسكونسن بطائرةٍ ضئيلة. إضافةً إلى الحفاظ على استمراريَّة حياتي نيابةً عني فيما أكتبُ هذا الكتاب، أتخمَت مساعدتي الرَّائعة لورين جارلاند نفسها بالبحث عن تعداد سُكّان البلدات الأمريكيَّة الصَّغيرة من أجلي، وما زلتُ لا أعرفُ بالضَّبط كيف فعلَتها. (لورين عُضوة في فرقةٍ غنائيَّة اسمها «فلاش جرلز»، فاشتروا تسجيلهن الجديد *Play Each Morning, Wild Queen* وأسعِدوها). ساعدَتني تِري پراتشت على حلِّ نُقطةٍ معقَّدة من الحبكة على متن القطار إلى جوثنبرج، وأجابَ إريك إدلمان عن أسئلتي الدپلوماسيَّة، ونقَّبت آنا صنشاين آيسن لأجلي عن عددٍ كبير من المعلومات عن معسكرات احتجاز اليابانيِّين على السَّاحل الغربي، وهو ما يجب أن ينتظر كتابًا آخَر لكي يُكتَب، لأني لم أجده يُناسِب هذا الكتاب

تمامًا. في الخاتمة سرقتُ أفضل جزء من الحوار من چين وولف، الذي أتوجّهُ إليه بالشُكر. أجابَت الرّقيب كاثي إرتز بكرمٍ عن أغرب أسئلتي عن الإجراءات الشُرطيَّة، وأخذَني معاون الشّريف مارشال مولتاوف في جولةٍ بسيَّارة شُرطة، وخضعَ پيت كلارك لعددٍ من الأسئلة الشَّخصيَّة للغاية بكياسةٍ ودماثة، وكان دايل روبرتسن الخبير المائي الخاص بالكتاب. أقدِّرُ تعليقات الدكتور چيم ميلر على النّاس واللُّغة والأسماك، كما أقدِّرُ المساعدة اللُّغويَّة التي تلقَّيتها من مارجريت روداس. أمّا چامي إيان سويس فحرصَ على أن يكون سحر العُملات ساحرًا. أيَّة أخطاءٍ في الكتاب أخطائي أنا لا هُم.

أناسٌ صالحون كُثر قرؤوا المخطوطة وقدَّموا لي اقتراحاتٍ وتصحيحاتٍ وتشجيعاتٍ ومعلوماتٍ قيِّمةً. إنني ممتن على وجه الخصوص لكولن جرينلاند وسوزانا كلارك وچون كلوت وساموپل ر. دلاني. أودُّ أيضًا أن أشكر كلًّا من آول جوينباك (الذي يملك أظرف اسمٍ في العالم حقًّا)، وإزلين روسيو إڤنسن، وپيتر ستراوب، وچوناثان كارول، وكلي بكمان، وديانا جراف، ولني هنري، وپيت آتكنز، وكريس إوين، وتلر، وكلي لينك، وبارب جيلي، وويل شترلي، وكوني زاستوپيل، ورانتز هوزلي، وديانا شوتز، وستيڤ برست، وكلي سو دكونيك، وروز كاڤني، وإيان مكداول، وكارن برجر، ووندي چافت، وتاريه نوردبرج، وجوندا بوند، وتيريس ليتلتن، ولو أرونيكا، وهاي بندر، ومارك آسكويث، وآلان مور (الذي أعارَني بكرمٍ أيضًا نُسخته من «كتاب لتڤينوف»)، وچو ساندرز الأصلي. شكرًا أيضًا لربيكا ويلسن، وشكر خاص لستيسي وايس على نباهتها. بعد قراءتها المسوَّدة الأولى، حذَّرتني ديانا واين چونز من ماهية هذا الكتاب، والمخاطرات التي عرَّضتُ نفسي إليها بكتابته، وكانت محقَّةً في كلّ كلمة حتى الآن.

ليت الپروفسور فرانك مكونل كان معنا. أظنُّه كان ليستمتع بهذا الكتاب.

ما إن كُتِبَت المسوَّدة الأولى حتى أدركتُ أن عددًا من الكُتَّاب الآخَرين تناولَ هذه الثيمات من قبل شروعي في العمل عليها بزمن، تحديدًا مؤلِّفي غير العصري المفضَّل چيمس برانش كابل، والرَّاحل روچر زلازني، وبالطَّبع الفذ هارلان إليسن، الذي طبعَت مجموعته «قصص طيور الموت» نفسها على عقلي حين كنتُ في سنٍّ تسمح بأن يُغيِّرني كتابٌ إلى الأبد.

لا يُمكنني أبدًا أن أرى الجدوى من تدوين الموسيقى التي استمعتُ لها في أثناء تأليف كتابٍ من أجل الأجيال القادمة، وقد استمعتُ إلى الكثير جدًّا من

الموسيقى في أثناء تأليف هذا الكتاب. ومع ذلك، دون *Dream Café* لجِرِج براون و*Love Songs 69* لماجنتك فيلدز لكان كتابًا مختلفًا، لذا شكرًا لجرج وستيڤن. وأشعرُ أنه واجبي أن أخبركم أنكم تستطيعون اختيار موسيقى المنزل فوق الصَّخرة على شريطٍ أو أسطوانةٍ مدمجة، بما في ذلك موسيقى ماكينة الميكادو وأكبر كاروسل في العالم. إنها لا تُشبِه شيئًا آخر سمعتموه، ولكنها بالتَّأكيد ليست أفضل منه. يُمكنكم لطلبها الكتابة لهذا العنوان: «The House on the Rock, Spring Green, WI 53588 USA»، أو الاتِّصال برقم 1-608-935-3639.

كانت مساعدة وُكلائي -مريلي هايفتز في Writers House، وچون لڤين وارين كولي لا شاپل في CAA- لا تُقدَّر بثمن.

أشخاص كثيرون انتظروا أشياءَ وعدتهم بتنفيذها بمجرَّد فروغي من الكتابة كانوا صبورين لدرجةٍ مدهشة. أودُّ أن أشكر القوم الطيِّبين في ستوديوهات Warner Bros. (تحديدًا كڤين مكورميك ولورنزو دي بوتابنتورا)، وفي Village Roadshow وSunbow وMiramax، وشلي بوند التي تحمَّلت الكثير.

الشَّخصان اللذان لولاهما لما خرجَ هذا الكتاب: چنيفر هرشي في HarperCollins بالولايات المتَّحدة، ودوج ينج في Hodder Headline بالمملكة المتَّحدة. إنني محظوظ بالمحرِّرين البارعين، وهذان الاثنان من أفضل المحرِّرين الذين عرفتهم على الإطلاق، ناهيك بكونهما من أكثرهم حلمًا وصبرًا، وإذ هبَّت مواعيد التَّسليم من حولنا كورق الشَّجر الجاف في الرِّيح كانا في غاية الثَّبات.

أتى بيل ماسي في النِّهاية في Headline، وأعارَ الكتاب نظرته التَّحريريَّة الثَّاقبة، ورعَت كلي نوتاراس الكتاب خلال عمليَّة الإنتاج بكياسةٍ وأناقة.

وأخيرًا أريدُ أن أشكر أسرتي، ماري ومايك وهولي ومادي، الذين كانوا أشدَّ الجميع صبرًا، وأحبُّوني، ولفتراتٍ طويلة خلال تأليف هذا الكتاب احتملوا رحيلي من أجل الكتابة والعثور على أمريكا... التي اتَّضح عندما عثرتُ عليها أخيرًا أنها كانت أمريكا طوال الوقت.

**نيل جايمان**

*قُرب كينسيل، كاونتي كورك*

***15 يناير 2001***



# مُلحق

قضيتُ معظم هذه الرّواية أتطلّعُ إلى كتابة لقاء شادو والمسيح، إذ لم يُمكنني بالطّبع أن أكتب عن أمريكا دون ذِكر المسيح، فهو جزء لا يتجزّأ من نسيج البلاد.

ثم كتبتُ مشهدهما الأوّل في الفصل الخامس عشر، ولم أجده يُناسبني، فقد استشعرتُ أني ألمُحُ إلى شيءٍ لا يُمكنني أن أذكره ذِكرًا عابرًا ثم أتجاوَزه ببساطة، لأنه أكبر من ذلك.

وهكذا حذفتُ المشهد ثانيةً.

ثم كدتُ أضيفه مرّةً أخرى في أثناء تجميع نصّ المؤلّف المفضّل هذا. في الحقيقة، لقد أضفته، ثم حذفته ووضعته هنا. بإمكانكم قراءته، لكنني لستُ واثقًا أنه جزء من «آلهة أمريكيّة» بالضّرورة.

لكم أن تعتبروه مشهدًا ملفّقًا ربما.

يومًا ما سيرجع شادو إلى أمريكا.

وفي انتظاره بعض الحوارات بالغة التّشويق...

كان النّاس يتجوّلون في أنحاء المكان بجواره، في داخل عقله أو خارجه.

بدا له أنه يتعرّف بعضهم، أمّا الآخرون فأغراب.

قال له أحدهم مناولًا إياه شرابًا: «وما الغريب إلّا صديق لم تلقَه بعدُ؟».

أخذَ الشّراب وقطعَ مع الشّخص رُواقًا بنيًّا فاتحًا. كانا في مبنى على الطِّراز الإسباني، وانتقلا من الرُّواق المبني بالطُّوب إلى ساحةٍ مفتوحة إلى رُواقٍ آخر، فيما ألهبَت الشّمس الحدائق المائيَّة والنّوافير بحرارتها.

قال شادو: «قد يكون عدوًّا لم تُقابِله بعدُ».

ردَّ الرَّجل: «كئيب يا شادو، كئيب جدًّا».

رشفَ شادو من شرابه، فوجدَه نبيذًا أحمر على شيءٍ من الملوحة، ثم قال: «كانت بضعة أشهُرٍ كئيبة. كانت بضعة أعوامٍ كئيبة».

الرَّجل أسمر نحيل متوسِّط الطُّول، وقد رمقَ شادو بابتسامة تعاطُفٍ وديعة، وسألَه: «ما أخبار السَّهرة الجنائزيَّة يا شادو؟».

- «الشَّجرة؟». كان شادو قد نسيَ أنه معلَّق من الشَّجرة الفضِّيَّة. تساءلَ ماذا نسيَ أيضًا. «مؤلمة».

قال الرَّجل: «المعاناة منقِّية أحيانًا». ثيابه تقليديَّة لكنها باهظة الثَّمن. «من شأنها أن تُطهِّرك».

ردَّ شادو: «ومن شأنها أيضًا أن تُخرِّبك».

قادَ الرَّجل شادو إلى مكتبٍ فسيح، ولو أن لا منضدة فيه، وسألَه: «هل فكَّرت في معنى أن يكون المرء إلهًا؟». للرَّجل لحية، ويعتمر قبَّعة بيسبول. «معناه أن تتخلَّى عن وجودك الفاني لتُصبِح ميمةً، شيئًا يحيا إلى الأبد في عقول النَّاس، مثل لحن أغنيَّة أطفال. معناه أن كلَّ واحدٍ يُعيد تشكيلك في عقله. بالكاد تتمتَّع بهُويَّتك الخاصَّة، وبدلًا من ذلك تصير ألف وجهٍ لما يُريد النَّاس أن تكونه حسب حاجتهم. وكلُّ واحدٍ يبغي منك شيئًا مختلفًا. لا ثبات، لا استقرار».

جلسَ شادو على مقعدٍ جلديٍّ مريح عند النَّافذة، والرَّجل على الأريكة الضَّخمة.

قال شادو: «لديك مكان رائع هنا».

- «شكرًا. أخبِرني بصراحة، ما رأيك في النَّبيذ؟».

تردَّد شادو قبل أن يُجيب: «رديء نوعًا للأسف».

- «معذرةً. هذه هي مشكلة النَّبيذ. النَّبيذ المعقول يُمكنني أن أصنعه بسهولة، أمَّا النَّبيذ الجيِّد، ناهيك بالنَّبيذ الممتاز... عندك عوامل الطَّقس،

وحموضة التُّربة، وغزارة الأمطار، وحتى جانبِ التَّل الذي ينمو عليه العنب. ولا تجعلني أتكلَّمُ عن الخمور المعتَّقة...».

قال شادو: «لا بأس به حقًّا»، وابتلعَ بقيَّةَ النَّبيذِ بجرعةٍ طويلة واحدة. أحسَّ به يحرق معدته الخالية، وبفقاقيع السُّكر ترتفع في مؤخِّرة عقله.

قال صديقه: «ثم نأتي إلى مسألة الآلهة القديمة والآلهة الجديدة هذه. إذا طلبت رأيي، فإنني أرحِّبُ بالآلهة الجديدة. دعها تتوافد. آلهة المسدَّسات، آلهة القنابل، كلُّ آلهة الجهل والتَّعصُّب، آلهة الرِّياء والحماقة واللُّوم. كلُّ الأشياء التي يُحاوِلون تحميلي أعباءها. هكذا تخفُّ وطأة الحِمل عن كاهلي».

علَّق شادو: «لكن نجاحك باهر. انظُر إلى هذا المكان»، ولوَّح بيده مشيرًا إلى اللَّوحات المعلَّقة على الحوائط، والأرضيَّة المصنوعة من الخشبِ الصُّلب، والنَّافورة في السَّاحة أسفلهما.

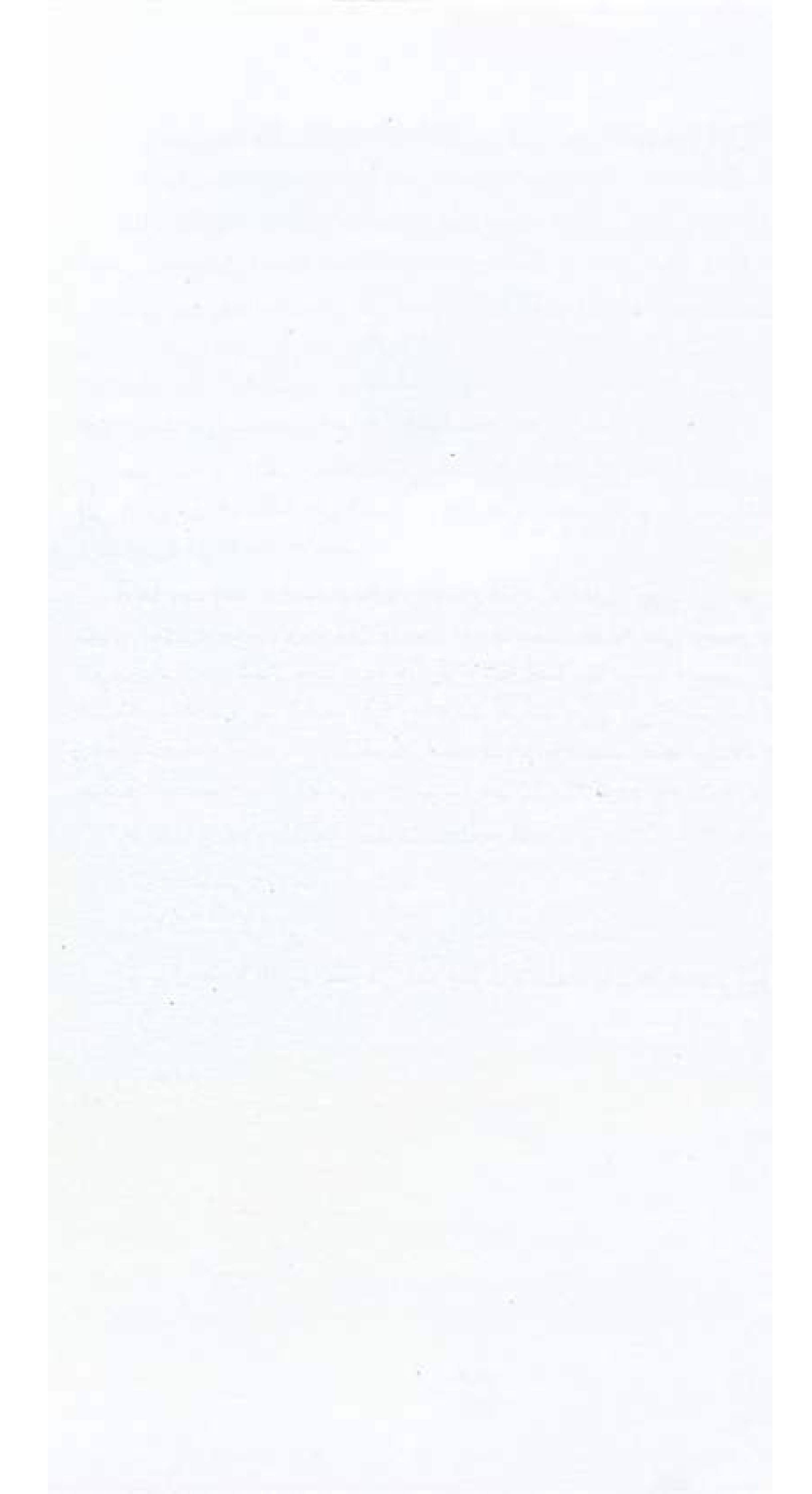
أومأ صديقه برأسه، وقال: «للنَّجاح ثمن. كما قلتُ، يجب أن تكون كلُّ شيءٍ لكلِّ شخص، وسرعان ما تجد نفسك مشتَّتًا للغاية حتى تُصبِح بالكاد موجودًا. ليس شيئًا جيِّدًا»، ثم مدَّ يدًا خشنةً أصابعها منقوشة بندوب إزميل قديمة، واعتصرَ يد شادو قائلًا: «أعرفُ، أعرفُ، حريٌّ بي أن أمتنَّ لما أتمتَّعُ به من نِعم، وإحدى تلك النِّعم أن أجد وقتًا لمجرَّد لقائك هكذا والكلام معك. عظيم أنك استطعت المجيء، عظيم حقًّا. لا تكن كالأغراب إذًا».

ردَّ شادو: «لا، سأكون صديقًا لم تلقَه بعدُ».

قال الملتحي: «رجل طريف».

ولغا السِّنجاب في أُذن شادو: «راتاتُسك، راتاتُسك».

لم يزَل طَعم النَّبيذ المُر في فمه ومؤخِّرة حلقه، وقد كادَ الظَّلام يحلُّ.



# كيف تجرؤ؟

لا أحد حتى الآن سألني السُّؤال الذي كنتُ أخشاه، السُّؤال الذي أملتُ ألَّا يسأله أحد. لذلك سأسأله بنفسي، وأحاولُ الإجابة عنه بنفسي، على أمل أني -على غرار الرَّاكبة التي تخاف دومًا أن تُختطَف طائرتها، فتحمل معها قنبلةً مهرَّبةً على متن الطَّائرة- بفعلي هذا أزيدُ احتمالات ألَّا يسأله أحد آخَر.

والسُّؤال هو: كيف تجرؤ؟

أو في صيغته المطوَّلة: «كيف تجرؤ أيها الإنجليزي على محاولة تأليف كتابٍ عن أمريكا وعن الأساطير الأمريكيَّة والرُّوح الأمريكيَّة؟ كيف تجرؤ على محاولة الكتابة عمَّا يجعل أمريكا استثنائيَّةً، بلدًا وأمَّةً وفكرةً؟».

ولكوني إنجليزيًّا، فردِّي التِّلقائي أن أهزَّ كتفيَّ وأعد بعدم حدوث ذلك ثانيةً.

على أني جرؤتُ في روايتي «آلهة أمريكيَّة»، وتطلَّب هذا نوعًا غريبًا من الغطرسة.

في شبابي كتبتُ روايةً مصوَّرةً عن الأحلام والقصص عنوانها «رجل الرِّمال» (مجموعةً، ولا تزال تُطبَع، في عشرة مجلَّدات، ويَجدُر بك أن تقرأها إن لم تكن قرأتها)، وفي ذلك الحين تلقَّيتُ طوال الوقت سؤالًا مشابهًا: «إنك مقيم في إنجلترا، فكيف تضع جزءًا كبيرًا جدًّا من أحداث هذه القصَّة في أمريكا؟».

كنتُ أشير إلى أن المملكة المتَّحدة -من النَّاحية الإعلاميَّة- في حُكم الولاية الحادية والخمسين. الأفلام الأمريكيَّة تُعرَض عندنا، ونُشاهِد التليفزيون الأمريكي. وهكذا كنتُ أقولُ: «قد لا أكتبُ عن سياتل تُرضي قاطنيها، لكنني أستطيعُ الكتابة بالقدر نفسه من الجودة عن سياتل كنيويوركي لم يَزُرها قطُّ».

وكنتُ مخطئًا بالطَّبع، فلم أفعل ذلك على الإطلاق، وما فعلته بدلًا منه -بالنَّظر لاحقًا- كان أشدَّ إثارةً للاهتمام مرارًا. لقد صنعتُ أمريكا متخيَّلةً بالكامل، يُمكن لأحداث «رجل الرِّمال» أن تدور فيها، مكانًا مليئًا بالهذيان، نائيًا عن المألوف، يقع وراء حافة الواقع.

وقد أرضاني ذلك إلى أن تبعتُ زوجتي الأمريكيَّة ورغبتي في الإقامة بمنزلٍ على غرار منزل «عائلة آدمز»، وجئتُ للمعيشة في أمريكا.

ببُطءٍ -واستغرقَ ذلك وقتًا- أدركتُ أن أمريكا التي أكتبها خياليَّة تمامًا، وأن أمريكا الحقيقيَّة، تلك القابعة تحت السَّطح الذي لا يُوحي بوجود شيءٍ أعمق تحته، أشدُّ تشويقًا كثيرًا مما في القصص.

أظنُّ أن تجربة الهجرة تجربة عالميَّة (حتى إن كنت مثلي من نوع المهاجرين الذي ما زالَ يتمسَّك بشدَّة، وربما على نحوٍ تطيُّري، بمواطنته البريطانيَّة بعد فترةٍ طويلة من اختلال لُكنته). من ناحيةٍ أنت، ومن ناحيةٍ أخرى أمريكا. إنها أكبر منك، وهكذا تُحاول أن تعقلها، تُحاول أن تستوعبها... وهو الشَّيء الذي تُقاوِمه هي. إنها كبيرة بما يكفي، وتحتوي على ما يكفي من تناقُضات، لدرجةٍ تجعلها راضيةً لأقصى حدٍّ عن عجز أحدٍ عن استيعابها، وفي مرحلةٍ ما تُدرِك أنت أن أفضل ما يُمكنك أن تأمله على الإطلاق، أن تكون مثل واحدٍ من الرِّجال العميان في الحكاية الرَّمزيَّة الشَّهيرة، الذين أمسكَ كلٌّ منهم فيلًا من خرطومه، ومن ساقه، ومن جانبه، ومن ذيله، وقرَّر كلٌّ منهم أن الفيل مثل الثُّعبان، ومثل الشَّجرة، ومثل الحائط، ومثل الحبل. بصفتي كاتبًا، لم يكن باستطاعتي إلَّا وصف جزءٍ صغير من الكلِّ.

ولقد كان أكبر من أن أراه.

لم أعرف حقًّا أيَّ كتابٍ أرغب في كتابته إلى أن وجدت نفسي في صيف 1998 أقضي ثمانيَ وأربعين ساعةً في رايكافيك بآيسلندا، وفي منتصَف تلك الزِّيارة عرفتُ ما هو كتابي الجديد. في رأسي تجمَّع عدد من شذرات الحبكة، وتشكيلة صعبة التَّناوُل من الشَّخصيَّات، وشيء يُشبِه البناء من بعيد. ربما لأني كنتُ بعيدًا كفايةً عن أمريكا بحيث رأيتها بوضوح، وربما لأن الوقت حانَ ليس إلَّا. ستكون رواية تشويق، وجرائم قتلٍ غامضة، وغراميَّات، ورحلةٍ على الطَّريق. ستكون عن تجربة الهجرة، عمَّا يُؤمن به النَّاس حينما يجيؤون إلى أمريكا، وعمَّا يَحدُث لما يُؤمنون به. إنني إنجليزي، وأحبُّ كوني إنجليزيًا، وقد احتفظتُ بجواز سفري الإنجليزي، وأحتفظ بما أقدرُ عليه من لُكنتي، وأعيشُ في الولايات المتَّحدة منذ تسع سنواتٍ تقريبًا، وقت يكفي لأن أعلم أن كلَّ ما تعلَّمته عنها من السينما خطأ.

أردتُ الكتابة عن الأساطير. أردتُ الكتابة عن أمريكا باعتبارها مكانًا أسطوريًا.

عدتُ إلى غُرفتي بالفندق وكتبتُ نُبذةً تقريبيةً من ثلاث صفحات، شيئًا أقرب إلى وصفٍ فضفاض للكتاب الذي في رأسي. جرّبتُ أن أسمّيه «أمريكا السِّحريَّة» (على اسم أغنيَّة فرقة «بلر»)، ولم يبدُ لي الاسم سليمًا. ثم جرَّبتُ أن أسمّيه «ملك أمريكا» (على اسم ألبوم إلفس كوستلو)، ولم يبدُ لي ذلك سليمًا كذلك. وهكذا كتبتُ «آلهة أمريكيَّة» (ليس على اسم شيء) في أعلى الصَّفحة الأولى من النُّبذة، مفكِّرًا أني سأتوصَّلُ إلى عنوانٍ أفضل عاجلًا أو آجلًا.

لم أكن قد بدأتُ كتابة الرِّواية عندما أرسلَ إليَّ النَّاشر الغلاف الذي يظهر عليه طريق ولسان برق، وبحروفٍ كبيرة عنوان «آلهة أمريكيَّة». لم أرَ جدوى من مقاومة العنوان -ولأصدقك القول، كان قد بدأ يروقني- وشرعتُ أكتبُ.

إنه كتاب كبير، لكن أمريكا بلد كبير، ومحاولة احتوائها داخل كتابٍ كانت صعبةً بما فيه الكفاية.

«آلهة أمريكيَّة» قصَّة رجلٍ اسمه شادو، والوظيفة التي تُعرَض عليه حين يَخرُج من السِّجن. إنها قصَّة عن رحلةٍ على الطَّريق، وتحكي قصَّة بلدةٍ صغيرة في الغرب الأوسط، وحالات الاختفاء التي تقع هناك كلَّ شتاء. بينما أكتبها، اكتشفتُ ما يجعل مزارات جانب الطَّريق السِّياحيَّة أشدَّ الأمكنة قداسةً في أمريكا، وتعلَّمتُ الكثير عن الآلهة، وعن المنظَّمات السرِّيَّة، وعن الحروب، واكتشفتُ الكثير من الطُّرق الفرعيَّة واللَّحظات الغريبة الأخرى، بعضها أبهجَني، وقليل منها أخافَني، وبعضها أذهلَني.

عندما أوشكَت الرِّواية على الانتهاء، ولم يتبقَّ إلَّا جمع الخيوط المتشعِّبة، غادرتُ البلاد ثانيةً وأويتُ مختبئًا إلى منزلٍ قديم ضخم بارد في أيرلندا، وكتبتُ كلَّ ما تبقَّت كتابته مرتجفًا بجوار نارٍ مشتعلة في فحم المستنقعات.

ثم انتهى الكتاب، وتوقَّفتُ. والآن، بالنَّظر إلى الماضي، لم تكن المسألة مسألة جرأةٍ حقًّا، بل بالأحرى أني لم أكن أملك خيارًا.

هذه صيغة مطوَّلة من المقالة التي كتبَها جايمان لموقع Borders في مارس 2001، وتظهر على موقعه www.neilgaiman.com.

# أطلس الآلهة

- **شادو مون، بالدور:** نصف إله، ابن أودِن وامرأة فانية في الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة
- **لُو كي لايسميث، لوكي:** إله محتال من الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة، شريك أودِن أحيانًا، قدره القتال ضد الآلهة في معركة راجناروك
- **رجل الجليد، أولر:** إله الشِّتاء والتَّزلُّج والرِّماية في الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة
- **سام فتيشر:** إله طوطم غير مميَّز
- **الرَّجل الجاموس:** الأرض
- **المستر أربعاء، أودِن، جريمنير:** أبو الكلّ في الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة
- **بلقيس، ملكة سبأ:** شخصيَّة توراتيَّة، ولكن ليست إلهة
- **سويني المجنون، سويڤني جايلت:** ملك أيرلندي مجنون، وربما لِپريكون
- **الفتى التِّقني:** أحد «الآلهة الجديدة»
- **كواتليكوي:** إلهة من ميثولوچيا الآزتك
- **لوسيتيوس:** إله حرب من الدِّيانة الغالورومانيَّة
- **هابور:** نهر العالم السُّفلي وإلهة البحر في الميثولوچيا السومريَّة
- **حري شاف:** إله خصوبة مصري، ولاحقًا إغريقي
- **الإلهة ثلاثيَّة الرُّؤوس:** محتمل هِكاتي من الميثولوچيا الإغريقيَّة
- **الإله ذو رأس الطَّائر:** محتمل حورس أو تحوت من الميثولوچيا المصريَّة
- **تير:** ابن أودِن في الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة
- **ثور:** إله الرَّعد والبرق في الميثولوچيا الإسكندناڤيَّة

- **فريا:** زوجة أودن السابقة
- **زوريا ڤيتشرنيايا:** نجمة المساء في الميثولوچيا السلافيَّة
- **زوريا أوترنيايا:** نجمة الصَّباح في الميثولوچيا السلافيَّة
- **زوريا پولونوتشنايا:** نجمة منتصف اللَّيل، قد تكون شخصيَّة مختلقة، وقد تكون من الميثولوچيا السلافيَّة
- **تشرنوبوج:** الإله الأسود في الميثولوچيا السلافيَّة، قد يكون وجهًا لبيليبوج
- **بيليبوج:** إله النُّور في الميثولوچيا السلافيَّة، قد يكون وجهًا لتشرنوبوج
- **البيسكيَّات:** پيكسيَّات أو جنيَّات جنوب غربي إنجلترا
- **السپريدچانات:** جنيَّات قبيحة خبيثة
- **كلاب البراري السَّوداء:** مخلوقات من الجُزر البريطانيَّة
- **النِّسوة الفقمات:** السلكيَّات، مخلوقات تأخذ هيئة فقمةٍ في البحر وهيئة إنسانٍ على اليابسة
- **القوارِع:** أرواح تعيش في المناجم
- **ذوو القبَّعات الزُّرقاء:** أرواح تعيش في المناجم
- **البوكا:** أرواح عواصف
- **رجال شجر التُّفَّاح:** مخلوقات من الفُلكلور الإنجليزي
- **ذو الرَّأس المسلوخ والعظام الدَّامية:** بُعبُع إنجليزي
- **النورنات:** ڤرداندي وسكولد وأورد، ربَّات القدر في الميثولوچيا الاسكندناڤيَّة
- **المستر نانسي:** أنانسي، إله إفريقي محتال
- **الإله الأسد:** ماحس ابن رع وباستت، إله حماية
- **البانشيَّات:** أرواح تُنذِر بالموت في الفُلكلور الأيرلندي
- **كوبيرا:** إله ثروة هندوسي
- **الفراو هُل:** إلهة طقسٍ چرمانيَّة
- **عشتروت:** عشتار أو عشترة، إلهة حُبٍّ من الشَّرق الأدنى
- **البطاقة الائتمانيَّة:** إلهة جديدة
- **الطَّريق السَّريع:** إله جديد

- **الإنترنت:** إلهة جديدة
- **التليفون:** إله جديد
- **الراديو:** إله جديد
- **المستشفى:** إله جديد
- **التليفزيون:** إله جديد
- **البلاستيك:** إله جديد
- **جهاز الاستدعاء:** إله جديد
- **النيون:** إله جديد
- **ماما-چي:** كالي، إلهة هندوسيَّة، مدمِّرة قُوى الشَّر
- **إله بلا اسم:** الميثولوچيا مجهولة، إله مالٍ وثروة، سرعان ما ينسى القانون الذين يُقابِلونه وجوده دومًا
- **آلقَس:** ملك الأقزام
- **أنوبيس:** إله التَّحنيط والجنائز في الميثولوچيا المصريَّة
- **باستت:** إلهة الحُبِّ المصريَّة ذات رأس القِطَّة
- **تحوت:** إله المعرفة المصري
- **عفريت:** جنِّي من الثَّقافة العربيَّة
- **سِت:** إله الشَّر المصري
- **حورس:** إله الشَّمس المصري ذو رأس الصَّقر
- **عمميت:** آكلة الأرواح في الميثولوچيا المصريَّة، هجينة من فرس النَّهر والتِّمساح والأسد
- **ميثرا:** إله الشمس البابلي
- **يسوع المسيح:** ابن الإله في المسيحيَّة
- **بران:** معبود كِلتي
- **بريدچت:** إلهة أيرلنديَّة
- **فِن:** قائد حركة الفِتيان الأيرلنديَّة
- **هينزلمان:** كوبُلد، روح من كولونيا

- **طيور الرَّعد:** مخلوقات من أساطير سُكَّان أمريكا الأصليِّين، تجلب البرق والرَّعد وتضع «بيض العُقبان»
- **إيستر:** أوستارا، إلهة ربيع جرمانيَّة
- **إلجبا:** رسول ماوو وآخَرين من آلهة غرب إفريقيا
- **ماوو:** معبودة من غرب إفريقيا
- **دامبالا-وِدو:** راعي المطر، إله هايتي جيء به من غرب إفريقيا على الأرجح
- **أوجو:** إله محاربين من غرب إفريقيا
- **شانجو:** إله البرق والرَّعد في غرب إفريقيا
- **زاكا:** إله الحصاد في غرب إفريقيا
- **ويسكي چاك:** ويساكِدچاك، الخالق عند شعب الكري
- **آپل چوني،** چون تشاپمان، معروف أيضًا باسم «چوني آپلسيد»
- **پول بَنيَن:** مخلوق خيالي من ميثولوچيا الحطَّابين
- **كيتسونِه:** روح ثعلب يابانيَّة
- **ننيونيني:** إله بدائي
- **جويديون:** إله حضارة ومعرفة كِلتي
- **ميديا:** إلهة جديدة
- **راتاتُسك:** راتاتُسكر، سنجاب يعيش على شجرة العالم في الميثولوچيا النورديَّة
- **جانش:** إله الحكمة الهندوسي ذو رأس الفيل
- **ڤيلا:** أرواح سلاڤيَّة
- **روسالكا:** أرواح سلاڤيَّة
- **ڤامپير:** مصَّاص دماء ألماني
- **كائن شبيه بالقرد له فرو برتقالي:** يِتي؟
- **صينيُّون يحملون سيوفًا:** غير معروفين
- **مكسيكيُّون سود الشَّعر:** غير معروفين
- **جولِم:** جولِم پراج
- **حاخام:** الحاخام يهوذا لوڤ بن بتسلئيل

- **ساتير:** مخلوق من الأساطير الإغريقيَّة له ساقا كبش
- **راكشاسا:** شياطين هندوسيَّة
- **لِجبا:** إله محتال من هايتي
- **البارون سامدي:** سيِّد الموتى الهايتي
- **الجيدي:** أرواح الآلهة الهايتيَّة الأخرى
- **الشَّيء السَّرطاني:** غير معروف
- **ولدان صغيران بحجم شجر التُّفَّاح:** المحاربان التَّوأمان عند شعوب البوبلو
- **ماخا:** واحدة من الموريجَن، إلهة حربٍ أيرلنديَّة
- **الرَّجل الذِّئب:** قد يكون مذؤوبًا
- **إيشتن:** كبير الآلهة المجريَّة
- **رجل يرتدي بدلةً أنيقةً:** قد يكون إلهًا منسيًّا؟
- **رجل صيني بقلادة جماجم:** قد يكون شا وو جينغ، راهب بوذي أسطوري
- **القيُّوط:** إله محتال عند سُكَّان أمريكا الأصليِّين
- **المرأة الشَّيهم:** روح عند سُكَّان أمريكا الأصليِّين
- **مينوتور:** مخلوق ببدن إنسان ورأس ثور في الأساطير الإغريقيَّة
- **الداكتِلوي:** عِرق أسطوري من الذُّكور في الأساطير الإغريقيَّة
- **الغول:** مخلوق ميت حي
- **دُب في فروه زهور:** غير معروف
- **رجل أزرق البشرة:** غير معروف
- **رجل بدرعٍ ذهبيَّة وسيفٍ من الأعيُن:** غير معروف
- **أنتونيوس:** حبيب الإمبراطور هادريان
- **سَيكلوپس:** مخلوق بعينٍ واحدة
- **رجال قصار مكتنزون:** آزتك؟
- **بارون السِّكك الحديد:** إله جديد
- **آلهة السيَّارات:** آلهة جديدة
- **آلهة الطَّائرات:** آلهة جديدة

# مُلحق التَّرجمة

i. من مراجع الأساطير الإسكندنافيَّة في هذا الكتاب، مجموعة «أشعار الإداء *Poetic Edda*»، وهي القصائد المسجَّلة في سبعينيَّات القرن الثَّالث عشر بـ«الكتاب الملكي» في آيسلندا. وفقًا للأشعار، ضحَّى أودن بنفسه لنفسه شنقًا من شجرة العالم يِجدراسيل، ومن أسمائه «إله المشانق». لأسباب مجهولة، كان تُراب المقابر وتُراب المشانق مكونًا مهمًا في التَّعاويذ، ولئن كان تُراب المقابر يُعَدُّ تُرابًا مقدَّسًا، فتُراب المشانق عُدَّ تُرابًا غير مقدَّس منسوبًا إلى طبقة المجرمين. أمَّا «صفقات المشانق» فتُشير إلى التَّضحيات على غرار تضحية أودن.

ii. غالبًا كتاب *Modern Coin Magic* للسَّاحر ج. ب. بوبو (1952)، أو إعادة إصداره المطوَّلة *New Modern Coin Magic* (1966).

iii. تُنسَب المقولة إلى المشرِّع الأثيني سولون، في حوارٍ مع كريسوس سجَّله هيرودوت، الذي يُعَدُّ عمله «التَّواريخ»، المسجَّل في عام 440 قبل الميلاد، العمل المؤسِّس لتاريخ الحضارة الغربيَّة. هذه المقولة هي الحُكم الذي يُصدِره سولون عندما يُحاوِل كريسوس أن يبيِّن له أنه ثري وصاحب نفوذ، ومن ثمَّ أسعد الرِّجال، فيُشير سولون أن من شأن الصُّدفة أو الحظِّ السَّيِّئ إصابة الرَّجل في أيِّ وقت، أي إن الحُكم على مجمل حياته لا يصحُّ إلَّا في نهايتها.

iv. يبدو أن رجل الجليد هو الإله الإسكندنافي أولر، إله الشِّتاء والتَّزلُّج والرِّماية. في «أشعار الإداء»، هو أول واحد من الاثني عشر إلهًا الكبار، الذين يضمُّ مجمعهم أودن وثور.

v. الرَّجل الجاموس ليس شخصيَّةً معيَّنةً من ميثولوجيا سُكَّان أمريكا الأصليِّين، وإن كان للجواميس أهميَّة عظيمة عند شعوب أمريكا الشِّماليَّة، التي أكلت لحومها واستخدمت جلودها وعظامها في صُنع الملابس والأسلحة وأدوات

الطَّعام. وقد عدَّ بعض القبائل الجواميس أرواحًا تمنُّ على البشر بكلِّ ما يحتاجون إليه في حياتهم. في محادثةٍ خاصَّة مع محرِّره، أشارَ جايمان إلى أن الرَّجل الجاموس ليس إلهًا، بل بالأحرى يُمثِّل روح الأرض الأمريكيَّة.

vi. يرجع أصل كلمة Wednesday إلى «يوم وودِن» Woden's-day (Wōdnesdæg) في الإنجليزيَّة القديمة، تمامًا كما يرجع أصل Thursday إلى Thor's-day، أي «يوم ثور». ووِدن هو أودِن في الإنجليزيَّة القديمة. لأيام الأسبوع إحالات أخرى إلى الآلهة النورديَّة، فالثلاثاء مثلًا يرجع إلى تيو، وهو الاسم الأنجلوسكسوني لتير إله الحرب النوردي. كما سيُرى لاحقًا، الأربعاء ليس الإله النوردي أودِن، بل بالأحرى النُّسخة الأمريكيَّة منه.

vii. كتبَ آدم بلوك ودون هِكت ***Walkin' After Midnight***، وسجَّلتها پاتسي كلاين في عام 1956، وأصبحَت من أنجح أغانيها.

viii. كتبَ الشَّاعر الألماني فريدريش شيلر القصيدة الغنائيَّة ***Ode to Joy*** في عام 1785، ولحَّنها بيتهوڤن في الحركة الأخيرة من سيمفونيَّته التَّاسعة.

ix. حقَّقت *Iko Iko* نجاحًا هائلًا لفِرقة «ديكسي كَپس» في عام 1965، وتُنسَب كلماتها إلى ترانيم قبائل هنود ماردي جرا.

x. يأخذ سويني المجنون اسمه من الملك سويڤني ماك كولمين، وهو شخصيَّة من أدب العصور الوُسطى الأيرلندي. في الحكاية، يعترض الملك عمل القدِّيس رونان فِن، الذي كان يبني كنيسةً، فيُلقي القدِّيس رونان عليه لعنةً تَحكُم عليه بأن «يطير في الهواء كقناة حربته»، ويموت بطعنة حربةٍ مثل رجل الدِّين الذي قتلَه». يعدل سويڤني عن القتال في معركة ماج راث، المعروفة أيضًا بمعركة مويرا، التي دارَت في عام 637، ويتحوَّل إلى طائرٍ ليعيش حياةً من التَّرحال. في نهاية أسفاره يصل سويڤني إلى مقاطعة كارلو في جنوب شرقي أيرلندا ويُقيم مع القِس مولينج، الذي يأمر طاهيته بطبخ وجبةٍ للرَّجل المجنون، وهو ما تفعله بصبِّ الحليب في حُفرةٍ صنعَتها بقدمها في روث البهائم. رغم ذلك يعتقد زوج الطَّاهية (راعي ماشية القِس) أن بينها وبين سويڤني علاقةً غراميَّةً، وفي نوبةٍ من الغيرة يطعن سويڤني بحربةٍ وهو يشرب من الحُفرة، وهكذا يموت بالطَّريقة التي توعَّده بها القدِّيس رونان. أدَّى تاريخ الملك الأيرلندي إلى تلقيبه بسويڤني جايلت، أو «سويني المجنون». لاحِظ أن الحكاية لا تَذكُر اللِّپريكونات على الإطلاق، أي إن تقديس سويني المجنون لم يَحدُث إلَّا بعد مجيئه إلى أمريكا.

xi. وفقًا للأساطير النورديَّة، صنعَ الأقزام البِتع -الذي قيلَ إنه مصدر وحي الشُّعراء- بخلطهم العسل بدم الحكيم كڤاسير، وتَذكُر الأساطير أيضًا سرقة أودِن البتع من الأقزام.

xii. لم يُفصِح الأربعاء عمَّا يعرفه، لكن المعتقَد الخُرافي الشَّائع يقول بأن «الهواء الميت»، أي الصَّمت المفاجئ في التَّجمُّعات، يقع بعد عشرين دقيقةً من تمام السَّاعة، لأن إبراهام لينكن مات في السَّاعة السَّابعة وعشرين دقيقةً صباح 15 إبريل 1865. ويقول طرح آخر إن جوقةً من الملائكة تُغنِّي بعد عشرين دقيقةً بالضَّبط من تمام السَّاعة، فيَصمُت البشر في كلِّ مكان ليستمعوا، وقد ذكرَ ديلان توماس هذا في مجموعته القصصيَّة *Portrait of the Artist as a Young Dog* على لسان إحدى الشَّخصيَّات. لا يُوجَد تفسير علمي لهذا، ولكن قد يكون التَّفسير الأبسط أن هذا الصَّمت يقع على مدار السَّاعة، ولا يلتفت إليه إلَّا الدَّارون بالظَّاهرة.

xiii. لا يُحدِّد النَّص نوع الكائنات الخارقة للطَّبيعة التي ينتمي إليه سويني المجنون، وإن كان بالتَّأكيد أيرلنديًا. يَذكُر الفلكلور الأيرلندي اللِّبريكونات والكلوريكونات (الفئة الثَّانية مرتبطة بشكلٍ خاص بالإسراف في شُرب الكحول، على غرار سويني)، لكن ويليَم بتلر ييتس رأى أن الفرق قد يكون مجرَّد وجهٍ مختلف لنوعٍ واحد من الجنِّيَّات الأيرلنديَّة، على أن الحكايات كلَّها تتَّفق على صِغر حجم تلك الكائنات، حتى إن البعض يُرجِع أصل كلمة «لِبريكون» إلى تحريفٍ يجمع بين كلمتَي «جسد» و«صغير» بالأيرلنديَّة القديمة.

xiv. كتبَ لُو ريد *Who Loves the Sun?* وسجَّلتها فِرقة «ڤلڤت أندرجراوند» في عام 1970 (وهو ما يجعل وجود تسجيلٍ لها في صندوق موسيقى في بداية القرن الحادي والعشرين مستبعدًا). تُعبِّر الأغنيَّة عن وجهة نظرٍ عدميَّة، منكرةً قيمة الشَّمس والرِّيح بعد انكسار القلب.

xv. كانت الماعز وفيرةً في النرويج، ومن ثَمَّ في الأساطير النورديَّة. أشهرها على الأرجح المعزاة هايذرون المذكورة في «أشعار الإدا»، التي أكلَت أوراق شجرة لايرادر، وكانت ضروعها مليئةً بالنبِع.

xvi. تُنسَب *Fool on the Hill* إلى چون لنون وپول مكارتني، ولو أن مكارتني هو الذي كتبَها على ما يبدو. تحكي الأغنيَّة عن حالم منبوذ مثل مهاريشي ماهش يوجي، مؤسِّس حركة التَّجدُّد الرُّوحي، وكان له تأثير على «البيتلز».

xvii. وُصِفَت قدَّاحات «زيپو» بكونها «رمزًا أسطوريًا بارزًا لأمريكا». أسِّسَت الشَّركة في عام 1932، وحين اندلعَت الحرب العالميَّة الثَّانية كرَّست الشَّركة مواردها كلَّها لإنتاج القدَّاحات للقُوَّات المسلَّحة، وأفضى انتشار القدَّاحات بين الجنود إلى أساطير عن نجاة بعضهم من الموت عندما أصابَت طلقة من العدوِّ غلاف القدَّاحة المعدني، أو العثور على قدَّاحاتٍ مفقودة منذ سنين طويلة في قارَّةٍ أخرى.

xviii. بدأ عرض *The Jerry Springer Show* في عام 1991، ورغم تركيز البرنامج على الموضوعات السِّياسيَّة في البداية، فقد اتَّجه بعد فترةٍ إلى

موضوعات الصُّحف الصَّفراء المعتمدة بالأساس على المواجهات بين الضُّيوف، التي وصلت أحيانًا إلى الاشتباك بالأيدي.

xix. توصَف كواتليكوي في أساطير الأزتك بارتدائها تنُّورةً من الثَّعابين، ووضعها قلادةً من القلوب والأيدي، وبأصابع يديها وقدميها المخلبيَّة، وثدييها الرِّخويْن. كانت كواتليكوي أمّ ويتشيلوبوتشلي إله الحرب والشَّمس الذي حبلت به بالسِّحر، وزوجة ميكسكواتل ثُعبان السَّحاب وإله درب التَّبَّانة.

xx. تشيع الربَّات الثُّلاثيَّات في مجامع الآلهة القديمة. أحيانًا يظهرن ملتصقاتٍ، وأحيانًا يتَّخذن هيئاتٍ أخرى. منهن الموريجَن في الأساطير الأيرلنديَّة، والنورنات في الأساطير النورديَّة، وفي الأساطير الإغريقيَّة الإرينيَّات، وكذلك هكاتي، وهي ربَّة واحدة ذات ثلاثة وجوه.

xxi. تتعدَّد الآلهة ذات رؤوس الطُّيور في الثَّقافات المختلفة، منها حورس وتحوت في مصر، وفي الهند جارودا الذي يُصوَّر غالبًا بملامح شبه بشريَّة، منها اليدان.

xxii. في القصيدة النورديَّة القديمة «هاوَمال» *Hávamál*، أي «مقولات الحكيم»، حسب التَّرجمة الإنجليزيَّة لبنچامين ثورپ في عام 1866، يحكي أودِن عن تضحيته بنفسه قائلًا: «أعلمُ أني تدلَّيتُ من شجرةٍ ترجُّها الرِّيح تسع ليالٍ كاملةً، بجرح حربةٍ في خصري، قُربانًا لأودِن، نفسي لنفسي». وكان أودِن قد طعنَ نفسه بحربته جونْگير.

xxiii. في حدود العام 1000 بعد الميلاد، قبل قرونٍ من چون كابوت وكريستوفر كولمبس، قادَ الڤيكينچ ليف إريكسن حملةً استكشافيَّةً إلى أمريكا الشَّماليَّة -على الأرجح نيوفندلاند وخليج سانت لورنس- وسمَّى الأرض التي اكتشفَها هناك ڤينلاند أو ڤاينلاند، أي «أرض النَّبيذ». على الرغم من ذِكر الأدب النوردي القديم الرِّحلة، لم تُكتشَف الأدلَّة الأثريَّة عليها حتى ثمانينيَّات القرن العشرين.

xxiv. يُشير الأربعاء هنا إلى Freya's-day، الذي يحمل اسم فريا زوجة أودِن (أو إحدى زوجاته، حسب المصدر).

xxv. كتبَ بوب ديلان *A Hard Rain's a-Gonna Fall* في عام 1962، وتُشير الأغنيَّة إلى «طريق سريع من الماس لا يُسافِر عليه أحد».

xxvi. الزوريا، المعروفات بالأورورا في الميثولوچيا الإغريقيَّة، ربَّات مكلَّفات بحراسة الكون، مهمَّتهن مراقبة الكلب سيمارجل، المقيَّد بالسَّلاسل إلى نجم الشَّمال، وإذا هربَ فسيلتهم الكوكبة كلَّها ويُسبِّب نهاية العالم. تحدَّث جايمان عن البحث الذي أجراه عن الزوريا قائلًا: «أكثر ما عرقلَني في بحثي كان الآلهة السلافيَّة تشرنوبوج والزوريا، لأن المعروف عنها قليل

للغاية. لقد قابلتها في بداية الكتاب، وأحببتُ فكرة الإله الأسود تشرنوبوج وأخيه الإله الأبيض بيليبوج، والزوريا، أختَي الفجر -نجمة الصَّباح ونجمة المساء- وأختهما الغامضة أخت منتصف اللَّيل. بعد ثلاثة أسابيع من البحث الجاد لم أجد إلَّا أكثر قليلًا من المعلومات التي توفَّرت لديَّ عند بداية الكتابة. قليل جدًّا معروف عن الآلهة الروسيَّة، لأنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة والكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة طمستا السَّواد الأعظم من المعروف عنها، ثم أحرقَ ناپوليون البقيَّة الباقية في طريقه إلى موسكو ومنها».

xxvii. تخدم الزوريا إله الشَّمس داجبوج، الذي يُوصَف في بعض الأساطير بأنه أباهما. كلَّ صباحٍ تفتح زوريا أوترنيايا بوَّابة قصر الإله لتَخرُج عربة الشَّمس، وبعد عودتها عند الغسق تُغلِق زوريا ڤيتشرنيايا البوَّابة.

xxviii. تشرنوبوج إله سلاڤي يعني اسمه بالسلاڤيَّة البدائيَّة «الإله الأسود»، وهو إله ظلامي ملعون وفقًا للمصادر التَّاريخيَّة المسيحيَّة، ولكن قد يكون ذلك تأويلًا حديثًا. تشرنوبوج هو الوجه الآخَر للإله الأبيض الرَّؤوف بيليبوج. جدير بالذِّكر أن الأساطير السلاڤيَّة لا تحتوي على رابطٍ معيَّن بين هذين الإلهيْن والزوريا.

xxix. جريمنير أو جريمير، أي «ذو القلنسوة»، هو الاسم الذي انتحله أودِن عندما زارَ العملاق جيرود.

xxx. لا يُوجَد جرم سماوي معروف باسم نجم منتصَف اللَّيل (كلمة پولونوتشنايا تعني «منتصَف اللَّيل»)، ولا تَذكُر الأساطير السلاڤيَّة أختًا ثالثة، ولكن كما ذُكِرَ آنفًا، تشيع الربَّات الثُّلاثيَّات في الميثولوچيا. الطَّريف أن عقب نشر الكتاب، وعلى الرغم من تأكيد المؤلِّف أنها من بنات أفكاره بالكامل، دخلَت زوريا پولونوتشنايا الميثولوچيا بشكلٍ أو بآخَر، حتى إن بعض المصادر يُغفِل ذِكر ظهورها الأوَّل على الإطلاق في هذه الرِّواية.

xxxi. سُكَّ دولار الحرِّيَّة (واسمه الرَّسمي دولار السَّلام) بين عامَي 1921 و1928، ثم في عامَي 1934 و1935، ويظهر على وجهه رأس ليبرتاس إلهة الحرِّيَّة عند الرومان (مثل تمثال الحرِّيَّة)، وعلى ظَهره عُقاب أمريكي أصلع. صمَّم العُملة المهاجر الإيطالي أنتونيو دي فرانشيشي.

xxxii. بدأت إنجلترا عقاب المجرمين والمعارضين السِّياسيِّين بترحيلهم إلى مستعمراتها الأمريكيَّة في عام 1610، حتى أنهَت الثَّورة الأمريكيَّة ذلك العُرف في ما يخصُّ الولايات المتَّحدة، وإن أصبحَت أستراليا وتسمانيا «مقلبَي نُفايات» كبيريْن بعد عام 1786، كما رحَّلت إنجلترا المجرمين من الهند إلى جُزر أندامان. لاحقًا استهلَّت فرنسا العمل بهذا العُرف، مستخدمةً مستعمراتها في كاليدونيا الجديدة وجُزر جويان، ولم ينتهِ العقاب بالتَّرحيل حتى عام 1897.

xxxiii. في عام 1715 قامَت في سكوتلندا انتفاضة اليعاقبة، التي سعَت لوضع أخي الملكة آن الكاثوليكي غير الشَّقيق، چيمس ستوارت (المعروف بچيمس الثَّالث وچيمس الثَّامن)، على العرش بدلًا من الملك چورچ الأوَّل. مع نهاية العام كانت الانتفاضة في حُكم المنتهية.

xxxiv. صمَّم تمثال الحرِّيَّة النحَّات الفرنسي فريدريك أوجست بارتولدي، وبنى هيكله المعدني جوستاڤ إيفل صاحب بُرج إيفل في پاريس. الأربعاء محق بإشارته إلى تصوير السيِّدة حرِّيَّة (ماريان في فرنسا) في عددٍ من التَّماثيل الأخرى بثديينْ مكشوفينْ أو شبه مكشوفينْ، ولكن لا يُوجَد دليل على نيَّة بارتولدي تصوير «الحرِّيَّة تُنير العالم» -اسم التِّمثال الرَّسمي- بثدييْن مكشوفيْن.

xxxv. تُنسَب المقولة إلى لوي آنتوان دو سان چوست، زعيم نادي اليعاقبة خلال الثَّورة الفرنسيَّة.

xxxvi. لا يَذكُر الأربعاء هذه العربات عبثًا، لأنها كانت تُستخدَم أيضًا في نقل جثث المشنوقين. يُسمَّى هذا النَّوع من العربات tumbril، وكانت تُستخدَم أيضًا لنقل المحكوم عليهم بالإعدام بالمقصلة خلال الثَّورة الفرنسيَّة.

xxxvii. في الأصل مكتوبة خطأً IMPROVEMENT'S. ذكرَ جايمان أنه قاتلَ باستماتةٍ للحفاظ على هذا الخطأ الإملائي في عدَّة طبعات. قد يكون الأربعاء إلهًا، لكنه يرتكب أخطاءً إملائيَّةً مثل البشر!

xxxviii. قدَّم الفرنسي موريس راڤل مقطوعة *Bolero* في عام 1928، وكانت في البداية مؤلَّفةً باعتبارها باليه.

xxxix. مقولة حقيقيَّة تعتمد على الجناس الصَّوتي بين اسم Wright وكلمة right، وكون wrong عكس right.

xl. عُرِضَت الأوپرا السَّاخرة *The Mikado* لآرثر سوليڤان وويليَم شونك جيلبرت للمرَّة الأولى في عام 1875، راكبةً موجة الافتتان بكلِّ ما هو ياباني التي اكتسحَت إنجلترا في ذلك الحين. ميكادو بطل الأوپرا هو إمبراطور اليابان، وتدور الأحداث في بلدة تيتيپو الخياليَّة.

xli. كتبَ إميل كامي سان صونس *Danse Macarbre* في عام 1874، بناءً على الأسطورة القائلة بأن الموت يظهر في منتصَف اللَّيل عشيَّة الهالووين، ويجعل الموتى يقومون من قبورهم ليَرقصوا فيما يعزف هو على الكمان.

xliii. كتبَ رينجو ستار *Octopus's Garden* وغنَّاها «البيتلز» في عام 1969، وتحكي الأغنيَّة عن زيارةٍ إلى حديقةٍ تحت الماء.

xliiii. المستر نانسي هو أنانسي، الإله العنكب المحتال، وروح حكي القصص، لأنه ضعيف، فإنه ينجو دومًا من المواقف الحركة بذكائه وحكمته، ويظهر في حكاياتٍ كثيرة من الفُلكلور. يرجع أصل أنانسي إلى غرب إفريقيا، وقد انتقلَ إلى العالم الجديد عن طريق تجارة العبيد.

xliv. في الأساطير النورديَّة، عادةً صاحبَ أودِن الذِّئبان جِري وفرِكي. الطَّريف أن الكاروسل الحقيقي لم يكن يحتوي على ذئبٍ حتى عام 2010، حين أضافَه المنزل فوق الصَّخرة احتفالًا بالذِّكرى العاشرة لصدور الرِّواية.

xlv. ركبَ شادو نوعًا من الجريفن، وهو مخلوق مقرون بشرق آسيا في الأساطير، ويُصوَّر عادةً برأس عُقاب وجسم أسد.

xlvi. آلڤس بن ڤيندالف مخلوق آخَر من الميثولوچيا النورديَّة، وهو قزم معروف بحكمته ومهارته الفائقة في الحدادة. تحكي «أشعار الإداء عن آلڤس، الذي ذهبَ إلى دار ثور ليَطلُب يد ابنته، ولمَّا كان ثور يُريد أن تتزوَّج ابنته إلهًا، فقد اختبرَ آلڤس بسيلٍ من الأسئلة عن أسماء الأرض والبحر والقمر والشَّمس وغيرها، ليستعرض آلڤس حكمته ببراعةٍ لكنه يفشل في الاختبار، إذ يكتشف أن ثور خدعَه ليظلَّ يتكلَّم طوال اللَّيل، حتى تُحوِّل أشعَّة الشَّمس القزم إلى حجر.

xlvii. رسميًّا، تُنطَق الكلمة وتُكتَب creek، إلَّا أنها تظهر كثيرًا في الأعمال الخياليَّة crick، حسب النُّطق الشَّائع في المناطق الرِّيفيَّة الأمريكيَّة.

xlviii. مصر الصَّغيرة منطقة حقيقيَّة في جنوبي ولاية إلينوي. في مناظرات انتخابات الرِّئاسة الأمريكيَّة في عام 1858 بين إبراهام لينكن وستيڤن دوجلاس، أشارَ دوجلاس إلى جنوبي إلينوي باسم «مصر»، جزئيًّا لأن الولاية كانت متمسِّكةً بقوَّةٍ بممارسة العبوديَّة، ولو أن بعض المصادر يقول إن الاسم كان معروفًا من قبل ذلك. تقول نظريَّة أخرى إن الاسم يرجع إلى الشَّبه بين تضاريس المنطقة ودلتا النِّيل. أطلقَ بُناة البلدة عليها اسم القاهرة في عام 1818.

xlix. لقَّب سيسرو هيرودوت بأبي التَّاريخ، أمَّا منتقدوه فأشاروا إليه بأبي الأكاذيب، أبرزهم لوقيان السميساطي. وُجِّه بعض الانتقادات إلى ما عدَّه أصحابها تحيُّزًا لجنسيَّاتٍ معيَّنة أو ضدها، لكن أكثره انصبَّ على الحكايات المبالغ فيها التي دوَّنها هيرودوت باعتبارها حقيقةً، مثل وجود نوعٍ من النَّمل بحجم الثَّعلب في بلاد فارس.

l. هيرودوت، «التَّواريخ»، الجزء الثَّاني، الفصل 89: «لا يُعطى المحنِّطين جثث زوجات الوُجهاء والنِّسوة صاحبات الجمال الرَّائع والسُّمعة الرَّفيعة مباشرةً، ولكن بعد ثلاثة أو أربعة أيام من وفاتهن، وهذا لصدِّ المحنِّطين عن جماعهن، إذ قيلَ إن أحدهم ضُبِطَ في أثناء جماعه جثَّة امرأةٍ طازجة، وتبرَّأ منه زُملاء المهنة». (ترجمة ألفرد دنيس جدلي، جامعة هارڤارد، 1920).

li. عُرِضَ مسلسل *M*A*S*H* بين عامَي 1972 و1983، ودارَت أحداثه عن مستشفى متنقِّل تابع للجيش الأمريكي في كوريا.

lii. عُرِضَ المسلسل الكوميدي *The Dick Van Dyke Show* بين عامَي 1961 و1966، وهو من أوائل مسلسلات كوميديا الموقف.

liii. عُرِضَ المسلسل الكوميدي *I Love Lucy* بين عامَي 1951 و1957، وما زالَ يُعاد عرضه على التليفزيون الأمريكي حتى الآن.

liv. كما سيتَّضح لاحقًا، هذا چاكِل، والاسم تحريف للفظة Jackal الإنجليزيَّة، أي «ابن آوى». چاكل هو أنوبيس، إله الجنازات والتَّحنيط في الميثولوچيا المصريَّة، الذي يقود الأرواح عبر أرض الظِّلال إلى حيث يَحكُم عليها أوزوريس. يُصوَّر أنوبيس عادةً كابن آوى أسود كثيف الذَّيل، أو رجلٍ أسود له رأس كلب أو ابن آوى. أمَّا هاري هوديني فهو بالطَّبع أشهر ساحرٍ استعراضي وفنَّان هرب في القرن العشرين، وتعليق چاكل هو إعادة صياغةٍ لتعليقٍ شهير للسناتور لويد بنستن، ألقاه في مناظرةٍ في عام 1988، عندما قال السناتور دان كوايل إنه يتمتَّع بخبرةٍ في العمل بالكُنجرس تُعادِل خبرة چاك كنيدي عند ترشحه للرِّئاسة، فردَّ بنستن: «أيها السناتور، لقد خدمتُ مع چاك كنيدي، وعرفتُ چاك كنيدي. چاك كنيدي كان صديقي. وأنت أيها السناتور لست چاك كنيدي». منذ ذلك الحين كُرِّرَت العبارة في الثَّقافة الأمريكيَّة وحُوكِيَت وقيسَ عليها مئات المرَّات.

lv. يأخذ آيبس، بالإنجليزيَّة Ibis، اسم طائر أبي منجل الذي قدَّسه المصريُّون القُدماء باعتباره رمزًا لتحوت، المقترن بالقمر والعلوم، التي تضمَّنت الكتابة والرِّياضيَّات والقياسات وحساب الوقت. في النُّقوش المصريَّة المتأخِّرة يظهر تحوت عادةً بصورة رجلٍ برأس أبي منجل يُمارِس الكتابة.

lvi. لم نجد مصادر عربيَّة موثوقة تُؤكِّد قسم المسلمين بلحية النَّبي. عند سؤال المؤلِّف عن مصدره أجابَ بأنه لجأ إلى ترجمة إدوارد پاويس ماثرز لـ«ألف ليلة وليلة»، التي اعتمدَ فيها على التَّرجمة الفرنسيَّة لچوزف شارل ماردروس، وأضافَ إليها المستشرق الفرنسي الكثير من الأحداث والتَّفاصيل من خياله. قال جايمان إنه اكتشفَ ذلك بعد عدَّة سنوات من صدور الرِّواية.

lvii. تُلقَّب مدينة أوبار المفقودة، أو إرم، بأطلانطس الصَّحراء، وهو الاسم الذي أطلقَه عليها توماس إدوارد لورنس (لورنس العرب). اكتشفَت أوبار في تسعينيَّات القرن الماضي بعثةٌ ضمَّت عالم الآثار الدكتور يوريس زارينش، وفي لقاءٍ في عام 1996 سُئِلَ زارينش إن كانوا قد عثروا على أوبار، فأجابَ: «يرتبط بهذه الكلمة الكثير من الالتباس. إذا نظرت إلى النُّصوص الكلاسيَّة والمصادر التَّاريخيَّة العربيَّة، فستجد أن أوبار تُشير إلى منطقةٍ وشعب، وليس إلى مدينةٍ معيَّنة، وهو ما يُغفِله النَّاس دائمًا. يتَّضح هذا تمامًا في خريطة بطليموس المرسومة للمنطقة في القرن الثَّاني، التي

تقول بحروفٍ كبيرة: Iobaritae، وهو ما يُوضِّحه بطليموس في النَّص المصاحب للخريطة. أمَّا التَّصوير الرومنسي لأوبار وتحويلها إلى مدينةٍ فلم يَحدُث إلَّا مع ترجمات العصور الوُسطى المتأخِّرة لـ«ألف ليلة وليلة»، أي في القرن الرَّابع عشر أو الخامس عشر. على أن البعثة عثَرت على مدينةٍ بالفعل، قد تكون إرم ذات العماد.

lviii. منذ عرضه في عام 1946، أصبحَ فيلم *It's a Wonderful Life* للمخرج فرانك كابرا من أشهر أفلام الكريسماس وأكثرها مشاهدةً في وقت الأعياد.

lix. في عام 1996 عُثِرَ على هيكلٍ عظمي في بُحيرة والولا في مدينة كنويك بواشنطن. كان الهيكل العظمي، الذي عُرِفَ باسم رجل كنويك، سليمًا إلى حدٍّ كبير، وعند فحصه لاحظَ عُلماء الأنثروبولوجيا أنه يفتقر إلى الكثير من المعالم المميَّزة لسُكَّان أمريكا الأصليِّين، وإن احتوى على بعض المعالم القوقازيَّة. دلَّ التَّأريخ بالكربون المشع أن عُمر الهيكل العظمي تسعة آلاف عامٍ تقريبًا، وقادَت الأدلَّة إلى نظريَّةٍ مفادها أن الهيكل العظمي لرجلٍ من العصر الحجري لا يُشبِه في عصرنا الحالي من الشُّعوب كلِّها إلَّا الآينو، السُّكَّان الأصليِّين لجزيرة هوكايدو في شمال اليابان. من ناحيةٍ أخرى، يقول عُلماء كثيرون إن العيِّنة أصغر من أن يُبَتّ عن طريقها في مسألة وجود الآينو في أمريكا قديمًا.

lx. الأدلَّة على وجود البولينيزيِّين -وهُم مجموعة إثنيَّة لُغويَّة تنتمي إلى جُزر المثلَّث البولينيزي في المحيط الهادي- في كاليفورنيا قليلة وحولها خلاف، وإن دفعَ بعض العُلماء بوجود روابط لُغويَّة وأثريَّة بين البولينيزيِّين وشعب التشوماش الذي كان يَسكُن تلك الأنحاء طوال أحد عشر ألف عام.

lxi. تَذكُر ميثولوجيا قبيلة الهوبي وسيطةً بين الإله والنَّاس اسمها المرأة العنكبوت، تسبَّبت في نموِّ قصبةٍ جوفاء (نفق) في سماء عالمٍ سابقٍ يقع تحت الأرض، امتدَّ إلى عالمنا في منطقة الأخدود العظيم، الممتدَّة من أريزونا وحتى ساحل كاليفورنيا، ومن النَّفق خرجَ أهل العالم السَّابق الصَّالحون، أي شعب الهوبي، إلى عالمنا هذا، تاركين الطُّوفان يُغرِق العالم السَّابق ويُدمِّره.

lxii. في عام 499 بعد الميلاد، وصفَ المبشِّر البوذي هوي شِن بلدًا باسم فوسانج يَبعُد عشرين ألف لي (ميل صيني) شرق الصين، وهو ما يضع ذلك البلد إمَّا على ساحل أمريكا الغربي أو في كولمبيا البريطانيَّة. لم تَعُد نظريَّة وجود الصينيِّين في أمريكا تُؤخَذ بجدِّيَّة بعد بداية القرن العشرين، ولا يُوجَد دليل مادِّي عليها.

lxiii. زعمَ المؤرِّخ الفرنسي برتران دارجنتريه في كتابه ***History of Brittany*** (1582) أن الباسكيِّين والبريطون والنورمان وصلوا إلى نيوفندلاند

ومارَسوا صيد الحيتان هناك «قبل أيِّ شعبٍ آخر»، وهو ما زعمَه في عام 1647، قائلًا إن في أثناء صيدهم الحيتانَ في شمالي المحيط الأطلنطي، اكتشفَ الباسكيُّون الفرنسيُّون أمريكا الشَّماليَّة قبل مئة عامٍ من كولمبس.

lxiv. قادَ اكتشاف آثارٍ للتَّبغ والكاكاو في بعض المُمياوات المصريَّة إلى افتراض أن التُّجَّار المصريِّين زاروا الأمريكتَيْن قبل آلاف السِّنين.

lxv. حكمَت الملكة آن إنجلترا بين عامَي 1702 و1714، وعلى الرغم من قِصر عهدها فقد شهدَ رعايةً للفنون والآداب والعلوم، وبدأ خلاله بناء قصر بلنم وقلعة هاوارد، ليشتهر البناء على طرازها المعماري ويظل شائعًا بعد وفاتها بسنواتٍ طويلة. انتشرَت المنازل المبنيَّة على طراز الملكة آن في أمريكا بين عامَي 1876 و1915. أمَّا عائلة آدمز فترجع إلى رسوم تشارلز آدمز الكرتون الشَّهيرة، التي نُشِرَت بدايةً من عام 1938 وحتى وفاته في عام 1988، وإن لم تُعطَ العائلة اسمًا إلَّا عند عرض مسلسل *The Addams Family* في عام 1964، ولم تكن العائلة مقيمةً في منزلٍ على طراز الملكة آن، بل على الطِّراز القوطي.

lxvi. يُقال إن ميثرا وُلِدَ في الخامس والعشرين من ديسمبر، وشهدَ مولده كهنة الموغان والرُّعاة. كانت الميثرائيَّة منتشرةً قبل خمسمئة عامٍ من ميلاد المسيح، وكانت أشدَّ الدِّيانات معارضةً لانتشار المسيحيَّة.

lxvii. في عام 1991 غيَّرت سلسلة الأطعمة السَّريعة اسمها من Kentucky Fried Chicken إلى KFC، وهو القرار الذي قيلَ إنه راجع جزئيًّا إلى رغبة الشَّركة في إزالة الوصمة المقترنة بكلمة «مقلي» في عصرٍ زادَ فيه الإقبال على الطَّعام الصحِّي، وجزئيًّا إلى رغبتها في إضافة المزيد من الأطعمة إلى قائمتها. على الرغم من ذلك، سرعان ما ظهرَت أساطير حضريَّة عن إجبار الحكومة الشَّركة على حذف كلمة «دجاج» من اسمها لأنها تُقدِّم دجاجًا متحوِّرًا معدَّلًا بالهندسة الوراثيَّة، وانتشرَت تلك الأساطير لدرجة أن الشَّركة أصدرَت بيان نفيٍ مفصَّلًا.

lxviii. يُشير سويني هنا إلى تقديم الرُّهبان المسيحيَّة لأيرلندا قبل القرن الخامس، فعلى عكس الاعتقاد الشَّائع، لم يُقدِّم القدِّيس باتريك المسيحيَّة لأيرلندا، التي وُجِدَت فيها الأديرة من قبل وصوله في القرن الخامس.

lxix. كتبَت كاثرين كنيكوت ديڤز *The Little Drummer Boy* في عام 1941 مستعينةً بلحنٍ من الفُلكلور التشيكي، ومنذ الخمسينيَّات صارَت الأغنيَّة من أشهر أغاني الكريسماس.

lxx. لأودِن في حكاياته شريكان متكرِّران هما لوكي وثور، وكان لوكي معروفًا بكونه المخادع المحتال، الذي يُوقِعه مكره هو ورفاقه في المتاعب.

استخدام الأربعاء صيغة الماضي يُوحي بأن الشَّريك الذي يتكلَّم عنه هو ثور، الذي نعرف أنه انتحرَ قبل ثمانين عامًا.

lxxi. البشريُّ بور هو أبو أودِن، ومن ذرِّيَّة عملاق الصَّقيع يمير، وهو ما يعني أن اسم إمرسن بورسن ليس اسمًا غير معتادٍ لأودِن، لأنه تحريف لـ-Ymir's-son Bor's-son، أي «ابن يمير ابن بور».

lxxii. يأخذ البار اسمه من مقولةٍ شهيرة للرَّئيس الأمريكي هاري ترومان، وضعَها على لافتةٍ في المكتب البيضاوي: The Buck Stops Here، بمعنى أن على الرَّئيس اتِّخاذ القرارات وتحمُّل عواقبها بدلًا من إلقاء اللَّوم passing the buck على الغير.

lxxiii. سيَّارة خياليَّة صنعَها شخص خيالي. Wendt اسم ألماني يُشير إلى أصل هينزلمان الكولوني.

lxxiv. الهينزلمان روح منزليَّة من فُلكلور كولونيا الألمانيَّة. تقول الحكايات إن الهينزلمان يُؤدِّي عمل أهل البلدة جميعًا وهُم نيام ليلًا، وهو ما يُتيح لهم وفرةً من الكسل.

lxxv. انتشرَت مقولة هينزلمان بعد نشر الرِّواية، لدرجة أن متاجر الكُتب في أنحاء أمريكا -لا سيَّما تلك التي تُعاني مشكلاتٍ ماليَّة- اتَّخذت المقولة شعارًا.

lxxvi. كتبَ فيلكس برنارد وريتشرد ب. سميث *Winter Wonderland* في عام 1934، ورغم أن لا ذِكر فيها للأعياد فقد أصبحَت من أشهر أغاني الكريسماس.

lxxvii. قامَ «البيتلز» ببطولة فيلم *Help!* في عام 1965، ويبدأ الفيلم بالأغنيَّة التي تحمل العنوان نفسه.

lxxviii. يُقال لشبه جزيرة مشيجن العُليا Upper Peninsula اختصارًا UP، التي تُنطَق Yoopie.

lxxix. يعني هينزلمان مسلسل *Beverly Hills 90210*. كان عرض المسلسلات الأخرى -*Dallas* و*Dynasty* و*Beverly Hills* و*Hawaii Five-O*- قد انتهى بحلول عام 1991، أمَّا *90210* فلم يكن على الهواء عندما كان هينزلمان يمتلك تليفزيونًا.

lxxx. سجَّلت پاتسي كلاين *Why Can't He Be You* في عام 1962. إذا استمعت إليها فستجد في كلماتها وصفًا ينطبق على الإله عديم الاسم.

lxxxi. القصَّة من كتاب *Forty Years a Gambler on the Mississippi* لچورچ دڤول. حازَ كندا بيل چونز سُمعةً انتشرَت في أنحاء نهر المسيسيپي عن كونه أفضل لاعب ثلاث ورقات.

lxxxii. سوما كلمة سنسكريتيَّة بمعنى «يستقطِر» أو «يستخلِص»، وهو شراب مذكور في كتاب الڤيدا الهندوسي، مقترن بالخلود والنُّور، عادةً يشربه

البشر لكنه يُعَدُّ شرابًا للآلهة أيضًا. لم يستطِع الباحثون تحديد النَّبات الذي يُستخلَص منه الشَّراب، والذي قد يكون القنَّب أو نوعًا من الفطر. أطلق ألدوس هكسلي الاسم في روايته «عالم جديد شُجاع» على مخدِّر تستخدمه الحكومة للسَّيطرة على الشَّعب.

lxxxiii. يُقال في التَّقاليد الأوربيَّة الجامعة بين السِّحر والطِّب إن أحجار العُقبان aetites أو hollow geodes تُساعِد في الولادة وتسكين الألم، ولكن لا تُوجَد أدلَّة على وجود ذلك الاعتقاد في ميثولوجيا سُكَّان أمريكا الأصليِّين.

lxxxiv. چني كرتِن شخصيَّة خياليَّة من قصَّة جايمان القصيرة ***Wall: A Prologue*** المنشورة في عام 1999.

lxxxv. إشارة إلى أغنيَّة *San Francisco* لسكوت ماكنزي، المعروفة أيضًا باسم *Be Sure to Wear Flowers in Your Hair*، وسجَّلها ماكنزي في عام 1967.

lxxxvi. إيستر أو أوستر أو أوستارا كانت ربَّة نورديَّة وچرمانيَّة للرَّبيع والخصوبة والميلاد من جديد، وصديقةً للأطفال جميعًا. في كتابه ***The Reckoning of Time*** دوَّن القدِّيس بيدا أن خلال شهر Ēosturmōnaþ (إبريل حاليًّا) اعتادَ الأنجلوسكسونيُّون إقامة الاحتفالات على شرف أوستر، ثم بدأت تلك الاحتفالات تقلُّ وتختفي مع انتشار المسيحيَّة والاحتفال بقيامة المسيح.

lxxxvii. تطوَّرت كلمة Easter الإنجليزيَّة المعاصرة من كلمةٍ إنجليزيَّة قديمة تظهر عادةً في صيغة Ēastrun. مع انتشار المسيحيَّة في أوربا اتَّخذ الاحتفال سالف الذِّكر صبغةً مسيحيَّة، وإن ظلَّ معروفًا في اللاتينيَّة واليونانيَّة باسم Pascha، وهي كلمة مستمدَّة من الأراميَّة كانت تُشير في الأصل إلى عيد الفصح اليهودي. منذ خمسينيَّات القرن الأوَّل بدأ بولس الرَّسول يستخدم الكلمة إشارةً إلى موت المسيح وقيامته. الحوار الدَّائر في هذا المشهد من الرِّواية يأتي بتفسيرٍ آخر مبني على تعدُّد معاني كلمة rise -شروق الشَّمس والنُّهوض (من الموت)- والخلط بين كلمتَي sun بمعنى الشَّمس وson بمعنى ابن (الرَّب).

lxxxviii. تنويع على القصَّة التي حكاها البارون مونشهاوزن خلال رحلةٍ إلى روسيا عن البوق الفرنسي الذي يملكه خادمه، ووردَت في «مغامرات البارون مونشهاوزن المدهشة» لرودلف إريش راسپه. في النَّص الإنجليزي استخدمَ هينزلمان تعبير nearly had kittens، بمعنى «كادَت تلد قُطيطات»، وهو تعبير يرجع إلى اعتقادٍ خُرافي في العصور الوُسطى، أنه إذا فزعَت امرأة بشدَّة فستلد قِططًا صغيرةً.

lxxxix. هياسنث (هياكنث) أيضًا اسم بطل من الميثولوچيا الإغريقيَّة.

xc. وفقًا للسجلّات الرّسميَّة، وُلِدَت الأرملة پاريس باسم ماري كاثرين لاڤو في عام 1801، وكانت من أشهر مَن مارَسوا ما أصبحَ معروفًا باسم ڤودو نيو أورلينز. بعد وفاة زوجها چاك (أو سانتياجو) پاريس، تزوّجت كريستوف دومينيك دوميني دو جلاپيو. وقيلَ إنهما أنجَبا خمسة عشر ولدًا، منهم فتاة حملَت أيضًا اسم ماري لاڤو، وأحيانًا استخدمَت اسم پاريس، وكانت أيضًا من أشهر ممارسي الڤودو. وجدَ الباحثون الفصل بين الأساطير والتّاريخ في ما يتعلّق بحياة ماري الأم وماري الابنة مستحيلًا.

xci. مَن يُفكِّر فيهم شادو هنا لم يكونوا متشرِّدين hobos بالمعنى المعاصر، بل عُمّال رحّالة سافَروا في أنحاء أمريكا في سنوات الكساد العظيم بحثًا عن عمالةٍ مؤقّتة، وبالفعل طوَّروا لُغةً مصوَّرةً سرِّيَّةً يُخبر بها بعضهم بعضًا بأماكنِ توافر الطَّعام والمبيت والعمل وما إلى ذلك.

xcii. عُرِضَ مسلسل الجاسوسيَّة *The Man from U.N.C.L.E*. بين عامَي 1964 و1986، ويظهر فيه مدخل مقر المنظَّمة السرِّيَّة في محل ترزي.

xciii. الهاتف الحذاء (والمحفظة، والمنديل، والنظّارة، وغيرها) من المعالم الطَّريفة لمسلسل الجاسوسيَّة الكوميدي *Get Smart*، الذي بدأ عرضه في عام 1965.

xciv. يعني التَّعبير السُّوقي back teeth are floating، إشارةً إلى الحاجة الشَّديدة إلى التَّبوُّل، امتلاء الجسد بالبول تمامًا لدرجة أن أسنان المرء الخلفيَّة تطفو فيه.

xcv. ويساكِدچاك هو الإله الخالق في ميثولوچيا شعب الكري. وفقًا لـ«موسوعة الآلهة القديمة»، يظهر ويساكِدچاك عادةً بهيئة ذئبٍ أو موظ، وأحيانًا يتَّخذ هيئةً بشريَّة، ويُعرَف بقُدرته على التَّنكُّر وحكي القصص، وبجوعه أيضًا، ومن ثمَّ يشترك في عدَّة خصائص مع إلهٍ محتال آخَر هو أنانسي.

xcvi. چون تشاپمان (1774-1845) رائد أمريكي كانَ أوَّل من زرعَ أشجار التُّفّاح في ولايات پنسلڤانيا وأوهايو وإنديانا وإلينوي وڤرچينيا الغربيَّة، وإقليم أونتاريو الكندي. أصبحَ تشاپمان أسطورةً أمريكيَّةً حيَّةً، وعُرِفَ باسم چوني آپلسيد، أي «چوني بذرة التُّفّاح».

xcvii. يُعيد الأربعاء هنا صياغة مقولةٍ من فيلم *The Man Who Shot Liberty Valance* للمخرج چون فورد: «عندما تُصبِح الأسطورة حقيقةً اطبع الأسطورة».

xcviii. عند هذه الجُملة كتبَ جايمان لنفسه في مخطوطته ملاحظةً تقول: «عمليَّة كتابة الخيال عمليَّة تنقل من بديلٍ إلى بديل، من احتمالٍ إلى احتمال. تتبلوَر الأشياء وتتحوَّل إلى واقع، إلى يقين، تُصبِح حقيقيَّة. أمّا حبسة

الكاتب -إن كان لذلك الوحش وجود- فهي بالنّسبة إليّ لحظة حيرة مجمّدة في الزّمن. هل الأفضل أن أرسل شادو لتناوُل العشاء عند مارجريت أم عند -مثلًا- ميل؟ يُمكنني أن أفعل أشياء طبيعيّة أكثر في المنزل، وأشياء غرائبيّة أكثر وأعطي المزيد من الحبكة في المطعم؟ وماذا عن العاصفة؟ والأربعاء؟ بإمكاني أن أرى نهاية الكتاب رؤيةً خافتةً، كأنني أمشي في وادٍ من الضّباب متحسّسًا طريقي. الطّريق الذي جئتُ منه واضح، والطّريق الذي ما زالَ عليّ سلوكه غريب ومظلم».

.xcix يبدو أن هذا طعام للثّعابين، وهو ما يُوحي بأن مَن يُحاوِل الأربعاء تجنيدها هي ميدوسا، الجُرجونة الشّهيرة في الأساطير الإغريقيّة، التي لها شعر من الثّعابين وتُحوِّل الكائنات إلى حجرٍ إذا رأت وجهها.

.c تقول الأساطير إن الآلهة الألبانيّة عديدة ومعادية للبشر. استولَت على ألبانيا القديمة الإمبراطوريّة الرومانيّة، ثم البلغار في القرن التّاسع، ثم الإمبراطوريّة العثمانيّة في القرن الخامس عشر، وربما أدّى هذا إلى فقدان الكثير من المعلومات عن الميثولوچيا الألبانيّة.

.ci هؤلاء الخمس كيتسون (المفرد كيتسونِه)، أرواح ثعالب يابانيّة تملك القُدرة على تغيير هيئتها، وتتمتّع بحياةٍ طويلة وذكاءٍ شديد.

.cii الآيات الواردة هنا من سِفر نشيد الأنشاد (نُسخة الملك چيمس)، ولم ترِد في الكتاب المقدّس بهذا التّرتيب.

.ciii تحريف من الفتى التّقني لأغنيّة *Material Girl* لمادونا.

.civ بخلاف كونه اسم المغنيّة الشّهيرة، «مادونا» أيضًا اسم مريم العذراء بالإيطاليّة، ويُستخدَم للإشارة إلى النّساء صاحبات المقام الرّفيع.

.cv حكاية أخرى للبارون مونشهاوزن.

.cvi من أطعمة الناڤاهو الشّائعة، الخُبز المحمّر في الزّيت أو الدُّهن، الذي نشأ لديهم خلال «المسيرة الطّويلة» في عام 1864، عندما أجبرَتهم الحكومة الأمريكيّة على مغادرة أراضيهم في أريزونا مشيًا إلى نيو مكسيكو، وأعطتهم مؤنًا من الدّقيق والسُّكّر والملح.

.cvii من أشهر مسلسلات كوميديا الموقف الأمريكيّة *Cheers* الذي بدأ عرضه في عام 1982. الحلقة التي رآها شادو هي الحلقة الخامسة من الموسم الأوّل.

.cviii يقول بعض النّظريّات إن جسرًا من اليابسة وُجِدَ في مضيق بيرنج (بين سيبيريا وأمريكا الشّماليّة) قبل ثلاثين ألف إلى أحد عشر ألف عام، وقد نتج عن انخفاضٍ في منسوب البحر النّاتج عن انخفاض حرارة الكوكب.

cix. بين عامَي 1871 و1873 اختفى أحد عشر شخصًا اختفاءً غامضًا من البلدة، وبعد التَّحقيق اكتشفت السُّلطات أن عائلة بندر، التي تُدير خانًا صغيرًا في المنطقة، عائلة من القتلة المتسلسلين، الذين كانوا يستخدمون المطرقة للفتك بضحاياهم من وراء ستار.

cx. كانت لويز بروكس (1906-1985) أيقونة للشَّابَّات المتحرِّرات ورمزًا جنسيًّا في العشرينيَّات والثَّلاثينيَّات، وقد وُلِدت ببلدة تشريڤايل.

cxi. مَن يعنيها تشرنوبوج هي ميديا ابنة إيبتيس ملك كولخيس وحفيدة هيليوس إله الشَّمس في الأساطير الإغريقيَّة.

cxii. كانت أوپسالا أكبر مركز للعبادة الوثنيَّة في السويد، حيث أقامَ الڤيكينج معبدًا ضمَّ تماثيل عظيمةً لثور وأودِن وفريا، وهو ما أكَّدته كتابات الآيلسندي سنوري سترلسن في القرن الثَّالث عشر.

cxiii. وفقًا للأكاديميِّين، النُّطق السَّليم للاسم هو «لُك-كِي»، وإن اصطُلِحَ على نُطقه «لو-كي». لوكي من أبرز الآلهة في الميثولوجيا النورديَّة، وهو إله محتال، يتحالَف أحيانًا مع الآلهة الأخرى ويعمل ضدها أحيانًا. يقول أكثر المصادر إنه ابن لعملاق، ويُطلَق عليه لقب أمير الأكاذيب، ويُقال إنه والد الذِّئب فنرير، والتِّنِّين نيدهوج، وهِل سيِّدة العالم السُّفلي. مقدَّر للوكي أن يقود قُوَّات ميدجارد -عالم البشر- في معركة راجناروك التي ستدور رحاها في نهاية العالم.

cxiv. من قصيدة «المجيء الثَّاني» *The Second Coming* التي كتبَها ويليَم بتلر ييتس عشيَّة حرب الاستقلال الأيرلندي في عام 1919.

cxv. في الأساطير النورديَّة، أُعطِيَ أوَّل رجلٍ وامرأةٍ بشريَّيْن اسمَي آسك، أي «شجرة المُرَّان» Ash، وإمبلا، أي «شجرة الدِّردار» Elm.

cxvi. راتاتُسكر، سنجاب يعيش على شجرة العالم في الميثولوچيا النورديَّة.

cxvii. في الفُلكلور اليهودي، الجولِم كائن بلا روح، عادةً من الصَّلصال، تُدَبُّ فيه الحياة بالطُّقوس والتَّعاويذ. أشهر أساطير الجولم هي أسطورة جولِم پراج، الذي بثَّ فيه الحياة الحاخام يهوذا لوف بن بتسلئيل ليحمي أهل الجِتو اليهودي ببراج في القرن السَّادس عشر. حسب القصص، تُنقَش على جبهة الجولِم كلمة «الحقيقة» بالعبريَّة.

cxviii. يظهر المحاربان التَّوأمان في ميثولوچيا شعب الپوبلو، واسماهما ماسِوي (الأخ الكبير) وأويوييوي (الأخ الصَّغير).

cxix. تحكي قصَّة عن رهانٍ على خاتم ذهبي بين لوكي والقزم بروك، وإذا خسرَ لوكي الرِّهان فللقزم أن يأخذ رأسَه. خسرَ لوكي الرِّهان بالفعل، وعندما أتى القزم لأخذ رأسه قال لوكي إن الرَّأس له، أمَّا العُنق فلا، فأخذَ القزم خيطًا

وسكِّينًا وأرادَ أن يصنعَ ثقوبًا في شفتَي لوكي، لكن السكِّين لم يَثقُبهما. عندئذٍ قال القزم إنه يتمنَّى لو أن معه مخراز أخيه، وما إن قالها حتى ظهرَ المخراز وثقبَ شفتَي لوكي، فخاطَهما بروك معًا وقطعَ طرف الخيط.

cxx. غالبًا هذا شا وو جينغ، راهب بوذي يظهر في رواية *Journey to the West* لوينج تشنجن، التي تحكي عن سُلالة مينج. حسب القصَّة الأسطوريَّة، كان شا وو جينغ قادمًا في الجنَّة أوَّلًا، ثم نفاه إمبراطور اليشب إلى الأرض.

cxxi. الخنزير والقرد والغول، رفاق شا وو جينغ في رحلته.

cxxii. هكذا يُوصَف راما، وهو تجسُّد للإله الهندوسي ڤيشنو.

cxxiii. عاشَ أنتينوس، الشاب اليوناني ومحبوب الإمبراطور هادريان، بين عامَي 111 و130 بعد الميلاد حسب التقديرات. بعد موته، ألَّه هادريان أنتينوس وأطلقَ اسمه على مدينة.

cxxiv. للوكي قصَّة مع الهَدال، تسبَّب فيها في موت بالدور عن طريق إقناع هوثر، ابن أودِن الأعمى، بقذفه بالهَدال، وهو الشيء الوحيد الذي قيلَ إنه يَقتُل بالدور. كان بالدور ليستطيع الخروج من هِل (الجحيم) إذا بكَته الكائنات الحيَّة جميعًا، ولمَّا سمعَ لوكي بذلك اتَّخذ هيئة امرأةٍ وأصبحَ الاستثناء الوحيد ولم يبكِ بالدور.

cxxv. غنَّى توم جونز *What's New, Pussycat?* في عام 1966، وأصبحَت الأغنيَّة الافتتاحيَّة لفيلم بالعنوان نفسه من تأليف وودي آلن.

cxxvi. على الأرجح، *The Way You Look Tonight* أوَّل أغنيَّة سجَّلها فرِد إستير، وعُرِفَت من فيلم *Swing Time* إنتاج عام 1936.

cxxvii. سجَّلت نينا سيمون *Don't Let Me Be Understood* في عام 1966، وغنَّتها بعدها فرقة The Animals محققةً نجاحًا هائلًا.

cxxviii. يلعب المؤلِّف هنا على المعاني المختلفة لكلمة trunk، ومنها الخُرطوم أو جذع الشجرة أو الصُّندوق أو حقيبة (صندوق) السيَّارة. في البداية كانت الكلمة تعني الخُرطوم في حُلم شادو، ثم أدركَ لمَّا رأى صندوق أنانسي أن المقصود صندوق السيَّارة الخُردة في ليكسايد.

cxxix. فيلم *Houdini* من إنتاج عام 1953.

cxxx. الكوبِلد، مثل البراوني، روح أو جنِّي منزلي من الفُلكلور الألماني. الهينزلمان اسم أُطلِقَ تحديدًا على كوبِلد قيلَ إنه سكنَ قلعة هودموهلن، وقد كتبَ عنه الأخوان جريم. عادةً يتَّخذ الكوبِلد هيئة طفلٍ مغروزة فيه السَّكاكين التي قتلَته.

cxxxi. كتبَ جايمان لنفسه ملاحظةً عند هذه العبارة في المخطوطة: «أحتاجُ هنا إلى ترجمة *وداعًا يا بالدور يا ولدي* بالآيسلنديَّة». في الرِّواية القصيرة *Monarch of the Glen*، التي تقع أحداثها بعد عامين من هذه الرِّواية، يكتشف شادو أن اسمه في شهادة الميلاد بالدر مون، وأنه وُلِدَ في النرويج. في الأساطير النورديَّة، بالدر أو بالدور ابن أودِن وفريج، وهو إله الشَّمس والنُّور.

# المترجم

**هشام فهمي** مُترجم وكاتب مصري، وُلد بمدينة الإسكندريَّة في عام 1983، ودرسَ الأدب الإنجليزي والتَّرجمة بجامعة الإسكندريَّة، وعملَ مُترجمًا وكاتبًا في بعض الصُّحف والمجلَّات. ترجمَ فهمي عددًا كبيرًا من الأعمال العالميَّة، ينتمي أكثرها إلى أدب الفانتازيا. من أعماله المترجَمة: «الهوبيت» لتولكين، «أغنيَّة الجليد والنار» و«تنِّين الجليد» لجورج ر. ر. مارتن، «فرانكنشتاين» لماري شِلي، «المحيط في نهاية الدَّرب» و«كورالاين» و«الحقيقة كهف في الجبال السَّوداء» لنيل جايمان، «سرسي» لمادلين ميلر، «حرب الفن» لستيڤن پرسفيلد، «الناجي الأخير» و«أغنية المهد» لتشاك پولانك، «أضواء الشَّمال» لفيليپ پولمان، «300» لفرانك ميلر، و«نداء الوحش» لپاتريك نِس.

# شُكر من المُترجم

في كتابٍ كهذا، لا بُدَّ من لجوء المُترجم إلى ذوي الخبرة في مجالاتهم المختلفة، لِيضمن الوصول إلى أفضل وأيسر شرحٍ للمناطق الشّائكة، والحصول على المعلومات العديدة التي يجهلها في شتّى الموضوعات، وهو ما يُساعِده على إنتاج أفضل ترجمةٍ ممكنة.

تتعدَّد الثّقافات الواردة في هذه الرِّواية، وتتعدَّد الألفاظ من اللُّغات المعبِّرة عنها. الشُّكر للمُترجم يوسف نبيل على مساعدته في اللُّغة الروسيَّة، والمُترجم الأستاذ سمير جريس على مساعدته في اللُّغة الألمانيَّة، والمُترجم محمد الفولي على مساعدته في اللُّغة الإسبانيَّة، والمُترجمة يارا المصري على مساعدتها في اللُّغة الصينيَّة، ولندى الشبراوي على مساعدتها في اللُّغة الفرنسيَّة. وشُكر خاص لمحمود عبد الرازق جمعة، الذي أمطرتُه بالأسئلة كلَّ يومٍ تقريبًا طيلة العمل على التَّرجمة، وساعدَني على تجاوُز بعضِ المشكلات في الصِّياغة، ومدَّني بعددٍ أكبر من أن أتذكَّره من المعلومات في اللُّغة العربيَّة.

شُكرًا للمُترجم أحمد سمير سعد على مساعدته في المعلومات العلميَّة، وللأستاذ شريف الصيفي على مساعدته في كلِّ ما يتعلَّق بمصر القديمة في الرِّواية.

شُكر خاص للسَّاحر المأمون محمد، الذي أفادَني كثيرًا في ما يتعلَّق بخدع العُملة في الرِّواية، لاختيار التَّرجمة المناسبة لأسمائها.

الشُّكر أيضًا لكلٍّ من وليد فكري، والمُترجم أحمد المعيني، والدكتور سامح حنَّا.

ساعدَتني ترجمة محمد أ. جمال لكتاب «أساطير إسكندنافيَّة» لنيل جايمان، وترجمة جنَّة عادل لكتاب «حكايات الأجداد» لهيتاكونانو لاخك، عن أساطير وفلكلور سُكَّان أمريكا الأصليِّين، فشُكرًا لهما.

أكثر الأساطير الواردة في الرِّواية أساطير نورديَّة، ولذا كان بيني وبين فلورنسيا بواشو دوكلسكي، الباحثة في الميثولوچيا النورديَّة وتاريخ الڤيكينج في رايكاڤيك، خطٌّ مفتوح من الأسئلة عن الأساطير والفلكلور واللُّغات الإسكندناڤيَّة. خالص شُكري وامتناني.

ولا تكتمل القائمة دون هالة، التي لم تكفَّ يومًا طيلة شهور العمل عن دعمي وتشجيعي. كلُّ الشُّكر وكلُّ المحبَّة.

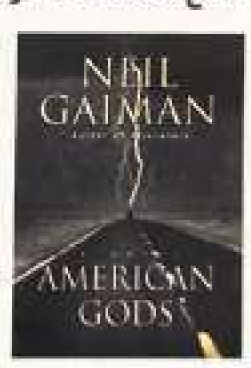

سور
الأزبكية


عصير
الكتب

# آلهة أمريكيّة

بعد قضائه ثلاث سنواتٍ وراء القضبان منتظرًا اليوم السحري الذي يخرج فيه ويرجع إلى بيته، لم يعُد شادو رجلًا يخشى الغد، ولا يريد إلَّا أن يعود إلى أحضان زوجته لورا التي يهيم بها حبًّا، ويبدأ معها حياةً جديدة. لكن قبل أيامٍ معدودة من إطلاق سراحه تموت لورا في حادثة سيارة، والآن وقد انقلب عالمه وتبدَّدت أحلامه ولم يعُد يبالي بشيء، يقبل شادو العمل لحساب رجلٍ قابله مصادفةً على متن طائرة، رجلٍ غريب صاحب شخصيّة ساحرة والعديد من الحيل، يدعو نفسه بالاسم المستعار «المستر أربعاء»، ويبدو أنه يعرف عن شادو أكثر مما يعرفه شادو عن نفسه.

مع عمله حارسًا شخصيًا وسائقًا وساعيًا عند الأربعاء، يجد شادو الحياة أكثر إثارةً وخطورةً مما تخيّل يومًا، ويأخذه عمله في رحلةٍ ظلاميّة ملأى بالعجائب في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، حيث يلتقي حشدًا من الشخصيات الغريبة التي تتشابك مصايرها مع مصيره في مواجهة العاصفة المقبلة.




تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb